مشاهير قادة الاسلام

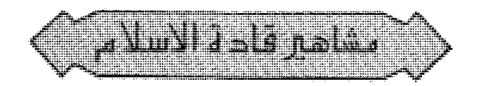
قادة الحروب الصليبية
(المسلمون)



تأليف

بسّام العسليّ

المكتبة التاريخية



قــادة الحروب الصليبية (المسلمون)

١ ـ صلاح الدين الأيوبي
٢ ـ المظفر قطز
٣ ـ الظاهر بيبرس
٤ ـ الحاجب المنصور
٥ ـ المعتمد وابن تاشفين

تأليف
بسام العسلي

دار النفائس

قادة الحروب الصليبية (المسلمون)

تأليف: بسام العسلي

الطبعة الأولى: 1433هـ ـ 2012م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 487 - 6

Publisher 



DAR AN-NAFAES

Printing-Publishing-distribution

Verdun Str - Safiedine bldg.

P.o.Box 14-5152

Zip code 1105-2020

Fax: 009611 861367

Tel: 00961 1 803152 - 810194.

Beirut - Lebanon



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14

الرمز البريدي: 2020 ـ 1105

فاكس: 009611861367

هاتف: 803152 ـ 009611810194

بيروت ـ لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com

Web Site: WWW.alnafaes.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

صدرت عن «دار النفائس» في منتصف عقد السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٥) مجموعة «مشاهير قادة الإسلام» والتي ضمت سِيرَ وأعمال نخبة من قادة الجهاد في سبيل الله، الذين أمكن لهم بجهدهم وجهادهم ضم مشرق العالم القديم إلى مغربه؛ ما بين سمرقند وطشقند وحدود الصين؛ حتى أقصى المغرب وشبه الجزيرة الأندلسية؛ خلال فترة زمنية لم تتجاوز الثمانية عقود من عمر الزمن.

كان ذلك إنجازاً رائعاً لم يعرف تاريخ الشعوب نظيراً له ولا مثيلاً من قبل، على ما عرفه العالم القديم من امبراطوريات ودول عظمى تشكلت معظمها على ضفاف البحر الأبيض المتوسط. واحتفظ هذا الإنجاز بقيمته وأهميته رغم تقادم الزمن وتطور المجتمعات الإنسانية. وكان تطور فن الحرب؛ في كل مستويات الحرب؛ (الاستراتيجية والعمليات والتكتيك)، بمثابة مدرسة متكاملة لتعلم فنّ الحرب واستخلاص دروسه وتجاربه التي تجاوزت ميادين القتال لتشمل بناء مجتمعات ما بعد الحرب، وللوصول إلى بلوغ كل أهداف الحرب.

وهكذا صدرت مجموعة «مشاهير قادة الإسلام» في منتصف عقد السبعينات، ولم يكن إصدارها في تلك الفترة أمراً غريباً ولا مباغتاً؛ ذلك أن الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة (نكسة ٥ حزيران ـ يونيو ١٩٦٧) وكذلك الحرب العربية ـ الإسرائيلية الرابعة (العاشر من رمضان/ السادس من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٦٧) قد ألقت بكل ثقلها على كاهل الإنسان العربي، والإنسان المسلم بصورة عامة وشاملة. فقد أكدت نتائج الحربين خطورة التحديات التي يجابهها المجتمع العربي والوطن العربي، وهو المجتمع الذي يمتلك القدرة على إحباط كل التحديات الوافدة مع كل ريح تعصف من الغرب أو من الشرق. وبالتالي؛ لم يكن مباغتاً أن تظهر دراسات وأبحاث في بغداد والقاهرة؛ تركزت بمجموعها على بعث الموروث العربي ـ الإسلامي من رقاده؛ وأن تنقله من بطون كتب التاريخ إلى نور الدنيا في الأزمنة الحديثة، غير أن تنوع وتباين القراءات

والاجتهادات قي قراءة التجارب التاريخية، وتحليلها العلمي؛ واستخلاص دروسها الثمينة؛ خلال تلك الحقبة؛ لم يكن إلا البرهان الواضح على مدى حاجة الإنسان العربي للعودة إلى جذوره الأصيلة؛ وورود المناهل التي لا تنضب من معين الحياة المتدفقة والمتجددة باستمرار؛ والتي ستبقى في تياراتها المتواصلة؛ وفي قوة اندفاعها، خالدة ما دامت هناك حياة على أرض الدنيا. ولئن كانت هذه الظاهرة هي تعبير واضح وتأكيد ثابت على استجابة الإنسان العربي في مواجهة التحديات استجابة صحيحة؛ فقد كانت استجابة الشعب العربي والإسلامي، وفي كل الأقطار العربية والإسلامية؛ مثيرة للتقدير والإعجاب، إذ أن استقبال الشعب العربي لما يعيده إلى أمجاده التي هو جدير بها؛ بقدر ما هي جديرة به، وكل الأجيال المؤمنة بحقها في الوجود والعيش الكريم، تحت شمس الدنيا التي لم تدخل أشعتها الدفء إلا إلى قلوب المؤمنين الصادقين. وهنا، وعلى الرغم من أن مؤلف (المجموعة) ودار النشر التي أصدرتها قد انطلق عملهما من هذه القاعدة المشتركة التي تشكلت في ظروفها المكانية والزمنية؛ إلا أنهما كانت لهما أيضاً خصوصيتهما في تحقيق الهدف. فقد كان مؤلف المجموعة وصاحب دار النشر؛ ينتميان إلى مدرسة فكرية عسكرية واحدة، فهما من مدرسة (الكلية العسكرية ـ في حمص) وهما من ضباط الحرس القديم ـ ما قبل العام ١٩٦٣. ولهذا كان الحافز الأول لهذا العمل، بالنسبة لكليهما هو أننا نعمل في جيش عربي وفي محيط إسلامي، ونحن نجهل الكثير الكثير من تاريخنا العسكري. فقد فرضت برامج التعليم دراسة معارك أوستريليتز وفالمي، وتاريخ الحروب النابوليونية والحروب الأهلية الأمريكية وغيرها، وكنا لا نعرف إلا النذر اليسير من القادسية واليرموك وفتح الفتوح ونهاوند. أما عن قادة الفتوح، وأما عن تلك الإبداعات التي سارت في ركاب المجاهدين في سبيل الله، وما اقترن بها من جهد وتضحيات لا تحيط بها إحاطة؛ ولا يمكن مقارنتها بأشباه لها، لأنها أعمال أكبر من كل تقويم. إنها الإعجاز، وهل يحيط بالإعجاز إلا من خلق الإعجاز؟.

وهكذا، ومن خلال الإرادة الصلبة والرغبة الصادقة في العمل من أجل الحقيقة بدأ العمل، وكان واضحاً أن ما يوجه إلى فن الحرب الإسلامي من سهام حاقدة مسمومة، من نماذجها القول بأن ما يقال عن المعجزة العربية ـ الإسلامية إنما هو عمل حدث في غفلة من الزمن؟ أو القول بأن الامبراطوريتين

العالميتين الكبيرتين آنذاك، الفرس والروم، كانتا مستنزفتين بالحروب المتتالية، كل ضد الآخر؛ مما ساعد العرب المسلمين على تدميرهما، أو الأهم من ذلك أن تاريخ فن الحرب الإسلامي لا يستحق جهد الدراسة لأنه لا قيمة لدروسه القديمة والتي تجاوزها الزمن بتأثير التقانة والحداثة والتطور في تنظيم الجيوش؛ وإدارة الحروب. ولا ريب أن كل باحث عربي أو مسلم حرص على بذل جهد صادق للتعريف بفن الحرب الإسلامي، قد جابهته صدمات كبيرة هدفها الواضح، والمعلن بأشكال مختلفة، هو بتر الشعب العربي، والشعوب الإسلامية من جذورها، وحرمانها من الورود إلى مناهل عزتها وكرامتها وحقها بالحياة الحرة التي تمتلك مفاتيحها. وجاءت الحروب الحديثة ضد ما يسمى الإرهاب لتجعل من تاريخ العرب المسلمين، تاريخاً للإرهاب يجب عدم التعرض له إلا من قبل الاختصاصيين من خبراء التاريخ في عواصم العالم الكبرى.

من هنا، كان الهدف الواضح للعمل هو نشر المعرفة لأمجاد هذه الأمة؛ التي كانت خير أمة أخرجت للناس، عبر التعريف بصانعي الأحداث وقادة الحروب مع مراعاة المبادئ التالية:

أولاً: التعرض لسيرة القائد، موضوع البحث؛ بصورة وجيزة وفي حدود ما يتعلق بدور العامل الفردي بممارسة القيادة.

ثانياً: إبراز دور العقيدة الإسلامية في تكوين الفكر العسكري الإسلامي وصياغة المذهب العسكري.. إلى جانب التطبيقات العملية في ميادين القتال من خلال التجارب الأولى (الغزوات والبعوث والسرايا والحروب في زمن النبوة).

ثالثاً: إظهار دور القيادة الاستراتيجية (الخليفة أو أمير المؤمنين) في إدارة الحرب، وهو دور يتطابق كل التطابق مع دور القيادة الاستراتيجية في الأزمنة الحديثة: الاحتفاظ باحتياط استراتيجي من القوات، تنسيق التعاون بين الجبهات القتالية المختلفة والمتباعدة.

رابعاً: إبراز كفاءة قادة الحروب؛ قادة الأعمال القتالية على مسارح العمليات أو قادة الجيوش، إذ كان لكل مسرح من مسارح العمليات خصوصيته. فأبناء الصحارى من جيوش المجاهدين في سبيل الله لم تكن لهم معرفة بخوض غمار الحروب ضد جيوش نظامية كبرى تمتلك خبرات قتالية واسعة، ولديها جيوش ضخمة وقدرات قتالية كبيرة. كذلك لم تكن لديهم خبرة بالقتال في المدن، ولا معرفة بفنون الحصار، ولا في قتال الجبال والمناطق الصعبة، ولا في بلاد

معادية. . . إلخ. وكان لكل موقف من هذه المواقف صعوباته وتحدياته؛ فكان لزاماً التعرض لإبداعات القادة في التعامل مع كل ما هو غير متوقع من مباغتات الحروب.

خامساً: وكان لزاماً أيضاً على الباحث التعرض لدور المجاهدين في سبيل الله وانضباطهم الرائع، واستجاباتهم الصحيحة لأوامر قادتهم ونواهيهم، وقدرتهم العالية على تحمل المشاق والصعوبات في مسيرهم الطويل وفي قتالهم الصعب وفي الصبر على البلاء وفي تصميمهم الثابت لانتزاع النصر.

سادساً: وكان لا بد أيضاً من دور العامل المعنوي، أو (الإيمان) في تحقيق هدف الحرب وانتزاع النصر، إذ كانت كل حروب الفتح، أو معظمها على الأقل، في غير صالح المسلمين من حيث القدرة العددية وتوافر الوسائط القتالية والإمداد الإداري. . . إلخ، ولكنهم، رغم كل الصعوبات، كان وضوح الهدف، وكفاءة القيادة والثقة بنصر الله كافية لقلب موازين القوى التقليدية، فكانت نسبة المسلمين العددية بالمقارنة مع أعدائهم هي في حدود واحد إلى عشرة في معظم المعارك.

لم يبق بعد ذلك إلا اختيار وسيلة إيصال المعرفة إلى القارئ الكريم.

ففي عصر التقانة؛ وفي زمن الانصراف عن القراءة إلى الوسائل السمعية البصرية الحديثة، كان اللجوء إلى اختيار حجم الكتيبات هو الخيار الأفضل، وقد ظهر أن هذا الخيار كان مناسباً ـ بفضل من الله ـ.

ذلك؛ ولئن كان الهدف الأول لمجموعة (مشاهير قادة الإسلام) هو نشر المعرفة بتاريخ فن الحرب الإسلامي، مما يرفد جند الوطن العربي والشعوب الإسلامية بما هو ضروري لتطوير الفكر العسكري، إلا أن حدود المعرفة قد تجاوزت حدود العسكر لتصل إلى كل إنسان عربي ومسلم يبحث عن جذوره، ولم يكن مباغتاً بالتالي ان تصل ردود فعل كثيرة، ولله الحمد، ومن شرائح اجتماعية متنوعة لتؤكد في كل مرة على أهمية وفائدة تقسيم محتوى كل كتيب إلى قسمين:

١ ـ السيرة القيادية.

٢ ـ تحليل الأعمال القتالية والدروس المستخلصة استراتيجياً وقتالياً وتكتيكياً.

وكان البرهان الواضح هو الصعود المستمر لانتشار مجموعة (مشاهير قادة الإسلام) على امتداد ٣٥ عاماً من عمر الزمن (١٩٧٥ ـ ٢٠١١)، غير أن حقيقة ثانية رافقت هذا الانتشار، وهو تجمع عدد كبير من المقترحات من أقطار عربية كثيرة تطلب إعادة إصدار هذه المجموعة في إطار مجلدات حفظاً لها؛ ورغبة في

التعامل مع مضمونها في إطار عمل موسوعي، وعلى هدى هذه المقترحات البناءة والصادقة سار الإنجاز العملي الذي أخذت به دار النشر (دار النفائس).

* * *

وهذا هو المجلد الثالث الذي يصدر تحت عنوان «قادة الحروب الصليبية (المسلمون)»، والحديث عن الحروب الصليبية أو حروب الفرنجة، كما يسميها العرب المسلمون، يدفعنا إلى التساؤل: هل بدأت الحملات الصليبية (القديمة) بوصول جيوش الفرنجة إلى بلاد الشام واحتلالها بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)؟ ثم هل انتهت الحروب الصليبية بطرد بقايا الفرنج من عكا وإبعادهم عن أرض العرب في سورية سنة (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)؟ لا بدَّ من القول إن أحداث التاريخ ـ كبيرها وحتى صغيرها ـ لا تتشكل في فراغ، وإنما هي بمثابة نسيج متصل لا انقطاع فيه عبر تيار الزمن؛ حيث تتراكم العوامل المكونة للحدث لتنفجر في لحظة محددة تلتقي فيها مكونات الحدث بالقائد التاريخي في وقت بالغ الأهمية؛ إذ أن انفجار الحدث قبل ذاك الوقت أو بعده هو العامل الحاسم لإحباط الحدث وفشله. وهناك من المؤرخين من يعتبر أن معركة (ملازكرد) شرق بلاد الروم آنذاك، سنة (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م)، والتي انتصر فيها المسلمون (الأتراك) على جيش الروم هو الذي فجر الحرب الصليبية، إذ كان الغرب (أوروبا) يعتبر أن وجود بلاد الروم ـ البيزنطيين ـ هو الذي يحمي الغرب من خطر اجتياح المسلمين لبلادهم، فلما هزم الروم على أرض (ملازكرد ـ مانزيكرت) أدرك حكام الغرب، والقيادة الدينية (في روما) أن الوقت حان للقيام بعمل حاسم لإيقاف هذا الخطر، ولكن؛ وكما أكدت المصادر التاريخية بمجموعها الشرقية منها والغربية؛ أن الحرب بين العرب المسلمين وأعداء الإسلام لم تتوقف منذ أيام الفتوح الأولى لبلاد الشام والعراق والمغرب والأندلس، وأن ما اصطلح عليه، لدى مؤرخي الأندلس باسم (حروب الاسترداد ـ لاروكونكيستا) لإخراج المسلمين من الأندلس قد بدأت منذ نزل المسلمون على أرض الجزيرة، جنوب الأندلس، وهذه الحروب سارت على خط بياني صاعد، وتحرك من أقصى شمال غرب الأندلس وجبالها الوعرة إلى مناطق القلاع (قشتالة) في وسط الأندلس كان يلقى الدعم باستمرار من الكنيسة في روما؛ ومن المتطوعين من البلاد الأوروبية، حتى إذا ما كانت سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) وسقطت طليطلة في قبضة القشتاليين كان ذلك هو موعد تطوير الدعم الأوروبي (لملك قشتالة) وهو

الموعد لبدء العمل للتحرك نحو إعلان الحرب الصليبية الشاملة، فتم عقد مجمع بياكنزا، في شمال إيطاليا، سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م)، والذي انتهى بإعلان الحرب الصليبية والتحضير لغزو بلاد المشرق، واحتلال مدينة القدس.

واستمر الصراع المرير على أرض بلاد الشام، وعلى أرض الأندلس، فكانت معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) والتي انتصر فيها المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين على جموع الفرنج في إسبانيا هي نقطة مضيئة في مسيرة الصراع، ثم كانت معركة حطين الخالده (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وتحرير القدس، ثم جاءت معركة عين جالوت (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) والتي تم فيها، ولأول مرة، تدمير جيش للمغول (التتار) لتشكل بدورها حلقات في سلسلة الحروب المستمرة.

كذلك، وكما بدأت الحملات الصليبية قبل وصول جيوش الفرنج إلى أنطاكية؛ ثم استيلائهم على بيت المقدس، لم تصل تلك الحملات نهايتها بطرد الفرنج من عكا؛ وكان من أكثر الشواهد أهمية على استقرار الحروب، نجاح الأتراك العثمانيين بالاستيلاء على عاصمة الروم (البيزنطيين) سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) وإخراج بقايا المسلمين من الأندلس سنة (١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م) وهم المعروفون لدى الغربيين باسم (الموريسك - أو المغاربة). وإذن ليس من الغريب؛ ولا المباغت؛ قراءة الممارسات الغربية (الأوروبية) مع العرب والمسلمين في ليل الاستعمار الأوروبي، على أنها استطالات للحملات الصليبية القديمة (وفي طليعتها زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي)، وكذلك أيضاً قراءة الممارسات التي تشهدها بلاد القوقاز (الشيشان بخاصة) وأفغانستان وباكستان والعراق وفلسطين والسودان تحت ما يعرف باسم (مكافحة الإرهاب) أو (الحرب ضد الإرهاب)، حيث تبدو القواسم المشتركة بين الحملات القديمة والحروب الحديثة واضحة كل الوضوح، وأولها: استنزاف الوطن العربي والشعوب الإسلامية؛ وتمزيقها؛ وتهديد أمنها واستباحتها.

قد يكون من المحال؛ على ضوء ما تقدم، إحصاء أو حصر أو الإحاطة بمجموعة كبيرة جداً من القادة ذوي الكفاءات القتالية الرائعة في وسط كل الشعب العربي والشعوب الإسلامية؛ فحرب كهذه الحرب طويلة الأجل، والتي لا يحدها تاريخ؛ ولا تحيط بها حدود جغرافية، وإن صلاح الدين الأيوبي، والمظفر قطز؛ والمعتمد وابن تاشفين والحاجب المنصور وسواهم؛ لا يشكلون أكثر من فصيل من فصائل الأرتال المتدفقة مع تيار التاريخ؛ على تراب كل الأوطان العربية والإسلامية.

لقد شكلت هذه الحروب المستمرة مدرسة حقيقية لتعلم الحرب ولتطوير فن الحرب، أفادت منها كل الأطراف المتحاربة، وكان العرب والمسلمون هم الطرف الذي أفاد بدرجة أكبر من دروس هذه الحروب؛ وكان من أول هذه الدروس المحافظة على هدف الحرب والالتزام بفضائل الحروب المتوارثة، وذات الأصول والجذور الثابتة بالتعاليم والأوامر والنواهي الإسلامية، وكان ذلك عاملاً حاسماً في تجنب الوقوع في مستنقعات الممارسات الصليبية المنحرفة؛ ومن ذلك تجنب إجراء المذابح؛ والامتناع عن ممارسة الأعمال الانتقامية رداً على المذابح التي كان يمارسها الفرنج بصورة مستمرة، وبذلك أمكن الارتفاع بالعنف حتى أقصى درجات ارتفاعه؛ في ميادين القتال، وإيقاف العنف، وأعمال القتال، فور بلوغ هدف الحرب، وهذا ما ظهر واضحاً في حطين؛ وعند استعادة المسجد الأقصى؛ وكذلك عند فتح القسطنطينية؛ مما أذهل قادة جيوش الغرب، ومؤرخيهم وكتابهم، إذ قد يكون من الصعب على غير الإنسان المؤمن الحقيقي والمسلم الصادق الارتفاع بمشاعره، في وسط ضباب الحرب، إلى ما فوق الأحقاد والكراهية والمشاعر الوحشية ـ الغريزية ـ المنحطة.

كانت الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ كمثل ما كانت عليه حروب المسلمين وأعدائهم على أرض الأندلس؛ بحيث يحرص الباحثون والمؤرخون على تصنيفها في قائمة الحروب طويلة الأمد، رغم كل اختلاف وتباين في أمد هذه الحروب؛ وتباعد مسارح عملياتها. فقد بوغت المسلمون في بلاد الشام عندما تقدمت جحافهم من الشمال على امتداد السواحل للوصول إلى القدس، وكانت المباغتة الأكبر تلك الوحشية المتطرفة في إجراء المذابح بالمسلمين بعد الانتصار في كل معركة، كما حدث في أنطاكية وفي القدس بصورة خاصة، ونتيجة لذلك ظهر واضحاً أن هذه الحرب طويلة الأمد لا بد لها من أن تتطور على مراحل:

كانت مرحلتها الأولى الالتزام بالدفاع، وهي أصعب المراحل، والتي اضطلع بقيادة تحولاتها نور الدين الزنكي (١١٤٦ ـ ١١٧٣هـ)، فحرر الرها وطارد الفرنج في كل مكان بحيث أرغمهم على البقاء في حدود ما تم لهم احتلاله من قلاع ومدن الشريط الساحلي، ووحد بلاد الشام ومصر بإرسال حملة بقيادة أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب، وعمل على إزالة الحكم الفاطمي من مصر. وعندما وقعت معركة حطين، كان ذلك برهاناً على انتهاء المرحلة الأولى (مرحلة الدفع الاستراتيجي) والانتقال إلى المرحلة الثانية

(التوازن الاستراتيجي) والتي تعرضت لانتكاسات كثيرة غير أنها لم تتراجع، حتى إذا ما تم تدمير المغول (التتار) في عين جالوت، كان ذلك إيذاناً بانتقال المسلمين إلى المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التفوق الاستراتيجي الذي أنهى الوجود الصليبي على أرض الشام بجولة واحدة؛ وابتلعت أرض الشام كل رموز الحملات الصليبية. وجاء الحكم العثماني في أعقاب ذلك، فنقل الحرب إلى أوروبا، بلغاريا واليونان وبلاد الصرب وحصار فيينا (١٠٩٥هـ/ ١٦٨٣م)، وبذلك استطاعت بلاد الشام وبلاد المغرب معرفة الأمن والسلام والاستقرار رغم مشاركة كل الأقطار العربية والإسلامية في حروب الدولة العثمانية.

وهكذا انتهت الحملات الصليبية القديمة، لكن الحرب بقيت مستمرة.

احتفظت القيادة الاستراتيجية، الممثلة بسلطة دار الخلافة في العهد العباسي، بقدرتها على تنظيم الحروب، وتوجيه الجيوش، وضمان الدعم للقوات، كمثل ما كانت عليه القيادة الاستراتيجية في عهدي الخلفاء الراشدين والعصر الأموي، غير أن تطور الأعمال القتالية على مسارح العمليات؛ والتبدل السريع في المواقف، نظراً لاتصال خطوط التماس وتقاربها؛ قد ضمن لقادة مسارح العلميات الزنكيين ثم الأيوبيين، ومن بعدهم المماليك، وكذلك قادة الأندلس، قدراً كبيراً من حرية العمل العسكري؛ وما يقترن بهذا العمل من الإدارة والسيطرة على البلاد في محيط مسارح العمليات، بلاد الشام والعراق وفلسطين والأردن، وكان الاحتياط الاستراتيجي في عمق البلاد، من خوارزم وخراسان وبلاد فارس وحتى أقصى المغرب، هو الذي يدعم ميادين القتال بالقدرة القتالية، كمثل ما كانت تقدمه شعوب الغرب (أوروبا) لجيوش الحملات الصليبية؛ وهذا مما سمح باستمرار الحروب طويلة الأمد. **كذلك: تميزت الأعمال القتالية على مسارح العمليات؛ بظهور وتشكل نوعين متميزين من الصراع المسلح في إطار حوار الإرادات المتصارعة.**

أولهما: الحروب الدفاعية والاعتماد على القلاع والتحصينات لحماية القوات؛ وللانطلاق منها لممارسة الأعمال الهجومية، وكانت هذه الاستراتيجية الدفاعية هي التي استخدمتها جيوش الفرنج.

وكانت ثانيتهما: **الحروب الهجومية، أو حروب الحركة**، التي استخدمتها قوات المسلمين؛ والتي كانت تظهر في أعمال الحصار والعزل، واستخدام المجانيق ووسائط الاقتحام وأعمال التخريب لإسقاط الأسوار أو إحداث ثغرات

لاختراقها. وقد كانت الدروس المستخلصة من هذه التجارب القتالية هي البرهان على قدرة العرب والمسلمين لممارسة أساليب حرب الحركة وتفوقهم في ذلك، والتأكيد على أن الأعمال الهجومية تبقى هي الأعمال التي تضمن الوصول إلى النصر الحاسم، فيما كانت الدروس المستخلصة من الحروب الدفاعية للفرنج هي التأكيد على أن قدرة الدفاع تبقى محدودة؛ ولكنها لا تستطيع تحقيق النصر الحاسم، وأن قدرة الدفاع تتراجع كلما تعاظمت القدرة الهجومية. فبعد معركة حطين وفتح بيت المقدس، تساقطت معظم قلاع بلاد الشام بسرعة مذهلة كمثل ما تتساقط الثمار اليانعة، وهو ما ظهر تأكيده أيضاً بعد الانتصار الحاسم للمسلمين في عين جالوت، عندما تم سحق جيش التتار على يد المماليك.

وقد يكون من الطبيعي في مثل هذا النوع من الحروب؛ أن يكون لحرب المعلومات (الجاسوسية والاستطلاع بالقوة) أهمية كبرى في إدارة الحرب.

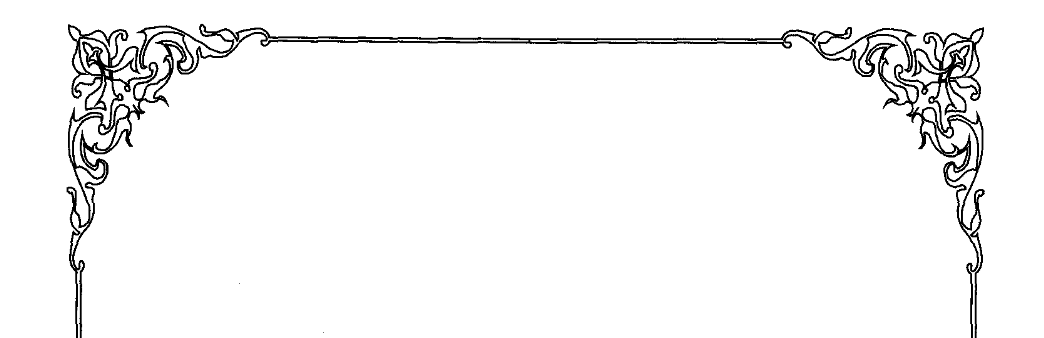
ولقد كان حصول المسلمين في الشمال، على أسير من كبار أمراء وقادة الفرنج، وكذلك إرسال قوة من الفرسان إلى صفورية، لتدمير قوة من فرسان الفرنج، من طائفة الأسبتارية المتطرفة، قبل معركة حطين، وكذلك عزل جيوش التتار وقياداتها (القائد كتبغا) عن الاتصال بالمسلمين بعد مغادرة هذه الجيوش دمشق في طريقها إلى فلسطين، بحيث سارت قوات التتار مغمضة العينين إلى الكمين الذي نصبه لها قطز على الجبال المحيطة بعين جالوت، بحيث تحولت المعركة إلى مذبحة أُبيد فيها معظم جند التتار، وكان ذلك لأول مرة، وكذلك نجاح الفرنج في مباغتة جيش نور الدين زنكي قريباً من حمص، إنما هي من بعض الشواهد الكثيرة التي أكدت أهمية المعلومات، واستخدامها الصحيح في المكان المناسب والوقت المناسب، للحصول على النصر الحاسم.

يظهر من خلال ذلك أن التحولات الكبرى في تطور الأعمال القتالية على مسارح العمليات، والانتقال من الدفاع الاستراتيجي إلى التوازن الاستراتيجي، ثم الانتقال من هذا التوازن إلى موقع التفوق الاستراتيجي؛ لم يكن إلا ثمرة جهود مضنية، وتضحيات كبيرة، وإبداعات فكرية وتنظيمية رائعة، وأعمال قتالية مريرة وقاسية شكلت بمجموعها ركاماً ضخماً من الانتصارات التي جاءت المعارك الحاسمة (حطين وعين جالوت وسواها) لتتربع على عرشها.

لقد كان ذلك يعني ببساطة أن الحملات الصليبية التي تتابعت وتلاحقت للدفاع عن المشروع الصليبي في بلاد الشام، طول مائتي سنة تقريباً، وذلك

للمحافظة على بقاء هذا المشروع ووجوده؛ قد شكلت نوعاً من حروب الاستنزاف. ومن المعروف أن الحملة الصليبية الثانية قد جاءت بعد طرد الفرنج من الرها، على يد نور الدين زنكي وجيشه، وأن ملوك الفرنج (ريتشارد قلب الأسد ـ ملك إنكلترا، ولويس التاسع ـ ملك فرنسا، وامبراطور ألمانيا) قد نظموا وتولوا قيادة حملة الملوك في أعقاب طرد الفرنج من القدس بعد هزيمتهم في حطين، ولكن تراب بلاد الشام كان يلتهم وبسرعة القدرة القتالية للفرنج، فيما كان الخزّان الهائل للقدرة الإسلامية في العمق الاستراتيجي للشعوب الإسلامة قادراً باستمرار لرفد ميادين القتال بأكبر مما يستجيب لحروب الاستنزاف. **وفي حرب طويلة الأمد، قد يكون من المحال أن تسير الأعمال القتالية على خط بياني متصاعد باستمرار، أو على حال من التوتر الشديد والمستمر؛ بل كان لا بد من توقع التحرك على خط بياني متصاعد أحياناً، وفي انحسار وتدهور في أحيان أخرى**، ما يقترن ذلك بموازين القوى، كمثل وصول حملات جديدة؛ أو ظهور تحديات مثيرة، كمثل ارتكاب مذابح بالمسلمين، أو كمثل تنظيم أمير الكرك (رينالد دو شاتيون) إغارة على البلاد المقدسة عبر حملة سارت في البحر الأحمر للهجوم على مكة المكرمة والمدينة المنوّرة، وقد سمح هذا التناوب بين الشدة والاسترخاء لإقامة علاقات بين تنظيمات متطرفة من الجانبين (الأسبتارية والداوية والتيوتون من جانب الفرنج، والإسماعيلية الموصوفون من مراجع الفرنج بالقتلة أسّاسّان، أو الحشاشين). وكان هذا الاتصال عاملاً مفيداً للفرنج عندما كانوا يدافعون عن القلاع ويقدمون الخدمات للحجاج الفرنج ويدعمون الاستيطان، ولكن ما إن تم طرد هؤلاء من بلاد الشام، حتى صدر عن ملك فرنسا وكنيسة روما، تشريع بمطاردة هؤلاء المرتدين الذين أصبحوا إرهابيين ومارقين عن تعاليم الكنيسة لتأثرهم بالحركات الباطنية الإسلامية.

وتبقى هناك دروس متنوعة وكثيرة وذات فائدة تتجاوز حدود كل تقويم، ولم تكن هذه الدروس خاصة بتجارب الحروب الصليبية، وإنما كانت مفيدة لتطوير فن الحرب قدر ما تقدمه من فائدة لكل العلوم الإنسانية الاجتماعية والسياسية والفكرية ـ العقائدية ـ، والأهم من ذلك كله هو أن الحرب لا تستطيع أبداً إخضاع الشعوب ولا تبديل قناعاتهم، وأن كل النتائج التي تحققها القوة لا بد لها من الزوال بعد تغير الأحوال، وتبقى إرادة الشعوب أقوى من كل التحديات، طالما بقيت استجابات هذه الشعوب أقوى من التحديات.



البَـابُ الأوّل

صلاح الدين الأيوبي

(٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ/١١٣٧ ـ ١١٩٣م)



الوجيز في حياة القائد صلاح الدين الأيوبي

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٥٣٢	١١٣٧	ولادة صلاح الدين بتكريت العراق
٥٥٩	١١٦٤	صلاح الدين يرافق عمه «شيركوه» في الحملة لإخضاع مصر
٥٦٢	١١٦٧	صلاح الدين يرافق عمه «شيركوه» في حملته الثانية ويستقر في مصر
٥٦٤	١١٦٩	صلاح الدين يتولى زمام الأمور في مصر بعد وفاة عمه شيركوه
٥٦٥	١١٦٩	صلاح الدين ينتصر على الصليبيين في دمياط
٥٦٧	١١٧١	صلاح الدين (الملك الناصر) يقضي على الفاطميين
٥٦٨	١١٧٢	هجوم صلاح الدين على الكرك
٥٦٩	١١٧٣	توحيد الشام مع مصر بعد وفاة نور الدين زنكي
٥٧٢	١١٧٦	تحصين القاهرة والإسكندرية
٥٧٣	١١٧٧	هزيمة صلاح الدين بالرملة
٥٧٧	١١٨١	حصار صلاح الدين لإمارة الكرك
٥٧٨	١١٨٢	الهجوم على بيروت والغور من قوات المسلمين
٥٧٩	١١٨٣	صلاح الدين يسيطر على حلب ويفتح حارم ويغزو بيسان والكرك
٥٨٣	١١٨٧	معركة حطين وفتح عكا ويافا وصيدا وجبيل وبيروت
٥٨٥	١١٨٩	الصراع العنيد حول عكا واستعادة الفرنج لها
٥٨٨	١١٩٢	الهدنة مع ريتشارد قلب الأسد وانتهاء الحملة الصليبية الثانية
٥٨٩	١١٩٣	وفاة صلاح الدين الأيوبي

الأحداث الرئيسية في الطريق إلى حطين

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٤٧٨	١٠٨٥	سقوط طليطة في الأندلس (الحروب الصليبية في المغرب)
٤٧٩	١٠٨٦	موقعة الزلاقة وانتصار المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين
٤٨٩	١٠٩٥	استيلاء الفرنج على صقلية
٤٩٢	١٠٩٧	استيلاء الفرنج على القدس (بداية الحروب الصليبية في المشرق)
٥٠٢	١١٠٨	سقوط طرابلس بيد الفرنج
٥٠٣	١١٠٩	سقوط بيروت بيد الفرنج
٥٠٤	١١١٠	سقوط صيدا بيد الفرنج وتقسيم الشام إلى إمارات صليبية، أبرزها : مملكة بيت المقدس وإمارات أنطاكية وأرمينيا ثم إقطاعات طرابلس وجبيل وطبرية وبيروت وصيدا وتبنين وقيسارية والرملة ويافا والشوبك والكرك
٥٣٩	١١٤٤	عماد الدين زنكي يحرر إمارة الرها، فيستنفر الصليبيون ملوكهم ويبدأ الإعداد للحملة الصليبية الثانية
٥٤١	١١٤٦	مصرع عماد الدين زنكي، وملك ولديه سيف الدين غازي ونور الدين زنكي
٥٤١	١١٤٦	استيلاء الفرنج على طرابلس الغرب
٥٤٣	١١٤٨	استيلاء النورمان على المهدية
٥٥٤	١١٥٩	طرد النورمان من المهدية
٥٦٢	١١٦٧	بداية ظهور صلاح الدين الأيوبي

الفَصْلُ الأولُ

صلاح الدين الأيوبي

١ ـ صلاح الدين والبداية

أ ـ الوضع العام

١ ـ معركة ملازكرد

٢ ـ سقوط طليطلة

٣ ـ الدعوة للحروب الصليبية

ب ـ الوضع الخاص

١ ـ الخلافة في بغداد

٢ ـ السلاجقة

٣ ـ الباطنية أو الإسماعيلية

٤ ـ الفاطميون

٢ ـ صلاح الدين في الطريق إلى النصر

٣ ـ الحرب المستمرة بين الهزيمة والنصر

٤ ـ صلاح الدين ووحدة المسلمين

٥ ـ حطين

٦ ـ صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

صلاح الدين ومعركة حطين

وصف الملك الفاضل ابن صلاح الأيوبي ما شاهده يوم حطين، فقال:

«كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على ما بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي. قال: فنظرت إليه، وقد علَتْه كآبة، وأربد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان. قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا وصعدوا إلى التل. فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم، صحْتُ من فرحي: هزمناهم. فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي. وفعل مثل ما فعل أولاً. وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحْتُ أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت والدي إليَّ وقال: اسكت! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة. قال: فهو يقول لي، وإذا الخيمة سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه. . . وكثر القتل والأسر، فكان مَن يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحداً، ومَن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً. وما أُصيب الفرنج، منذ خرجوا إلى الساحل، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، إلى الآن، بمثل هذه الوقعة».

(الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ٩/ ١٧٨)

١ ـ صلاح الدين والبداية

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

[المائدة/٥٤]

دخل الجنرال اللنبي[١] إلى القدس يتيه فخراً بقوة الامبراطورية البريطانية العظمى ونظر إلى القبة الشريفة وإلى ثاني الحرمين الشريفين «بيت المقدس» وجنحَ بخياله بعيداً في أعماق التاريخ، وتصور أنه وريث «بوهمند»[٢] النورماني، أو ريتشارد قلب الأسد[٣] فأطلق مقولته المشهورة التي حفظتها الأجيال المعاصرة: «**اليوم انتهت الحروب الصليبية**» مشيراً بذلك إلى عودة «الإفرنج» الجدد واستيلائهم على القدس، بعد أن حررها صلاح الدين الأيوبي عام (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م).

ودخل القائد الفرنسي غورو[٤] إلى دمشق، مزهواً بقوة الحملة الجديدة،

---

(١) **الجنرال اللنبي ـ** أدموند Allenby - Edmund ماريشال إنكليزي من مواليد «لندن» (١٨٦١ ـ ١٩٣٦م). قاتل الزولاند (١٨٨٨م) وخاض معركة السوم (١٩١٧م)، ودخل فلسطين (١٩١٨م) وعين مندورباً سامياً لبريطانيا في مصر (١٩١٩م)، وهو من رجال الاستعمار المعروفين.

(٢) **بوهمند الأول «نورماني»** Bohémoun 1 er من الأمراء النورمانديين. ولد في الفترة بين (١٠٥٢ و١٠٦٠م)، وهو ابن روبرت جيسكار، تزوج كونستانس ابنة ملك فرنسا فيليب الأول، وكان بوهمند الأول في طليعة قادة الحملة الصليبية الأولى.

(٣) **ريتشارد قلب الأسد** Richard 1 er - Coeur de lion من مواليد أكسفورد (١١٥٧ ـ ١١٩٩م) وأصبح ملكاً لإنكلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩م). مارس دوراً قيادياً بارزاً في الحملة الصليبية الثالثة، ووقع في الأسر، في قبضة دوق النمسا «ليوبولد» وذلك أثناء عودته من فلسطين، وعندما تم إطلاق سراحه بعد دفع الفدية بدأ الحرب ضد ملك فرنسا «فيليب أوغست» (١١٩٤م)، واستمر في الحرب حتى نهاية حياته حيث لقي هزيمته القاتلة أمام قصر شاتو في فرنسا .Le Chateau de Chalus

(٤) **الجنرال غورو، هنري جوزيف، أوجين** Gouraud, Henry Joseph من مواليد باريس (١٨٦٧ ـ =

وكان أول عمل له أن توجه إلى قبر صلاح الدين، ولعله طار بخياله أيضاً فتصور أنه من أحفاد «غودفروَا دو بويون» و«كندفري ـ أو ـ قندهري»[1] من قادة الحملة الصليبية الأولى، فأطلق بدوره مقولة حفظتها قلوب أبناء الشام، ونقلتها إلى العالم وأورثتها إلى الأجيال، وهي: **«لقد عدنا يا صلاح الدين»**. ونسي القائدان الاستعماريان «اللنبي وغورو» أنهما إذا افترضا بأنهما من أحفاد قدامى الفرنج «الصليبيين» فإنه لا بدَّ من وجود أحفاد أيضاً لصلاح الدين يحفظون ذكراه، ويقتدون بسيرته، ويعملون على نهجه، ويؤمنون بما كان يؤمن.

وفي الواقع، فقد كانت صورة صلاح الدين تزين بيوتات الشام القديمة، وكان رجال الشام خلال تظاهراتهم «عرضاتهم» ضد قوى الاستعمار كثيراً ما يرفعون صورة صلاح الدين، لعلهم كانوا بذلك يتحدون الذي فرضه عليهم اللنبي وغورو ومدارسهما الاستعمارية. ولعل صورة صلاح الدين، التي تم طبعها على الحجر في تلك الفترة، هي أول صورة يتم طبعها لأي قائد أو لأي إنسان، خلال فترة انتشار الطباعة في بلاد الشام.

المهم في الأمر هو أن أبناء الشام والعرب جميعاً لا يكادون يغفلون فترة عن ذكرى قائدهم العظيم حتى تأتي الحراب الأجنبية لتذكرهم بأن الحرب لا زالت مستمرة، وأن صلاح الدين الذي قادهم في أصعب فترة من تاريخهم، وانتقل بهم من نصر إلى نصر، لا زال يعيش في قلوبهم، ولا زالت أعماله ترسم السطور الأولى في ملحمة الدفاع الطويلة عن العرب والمسلمين.

وصلاح الدين الأيوبي هو يوسف بن أيوب بن شادي، أبو المظفر، ولقبه الملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من قرية «دُوَين» في شرقي أذربيجان، وهو بطن من الروادية من قبيلة الهذانية من الأكراد، ولهذا أطلق على دولتهم فيما بعد اسم «دولة الأكراد»، وربما كانت كلمة كرد تعني الذئب، وقد تعني هذه الدلالة على طبيعة بلاد الأكراد الجبلية التي كانت ملجأ للذئاب ومستقراً.

وكان الكرد يعيشون، في أوائل أمرهم، قبائل متفرقة تحت حكم أمرائها،

= ١٩٤٦م) قاد أثناء الحرب العالمية الأولى حملة الدردنيل «الفيلق الفرنسي» ثم قاد الجيش الرابع، ثم قاد قوات الاحتلال في سوريا، وأصبح الحاكم العسكري لباريس من عام (١٩٢٣م) حتى عام (١٩٣٧م).

(١) غودفروَا دو بويون، وكندفري، من قادة الحملة الصليبية الأولى.

ويظهر أنهم أفادوا من فترة اضطراب العالم الإسلامي، التي سبقت قيام الحكم الأموي، ففرضوا هيمنتهم على معظم أرض فارس (إيران) مما دفع الحجاج لتوجيه يزيد بن المهلب لحربهم، فأظهروا خضوعهم إلى أن ضعفت الدولة العباسية فعادوا للظهور، وتعاظمت قوتهم، ما حمل البويهيين (آل بويه)، الذين سيطروا على الدولة، لتوجيه الحرب ضدهم، فقاتلوهم في أماكن متعددة من سجستان وآذربيجان وديار بكر بالجزيرة الشامية، وعندما جاء السلاجقة إلى العراق قضوا على البويهيين وعلى بقية الإمارات، وخاصة في غربي الجبال الإيرانية التي أصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باسم «كردستان».

مهما كان عليه الأمر، فقد هاجر شادي، جد صلاح الدين، إلى بغداد وفرض وجوده على أمراء السلاجقة ورجال دولتهم بما كان له من قوة الشخصية، فمنحوه حكم قلعة تكريت، على الضفة اليمنى من نهر دجلة، شمالي سامراء، حيث كان أغلب سكانها من الكرد. وبعد موت شادي أصبح ابنه نجم الدين أيوب وريثه فيها، يعاونه في ذلك أخوه الأصغر شيركوه، بمعنى أسد الجبل. وولد لأيوب في تكريت هذه صلاح الدين يوسف، وذلك في عام**٥٣٢** للهجرة (١١٣٧م)، ثم ولي أيوب، والد صلاح الدين، أعمالاً للسلاجقة في بغداد والموصل ودمشق.

ونشأ صلاح الدين في دمشق، ثم دخل مع أبيه وعمه شيركوه في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، حاكم دمشق وحلب والموصل. واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر وإضعاف نفوذ الفاطميين فيها، فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين وكفاءته القيادية، وتم لشيركوه الظفر في النهاية باسم السلطان نور الدين زنكي. ولكن شيركوه ما لبث أن مات، فاختار العاضد للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين ولقبه بـ«**الملك الناصر**». وهاجم الفرنج دمياط فصدهم صلاح الدين، ثم استقل بملك مصر مع اعترافه بسيادة نور الدين. ومرض العاضد فقطع صلاح الدين خطبته وخطب للعباسيين، وانتهى بذلك أمر الفاطميين.

لم يكن طريق صلاح الدين سهلاً؛ فقد كان عليه خوض صراع مرير ضد نفوذ الفاطميين، والعمل بحزم ومهارة لتصفية مراكز القوى المضادة، ثم كان عليه التحرك بحذر في مواجهة الزنكيين، كل ذلك وسط الأخطار المحيطة بالعالم

الإسلامي في كل مكان، وإعطاء الأفضلية في كل مرحلة لجبهة من جبهات الصراع الداخلية والإسلامية والخارجية مع الفرنج، وقد كان صلاح الدين من ذلك النوع من الرجال الذين لا تفتر لهم همة ولا تهدأ لهم ثائرة إلا بتحقيق أهدافهم.

وقد حالف الحظ «صلاح الدين» ودعمه في عدد من المآزق الصعبة، فكان في ذلك نموذجاً لمصادفة الحظ ولعبة القدر التي تمارس دورها في لحظات التاريخ الحرجة. كان ذلك بصورة خاصة عندما توفي شيركوه فأفسح في ذلك المجال لصعود صلاح الدين، وكان ذلك أيضاً عند وفاة العاضد الفاطمي فأصبح الطريق ممهداً للسيطرة على الشام، وكان ذلك أيضاً عندما توفي نور الدين زنكي سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٦م)، فكان في ذلك وحدة الشام ومصر، وكان في ذلك طريق النصر.

أ ـ الوضع العام

لم تتوقف الحروب على حدود الدولة الإسلامية منذ أقام العرب المسلمون دولتهم الكبرى التي تمتد من حدود الصين شرقاً وحتى حدود فرنسا (بلاد الغال) غرباً، ومن بحر قزوين في الشمال إلى المحيط الهندي وعدن جنوباً. ورغم أن انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية قد أضعف قوة المسلمين وحرمهم من القدرة على تطوير أعمالهم الهجومية، إلا أن دولة الأمويين في الأندلس والعباسيين في بغداد قد نجحتا في المحافظة على قدرتهما القتالية، وبقيت أعمال القتال على الحدود بمثابة عمليات سبر لمعرفة قوة الأعداء المتجاورين ما بين فترة وأخرى.

وفي هذه الفترة وقعت حادثتان كان لهما أثر كبير في تطور الصراع على الحدود. الأولى: استيلاء السلاجقة المسلمين على أرمينية في معركة «ملازكرد» الشهيرة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م). والثانية: استيلاء قشتالة على طليطلة وإخراج المسلمين منها سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م). ونظراً لأهمية هذين الحدثين، فقد يكون من المناسب عرضهما بإيجاز.

١ ـ معركة ملازكرد: وهي المعركة التي تصفها المصادر الأجنبية باسم «مانزيكرت».

دفع الروم البيزنطيون قوات ضخمة في سنة (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) للهجوم على الشام مستفيدين من تحالفهم مع الفاطميين في مصر، ومن تمزق الإمارات

المستقلة وتنازعها على حدود الشام، فتوجهت قوات البيزنطيين إلى منبج ونهبتها وقتلت أهلها، وألحقت الهزيمة بقوات العرب التي جابهتها.

وفي الوقت ذاته قامت قوات الفاطميين بحصار صور، التي استنجدت بجيش دمشق الذي توجه إلى صيدا، الخاضعة للفاطميين، ما اضطر قوات الفاطميين إلى رفع الحصار عن صور، ومقابل ذلك تم رفع الحصار عن صيدا ورجع جيش دمشق، وكان هذا دافعاً للبيزنطيين من أجل تصعيد حروبهم ضد الأتراك السلاجقة الذين كانوا يتهددونهم على جبهة أرمينية، فخرج الامبراطور أرمانوس بنفسه يقود مائة ألف من الروم والفرنج والروس والبشناق «البجناق» والكرج وغيرهم بهدف استرداد أرمينية التي أصبحت تحت حكم السلاجقة المسلمين، وسلك الامبراطور البيزنطي الطريق القديم الذي اجتازه الأباطرة في حروبهم.

وكان ألب إرسلان في الشام، قرب حلب، عندما بلغه زحف قوات البيزنطيين، ولم يتمكن من جمع الجيوش لبعدها وقرب العدو، فسير الأثقال إلى همذان، وسار هو فيمن عنده، وهم خمسة عشر ألف فارس. واستطاع أرمانوس وقوات البيزنطيين سبق المسلمين إلى أرمينية، متبعاً امتداد الفرع الجنوبي للفرات الأعلى. وقام أرمانوس عندما وصل ملازكرد بتقسيم قواته، فمضى بنفسه إلى ملازكرد بينما أرسل الفرنج والكومان للاستيلاء على حصن أخلاط، الواقع على شاطئ بحيرة فان، وأرسل قوة ثالثة من الروس للإمساك بمحاور التقدم أمام أخلاط.

وكان ألب إرسلان يتقدم بسرعة دافعاً أمامه مقدمته التي اصطدمت بقوات الروس أمام أخلاط، وبعد معركة ضارية وقصيرة تم تدمير مقدمة رومانوس وتمزيق قوات الروس. ولما تقارب العسكران أرسل ألب إرسلان إلى رومانوس يطلب منه المهادنة، فأجاب رومانوس: «أنه لا هدنة إلا بالري»، بمعنى تصميم رومانوس على تدمير السلاجقة في عاصمتهم الري.

وانزعج ألب إرسلان فقال له إمامه وفقيهه، أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي: «إنك تقاتل عن دين، وعدَ اللهُ بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمهم هذا الفتح. فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون الخطباء فيها على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة». فلما كانت تلك الساعة صلى بهم ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا

سلطان يأمر وينهى. وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، ولبس البياض وقال: إن قُتلتُ فهذا كفني. وزحف إلى الروم وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه وأكثر الدعاء ثم ركب وحمل، وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى، وأُسر ملك الروم.

وحُمل أرمانوس إلى ألب إرسلان، فلما أحضِر إليه ضربه السلطان ثلاثة مقارع بيده، وقال له: «ألم أرسل إليك في الهدنة، فأبيت». فقال: «دعني من التوبيخ وافعل ما تريد». فقال ألب إرسلان: «وما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟». فقال: «أفعلُ القبيح». قال له: «فما تظن أنني أفعل بك؟». قال: «إما أن تقتلني، وإما أن تشهر بي في بلاد الإسلام. والأخرى بعيدة، وهي العفو وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك». قال له ألب: «ما عزمت على غير ذلك». ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير مسلم في بلاد الروم. واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، فأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد.. وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره إلى بلاده وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه، وشيعه السلطان ألب أرسلان فرسخاً.

وأما الروم، فلما بلغهم خبر الوقعة، وثب ميخائيل السابع، الوريث الشرعي للامبراطورية البيزنطية[1]، فاستولى على السلطة، فلما وصل أرمانوس إلى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل إلى ميخائيل بإيثار ما استقر، وطلب وساطته وسؤال السلطان في ذلك. «وجمع أرمانوس ما عنده من المال فكان مائتي ألف دينار، فأرسله إلى السلطان ألب إرسلان وطبقاً ذهباً عليه جواهر بتسعين ألف دينار وحلف له أنه لا يقدر على غير لك، ثم إن أرمانوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم»[2].

---

(١) كان أرمانوس قائداً بيزنطياً، وعندما توفي الامبراطور قسطنطين العاشر سنة (١٠٦٧م) ترك ابنه الصغير ميخائيل تحت وصاية أمه الامبراطورة إيدوسيا. وفي السنة التالية تزوجت إيدوسيا من رومانوس ديوجين، القائد الأعلى للجيش فرفعته إلى العرش. (**تاريخ الحروب الصليبية ١/ ٩٦**).

(٢) **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير، دار الكتاب اللبناني ٨٠/ ١١٠. وفي **الموسوعة الإسلامية** أنهم =

٢ ـ سقوط طليطلة: تركز الصراع في الأندلس، منذ الفتح الإسلامي (٩٣هـ/ ٧١١م) على طليطلة التي كانت عاصمة القوط قبل الفتح. وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات عديدة كانت تأتي في معظمها بتحريض من الشمال «الفرنج»، وحدثت فيها ثورات كثيرة بتأثيرات مختلفة تضافرت فيها عوامل التكوين الداخلي، حيث كان المولدون يستقرون أكثرهم في الشمال، بالإضافة إلى التحريض الخارجي، علاوة على تأثيرات الكنيسة التي كانت تعمل باستمرار لإذكاء الجهاد ضد المسلمين، الكفرة، حسب تعبير الكنيسة.

ولكن قوة الدولة الأموية أحبطت كل المحاولات الانفصالية التي كانت تتعرض لها عاصمة الشمال. ولكن ما إن زالت الدولة الأموية، وانتهى حكم الحاجب المنصور الذي استطاع أن يحفظ لشبه الجزيرة الأيبيرية وحدتها[١] حتى تقسمت الدولة الأندلسية إلى ممالك وإمارات متناحرة فيما بينها، ما أدى إلى ضعفها جميعاً، في حين كانت ممالك الشمال النصرانية تتعاظم قوة (ممالك نافار وليون وقشتالة)، وانتهى الأمر بسقوط طليطلة في قبضة ألفونس السادس، ملك قشتالة وليون، ما دفع أمير قرطبة المعتمد بن عباد إلى الاستنجاد بالمرابطين، فقدم يوسف بن تاشفين ومعه جيشه إلى الأندلس في ربيع سنة (١٠٨٦م)، وانضم إليه أمراء مالقة وغرناطة وألرية بالإضافة إلى المعتمد بن عباد. وحدثت وقعة الزلاقة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ورغم أن هذه المعركة كانت من المعارك الحاسمة، إلا أنها لم تتمكن من استعادة طليطلة أو تغيير الموقف بصورة كاملة.

وفي هذه الفترة ظهر عنصر جديد في الصراع، وهم النورمان الذين هاجموا الأندلس مرات عديدة، ثم نقلوا نشاطهم إلى البحر الأبيض المتوسط، فتمكنوا، بدعم إمارات بيزا وجنوى، من الاستيلاء على باليرمو ثم أخذوا في توسيع سيطرتهم إلى أن تمكنوا من السيطرة على صقلية (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، وبذلك ظهرت بدايات الضعف البحري في سيطرة المسلمين على المتوسط. وفي عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) استولى النورمان على مالطا، ليس ذلك فحسب، بل هاجم النورمان المهدية في تونس واستولوا عليها (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) إلى أن سيطر

= جاؤوا بأرمانوس منبطحاً Ency. de l'Islam (Art. Malazgerd) 21214 على وجهه ليضع ألب إرسلان قدمه على رقبته على العادة التركية، ولكن ابن الأثير أكثر صدقاً في روايته، وهي على ما سبق ذكره.

(١) توفي الحاجب المنصور سنة (٣٩٣هـ/ ١٠ آب ١٠٠٢م).

الموحدون على المغرب وطردوا النورمان من المهدية في سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م).

كانت الكنيسة في روما تحاول جاهدة تنظيم المقاومات وتنسيق الجهد ضد المسلمين، ولكن انشغال أوروبا بخلافاتها الداخلية، وهجمات البرابرة «النورمان» أضعف من قوة الكنيسة إلى أن وجدت في هؤلاء النورمان حليفاً قوياً تستخدمهم ضد خصومها البيزنطيين وسواهم.

وكان الانقسام بين الكنائس ذاتها من **المعوقات الأساسية التي أسهمت في تنظيم الحروب** ضد المسلمين، ولكن معركة «ملازكرد» نبهت العالم الغربي إلى ضعف الامبراطورية البيزنطية التي لم تعد قادرة على مجابهة قوات المسلمين، ثم سقطت طليطلة فكان لذلك دوي هائل في كل أنحاء أوروبا.

وخلال هذه الفترة، ظهرت شخصية كنسية قوية هي شخصية البابا إيربان الثاني[(١)] الذي كان له الدور الأساسي والحاسم في توجيه الحملات الصليبية، وتحديد واجباتها بعد أن تمكن من توحيد الكنائس تحت هيمنته. وقام بإصلاحات كبيرة، ونظم مجموعة من المؤتمرات التي انتهت بعقد مجمع كليرمونت في الفترة بين ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) و٢٨ منه سنة (١٠٩٥م).

٣ ـ الدعوة للحروب الصليبية: قام البابا إيربان الثاني بجولة على كنائس إيطاليا وفرنسا، وعقد مجمع كليرمونت، بعد مناقشة كل القضايا التي تتطلبها عملية إصلاح الكنيسة. وفي النهاية، وقف إيربان خطيباً، واستهل حديثه إلى الحضور ـ وهم ثلاثمائة رجل من كبار رجال الكنيسة ـ فحثهم على ضرورة بذل المساعدة لإخوانهم في الشرق: «**فالعالم المسيحي في الشرق التمس منه**

---

(١) **البابا إيربان الثاني Pope - Urban 11**، واسمه أودو دي لاجيري Odo - de - Lageri. ولد في شاتيون، سير مارن، فرنسا Sur - Marne Chatillon (١٠٤٢ ـ ١٠٩٩م) من أسرة نبيلة. وتلقى «أودو» تعليمه في المدرسة الكاتدرائية في ريمس، ثم أصبح قساً ثم رئيساً لشمامسة الكاتدرائية. وفي سنة (١٠٧٠م) التجأ إلى «دير كلوني» حيث نقل إلى روما، وبعد فترة وجيرة عينه البابا جريغوري السابع كاردينالاً وأسقفاً في «أوستيا»، ثم كان مندوباً للبابا بين سنتي (١٠٨٢ و١٠٨٥م) في فرنسا وألمانيا. ولما مات جريغوري (١٠٨٧م) خلفه «أودو» بعد اجتماع مجلس الكرادلة في تيراشينا Terracina عام (١٠٨٨م) وذلك باسم إيربان الثاني. وأخذ البابا في توطيد سلطته بعناد ودأب مستمرين حتى أخذت سلطته تتسع من إسبانيا وفرنسا لتشمل إيطاليا وألمانيا وبلغاريا، ولم يأت عام (١٠٩٣م) حتى ظهرت وحدة العالم المسيحي، فعمل إيربان الثاني على توجيه الدعوة لعقد مؤتمر كلوني: .358 - p.p.356 **Les popes du XI siècle**

المساعدة؛ لأن الترك مضوا في زحفهم في جوف البلاد المسيحية، وأخذوا يسيئون معاملة السكان ويدمرون مشاهدهم وأضرحتهم. غير أنه لم يتحدث فحسب عن رومانيا (بيزنطة)، بل أكد ما لبيت المقدس من قداسة خاصة، ووصف ما يعانيه الحجاج أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب. وبعد أن وصف الصورة القاتمة، وجَّه نداءه الشهير: «فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق. ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء سواء. ينبغي أن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر، وأن يباشروا عوضاً عن ذلك القتال الحق، فيؤدون ما أمر الله به أن يُعمل، وسوف يكون مرشداً وهادياً لهم، ومَن يلقَ مصرعه في المعركة تحلل من ذنوبه، وغفر الله أخطاءه. فالحياة هنا أضحت تعسة، كثيرة الشرور، بعد أن أضنى البؤس أنفسهم في تدمير أجسادهم وأرواحهم. لقد استبد بهم هنا الفقر والبؤس، وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخاء، ويكونون أصدقاء أوفياء لله، فلا ينبغي التمهل والإرجاء. فليستعدوا للمسير عند حلول الصيف وليكن الله هاديهم»[1].

عكف البابا إيربان الثاني مع أساقفته لوضع قوانين الحرب الصليبية، وتمَّ اتخاذ **٣٣** قراراً. وكان في جملة القرارات وضع كل ما يمتلكه المشتركون في القتال من متاع الدنيا تحت حماية الكنيسة، وذلك أثناء غيابهم في الحرب، واعتبار الأسقف المحلي مسؤولاً عن سلامته وردِّه كاملاً حينما يعود المحارب إلى وطنه. **كما فرضت الكنيسة على كل مقاتل في الحملة أن يحمل علامة الصليب** رمز التضحية والفداء، ولا بد أن يجعل على كتف سترته صليباً من نسيج أحمر اللون. وتحدد عيد العذراء في ١٥ آب (أغسطس) من عام (١٠٩٦هـ) موعداً لالتقاء الجيوش في القسطنطينية، وتقرر أن يكون أسقف «لي بويه» قائداً للحملة.

---

(١) **تاريخ الحروب الصليبية** ١/ ١٦٢. وفيه أن هذا النص هو واحد من خمسة نصوص تضمنتها كتب التاريخ لمعاصري البابا، ومنهم من حضر مجمع كليرمونت، وهذه النصوص تختلف في بعض جزئياتها، وفقاً لأسلوب كل كاتب. ومهما كان عليه الأمر، فقد انتهى البابا إيربان من خطابه الذي استقبله رجال الكنيسة بالحماسة والهتافات وترديد «إن شاء الله Deus le volt». وكان أسقف «لي بويه Le Puy» أكثر الأساقفة حماسة، إذ لم يكد البابا ينهي خطابه حتى تقدم الأسقف المذكور، وركع أمام عرش البابا والتمس منه الإذن بأن يلحق بالحملة المقدسة، وتبعه مئات الحضور. وبعد قداس الاعتراف «Confiteor» وتلاوة التحلل، أمر البابا سامعيه بالانصراف إلى بلادهم، والاستعداد للحرب.

رجع البابا إيربان الثاني بعد ذلك إلى لومبارديا، وأمضى كل الوقت في الاجتماع برجال الكنيسة وكتابة الرسائل، واستكمال تنظيم الكنيسة في فرنسا، وظل يواصل خططه من أجل الحروب الصليبية، فبعث إلى أساقفة الغرب رسائل بقرارات مجمع كليرمونت. وفي نهاية عام (١٠٩٥هـ) كتب البابا إيربان من «ليموج» إلى جميع المؤمنين في الفلاندر يطلب إليهم الرجوع إلى قرارات مجمع كليرمونت، ويسألهم التأييد، وتوافر من الدواعي ما حمله على الاطمئنان إلى ما ورد عن استجابة الفلاندر والبلاد المجاورة لدعوته.

وفي تموز (يوليو) (١٠٩٦هـ)، وبينما كان إيربان في «نيم» تلقى رسالة من ملك فرنسا «الملك فيليب» يعلن فيها إذعانه المطلق للكنيسة، ويشير إلى انضمام أخيه «هيوفرماندوا» إلى الحملة الصليبية. وفي هذا الشهر أيضاً، برهن «ريموند» (كونت تولوز) عن نواياه الطيبة بأن تنازل عن كثير من أملاكه إلى دير «سانت جيل»، وأوفد البابا مندوبين عنه يحملان رسالتين إلى جمهورية جنوى يطلبان منها التعاون، ووافقت الجمهورية على تقديم اثنتي عشرة سفينة كبيرة وسفينة نقل، وأصبحت الاستعدادات كاملة للحملة.

يمكن بعد ذلك تجاوز مرحلة تنظيم القوات الصليبية ومسيرها إلى القسطنطينية ثم اصطداماتها مع سكان البلاد ومع البيزنطيين أنفسهم، وكذلك ما جرى لليهود من اضطهادات ومذابح على أيدي القوات الصليبية، للوصول إلى بداية الحروب بين السلاجقة الذين كان يقودهم في تلك الفترة «قلج أرسلان»، وبين قوات الغزو من الفرنج، حيث كانت المعركة الأولى أمام «نيقية».

وقد استمر الصراع المرير من ٢١ أيار (مايو) حتى ١٩ حزيران (يونيو) (١٠٩٧م)، وانتهى الصراع بانتصار الصليبيين، وأصبحت الطريق مفتوحة أمام الفرنج للتوغل عبر آسيا الصغرى. وقد مضى عام تقريباً حتى أمكن للفرنج السيطرة على أرمينية، ثم توجهت قوات الحملة نحو الجنوب فحاصرت أنطاكية طويلاً حتى تمَّ لها إخضاعها، وانتزاعها من قبضة الحامية التركية في ٣ حزيران (يونيو) (١٠٩٨م).

وتحركت القوات بعد ذلك لتقف طويلاً أما معرَّة النعمان، ثم كفرطاب ومصياف، حيث عقد أميرها صلحاً مع الفرنج الذين تابعوا تقدمهم إلى عرقة فاللاذقية وطرابلس. وفي النهاية وصلت القوات إلى القدس وبدأت حصارها في ٧ حزيران (يونيو) (١٠٩٩م)، وهو الحصار الذي استمر حتى ١٤ تموز (يوليو)

حيث سقطت المدينة بيد الفرنج بعد صراع مرير[1].

وعندما دخل الفرنج القدس ولى المسلمون نحو الحرم الشريف (ساحة الجامع) حيث المسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة، إلا أن جند الفرنج انقضُّوا عليهم وأخذوا يعيثون فساداً في قبة الصخرة ويدمرون وينهبون ويذبحون، ولم ينجُ من المسلمين بحياتهم إلا القليل. فقد زاد جنون الفرنج بانتصارهم الكبير، وانطلقوا في شوارع المدينة وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل مَن يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال من دون تمييز، واستمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل.

«وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة «ريموند أجيل» في الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه.

وتركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدَّت إلى خلوِّ المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إن كثيراً من المسيحيين اشتد جزعهم لِما حدث. أما المسلمون الذين كانوا حتى وقتذاك مستعدين لأن يقبلوا الفرنج على أنهم عامل جديد في المنطقة، فإنهم وطَّدوا العزم على ضرورة طرد الفرنج. فلم يثر التعصب الإسلامي من جديد إلا التعصب المسيحي الذي دلَّ عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء، فلما حدث فيما بعد أن سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يجدوا

---

(١) وصف ابن الأثير ٨/ ١٨٩، ١٩٠ (أحداث سنة ٤٩٢هـ) دخول الصليبيين القدس: «ملك الفرنج القدس ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان. وركب الناس السيف. ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام... وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. واستثار ذلك المسلمين الذين انطلقوا إلى وصف ما حدث، ومن ذلك ما قاله أبو المظفر الأبيوردي في إثارة حماسة المسلمين:

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرصة للمراحمِ
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارمِ
فإيهاً بني الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرى بالمناسمِ»

أساساً يستطيعون من خلاله التعاون بين المسلمين والمسيحيين، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض الوصول إلى الاتفاق»[1].

تابع الفرنج بعد ذلك حروبهم التوسعية، وعندما انتهت قوة الحملة الأولى، تمَّ تقسيم البلاد إلى إمارات ودوقيات؛ فكانت مملكة بيت المقدس تمتد من حمص إلى شمال لبنان، وكانت تتبعها إمارة طرابلس وإمارة الكرك. أما في الشمال فكانت هناك إمارة الرها (أرمينية) وإمارة أنطاكية، الخاضعة اسمياً للامبراطورية البيزنطية، بالإضافة إلى إمارات مستقلة، مثل بيت قيسارية وصيدا، وإمارة تبنين وإمارة نابلس والرملة وإبلين وبيروت.

لم يتوقف الصراع بين المسلمين والفرنج، رغم قيام الإمارات الصليبية واستقرارها، فكان الصليبيون يحاولون باستمرار توسيع إماراتهم، مما كان يدفعهم للاصطدام بإمارات دمشق وحمص وحلب. ورغم التمزق الذي كان يباعد بين أمراء السلاجقة، إلا أنهم كثيراً ما كانوا يتعاونون لمجابهة هجمات الجيوش الصليبية، وفي الوقت ذاته كان أمراء السلاجقة ينظمون الهجمات ضد الإمارات الصليبية في محاولات لإضعاف هذه الإمارات وإرغامها على الانسحاب، ومثال ذلك ما حدث في سنة (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م)، عندما تجاوز سقمان ماردين وجكرمش في الموصل خلافاتهما واتحدا لتوجيه حملة ضد الرها[2].

وكان سقمان على رأس جيش كثيف من فرسان التركمان، بينما قاد جكرمش جيشاً لا يقلُّ كثيراً في العدد عن جيش سقمان، وتألف من الترك السلاجقة والأكراد والعرب. واصطدم هذا الجيش بجيش الفرنج أمام حرّان، على شاطئ نهر البليخ، حيث نجح المسلمون في تدمير جيش الرها، فلم ينجُ من الأسر والقتل إلا عدد ضئيل.

وكان من نتيجة هذه المعركة زوال أسطورة **«أن الفرنج لا يُقهَرون»**، كما ظهر أنه من المحال على الفرنج الاستيلاء على حلب، وظهر أيضاً أن الإسفين الذي حرص الفرنج على الإبقاء عليه بين القوى الإسلامية الثلاثة: آسيا الصغرى والعراق والشام، لم يكن دَقُّه مُحْكَماً.

---

(١) **تاريخ الحروب الصليبية**، ستيفن رنسيمان ١/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦.

(٢) أخبار هذه المعركة التي اتحد فيها معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش في ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي ٨/ ٣٢١، ٣٢٢.

وأفاد المسلمون في حلب من هذا الموقف، فقام رضوان، أمير حلب، بهجوم على الجهات الشرقية من إمارته، وتنازل الأرمن في «أرتاح» عن مدينتهم للمسلمين، واغتبطوا للإفلات من طغيان أنطاكية، وسار على هذا النحو مدن المعرَّة ومصرين وسرمين، الواقعة على الحدود، فلما أحسَّت حاميات الفرنج قليلة العدد، المرابطة في معرة النعمان والبارة وكفرطاب، بأنها أضحت معزولة، لم يسعها إلا الانسحاب إلى أنطاكية.

وفي تلك الأثناء، أمعن أمير حلب في الإغارة على إمارة أنطاكية ونهبها حتى بلغ جسر الحديد، ولم يبق على حامية المدينة إلا أعداد قليلة، حتى باتت إمارة أنطاكية بأكملها مهددة بالسقوط، لو لم تظهر أحداث داخلية دفعت أمير حلب إلى تحويل اهتمامته في اتجاه دمشق التي مات أميرها في تلك الفترة «الأمير دقاق»، وظهر النزاع على الإمارة بين بوري بن دقاق وعمه أرتاش، من أمراء السلاجقة.

ب ـ الوضع الخاص

تسعون عاماً مضت ما بين سقوط القدس في قبضة فلسطين وتحريرها على أيدي صلاح الدين الأيوبي، وهي الفترة ما بين (١٠٩٧ و١١٨٧م). وكانت أرض العرب المسلمين طوال هذه الفترة تضطرم ناراً، وتتأرجح بين صلح وحرب، وبين هدنة وقتال. وخلال هذه الحرب طويلة الأمد، كان المسلمون يعالجون نقاط ضعفهم، ويُعيدون ما تمَّ استنزافه من قدرتهم.

وقد يكون من الضروري هنا إلقاء لمحة عاجلة على مسيرة الأحداث التي تفاعلت من خلال الجهاد المستمر، فأبرزت دور مراكز القوى المختلفة التي حاولت فرض وجودها على الأحداث، فكانت تلك الأحداث أقوى منها إلى أن جاء النصر الكبير بتحرير القدس بعد معركة حطين الخالدة. وهذا لا يعني بداهة أن فترة الجهاد الطويلة في الطريق إلى النصر كانت خالية من الانتصارات، وإنما كانت تأرجحاً بين النصر والهزيمة، بين النجاح والفشل، وكان كل فشل يزيد من تصميم المسلمين على النصر، كما كان كل نصر يزيد من الثقة بحتمية النجاح ويقارب من النصر، ودفع المسلمون في الحالين (حال النصر والهزيمة) سيولاً من دمائهم وجموعاً من ضحاياهم، فكان الدم الطهور هو الذي غسل ما ارتُكب على الأرض العربية المؤمنة من جرائم وآثام.

ومهما كان عليه الأمر، فإن بالمستطاع تكوين فكرة عن مجموعة تفاعل

الأحداث من خلال التحرك بين مراكز القوى، وأبرزها في تلك الفترة (١ ـ الخلافة في بغداد. ٢ ـ السلاجقة. ٣ ـ الباطنية. ٤ ـ الفاطميون. ٥ ـ الأيوبيون).

١ ـ الخلافة في بغداد: كانت الخلافة العباسية في بغداد قد وصلت، عند وقوع الحروب الصليبية، إلى مرحلة من الضعف بحيث لم يعد باستطاعتها فرض وجودها إلا من خلال إقامة التوازن بين مراكز القوى المختلفة والمتناحرة أحياناً، والمتآلفة في أحيان أخرى، ولكن ورغم ذلك فقد احتفظ الخلفاء العباسيون ببعض القوى التي كان لها ثقلها في ترجيح كفة الصراع بين تلك المراكز[1].

وكان هذا الرصيد يمارس دوره بالإضافة إلى السلطة الروحية ما كان يحفظ للخلفاء بعضاً من قدرتهم. وكان بعض هؤلاء الخلفاء يحاولون الحصول على مزيد من السلطة المركزية التي تساعدهم على ممارسة دور أكبر في إدارة شؤون الدولة، مما كان يدفعهم للاصطدام بمراكز القوى. وكانت الخلافة تدين بمذهب السُّنة، في حين كانت بعض مراكز القوى الأخرى بمذاهب مغايرة، كالفاطميين الشيعة في مصر، والباطنيين (الحشاشين) في الشام وإيران.

وقد أخذ هذا الاختلاف المذهبي دوره في الصراع خلال تلك الفترة الحرجة مما زاد من تمزق العالم الإسلامي وضعفه، لا سيما وأن الباطنية (الحشاشين) قد اتخذوا من الاغتيال السياسي أسلوباً لفرض وجودهم مما زاد من وطأتهم،

---

(١) تولى الخلافة في بغداد، خلال المائة سنة الأولى من الحروب الصليبية، الخلفاء الواردة أسماؤهم كالتالي:

١ ـ القائم (٤٢٣هـ/ ١٠٣١م).
٢ ـ المقتدي (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م).
٣ ـ المستظهر (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).
٤ ـ المسترشد (٥١٢هـ/ ١١١٨م).
٥ ـ الراشد (٥٣٠هـ/ ١١٣٥م).
٦ ـ المكتفي (٥٣١هـ/ ١١٣٦م).
٧ ـ المستنجد (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).
٨ ـ المستضيء (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م).
٩ ـ الناصر (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م).
١٠ ـ الظاهر (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م).
١١ ـ المستنصر (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م).
١٢ ـ المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م).

حتى كانوا في كثير من الأحيان عاملاً أساسياً في التحولات بين مراكز القوى، مما دفع الخلفاء ومراكز القوى على محاربتهم حرباً لا هوادة فيها.

هذا، وقد حدد مؤرخ عربي بداية هذا الانحلال بسنة (٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) فوصف موقف الخلافة في بغداد بقوله: «في هذه السنة انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية بحي، فلقيهم أكراد فأخذوا دوابهم فعادوا إلى قراح (حدائق) الخليفة القائم بأمر الله، فنهبوا شيئاً من ثمرته وقالوا للعمالين فيه أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا. فسمع الخليفة الحال فعظم عليه، ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه، واجتهد في تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك. فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى. فلما رأى جلال الدولة ذلك، سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخلافة ففعلوا، فلما وصلوا إلى دار الخلافة أطلقوا. وعظم أمر العيارين (اللصوص) وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ولا مانع لهم؛ لأن الجند يحمون على السلطان ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم. وانتشر العرب في البلاد فنهبوا النواصي وقطعوا الطريق وبلغوا إلى أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر»[1].

٢ ـ السلاجقة (٤٤٧ ـ ٥٨٩هـ/ ١٠٥٥ ـ ١١٩٤م): رافق انحلال الخلافة ظهور سلالات إيرانية فارسية، هيمنت على الحكم وفرضت وجودها على الخليفة، واستمر ذلك إلى أن ظهرت سلالات منافسة من الأتراك يأتي آل غزنة والسلاجقة في مقدمتهم[2].

---

(١) **الكامل في التاريخ** «ابن الأثير» ٨/٨.

(٢) بعض من السلالات التي جاءت من الشرق على التتابع، وهيمنت على الخلافة:
١ ـ الطاهريون (٨١٠ ـ ٨٧٣م) أصل إيراني.
٢ ـ الصفويون (٨٦٨ ـ ٩٠٢م) أصل إيراني.
٣ ـ السامانيون (٨٧٤ ـ ٩٩٩م) أصل إيراني.
٤ ـ آل زياد والبويهيون (٩٣٢ ـ ١٠٥٦م) أصل إيراني.
٥ ـ الغزنويون والسلاجقة (٩٦٢ ـ ١١٨٦م) أصل تركي.
٦ ـ السلاجقة (١٠٣٧ ـ ١٣٠٠م) أصل تركي.
٧ ـ الخوارزميون (١٠٧٧ ـ ١٢٢٠م) أصل تركي.
٨ ـ المغول ـ الإيلخانيون (١٢٥٦ ـ ١٣٣٦م) أصل تركي. =

ولم يكن طريق الوصول إلى موقع السلطة في بغداد سهلاً، فقد كان ذلك يتطلب، قبل كل شيء، القضاء على السلالة السابقة. ورغم أن هذه السلالات كانت تعود في أصولها إلى انتماء واحد (فارسية أو تركية) إلا أنها كانت مرغمة على خوض حروب طويلة للوصول إلى السلطة. وقد رافق ذلك ظهور عدد كبير من القادة المحاربين الأكفاء، إلا أنهم غالباً ما كانوا يستنزفون قوتهم في الصراع حتى إذا وصلوا إلى مطامعهم لم يمكثوا فيها طويلاً. وكانت جهودهم تتبدد بسرعة نتيجة الصراع الذي يظهر بين خلفائهم وورثتهم ما يفسح المجال لظهور سلالات جديدة. وبقيت الهضبة الإيرانية «فارس» باستمرار هي المسرح الرئيسي للصراع الذي كان لا بدَّ له من أن يمتد حتى يشمل العراق والشام الطبيعية، مما كان يدفع لصراع آخر مع القوى التي تتحكم في حكم مصر.

المهم هنا هو إبراز ذلك الصراع في المرحلة التي رافقت بداية الحروب الصليبية، حيث أدى التنافس بين القادة الترك المتغلبين على الخليفة في بغداد إلى ظهور أسرة بني بويه الشيعية، على اسم جدها أبي شجاع بويه، ودخول البويهيين بغداد. وكان هؤلاء من الجند المرتزقة الذين ظهروا بين قبائل الديالمة (نسبة للديلم) البدو، وهم من أصل فارسي كانوا يقيمون في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وتأخر دخولهم في الإسلام، إذ لم يتمكن الأمويون أو العباسيون من فتح بلادهم، ثم توغلت الدعوة الشيعية بينهم، وتحولوا إلى الإسلام في أواخر القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي، وكونوا دويلات قوية في إيران ونواحيها.

ودخل أحمد بن بويه إلى بغداد سنة (٣٣٤هـ)، وتلقب بمعز الدولة، وعزل الخليفة المستكفي، وولى بدله المطيع لله ـ حتى يطيعه ـ، فكان بنو بويه مع الخلفاء العباسيين أكثر استبداداً من القادة الترك السابقين، ذلك لأنهم، كشيعة، لم يكن عندهم ما يحملهم على الخضوع للخلفاء الذين يدينون بمذهب السُّنة، فكانوا يعزلونهم ويسملون عيونهم أو يقتلونهم، كذلك أصبح الواحد منهم يسك العملة باسم شاهنشاه (أي ملك الملوك) ويُخطب له على المنابر، ويُقرن اسمه

= ٩ ـ آل جلاير (١٣٣٦ ـ ١٤١١م) أصل تركي.
١٠ ـ آل مظفر (١٣١٣ ـ ١٣٩٩م) أصل تركي.
١١ ـ الكوت (١٢٤٥ ـ ١٣٨١م) أصل تركي.
١٢ ـ التيموريون (١٣٦٩ ـ ١٥٠٠م) أصل تركي.

باسم الخليفة العباسي في خطب المساجد، وتُضرب له الدفوف أمام قصره في الضحى والعشي، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل[1].

في تلك الفترة كانت هناك أسرة من السلاجقة التي تعيش على نهر الفولغا، في جنوب روسيا حالياً، وقد وضع زعيمها سلجوق الأول نفسه وأسرته تحت إمرة الخليفة بعد أن أدخل قبيلته في الإسلام وتعهد بنشر مذهب السُّنة في وسط آسيا. وانتقل سلجوق الأول بقبيلته إلى ما وراء النهر، ثم جاء طغرل بك، حفيد سلجوق، ليخلف جده في قيادة السلاجقة.

وخلال هذه المرحلة قضى السلاجقة على الدولة الغزنوية (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) وانتشروا في نواحي متعددة حتى وصلوا أبواب العراق، فلما استدعاهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) لإنقاذه من الشيعة البويهيين، وكانوا قد طردوه من منصب الخلافة، أسرع طغرل بك لتلبية طلبه وأعاده إلى السلطة. وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة في بغداد، وانفتح أمامهم المجال لهجرة أفواج الأتراك من وسط آسيا نحو مركز العالم الإسلامي.

وفي عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) جاء ألب إرسلان ليتابع ما بدأ به عمه، طغرل بك، وليقود السلاجقة من العراق إلى شمالي الجزيرة، وأمكن له السيطرة على القبائل الكردية والأرمنية التي كانت تعيش منذ القدم بجوار الفرس، ثم أنشأوا لهم دويلات في مرحلة ضعف الخلافة العباسية. وما لبث هؤلاء السلاجقة أن طوروا صراعهم ضد البيزنطيين، فكانت معركة «ملازكرد».

وفي عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) تولى ملك شاه ما بدأه أبوه، ألب أرسلان، فاستولى على الموصل وحلب، وقضى على سيطرة القبائل العربية في إقليم الجزيرة، ثم قام تتش بن ألب إرسلان فاستولى على دمشق والقدس بإيعاز من أخيه ملك شاه[2].

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٢.

(٢) سلاطين السلاجقة في العراق وفارس (٤٣٠ ـ ٥٨٦هـ/ ١٠٣٨ ـ ١١٩٣م).
- طغرل بك (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م).
- ألب إرسلان (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م).
- ملك شاه (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م).
- محمود الأول (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م).
- باركياروق (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

=

لقد ارتبطت بتاريخ السلاجقة سلالة اشتهرت فيما بعد، هي أسرة «الزنكيين»، التي تنتمي إلى قبائل «الساب يو» التركمانية. ورغم عدم توفر معلومات كافية عن أصول هذه السلالة وارتباطها بالسلاجقة، إلا أنه من المعروف أن آق سنقر، ابن عبد الله آل ترغان، الملقب بقسيم الدولة والمعروف بالحاجب، كان مملوكاً للسلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب إرسلان ومن المقربين لديه، وقد تربى معه ورافقه في عهد الطفولة والصبا، وعندما تولى ملك شاه السلطنة عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢هـ) كان آق سنقر من أعيان أمرائه وأخص أصدقائه، وقد اعتمد عليه في كثير من الأمور فارتفعت منزلته ولقب بقسيم الدولة.

واشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في حروب كثيرة. فقد سيَّره ملك شاه عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) مع عميد الدولة ابن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة[1]. وقد أمضى آق سنقر حياته مجاهداً تحت راية السلاجقة، وقتل من أجلهم في ٩

= - ملك شاه الثاني (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م).
- محمد الأول (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م).
- سنجر (٥١٢ ـ ٥٥٢هـ/ ١١١٨ ـ ١١٥٧م).
- سلاطين السلاجقة بعد سنة (١١١٨م) في خراسان (٤٩١ ـ ٥٥١هـ/ ١٠٩٧ ـ ١١٥٧م).
- محمود الثاني (٥١٢هـ/ ١١١٨م).
- داود (٥٢٦هـ/ ١١٣١م).
- طغرل الثاني (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م).
- مسعود (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م).
- ملك شاه الثالث (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م).
- محمد الثاني (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- سليمان شاه (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م).
- إرسلان (٥٥٦هـ/ ١١٦١م).
- طغرل الثالث (٥٧٢ ـ ٥٩١هـ/ ١١٧٦ ـ ١١٩٤م).
- سلاجقة الشام (٤٧١ ـ ٥١١هـ/ ١٠٧٨ ـ ١١١٧م).
- تتش (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م).
- رضوان «حلب» (٤٨٩ ـ ٥٠٧هـ/ ١٠٩٥ ـ ١١١٣م).
- دقاق «دمشق» (٤٨٩ ـ ٤٩٨هـ/ ١٠٩٥ ـ ١١٠٤م).

(١) ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، دار الكتب الحديثة، القاهرة (١٩٦٣م) ص٤ و١٥ و٢٨. وأبو شامة: **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة (١٩٥٦م) ١/ ٥٩.

جمادى الأولى سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، وخلفه ابنه عماد الدين زنكي (٤٧٧ - ٥٤١هـ/ ١٠٨٤ - ١١٤٦م).

وقدر السلطان السلجوقي بركياروق تضحية صديقه، فتعهد عماد الدين بالرعاية، وما أن شب عماد الدين حتى تابع سيرة والده في الولاء للسلاجقة. وكانت الحروب الصليبية قد بدأت، فأظهر عماد الدين حماسة للجهاد في سبيل الله، ووضع هدفاً له هو توحيد الجهود في العراق والشام للقتال ضد الصليبيين، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، وقام بإصلاحات داخلية كبيرة مما ساعده على تصعيد الحرب ضد الفرنج. وعندما توفي عماد الدين انقسمت الدولة الزنكية بين ولديه سيف الدين ونور الدين زنكي، الذي تابع سيرة أبيه[1].

لقد حدد عماد الدين زنكي في الواقع البدايات الأولى الصحيحة لطرائق الجهاد ضد الصليبيين، سواء على صعيد الإصلاحات الداخلية أو في مجال الإعداد للحرب، وكان من نتائج أعماله ظهور عائلة بني أيوب فيما بعد. وكان بنو أيوب حكاماً لتكريت (٥٢٦ - ٥٤١هـ/ ١١٣١ - ١١٤٦م).

وفي فترة صراع عماد الدين ضد مراكز القوى؛ سلاطين السلاجقة من جهة، والخلفاء العباسيين من جهة، لحقت بعماد الدين هزيمة اضطر معها للتراجع نحو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين أيوب، فأقام، هذا، المعابر على دجلة، وجهز عدداً من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت، وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم إليهم سائر ما يحتاجون إليه. وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وتكريم، وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعاً اعترافاً بفضله وحسن ضيافته.

---

(١) القادة الرئيسيون، في بيت زنكي:
١ - آق سنقر (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).
٢ - عماد الدين زنكي (أتابك الموصل ١١٢٨م)، حلب (١١٢٨م) توفي (١١٤٦م).
٣ - سيف الدين (غازي الأول) أتابك الموصل (١١٤٦ - ١١٤٩م).
٤ - نور الدين محمود (أتابك حلب ثم ملك الشام ١١٤٦ - ١١٥٤م) ومات سنة (١١٧٤م).
٥ - قطب الدين مودود (أتابك الموصل ١١٤٩ - ١١٧٠م). وخلف هذا ثلاثة أولاد هم: سيف الدين غازي الثاني (أتابك الموصل ١١٧٠ - ١١٧٦، ١١٨٠م)، وعز الدين مسعود الأول (أتابك الموصل ١١٧٦، ١١٨٠ - ١١٩٣م)، وعماد الدين زنكي الثاني (سنجار ١١٧٠ - ١١٩٧م).

وعندما بلغ قائد حامية بغداد ما فعله نائبه في تكريت، نجم الدين؛ في استضافته لخصمه عماد الدين زنكي، بعث إليه رسولاً ليعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه. وزاد موقف قائد حامية بغداد حرجاً عندما بلغه أن أسد الدين شيركوه[1] قد قتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء، فأصدر أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع أفراد عائلته، ولم يكن باستطاعة قائد حامية بغداد معاقبة أسد الدين شيركوه بعقوبة أكثر من ذلك نظراً لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه.

وفي هذه الفترة الحرجة من أواخر عام (٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور، ولم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام. ولم ينس زنكي الإحسان، فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة، وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته، والإشراف على تربية أبنائه، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين.

وظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية زنكي، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم. وعندما استولى على بعلبك عام (٥٣٤هـ/ ١١٣٨م) عين نجم الدين أيوب والياً عليها وأقطعه ثلثها، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الأخير عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م)، وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده، وبدت عليه سيماء النجابة والذكاء، والتمعت عيناه ببريق القوة.

وهكذا قدر لزنكي أن يمارس دوراً كبيراً هاماً في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وأن يمهد لها الطريق إلى المكانة

---

(١) كان شادي بن مروان والد كل من نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، من أكراد بلدة «دويق» الواقعة على حدود إقليم أذربيجان قريباً من تفليس (أبو الفدا، **تقويم البلدان** ص٣٩٩)، وقد غادر بلدته تلك بصحبة ولديه إلى بغداد بحثاً عن عمل، وهناك انتظموا في خدمة مجاهد الدين بهروز قائد حامية العراق، فوجههم إلى تكريت التي كانت إحدى إقطاعاته. وبعد وفاة شادي عين بهروز ابنه نجم الدين حاكماً، مستحفظاً، لتكريت.
(**الباهر** ١١٩، ١٢٠، و**الروضتين** ٢/ ٣٢٩، ٣٣٠ و٥٣٦، ٥٣٧).

الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود. وقد عرف زنكي بلقب «الأتابك» منذ تعيينه حاكماً على الموصل عام (٥٢١هـ)، واشتهرت الإمارة التي أسسها باسم «أتابكية الموصل» والسلالة التي أعقبته في الحكم باسم «الأتابكة»[١].

٣ ـ الباطنية، أو الإسماعيلية (الحشاشون): ما من حركة استقطبت اهتمام القادة من المسلمين والفرنج على حد سواء مثل حركة الباطنية، وقد أطلق عليها الغرب اسم «القتلة Assassins»، ولعل هذا هو سبب تسميتهم بالحشاشين، أو لعلهم كانوا يتعاطون الحشيش فعلاً ويعملون على نشره بين أتباعهم.

المهم في الأمر هو أن هذه الحركة هي من الحركات المشتقة عن الفاطمية، وفقاً لما تذكره المصادر التاريخية «من أن حسن الصباح الإسماعيلي وصل إلى مصر سنة (٤٢٧هـ) في زي تاجر وقابل المستنصر بالله الفاطمي وخاطبه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد العجم، فأذن له في ذلك، فعاد ودعا إليه سراً، وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ فقال: «ابني نزار». والإسماعيلية يعتقدون إمامة نزار».

وفي سنة (٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) «قصد نفر من الإسماعيلية إلى ما وراء نهر سيحون، ودعوا إلى طاعة المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر، فتبعهم جمع كثير وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد، وسمع بذلك حاكم ما وراء النهر فأوقع بهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، ففعل بهم ما أمر وسلمت تلك البلاد منهم».

وفي سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) «قتل نظام الملك الوزير بالقرب من نهاوند؛ قتله صبي ديلمي من الباطنية تقدم إليه في صورة مستميح أو مستغيث، فضربه بسكين

---

(١) تتألف كلمة (أتابك) من لفظين تركيين هما: (أتا) بمعنى (أب) و(بك) بمعنى أمير؛ أي: الأمير الوالد. (**وفيات الأعيان**، ابن خلكان ١/ ٣١٦). وأول من لقب بذلك هو نظام الملك، وزير ملك شاه حين فوض إليه هذا تدبير المملكة عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) ولقَّبه بألقاب منها (أتابك)، وربما قصد به أبو الأمراء (أي أكبر الأمراء). وليس للأتابك وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي، وغايته رفع المحل وعلو المقام. وكان الأتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد (**صبح الأعشى**، القلقشندي ٤/ ١٨).
وأصبحت كلمة أتابك في العهد المملوكي تعني قادة الجيوش، واقتصر استخدامها على الوظائف العسكرية، فقد كان المظفر قطز وبيبرس البندقداري أتابك جيوش، بمعنى أمراء الجيوش.

كانت معه فقضى عليه، وهرب فعثر بطنب خيمة فأدركوه فقتلوه».

وفي سنة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) «أمر السلطان بركياروق بقتل الباطنية (الإسماعيلية) والذين كانوا قديماً يسمون قرامطة».

وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به عند «قاين»، اجتمعوا عنده وقووا به، فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين، فخرجوا عليهم وقتل الباطنية أهل القافلة أجمعين، ولم ينج غير رجل تركماني، فوصل إلى قاين فأخبر بالقصة فتسارع أهلها مع القاضي الكرماني إلى جهادهم فلم يقدروا عليهم، ثم قتل نظام الملك ومات السلطان «ملك شاه» فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم.

وظهرت مقالة الباطنية وانتشرت وكانوا متفرقين في المجال، فاجتمعوا وصاروا يسرقون من قدروا عليه من مخالفيهم ويقاتلونهم ويقتلونهم، وفعلوا هذا بخلق كثير، وزاد الأمر حتى أن الإنسان كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله وقعدوا للعزاء به، فحذر الناس وصاروا لا يتفرد أحد.

وأخذوا في بعض الأيام مؤذناً «أخذه جار له باطني»، فقام أهله للنياحة عليه، فأصعده الباطنية إلى سطح داره وأروه أهله كيف يلطمون ويبكون وهو لا يقدر على الكلام خوفاً منهم.

ولما عمت هذه المصيبة بأصبهان أذن الله تعالى في هتك أستارهم والانتقام منهم، فاتفق أن رجلاً دخل دار صديق له فرأى فيها ثياباً ومداسات وملابس لم يعهدها، فخرج من عنده وتحدث بما كان، فكشف الناس عنها فعلموا أنها من المقتولين. وثار الناس كافة يبحثون عمن قتل منهم ويستكشفون، فظهروا على الدروب التي هم فيها وأنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دار منها وقتلوه وألقوه في بئر الدار، قد صُنعت لذلك. وكان على باب درب منها رجل ضرير، فإذا اجتاز به إنسان يسأله أن يقوده خطوات إلى باب الدرب، فيفعل ذلك، فإذا دخل الدرب أخذ وقُتل. فتجرَّد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي الفقيه الشافعي، وجمع الجمَّ الغفير بالأسلحة، وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران، وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين فيُلقون في النار، وجعلوا إنساناً على أخاديد النيران وسموه «مالكاً»، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً.

وفي هذه السنة أيضاً قتل «جاولي سقاووا»، خلقاً كثيراً منهم، وسبب ذلك

أن هذا الأمير كانت ولايته بين «رامهرمز» و«أرجان»، فلما ملك الباطنية القلاع بخوزستان وفارس، وعظم شرُّهم، وقطعوا الطرق بتلك البلاد، اتفق مع جماعة من أصحابه، فأظهروا الشغب عليه وفارقوه وانضموا إلى الباطنية، وأظهروا أنهم معهم وعلى رأيهم، فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم. ثم أظهر «جاولي» أن الأمراء (بني برسق) يريدون قصده وأخذ بلاده، وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عنهم، والمسير إلى همذان. فلما ظهر ذلك وسار، قال مَن عند الباطنية من أصحابه لهم الرأي: إننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من الأموال. فساروا إليه في ثلاثمائة من أعيانهم وصناديدهم، فلما التقوا صار مَن معهم من أصحاب «جاولي» عليهم، ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر صعدوا إلى الجبل وهربوا، وغنم «جاولي» ما معهم من دواب وسلاح.

وقام حاكم كرمان بقتل الباطنية في ولايته، وكذلك فعل بركياروق بالباطنية الذين قويت شوكتهم وكثر عددهم، وقتلوا جماعة من الأمراء الأكابر وتوغلوا في عسكر بركياروق واستغووا كثيراً من وجوههم وأدخلوهم في مذهبهم، وكانوا يظهرون بالكثرة والقوة.

وزاد أمرهم فصاروا يتهددون مَن لا يوافقهم بالقتل، فصار يخافهم مَن يخالفهم حتى أنهم لم يتجاسر أحد منهم، لا أمير ولا متقدم، على الخروج من منزله حاسراً، بل يلبس تحت ثيابه درعاً، ما دفع السلطان بركياروق أن يأذن بقتلهم.

وكان الباطنية يعتصمون بالقلاع الحصينة، ومن أشهر قلاعهم «قلعة أصبهان»، التي بناها ملك شاه، وأقام على حراستها إنسان ديلمي، فقدم «أحمد بن عطاش»، وكان الباطنية قد ألبسوه تاجاً وجمعوا له أموالاً وقدَّموه عليهم، مع جهله، وإنما كان أبوه مقدماً فيهم، ونال المسلمين منهم ضرر عظيم، من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطرق والخوف الدائم.

ومن القلاع الشهيرة أيضاً قلعة «**أله موت**» أو «**ألموت**»، وهي من نواحي قزوين، ومعناه بلسان الديلم تعليم العقاب، ويقال لذلك الموضع وما يجاوره «طالقان»، وقد تولى هذه القلعة الحسن بن الصباح[1]، الذي كان رجلَا شهماً

---

(١) **الحسن بن الصباح**: أحد دعاة الباطنية، وتعلم من الزنادقة الذين بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان. وكان لا يدعو إليه من الناس إلا غبياً جاهلاً لا يعرف يمينه من =

كافياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك. وكان الحسن من تلامذة «**ابن عطاش الطبيب**»، توجه بعد عودته من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر والروم، ورجع إلى خراسان ودخل كاشغز وما وراء النهر، نهر سيحون وجيحون، (سيراداريا وأموداريا حالياً) يطوف على كل قوم ويضلُّهم.

ومن معاقل الباطنية في فارس قلاع قهستان وقلعة سنمكوه وقلعة خالنجان، على خمسة فراسخ من أصبهان، وقلعة أستوناوند بين الري وأمل، وقلعة أردهن وكردكوه، وقلعة الناظر بخوزستان، وقلعة الطنبور وقلعة خلادخان، أقام بها المفسدون حوالي مائتي سنة.

وفي سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، أفاد الباطنية من انشغال السلاطين عنهم بقتال الفرنج، فجمعوا جمعاً كبيراً في خراسان، وأكثروا القتل في أهلها والنهب لأموالهم والسبي لنسائهم. وعندما تجمعت قافلة الحجاج من وراء النهر وخراسان والهند وغيرها ووصلوا إلى جوار الري، أتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً. وقتلوا في هذه السنة أيضاً أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية، وكان يدرس بالريِّ ويعظ الناس، فلما نزل عن كرسيه أتاه باطني فقتله.

وفي سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م)، قام السلطان محمد بالهجوم على قلعة شاهدز في أصبهان وقتل ابن عطاش، بعد أن استمر فساده في الإقليم ١٢ عاماً. وبعد أن فشلت كل الجهود لمناظرتهم، واشتد الضغط على الباطنية، توجهوا إلى بلاد الشام. وكان أول عمل لهم إشعال الثورة في حصن «شيزر» على حين غفلة من

= شماله... فيحرق مزاجه ويفسد دماغه، ثم يذكر له أشياء من أخبار أهل البيت، ويكذب له من أقاويل الرافضة الضلال أنهم ظلموا ومنعوا حقهم الذي أوجبه الله لهم ورسوله. ثم يقال له: فإذا كانت الخوارج تقتل بني أمية انتقاماً لعلي، فأنت أحق أن تقاتل في نصرة إمامك علي بن أبي طالب. ولا يزال به حتى يصير أطوع له من أمه وأبيه. والتف حوله بشر كثير وجم غفير، وبعث له السلطان «ملك شاه» يتهدده وينهاه عن ذلك، وبعث إليه بفتاوى العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه. فاشرأبت جوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك. فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً. وقال لآخر منهم: الق بنفسك من هذا الموضع. فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع. ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب. فمنها امتنع السلطان من مراسلته. (هكذا ذكره ابن الجوزي).

أهلها، في سنة (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م). وقتل الباطنية أيضاً في هذه السنة، قاضي أصبهان، عبيد الله بن علي الخطيبي، بهمذان.

وفي المهدية (تونس) وصل ثلاثة غرباء، فكتبوا إلى أميرها «يحيى تميم» يقولون إنهم يعملون الكيمياء، فأحضرهم. وعندما انفردوا بالأمير ومعه الشريف أبو الحسن وقائد جيشه، قام هؤلاء الغرباء فهاجموا الأمير وضربوه بالمِدى (السكاكين)، ولكنهم لم يتمكنوا من قتله وقُتل الشريف. أما القائد واسمه «إبراهيم»، فقد دافع عن نفسه بسيفه، وسمع الحرسُ الجلبة، فاقتحموا مجلس الأمير وقتلوا الباطنية.

وفي السنة التالية، حاول الباطنية قتل الوزير «نظام الملك» وأصابوه بطعنات، إلا أنهم لم يتمكنوا من قتله. وحاول نظام الملك القضاء على حسن بن الصباح، ومهاجمة قلعته ألموت، إلا أنه لم يتمكن من ذلك.

وأُعيدت محاولة القضاء على الباطنية في سنة (٥١١هـ/ ١١١٧م)، ولكن هذه المحاولة فشلت بسبب قوة حصون الباطنية في إيران.

ويمكن بعد ذلك تجاوز الصراع المرير ضد الباطنية وما قام به هؤلاء من الاغتيالات السياسية التي تركزت بصورة خاصة على القادة والفقهاء والقضاة للوصول إلى عام (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، حيث «عظم أمر الإسماعيلية بالشام وقويت شوكتهم وملكوا بانياس، حيث تولى بهرام، ابن أخت الأسدأباذي، الدعوة للإسماعيلية، فكان يتردد في البلاد ويدعو أوباش الناس وطغامهم، فاستجاب له منهم مَن لا عقل له، فكثر جمعه، إلا أنه يخفي شخصه فلا يُعرَف، وأقام بحلب مدة، واتصل بحاكمها «إيلغازي» الذي وافق على حمايته لاتقاء الناس شره وشر أصحابه، لأنهم كانوا يقتلون كل مَن خالفهم.

وأشار حاكم حلب «إيلغازي» إلى حاكم دمشق «طغتكين» بأن يجعله عنده لهذا السبب، فقبل رأيه وضم بهرام إليه، فأظهر هذا عندئذٍ عداوته، وكثر أتباعه من كل مَن يريد الشر والفساد، وأعانه الوزير أبو طاهر بن سعد المرغيناني بهدف الإفادة منه على ما يريد، فعظم شرُّه واستفحل أمره وصار أتباعه أضعاف ما كانوا فلولاً.

ورأى بهرام من أهل دمشق فظاظة؛ لأن أهلها من السُّنة ويتشدَّدون في ذلك، فطلب من «طغتكين» حصناً يأوي إليه هو ومَن اتبعه، فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه، فسلمت إليه، فلما سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كل ناحية،

فعظم حينئذٍ خَطبُه، وجَلَت المحنة بظهوره، واشتد الحال على الفقهاء والعلماء وأهل الدين، لا سيما أهل السُّنة والستر والسلامة، إلا أنهم لا يقدرون على نطق حرف واحد، خوفاً من سلطانهم أولاً ومن شر الإسماعيلية ثانياً، فلم يقدم أحد على إنكار هذه الحال، فتربَّصوا بهم الدوائر.

وفي هذه السنة أيضاً قتل قسيم الدولة «آق سنقر البرسقي» حاكم الموصل، قتلته الباطنية يوم الجمعة ثامن ذي القعدة، حيث وثب عليه أثناء الصلاة بضعة عشر نفراً، ووقع البحث والاستقصاء عن أخبارهم، فقيل إنهم كانوا يجلسون إلى إسكاف بدرب إيلياء، فأحضِر ووُعِد بالإحسان إن أقرَّ بأصحابه، فلم يقر، فهُدِّد بالقتل، فقال إنهم وردوا من سنين لقتله، فلم يتمكنوا منه إلى الآن.

وكان عز الدين مسعود، ابن آق سنقر البرسقي، في حلب يحفظها من الفرنج. ومن العجب أن صاحب أنطاكية أرسل إلى عز الدين بن البرسقي يخبره بقتل والده قبل أن يصل إليه الخبر، وكان قد سمعه الفرنج قبله، لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية.

وفي سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، قتل الباطنية معين الملك «أبو نصر أحمد بن الفضل»، وزير السلطان سنجر، ما دفع سنجر إلى تجريد حملة لقتال الباطنية في «ألموت»، فقتل منهم خلقاً كثيراً قيل كانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس.

كان «بهرام» قبل مغادرته دمشق قد أقام له بها خليفة يدعو الناس إلى مذهبه، فكثر أتباع الخليفة «أبو الوفا» وقوي أمره وعلا شأنه وكثر أتباعه، وقام بدمشق، فصار المستولي على مَن بها من المسلمين، وحكمه أكثر من حكم أميرها «تاج الملوك». وقام زعيم الباطنية بالاتصال بالفرنج وعرض عليهم تسليمهم دمشق، على أن يسلموا إليه مدينة صور. واستقر الأمر بينهم على ذلك، وتحدَّد بينهم الموعد في يوم جمعة ذكروه. واحتاط الإسماعيلية لذلك، بأن منعوا أحداً من الخروج إلى الجامع حتى يصل الفرنج ويملكون دمشق.

وبلغ الخبر «تاج الملوك» أمير دمشق، فاستدعى إليه زعيم الإسماعيلية، وخلا معه، فقتله تاج الملوك وعلَّق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنية، فقتل منهم ستة آلاف نفس، وكان ذلك سبباً في خوف الباطنية الذين عرضوا على الفرنج تسليم بانياس إليهم والانتقال إلى بلادهم، فوافق الفرنج وتسلموا بانياس.

وعندما بلغ الفرنج مقتل زعيم الإسماعيلية بدمشق، عظم عليهم ذلك وتأسَّفوا

على دمشق وعمَّتهم المصيبة، فاجتمعوا كلهم: حاكم القدس وحاكم أنطاكية وحاكم طرابلس، وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم، ومَن وصل إليهم في البحر للزيارة والتجارة، اجتمعوا في خلق عظيم، نحو ألفي فارس، وأما الراجل فلا يُحصى، وساروا إلى دمشق ليحاصروها.

ولما سمع «تاج الملوك» بذلك، جمع العرب والتركمان، فاجتمع منهم ثمانية آلاف فارس. ووصل الفرنج، فنازلوا البلد، وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الميرة والإغارة على البلاد. فلما سمع «تاج الملوك» أن جمعاً كثيراً قد ساروا إلى «حوران» لنهبه وإحضار الميرة، سَيَّرَ أميراً من أمرائه يُعرَف «بشمس الخواص» في جمع من المسلمين إليهم، وكان خروجهم في ليلة شاتية كثيرة المطر. ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه أربعون رجلاً، وأخذوا ما معهم، وهي ١٠ آلاف دابة موقرة وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق لم يمسهم قرح.

فلما علم من عليها من الفرنج ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذر عليهم حمله من سلاح وميرة وغير ذلك، وتبعهم المسلمون والمطر شديد، والبرد عظيم، يقتلون كل من تخلف منهم، فكثر القتلى منهم، وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجة من سنة (٥٢٣هـ/ ١١٢٩م).

وبعد عامين (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م)، قام الباطنية بطعن تاج الملوك طعنتين شفي من إحداهما، ولكن الجرح الثاني لم يندمل ما أدى إلى وفاته في السنة التالية.

وفي سنة (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) هاجم أربعة وعشرون من الباطنية خيمة الخليفة المسترشد بالله فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً ومعه نفر من أصحابه.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل دقائق ذلك الصراع الذي خاضه «الحشاشون» ضد المسلمين في أصعب فترة من تاريخهم، ولكن ذلك يعطي فكرة كافية عن هذه الحركة التي حاولت القضاء على صلاح الدين فكان له مواقف ضدها، وعمل على محاربتها والقضاء عليها[1].

---

(١) **الكامل في التاريخ**، ابن الأثير، دار الكتاب العربي ٨/ ١١ و٤٠ و١٦١ و٢٠٠ و٢٠٤ و٢٢٨ و٢٧٦ و٣١٩ و٣٢١ و٣٢٤ و٣٢٨ و٣٤٧.

٤ ـ **الفاطميون**: توفي كافور الأخشيدي سنة (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، واضطربت أحوال مصر، وكان الفاطميون في المغرب ينظمون قواتهم. ووجد المعز لدين الله أبو تميم أن الفرصة مناسبة لاحتلال مصر، فوجه في سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) قائده جوهر الصقلي إليها، ولما علم الأخشيديون بتقدم جوهر مع جيشه الكثيف هربوا من وجهه.

وكان أول عمل قام به جوهر، هو التوجه إلى جامع ابن طولون، حيث أمر المؤذن، **فأذن بحي على خير العمل** بدلاً من حي على الفلاح. وجهر في الصلاة ببسم الله الرحمٰن الرحيم، ولما استقر جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة.

وفي سنة (٣٦١هـ/ ٩٧١م)، سار المعز لدين الله العلوي من أفريقية يريد الديار المصرية، وغادر معه «القيروان» رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك، حتى أن الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين، وحمل كل طاحونتين على جمل وسار عنها، فوصل مصر، وبدأ عهد الدولة الفاطمية[1] في مصر.

ولم يلبث المعز أن وجه قواته، فسيطر على دمشق حيث عين والياً عليها، هو

---

(١) الفاطميون بشمال أفريقية ومصر والشام (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) (أتم الإعداد لقيام الدولة سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م).

١ ـ عبيد الله المهدي ـ ابتداء من: (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م).

٢ ـ القائم بأمر الله (القيروان): (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م).

٣ ـ إسماعيل المنصور بالله (القيروان): (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م).

٤ ـ محمد المعز لدين الله (القاهرة): (٣٤١هـ/ ٩٥٣م).

٥ ـ نزار العزيز لدين الله (القاهرة): (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م).

٦ ـ المنصور (الحاكم بأمر الله) المجنون: (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م).

٧ ـ الظاهر بن المنصور: (٤١٢هـ/ ١٠٢١م).

٨ ـ المستنصر بالله: (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م).

٩ ـ المستعلي: (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).

١٠ ـ الآمر: (٤٩٥هـ/ ١١٠١م).

١١ ـ الحافظ: (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م).

١٢ ـ الحافظ: (٥٢٦هـ/ ١١٣١م).

١٣ ـ الظافر: (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م).

١٤ ـ الفائز: (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م).

١٥ ـ العاضد: (٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ/ ١١٦٠ ـ ١١٧١م).

سقوط مصر في أيدي صلاح الدين الأيوبي.

ظالم بن موهوب العقيلي سنة (٣٦٣هـ/ ٩٧٣م)، وعين على طرابلس والياً أيضاً، هو القائد ريان الخادم، ولم تلبث الدعوة للمعز أن شملت مكة والمدينة، وتوفي المعز سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م) وقد ترك دولة قوية ومنظمة.

جاء بعد ذلك العزيز أبو منصور نزار بن المعز ليتولى الخلافة فترة ٢١ عاماً (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ)، وتميز عهده بالنهضة العمرانية والتوسع، فملك مصر وخطب له بها وبالشام وبالمغرب والحجاز، وكان القائم بتدبير مملكته مولى أبيه جوهر القائد. وزادت مملكته على مملكة أبيه وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب، وخطب له المقلد العقيلي صاحب الموصل وأعمالها بالموصل، وضرب اسمه على السكة والنقود.

وقد أخذ عن والده «المعز» الإسراف في المراسم، والتنظيم الدقيق للمهرجانات وعند الخروج للجامع والأعياد. وكان يعتمد على غير المسلمين في إدارة البلاد، فعين على ديوان الكتابة (مجلس الوزراء) نصرانياً اسمه عيسى بن نسطورس النصراني، كما عين نائباً يهودياً عنه في الشام هو منشا فاعتز، ما دفع الناس إلى دفع من يكتب إليه: «بالذي أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي».

وكان لذلك أثره في إضعاف هيبة الدولة التي أخذت في إثارة النعرات الطائفية، لا سيما وأن الفاطميين قد انتحلوا لأنفسهم صفة «الخليفة» ما أحفظ عليهم رجال السنة الذي يطلبون مواصفات محددة للخلفاء.

وعلاوة على ذلك فقد تميز عمل الولاة بالظلم والبطش والقسوة، ما أثار الأقاليم في مرات عديدة، ودفع إلى الاقتتال. وفي هذه الفترة بدأت المقاومة في التعاظم، نتيجة عدم وجود سند شرعي للحكم[1] وأخذت كل هذه العوامل

---

(١) جابهت الدعوة الفاطمية مناظرات قوية أمكن للفاطميين إخمادها بالقوة؛ ولكن ما إن ضعف النفوذ البويهي الذي كان مسيطراً على الخلافة في بغداد، وظهر نفوذ السلاجقة حتى عادت الحرب الجدلية ضد الدعوة. وقد تضاربت في أصولهم أقوال كثيرة منها: «أن اسم جد الخلفاء المصريين سعيد ويلقب بالمهدي، وكان أبوه يهودياً حداداً بسلمية، من سوريا، ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وأهل الدعوة، من أمثال أبى القاسم الأبيض، وغيره يزعمون أن سعيداً إنما هو من امرأة الحسين المذكور، وأن الحسين رباه وعلمه أسرار الدعوة، وزوجته بنت أبي الشلغلغ، فجاءه ابن فسماه عبد الرحمٰن؛ فلما دخل المغرب وأخذ سجلماسة تسمى بعبد الله». وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: «القداح، جد عبيد الله، كان مجوسياً، ودخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوي ولم يعرفه أحد من علماء =

في التضافر لتظهر في عهد ابنه «المنصور الحاكم بأمر الله والملقب بالمجنون» الذي سار في حكمه سيرة مغايرة لأبيه، فاضطهد اليهود والنصارى وأصدر قوانين أصبحت مضرب الأمثال، كمنع النساء من الخروج من منازلهن وتحريم بعض المأكولات «كالملوخية»، وما إن انتهى عهد هذا الخليفة حتى أخذت الدولة الفاطمية في التدهور والانحطاط.

ولم يعد في قبضة الخليفة من السلطة أكثر من اسمها بسبب تسلط الوزراء عليها. وزاد الأمر سوءاً عند بدء الحروب الصليبية، حيث كانت القدس تحت حماية القوات المصرية التابعة للفاطميين، ما حمل هذه القوات تبعات الحرب ونتائجها.

وكان ضعف الدولة في جملة الأسباب التي دفعت الفاطميين لمهادنة الصليبيين، والتعاون معهم في بعض الأحيان، وبذلك فقدت الدولة ذريعة وجودها داخلياً وخارجياً، ولم يبق إلا الإجهاز عليها، ولكن ذلك كان متعذراً بسبب قوة التنظيم العسكري الذي اعتمده وزراء الفاطميين وأجهزة الدولة.

ولم يبق للخليفة سوى الدعاء له وفق الأسلوب المعتمد منذ عهد الخليفة عبد المجيد، والذي يظهر تعلق الدولة بالشكل الخارجي من دون المضمون. هذا الدعاء مثل: «أصلح الله مَنْ شيدت به الدين بعد دثوره، وأعززت به الإسلام بأن جعلته سبباً لظهوره، مولانا وسيدنا إمام العصر والزمان، أبا الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ﷺ وعلى آبائه الطاهرين، حجج الله على العالمين»(١).

= النسب، وكان باطنياً خبيثاً حريصاً على إزالة ملة الإسلام، أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق، وجاء أولاده بأسلوبه، فأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض، وبثوا دعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام (...)... طائفة من الزنادقة يقولون بألوهية علي، تعالى الله علواً كبيراً،... وهي طائفة من الإسماعيلية، وهي التي تقول بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق لأنه ابنه الأكبر». وقال ابن خلكان: «جاء المعز من أفريقية، وكان يطعن في نسبه، فلما قرب من البلد؛ يعني مصر، وخرج الناس للقائه اجتمع به جماعة من الأشراف. فقال له الشريف عبد الله بن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلساً ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤوسكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر. فسل عند ذلك نصف سيفه؛ وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال: هذا حسبي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا».
(**الكامل في التاريخ**، ابن الأثير ٧/ ٦٨، ٦٩).

(١) **النجوم الزاهرة**: ٥/ ٢٣٧.

في هذا المناخ من الضعف والتمزق على كل الجبهات، ظهرت الحروب الصليبية، وليس من الغريب أن تحقق الحملات الأولى انتصاراتها بمثل تلك السهولة، لا بسبب قوتها، وإنما بسبب ضعف العالم الإسلامي. وكان من الطبيعي أن تبدأ الاستجابة للتحدي المفروض لتأخذ شكلها المتعاظم خلال تفاعل الأحداث.

٢ ـ صلاح الدين في الطريق إلى النصر

عاشت مصر حياة الفوضى والاضطراب بسبب الصراع بين مراكز القوى المتنازعة فيما بينها على السلطة، وهكذا فإنه لم يكد «العاضد لدين الله»، آخر الخلفاء الفاطميين، في ارتقاء العرش سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) حتى اغتيل الوزير «طلائع بن رزيك» الذي استطاع أن يقر السلام في البلاد خلال فترة قصيرة بعد أن مزقت شملها الفتن العسكرية.

وفيما حرم الخليفة نفسه جميع أسباب القوة ـ تقريباً ـ نشب الصراع بين «رزيك»، ابن الوزير القتيل وخلفه في الوزارة، وبين «شاور» الذي سبق «لطلائع» أن عينه حاكماً على مصر العليا، فاتخذ من «قوص» قاعدة لحكمه؛ ذلك بأن الوزير الجديد حاول أن يعزل الحاكم الطموح، فاشتجر بينهما قتال كتب النصر فيه لشاور، كانون الثاني ـ يناير (١١٦٣م). ولكن أبناء شاور هذا لم يلبثوا أن أساؤوا اصطناع السلطان الذي تم لأبيهم إساءة شائنة، فلم يكن من أحد قواده (واسمه ضرغام) إلا أن خلعَ طاعته بالتواطؤ مع الخليفة في شهر آب (أغسطس) من السنة ذاتها. والواقع أن شاور اضطر إلى أن يخلي له الميدان من غير مقاومة، ليلتمس العون من نور الدين زنكي بدمشق.

كان أيوب وأخوه شيركوه قد غادرا بعلبك، فتوجه أيوب إلى دمشق ومعه ابنه صلاح الدين لينضم إلى سيف الدين غازي بن زنكي، ولم تمض عليه فترة حتى صار من أكبر الأمراء بدمشق. واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود زنكي، فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره. فلما أراد نور الدين الاستيلاء على دمشق أمره فراسل أخاه أيوب وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب إلى ذلك على ما يراد منه على إقطاع ذكره له ولأخيه وقرى يتملكانها، فأعطاهما ما طلبا وفتح دمشق، وصارا أعظم أمراء دولته.

وعندما جاء شاور يطلب العون من نور الدين لم يرَ لهذا الأمر العظيم غير

أسد الدين شيركوه، فجهز له جيشاً كبيراً، واشترط على شاور أن يكون له ـ أي لنور الدين ـ ثلث دخل البلاد بالإضافة إلى إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مقيماً مع جنده في مصر.

تلقى أسد الدين شيركوه مهمته بحماسة، وقاد جيشه، وبرفقته شاور، في جمادى الأولى من سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٣م). وفي الوقت ذاته قاد نور الدين زنكي قواته في تظاهرة استعراضية بهدف إرغام الإمارات الصليبية على التزام الهدوء وعدم التعرض لجيش أسد الدين شيركوه. وأفادت هذه التظاهرة بحيث تمكن أسد الدين من الوصول إلى مدينة بلبيس، وعند ذلك قاد ناصر الدين (أخو ضرغام) قوات المصريين واصطدم بقوات أسد الدين إلى أن استطاع هذا حسم الصراع لمصلحته، وتمزق جيش المصريين وعادت فلوله إلى القاهرة فطاردها أسد الدين، وعندما حاول ضرغام التصدي لجيش أسد الدين والانتقام لهزيمة أخيه لم يلبث أن لقي مصرعه ومعه أخوه (فارس المسلمين) وعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة.

لم يلبث شاور، بعد أن استتب له الأمر، حتى أخذ في التنكر لهؤلاء الذين ناصروه، فرفض تقديم ما وعد به نور الدين زنكي من إرسال ثلث دخل مصر لزيادة قوته في مجابهة حروب الفرنج، كما رفض إقطاع جيش أسد الدين ما يحتاجه من الأرض للإقامة، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام، فما كان من أسد الدين إلا أن أرسل إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وفرض حكمه على المنطقة الشرقية، **فارسل شاور إلى الفرنج يطلب دعمهم ومساعدته ويخوفهم من نور الدين إن هو ملك مصر.**

واعتقد الفرنج أن الفرصة قد أصبحت مناسبة، وإذا ما فاتتهم الفرصة السابقة، عندما طلب ضرغام إليهم دعمه فتقاعسوا عن ذلك بسبب سرعة تحرك أسد الدين، ثم بسبب تهديد نور الدين، فإنه يجب عدم إضاعة هذه الفرصة.

وأخذ (أملريك الأول)[1] على عاتقه دعم شاور والاستيلاء على مصر،

---

(١) **أملريك الأول** (٥٣١ ـ ٥٧٠هـ/ ١١٤٩ حتى ١١ تموز ـ يوليو ١١٧٤م): ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٣ ـ ١١٧٤م) وكان قبل ذلك كونتاً على إمارة يافا وعسقلان. وقد طلب شاور دعمه وعرض عليه أن يؤدي ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، التي يبلغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة، كما وعد شاور بأن يقدم هدية أخرى لمن يصحب الملك أملريك من فرسان الأسبتارية، وأن يتكفل نفقات علف أفراسهم.

فانصرف لإعداد أسباب الدفاع القوية عن مملكته، وبعد أن أنهى ذلك بادر بالمسير في أوائل شهر آب (أغسطس)، وعندما علم نور الدين زنكي بتحركهم قام بتظاهرة استعراضية، إلا أن أملريك وضع في اعتباره أن سيطرة أسد الدين على مصر أشد خطراً على مملكته من البقاء فيها للدفاع عنها.

وسار ملك بيت المقدس بجيشه في اتجاه مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس، فاستعان بهم الفرنج فأعانوهم، فسار بعضهم معهم، وأقام بعضهم في البلاد لحفظها. وعندما وصل أملريك إلى فاقوس، الواقعة على فرع من فروع النيل، لحق به شاور وانضم إليه بمن معه من قوات المصريين.

وعلم أسد الدين شيركوه باقتراب قوات الفرنج، ففارق مصر (القاهرة) وقصد مدينة بلبيس وتحصن بها، ونظم الدفاع، وجعلها له ظهراً. فاجتمعت القوات المصرية وقوات الفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه وحاصروه بها ثلاثة أشهر، وهو ممتنع بها مع أن سورها قصير جداً وليس لها خندق ولا فصل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً. فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم واستيلاء نور الدين على حارم ومسيره إلى بانياس، فرغب (أملريك) في رفع الحصار والعودة إلى مملكته وراسل أسد الدين في الصلح والعودة إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما في قبضته من المناطق إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام وما ألحقه بالفرنج من الخسائر، وزاد من صعوبة الموقف قلة ما بقي تحت تصرف أسد الدين من مؤن وذخائر.

وبدأت قوات أسد الدين بالانسحاب من بلبيس، وبقي أسد الدين يحمي مؤخرة قواته، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه، وأتاه فرنجي من الذين قدموا حديثاً إلى الشرق وسأله: «أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريين والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك»؟. فقال له شيركوه: **«يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله. كنت والله اضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، وحينئذٍ يقصدهم الملك العادل نور الدين، وقد ضعفوا وفني رجالهم وشجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقي. والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا»**. فرسم ذلك الرجل على وجهه إشارة الصليب وقال: «كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن قد

عذرناهم»[1].

وسار الجيشان الإسلامي والصليبي عبر سيناء على خطين متوازيين، وحاول الفرنج نصب كمين على طريق أسد الدين شيركوه في محاولة لأسره أو إلحاق هزيمة به، إلا انه علم بذلك فتجنب المرور من ذلك الطريق.

أمضى أسد الدين شيركوه سنتي (٥٦١ و٥٦٢هـ/ ١١٦٥ و١١٦٦م) وهو يعمل تحت قيادة نور الدين زنكي، وقام بهجمات عديدة على إقليم ما وراء نهر الأردن، حيث قام بتدمير قلعة كان يحتلها فرسان الداوية بجنوب عمان (يحتمل أنها قلعة الكهف أو مغارة الكهف، الواقعة إلى الجنوب الشرقي من عمان التي حوت خرائب رومانية). وانتزع شيركوه أيضاً شقيف طيطون أو شقيف تيرون (الذي اعتبره «راي» حصن «نيها» الذي يبعد حوالي ثلاثة عشر ميلاً إلى الشرق من صيدا).

وكان أسد الدين خلال ذلك يحاول جاهداً إقناع نور الدين زنكي والخليفة العباسي ببغداد بضرورة الحملة على مصر لقتال الخلافة الفاطمية الشيعية. والظاهر أن هذه الحجة أثرت في نور الدين بحيث حصل شيركوه في النهاية على الموافقة من الخليفة ومن السلطان نور الدين بالتوجه لفتح مصر. وأعد أسد الدين شيركوه حملته تحت إشراف نور الدين زنكي الذي سار يرافقه خوفاً من حادث يباغتهم فيضعف الإسلام.

«وخرج شيركوه من دمشق في كانون الثاني - يناير (١١٦٧م)، وصحبه أيضاً في هذه الحملة صلاح الدين. وتوافر لشاور، وزير مصر، الوقت الكافي للاستنجاد مرة ثانية بملك القدس (أملريك) الذي كان في حينها بنابلس، فدعا باروناته للاجتماع به. وبعد أن أشار (أملريك) إلى ما تتعرض له فلسطين من خطر إذا استولى السوريون السنيون على مصر، وافقت المحكمة العليا على توجيه حملة كاملة العدة والعدد لإنقاذ شاور. وحشدت في هذه الحملة كل القوة الضاربة بالمملكة، فضلاً عن اتخاذ مواقعها على الحدود لدرء ما يجري من هجمات أثناء غياب ملك القدس، والتزم كل رجل من الفرنج، لم يشترك بهذه

---

(١) ابن الأثير، **الكامل** ٩/ ٨٥. ويقول عمارة في مدح أسد الدين ونجاحه في تجنب الكمين:

أخذتم عن الفرنج كل ثنية ... وقلت لأيدي الخيل مري على (مري)

لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظه (مري) في آخر البيت الأول تشير إلى اسم ملك مملكة بيت المقدس (أماريك، أو مري).

الحملة، دفع عُشر دخله. غير أنه حدث قبل أن يكتمل استعداد جيش الفرنج، أن وردت الأنباء بأن شيركوه يجتاز فعلاً صحراء سيناء، فلم يسع (أملريك) إلا ان يرسل ما تيسر الحصول عليه من العساكر، لعرقلة مسيره، غير أن ذلك جاء متأخراً. فعلى الرغم من أن عاصفة رملية شديدة كادت تودي بجيش شيركوه، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في أوائل شهر شباط ـ فبراير سنة (١١٦٧م)، وهنا علم شيركوه أن جيش الفرنج شرع في السير يوم ٣٠ كانون الثاني ـ يناير (١١٦٧م)، وعندئذٍ اجتاز شيركوه الصحراء صوب الجنوب الغربي حتى بلغ نهر النيل عند (أطفيح) على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة»[1].

ثم عبر النيل عند أطفيح إلى الضفة الغربية، فالتزمها في سيره حتى عسكر في الجيزة تجاه القاهرة. وفي تلك الأثناء اقترب جيش الفرنج من القاهرة، وقد قدم إليها من جهة الشمال الشرقي، فالتقى به شاور على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة. وعقد شاور عهداً مع أملريك، بعد أن رفض اقتراحاً تقدم به شيركوه يقضي بالاتحاد لمناوأة المسيحيين. وتقرر أن يؤدي شاور للفرنج أربعمائة ألف دينار (بيزنت) يدفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، بشرط أن يقسم أملريك بألا يغادر مصر إلا بعد طرد شيركوه منها.

وأنفذ الملك أملريك إلى القاهرة كلاً من هيو (سيد قيسارية) وجفري، أحد فرسان الداوية الذي كان فيما يبدو يجيد التحدث باللغة العربية، للحصول من الخليفة الفاطمي على الموافقة الرسمية على المعاهدة. ولقي الرسولان استقبالاً حافلاً، إذ اجتاز الرسولان في طريقهما صفوف الأعمدة والنافورات والحدائق التي قامت بها حظائر الحيوانات والطيور الضارية، فصارا يسيران من قاعة إلى قاعة ازدانت بالستائر المصنوعة من الحرير وخيوط الذهب وترصعت بالجواهر حتى انفرجت أمامهما آخر الأمر ستارة كبيرة مزركشة بالذهب، فكشفت عن الخليفة الصبي وقد تلثم واتخذ مجلسه على سرير الملك المصنوع من الذهب، فتم أخذ الأيمان على الوفاء بالمعاهدة، ثم أراد هيو، باعتباره ممثلاً للملك أملريك، أن يختم العقد على نحو ما هو معروف في الغرب بأن يصافح يد الخليفة، فارتاع رجال البلاط المصري، غير أن الخليفة ابتسم ساخراً آخر الأمر ونزع قفازه وصافح هيو، ثم انسحب الرسولان وقد اشتد تأثرهما بما تكدس من

---

(١) **تاريخ الحروب الصليبية**، رنسيمان، ستيفن ٢/ ٦٠١، ٦٠٢.

ثروة الامبراطورية الفاطمية، وهو ما كان يقصد إليه رجال البلاط الفاطمي.

ظل الجيشان شهراً يرقب أحدهما الآخر، ولم يستطع كل منهما أن يجتاز النهر قبالة الآخر، وأثناء ذلك أرسل أسد الدين شيركوه جواسيسه لاستطلاع أحوال المصريين وحلفائهم الفرنج، وعاد هؤلاء إليه فأخبروه بكثرة عددهم ووفرة أعتدتهم، وجدهم في ملاحقته وحربه، فعزم على قتالهم إلا أنه خاف أن يصيب الضعف نفوس جنده عند القتال في هذا الموقع الخطر، حيث مصادر الهلاك أكثر من مصادر السلامة، وحيث البعد عن الوطن وقلة العدد وأخطار الطريق ما قد يؤثر في النفوس، فجمع قادته وشاورهم، فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: «إن نحن انهزمنا، وهو الأغلب على الظن، فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي؟، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا».

فنهض عند ذلك أمير من مماليك نور الدين، يقال له شرف الدين برغش، وكان شجاعاً، فقال: «من يخاف القتل أو الأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته. والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه، ليأخذن ما لنا من إقطاع وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقولون: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار. والحق بيده».

فقال أسد الدين: هذا الرأي وبه أعمل. وقال ابن أخيه صلاح الدين مثل قوله. وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال. فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية. وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يكن باستطاعته تركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد. وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه: إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أني فيه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا أمامهم وتظاهروا بالتراجع والانسحاب، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم. واختار هو من شجعان جنده جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة.

فلما اشتبكت القوتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا من أمامهم غير متفرقين ومعهم المصريين. فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج

(الفارس منهم والراجل) ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوماً والأرض منهم قفراً فانهزموا أيضاً. وألفى أملريك نفسه محصوراً من جميع الجهات، ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم بينما وقع آخرون في الأسر، ومنهم هيو (سيد قيسارية). وتراجع أملريك وشاور بمن تبقى من جيشهما إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية التي تركاها هناك تحت قيادة الكامل بن شاور وهيو إبلين[1]، وذلك في يوم ١٨ آذار ـ مارس سنة (١١٦٧م).

أحرز أسد الدين شيركوه انتصاراً حاسماً، إلا أنه لم يكن انتصاراً كاملاً؛ فقد كانت كتلة الجيش المصري ـ الصليبي لا تزال سليمة وهي مقيمة في القاهرة. وعلى هذا فقد غادر شيركوه ميدان القتال واتجه بسرعة نحو الشمال متجهاً إلى الفيوم ومتجنباً الهجوم على القاهرة. ولم تمض سوى أيام قليلة حتى ظهر أمام الإسكندرية التي فتحت ذراعيها لاستقبال الجيش الظافر نظراً لما تكنه من الكراهية لشاور. وخلال هذه الفترة كان ملك القدس أملريك، وحليفه شاور قد نجحا في إعادة تنظيم قواتهما وانطلقا إلى الإسكندرية في أثر أسد الدين فألقيا الحصار على المدينة.

وقدمت بعض الإمدادات للصليبيين من فلسطين، وأقلعت سفن الفرنج حتى تكمل حلقة الحصار. وبعد أن مضى شهر على الحصار وأخذت المؤن في النفاد، نظم أسد الدين قوة كبيرة وغادر الإسكندرية تاركاً بها حامية للدفاع عنها تضم ألف رجل، بقيادة ابن أخيه صلاح الدين، واتجه نحو الصعيد. فاشتد غضب أملريك وأراد أن يمضي لمطاردته غير أن شاور نصحه بأن يترك شيركوه وشأنه على اعتبار أن استعادة الإسكندرية أكثر أهمية.

وعندما استمر الحصار وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج ما دفعه أن يكتب لعمه يطلب عودته. ورجع أسد الدين، وعندما اقترب من الإسكندرية جرت اتصالات تم فيها الاتفاق على أن يجلو شيركوه والفرنج معاً، وأن يعد شاور بألا يعاقب رعاياه بالإسكندرية وغيرها ممن ساندوا جيش أسد الدين. وقبل أملريك الشروط نظراً لاشتداد ثائرته لما حدث من الأمور بفلسطين

---

(١) كانت هذه هي أول مرة تدخل فيها قوات غير مسلمة إلى مصر وتقيم فيها، ولهذا فإن دخول قوة هيو إلى القاهرة والسماح للقادة بالتردد على القصر أقلق خاطر الدوائر الإسلامية بالقاهرة والمعروفة بتدينها الشديد.

وطرابلس، حيث كان نور الدين يلقي بثقل قواته ضد المناطق المحتلة من قبل الصليبيين. ودخل الملك أملريك على رأس جيش الفرنج مدينة الإسكندرية يوم ٤ آب ـ أغسطس (١١٦٧م).

وخرج صلاح الصدين وجيشه في موكب عسكري حافل، وفي وسط الخوف الذي هيمن على أهل الإسكندرية الذين أظهروا ولاءهم لجيش أسد الدين. ولكن موظفي شاور لم يلتزموا بتنفيذ شروط الاتفاق، فأخذوا في اعتقال كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، ولما رفع صلاح الدين احتجاجه إلى أملريك، أمر شاور بأن يطلق سراح الأسرى. وغادر صلاح الدين وعمه شيركوه مصر في ١٠ آب ـ أغسطس، فبلغا دمشق في شهر أيلول ـ سبتمبر. وتوجه أملريك بجيشه إلى القاهرة ليعمل على تبديل حاميتها، التي كان يقودها هيو إبلين.

على أنه كان لزاماً على شاور أن يوقع اتفاقاً يعد فيه بأن يؤدي إتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة من الذهب، وبأن يُبقي بالقاهرة مندوباً سامياً من الفرنج، وبأن تظل بالقاهرة حامية من الفرنج تتولى حراسة أبواب المدينة. ثم عاد الملك أملريك إلى فلسطين، فبلغ عسقلان في ٢٠ آب ـ أغسطس سنة (١١٦٧م).

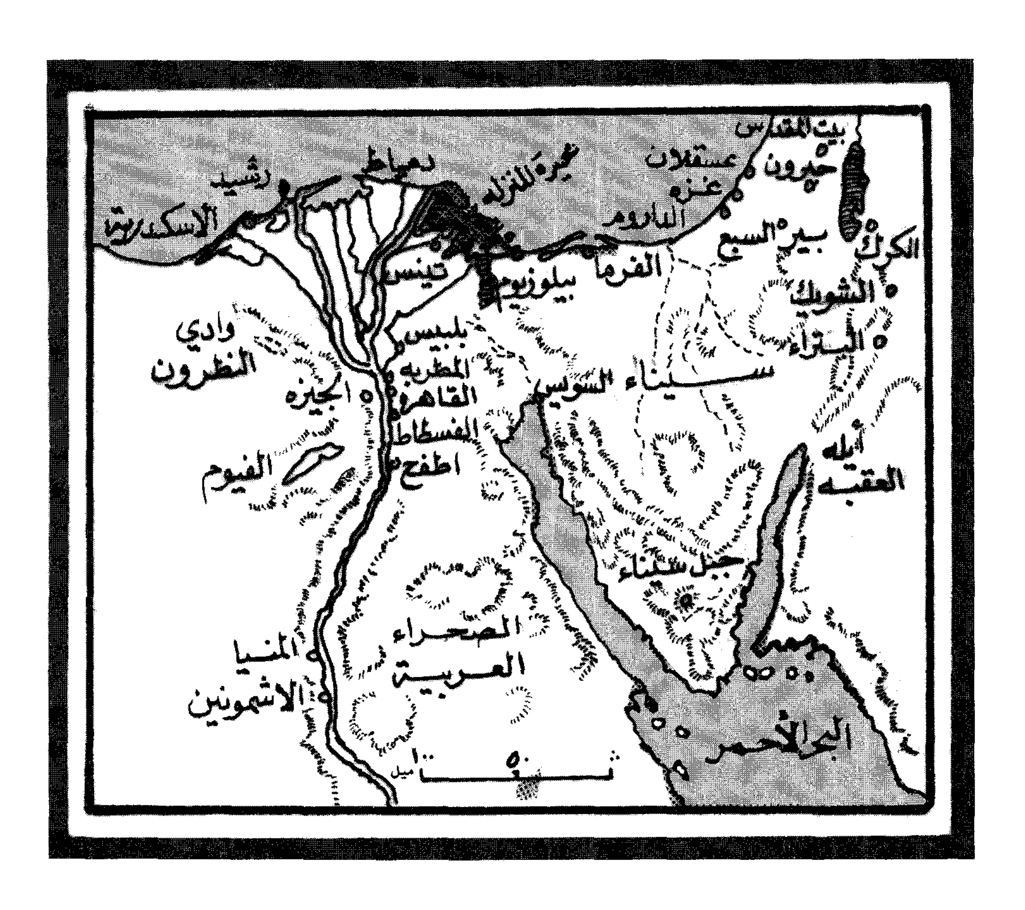
«ما إن رجع ملك بيت المقدس أملريك إلى قاعدته حتى أرسل إلى عاصمة البيزنطيين، القسطنطينية، رسوله «جورج باليولوجوس» بمهمة عرض اقتراح بفتح مصر، فما كان من الامبراطور البيزنطي إلا أن ألف وفداً يحمل شروطه إلى ملك بيت المقدس وهي أن يكون للامبراطور البيزنطي «مانويل» نصيبه من غنائم مصر، وأن يكون له التصرف التام في أمر أنطاكية، بالإضافة إلى التنازل له عن بعض بلاد الفرنج. وإذ كانت هذه الشروط بالغة التطرف، أرسل ملك بيت المقدس أملريك رسوله وليم الصوري، الذي أصبح مؤرخاً شهيراً فيما بعد، بمهمة استئناف المناقشات مع الامبراطور مانويل. وأمكن لهذا الرسول إنجاز مهمته بنجاح، ورجع إلى فلسطين في أواخر فصل الخريف من عام (١١٦٨م)»[١].

وحدث خلال هذه الفترة أن وصلت إلى فلسطين موجة جديدة من المقاتلين الفرسان الصليبيين، ما شجع بارونات الإمارات الصليبية على الغزو والتوسع حتى لم يعد باستطاعتهم انتظار عودة وليم الصوري من القسطنطينية. وزاد من حماستهم للحرب ما توفر لديهم من معلومات عن اضطراب الأوضاع بمصر

---

(١) William of Tyre. XX4. p.p945 - 947.

وقيام الكامل «شجاع بن شاور» بالاتصال بنور الدين زنكي، «وإرسال وفد من بعض الأمراء يبلغه محبته له وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه تخصيص قدر من الأموال يرسله سنوياً، ووافق نور الدين على هذا التحالف، وبعث الكامل شجاع ما وعد به من الأموال»(١).



مصر في القرن الثاني عشر (أيام الحروب الصليبية)

---

(١) الكامل، ابن الأثير ٩/٩٦.

وعقد أملريك، ملك بيت المقدس، اجتماعاً كبيراً ضم كبار الأمراء. وفي هذا الاجتماع اشتد مقدم الأسبتارية «جيلبرت أسايلي» في الإصرار على أنه ينبغي أن لا يتم تأجيل الهجوم إلى أبعد من ذلك، ووافقه معظم البارونات العلمانيين. أما الداوية فعارضوا صراحة توجيه الحملة، وأعلنوا أنهم سوف لا يشتركون فيها. ولعل معارضتهم ترجع إلى نهم الأسبتارية الذين سبق أن قرروا فعلاً أن تكون الفرما «بيلوزيوم» نصيبهم في الحملة مقابل حصن غزة، الذي كان بيد الداوية، غير أن الداوية ارتبطوا أيضاً من الناحية المالية بالمسلمين وبالتجار الإيطاليين الذين زادت تجارتهم مع مصر على تجارتهم مع سوريا الخاضعة للحكم الصليبي[1].

ووافق الملك أملريك على أنه لا بدَّ من التعجيل باتخاذ إجراء، نظراً لضعف شاور وعدم الاطمئنان له، غير أنه أراد الانتظار حتى يضمن مساعدة الامبراطور البيزنطي له، إلا أنه غلب على أمره، فلم يسعه إلا الإذعان إزاء الإصرار الشديد من قبل الأسبتارية وأتباعه الذين لم يجدوا من الأسباب ما يدعو إلى ضرورة

---

(١) **الأسبتارية** (Hospitalier) **والداوية**، والذين أطلق عليهم الفرنسيون اسم **فرسان المعبد** (Templiers) نسبة إلى أنهم سموا مكان الصخرة بالمعبد (Templum) وهما من الحركات الهدامة في التاريخ. وقد عرف الأسبتارية فيما بعد باسم فرسان القديس يوحنا، وقد سموا بالأسبتارية لأنهم في أصل نشأتهم كانوا يقومون باستقبال الحجاج الفرنج وإيوائهم في نزل (Hospes) أنشؤوها لأول مرة بجوار كنيسة القيامة. وكانت الطائفتان تملكان الحصون والأساطيل ولهما حق عقد المعاهدات وجباية الضرائب. وعندما انتهت الحروب الصليبية احتل الأسبتارية جزيرة رودس (١٣٠٦ ـ ١٣٠٨م) واستمر حكمهم لها حتى نهاية القرن التاسع عشر.
أما الداوية فقد انتشروا في كل أنحاء أوروبا، وظلوا زمناً طويلاً وهم يتحكمون بأعمال الصيرفة وتقديم القروض بفوائد فاحشة. وأدى نشاطهم المالي إلى أن يكونوا على اتصال وثيق بالمسلمين، واتخذ كثير منهم أصدقاء من المسلمين، واهتموا بالديانة والأبحاث الإسلامية.
وترددت الشائعات أن الداوية يدرسون وراء أسوار قلعتهم فلسفة غريبة، ويمعنون في طقوس جرى نعتها بالهرطقة. وكان للمبتدئين (المريدين) شعائر منافية للدين والأخلاق. وكثر الهمس عما يرافق ممارسة الرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة، وهذا ما دفع ملك فرنسا «فيليب» لإصدار أمر في سنة (١٣٠٧هـ) بإلقاء القبض على جميع رجال الداوية، ومحاكمتهم عن الإلحاد بمقتضى التهم التي صاغها فارسان اشتهرا بسوء السمعة، واعترف عدد كبير من الداوية بانحرافهم وجرائمهم. وفي سنة (١٣٠٨هـ) أصدر البابا مجموعة من الكتب وجهها إلى كل ملوك أوروبا يطالبهم بمحاكمة الداوية ومصادرة ممتلكاتهم وأموالهم، وأستجاب ملوك أوروبا، باستثناء ملك البرتغال، لطلب البابا.
(تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٧٢٩ ـ ٧٣٥).

اشتراك اليونانيين في الغنائم، فتقرر وضع الخطة بتوجيه الحملة في تشرين الأول ـ أكتوبر (١١٦٨م).

تظاهر أملريك بأنه يجمع قواته للهجوم على حمص، ولم يدرك شاور، وهو في مصر، ما يتم إعداده من قبل حلفائه الفرنج إلا بعد أن انطلق جيشهم من عسقلان في ٢٠ تشرين الأول ـ أكتوبر (١١٦٨م)، فبلغ بلبيس بعد عشرة أيام، فارتاع شاور إذ لم يتوقع مطلقاً من أملريك أن يقدم في استهانة بالغة على نقض المعاهدة التي عقدها معه.

والتقى الملك عند الدارون على الحدود بأول رسول من قبل شاور (وهو أمير اسمه بدران) غير أن الملك استرضاه بما بذله من رشوة. أما الرسول الثاني (وهو شمس الخلافة) فلقي الملك بالصحراء قبل بضعة أيام من وصوله إلى بلبيس، فاشتد في تقريع أملريك لما ارتكبه من خيانة، فرد عليه الملك، بأن دافع عن موقفه بما أجراه الكامل بن شاور من مفاوضات مع أسد الدين شيركوه. وكيفما كان الأمر، فإن المحاربين الصليبيين الذين قدموا حديثاً من الغرب، عزموا على مهاجمة مصر وأنه لم يقدم إلا لمنعهم، ثم أضاف أنه سوف ينسحب إذا أدوا له مليونين آخرين من الدنانير.

غير أن شاور ارتاب عندئذٍ في صدق عهد الملك، وكانت مفاجأة لأملريك أن قرر شاور المضي في المقاومة، وظهر ذلك عندما رفض طيء بن شاور، قائد حامية بلبيس، فتح أبواب المدينة للفرنج. وإذ كانت قواته قليلة العدد، دخل جيش الفرنج الحصن في ٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١١٦٨م) في بداية شهر صفر (٥٦٤هـ)، بعد أن استبسلت في القتال حامية الحصن لمدة ثلاثة أيام، ورافق دخول الفرنج إلى الحصن إجراء مذبحة مروعة بدأ بها القادمون الجدد من الفرنج والذين تميزوا بالحماسة وعدم الخضوع للنظام.

وحاول أملريك أن يعيد الأمن إلى نصابه، فلما نجح في ذلك آخر الأمر استرد من بقي على قيد الحياة من الأسرى الذين وقعوا في أيدي العساكر بعد أن بذل لهم الأموال، على أن الضرر قد وقع فعلاً، إذ أن عدداً كبيراً من المصريين الذين كرهوا شاور سبق أن أبدوا استعدادهم للترحيب بالفرنج واعتبارهم منقذين لهم، كما أن الجاليات القبطية التي ازداد عددها بصفة خاصة في مدن الدلتا، تعاونوا حتى وقتذاك مع إخوانهم المسيحيين الفرنج، غير أنه هلك في مذبحة بلبيس الأقباط والمسلمون على السواء، فاتحد جميع المصريين في كراهية الفرنج.

وحدث بعد بضعة أيام أن وصل إلى بحيرة المنزلة أسطول صغير للفرنج، كان معظم بحارته من الغرب، بعد أن أقلع مصعداً في فرع تنيس من فروع النيل، وانقض بصورة مباغتة على مدينة تنيس، وتلى ذلك ما حدث في بلبيس من الرعب والخوف، وكان القبط أكثر من تعرض للهجوم.

وتوقف أملريك في بلبيس بضعة أيام حتى يعيد تنظيم قواته، وضاعت عليه الفرصة بذلك للاستيلاء على القاهرة بهجوم مباغت. وعندما وصل أملريك، يوم ١٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر، أمام أسوار الفسطاط (الضاحية القديمة التي تقع جنوبي القاهرة) كان شاور قد أصدر أوامره بإحراق مدينة مصر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد، فانتقلوا وبقوا على الطرق، وافتقر أهلها وذهبت أموالهم وثرواتهم وممتلكاتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأدرك أملريك أن الحملة قد أخطأت السبيل، بعد أن اعترض الأسطول في الدلتا الحواجز الملقاة في عرض النهر. ووجد أملريك أن موقفه يتزايد صعوبة، فأعلم شاور بأنه يقبل المساومة على مغادرة البلاد. وتلكأ شاور بعض الوقت فأخذ يساوم على المبلغ الذي بوسعه أن يؤديه، فدفع مائة ألف دينار لافتداء ابنه طيء، وتحدث فيما يؤدي من الأموال بعد ذلك.

وفي تلك الأثناء تحرك جيش الفرنج بضعة أميال صوب الشمال، وعسكر في المطرية، قرب شجرة الجميزة التي استظلت بها العذراء عند فرارها إلى مصر. وظل عساكر الفرنج ثمانية أيام بهذه الجهة حتى وردت الأنباء فجأة بأن أسد الدين شيركوه قد اتخذ طريقه إلى مصر بناء على دعوة الخليفة الفاطمي.

كان الخليفة الفاطمي «العاضد» قد أدرك خطورة الموقف الذي وصلته مصر بسبب سياسة وزيره شاور الخاطئة وتعاونه مع الصليبيين، «**فأرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج**». كما أرسل أهل مصر إلى نور الدين «**يشرحون له ما وصل إليه الموقف في بلادهم، ويعرضون عليه تقديم ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكره، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضاً، خارجاً عن الثلث الذي لهم**».

ولم يكن شاور راغباً في التعاون، مرة أخرى، مع نور الدين، غير أن ابنه الكامل تغلب عليه، فأرسل بدوره إلى نور الدين يطلب دعمه، فما كان من

نور الدين إلا أن أرسل إلى أسد الدين شيركوه، الذي كان يقيم بحمص، يطلب إليه حضوره، لكن رسول نور الدين لم يجتمع بأسد الدين إلا قرب حلب. ولم يتردد نور الدين في هذه المرة بتقديم كل دعم ممكن، فأمد أسد الدين شيركوه بثمانية آلاف فارس، كما قدم له مائتي ألف دينار ليستخدمها مع جيش دمشق في فتح مصر، وأمر صلاح الدين بأن يسير في صحبة عمه[1]، فسار هذا على كره منه.

وانطلق جيش دمشق فاجتاز صحراء سيناء بسرعة، وعندما اقترب من مصر، وجد شاور الفرصة مناسبة لإنذار حلفائه بأن بقاءهم في مصر سيمنح أسد الدين الفرصة للاستيلاء على مصر بالقوة، واعتقد شاور أن باستطاعته الانقضاض على جيش دمشق عند خروجه من الصحراء، غير أن أسد الدين شيركوه تجاوزه بعد أن تسلل إلى الجنوب من موضعه، فلم يعد لدى الفرنج من سبيل آخر سوى الجلاء عن مصر. فشرع أملريك في الارتداد في ٢ كانون الثاني - يناير (١١٦٩م) بعد أن أمر أسطوله بالعودة إلى عكا، وباستدعاء الحامية المرابطة ببلبيس للحاق به.

ووصلت أخبار انسحاب الفرنج إلى نور الدين في الشام، فأمر بضرب البشائر في البلاد، وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك، فإنه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها. أما في مصر فلم تمض ستة أيام حتى دخل شيركوه إلى القاهرة، وبعد أن خلف جيشه الذي عسكر في باب اللوق (الخلعة العاضدية)، توجه إلى بلاط الخليفة الفاطمي، حيث غمره العاضد بالمراسم والاحتفالات، ووعد ببذل الأموال والمؤن لعساكره.

---

(١) لم يكن صلاح الدين راغباً في مرافقة عمه أسد الدين شيركوه. وجاء في **الكامل**، ابن الأثير ٩/ ١٠٢، ما يلي: «حكى لي بعض أصدقائنا ممن كان قريباً إلى صلاح الدين، خصيصاً به، قال: لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب إرسال العساكر، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضِ إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسول إليه ليحضر، وتحثُّه على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. ففعلت وخرجنا، فلما كنا على ميل من حلب لقيناه قادماً. فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إليَّ فقال لي: تجهز يا يوسف. فقلت: والله لو أُعطيت ملك مصر ما سرت إليها. فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً. فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فتأمر به. فأمرني نور الدين وأنا استقيل. وانقضى المجلس، وتجهز أسد الدين ولم يبق غير المسير. قال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة. . . فأعطاني ما تجهزت به. فكأنما أُساق إلى الموت، فسرت معه وملكها. ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت أطمع في بعضه».

ولم يكن باستطاعة شاور أن يفعل شيئاً بعد أن عرف قوة جيش الشام وشعر بالتفاف أهل مصر حول هذا الجيش، وأدرك ما يحمله الخليفة العاضد من تأييد لأسد الدين شيركوه. وتظاهر شاور بالتودد لأسد الدين، وظل يتردد عليه كل يوم من الأيام التالية للتشاور في التدابير المالية واقتسام أعمال الوزارة، ثم أنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن شيركوه». فقال له أبوه: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً». فقال: «صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد ذاته إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً».

وعرف صلاح الدين بنوايا شاور، فاتفق مع عز الدين جرديك وغيره على قتل شاور، وعلم أسد الدين بذلك فنهاهم، وتصادف أن توجه أسد الدين لزيارة قبر الشافعي، وجاء شاور كعادته، فلقيه صلاح الدين وجرديك في جمع من الجند، وخدموه وأعلمو بأن شيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي، فقال: نمضي إليه. فساروا جميعاً، فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه إلى الأرض عن فرسه، فهرب أصحابه عنه، فأخذه أسيراً، فلم يمكنهم قتله من دون أمر أسد الدين، فأقاموا عليه الحراسة، وأرسلوا إلى أسد الدين لإعلامه، فحضر ونهاهم عن قتله، وسمع الخليفة العاضد الخبر فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، فقُتل وأُرسل رأسه إلى العاضد، في (السابع عشر من ربيع الآخرة ٥٦٤هـ/ ١٨ كانون الثاني ـ يناير ١١٦٩م)، ودخل أسد الدين القاهرة وأعلن أنه أباح نهب بيت الوزير لمن أراد ذلك.

ومضى شيركوه مع الخليفة إلى دار الخلافة، فتقلد في هدوء زمام الحكم، ولم تمض أكثر من أسابيع قليلة حتى أصبح شيركوه سيداً على الديار المصرية بأسرها، وحاز أمراؤه ما كان بيد شاور وأسرته من إقطاعات، واتخذ شيركوه لقب الملك الوزير.

ولم يعش شيركوه طويلاً بعد أن تولى الوزارة، إذ توفي في يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ ٢٣ آذار ـ مارس ١١٦٩م) وانتقلت ألقاب شيركوه وسلطاته إلى ابن أخيه صلاح الدين، وخلع الخليفة العاضد عليه لقب (الملك الناصر) وثبت قدم صلاح الدين باعتباره نائباً عن نور الدين الذي كان يكاتبه

بالأمير (الأسفهسلار) ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية[1].

(١) ما أن توفي أسد الدين حتى بدأ التنافس بين الأمراء لاحتلال مركزه. ويذكر ابن الأثير، **الكامل ٩/ ١٠٢**: «طلب الأمراء النورية الذين كانوا بمصر التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده، ومنهم عين الدولة الباروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي (وهو خال صلاح الدين) وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها. فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه. وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يولى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه. فلما خلع عليه لقب الملك الناصر، ولم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما. ثم قصد الحارمي وقال: هذا صلاح الدين هو ابن أختك، وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك. فمال إليه أيضاً، ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم أطاع غير عين الدولة الباروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف. وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين».

٣ ـ الحرب المستمرة بين الهزيمة والنصر

لقد وصلت القيادة إلى صلاح الدين على غير إرادة منه، ولكن إذا لم يكن صلاح الدين راغباً في ممارسة دوره ضمن مناخ التمزق المهيمن على العالم الإسلامي، إلا أن كفاءته قد تفتحت بصورة مباغتة بعد أن لعبت يد القدر لعبتها فوضعته في قلب الأحداث.

وكانت الأخطار المحيطة بصلاح الدين كثيرة؛ فقد كان للفاطميين أجهزتهم وتنظيمهم ومراكزهم القوية، وكان الفرنج في الخارج يتهددون سلطته باستمرار، ومما كان يزيد من خطورة الموقف وجود اتصال دائم بين الفاطميين والفرنج، وكان هناك أيضاً نور الدين زنكي المقيم في الشام، والذي كان لا يهدأ في حرب الإمارات الصليبية ويرغب في جعل مصر ظهيراً قوياً له ونصيراً.

وأمام هذا الموقف المعقد، انصرف صلاح الدين لبناء القاعدة القوية والمأمونة في مصر، «فاستمال قلوب الناس وبذل الأموال، فمال إليه المصريون وأحبوه». ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله، فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته، وكلهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين، فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم فازدادوا له حباً وطاعة.

وانصرف صلاح الدين للقضاء على الفاطمية بالطريقة المضادة لما بدأت به، فأخذ في إضعافها تدريجياً وعلى مراحل، وكان يغتنم كل فرصة لتصفية مراكز المقاومة، وجاءت الظروف المناسبة لتقدم له كل دعم في مشاريعه ولتنقله من نصر إلى نصر[١].

---

(١) بعد دخول الفاطميين مصر كتبوا لأهلها أماناً أعلنوا فيه احترامهم للمذهب السني الذي كان مذهب غالبية المصريين في ذلك الوقت، بحكم أن الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة في رأيهم. وفي أيام الخليفة الفاطمي الثاني في مصر (العزيز بالله) بدأت الخلافة الفاطمية وكانت قد استقرت أحوالها في دعوة المصريين من دون إجبارهم إلى مذهبها، عن طريق شرح نصوص =

وبدأ صلاح الدين بعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم وشرَّد الدعاة، وألغى مجالس دعوتهم، وأزال أصول المذهب الشيعي مثل «**الأذان بحيى على خير العمل، بدلاً من الأذان بحيى على الفلاح، والجهر بالبسملة في الصلاة، ومنع صلاة الضحى والتراويح والصيام على أساس أن شهر رمضان ثلاثين يوماً. بل حذف من النقش الديني على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية: (علي ولي الله). ثم أخذ في إبراز نسب الفاطميين على أنهم من نسل المجوس أو اليهود، وإن زعموا أنهم علويون، حتى لا ينسبوا إلى بيت النبي. كذلك منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم**، حيث استمر هذا المنع مائة عام إلى أن جاء المماليك ليعيدوها إلى الجامعين، كما أنه كان يخطب لنور الدين بعد العاضد في الجوامع الأخرى».

وفي الوقت ذاته جعل صلاح الدين همه عودة مذهبي السُّنَّة، الشافعي ومالك، إلى انتشارهما الأول قبل مجيء الفاطميين، فأخذ في بناء مدارس لتدريس المذهبين السنيين، ليس فقط في القاهرة، وإنما أيضاً في جميع أنحاء القطر، مع أنه لم يكن للمذاهب غير الشيعية شيء من المدارس[1]. ونتيجة

= التشريع الشيعي، فعينت لهذا الغرض ٣٥ فقيهاً بالجامع الأزهر الذي بدئ في بنائه منذ أيام المعز، كما كان وزراء الخلافة وقضاتها يقرؤون شروحاً من تأليفهم عن التشريع الشيعي. وفي أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي الثالث بمصر، وضع نظام دقيق لتحويل المصريين، وبخاصة الموظفين منهم، إلى المذهب الرسمي، إذ كان لا بد، لكي يبقوا في وظائفهم، أن يكون لهم على الأقل ميول شيعية، فعين الحاكم للدعوة الفاطمية، أو ما عرف أيضاً بالدعوة الهادية، من يشرف عليها في القاهرة والأقاليم. وظهرت لأول مرة بين وظائف الخلافة الكبرى وظيفة (داعي الدعاة) التي تأتي في المرتبة بعد قاضي القضاة، حيث كان له مجلس يتكون من اثني عشر نقيباً هم رؤساء الدعوة، ودعاة يتبعونهم وينتشرون في جميع أجزاء مصر وبلاد الخلافة التابعة لها كنواب القضاء، حتى أن أقاليم الدعوة عرفت بالجزائر لانتشارها. (**الخطط** للمقريزي ٤/ ١٥٦، ١٥٧، القاهرة ١٣٢٦هـ).

(١) «ترتب على تنظيم الدعوة الفاطمية أنها لم تعد شرحاً للتشريع فحسب، وهو ما عرف «بالظاهر»، وإنما اشتملت أيضاً على ما عرف بالدعوة «الباطنية»، بمعنى تأويل نصوص القرآن والحديث بمعرفة ما وراء معاني الألفاظ بهدف توطيد حق الإمامة الفاطمية بطريقة إيمانية (عقائدية) غير قابلة للنقاش، فتحولت نصوص القرآن والحديث إلى أدوات طيعة لتأييد إمامتهم ومذهبهم. وبعد أن كانت الدعوة دعوة واحدة علنية، أصبحت درجات، عددها سبع أو تسع درجات، دعوة بعد دعوة، ودخلتها آراء فلسفية وجدلية، كما أن المستجيب لم يعد مجرد مستمع، وإنما كان عليه أن يقسم يميناً للمذهب (العهد) مؤداه ستر كل ما سمعه، وألا يقدم مساعدة لأعداء الفاطميين. فكانت هذه الدعوة الباطنية تدرس على الخصوص في دار العلم أو الحكمة، التي =

لذلك تظاهر الناس في مصر بمذهبي مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة.

ثم خطا صلاح الدين خطوة أخرى لإضعاف نفوذ حاشية القصر التي أصبحت تشكل فرقة كبيرة لم تعرف مصر لها مثيلاً في قصر إسلامي من قبل، حتى بلغ عددها، عند سقوط دولة الفاطميين، ثمانية عشر ألفاً، فكانت تتكون من موظفين من كل نوع ولون ودين يقومون بأعمال القصر المختلفة، وأغلبهم من أصل أجنبي، يعملون تحت رئيسهم الأمير، وكان يتولى قيادتهم في تلك الفترة الأمير **(مؤتمن الخلافة جوهر)**.

وقد جاءت الفرصة المناسبة، عندما كتب كبير الطواشية (المؤتمن) إلى ملك بيت المقدس «أملريك» رسالة يعده بالمساعدة إذا غزا الفرنج مصر، على أنه حدث، لسوء حظ المؤتمن، أن ارتاب أحد رجال صلاح الدين في شكل الخفين اللذين اتخذهما رسول البلاط وسيلة لإخفاء رسالة سيده، فأخذهما واقتاد حاملهما إلى صلاح الدين الذي نزع خياطة الخفين فخرجت الرسالة وقرأها صلاح الدين، وكتم أمرها، **وكان مخطط المؤتمن أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين لقتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فقتلونهم، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره**، والفرنج من أمامه فلا يبقى لهم باقية.

وسأل صلاح الدين عن كاتب الرسالة فقيل له إنه رجل يهودي، فأحضره فأمر باستجوابه، فأسلم اليهودي وأخبر صلاح الدين بأن مؤتمن الخلافة هو الذي طلب إليه ذلك. واستشعر المؤتمن الخطر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد من صلاح الدين الذي لا يظهر له شيئاً لئلا ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه، فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة فأخذوه وقتلوه.

وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة واستعمل على الجميع «**بهاء الدين قراقوش**» وهو خصي أبيض، وكان لا يجري في القصر صغير ولا

= أضيفت للجامع الأزهر وفتحت أبوابها في عهد الحاكم (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م). وكانت نتيجة هذا التنظيم المعقد للدعوة الفاطمية أن أصبح المذهب السني غريباً في عهد المستنصر، الخامس من الخلفاء في مصر، وانتشر المذهب الفاطمي على نطاق واسع بين المصريين».
(**النجوم الزاهرة**، ابن تغري بردي، القاهرة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٦، ٥/ ٣).

كبير إلا بأمره. فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة، للجنسية، ولأنه كان يتعصب لهم، فحشدوا وجمعوا فزادت قوتهم على خمسين ألفاً، ونهض توران شاه، شقيق صلاح الدين، لحربهم وقاتلهم بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين من دون نتيجة[1].

وعند ذلك أرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وأولادهم، فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين، فانقض عليهم توران شاه وأجهز عليهم، وعندما طلبوا الأمان، بعد أن كثر فيهم القتل، أجابهم صلاح الدين لطلبهم، ولكنه أخرجهم من مصر. وخمدت المعارضة المناهضة لصلاح الدين، وكان زوال «المؤتمن جوهر» إيذاناً بزوال أكبر مقاومة في طريق صلاح الدين[2].

الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة، وحصار دمياط (٥٦٥هـ/١١٦٩م)

أدرك الفرنج ما كان لانتصار شيركوه وصلاح الدين من أهمية في مصيرهم، وهذا ما دفع أملريك للاستنجاد بالغرب للدعوة إلى حرب صليبية جديدة. ولكن استجابة الغرب لم تكن جيدة، فتوجهت سفارة إلى القسطنطينية من أجل طلب الدعم، فصادفت الدعوة نصيباً من النجاح. إذ كان الامبراطور البيزنطي «مانويل» شديد الإدراك لما حدث من انقلاب في توازن القوى بالشرق، فعرض

---

(١) **الكامل**، ابن الأثير ٩/١٠٣، ١٠٤.

(٢) جدير في هذا المجال الإشارة إلى ما ذكره المقريزي، **الخطط** ٣/ ٤، حيث قال: «إن جوهراً هو فاتح مصر، وخراب الفاطميين بسبب جوهر». وجوهر الأول «الصقلي»، أما الثاني فهو المؤتمن جوهر الذي قتله صلاح الدين، وعين محله «قراقوش» ومعنى اسمه «الطائر الأسود»، كان خصياً أبيض اللون، لعله تركي أو يوناني، كان شيركوه قد أعتقه ولقبه بهاء الدين، وجعله صلاح الدين (زماماً للقصر)؛ أي: مشرفاً على شؤونه. فأشرف قراقوش على كل أمور القصر الفاطمي، بحيث أصبح لا يجري فيه صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين. وكان مما فعله قراقوش إخراج سكان القصور الفاطمية منها، والذين بلغ عددهم عشرة آلاف شريف وشريفة، أي من العلويين، ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادم وأمة ومولاة أو أكثر، فأعتق صلاح الدين بعضهم وأهدى أو باع البعض الآخر. أما أولاد العاضد وأقرباؤه، وكانوا أكثر من مائة، فإنهم اعتقلوا، وفرق الرجال من النساء لئلا يتناسلوا، واستمروا معتقلين طول زمن الدولة الأيوبية ومجيء المماليك. وكانت تصرفات قراقوش الجائرة تجاه سكان القصور الفاطمية سبباً في سخرية المؤلفين منه حتى أن أحد المصريين ألف عنه كتاباً سماه «الفاشوش في أحكام قراقوش»، ذكر فيه أشياء يبعد وقوعها عنه، والظاهر أنها موضوعة للنيل منه.
(**الخطط** ٢/٢١٦ و٣٩٤ ـ ٣٦٩).

على أملريك ملك بيت المقدس تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية، وقبل الملك عن طيب خاطر ما عرضه الامبراطور البيزنطي على أمل تحقيق أهدافه في إعادة احتلال مصر.

وفي ١٥ تموز ـ يوليو (١١٦٩م)، خرج أسطول امبراطوري ضخم من مياه الدردنيل بقيادة الدوق الكبير «أندرونيق كونتو ستيفانوس» وأقلع الأسطول الأساسي إلى جزيرة قبرص، فأسر في طريقه سفينتين مصريتين، بينما توجه أسطول صغير إلى عكا مباشرة وهو يحمل أموالاً للإنفاق على جند أملريك، وطلب منه أن يرسل متى شاء إلى الأسطول بقبرص حتى يقلع منها.

غير أن أملريك لم يكن مستعداً، إذ أن حملة سنة (١١٦٨م) أدت إلى إضعاف قواته، كما كانت خسائر الأسبتارية فادحة، وما زال الداوية يرفضون الاشتراك في الحملة. أما البارونات الذين لم تشجعهم تجربتهم السابقة، فإنهم افتقدوا ما توافر لهم من حماس من قبل، فلم يدع أملريك الأسطول إلى القدوم إلى عكا إلا في أواخر أيلول ـ سبتمبر سنة (١١٦٩م)، فأثارت طلعته حماس سكان المدينة، ولم تستعد كل الحملة للمضي إلى مصر إلا في منتصف شهر تشرين الأول ـ أكتوبر.

وفي النهاية، تحركت الحملة الصليبية يوم ١٦ تشرين الأول ـ أكتوبر. وإذ اشتد سخط قائد الأسطول «أندرونيق كونتو ستيفانوس» لكثرة ما لجأ إليه أملريك من تأجيل مسير الحملة، عرض أن ينقل على سفنه معظم العساكر، غير أن الفرنج أصروا على اتخاذ الطريق البري.

دخل جيش الفرنج مصر يوم ٢٥ تشرين الأول ـ أكتوبر (١١٦٩م)، وتوقع صلاح الدين أن تتعرض بلبيس للهجوم، فزج بها قوات كبيرة، غير أن الفرنج اجتازوا الفروع الشرقية للنيل على سفن بيزنطية بعد أن ظلوا على اتصال بها طوال تحركهم على امتداد الساحل ما بين فلسطين ومصر، ثم أسرعوا في مسيرهم إلى دمياط، الحصن المنيع الذي يتحكم بالفرع الرئيسي للنيل، فرع دمياط، حيث يستطيع الأسطول أن يقلع فيه نحو القاهرة.

وأرسل صلاح الدين قواته في النيل، وحشد فيها كل ما توفر لديه من قوات، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر، لكنه لم يغادر القاهرة، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: «إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن

طاعتي وساروا في أثري والفرنج أمامي، فلا يبقى لنا باقية». فسيَّر نور الدين العساكر إليه إرسالاً قوات دعم، يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من المقاومة.

أما في دمياط، فقد ألقت حاميتها سلسلة ضخمة عبر النهر لتحول دون مرور السفن، ولم يكن بوسع السفن اليونانية التي عطلتها فعلاً الرياح العكسية أن تمضي إلى دمياط لتمنع ما يرد إليها من القاهرة عن طريق فرع النيل من دعم وإمدادات، وتدخل قائد الأسطول البيزنطي فطلب اتخاذ إجراء مباشر، وحث على تنظيم هجوم مباغت للاستيلاء على الحصن.

ولكن عندما شاهد «أملريك» الاستحكامات الضخمة ارتاع لرؤيتها، وأخذ في إعداد الأبراج لمهاجمتها، على أن أول برج شيده اتخذ وضعه نتيجة خطأ في التقدير أمام أمنع جانب من الأسوار. وجزع المسلمون والمسيحيون سواء حينما استخدموا أدواتهم في قذف حي باركته كنيسة (باسم العذراء) التي توقفت بهذا الموضع أثناء فرارها. واستمر وصول الإمدادات للمسلمين يوماً بعد يوم على حين أخذت المواد التموينية تتضاءل يوماً بعد يوم وتنفد من أيدي البحارة اليونانيين ومواطنيهم على الشاطئ.

ورغم توفر الأغذية عند الفرنج فإنهم لم يتقدموا إلى حلفائهم اليونانيين بتأمين متطلباتهم، وصار كونتو ستيفانوس يناقش «أملريك» كل يوم في المغامرة بهجوم شامل على جميع الأسوار، بينما أجاب «أملريك» بأن المغامرة تنطوي على خطر بالغ الشدة، وتهامس قادته الذين ساورتهم دائماً الشكوك في اليونانيين، بأن حماس كونتو ستيفانوس إنما يرجع لرغبته في أن تكون دمياط من نصيب الامبراطور في الغنائم.

ولم يستهل شهر كانون الأول ـ ديمسبر سنة (١١٦٩م) حتى ظهر فشل الحملة. فليس باستطاعة اليونانيين أن يمضوا إلى أبعد مما وصلوا إليه نظراً لنفاد الأقوات. وأنزل المسلمون المدافعون عن دمياط سفينة نقاطة (حراقة) بين سفن الأسطول اليوناني، فأنزلت به خسائر فادحة برغم مبادرة «أملريك» إلى التدخل لمنع استفحال الضرر.

وتوافر لحصن دمياط وقتئذٍ الرجال المدافعون والمؤن، كما أن جيشاً إسلامياً من الشام أخذ، فيما أشيع، بالاقتراب من المدينة المحاصرة. ولما هطلت

الأمطار قبل موعدها، وحولت المعسكر المسيحي إلى مستنقع، تهيأ الوقت لرفع الحصار، وليس محققاً ما إذا كان أملريك أو كونتو ستيفانوس هو الذي بدأ المفاوضات مع المسلمين، كما أن شروط الانسحاب غير معروفة، ولكن المعروف أن قوات الفرنج أحرقوا كل أدوات الحصار يوم ١٣ كانون الأول ـ ديسمبر (١١٦٩م) حتى لا تقع في قبضة المسلمين، ثم تحركوا من دمياط بعد حصار استمر خمسين يوماً.

ووصل جيش الفرنج إلى عسقلان يوم ٢٤ كانون الأول، أما الأسطول البيزنطي فلم يحالفه الحظ في انسحابه، ذلك أنه عندما أبحر صوب الشمال صادفته عاصفة عنيفة، فلم يستطع البحارة، الذين كادوا يهلكون جوعاً، السيطرة على سفنهم، فغرقت سفن كثيرة، وظلت الأمواج أياماً تقذف إلى ساحل فلسطين جثث اليونانيين. أما قائد الأسطول «كونتو ستيفانوس» فاستطاع التسلل، فأبحر إلى قيليقية، ومنها توجه بالطريق البري ليعلم الامبراطور ما حدث، وبلغت بقايا الأسطول الضخم مياه البوسفور في أوائل السنة التالية، وخرج صلاح الدين من المعركة وهو سيد مصر بدون منازع.

إغارة استطلاعية في فلسطين (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)

وجد صلاح الدين أن الأمور بدأت في الاستقرار، فانتقل من الدفاع في مصر إلى الهجوم على حدود فلسطين المحتلة، وغادر القاهرة ضمن إجراءات أمن مشددة حتى أنه ظهر بصورة مباغتة أمام الداروم (وهو حصن للفرنج يقع في أقصى الجنوب على ساحل البحر المتوسط)، ولم تكن التحصينات قوية، ومع أنه لم يكن مع صلاح الدين شيء من أدوات الحصار، فإن سقوط الحصن أضحى فيما يبدو وشيك الوقوع.

وعجل ملك بيت المقدس «أملريك» بالمسير إلى عسقلان، فوصلها في ١٨ كانون الأول ـ ديسمبر سنة (١١٧٠م)، ومنها تحرك إلى غزة بعد أن انضم إليه فرسان الداوية في زحفه على الداروم.

واستمر صلاح الدين في عملياته، فقاد قواته للإغارة على أعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة، وهنا اصطدم بملك بيت المقدس فقاتله وهزمه، وأفلت ملك المقدس بعد أن كاد يسقط أسيراً.

على أن صلاح الدين عاد فجأة إلى الطرف المصري، مثلما ظهر فجأة أمام

الداروم، وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعاً على الجمال في البر وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحاصر أيلة براً وبحراً وفتحها، وبذلك تمت له السيطرة على معقل الفرنج الواقع على رأس خليج العقبة.

إلغاء الخلافة الفاطمية (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)

كان نور الدين زنكي شديد الحرص على إحياء السُّنة، فعندما عرف أن صلاح الدين بن أيوب قد أصبح متمكناً من أمور مصر، وأنه أزال المخالفين له وأضعف أمر الخليفة بها «العاضد»، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش الذي كان من أعيان الأمراء الأسدية بحيث أن الجميع يرجعون إليه، كتب إليه نور الدين يطلب إليه قطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة للخليفة العباسي ببغداد (المستضيء) فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم إلى العلويين.

وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه، فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى إن قصده نور الدين، وجد صلاح الدين في الخليفة وأهل مصر له عضداً ودعماً وحماية. فلما اعتذر إلى نور الدين بذلك لم يقبل عذره، وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته.

واتفق ذلك مع مرض العاضد في تلك الفترة مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته، استشار أمراءه، فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافه، إلا أنه لم يكن هناك مفر من تنفيذ أمر نور الدين.

وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف (بالأمير العالم) فلما رأى ما هم فيه من الإحجام، وأن أحداً لا يجد الجرأة للخطبة للخليفة العباسي، قال: انا أبتدئ بالخطبة له. فلما كان أول جمعه من المحرم (٥٦٦هـ) صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء ففعلوا ذلك، فلم ينتطح فيها عنزان كما يقول ابن الأثير، وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعلوا.

وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا إن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة. ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، فحفظه

بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين.

ترتب على إنهاء صلاح الدين للخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين الذين وصفوها بدولة الرافضة، أي التي رفضت الدين الإسلامي وخرجت عليه. وكانت الخلافة العباسية السنية تتطلع إلى أن يزيل نور الدين الدولة الفاطمية، حتى أن الخليفة المقتفي لأمر الله بعث بتقليدها إليه حينما قتل الظافر الفاطمي بمصر، وإن كان سقوطها على يد صلاح الدين قد تم في أيام حفيده المستضيء بأمر الله.

وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلى نور الدين، فبعث هذا الأخير رسولاً بكتاب تهنئة خاص للمستضيء، ومعه منشور الإلغاء الذي قرئ في سائر المدن والقرى إلى أن وصل إلى بغداد، كما أرسل صلاح الدين للمستضيء، بكتاب من خط القاضي الفاضل وإنشائه، فزينت بغداد وأغلقت الأسواق وأُقيمت الاحتفالات لاستقبال رسول نور الدين وقراءة المنشور.

وقد أسرع الخليفة المستضيء بإرسال الخلع من ملابس وغيرها لنور الدين، ومثلها أقل في العدد والقيمة لصلاح الدين على اعتبار أنه نائب نور الدين، وكلها سوداء شعار العباسيين بدلاً من البياض شعار الفاطميين. وفي مصر احتفل صلاح الدين رسمياً بوصول خلعة الخليفة العباسي إليه، فلبسها وشق بها حارات القاهرة.

وفي صلاة الجمعة التالية للإلغاء نصبت على المنابر في مصر والقاهرة الأعلام السوداء، ولبس الخطباء ثياباً سوداء أُرسل بها من بغداد، وأُجبر على الحضور رجال الدولة وأعيان المصريين، وهدد من تأخر منهم بالعقاب، فحضر من لا يريد الحضور. وأصبح يخطب لصلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العباسي ونور الدين، كذلك قررت العملة باسم المستضيء بأمر الله، وباسم الملك العادل نور الدين فنقش اسم كل منهما في وجه[1].

---

(١) وقع إلغاء الخلافة الفاطمية موقع الألم والأسى من نفوس المصريين الذين اعتبروا أن دولة الفاطميين هي دولتهم، حتى أن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها بدولة المصريين، وذكر المؤرخ ابن تغري: «أن نفوس المصرين كادت تزهق حزناً لانتهاء دولة الفاطميين. وقد أحب المصريون هذه الخلافة الفاطمية لأنها جعلت من مصر دولة مستقلة استقلالاً تاماً لا يحكمها ولاة معينون من بغداد أو دمشق أو المدينة كما كان الحال من قبل. . وكانت الخلافة الفاطمية =

لم تمض أكثر من أيام قليلة على إلغاء الخلافة الفاطمية حتى انطلق صلاح الدين ببعض قواته، فتجاوز سيناء ووصل إلى حصن الشوبك جنوبي البحر الميت، فطوقه وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال وطلبوا الأمان، واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك.

فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً ليدخل إليه من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين. وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا، فلا بدَّ لك من الاجتماع به، وحينئذٍ يكون هو المتحكم فيك بما شاء، إن شاء تركك أو لا، فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، وكتب إلى نور الدين: «يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعته العلويين، وأنهم عازمون على الوثوب بها، فإنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة. وأطال الاعتذار». لكن نور الدين لم يقبل أعذار صلاح الدين، وأظهر غضبه وأعلن عن عزمه على غزو مصر وإخراج صلاح الدين منها.

وجزع صلاح الدين لما سمعه، فدعا إلى عقد مجلس من أفراد أسرته وكبار

= تعتمد في دواوينها على المصريين سواء أكانوا من المسلمين أو القبط، الذين تولوا أعلى مناصب بما فيها الوزارة.. وأخيراً فإن أيام الخلافة الفاطمية في مصر كانت أعياداً متواصلة مما لم يعرف له مثيل من قبل، ليست فقط للمسلمين من أهلها، وإنما أيضاً للقبط، بحيث أنها في أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والأموال والملابس للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاماً، وأنها كانت تقوم بسك دنانير خاصة بها، كما كانت تفعل في أعياد المسلمين. وكان سقوط الخلافة الفاطمية يعني بالنسبة للمصريين ضعف مركز بلادهم، وعودتها ولاية تابعة لخلافة العباسيين، وأنهم خضعوا لجنس أجنبي عنهم (وهم الغز، الترك)، لا سيما وأن صلاح الدين استبعد رجال مصر من وزارته وأخرجهم من الوظائف والجيش، وهم بإخراج القبط من الدواوين» إلخ.

للمزيد، يمكن الرجوع إلى المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٦م/ ١/١/ ٤٣ ـ ٤٨، وابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، القاهرة (١٩٣٣ ـ ١٩٣٦م) ٥/ ٣٥٧. وكذلك أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين**، القاهرة (١٢٨٨هـ) مجلد ١/ ٢١٩، ٢٢٠.

قادته. فأشار شباب الأسرة بإعلان التحدي لنور الدين، ولكن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، نهض فقال بأنه يكن الولاء والإخلاص لسيده نور الدين، وأنكر على ابنه طموحه. ولما خلا به أنَّبَهُ على الإفصاح عن طموحه، فأذعن صلاح الدين لنصيحته، وزال غضب نور الدين مؤقتاً، وقبل من صلاح الدين أعذاره وحججه[1].

عقبات صعبة في طريق صلاح الدين (٥٦٨، ٥٦٩هـ/١١٧٢، ١١٧٣م)

عرف صلاح الدين أنه من الصعب عليه تحقيق الاستقرار في مصر ما لم يضمن الهدوء على جبهته الجنوبية، ومن المحتمل أن يكون قد فكر في ضمان قاعدة تبادلية لحكمه إذا ما اضطر لمجابهة نور الدين. وعلى هذا وجه أخاه شمس الدولة «توران شاه» إلى النوبة. فغادر «توران شاه» مصر في جمادى الأولى (٥٦٨هـ)، ووصل إلى أسوان، ومنها توجه إلى النوبة، فنازل قلعة اسمها (أبزيم) فحاصرها وقاتلها. ولما لم يكن باستطاعة أهلها مجابهة قوات الجيش الإسلامي، نظراً لافتقارهم للحصون التي تحميهم من السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها فملكها وأقام بها.

---

(١) عندما علم صلاح الدين بما انتاب نور الدين من غضب دفعه للإعلان عن عزمه على إخراج صلاح الدين من مصر.. جمع صلاح الدين أهله ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة، فقام تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين فقال: «إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد». ووافقه غيره من أهلهم، فشتمهم نجم الدين وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: «أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبة لك من جميع ما ترى. والله لو رأيت أنا وهذا خالك شهاب الدين الأمير نور الدين لم نلبث إلا أن نقتل بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه، فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد سمعنا وأطعنا. والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب - مراسل - تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك. وما ههنا من يمتنع». وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا. فلما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: «بأي عقل فعلت هذا، أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته، جعلنا أهم وجوهه إليه وحينئذٍ لا نقوى عليه. وأما الآن إذا بلغه ما جرى تركنا واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر في مصر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل».
(**الكامل**، ابن الأثير ٩/ ١١٣).

وقام «توران شاه»[1] بدراسة الإقليم فتبين له أنه لا يصلح كقاعدة دفاعية نظراً لضعف موارده، وعدم قدرته على احتمال قوات كبيرة، فقرر العودة إلى مصر مكتفياً بما حصل عليه من غنائم.

كانت الأمور على الجبهة الأخرى تسير بصورة غير مواتية، فقد أغار الفرنج على حوران والشام، واستولوا على سفينتين تجاريتين كانتا قد سافرتا من مصر إلى اللاذقية. وقرر نور الدين القيام بالهجوم على بلاد الفرنج في الشام واتصل بصلاح الدين، وتم الاتفاق على أن يخرج صلاح الدين من مصر، وأن يخرج نور الدين من دمشق، فأيهما سبق صاحبه يجب عليه التوقف حتى يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم محدد لبدء الهجوم على بلاد الفرنج من جهتين.

وخرج صلاح الدين من مصر (في شهر شوال ٥٦٨هـ) في وقت مبكر، واضعاً في اعتباره المدة التي تتطلبها عملية عبور سيناء، ووصل إلى الكرك وحاصر حصونها. وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر، فرق الأموال وجمع المؤن والإمدادات الضرورية وما يحتاج إليه، وسار إلى الكرك حتى وصل إلى (الرقيم) ولم يبق بينه وبين الكرك أكثر من مرحلتين.

وعندها اتفق صلاح الدين وأهله على العودة إلى مصر خوفاً من اجتماعهم بنور الدين. فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيل صلاح الدين الذي كان قد خلف أباه «نجم الدين أيوب» على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف. فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك، فعظم عليه وعرف هدف صلاح الدين من عودته، إلا أنه لم يظهر للرسول تأثراً بل قال له: «إن حفظ مصر عندنا أهم من غيرها».

وعندما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه قد قضى نحبه، في يوم ٢٧

---

(١) **شمس الدين «توران شاه»** هو الأخ الأكبر لصلاح الدين، وذكر ابن الأثير، **الكامل** ١١٨/٩ و١٢٢ «أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون بتصميم نور الدين الدخول إلى مصر، فاستقر الراي بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد، فإن استطاعوا منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد فتحوها. وعندما عاد «توران شاه» من حملته في النوبة، استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي، حاكم زبيد الفاطمي الذي قطع خطبة الخليفة العباسي، فأذن لهم نور الدين».

ذي الحجة (٥٦٨هـ)، وأرسل نور الدين إلى الخليفة في بغداد يطلب تقليداً بما بيده من البلاد (مصر والشام والجزيرة والموصل وبما في طاعته، كديار بكر، وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج إرسلان) وكان هدفه الحصول على الشرعية التي يستند إليها لإخضاع مصر وإتباعها رسمياً له.

مكث صلاح الدين في مصر، وهو يتابع جهود أخيه في اليمن بعد أن أخذت أهمية هذه القاعدة تتزايد مع تزايد خطر هجوم نور الدين على مصر. وكان «شمس الدين توران شاه» قد نظم جيشه تنظيماً جيداً وجهزه بكل ما يحتاجه من الأسلحة والإمدادات وتجهيزات الحصار، ومضى إلى مكة المكرمة، ثم توجه منها إلى زبيد فقاتله أهلها بقيادة حاكمها «عبد النبي»، وانتصر «توران شاه» بعد معركة قصيرة وحاسمة، فهرب الزبيديون إلى «سور زبيد» وطاردهم المصريون، ولم يجدوا أمام السور ما يمنعهم من اقتحامه، فنصبوا السلالم واقتحموا البلد عنوة وقبضوا على عبد النبي وزوجته (المدعوة بالحرة) واستخلصوا ما لديهما من أموال ضخمة وكنوز وفيرة.

ولما ملكوا زبيد واستقر الأمر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية، أصلحوا حالها وساروا إلى عدن، وهي على البحر مرسى عظيم وهي فرجة الهند والزنج والحبشة وعُمان وكرمان وكش وفارس وغير ذلك، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها، وعند الوصول إلى عدن تصدى حاكمها «ياسر» لمقاومة «توران شاه» ودارت معركة انتصر فيها توران شاه، وأراد جنده نهب البلد فمنعهم وقال: «ما جئنا لنخرب البلاد وإنما جئنا لنملكها ونعمرها ونتتفع بدخلها»، فلم ينهب أحد منها شيئاً.

ولما فرغ «توران شاه» من أمر عدن، عاد إلى زبيد، فملك قلعة تعز وقلعة التعكر وغيرهما من المعاقل. وأحسن شمس الدولة «توران شاه» إلى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن.

كان أخطر ما جابهه صلاح الدين في هذه الفترة من عام (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) التآمر للإطاحة به. فقد اتفق زعماء الفاطميين وسواهم، من أمثال عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم من السودانيين وحاشية القصر، واتفق معهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من

«صقلية» ومن ساحل الشام إلى مصر وتقديم الأموال لهم ووضع بعض الأقاليم تحت حكمهم، فإذا ما جاء الفرنج، وخرج صلاح الدين بنفسه للقائهم، ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية، ويصبح صلاح الدين مرغماً على الخروج من مصر. أما إذا بقي صلاح الدين في القاهرة وأرسل قواته للقتال فسيكون في قلة من جنده، وعندها سيكون من السهل على قادة الفتنة إضرام الثورة وإلقاء القبض على صلاح الدين واعتقاله.

وتم الاتفاق بين المتآمرين والفرنج على ذلك، ولم يبق إلا رحيل الفرنج من صقلية، إلا أن أحد المتآمرين ـ الواعظ والقاضي زين الدين علي بن نجا المعروف «ابن نجية» والذي أدخله المتآمرون معهم لمكانته ـ توجه إلى صلاح الدين وأعلمه بخطوط المؤامرة كما أعلمه بكل ما تم اتخاذه من تعيين للخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة، فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يستجد أولاً بأول، ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه، ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل ومعه هدية ورسالة، وكانت مهمته الاتصال ظاهرياً بصلاح الدين وإجراء الاتصالات السرية مع زعماء المؤامرة.

وكان صلاح الدين **يرسل إلى الفرنج بعض النصارى وتأتيه رسلهم بما يحدث ببلاد الفرنج**، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الأمر، فوضع صلاح الدين على الرسول القادم إليه بعض من يثق إليه من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته، فقبض حينئذٍ على المقدمين ـ الزعماء ـ في هذه المؤامرة وبينهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم، وصلبهم. ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد. وتم تشديد الحراسة على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله. وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم، وأخذ بعد ذلك في الاستعداد لاحتمال غزو الفرنج لمصر.

لم يكد صلاح الدين يفرغ من القضاء على الخطر الداخلي حتى ظهر له الخطر الأكبر في استعداد نور الدين لغزو مصر والقضاء على الأيوبيين فيها. وكان نور الدين في الواقع قد أخذ في الاستعداد للحملة على مصر (وذلك بعد أن رأى فتوراً من صلاح الدين في غزو الفرنج ليمتنع بهم على نور الدين)

فأرسل نور الدين إلى الموصل وديار بكر والجزيرة يطلب قدوم الجند إليه للغزو، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام، ويسير هو بعساكره إلى مصر. فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له، وتوفي نور الدين يوم الأربعاء ١١ شوال (٥٦٩هـ).

وعندما علم صلاح الدين بموت نور الدين تاثر لموته حتى خنقته العبرات، تقديراً منه لصفاته رغم ما بينهما من العداء. ولكن وبقدر ما كان الحزن عميقاً في بلاد المسلمين لوفاة نور الدين زنكي، فقد كان الفرح شاملاً في بلاد الفرنج، إذ توقع الفرنج أن تتوفر لهم ظروف أفضل بزوال خصمهم العنيد، لا سيما وقد ظهرت بواكير التمزق في العالم الإسلامي نتيجة تنازع ورثة نور الدين على حكم بلاد المسلمين. فقد خلف نور الدين على الحكم ابنه «**الملك الصالح إسماعيل**» وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان بصحبة والده في دمشق. وانتزع «**الأمير ابن المقدم**» بدمشق لنفسه الوصاية بعد أن ظفر بتأييد والدة الصبي «إسماعيل»، على حين أن والي حلب «**كمشتكين**» التي تعتبر قاعدة نور الدين الأساسية، أعلن نفسه بها وصياً. وتدخل أمير الموصل «**سيف الدين**» ابن عم الصالح إسماعيل، فأضاف إلى أملاكه نصيبين وكل بلاد الجزيرة حتى الرها. أما صلاح الدين الذي كان يحكم أعظم أقاليم نور الدين ثروة، فكتب إلى أمراء دمشق يطالب بأن تكون له الوصاية، غير أنه لم يكن وقتذاك في وضع يسمح له بفرض مطالبته[1].

وتابع ملك بيت المقدس «أملريك» ما يحدث وراء الهضبة، فأسرع للإفادة من هذه الفرصة بأن قاد قواته وسار قاصداً بانياس. وخرج ابن المقدم من

---

(١) عندما علم صلاح الدين بوفاة نور الدين أرسل إلى ابنه الملك الصالح إسماعيل يعزيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه. فلما سار سيف الدين غازي حاكم الموصل ومالك البلاد الجزرية، أرسل صلاح الدين أيضاً إلى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر في خدمته، ويضع سيف الدين عند حده. وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول: «لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق به مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده».
الكامل، ابن الأثر ١٢٦/٩، ١٢٧.

«دمشق» فالتقى به، ولم يلبث ابن المقدم أن اقترح عليه عقد هدنة، وهو ما كان يقصده «أملريك» فيما يظهر، مقابل أن يؤدي لأملريك مبلغاً ضخماً من المال وأن يطلق سراح كل أسرى الفرنج بدمشق، وأن يعقد معه في المستقبل محالفة لمناهضة صلاح الدين.

وظهر بوضوح أن الخصم الأكبر في طريق صلاح الدين هو ملك بيت المقدس «أملريك» الذي عرف بقوة شخصيته وكفاءته، بالإضافة إلى مكانته بين ملوك الفرنج وقدرته على توحيدهم، وتدخلت قبضة القدرة مرة أخرى لتزيل من طريق صلاح الدين هذه العقبة؛ إذ توفي «أملريك» يوم ١١ تموز - يوليو (١١٧٤م) وهو لا يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره، وزال من طريق صلاح الدين في عام واحد، أقوى الأصدقاء الخصوم وأقوى الأعداء الألداء.

٤ ـ صلاح الدين ووحدة المسلمين

لم يكن ملك صقلية «وليم الثاني» على علم بفشل مؤامرة الفاطميين والقضاء على زعمائهم، فتابع استعداداته لإرسال حملة ضخمة إلى مصر على أمل تحقيق ما عجزت الامبراطورية البيزنطية في تحقيقه أثناء هجومها السابق مع الفرنج على مصر. وأمكن حشد أسطول ضخم يضم مائتي سفينة إنزال (شواني) وستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل، وستة مراكب كبيرة تحمل آلة الحرب، وأربعين مركباً تحمل المواد التموينية. وبلغت قوة المقاتلين ٥٠ ألف مقاتل من المشاة و١٥٠٠ مقاتل من الفرسان، وتولى قيادة هذه الحملة «تانكرد، كونت ليتشي» وابن عم ملك صقلية.

وأبحرت الحملة لتظهر بصورة مباغتة أمام الإسكندرية يوم (٢٦ ذي الحجة ٥٦٩هـ/ ٢٥ تموز ـ يوليو ١١٧٤م) فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من الإنزال. وعندما ابتعدوا عن البلد منعهم قائد الحامية المدافعة عن المدينة وطلب إليهم ملازمة السور. ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشد قتال. وصبر لهم أهل الإسكندرية رغم ضعف الحامية، وراع الفرنج ما رأوه من شجاعة أهل الإسكندرية وصمودهم.

وتم إعلام صلاح الدين بإنزال القوات الصقلية، فأخذ في توجيه القوات لدعم حامية الإسكندرية اعتباراً من اليوم الثاني للإنزال. وفي اليوم الثالث انطلقت القوات من الإسكندرية فهاجمت قوات الغزو الصقلي من كل جانب. ووصل المسلمون إلى دبابات العدو فأحرقوها، واستمر الصراع بضراوة طوال النهار. وعندما عاد أهل الإسكندرية في آخر اليوم كانوا قد تركوا فوق أرض المعركة خسائر كبيرة من قوات أعدائهم.

وكان صلاح الدين قد وجه مجموعتين قتاليتين؛ الأولى إلى دمياط للمحافظة عليها والثانية إلى الإسكندرية، ثم جمع بقية قواته وتوجه بها إلى الإسكندرية،

ووصلت القوة إلى الإسكندرية في عصر اليوم الرابع والناس قد رجعوا من القتال «فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب الحرب وآلام الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله. وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين فسقط في أيديهم وزادوا تعباً وفتوراً، فهاجمهم المسلمون مع هبوط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والإمدادات الكثيرة. وكثر القتل في الصقليين فهرب كثير منهم إلى البحر، وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم. وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت، فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين. واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون طوال الليل، واستمر القتال حتى ضحى اليوم التالي، فغلبهم أهل الإسكندرية وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير.

ما أن شعر صلاح الدين بالراحة لتحرره من قلق احتمال الغزو الخارجي حتى ظهر له خطر جديد في الداخل، فقد وصلته أخبار اشتعال ثورة في الصعيد هدفها إعادة الخلافة الفاطمية (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) بقيادة كنز الدولة، أو الكنز[١]، واشترك معه في هذه الثورة عباس بن شادي والي «قوص»، وهي المدينة الكبيرة الواقعة شرقي النيل وسط الصعيد، ونجح الثائران في جمع جيش كبير يقال إنه بلغ مائة ألف من أهل الصعيد الأقوياء والجنود الكثيرين من المصريين والسودانيين الذين كان صلاح الدين قد نفاهم إلى الصعيد.

وقد قدَّر صلاح الدين خطورة ثورة الصعيد عليه حتى أنه فكر في الذهاب بنفسه لإخمادها، ولكن خوفه من تجدد الثورات بالقاهرة جعله يرسل أخاه العادل «أبو بكر» الذي استطاع أن يهزمهم ويقتل عباساً وكنزاً وثمانين ألفاً من المصريين، كما نهب بلاد الصعيد عقاباً لها، وأخذ أسرى كثيرين منها، مما دفع عدداً كبيراً من المصريين إلى الفرار والالتجاء إلى النوبة.

---

(١) اختلف المصادر في نسبه، فمن قائل بأنه مصري من أهل الصعيد، كان من قادة الفاطميين (مقدم) ووالياً لأسوان، ومن قائل إن أصله من السودان، في حين تذكر مصادر أخرى أنه مصري بدلالة اشتراكه مع جند صلاح الدين في النوبة.
(**الخطط المقريزية** ١/ ٣٢١، **الروضتين** ١/ ٢٠٨، وابن الأثير، **الكامل** ٩/ ١٣٠).

صلاح الدين في الشام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)

لم يبق أمام صلاح الدين ما يخشاه في الداخل، وأصبحت قاعدته في مصر قوية ومأمونة، وظهر له احتمال ظهور الفرنج ضعيفاً بعد الهزائم المتلاحقة التي نزلت بهم، وبعد زوال خصمه «أملريك» ملك بيت المقدس، وتولية ابنه بلدوين «الأبرص» ملكاً على بيت المقدس وهو صبي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، من مواليد (١١٦١م)، وحدوث خلاف بين الفرنج على وصايته التي اضطلع بها في النهاية ريموند، كونت طرابلس (وهو من مواليد ١١٤٠م)، الذي أخذ على عاتقه الحد من تعاظم قوة صلاح الدين.

وفي تلك الفترة انتقل الملك الصالح، ابن نور الدين، وأُمه إلى حلب ليكونا تحت رعاية «سعد الدين كمشتكين» الذي انضم إلى حاكم حلب «شمس الدين علي بن الداية»، وأصبح موقف حاكم دمشق ضعيفاً، فطلب الدعم من حاكم الموصل «سيف الدين غازي»، ولكن هذا امتنع عن تقديمها. ووجد أمراء دمشق أنه من الأفضل طلب دعم صلاح الدين الذي كان ينتظر هذه الفرصة. فغادر مصر ومعه سبعمائة مقاتل من أفضل فرسانه، وأسرع في سيره مجتازاً إقليم ما وراء نهر الأردن فوصل دمشق في ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر (١١٧٤م)، فخرج كل من بها من الجند إليه فلقوه وخدموه، ودخل البلد ونزل في دار والده (المعروفة بدار العفيفي).

وفي صبيحة اليوم التالي تسلم القلعة من حاكمها «ريحان»، وأخرج ما فيها من أموال فأغدق على أهل دمشق من المنح والعطايا وثبت قدمه، ثم جعل صلاح الدين أخاه (سيف الإسلام طغتكين) حاكماً على دمشق (باسم الملك الصالح الذي لا زال صلاح الدين يظهر الولاء له)، وتوجه إلى حمص ففتحها بعد معركة قصيرة وحاسمة إلا أن قلعتها رفضت الاستسلام، فأقام حامية قوية لحصار القلعة ونظم الدفاع عن حمص، ثم توجه إلى حماة فدخلها وانتقل إلى حلب فألقى الحصار عليها وقاتله أهلها بعناد دفاعاً عن مليكهم (الملك الصالح)[١].

---

(١) يظهر أن صلاح الدين كان يتوقع أن ينضم إليه «الملك الصالح» لكن هذا فضل البقاء تحت حماية «كمشتكين» أو أنه كان مرغماً على ذلك. ومهما كان عليه الموقف، فالأمر الثابت هو أن «الملك الصالح» خرج إلى أهل حلب وجمعهم وقال لهم: «قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق. . . . وقال من هذا كثيراً فبكى وأبكى». واندفع الناس فبذلوا =

ومضى أكثر من شهر ٣٠ كانون الأول ـ ديسمبر (١١٧٤م) حتى بداية شهر شباط ـ فبراير (١١٧٥م) والمدينة صامدة، وعندما اشتدت وطأة صلاح الدين وظهر تصميمه على الاستمرار، أرسل قائد المقاومة في حلب «كمشتكين» يطلب الدعم من الفرنج، كما طلب هذا الدعم أيضاً من سنان[1] زعيم الإسماعيلية.

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى ظهر رسل الحشاشين في معسكر صلاح الدين. ولما وصلوا رآهم حاكم قلعة بوقيس (واسمه خمارتكين) فعرفهم لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم، فلما رآهم قال لهم: «ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم»؟ فأسرعوا لمهاجمته وجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا.

وفي أول شباط ـ فبراير سنة (١١٧٥م) ظهر أمام حمص الكونت ريموند وجيش فرنجي، فشرعوا في مهاجمة أسوار المدينة تساندهم الحامية المرابطة بالقلعة، وحقق هذا الهجوم النتيجة المطلوبة، إذ اضطر صلاح الدين لرفع

= الأموال والأنفس واتفقوا على قتاله والدفاع عن بلدهم. وعرف عن أهل حلب الشجاعة بالإضافة إلى ما توفرت لديهم من خبرة نتيجة صراعهم المستمر مع الفرنج، ولم يتمكن صلاح الدين من الوصول إلى حلب.
(**الكامل** ٩/ ١٣٢).

(١) «ارتاع الباطنية لزوال الخلافة الفاطمية في مصر، فأرسلت قيادة الباطنية في سنة (١١٦٩هـ) في ألموت ببلاد فارس حاكماً جديداً اسمه رشيد الدين سنان البصري ليتولى إقليم النصيرية. واستهل هذا الشيخ المخيف، الذي اشتهر عند الفرنج باسم «شيخ الجبل»، حكمه بسياسة جديدة بالغة النشاط؛ فأرسل إلى ملك بيت المقدس في تلك الفترة «أملريك» يعرض عليه إجراء تحالف وثيق لمناهضة نور الدين، وأخذ يلوح بأنه يفكر مع قومه في التحول إلى المسيحية... وفرح أملريك بتشجيع الصداقة معهم».
(**تاريخ الحروب الصليبية** ٢/ ٦٤١).
«وعندما نظم المتآمرون في مصر مؤامرتهم واتصلوا بالفرنج كما اتصلوا أيضاً برشيد الدين سنان بن سليمان (الذي كان أبوه من كبار دعاة الحسن بن الصباح)، وكان سنان قد نجح في الاستيلاء على قلاع كثيرة من السلاجقة، وكان تحت يده القداوية، وهم المخلصون من أتباعه الذين يقتلون بإشارة منه، وأصبحت بلاده تعرف ببلاد الإسماعيلية، فكتبوا إليه من مصر حتى يرسل أحد رجاله لتدبير مكيدة لاغتيال صلاح الدين، وقالوا له: إن الدعوة واحدة والكلمة جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به قعود عن نصر».
(**النجوم** ٦/ ١١٧، **والروضتين** ١/ ٢٢١ و٢٦٢، **والكامل** ٩/ ١٣٢).

الحصار عن حلب، وأسرع نحو الجنوب، وعند ذلك رفع «ريموند» الحصار وانسحب. وظل صلاح الدين منصرفاً في الشهر التالي إلى منازلة قلعة حمص، ولم يحل شهر نيسان ـ إبريل سنة (١١٧٥م) حتى أضحى صلاح الدين يبسط سلطانه على كل سوريا حتى حماة شمالاً، على أن حلب ما زالت مستقلة.

وأعرب «كمشتكين» عن امتنانه للفرنج، فأطلق سراح رينالد شاتيون (الذي سيكون عاملاً أساسياً في معركة حطين) ومعه جوسلين كورتيناي وسائر الأسرى المسيحيين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الانتصارات التي أحرزها صلاح الدين أثارت غضب أمير الموصل «سيف الدين غازي» ابن شقيق نور الدين، فوجه إلى سوريا أخاه عز الدين على رأس جيش كثيف لينحاز إلى كمشتكين بحلب.

وعرض صلاح الدين على كمشتكين أن يتنازل له عن حماة وحمص، غير أن عرضه لم يلق القبول. على أن صلاح الدين أوقع بالجيش المتحالف في خانق عميق ضيق بين التلال الواقعة إلى الشمال من حماة، ومع ذلك لم يرغب صلاح الدين في تطوير الصراع واستثمار هذا النصر، فعقد هدنة قضت بأن يحوز بعض المناطق شمالي حماة.

وتخلى صلاح الدين عندئذٍ عن تبعيته للملك الصالح إسماعيل، بعد أن بذل قصارى جهده ليخلص في خدمته، ولم يسع صلاح الدين إلا أن يتخذ لقب ملك مصر والشام، وأن يسك النقود باسمه وحده. وأقر الخليفة في بغداد عن طيب خاطر ما حدث وبعث إليه الخلع الخليفية التي بلغته وهو بحماة في شهر آيار ـ مايو (١١٧٥م).

الصراع مع الزنكيين (٥٧١هـ/١١٧٥، ١١٧٦م)

لم تستمر الهدنة بين صلاح الدين والزنكيين طويلاً. فما أن تم الصلح بين الأخوين الزنكيين، سيف الدين وعماد الدين (حاكم سنجار)، حتى عاد سيف الدين إلى الموصل وحشد قوة كبيرة من الفرسان تزيد على ستة آلاف فارس، وجرى الاتصال مع أمراء قلعتي «حصن كيفا وحصن ماردين» لحشد قواتهما. وسار سيف الدين إلى «نصيبين» فاقام بها وأطال المقام حتى انقضى الشتاء، «فضجر الجند ونفدت نفقاتهم وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، لما يتوقعونه إن ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة»،

ثم سار إلى حلب، فنزل إليه «سعد الدين كمشتكين» الخادم، مدبر دولة الملك الصالح ومعه جند حلب.

وكان صلاح الدين في قلة من جنده بعد أن سير عساكر مصر إلى بلادهم، فأرسل يستدعيهم (فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه) لكنهم تريثوا وتأخروا عنه، فجاءته قواته، وسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقت القوتان بتل السلطان، وكان سيف الدولة قد سبقه، فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر، وقد نال التعب منه ومن قواته، وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال، فقال قائد جيش سيف الدين واسمه زلفندار: «ما بنا حاجة لقتال هذا الخارجي في هذه الساعة، وغداً نأخذهم كلهم» فترك القتال إلى الغد.

فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فجعل «زلفندار» أعلامهم في وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلما لم يرها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزموا، ولم يقتل من الفريقين على كثرتهم غير رجل واحد. ووصل سيف الدين إلى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعوداً في جمع من المقاتلين، وعبر الفرات وسار إلى الموصل (وهو لا يصدق أنه ينجو، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل).

واستولى صلاح الدين على أثقال جيش «سيف الدين» وغنم غنائم كثيرة، ما زاد من قوته فسار إلى (قلعة بزاغة) واستولى عليها بعد معركة قصيرة، ثم سار إلى مدينة «منبج» فاستولى عليها وامتنعت عليه قلعتها، فحاصرها وشدد القتال حتى استولى عليها عنوة، ثم سار غلى قلعة (إعزاز) ونصب عليها المجانيق وشدد الحصار عليها طوال ثمانية وثلاثين يوماً حتى تم له إخضاعها، وتعرض خلال فترة الحصار إلى مؤامرة اغتيال على أيدي الحشاشين كادت تذهب بحياته[1]، ولكنه نجا منها ببضع جراح فقط. وغادر (إعزاز) بعد الاستيلاء عليها

---

(١) **الكامل ٩/ ١٣٧**: «كان صلاح الدين يوماً في خيمة أمير له يسمى «جاولي» وهو مقدم الطائفة الأسدية، إذ وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه، فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله. فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده، إلا أنه لم يتمكن من منعه من الضرب، ولكن ضرباته كانت خفيفة ضعيفة والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته، حتى جاء أمير من أمرائه اسمه يازكش فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني، وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل، أيضاً، وثالث فقتل وركض صلاح الدين إلى خيمته =

إلى حلب حيث اصطدم بمقاومة أهلها الضارية، واستطاع أهل حلب منع صلاح الدين من القرب من البلد لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل، فترك صلاح الدين القتال وأخلد للمطاولة.

وانقضت سنة إحدى وسعبين، ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصر لها، ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرم، فوقعت الإجابة إليه من الجانبين لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار فإنهم ربما ضجروا وضعفوا. وتقرر الصلح للجميع في ٢٩ تموز ـ يوليو (١١٧٦م).

وأظهر صلاح الدين رحمة بالأسرى فأحسن إليهم وأمر بردهم، مما كان له أكبر الأثر، وقبل أن يغادر صلاح الدين حلب جاءته الأخت الصغيرة للملك الصالح فأحسن إليها، ولما سألها صلاح الدين في لطف عما تود من الهدايا، أجابت ما لقنوه لها، فقالت: إنها تطلب قلعة إعزاز هدية لها، وعندئذٍ أعاد صلاح الدين هذه القلعة إلى أخيها الملك الصالح.

أصبح باستطاعة صلاح الدين التفرغ لقتال الإسماعيليين (الباطنية)، فقاد قواته فنهب مناطقهم ودمرها وأحرقها وحاصر قلعة (مصياف)، وهي أعظم حصونهم وأمنع قلاعهم، فنصب عليها المجانيق وضيق على من بها ولم يزل كذلك، فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي، حاكم حماة وخال صلاح الدين، يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول: «إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين» فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم[(١)].

أفاد الفرنج من انشغال صلاح الدين في الشمال، فأغار ريموند كونت طرابلس على إقليم البقاع، وما أن سمع ابن المقدم «شمس الدين محمد بن عبد الملك» حاكم بعلبك حتى سار بقواته، وكمن لهم في الغياض والحقول

= كالمذعور لا يصدق بنجاته، ثم اعتبر جنده ـ فتشهم ودقق فيهم ـ فمن أنكره أبعده، ومن عرفه أقره على خدمته».

(١) **تاريخ الحروب الصليبية** ٢/ ٦٦١: «لم يكن الشيخ سنان حاضراً، ولما عجل بالعودة إلى داره كان بوسع عساكر صلاح الدين أن يأسروه، لولا أن منعتهم من ذلك قوة خفية. . . واضطرب صلاح الدين نفسه. . . ففي إحدى الليالي نهض فجأة فعثر في فراشه على كعك ساخن من نوع لا يخبزه إلا الحشيشية، فضلاً عن خنجر مسموم وقصاصة ورق بها أشعار تنطوي على التهديد والوعيد. واعتقد صلاح الدين أن شيخ الجبل ذاته هو الذي كان بخيمته. . . فانهارت أعصابه».

وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر، وأسر نحو مائتي رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين.

وقدم من الجنوب جيش مملكة بيت المقدس واجتمع مع جيش طرابلس فألحقوا الهزيمة بجيش «توران شاه» شقيق صلاح الدين، الذي كان قد وصل حديثاً من اليمن بعد أن بلغه ضم الشام لملك أخيه، على أنه لم يكد صلاح الدين يفرغ من الشمال ويتجه نحو الجنوب حتى انسحب الفرنج، ولم يقتف صلاح الدين أثرهم، إذ كان حريصاً على العودة بجنده إلى مصر (بعد أن طال غيابهم عنها)، وبعد أن خلف أخاه «توران شاه» على قيادة جيش قوي في بلاد الشام اجتاز إقليم ما وراء نهر الأردن مرة أخرى، ووصل إلى القاهرة في نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر سنة (١١٧٦م).

العودة إلى مصر

انصرف صلاح الدين، بعد عودته إلى مصر، لإقامة المدارس ودعم القوات وتنظيمها وتحصين البلاد. وفي القاهرة، عمل صلاح الدين على إعادة بناء السور المحيط بها، وهو الذي كان سبباً في إنقاذ الخلافة الفاطمية من أعدائها عدة مرات. ويظهر أن هذا السور كان قبل صلاح الدين عبارة عن سورين: سور للقاهرة وسور لمصر (الفسطاط)، فرأى صلاح الدين، لتسهيل الدفاع عنهما بحامية واحدة، أن يدير عليهما سوراً واحداً، وزاد أن أدخل في السور القطائع والعسكر، ولذلك اعتبر منشئ القاهرة الحالية، وحفر حول السور خندقاً في بعض أجزائه سنة (٥٧٢هـ/ ١١٧٦م).

ولعله في نفس عام بناء السور أمر صلاح الدين ببناء القلعة، وكلف «قراقوش» بالإشراف عليها. ويظهر أن صلاح الدين أخذ فكرة بنائها من قلاع الفرنج بالشام، أو من قلاع الإسماعيلية بنواحي جبل لبنان، ولا يمكن أن يكون قد أخذها من الفاطميين الذين لم يبنوا القلاع، ربما لاضطراب أحوال دولتهم. وقد بنيت القلعة على نشز مرتفع بجبل المقطم في وسط السور، فكان قراقوش يستحث رجاله لإنجاز بنائها. وكان أسرى الفرنج من حروب صلاح الدين بالشام يقومون بنقل الحجارة من الأهرامات المهدمة، أو يجلبونها من تحت الصخور وينشرون الرخام ويحفرون الخنادق..

وبنى صلاح الدين على النيل، غربي مصر بالجيزة، جسراً (أو قناطر) عبارة

عن أقواس جمعت حجارته من الأهرامات، فكانت كجبل ممدود من الأرض، يقصد به أن تسلك عليه عساكره في أي وقت، كما بنى في شمال القاهرة، في المكان الهام الذي عرف للعرب أيام الفتح باسم «أم دنين» ثم باسم «المقس» لوجود الماكس؛ أي: جابي الضرائب، برجاً هائلاً عرف بقلعة المقس أو «قلعة قراقوش».

وفوق ذلك، اهتم صلاح الدين بتحصين ثغور مصر البحرية على ساحل البحر الأبيض لتتمكن من صد الحملات البحرية المعادية، لا سيما بعد تلك الحملات الهائلة التي هاجمتها، فقام بتحصين دمياط على فرع النيل. وبما أن دمياط كانت دار صناعة للسفن الحربية تخرج منها الأساطيل للجهاد، فيكون لها ببلاد العدو صيت ورهبة، فأمر صلاح الدين بتقوية السلاسل الحديدية الثقيلة التي كانت تشد بين برجين من الحجر حتى لا تستطيع المراكب المعادية أن تدخل الميناء.

وفي سبيل استكمال وسائل الدفاع عن البرجين رتب المقاتلة فيهما، كما شدت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها. كذلك أمر بترميم سور المدينة الذي تهدم بعضه من غارة الفرنجة عليه، واهتم بعمارة قلعة تنيس وسورها ونقل أهلها إلى دمياط وجعلها للمقاتلة فقط.

أما الإسكندرية، وهي المدينة الكبرى على ساحل البحر، وكانت هي الأخرى دار صناعة سفن، فإنه أمر برمي أكثر من أربعمائة عمود بشاطئ البحر، من العواميد الرومانية، حتى تعيق العدو إذا تقدم، كما جدد أسوارها وأحاطها بالخنادق.

وكان صلاح الدين شديد الاهتمام بهذه التحصينات، فسافر إلى كل من دمياط والإسكندرية ليشرف عليهما، وبلغ ما أنفقه على تحصينات دمياط وحدها مليون دينار. كذلك وضع الأجناد، ربما الخصيان، في الثغور بالساحل لحراستها. واهتم بمراقبة السفن الداخلة والخارجة إلى مصر، فأعد أمناء للصعود إلى المراكب لتقييد أسماء الركاب الوافدين وصفاتهم وأسماء بلادهم.

واهتم أيضاً بعمل مراكز محصنة أو نقط حراسة في شبه جزيرة سيناء، وهي المنطقة الصحراوية التي تفصل بين مصر ومملكة اللاتين بفلسطين، الممتدة إلى حدود مصر في صحراء النقب، وجاءت جميع غزوات الفرنج لمصر عن طريقها، فأمر بإنشاء سلسلة من القلاع أهمها قلعة صور في قلب سيناء شرقي

السويس في طريق أيلة، وزودها بالصهاريج لحفظ الماء، كما كانت القوافل تخرج إليها من القاهرة بانتظام[1].

على حدود فلسطين (الرملة) (٥٧٣هـ/١١٧٧م)

اشتهرت جاسوسية صلاح الدين دائماً بالتفوق، فكان يتابع ما يحدث بين إمارات الفرنج من صراعات داخلية مع متابعته لما يحدث بين هذه الإمارات وبين الامبراطورية البيزنطية من اتفاقات أو خصومات، وهو إذ وجد الفرصة مناسبة له، بعد منتصف عام (١١٧٧م)، غادر مصر في جمادى الأولى **٥٧٣**هـ/ ١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر (١١٧٧م) وأسرع في سيره حتى وصل عسقلان، فأغار بقواته على الفرنج فنهبوا وقتلوا وأسروا وأحرقوا وتفرقوا في الإقليم مغيرين، فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم جند ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساحوا في الأرض آمنين.

ووصل صلاح الدين إلى الرملة عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحاصرهم، وكان ملك بيت المقدس قد جمع قواته وسار بهم حتى «يبنة» على الساحل ثم انحرفوا إلى الداخل.

وحدث في **٢٥** تشرين الثاني ـ نوفمبر، وبينما كان جند صلاح الدين يجتازون أخدوداً قرب قلعة تل الجزر، على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب الشرقي من الرملة، أن انقض عليهم فجأة الفرنج القادمون من الشمال. والواقع أن هذه المباغتة كانت تامة، بحيث أن صلاح الدين لم يتمكن من جمع ما بقي من قواته، بعد أن لاذ عدد كبير منهم بالفرار عند أول صدمة، ولم ينقذ صلاح الدين إلا شجاعة حرسه الخاص وإخلاصهم له، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه.

ومضى صلاح الدين منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحق به جنده، إلى أن دخل الليل، فسلك طريق سيناء ومضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقلَّ عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دواب الجند جوعاً وعطشاً وسرعة سير. وأما الجند الذين كانوا قد أوغلوا في بلاد الفرنج، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير.

---

(١) الخطط ٣/٣١٣، والروضتين ١/١٩١ و٢/٢٤، والسلوك ١/١، ص٧٣ ـ ٧٦.

وكتب صلاح الدين لأخيه «توران شاه» يقول: «لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريده».

ومهما كان عليه الموقف، فقد تغير ميزان القوى عما كان عليه من قبل. وبعد أن كان نور الدين زنكي يهاجم إمارات الفرنج للتخفيف من الضغط الذي تتعرض له مصر بسبب هجوم الفرنج عليها، أصبح الموقف في عهد صلاح الدين مغايراً تماماً. فقد أصبحت مصر قاعدة قوية تنطلق منها الهجمات على حدود بلاد الفرنج للتخفيف من الضغط الذي تتعرض له بلاد الشام بسبب هجوم الفرنج عليها.

وفي الوقت ذاته، انتقل الفرنج من الهجوم الاستراتيجي إلى الدفاع الاستراتيجي. فقد انصرف ملك بيت المقدس «بلدوين» لتشييد استحكامات متينة على امتداد حد إمارة دمشق، حيث أدى ضياع بانياس إلى قلب نظام الدفاع عن المملكة رأساً على عقب، بينما انصرف سيد تبنين إلى تحصين «تل هونين» على الطريق الممتد من بانياس إلى تبنين، وشرع ملك مملكة بيت المقدس بتشييد قلعة على المجرى الأعلى لنهر الأردن (بين بحيرة الحولة وبحر الجليل) حتى تتحكم بالمخاضة (وهي التي أطلق عليها الفرنج اسم مخاضة الأحزان).

وكان المزارعون المسلمون قبل إقامة القلعة يتنقلون بحرية وفقاً للاتفاقات المعقودة بين المسلمين والفرنج، وجاء تشييد القلعة ليحد من حرية تنقلهم، فتقدم المسلمون النازلون بهذه الجهات بالشكوى إلى صلاح الدين عن نقض الفرنج للعهد والأيمان، فعرض صلاح الدين على ملك مملكة بيت المقدس «بلدوين» ستين ألف دينار، ثم مائة ألف دينار ليثنيه عن العمل، ولكن «بلدوين» رفض هذا العرض نتيجة خضوعه لمقدم الفرسان الداوية، فأقسم صلاح الدين بأنه سوف يبادر إلى اتخاذ إجراء لمنعه.

أنهى صلاح الدين استعداداته في مصر وأعاد تنظيم جيشه، وعاد إلى بلاد الشام في أواخر ربيع (١١٧٨م)، وقام بمجموعة من الإغارات رداً على الأعمال العدوانية التي كان يقوم بها الفرنج على بلاد المسلمين (حارم وحماة وحمص).

وفي ذي القعدة (٥٧٤هـ) ربيع (١١٧٩م) اجتمع الفرنج وساروا إلى دمشق فأغاروا على حدودها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين لقتالهم قوة بقيادة ابن أخيه (فرخشاه)، وأمره أن يعلمه فور الاشتباك بقوات الفرنج ليتقدم ويدعمه، كما أمره أن يطلب من أهل البلاد النزوح من بين يدي الفرنج.

وتصادف مرور قطعان من الغنم قادمة من سهول دمشق نحو بانياس، فنهض

الملك بلدوين ليعترضها ويسوقها أمامه. وفي ١٠ نيسان - إبريل، انقض فرخشاه فجأة على الفرنج من واد ضيق في غابة بانياس، فأخذ الملك على غرة، وتولى سيد تبنين «همفري» الدفاع عن الملك وتأمين انسحاب جيشه، ولكنه دفع حياته ثمناً لذلك، إذ أصابته جراح ما لبث أن توفي بعدها يوم ٢٢ نيسان (١١٧٩م) بقلعته الجديدة في (هونين).

أعقب صلاح الدين الانتصار بأن ألقى الحصار على قلعة «مخاضة يعقوب»، غير أن تحصيناتها القوية حملته على إيقاف الحصار الذي لم يستمر أكثر من أيام قليلة. ونقل صلاح الدين معسكره إلى بانياس، ومن هذا الموضع أرسل المغيرين إلى الجليل وإلى لبنان لتدمير محصولات الأراضي الواقعة بين صيدا وبيروت. فقام الملك «بلدوين» بحشد كل قوات المملكة، ودعا «ريموند» كونت طرابلس للانحياز إليه، فسارا معاً مجتازين طبرية وصفد إلى (تبنين) حيث علما أن «فرخشاه» وجماعة من المغيرين في طريق عودتهم قادمين من الساحل بغنيمة كبيرة، فتحركا صوب الشمال لاعتراضهم بوادي مرجعيون (بين نهر الليطاني والمجرى الأعلى لنهر الأردن)، غير أن «صلاح الدين» سبق أن شاهد من برج للمراقبة على تل يقع شمالي بانياس، ما حدث على الجانب الآخر من نهر الأردن، من ذعر قطعان الغنم وتفرقها، فأدرك أن جيش الفرنج لا بدَّ أن اجتاز هذا الموضع، فنهض لمطاردته.

وبينما كان جيش الملك ينزل الهزيمة بجيش «فرخشاه» يوم ١٠ حزيران - يونيو (١١٧٩م)، كان الكونت ريموند والداوية يتقدمون نحو نهر الأردن. وعند مدخل الوادي فاجؤوا جيش صلاح الدين فبادر الداوية إلى الاشتباك في القتال على الفور، غير أن ما قام به صلاح الدين من هجوم عليهم ردهم على أعقابهم، فولوا الأدبار مذعورين إلى عساكر بلدوين الذين اضطروا أيضاً إلى الارتداد، ولم يلبث الجيش الصليبي بأكمله أن لاذ بالفرار.

واستطاع الملك «بلدوين» والكونت «ريموند» وجانب من رجالهم أن يعبروا نهر الليطاني، وأن يلجؤوا إلى قلعة «شقيف أرنون» الواقعة على مرتفع على الضفة الغربية، أما من تبقى من العساكر وراء نهر الليطاني فقد تعرضوا للقتل أو الأسر بعد التضييق عليهم وحصرهم، على أن جماعة من الفارين لم يتوقفوا عند «قلعة الشقيف» بل مضوا في طريقهم إلى الساحل، فالتقوا بحاكم صيدا في عسكره، فأخطروه بأن الوقت قد فات، ولم يسعه إلَّا العودة.

وكان ممن وقع في أسر صلاح الدين (مقدم الداوية) الذي يعتبر تهوره وحماقته، السبب الأساسي للهزيمة، وكذلك سيد «يبنة» وسيد الجليل «هيو»، ولم تلبث كونتيسة طرابلس (والدة هيو) أن افتدته بخمسة وخمسين ألف دينار صوري. وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف ديناراً فدية عن صاحب يبنة «بلدوين» وهي فدية ملك، لما لبلدوين عند صلاح الدين من أهمية بالغة الشأن. ولم تمض إلا بضعة شهور حتى تم إطلاق سراح بلدوين مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين فضلاً عن وعده بالتماس المال المطلوب للفدية. وجرى الاقتراح بمبادلة «أودو» بأحد كبار الأسرى المسلمين، غير أن مقدم الداوية بلغت به الغطرسة أنه لم يقبل بأن يساويه أحد في القيمة، فظل في الحبس بدمشق حتى قضى نحبه في السنة التالية.

ولم يواصل صلاح الدين انتصاره بالإغارة على فلسطين، بل استعاض عنها بأن هاجم قلعة «مخاضة يعقوب» التي شيدها «الملك بلدوين». واستطاع صلاح الدين، بعد حصار لم يستمر سوى خمسة أيام، من **٢٤** إلى **٢٩** آب ـ أغسطس، أن ينقب أسوار القلعة وأن ينفذ إلى داخلها، فلقي المدافعون عنها مصرعهم وتم تدمير القلعة عن آخرها حتى تساوت بالأرض، ووفى صلاح الدين لقسمه. وكانت سرايا صلاح الدين أثناء الحصار تهاجم حدود إمارات الفرنج، وكانت أكبر الإغارات تلك التي قادها «فرخشاه» ابن أخ صلاح الدين والتي وصل بها حتى صفد.

وفي شهر تشرين الأول ـ أكتوبر، قام الأسطول المصري بإغارة ناجحة على سفن الفرنج الراسية في ميناء عكا. وفي بداية سنة (١١٨٠م)، قامت قوات المسلمين بإغارات عنيفة على الجليل، وكانت السنة سنة جفاف، كما كانت قوات الفرنج مستنزفة. ووجد ملك الفرنج أن من مصلحته عقد هدنة مع صلاح الدين، كما كان صلاح الدين على ما يظهر في حاجة لمثل هذه الهدنة لإعادة تنظيم شامل في أقاليم الشام، **فتم التوقيع على هدنة لمدة سنتين في شهر أيار ـ مايو سنة (١١٨٠م) ووقعها ممثلون عن بلدوين وصلاح الدين، ولم تدخل طرابلس في عقد الهدنة، غير أن صلاح الدين عقد هدنة مماثلة مع ريموند، كونت طرابلس، بعد أن أغارت البحرية المصرية على ميناء طرطوس.**

وانصرف «بلدوين» لإقامة جبهة مسيحية لمواجهة المسلمين، فأرسل وفوداً عنه إلى روما والقسطنطينية في حين انصرف صلاح الدين لمتابعة توحيد العالم

الإسلامي، وإخضاع الإمارات المستقلة في شمال بلاد الشام مع إخضاع إمارات الفرنج للمراقبة الدائمة[1].

وسار صلاح الدين إلى الشمال فأصلح بين حاكم حمص «نور الدين محمد بن قرا أرسلان» وبين «قلج أرسلان» حاكم ملطية وسيواس وما بينهما وقونية، ثم توجه إلى أرمينيا فهاجم قلاعها وغنم غنائم ضخمة، وأرغم أميرها «ليون» على إطلاق سراح أسرى المسلمين. وعاد صلاح الدين بعد أن دمر أكثر المعاقل التي اعترضت سبيله وقاومته. وعندما اطمأن صلاح الدين إلى الوضع في بلاد الشام مضى بجيشه إلى مصر بهدف الإفادة من الهدنة المعقودة مع الفرنج لإعادة تنظيم قواته، والاستعداد لمجابهة المعارك المقبلة.

رينالد شاتيون ونقض الهدنة (٥٧٧هـ/ ١١٨١م)

كان لزاماً على ملك بيت المقدس المحافظة على الهدنة التي انعقدت في السنة السابقة، غير أن رينالد شاتيون (أمير الكرك)، والذي كان وقتئذٍ سيداً على إقطاع إقليم ما وراء نهر الأردن، لم يكن بوسعه أن يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته، «وكان كما وصفته المصادر العربية: من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين».

وكانت شروط الهدنة تفترض السماح للتجار المسلمين والمسيحيين بالحرية في أن يجتاز كل من الجانبين بلاد الجانب الآخر، على أن «رينالد» ساءه أن يرى القوافل التجارية الإسلامية الوافرة الثروة وهي تسير مطمئنة قرب إقطاعه.

---

(١) ومن ذلك ما يذكر عن الجاسوسة «سبيللا» التي كانت تتقاضى دخلاً من صلاح الدين مقابل ما تبذله من معلومات عن قوة جيوش الفرنج وتحركاتها. وكانت «سبيللا» امرأة خليعة من أنطاكية أحبها «بوهمند» أمير أنطاكية ولكنه لم يتمكن من الزواج منها بسبب خوفه من الامبراطور البيزنطي «مانويل». ولكن ما أن توفي الامبراطور (في ٢٤ تشرين الأول، أكتوبر ١١٨٠هـ) حتى افترق بوهمند عن زوجته اليونانية ليتزوج بعشيقته «سبيللا». وارتاع البطريرك «إيمري» لارتكاب جريمة الزنا، فقطع بوهمند من الكنيسة وفرض الحرمان الديني على المدينة (أنطاكية) ثم لجأ مرة أخرى إلى دير القصير. وتوافر لنبلاء أنطاكية من الأسباب ما يحملهم على كراهية «سبيللا» بسبب علاقتها بصلاح الدين، فقام هؤلاء النبلاء بمساندة البطريرك «إيمري»، واندلعت الحرب الأهلية. وحينما أرسل ملك بيت المقدس «بلدوين» وفداً كنسياً للتحكيم فيما نشب من نزاع، قبل البطريرك إيمري رفع الحرمان الديني عن أنطاكية مقابل تعويض مالي، غير أنه رفض رفع قرار القطع عن بوهمند. أما «سبيللا» فقد تقرر الاعتراف بها أميرة.
(تاريخ الحروب الصليبية ٢/ ٦٩٤).

واستجاب «رينالد» لداعي الإغراء فخرج في صيف سنة (١١٨١م) وقاد عساكر الإقطاع صوب الشرق إلى بلاد العرب (إلى واحة تيماء) الواقعة قرب الطريق الممتد من دمشق إلى مكة، وقرب الواحة انقض على قافلة كانت تسير مطمئنة إلى مكة، واستولى على كل ما تحمل من السلع التجارية. ولعله فكر أيضاً في المضي لمهاجمة «المدينة المنورة» غير أن صلاح الدين بادر إلى إرسال حملة عاجلة بقيادة فرخشاه «عز الدين» الذي جمع جيش «دمشق» وسار به إلى ما وراء الأردن ونهبه وخربه، وعاد إلى طرف بلادهم وأقام ليمنع «البرنس» من المسلمين فامتنع من مقصده، فلما طال مقام كل واحد في مقابلة الآخر علم «البرنس رينالد» أن المسلمين لا يعودون حتى يتفرق جمعه، فعمل على توزيع قواته وعاد «فرخشاه» إلى دمشق.

أرسل صلاح الدين احتجاجاً إلى ملك مملكة بيت المقدس «بلدوين» لنقض الهدنة وطلب التعويض، فأقر «بلدوين» عدالة طلب صلاح الدين. وعلى الرغم من محاولة «رينالد» الدفاع عن وجهة نظره وإيجاد الذرائع لها، إلا أنه رفض أداء كل ما يمكن له إصلاح الخطأ. ولقي «رينالد» التأييد من أصدقائه بالبلاط الملكي، ما حمل الملك «بلدوين» الضعيف على إغضاء النظر عن الموضوع، غير أن صلاح الدين حرص على متابعته؛ إذ حدث بعد بضعة شهور أن الأحوال الجوية أرغمت قافلة من السفن تقل ألفاً وخمسمائة حاج على أن تجنح إلى الأراضي المصرية قرب «دمياط» من دون أن تعلم ما حدث من انتهاك للهدنة، أو كانت تعلم سواء بسواء. المهم في الأمر هو أن صلاح الدين أمر باعتقالهم وأرسل إلى «بلدوين» يعرض عليه استعداده لإطلاق سراحهم مقابل رد المتاجر التي نهبها «رينالد»، غير أن «رينالد» رفض للمرة الثانية أن يعيد شيئاً، فأضحت الحرب أمراً لا مفر منه.

وداعاً يا مصر (٥٧٨هـ/١١٨٢م)

أقام صلاح الدين معسكره في خارج القاهرة وحشد قواته، واجتمع عنده أعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه، وكل منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين ليقول:

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فانقبضت نفس صلاح الدين بعد انبساط، وتشاءم وتنكد المجلس على الحاضرين، إلا أن صلاح الدين لم يترك للتشاؤم أي تأثير على مخططاته، فغادر القاهرة (يوم ٥ محرم ٥٧٨هـ/ ١١ آيار - مايو ١١٨٢م) واجتاز صلاح الدين بجيشه صحراء سيناء إلى العقبة، ثم توجه صوب الشمال من دون أن يصطدم بأي عقبة، وشن الغارات بأطراف إمارات الفرنج وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك، بعد أن وجه الأثقال إلى دمشق بقيادة أخيه (تاج الملوك بوري).

وتوجه بعد ذلك إلى دمشق فوجد أن ابن أخيه «فرخشاه» قد أغار على الجليل ونهب القرى الواقعة على منحدرات جبل الطور، فظفر بعشرين ألف رأس من الماشية ووقع في أسره ألف رجل. وهاجم «فرخشاه» أثناء عودته حصن «حبيس جلدك» المنحوت في الصخرة التي تطل على نهر اليرموك وراء نهر الأردن، وشق «فرخشاه» نفقاً في الصخرة، فأضحى الحصن تحت رحمته. ولما لم تكن حامية الحصن المؤلفة من السوريين المسيحيين حريصة على أن تموت من أجل الفرنج، فإنها بادرت إلى التسليم. وفرح المسلمون لفتح حبيس جلدك (أو الشقيف كما كانوا يعرفونها) نظراً لما كان ينالهم من الأذى من حامية هذا الحصن.

وأمضى صلاح الدين ثلاثة أسابيع في دمشق، ثم غادرها يوم ١١ تموز - يوليو، ومعه «فرخشاه» في جيش كثيف، فنفذ إلى فلسطين جنوبي بحر الجليل. وعندما وصل «طبرية» نزل بالقرب منها، وخيم في الأقحوانة من الأدرن. وحشد الملك «بلدوين» قواته وسار إلى الضفة الغربية لنهر الأردن بعد أن استدعى البطريرك والصليب المقدس ليبارك أسلحته وجيوشه. والتقى الجيشان في أسفل قلعة كوكب الهوى التابعة للأسبتارية، فأرسل صلاح الدين عساكره يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا، ولم يتحركوا للقتال، فأمر ابني أخيه، تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه، فحملا على الفرنج فيمن معهما فقاتلوا قتالاً شديداً، ثم أن الفرنج انحازوا - انضموا - إلى حاميتهم فنزلوا غفر، فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق. وكان صلاح الدين قد عمل قبل المعركة على توجيه ابن أخيه «فرخشاه» إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى وتوغل في الغور، وشنها غارة شعواء، فعم أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون وتلك الإمارة حتى قاربوا عكا.

لم يتوقف صلاح الدين في دمشق طويلاً، وقاد جيشه مرة أخرى في شهر

آب ـ أغسطس، واجتاز الحدود بسرعة مذهلة حتى وصل بيروت، وفي الوقت ذاته ظهر تجاه الساحل أسطوله الذي كان قد أرسل في طلبه ببريد حمام الزاجل المنتظم بين دمشق والقاهرة، غير أن بيروت كانت منيعة التحصين. ولما علم ملك بيت المقدس «بلدوين» اندفع بجيشه من الجليل، ولم يتوقف إلا ريثما يجمع السفن الراسية في مينائي عكا وصور. ولما لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء على بيروت بهجوم عاجل قبل قدوم الفرنج، فقد قرر الانسحاب وانتظار فرصة أفضل.

العمل على الجبهة الداخلية

عندما كان صلاح الدين يحاصر بيروت، وصلته رسائل متتالية من «مظفر الدين كوكبري» أمير حران يطلب دعمه، ويضع قواته تحت تصرفه إن هو تقدم إلى الفرات بهدف توحيد الإمارات الممزقة بعد وفاة أمير الموصل في **٢٩** حزيران ـ يونيو (١١٨٠م)، ثم وفاة الملك الصالح إسماعيل في كانون الأول ـ ديسمبر (١١٨١م) والاختلاف بين الزنكيين لحكم حلب.

وكان أمير «حران» مظفر الدين كوكبري قد اتفق مع أمراء حصن كيفا والبيرة على دعوة صلاح الدين. وهكذا ما أن رفع صلاح الدين الحصار عن بيروت حتى أسرع في الاتجاه شمالاً متظاهراً أنه متوجه إلى حلب. وأسرع أمير الموصل عز الدين وأخوه مجاهد الدين بقيادة قواتهما للوصول إلى حلب. وكانت مباغتة لهما عندما علما باجتياز صلاح الدين الفرات وتوجهه إلى البيرة القلعة المنيعة على الفرات من الجانب الجزري، مما دفعهما إلى العودة إلى قاعدتهما «الموصل». وأسلمت البيرة قيادها لصلاح الدين وتبعتها «آمد» بعد معركة قوية وحاسمة، فضمها صلاح الدين إلى أمير حران «مظفر الدين كوكبري»، وتبع ذلك استيلاء صلاح الدين على الرقة والخابور وقرقيساء وماكسين وعرابان ونصيبين.

وهنا أتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق، بهدف صرفه عن مهاجمة الشمال وإعاقة توحيد البلاد الإسلامية، والإفادة من وفاة حاكم دمشق (فرخشاه، ابن أخت صلاح الدين)، فجمع ملك بيت المقدس «بلدوين» قواته وخرج معه البطريرك والصليب المقدس، وأوغل في غارته بحوران، فنهبوا عزير وبلغوا بصرى. وفي الوقت ذاته خرج كونت طرابلس «ريموند» بقواته فاستولى على «حبيس جلدك»

وأوغل بقواته حتى بلغ بصرى. ونهض «بلدوين» بعد ذلك لمهاجمة دمشق فعسكر في داريا. ولما كان لمسجد داريا من شهرة ذائعة فقد أراد «بلدوين» تدميره، إلا أن وفداً من نصارى دمشق أرسلهم أميرها إلى بلدوين ليقول له: «إن أخربتم الجامع جددنا عمارته وأخربنا كل بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكن أحداً من عمارتها»، فتركوه خوفاً من الإجراءات الانتقامية ضد الكنائس. أما صلاح الدين فعندما بلغه هجوم الفرنج لم يكترث وصمم على متابعة عملياته في الشمال وقال: «يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم»[(١)].

أراد صلاح الدين تصفية آخر قواعد الزنكيين في الموصل، ولكنه عندما عرف قوة تحصيناتها واستعدادها القتالي، وعرف أن الحرب مع الزنكيين تستنزف قوة المسلمين دونما فائدة، توجه إلى سنجار حيث ناصره الأكراد فاستولى عليها بسرعة. وحاول أمير الموصل «عز الدين» عقد تحالف مع أمير «شاه أرمن» فتحرك صلاح الدين إلى رأس العين، فتمزق شمل التحالف من دون قتال.

ورأى «بوهمند الثالث» أمير أنطاكية، ما وصلت إليه قوة صلاح الدين، فأجرى اتصالاً معه، وتمَّ عقد هدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ٤ سنوات. واتصل صلاح الدين بأمير حلب «عماد الدين» وعرض عليه الصلح على أن يوليه إمارة سنجار، عوضاً عن إمارة حلب. ولما لم يكن باستطاعة عماد الدين مقاومة رغبات صلاح الدين فقد وافق على ذلك، وتمَّ تسليم حلب لصلاح الدين في ١٢ حزيران ـ يونيو (١١٨٣م)، وانضمَّت حلب في النهاية إلى حكمه[(٢)].

وبعد إعادة تنظيم شامل، عاد صلاح الدين إلى دمشق التي اتخذها عاصمة له، منذ عودته إليها في ٢٤ آب ـ أغسطس (١١٨٣م)، وأضحت امبراطوريته

---

(١) **الكامل**، ابن الأثير ٩/ ١٥٧، **وتاريخ الحروب الصليبية** ٢/ ٧٠٢، ٧٠٣.

(٢) من المصادفات الغريبة أن قاضي دمشق محيي الدين الزكي امتدح ضم حلب لصلاح الدين، فقال:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر … مبشر بفتوح القدس في رجب

وقد حدث فتح بيت المقدس في رجب فعلاً. أما صلاح الدين فقد أعطى عماد الدين عوضاً عن حلب كلاً من سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واشترط صلاح الدين أن يعمل عماد الدين على إعداد القوات باستمرار، وأن تكون جاهزة للقتال عند أول فرصة يطلب فيها صلاح الدين تدخلها ضد الفرنج.

تمتد من «برقة» إلى نهر دجلة. ولم يظهر من المسلمين منذ أكثر من قرنين أمير في قوة صلاح الدين، إذ اعتمد على ثورة مصر، وخضعت لحكمه المباشر المدينتان الكبيرتان، دمشق وحلب، وأحاط بهما وامتدَّ صوب الشمال الشرقي حتى أسوار الموصل، الإقطاعات الحربية، التي اعتمد صلاح الدين على دعم قادتها وأمرائها.

ولقي صلاح الدين دعم الخليفة العباسي ببغداد، وسعى سلطان السلاجقة ببلاد الأناضول (آسيا الصغرى) إلى كسب صداقته، ولم تعد الامبراطورية البيزنطية مصدر خطر له، ولم يتبقَّ له سوى ان يقهر الدخلاء الفرنج **الذين صاروا وصمة عار في جبين الإسلام، بتملكهم فلسطين وساحل الشام.**

حملة رينالد شاتيون، مرة أخرى، في البحر الأحمر (٥٧٨هـ/١١٨٢م)

عندما علم «رينالد شاتيون»، أمير الكرك، بانصراف صلاح الدين إلى الشمال في خريف سنة (١١٨٢هـ)، قام بتنفيذ مشروع طالما جال بخاطره، وهو أن يُنزل بالبحر أسطولاً، لا يغير فحسب على القوافل البحرية الإسلامية التي تقصد مكة، بل يهاجم أيضاً المدينة المنورة ومكة المكرمة.

وتوجه رينالد إلى أيلة الواقعة على رأس خليج العقبة، وحمل إليها السفن التي أعدَّها من أخشاب جلبها من غابة «مؤاب» وجرَّبها في مياه البحر الميت. وسقطت أيلة في يده بعد أن ظلت في حوزة المسلمين منذ سنة (١١٧٠م)، غير أن الفرنج لم يستولوا على الحصن الواقع بجزيرة على مسافة قريبة من أيلة[١].

وأقام رينالد بأيلة لينازل الجزيرة بسفينتين، بينما انطلقت بقية سفن الأسطول يسيِّرها قراصنة محليون، فالتزموا في سيرهم الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، وأخذوا يُغيرون على كل ما صادفهم في طريقهم من البلدان الصغيرة. فهاجموا ونهبوا «عيذاب»، وهي ميناء كبير للنوبة يقع قبالة مكة، وبها استولوا على سفن تجارية ذاخرة بالسلع، قدمت من عدن ومن الهند. وهبطت إلى البر جماعة هاجمت قافلة ضخمة لا مدافع عنها، كانت قادمة عبر الصحراء من وادي النيل. ثم اجتاز القراصنة البحر الأحمر من عيذاب إلى شبه الجزيرة العربية، فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية بالحوراء وينبع (ميناءي المدينة)، ثم أوغلوا حتى

(١) الجزيرة المعروفة عند الفرنج باسم جزيرة غراي (L'ILe de Graye) وهي جزيرة فرعون.

بلغوا «غارب» من موانئ مكة ذاتها، وأغرقوا بالقرب منها سفينة كان يستقلها الحجاج وتتجه إلى جدة.

وارتاع العالم الإسلامي لما حدث، حتى أن أميري حلب والموصل، اللذين التمسا في يوم من الأيام مساعدة الفرنج، شعرا بالندم والخجل لاتخاذهما حلفاء دبروا انتهاك حرمة الدين. وأسرع الملك العادل أبو بكر بن أيوب - حاكم مصر في غياب صلاح الدين - فحشد الأسطول المصري وسيره وفيه جمع كبير من المسلمين بقيادة قائد الأسطول «حسام الدين لؤلؤ». وسار لؤلؤ في مطاردة القراصنة، فبدأ بالذين على أيلة فانقض عليهم وقاتلهم فأباد بعضهم وأسر الباقي، وسار على الفور في اتجاه عيذاب فلم يجد فيها أثراً للقراصنة، فتابع تقدمه حتى وصل رابغ وساحل الجوزاء «الحوراء»، وهناك التقى بأسطول القراصنة فدمره، وخرج القراصنة إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى، فأرسل بعضهم إلى «منى» لينحروا بها في عيد الأضحى، عقوبة لمن يفكر في انتهاك حرمة بيت الله الحرام، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم. ونذر صلاح الدين أنه لن يغفر لرينالد محاولة انتهاك حرمة الأماكن المقدسة.

غادر صلاح الدين دمشق في ١٧ أيلول - سبتمبر (١١٨٢م) على رأس جيش كثيف للإغارة على فلسطين، ثم اجتاز نهر الأردن في ٢٩ أيلول ودخل «بيسان»، وأسرع ملك مملكة بيت المقدس فجمع كل قوات المملكة وضم إليه قوات إمارات طرابلس وصيدا وصور وقيسارية وقوات الأسبتارية، واستدعى إليه قوات إمارة «تبنين» غير أن المسلمين نصبوا له كميناً على منحدرات جبل جلبوع (فقوا) فلقي معظم قوات الإمارة مصرعهم.

وأقام صلاح الدين معسكره قرب عين التبانية في موقع زرعين (موقع يزرعيل القديمة)، وأرسل سراياه للاستيلاء على المعاقل الصغيرة في الجهات المجاورة، وتدميرها، بينما وجه سرايا أخرى لنهب دير اليونانيين على جبل الطور. واحتشد الفرنج في صفورية، وتوجهوا إلى زرعين، على أن المسلمين هاجموا مقدمة جيش الفرنج ولم ينقذها من الفناء التام إلا تدخل قوات كبيرة من الفرنج تدخلت لحماية انسحاب مقدمة القوات. وأقام الفرنج معسكرهم عند

أغوار جالوت في مواجهة صلاح الدين الذي نشر جناحي قواته حتى كادت تطوق جيوش الأعداء.

وظلت جيوش الفريقين في مواقعها خمسة أيام من دون أن تتحرك، وحاول صلاح الدين إرغام أعدائه على القتال وجرهم إلى المعركة مما أحدث انقساماً في صفوف قادة الفرنج الذين شكلوا جبهتين، جبهة تريد الهجوم وجبهة تفضل الدفاع، وفي النهاية قرر الفرنج الانسحاب، وعندها تحرك صلاح الدين بجيشه إلى ما وراء نهر الأردن في ٨ تشرين الأول ـ أكتوبر (١١٨٢م).

غزو بيسان وحصار الكرك في سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م)

جمع صلاح الدين في السنة التالية جيوش الشام والجزيرة وديار بكر وسار إلى بلاد الفرنج. وعندما عبر نهر الأردن وجد أن أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فاتجه إلى بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج وجاؤوا لمجابهته، لكنهم حينما رأوا كثرة جنده لم يقدموا عليه، فأقام عليهم وقد استندوا إلى الجبل وخندقوا حولهم، فأحاط بهم، وأخذ الجند المسلمون في رميهم بالسهام والاشتباك معهم، فلم يخرجوا للقتال طوال خمسة أيام، وعاد المسلمون عنهم (١٧ جمادى الآخرة) لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضاً، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة. وأغار المسلمون على تلك النواحي ووصلوا إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه، فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا على أمل العودة للغزو من جديد.

أصبح صلاح الدين دائم التفكير في حصن الكرك، وأصبح من أول ما يطمح إليه هو تدمير هذا الحصن وسيده «رينالد شاتيون»، الذي لم يترك فرصة إلا واغتنمها للإغارة على المسلمين واعتراض القوافل التجارية المتنقلة ما بين الشام ومصر، فكتب صلاح الدين إلى أخيه العادل «أبو بكر»، نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع جيشه إلى الكرك، ونفذ العادل ما أمر به فوصل إلى الكرك بجيش مصر وألقى الحصار حولها.

ووصل صلاح الدين بجيشه في رجب، ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر (١١٨٣م)، وبادر على الفور إلى مهاجمة المدينة السفلى وشق لنفسه منفذاً إليها. لم يستطع «رينالد شاتيون» أن يفلت إلى القلعة إلا بفضل بطولة أحد فرسانه الذي ظل يقاتل

بمفرده للدفاع عن الجسر المقام على الخندق الذي يفصل بين المدينة السفلى والقلعة، حتى تم تدمير ما يقع من الجسر وراء ظهره.

وكانت القلعة تحتفل بعقد قران الأميرة «إيزابيلا»، وريثة حصن الكرك وإمارتها، والتي بلغت وقتذاك الحادية عشرة من عمرها، على «همفري» سيد تبنين، الذي كان يناهز سبع عشرة سنة من العمر، وكان رينالد قد أراد إظهار ما وصل إليه من الفخامة والأبهة، فدعا كل أمراء الفرنج والمشرق وقدم مع هؤلاء الضيوف أرباب الملاهي من الراقصات والحواة والموسيقيين، وهكذا وبينما كان الرقص والغناء مستمراً داخل القلعة، كانت المنجنيقات السبعة التي استقدمها صلاح الدين تقذف الحجارة على من بالقلعة.

وأعدت والدة العريس صحوناً من طعام العرس بعثت بها إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين مقابل ذلك يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان، ثم أصدر الأوامر بألا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار، وفيما عدا ذلك لم يخفف جهوده، فما زالت مجانيقه السبعة الضخمة تواصل قذف الحجارة، وردم رجاله كل الخندق تقريباً.

وأسرعت الرسل إلى الملك «بلدوين» ملك مملكة بيت المقدس تطلب دعمه، فوجه كل جيشه بقيادة كونت طرابلس نظراً لمرضه، وتجاوز هذا الجيش «أريحا» ثم ارتقى جبل النبي موسى. وإذ أدرك صلاح الدين أن مجانيقه لم تكن كافية لتدمير أبراج الكرك وتحصيناتها قرر الانسحاب في ٤ كانون الأول ـ ديسمبر، ورجع إلى دمشق.

كانت عمليات السنة التالية تكراراً لما كان قد سبقها، واقتصرت على حصار الكرك وقذفه بالمجانيق مع الإغارة على سهول بيسان وتدميرها وإحراقها لحرمان الفرنج من مواردها والتضييق على محتليها. وتميزت سنة (٥٨١هـ/ ١١٨٥م) بوفاة ملك بيت المقدس «بلدوين»، فتشكل مجلس الوصاية من البارونات، وترأس كونت تولوز المجلس فقرر عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات، وكان صلاح الدين في حاجة لهذه الهدنة حتى يعيد تنظيم إمارات المسلمين، فوافق على عقد هذه الهدنة.

سار صلاح الدين في اتجاه الشمال، فعبر نهر الفرات عند البيرة ولحق به أمير حران «مظفر الدين كوكبري»، وقدمت إليه الرسل من قبل أمراء الجزيرة وأربل. وحاصر صلاح الدين «الموصل» في حزيران ـ يونيو (١١٨٥م) ولكنه لم

يتمكن من إخضاعها. وانتشر المرض، بين صفوف قواته، وسقط صلاح الدين ذاته مريضاً حتى أشرف على الهلاك، ولكنه أخذ في تجاوز مرحلة الخطر في نهاية العام.

وأمكن في شهر شباط ـ فبراير (١١٨٦م) عقد معاهدة صلح مع أمير الموصل «عز الدين» الذي أصبح بموجب المعاهدة تابعاً لصلاح الدين على أن يحتفظ بأملاكه، أما الإمارات الواقعة على نهر دجلة إلى الجنوب من الموصل، والتي تشمل أربل وشهرزور فأصبحت بحوزة أمراء من قبل صلاح الدين ويدينون مباشرة بالولاء له.

وفي طريق عودة صلاح الدين مرَّ بحمص، وإذ علم ما قام به ناصر الدين شيركوه (صهر صلاح الدين) من مؤامرة للاستيلاء على دمشق خلال فترة مرضه، ولذا لم يدهش أحد حينما جرى العثور عليه ميتاً في فراشه يوم ٥ آذار ـ مارس (١١٨٦م) وخلفه على إمارة حمص ابنه الطفل «شيركوه الثاني». وأصبحت امبراطورية صلاح الدين تمتد حتى أطراف بلاد فارس.

أفادت إمارات الفرنج من فترة الهدنة لإعادة تنظيم مواردها ودعم قدراتها القتالية بأفواج المقاتلين القادمين من الغرب، لكن الانقسامات بين هذه الإمارات تعاظمت حتى باتت تصل إلى مرحلة الحرب. وجاءت وفاة ملك بيت المقدس «بلدوين الخامس» في نهاية شهر آب ـ أغسطس (١١٨٦م) لتزيد من حدة الخلافات، لكن «سبيللا» استطاعت، بما عرفت عنها من دهاء، أن تتوج نفسها ملكة على بيت المقدس بمساعدة البطريرك هرقل، بطريرك بيت المقدس (عشيق أمها السابق)، وقامت الملكة «سبيللا» بتتويج ابنها «جاي» ملكاً على بيت المقدس، ولم يعد باستطاعة مجلس البارونات أن يفعل شيئاً سوى الاعتراف بهذا التتويج.

رينالد شاتيون ينتهك الهدنة للمرة الثالثة

كان القوافل التجارية الكبيرة تمضي، مطمئنة إلى الهدنة، وهي تتردد بين الشام ومصر. وحدث في نهاية عام (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م) أن ارتحلت قافلة ضخمة من القاهرة في حراسة قوة صغيرة من العساكر المصريين لحمايتها من إغارات البدو. وبينما كانت تتجه إلى مؤاب، انقض عليها فجأة «رينالد شاتيون»، فقتل العساكر وحمل إلى قلعته بالكرك التجار وأفراد عائلاتهم وما في حوزتهم من

أمتعة، وتجاوزت الغنيمة في الضخامة كل ما سبق أن حازه.

ولم تلبث أنباء الاعتداء أن بلغت صلاح الدين، فارسل إلى رينالد شاتيون طالباً إطلاق سراح جميع الأسرى، وبذل تعويض عن خسائرهم، وذلك حرصاً من صلاح الدين على الهدنة، غير أن رينالد شاتيون رفض استقبال رسل صلاح الدين، فتوجهوا إلى بيت المقدس ورفعوا احتجاجهم إلى الملك «جاي»، فاهتم جاي بالاستماع إلى هذه الشكوى، وأمر رينالد شاتيون بأن يؤدي التعويضات، غير أن رينالد لم يحفل بأمر الملك اعتماداً منه على ما قدمه من دعم ساعد على اعتلاء «جاي» للعرش. ولم يكن باستطاعة «جاي»؛ ولم يرغب أيضاً أن يفرض على رينالد شاتيون أن يطيعه، **فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إذا ما ظفر به.**

وظهر أن الحرب واقعة حتماً، فأسرع أمير أنطاكية «بوهمند» إلى تجديد الهدنة مع صلاح الدين، وعقد كونت طرابلس «ريموند» هدنة مماثلة تضمنت وعداً من صلاح الدين بمساعدته حتى يجعل من نفسه ملكاً، كما تضمنت شروط الهدنة أن تشمل إمارة زوجة ريموند (في الجليل). وحاول ملك بيت المقدس الاستيلاء على إمارة الجليل كرد على «ريموند» الذي اتفق مع أعداء الدين وخان الفرنج. وكادت تقع الحرب، لكن بعض أمراء الصليبيين تدخلوا لعلاج الموقف، وأخذوا في العمل للتوفيق بين الإمارات الصليبية.

أرسل صلاح الدين إلى قادته وأمرائه في جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له قدر المستطاع، ثم خرج من دمشق في أواخر المحرم (٥٨٣هـ) آيار ـ مايو (١١٨٧م) إلى رأس الماء حيث أقام معسكره وتلاحقت به العساكر الشامية، فلما اجتمعوا جعل عليهم (ولده الملك الأفضل علي) ليجتمع إليه من يرد إليه منها. أما صلاح الدين فقد أسرع بقيادة قوة صغيرة من الفرسان إلى بصرى بعد أن بلغه أن «رينالد شاتيون» يعتزم الإغارة على الحجيج وفيهم ابن أخت صلاح الدين «محمد بن لاجين» وأخته، العائدين من الديار المقدسة، وعلم رينالد شاتيون بذلك فلزم الكرك ولم يغادرها.

٥ ـ حطين

أ ـ الإغارة على عكا

أرسل صلاح الدين إلى ابنه «الأفضل»، قائد معسكر رأس الماء «بانياس»، يأمره بتوجيه قوة مقاتلة إلى عكا للإغارة عليها ونهبها وتدميرها، فسير «مظفر الدين كوكبري»، ولعل صلاح الدين قد هدف من توجيه هذه القوة الاستطلاعية اختبار صدق «كونت طرابلس ـ ريموند»، وعلى هذا أرسل الأفضل إلى «ريموند» يستأذنه لاجتياز رجاله أراضي الكونت ريموند في الجليل، ولم يكن باستطاعة هذا رفض الطلب، ولكنه اشترط أن تجتاز قوة المسلمين الحدود بعد طلوع نهار يوم ١ أيار (١١٨٧م) وأن يعودوا قبل حلول الظلام، وألا يلحقوا أضراراً بأي مدينة أو قرية في البلاد التي يجتازونها.

ثم أرسل ريموند من قبله مبعوثين يطوفون بإقطاعه ليخطروا السكان أن يبقوا مع قطعانهم بداخل الأسوار طوال اليوم وألا يتطرق إليهم الخوف. وفي الوقت ذاته علم «ريموند» بقدوم وفد الوساطة للصلح من بيت المقدس، فوجه رسالة أخرى إلى الوفد يحذرهم من المسلمين. وفي الصباح الباكر شاهد ريموند من قلعته الأمير مظفر الدين كوكبري على رأس قوة سبعة آلاف من الفرسان وهم يجتازون القلعة فرحين مبتهجين. وحوالي ضحى ذلك اليوم وصل إلى «الغولة» رئيس وفد بيت المقدس ورفاقه، وشاهدوا من مسافة بعيدة خيام الداوية مضروبة تحت الأسوار، فلما اقتربوا منها ألفوها خالية، والسكون يخيم على القلعة. ودخل أحد رجال الوفد ـ أو خادمهم ـ إلى داخل البناء، وصار يطوف به من حجرة إلى حجرة فلم يصادف سوى اثنين من العساكر يرقدان في رواق علوي، وقد بلغ بهما المرض حد الموت فلم يستطيعا الكلام.

واشتدت حيرة أفراد الوفد، ومضت عليهم نحو ساعة أو ساعتين وهم لا يدرون ما يفعلون، ثم استأنفوا سيرهم إلى الناصرة، ثم ظهر فجأة فارس من

الداوية، أشعث الشعر تنزف دماؤه وهو يركض بحصانه ويصيح بأعلى صوته بما حلَّ من فاجعة كبيرة مروعة. وفي تلك اللحظة شهد «ريموند» بطبرية جند المسلمين (المماليك) راكبين في طريق عودتهم إلى بلادهم، وقد التزموا بالعهد، إذ جرى كل شيء على وجه سليم قبل حلول الظلام ولم يلحقوا ضرراً بأي بناء في الإقليم، غير أن فرسان المسلمين في المقدمة رفعوا على أسنة رماحهم رؤوس الفرسان الداوية.

أما قصة هؤلاء الداوية والفرسان فتتلخص في أنه ما أن وصلتهم رسالة «ريموند» التحذيرية في مساء ٣٠ نيسان ـ أبريل، حتى أسرع مقدم الداوية لاستدعاء فرسانه من الجهات المجاورة للحاق به في الغولة، ثم تقدم في تسعين فارساً كانوا برفقته فنزل بقرية «قاقون» على مسافة خمسة أميال من الغولة. وفي صبيحة اليوم التالي ركب الحشد إلى الناصرة حيث انضم إليهم أربعون فارساً علمانياً. وطاف قائد الداوية بأهل الناصرة يعلمهم أن المعركة وشيكة الوقوع، وما عليهم إلا أن يقدموا لجمع الغنائم. وبينما كان الفرسان يجتازون التل الواقع وراء الناصرة شهدوا المسلمين يوردون خيولهم عيون كريزون (الواقعة قرب حطين ما بين صفورية وكفر كنة).

وفي الوادي الواقع أسفل التل، وعند رؤية هذه الأعداد الضخمة حدث حوار بين مقدم الأسبتارية «جيمس مايللي» ومقدم الداوية «جيرار». وإذ استبد الغضب بجيرار خاطب قائد الأسبتارية بازدراء وهو يقول له في زراية: «إن تعلقك برأسك الأصهب بلغ من القوة ما جعلك تحرص على ألا تفقده». فردَّ عليه هذا بكبرياء: «سوف أموت في المعركة رجلاً باسلاً، أما أنت فسوف تلوذ بالهرب شأن كل خائن». وإذ اشتدت ثائرة الداوية لما لحق جيرار من إهانات، حملوا على المماليك المسلمين، وحدثت مذبحة لا معركة، وكان رأس مقدم الأسبتارية ـ الأصهب ـ بينها، ولقي كل فرسان الداوية مصرعهم ما عدا ثلاثة، كان جيرار أحدهم. أما الفرسان العلمانيون فوقعوا في الأسر أحياء، وكذلك سكان الناصرة النهمين الذين خرجوا بحثاً عن الغنائم التي وعدهم بها مقدم الداوية حيث تم تطويقهم وسوقهم إلى الأسر.

واجتمع وفد بيت المقدس بكونت طرابلس «ريموند»، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين وقالوا له: لا شك أنك أسلمت، وإلا لم تصبر على ما فعله المسلمون أمس بالفرنج، يقتلون الداوية والأسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم

عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه. ووافقهم على ذلك أنصار ريموند وقادته، وتهدده البطريرك بحرمانه وفسخ زواجه وغير ذلك..

فلما رأى «ريموند» شدة الأمر عليه خاف واعتذر، فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على حرب المسلمين، ودعمهم على حفظ بلادهم، فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم، وسار معهم إلى بيت المقدس حيث قابله ملكها «جاي» ورحب به ترحيباً صادقاً، وتراءت المملكة آخر الأمر أنها اتحدت من جديد.

ب ـ صلاح الدين يعبر نهر الأردن ـ الاستعدادات للمعركة

استمر تدفق القوات على صلاح الدين من حلب والموصل وماردين ومن كل أنحاء الامبراطورية الإسلامية، فجمع من القوات ما لم يتمكن من جمعه من قبل، وقام صلاح الدين باستعراض قواته في معسكر الحشد في «بانياس»، فبلغت قوة جيشه **١٢ ألف فارس ممن له الإقطاع سوى المتطوعة وجند المشاة**[١].

ثم سار صلاح الدين بجيشه فنزل بالأقحوانة قرب طبرية، ونظم جيشه على شكل قلب وجناحين وميمنة وميسرة، وأخذ في تصعيد استفزازاته لإرغام الفرنج على خوض المعركة. وعقد صلاح الدين مؤتمراً لقادته يستشيرهم: فأشار أكثرهم على تجنب المجابهة والعمل على إضعاف الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة. وقال له بعض أمرائه: «الرأي عندي أن نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي، فإن تصدى لنا أحد من جند الفرنج لقيناه». وفي النهاية اتخذ صلاح الدين قراره فقال: **الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد.**

---

(١) نظراً لكبر حجم الجيش، فقد استعرض صلاح الدين قواته في «عشترا» بحوران يوم ٢٦ حزيران ـ يونيو، ثم أصدر أوامره التنظيمية، فتولى هو قيادة قلب الجيش، وجعل ابن أخيه تقي الدين على المجنبة اليمنى، بينما تولى مظفر الدين كوكبري قيادة المجنبة اليسرى، ثم توجه بجيشه إلى خسفين ومنها توجه إلى الطرف الجنوبي لبحر الجليل، حيث أقام خمسة أيام في الأقحوانة، واجتاز بعد ذلك الأردن عند سن العنبرة في الأول من تموز ـ يوليو (الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر ٥٨٣هـ).

(**الكامل**، ابن الأثير ٩/١٧٦، ١٧٧، وتاريخ **الحروب الصليبية** ٢/٧٣١ ـ ٧٤٣).

ثم رحل صلاح الدين من الأقحوانة في اليوم الخامس لنزوله فيها، وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر ٢ تموز - يوليو (١١٨٧م). وكانت عناصر الاستطلاع لقوات المسلمين في أوج نشاطها، لتجمع كل الأخبار الممكنة عن العدو وتقديمها لصلاح الدين. ثم خلف طبرية وراء ظهره، وصعد جبلها، وتقدم حتى قارب الفرنج، فلم ير منهم أحداً، ولا فارقوا خيامهم، فنزل وجنده حتى إذا ما هبط الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال. وقاد قوة من الفرسان إلى طبرية، ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في الليل، ولجأ من بها إلى قلعتها، فاعتصموا به، وتولت الملكة أمر الدفاع عنها ومعها أولادها، فنهب الجند المدينة وأحرقوها.

تولى ملك بيت المقدس «جاي» إدارة الحرب، ودعا الأمراء والقادة لحشد قواتهم، وحشد الداوية والأسبتارية كل قواتهم حتى لم يبقوا في قلاعهم سوى أقل عدد ممكن لحراستها، وذلك بهدف الانتقام لخسارتهم في معركة كريزون. وحشدت إمارات الفرنج كل ما تستطيعه، **فتشكل جيش صليبي يضم ١٢٠٠ من الفرسان بكامل أسلحتهم، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة الوطنيين، ونحو ١٠ آلاف من المشاة.**

وعندما وردت أنباء اجتياز صلاح الدين نهر الأردن عقد الملك «جاي» مجلساً مع باروناته في عكا. وكان الكونت ريموند أول من تحدث في الاجتماع، فأشار إلى أن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة، لن تكون الأحوال في صالحه، فينبغي أن تقوم خطتهم على التزام الدفاع المطلق، فإذا لم يتعرض المسيحيون للهزيمة، فلن يكون بوسع صلاح الدين الاحتفاظ بقواته الضخمة فترة طويلة في هذه البلاد الجافة اللافحة الحرارة، وسينسحب بعد فترة وجيزة، وفي الوقت ذاته تصل الإمدادات من أنطاكية.

وكان معظم الفرسان يميلون إلى اتباع هذه النصيحة، غير أن «رينالد شاتيون» و«جيرار» اتهما ريموند بالجبن وأنه باع نفسه للمسلمين. وكان مما قاله رينالد: «**لقد أطلت في التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلا ما كنت تقول هذا. وأما قولك إنهم كثيرون، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب**».

ولما كان الملك «جاي» يميل إلى رأي قائد الداوية «جيرار» فقد أصدر أوامره إلى الجيش بالتحرك نحو طبرية. وعسكر هذا الجيش بعد ظهر يوم ٢ تموز

(١١٨٧) في صفورية، وهي من أحسن المواضع الملائمة لأن يقام بها المعسكر لما توافر به من الماء والمراعي.

وفي ذلك المساء، وصل رسول من قبل كونتيسة طرابلس، فعقد «جاي» للمرة الثانية مجلساً في خيمته. واشتد تأثر الفرسان لما أدركوه من استماتة هذه السيدة الباسلة في الدفاع عن قلعتها عند بحيرة طبرية. وتوسلَ أبناؤها، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع، بأنه لا بد من إنقاذ أمهم، وأعقبهم فرسان آخرون يؤيدون ملتمسهم، ثم نهض ريموند فأعاد ما سبق له قوله ومنه:

«إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقيت القلعة وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود. فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً، ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة. وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها، وإن قام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ونفتكُّ من أسر منا».

وانفض المجلس في منتصف الليل، بعد أن تقرر البقاء في صفورية. ولما انصرف البارونات إلى قواتهم انسحب مقدم الداوية فرجع إلى خيمة الملك فقال: «سيدي، هل أنت مقدم على أن تثق في خائن؟ إنه لمن العار أن تترك للضياع مدينة لا تبعد عن المعسكر سوى ستة فراسخ». وأعلن جيرار أن الداوية يؤثرون أن يكونوا أكثر استعداداً للتخلي عن طائفتهم من أن يضيعوا فرصة الانتقام من المسلمين. وفي النهاية اقتنع الملك «جاي» بوجهة نظر مقدم الداوية، وأرسل المنادين يطوفون بالخيام ويعلنون أن الجيش سوف يتحرك عند طلوع الفجر إلى طبرية.

كان أفضل طريق يصل من صفورية إلى طبرية هو ذلك الذي يتجه قليلاً نحو الشمال والشرق، عبر جبال الجليل، ثم يهبط إلى طبرية على مسافة ميل شمال مدينة طبرية. أما الطريق الآخر فإنه يسير إلى الجسر القائم عند سن النبرة (الصنبرة) حيث يتفرع عنه طريق يتجه صوب الشمال في محاذاة البحيرة. وكان معسكر صلاح الدين يقع بكفر السبت على الجانب الآخر من طريق سن النبرة والذي سلكه صلاح الدين بعد عبور النهر.

والراجح أن جاسوسية صلاح الدين قد تابعت تحركات الملك «جاي» منذ

انطلاقته من صفورية، وعندها قاد صلاح الدين جيشه مسافة خمسة أميال عبر التلال حتى بلغ حطين، حيث أخذ الطريق يهبط نحو البحيرة، وكانت حطين قرية غنية بمراعيها وفيرة المياه. ولحق بصلاح الدين معظم الجند من طبرية حتى لم يبق بها من القوة إلا ما هو ضروري لحصار القلعة، «وبذلك ضمن المسلمون لأنفسهم الحصول على الماء في تلك الفترة من الصيف، والحر شديد القيظ. أما الفرنج فلم يعد أمامهم إلا العطش، إذ ليس باستطاعتهم الوصول إلى الماء، وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج، كما لم يعد باستطاعتهم الرجوع خوفاً من المسلمين فبقوا على حالهم إلى الغد».

يوم حطين ٤ تموز ـ يوليو سنة (١١٨٧م)

أمضى المسلمون ليلتهم في التكبير والتهليل، وأصبح صلاح الدين والمسلمون، يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الفرنج الذين أصبحوا مطوقين بعد تحرك صلاح الدين إلى حطين.

لقد أمضى الفرنج يوم الجمعة ـ اليوم السابق للمعركة ـ وهو يوم الجمعة ٣ تموز ـ يوليو، في التحرك عبر التلال الجرداء، وكان كونت طرابلس «ريموند» يقود المقدمة، بينما كان ملك مملكة بيت المقدس «جاي» يقود قلب الجيش، أما «رينالد شاتيون» فقد تولى قيادة المؤخرة. ولما لم يتوفر الماء على امتداد الطريق، فلم تلبث معاناة الرجال من الظمأ أن تعاظمت، واشتدت حاجة الخيول للماء، ونتج عن ذلك زيادة الإبطاء في التحرك، ودأب رماة المسلمين على مهاجمة مقدمة الجيش المسيحي ومؤخرته معاً، وأمطروا قلب الجيش بالسهام، وأسرعوا إلى الابتعاد قبل أن يبدأ الفرنج برد الهجوم. ووصل الفرنج بعد الظهر إلى الهضبة التي تشرف على حطين مباشرة، وكان يقع أمامهم تل صخري تعلوه قمتان على ارتفاع نحو مائة قدم، ومن خلفه هبطت الأرض في انحدار شديد إلى القرية وإلى البحيرة، واشتهر هذا الموضوع باسم (قرون حطين ـ قرني حطين).

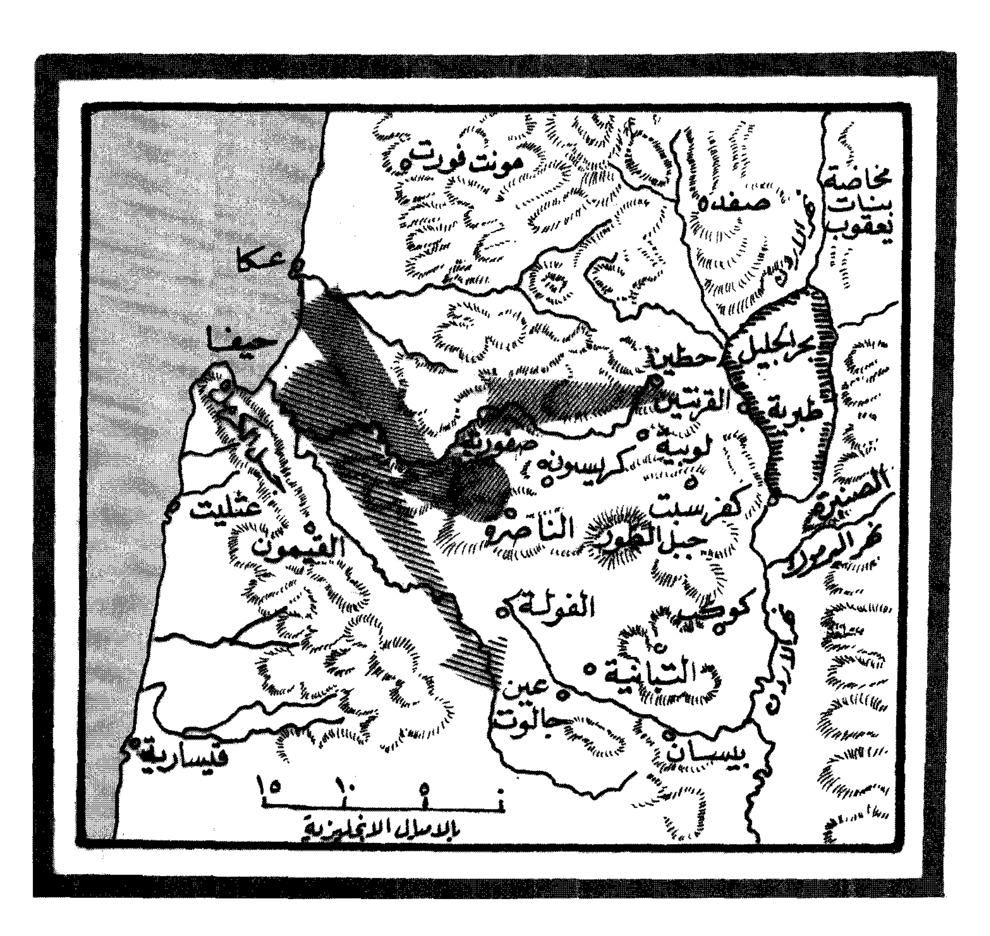
وأرسل الداوية إلى الملك جاي يخطرونه بأنهم سوف لا يمضون في سيرهم ذلك اليوم إلى ما هو أبعد من ذلك، غير أن بعض البارونات التمسوا من الملك أن يصدر الأمر إلى الجيش بأن يسرع السير، وأن يشق طريقه إلى البحيرة. على أن الملك «جاي» قرر التوقف تلك الليلة، بعد أن اشتد تأثره لما حلَّ برجاله من

التعب والإرهاق. ولم يكد «ريموند» كونت طرابلس يعلم بهذه الأنباء حتى ركب من المقدمة وأخذ يصيح: «**يا الله. انتهت الحرب لقد هلكنا وزالت المملكة**».
وبناء على نصيحة «ريموند» أقام «جاي» معسكره خلف لوبية مباشرة تجاه منحدر قرون حطين حيث تقع بئر، والتف كل الجيش حول ريموند، غير أن اختيار الموضع كان سيئاً نظراً لجفاف البئر.

أما صلاح الدين، الذي عسكر بجنده في الوادي المعشب من تحتهم، فإنه لم يستطع أن يكتم فرحه وسروره، إذ حانت له آخر الأمر الفرصة التي ينشدها. وأمضى المسيحيون ليلتهم في بؤس، يستمعون إلى ما يتردد في خيام المسلمين من تحتهم من الأدعية والأناشيد. وانطلق من المعسكر المسيحي جماعة من العساكر طلباً للماء، غير أن محاولتهم ضاعت هباء، بل إنهم لقوا مصرعهم على أيدي المجاهدين في سبيل الله الذين عملوا على إحراق الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل، ما زاد من عناء المسيحيين ومتاعبهم لا سيما بعد أن غشي الدخان الساخن المعسكر المسيحي.

وهكذا، فما كاد يبزغ فجر يوم السبت ٤ تموز ـ يوليو سنة (١١٨٧م) حتى تم تطويق جيش الملك جاي. وعندما نظم الفرنج قواتهم لم يخطر بخلد مقاتلي الفرنج إلا فكرة واحدة تدور حول الماء، إذ حاولت جماعة كبيرة منهم أن تشق لها طريقاً على المنحدر المؤدي إلى بحيرة طبرية التي تلمع مياهها تحت التل، غير أنه جرى ردهم إلى التل، وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق، وطوقهم المسلمون من كل جانب، فلقي عدد كبير مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر.

(ورمى مشاة المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيراً. واختلط فرسان الفرنج بمشاتهم وهم يقاتلون في محاولة لاختراق صفوف المسلمين والوصول إلى طبرية لعلهم يردون الماء. فلما علم صلاح الدين مقصدهم، صدهم عن مرادهم ـ هدفهم ـ ووقف بالعسكر في مواجهتهم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه). واستقتل فرسان الفرنج فقاموا بهجمة بعد هجمة، ولكن المسلمين أحبطوا هجماتهم، وكبدوهم خسائر فادحة في كل هجمة، فأخذت أعدادهم في التناقص، وبدأت قواتهم في الانهيار بعد أن أضعفها الظمأ الشديد.


مونت فورت
صفد
مخاضة
بنات
يعقوب
نهر الأردن
عكا
حيفا
حطين
بحر الجليل
القرنين
طبرية
لوبية
صفورية
كريسونة
كفرسبت
الصنبرة
نهر اليرموك
عثليت
الناصرة
جبل الطور
القيمون
الفولة
كوكب
التباتية
عين
جالوت
بيسان
نهر الأردن
قيسارية
١٥ ١٠ ٥ ٠
بالأميال الانجليزية

حطين

أصدر الملك «جاي» أوامره إلى كونت طرابلس «ريموند» لقيادة قواته قبل فوات الأوان واقتحام خطوط المسلمين، فحمل بكل رجاله على القوات التي يقودها تقي الدين، ابن أخي صلاح الدين، فأفسح له تقي الدين الصفوف، حتى إذا نفذ ريموند بفرسانه، سدَّ تقي الدين هذه الثغرة، فلم يستطيعوا العودة إلى رفاقهم، فغادروا ميدان القتال وقد استبد بهم البؤس واتخذوا طريقهم إلى طرابلس. ولم يلبث سيد إبلين «باليان» وسيد صيدا «رينالد» أن شقا لهما بعد فترة قصيرة طريقاً إلى خارج أرض المعركة، فكانا آخر من تمكن من مغادرة ساحة الحرب.

ولما انهزم الكونت «ريموند» انهارت القوى المعنوية للمقاتلين وكادوا يستسلمون، ثم أدركوا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متلاحقة على صفوف المسلمين، وكانت حملاتهم تصطدم بجدار صلد فترغمهم على التراجع بعد أن يفقدوا قسماً كبيراً من قوتهم. وفي إطار هذا القتال اليائس حاول الفرنج الانسحاب إلى قمتي التل (المعروفتين بقرني حطين)، وتقرر نقل خيمة الملك الحمراء ونصبها بأعلى القمة، والتف الفرسان حوله. وقام فرسان الفرنج بهجمات متتالية من موقعهم وردهم المسلمون في كل مرة حتى وصلوا إلى خيمة الملك ذاته، وكان ذلك إيذاناً بانتهاء المعركة.

ولقي أسقف عكا مصرعه خلال المعركة، كما استولى المسلمون على الصليب المقدس الذي كان يحمله أثناء المعركة (والذي يسمونه صليب الصلبوت، ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي يزعمون أن المسيح عليه السلام قد صلب عليها)، ولم يفلت من الهلاك من خيل الفرسان سوى عدد ضئيل. ولما بلغ المنتصرون الظافرون قمة التل، ألفوا الفرسان وبينهم الملك، وبلغ بهم التعب والإرهاق أشده حتى لم تعد لديهم القوة لتسليم سيوفهم، وجرى حمل قادتهم إلى الخيمة التي قرر صلاح الدين إقامتها فوق أرض المعركة.

استقبل صلاح الدين في خيمته الملك «جاي» وأجلسه بجانبه، واستقبل معه عدداً من أمراء المملكة وباروناتها، وحياهم صلاح الدين في لطف ورقة. وإذ شهد ما حلَّ بالملك «جاي» من ظمأ ناوله كأساً من الجلاب الذي أثلجه بقطع الثلج الوارد من جبل الشيخ «حرمون»، فشرب منه «جاي» ثم سلمه إلى «رينالد» الذي كان يجلس إلى جانبه. ووفقاً لتقاليد الضيافة الإسلامية فإنه متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك معناه الإبقاء على حياته، ولذا بادر

صلاح الدين بأن قال للمترجم: **«فلتخطر الملك أنه هو الذي أعطى ذلك الرجل الشراب، ولم أناوله أنا الشراب». ثم التفت إلى «رينالد شاتيون» فذكره بجرائمه وخيانته وغدره، وقاله له: «كنت نذرت مرتين أن أقتله إذا ما ظفرت به. إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما غدر بالقافلة». وقام صلاح الدين إليه بنفسه فضرب عنقه بيده وفاء لقسمه.**

وإذ لاحظ صلاح الدين ما اعترى الملك «جاي» من ذعر، طمأنه بقوله: «إن الملك لا يقتل ملكاً». وأمر صلاح الدين بقتل الفرسان الرهبان وأسرى الداوية والأسبتارية، وعهد بذلك إلى جماعة من المتصوفة والزهاد فاغتبطوا للقيام بهذا العمل. وجرى حمل الأسرى إلى دمشق، وبلغ من كثرتهم أن هبط سعر الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير، وأضحى بوسع الشخص شراء أسرة كاملة مؤلفة من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتين بثمانين ديناراً، بل إن أحد المسلمين اعتبر ما أجراء من مبادلة نعليه بأسير صفقة غير رابحة. وبذلك تمت تصفية أضخم جيش لم تحشد مملكة الفرنج مثله من قبل. وضاع الصليب المقدس، وكان المنتصر سيد العالم الإسلامي بأكمله.

من حطين إلى بيت المقدس

كان صلاح الدين يعرف أن الإمارات الصليبية لا تستطيع احتمال أكثر من معركة حاسمة واحدة، وقد حدثت هذه المعركة ولم يبق إلا استثمار الظفر وتصعيد الأعمال القتالية، فتوجه إلى طبرية وتسلم قلعتها يوم ٥ تموز ـ يوليو (اليوم التالي لحطين)، وتم قتل مائتي مقاتل من الداوية والأسبتارية. وفي يوم ٨ تموز ـ يوليو، وصلت قوات صلاح الدين إلى عكا، وبعد مفاوضات قصيرة دخلت قوات المسلمين عكا فيما كانت قوات الفرنج تغادرها يوم ١٠ تموز ـ يوليو وهي تحمل خفيف المتاع، واستولى المسلمون على كل ما جمعه الفرنج من كنوز وثروات طائلة، وأقام صلاح الدين فترة قصيرة لإعادة تنظيم أمورها الإدارية والعسكرية.

وأرسل صلاح الدين السرايا للاستيلاء على المدن والقلاع بالجليل؛ فتم تحرير الجليل والسامرة ونابلس وقلعة تبنين في أيام قليلة. وقدم الملك العادل من مصر بناء على أوامر صلاح الدين فحاصر يافا، وإذ حاولت حاميتها المقاومة تم اقتحام المدينة عنوة وأسر كل من بها من المستوطنين لبيعهم في

أسواق حلب. وعندما تم تحرير الجليل قاد صلاح الدين قواته على امتداد الساحل الشامي، فتم تحرير صيدا يوم ٢٩ تموز ـ يوليو بدون قتال، ولحقت بها بيروت يوم ٦ آب ـ أغسطس، وتبعتها بنت جبيل بعد ستة أيام.

ولم ينقض شهر آب ـ أغسطس سنة (١١٨٧م) حتى لم يبق للمسيحيين جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة وبضع قلاع معزولة، ثم المدينة المقدسة «القدس». فتوجه صلاح الدين إلى عسقلان وبرفقته ملك بيت المقدس «جاي» ومقدم الداوية «جيرار»، ولكن حامية عسقلان رفضت الإذعان. وبعد معركة حاسمة استولى صلاح الدين على المدينة يوم ٤ أيلول ـ سبتمبر سنة ١١٨٧م، وتم نقل السكان إلى الإسكندرية تحت الحراسة المصرية حتى تم ترحيلهم إلى بلاد الغرب، وتبع ذلك تحرير غزة التي استسلمت مقابل إطلاق سراح مقدم الداوية «جيرار».

ولما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وغزة وما يجاورهما من البلاد توجه إلى بيت المقدس، ولكنه قبل أن يعود إلى الداخل طلب إلى الأسطول المصري الخروج إلى عرض البحر بقيادة قائده «حسام الدين لؤلؤ» بمهمة عزل فلسطين وإيقاف كل إمدادات لها، وقام حسام الدين بمهمته على أفضل وجه، فاستولى على كل زورق للإفرنج كان في طريقه إلى الإمارات الصليبية.

ووصل صلاح الدين بجيشه إلى القدس في منتصف رجب (٥٨٣هـ) ٢٠ أيلول ـ سبتمبر (١١٨٧م)، وأمضى خمسة أيام وهو يطوف حول المدينة ويستطلع تحصيناتها وأسوارها ويجمع المعلومات عن حاميتها، ووجد أن أفضل منطقة للاقتحام هي من جهة الشمال نحو باب عمود، أو كنيسة صهيون، فنصب المنجنيقات في هذه الجهة ورموا بها وقوتل المسلمون أشد قتال رآه أحد من الناس، وانصرف النقابون لنقب السور الواقع قرب باب العمود.

وإذ ظهر أن سقوط المدينة في أيدي المسلمين قد بات وشيكاً، أسرع قائد حامية بيت المقدس لمفاوضة صلاح الدين الذي أعلن أنه سبق أن أقسم على اقتحام المدينة المقدسة بحد السيف، ولن يحله من قسمه إلا إذعان المدينة بدون قيد أو شرط. وذكّر صلاح الدين قائد حامية بيت المقدس بما ارتكبه الصليبيون من المجازر عندما فتحوا القدس سنة (١٠٩٩م). ووافق صلاح الدين في النهاية على أن بوسع كل مسيحي أن يفتدي نفسه بعشرة دنانير للرجل وخمسة دنانير للمرأة ودينار للطفل. ونظراً لوجود ٢٠ ألفاً من الفقراء الذين ليس بوسعهم أداء

الفدية، فقد وافق صلاح الدين على افتداء العشرين ألفاً بمبلغ ١٠٠ ألف دينار، ولما وجد قائد الحامية أنه ليس باستطاعته جمع أكثر من ثلاثين ألف دينار، فقد تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل هذا المبلغ.

واستسلمت القدس، فدخلها صلاح الدين والمسلمون يوم الجمعة ٢٧ رجب (٥٨٣هـ) المصادف ٢ تشرين الأول ـ أكتوبر (١١٨٧م). وأقام المسلمون في بيت المقدس، ولأول مرة منذ ٨٨ عاماً، احتفالات الإسراء والمعراج. وأمر صلاح الدين بإزالة كل رموز العبادة المسيحية، وجرى تطهير المسجد الأقصى من كل آثار احتلال الداوية، وتم رش كلا البناءين، قبة الصخرة والمسجد الأقصى، بماء الورد، وتم إعداد المسجد من جديد لإقامة الشعائر الدينية. ولما كان نور الدين زنكي قد عمل بحلب منبراً لبيت المقدس وأمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين، لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر صلاح الدين بإحضاره من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة.

اشتهر المسلمون الظافرون في الواقع بالاستقامة والإنسانية، فبينما كان الفرنج، منذ ثماني وثمانين سنة، يخوضون دماء ضحاياهم المسلمين، لم تتعرض الآن أي دار من دور بيت المقدس للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه، إذ صار رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأبواب تنفيذاً لأوامر صلاح الدين لمنع كل اعتداء يحتمل وقوعه على المسيحيين. وقد تأثر الملك العادل لمنظر بؤس الأسرى فطلب إلى أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير، فوهبهم له فأطلق العادل سراحهم على الفور، وأعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل امرأة عجوز.

وأقبل نساء الفرنج وقد امتلأت عيونهن بالدموع فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا في الأسر، فأجاب صلاح الدين بأن وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته، فكانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة الفرنج.

أما بالنسبة لرجال الكنيسة أنفسهم، وعلى رأسهم بطريرك بيت المقدس، فإنهم لم يهتموا إلا بأنفسهم، وقد ذهل المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل

وهو يؤدي عشرة دنانير (مقدار الفدية المطلوبة منه) ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب، وقد تبعته العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة، وكان كل ما فعله تجاه البؤساء المسيحيين هو التقدم إلى صلاح الدين، والتماس الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، وطلب أن يهبه صلاح الدين بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، ولكن هذه الرحمة أساءت لمخططات صلاح الدين، فقد خرجت أرتال النازحين عن القدس وتوجهت إلى صور حيث انضم الرجال المقاتلون إلى حاميتها مما زاد من قدرة هذه الحامية في مجابهة صلاح الدين عندما توجه لفتحها، وبقيت صور وبقية المدن الساحلية صامدة حتى جاءت الحملة الصليبية الثالثة.

تابع صلاح الدين عملياته بعد أن استراح جنده في فصل الشتاء، وهاجم حصن الكرك (الأكراد) وطرابلس وطرطوس فلم يتمكن من فتحها، ولكن استولى على جبلة ١٥ تموز ـ يوليو (١١٨٨م) وتبعتها اللاذقية ٢٢ تموز ـ يوليو (١١٨٨م)، ثم استولى صلاح الدين على قلعة صهيون المنيعة يوم ٢٩ تموز ـ يوليو، وتبعتها قلعة (بكاس الشغر) يوم ١٢ آب ـ أغسطس وسرمين ١٩ آب ـ أغسطس وقلعة (برزية) على نهر العاصي ٢٣ آب ـ أغسطس، وتصادف فتح هذه المواقع كلها أن حدث في يوم الجمعة (اليوم الذي ترتفع فيه دعوات المسلمين وتخلص نيتهم للجهاد). وانتقل صلاح الدين إلى جبال الأمانوس فاستولى على حصن دربساك يوم ١٦ أيلول ـ سبتمبر، وتبعتها قلعة بغراس يوم ٢٦ أيلول ـ سبتمبر، وأصبح الطريق إلى قليقية مفتوحاً أمام المسلمين.

٦ ـ صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة

ترددت أصداء انتصارات المسلمين في الغرب بقوة أذهلت الملوك والأمراء، وذعر العالم الغربي لما علمه عن الكارثتين في حطين وبيت المقدس. فقد تحطم الجيش الصليبي بضربة واحدة، وأضحى صليب الصلبوت في أيدي المسلمين، وانهار كل البناء الذي أقامه الفرنج في قلب العالم العربي ـ الإسلامي في يوم واحد، وضاعت جهود قرن من الزمن تقريباً. وأسرع رئيس أساقفة صور وغيره من الرهبان يستنفرون المجلس البابوي وملوك الغرب، وتوجه مبعوثون من روما ليفرضوا على جميع أمراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات، وإيقاف كل صراع بين قادة الغرب بعضهم ضد بعض، وتعهد جميع الكرادلة وأقسموا على قيادة الحملة الصليبية الثالثة. وعقد اجتماع في «لومانس» في نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير (١١٨٨م) تقرر فيه فرض ضريبة «عُشر صلاح الدين» التي تقدر بعشرة في المائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة على كل مواطن في إنكلترا وفرنسا. وبدأ الإعداد للحملة الصليبية الثالثة.

وقاد امبراطور ألمانيا «فريدريك بربروسة» قواته براً، واجتاز شبه جزيرة البلقان وهبط سهل سلوقية في ١٠ حزيران ـ يونيو (١١٩٠م)، وهناك توفي فريدريك وتوقف التحرك فلم يصل إلى أنطاكية يوم ٢١ حزيران سوى مجموعات من البائسين.

وبدأت الأموال تتدفق من الغرب، كما بدأ ملك صقلية في إرسال النجدات لحامية صور وبقية المدن الساحلية التي زادت من قوتها بحيث لم يتمكن صلاح الدين من فتحها بعد الهجوم عليها في مرات متتالية، ولكن الحرب لم تتوقف بين المسلمين والفرنج طوال عام (١١٩٠م) ولكن من دون الوصول إلى الحسم، وتعرضت عكا للحصار الطويل. وفي النهاية وصل الجيش الإنكليزي إلى عكا يوم ٢٠ نيسان ـ إبريل (١١٩١م) بقيادة ريشارد قلب الأسد، وتبع ذلك وصول الجيش الفرنسي بقيادة الملك فيليب أوغست، وتم للفرنج الاستيلاء على عكا في ١١ تموز ـ يوليو (١١٩١م).

واتخذ ريشارد قلب الأسد قراره بالزحف على بيت المقدس فأعلن، في برود شديد، يوم ٢٠ آب ـ أغسطس أنه يأمر بالإجهاز على ٢٧٠٠ أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا من حامية عكا، واشتد حماس الإنكليز لهذه المجزرة، وحمدوا الله أن هيأ لهم فرصة الانتقام. ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم. وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لإنقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إليهم. ولما انتهت المذبحة غادر الإنكليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة المتعفنة، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على أصدقائهم وأهلهم الشهداء.

لم يتمكن ريشارد من الوصول إلى هدفه، فقد نظم صلاح الدين قواته في أرسوف. وحدثت معركة يوم ٧ أيلول ـ سبتمبر (١١٩١م)، ورغم عدم نجاح أحد الطرفين في حسم الصراع لمصلحته، إلا أن هذه المعركة اقنعت ريشارد بصعوبة الوصول إلى بيت المقدس.

جرت مفاوضات بعد ذلك بين صلاح الدين وريشارد (عن طريق الوفود) واستمرت عامي (١١٩١ و١١٩٢م) وتخللتها بعض المعارك. وفي النهاية تم الاتفاق على عقد صلح يوم ٢ أيلول (١١٩٢م) بعد أن توطدت عرى الصداقة بين القائدين، صلاح الدين وريشارد، وجعلت المعاهدة للمسيحيين المدن الساحلية حتى يافا جنوباً، وأضحى للحجاج الحرية في زيارة الأماكن المقدسة، وللمسلمين والمسيحيين الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر، أما عسقلان فكان لا بدَّ من تدميرها وفقاً لشروط صلاح الدين.

وهكذا، لم تحقق الحملة الصليبية الثالثة هدفها على الرغم من ذلك الحشد الضخم الذي ضم معظم ملوك أوروبا، ولم تتجاوز مغانم الفرنج الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا، علاوة على طرابلس وصور اللتين أنقذهما دعم ملك صقلية لهما. على أن أمراً واحداً قد تحقق وهو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح، وسوف تتوقف محاولات المسلمين عن رد الصليبيين على أعقابهم إلى البحر، وتكون النتيجة غير المباشرة للحملة الصليبية الثالثة هي إقامة مملكة جديدة تعيش فترة من الاستقرار لمدة مائة سنة أخرى.

عاد صلاح الدين إلى دمشق واستقر بها، ولم يلبث أن سقط مريضاً لمدة ثمانية أيام، ولما اشتدت وطأة المرض عليه في ليل الأربعاء ٢٧ صفر

(٥٨٩هـ)/ ٣ آذار ـ مارس (١١٩٣م) استدعى إمام الكلاسة ليبيت عنده ويلقنه الشهادة، وعندما وصل الشيخ في قراءته إلى الآية: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ رد عليه صلاح الدين: هو كذلك صحيح. فلما أذَّن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ تبسم وجهه وتهلل وأسلم روحه إلى ربه. وطاف مناد في دمشق، وقد جعل بأعلى رمحه قطعة من كفنه، وهو ينادي: «بأن صلاح الدين قد مضى ولا يحمل معه إلى القبر إلا كفنه». وعندما فتحت خزائن صلاح الدين لم يكن بها غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية، هذا على الرغم من كل ما جمعه في حياته والذي استطاع أن يجهز به ـ على سبيل المثال ـ يوم حصار عكا ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال، علاوة على ما لا يمكن حصره من السلاح والألبسة، ولم يكن لصلاح الدين يوم وفاته أكثر من سبع وخمسين سنة.

كان وقع خبر وفاة صلاح الدين أليماً على العالم الإسلامي. وما إن انتشر نبأ الوفاة «حتى خرجت دمشق، وكأن أهلها لم يصابوا بمثل مصابه، وودَّ كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه. وأغلقت الأسواق، وأخذ الناس في العويل والانتحاب والدعاء».

الفَصْلُ الثَّاني

فن الحرب عند صلاح الدين الأيوبي

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

٢ ـ بناء المجتمع للحرب

٣ ـ وضوح الهدف

٤ ـ الحرص على المسلمين

٥ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

٢ ـ أمن العمل

٣ ـ القدرة الحركية

٤ ـ المبأداة واستخدام القوة الهجومية

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

٦ ـ المحافظة على الهدف

جـ ـ صلاح الدين وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بشؤون الجيش الإدارية

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

٣ ـ التحريض والحض على القتال

٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر

٥ ـ القرارات الصحيحة

٦ ـ حماية المرؤوسين

د ـ صلاح الدين وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

٢ ـ الروح المعنوية العالية

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

٤ ـ صلاح الدين والحرب الشعبية ـ الجهاد في سبيل الله

٥ ـ صلاح الدين وحرية العمل

٦ ـ الانضباط والطاعة

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

ظهر صلاح الدين الأيوبي والعالم العربي ممزق الولاءات متعدد الانتماءات، تتنازعه عوامل التشتت والفرقة، وقد بذلت قبل ظهور صلاح الدين محاولات جادة لتوحيده، في عهد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين من بعده. وأدرك صلاح الدين أهمية هذا العامل في مجابهة التحديات الخارجية المفروضة، فأخذ في العمل له منطلقاً من بناء القاعدة القوية والمأمونة، فبدأ في مصر والسودان، وانطلق منهما لليمن والشام وضم الإمارات الشمالية، ثم أخذ في ضم الإمارات الشرقية، وتوفرت بذلك القدرة على حشد القدرات المطلوبة. ولم تكن عملية بناء القاعدة القوية والمأمونة تعتمد على التوسع الجغرافي بقدر ما كانت تعتمد على بناء الإنسان المسلم المقاتل وبناء الاقتصاد الحربي، وهذا ما تفسره عملية التوسع الكبير في بناء المدارس والمستشفيات ودور الصناعة والاهتمام بالزراعة والتجارة.

٢ ـ بناء المجتمع للحرب

وهكذا، لم تكن الجهود المبذولة لإقامة الوحدة الدينية السياسية أكثر من وسيلة لبناء المجتمع للحرب، وقد عبر صلاح الدين عن ذلك بقوله، وقد بلغته أخبار غزو الفرنج لدمشق: «**يخربون قرى ونملك عوضاً عنها بلاداً، ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم**». وهذا ما يفسره أيضاً سلوك صلاح الدين مع أهل البلاد، حيث أشاع العدل وأزال الأحقاد بين الإمارات المتناحرة، ووجه العداء كله ضد العدو الخارجي. ورافق عملية بناء المجتمع للحرب إقامة الصناعات الحربية، كدور صناعة السفن في مصر وتنظيم الحصون، ودعم المواقع الدفاعية، والاهتمام بتجهيزات الحصار (المجانيق والعرادات). وكان صلاح الدين في طريق إقامة وحدة العالم الإسلامي السياسية، يحقق التوازن

باستمرار في إطار الهدف الكبير، هدف الصراع مع الغزاة. ولهذا فقد حرص على اتباع الطرق السلمية قدر المستطاع، مع التوفيق بين الأمراء المتخاصمين، واستطاع بذلك القضاء على السلبيات الموجودة، وسد الثغرات التي يمكن لها إضعاف المسلمين.

٣ ـ وضوح الهدف

وتميزت قيادة صلاح الدين، قبل كل شيء، بوضوح الهدف، فقد وضعه القدر في طريق قيادة الأمة الإسلامية خلال أصعب فترة من تاريخ عالم المسلمين منذ الفتح الإسلامي. وكان على صلاح الدين التحرك بين مراكز القوى بمهارة، وقد نجح في ذلك نجاحاً رائعاً. فقد استطاع الحصول على ثقة الخليفة الفاطمي، ثم اكتسب ثقة الخليفة العباسي، وحصل بذلك على الشرعية وحافظ عليها طوال حياته. وإذا كان القدر قد خدم صلاح الدين عندما ذلَّل له العقبات المتتالية (زوال الخليفة الفاطمي ثم الملك نور الدين)، فقد عمل صلاح الدين بعد ذلك على تذليل بقية العقبات بنفسه، وباستخدام أقل جهد ممكن في حدود الهدف الواضح وهو محاربة الغزاة الفرنج وحشد كل الإمكانات والقدرات القتالية. وكان وضوح الهدف الاستراتيجي هو الذي ساعد صلاح الدين على تحديد أهداف العمليات بشكل واضح أيضاً، فأعطى الأفضلية لعملية التحرير الزاحف مبتدئاً بأطراف الإمارات الصليبية ومتجهاً بها نحو الساحل.

٤ ـ الحرص على المسلمين

وكان صلاح الدين يحرص على المسلمين لتحقيق هدف الحرب، بقدر ما يحرص على الحرب للمحافظة على المسلمين. ومن خلال هذه العلاقة الجدلية المتبادلة يصبح من الواضح سبب غضب صلاح الدين لكل اعتداء يقع على المسلمين وممتلكاتهم. ومن خلال هذه العلاقة أيضاً يظهر اندفاع قائد المسلمين لرد كل عدوان بعدوان أكبر وأقوى. ويرتبط الحرص على المسلمين دائماً، عند صلاح الدين، بالمحافظة على الروح المعنوية قبل كل شيء، وبالاستعداد القتالي المستمر، ثم في تحديد أساليب العمليات المناسبة. ويصبح من الطبيعي، بالنسبة لصلاح الدين، أن يقود قواته للانتقام ضد إغارة «رينالد شاتيون» على قافلة من قوافل المسلمين، كما يصبح من الطبيعي أيضاً تصعيد

الصراع حتى ذروته عندما يتعلق الأمر باعتداء على الأماكن المقدسة، ومن المتوقع بعد ذلك أن يستجيب المسلمون لهذه القيادة التي أخذت على عاتقها المحافظة على معتقداتهم وممتلكاتهم وأمنهم.

٥ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

تميزت أساليب صلاح الدين بما يعرف باستراتيجية الهجوم غير المباشر، سواء في مجال الصراع السياسي الداخلي أو الخارجي، أو على مستوى العمليات. وقد أخطأ صلاح الدين مرة واحدة في بداية حياته عندما فكر في مجابهة نور الدين فوقف والده أيوب ضده، ظاهرياً، وقد استوعب صلاح الدين هذا الدرس، فأخذ في إخفاء مخططاته حتى أنه استمر في تأييد الملك الصالح إسماعيل «ابن نور الدين»، إلى أن تمكن من تصفية كل المقاومات المناوئة له. وفي مجال الصراع مع الفرنج، تميزت طرائق العمليات بالمسيرات الطويلة والهجمات المباغتة، والهجوم على جبهات الجنوب لتخفيف الضغط عن جبهات الشمال، أو الهجوم بالشمال لتمزيق الهجمات التي يقوم بها الفرنج في الجنوب.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

وضمن هذا الإطار ذاته، إطار استراتيجية الهجوم غير المباشر، أخذت طرائق العمليات شكل «استراتيجية الحرب التشتيتية» ويظهر ذلك في كل معارك صلاح الدين. وحدث في حطين، على سبيل المثال، أن وجه صلاح الدين قوة للإغارة على عكا، وقام هو بقيادة قوة من الفرسان للهجوم على طبرية. وأثناء المعركة ذاتها استخدم صلاح الدين قوة المشاة لفصل فرسان الفرنج عن مشاتهم. وبعد معركة حطين وجه «صلاح الدين» مجموعات مقاتلة للإغارة على عدد من المواقع، بينما قاد هو كتلة القوات الرئيسية للاستيلاء على المدن الساحلية. وكان صلاح الدين يحرص على استخدام النزاعات السياسية بين قادة الفرنج كوسيلة أيضاً تساعده على تطوير أساليب الحرب التشتيتية، على نحو ما فعل مع «ريموند» كونت طرابلس، قبل حطين.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

كانت فترة قيادة صلاح الدين هي مرحلة التحول في الصراع ضد الصليبيين،

من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي؛ وتبعاً لذلك فقد كان صلاح الدين شديد الحرص على الالتزام بالمواثيق ومعاهدات الهدنة، ولكنه كان رغم ذلك يتابع بحذر ما يحدث عند الطرف الآخر، فكان يعمل على الإفادة من كل موقف للقيام بمجموعة من الهجمات الوقائية التي تضعف قدرة العدو القتالية. وجدير بالذكر هنا التنويه بين مرحلتين من مراحل قيادة صلاح الدين؛ مرحلة ما قبل حطين ومرحلة ما بعد حطين. وكانت الهجمات الوقائية في المرحلة الأولى أشد عنفاً وقوة، أما في المرحلة الثانية فقد أخذت شكل تدمير التحصينات وحرمان العدو من استثمار قوة المواقع الدفاعية، وإرغام العدو على الدخول في معارك تصادمية مكشوفة، تكون فيها مميزات ميدان المعركة لمصلحة صلاح الدين. وإذا كان نصيب صلاح الدين من النصر في هذه المرحلة محدوداً، إن لم يكن معدوماً، فإن ذلك يعود إلى اضطراب ميزان القوى بأكثر مما يعود إلى ضعف الكفاءة القيادية عند صلاح الدين.

ب ـ في مبادئ الحرب

١ ـ المباغتة

كثيراً ما ترد في سيرة صلاح الدين اصطلاحات: «وظهر بصورة مباغتة أمام إيلات أو أمام عكا أو أمام الكرك إلخ...»، مما يؤكد حرص صلاح الدين على تحقيق المباغتة الاستراتيجية، سواء في حجم القوات أو في تحديد مكان حشد القوات أو في زمان زج هذه القوات. وقد كان للمباغتة دورها الحاسم في أكثر معارك صلاح الدين الظافرة، ولكن المباغتة عند صلاح الدين لم تكن استراتيجية فقط، وإنما كانت أساسية في مخططات العمليات أيضاً. فقد كان زج القوات في حطين وتنظيمها مباغتاً للفرنج، ما دفع الكونت «ريموند» على إدراك نتيجة المعركة مسبقاً وإنذار الفرنج الذين لم يأخذوا برأيه. وكان دفع «مظفر الدين كوكبري»، قبل حطين بأيام قليلة، مباغتاً للفرنج الذين دفعوا الثمن غالياً. وتظهر معركة حطين بصورة خاصة، تحقيق المباغتة المركبة، والتي تمتزج فيها المباغتة الاستراتيجية بمباغتة العمليات بمعنى ضمان المباغتة بحجم القوات وتنظيمها القتالي واختيار المكان المناسب للمعركة.

٢ ـ أمن العمل

كان في طليعة عوامل انتصارات صلاح الدين حرصه على ضمان مبدأ أمن العمل؛ فكانت عناصر استطلاعه وشبكات جاسوسيته تضمن له سيلاً مستمراً من المعلومات الدقيقة. وكان نظام صلاح الدين يصل إلى قلب قيادة العدو، وكان ذلك يسمح له بمعرفة الاحتمالات المختلفة وسبق الأحداث بالإجراءات المناسبة ما كان يساعده على ضمان حماية قواته وتنفيذ أعماله القتالية ضمن أفضل الشروط الممكنة. ولعل من أبرز الظواهر المميزة هي عدم اعتماد صلاح الدين على وسيلة واحدة من وسائل جمع المعلومات، وعدم إعداد خطة واحدة لمجابهة الاحتمالات. وفي حطين، ورغم توفر المعلومات الواردة عن

طريق شبكات الجاسوسية، كانت عناصر الاستطلاع في ذروة فاعليتها لجمع كل المعلومات المتوفرة عن العدو والأرض والسكان، كما أن التنظيم القتالي وتحديد مسرح العمليات بقي متحركاً حتى اللحظة الأخيرة التي سبقت المعركة، فكان في ذلك ضمان الشروط المثلى لتحقيق مبدأ أمن العمل.

٣ ـ القدرة الحركية

كان جيش صلاح الدين في معركة حطين مكوناً من ١٠ آلاف فارس، وكان جيش الفرنج يضم ١٥٠٠ فارس تقريباً، وحشد صلاح الدين أمام عكا ثمانية عشر ألف دابة. وعندما تحرك مظفر الدين كوكبري للإغارة على عكا، كانت قوته مكونة من ٧٠٠ فارس. وكان صلاح الدين يعتمد على القدرة البحرية للأسطول المصري من أجل زيادة القدرة الحركية للقوات، وقد ظهر أثر ذلك كله في تنفيذ التحركات السريعة للقوات، وجلبها من أقصى عمق في البلاد؛ من مصر وحلب والموصل، لزجها في القتال خلال فترة قصيرة، كما ظهر أثر ذلك عند استثمار الظفر بعد معركة حطين حيث توجهت مجموعات الفرسان إلى القدس والمدن الساحلية والجليل، فغطت مساحات جغرافية واسعة خلال فترة قصيرة جداً، وبذلك أمكن تحقيق تلك الانتصارات الرائعة خلال فترة قياسية من الزمن.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

لم تكن المبادأة دائماً في قبضة المسلمين، خلال الحرب طويلة الأمد، للحروب الصليبية، وكان الفرنج، بحكم تكوينهم الاستعماري الاستيطاني، أكثر عدوانية وأكثر استعداداً للقتال بدلالة خرق الهدنة من قبلهم في كل مرة يتم فيها عقد هدنة. ولكن كان من الواضح أيضاً أن صلاح الدين لم يكن ليستسلم للمبادأة التي يمسك بها الفرنج، فكان يترك لهم الإفادة من المبادأة حتى نهايتها ثم يعمل بدوره لخلق مواقف جديدة يمكن له فيها خلق المبادأة وتطويرها. والظاهرة الأكثر أهمية في مبادأة صلاح الدين هي تلك التي تبرز في دفع الفرنج للقتال في مسرح العمليات الذي يختاره وفي الوقت المناسب له. وقد كان لمبادأة العمليات أهميتها الحاسمة في إحراز النصر سواء في حطين أو في عدد من المعارك السابقة لها، أو التالية لها أيضاً. ولقد كانت حروب صلاح الدين كلها حروباً دفاعية ضد قوات الغزو الاستيطاني، ولكن الأعمال القتالية تميزت

بروحها الهجومية، وبذلك أمكن التحول من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي على المستوى الشامل للحرب.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

وكان الحرص على تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى في طليعة الظواهر المميزة لحروب صلاح الدين، ولا ريب أن الحافز لذلك هو إدراك الأهمية الكبرى لعامل القوى في الحرب طويلة المدى. وقد ظهر هذا المبدأ وبشكل واضح في معظم الحروب، حيث كان صلاح الدين يعمل على زج القوى والوسائط الضرورية للمعركة المتوقعة؛ فكان يكتفي بالقوات التي يقودها إذا ما وجد أن المعركة ستكون محدودة، وكان يزج بقوات جبهة الشام كلها إذا وجد أن الموقف يتطلب ذلك، وكان يستدعي جيش مصر وقواتها البحرية عندما تظهر له ضرورة ذلك. وكان يلقي بالمعركة من القوى ما يضمن له تحقيق النصر الحاسم بأقل خسارة ممكنة، عن طريق إحراز التفوق الكبير في مسرح العمليات المحدود، ثم المناورة بالقوات لنقلها من مسرح إلى مسرح آخر، وحشد القوات وتفريقها حسب ما يتطلبه الموقف. وكانت القدرة الحركية العالية والمبادأة هما من العوامل التي كانت مساعدة لصلاح الدين في تطبيق مبادئ الحرب بفاعلية ونجاح.

٦ ـ المحافظة على الهدف

حدَّد صلاح الدين، وبوضوح تام، الهدف لكل مرحلة من مراحل قيادته، وعندما كان هدفه بناء الدولة، لم يبذل من الجهد إلا ما هو ضروري لمجابهة العدوان الخارجي، تاركاً ذلك لقائده «نور الدين زنكي»، وعندما انتهى من بناء الدولة ركز كل جهده لقتال الفرنج. وقد برزت خلال ذلك تحديات قوية ومتعمدة لصرف صلاح الدين عن أهدافه، فلم يظهر لها من الاهتمام إلا بالقدر الوقائي من أخطارها. وعلى مستوى العمليات، كان صلاح الدين يحدد هدف المعركة: استنزاف وتدمير القدرة البشرية بالدرجة الأولى، وحرمان الفرنج من مواردهم الاقتصادية، وتحويلهم إلى عبء على الغرب الذي أقام إمارات الفرنج، ثم كسب معارك صغرى متتالية وتحرير الأرض من الداخل في اتجاه الساحل، وتبرز متابعة أعمال صلاح الدين القتالية التزامه بهذا الهدف طوال حياته القيادية.

جـ ـ صلاح الدين وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بشؤون الجيش الإدارية

لقد توفرت لصلاح الدين موارد مادية ضخمة، وإمكانات اقتصادية غير قليلة، وجهها كلها من أجل التأمين الإداري للقوات المسلحة وبناء المجتمع وإعداده للحرب، حتى أنه لم يكن في خزانته يوم وفاته أكثر من دينار ودريهمات، وبذلك أمكن تطوير القدرة البحرية المصرية، وأمكن تأمين القدرة الحركية العالية للقوات مع تأمين إمداد القوات باحتياجاتها من وسائط القتال (المجانيق والعرادات) والمواد التموينية. ويظهر اهتمام صلاح الدين بتأمين القوات إدارياً على مسرح العمليات من خلال اهتمامه بانتقاء ميدان القتال الذي تتوفر فيه المياه والأغذية. ولعل توفر الثلج في معسكر صلاح الدين خلال شهر تموز ـ أغسطس، وجلب هذا الثلج من حرمون ما يبرهن على اهتمام صلاح الدين بتأمين كل ما تحتاجه القوات في كل الظروف. وقد كان لهذا العامل بدون ريب تأثيره الكبير على القوات، سواء من أجل الاستعداد القتالي للقوات أو من أجل المحافظة على الروح المعنوية للمجاهدين.

٢ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

عندما انتهت معركة حطين، وحمل «رينالد شاتيون» إلى خيمة صلاح الدين عرض عليه جرائمه، وقام إليه فأطاح برأسه. وعندما انتصر صلاح الدين في الكرك وطبرية عمل على إبادة المقاومة فيها نظراً لما كانت تشكله من تهديد مستمر للمسلمين. وعندما فتح بيت المقدس، أمر بقتل فرسان الداوية والأسبتارية نظراً لما كانت ترتكبه قوات التنظيمين من وحشية في قتال المسلمين، ونظراً لعدائهما الشديد للمسلمين، وفيما عدا ذلك فقد كان صلاح الدين رحيماً مع أعدائه رقيقاً في معاملتهم، مما خلق له المتاعب في مجابهة المسلمين الذين كانوا يحرصون على تطبيق مبدأ العين بالعين والسن

بالسن. ويظهر ذلك أن استخدام العنف عند صلاح الدين كان مقنناً بدقة، ومحدداً بشكل دقيق وواضح، وهو موجه إلى أكثر الأعداء حقداً وأكثرهم ضرراً بالمسلمين، وقد كان لهذا التحديد أثره الثابت في إخضاع الحقد المتطرف الذي حمله الصليبيون معهم إلى قلب العالم الإسلامي.

٣ ـ التحريض والحض على القتال

وقف صلاح الدين في مرتفع حطين، ونظم قواته وحضهم على القتال، ثم أخذ في إدارة المعركة وأصدر أوامره لمعالجة كل موقف طارئ، وكان يحرض جنوده ويحضهم على الصمود. وعندما غزا الفرنج الإسكندرية، ووصلت الطلائع عند العصر وأعلن عن اقتراب صلاح الدين، عاد المجاهدون للقتال، واندفعوا بحماس حتى كأن صلاح الدين معهم. وعندما استنفر صلاح الدين قوات المسلمين للجهاد من كل الأقاليم، بعث برسائله إلى المسلمين يحضهم على القتال ويحرضهم عليه. وفي مؤتمرات الحرب التي كان يعقدها قبل المعركة، يظهر أسلوب صلاح الدين في الحض على الجهاد؛ فقد كان يضع في اعتباره أن مرحلة العمر قصيرة، وأن الأعباء كبيرة، وأنه يجب اغتنام كل فرصة للجهاد في سبيل الله، وعدم ترك أعباء الجهاد لإلقائها على جيل المستقبل الذي قد لا تتوفر له فرصة كتلك التي ظهرت في عهده.

٤ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر

جابه صلاح الدين الأيوبي في حياته القيادية أخطاراً كثيرة، ليس أقلها التعرض لمؤامرات الحشاشين «الباطنية»، وليس أقلها أيضاً مجابهة التعرض للقتل في ميادين القتال، وقد ذكر الفاضل ابن صلاح الدين، بعضاً من هذه المواقف يوم حطين (انظر المقدمة). فهو كالطود لا تهزه الأخطار، وله من إيمانه العميق بقدره ما يعينه على مجابهة أخطر المواقف، ولعل تحركه من مصر إلى الشام، عندما طلب إليه أهل دمشق، على رأس قوة لا تزيد على سبعمائة فارس في مثل تلك الظروف، حيث الصراع مع الفرنج في ذروته، إنما هو برهان على ما كان ينفرد به صلاح الدين من إرادة صلبه وإيمان راسخ يعينانه على مواجهة الخطر. ولم يكن استهتار صلاح الدين بالخطر وشجاعته في مجابهته يعود إلى نوع من اللامبالاة بقدر ما كان نتيجة للتقويم السليم لهذه الأخطار التي يحتمل ظهورها، والإعداد مجابهتها بما هو مناسب لها، ثم ترك الأمر لما تدبره يد القدر من تدبير محكم.

٥ ـ القرارات الصحيحة

ويظهر من الطبيعي بعد ذلك أن تكون قرارات صلاح الدين صحيحة في معظمها. فقد توافرت له سعة الأفق والرؤية الشاملة للمواقف وتطوراتها، كما توافرت له أيضاً مصادر المعلومات الدقيقة والصحيحة عن العدو والأصدقاء والأرض، وكل ما يتعلق بالمواقف التي يجابهها، وتوافرت له بعد ذلك القدرة على معالجة المواقف. ولهذا فقد جاءت قراراته متطابقة كل التطابق مع مسيرة الأحداث، ولكنه رغم ذلك كله لم يكن ينفرد في اتخاذ القرار، وكان كثيراً ما يخضع لنصح المقربين إليه وأقاربه، وبصورة خاصة في المرحلة الأخيرة من حياته، ولعل ذلك هو سبب ظهور بعض الأخطاء القيادية في هذه المرحلة أكثر من سابقتها، ومهما كان عليه الموقف فإن ما لا يمكن إنكاره على صلاح الدين هو العقل الراجح والتقويم الصحيح للمواقف واتخاذ القرارات المناسبة ثم الإشراف على تنفيذها.

٦ـ حماية المرؤوسين

كان صلاح الدين مخلصاً لمرؤوسيه بقدر ما كانوا أوفياء له، وكان يضمن لهم الحماية بقدر ما كانوا يستجيبون لأوامره، وبقدر ما يحققونه من نجاح في حماية أقاليمهم، وبقدر ما يحققون من نجاح في تعاملهم مع مرؤوسيهم. فإذا أظهروا ضعفاً أو فشلاً كان مصيرهم العزل، وإذا ما فكروا بالغدر كان نتيجة عملهم الجزاء العادل. ولهذا فقد كانت حماية المرؤوسين عند صلاح الدين تقوم على أسس مبدئية أبرزها الولاء والإخلاص في العمل. وقد يكون من الطبيعي بالنسبة لصلاح الدين الذي اشتهر بالعاطفة الإنسانية والتعامل بأخلاق الإسلام حتى مع أعدائه أن يتعامل مع أصدقائه على هذه الأسس ذاتها. وإذا ما اشتهر صلاح الدين بالقسوة والابتعاد عن الشفقة أو الرحمة عند تعامله مع من يغدرون به، فقد كان ذلك طبيعياً لسببين: أولهما، التزامه بأسس القيادة التي حددتها الشريعة الإسلامية. وثانيهما، الاستجابة المناسبة لمتطلبات الظروف التي أحاطت بصلاح الدين خلال فترة تاريخية تميزت بما يمكن أن يطلق عليه اسم (انحلال القيم).

د ـ صلاح الدين وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

كان المسلمون أيام الحروب الصليبية في حالة استعداد دائم للقتال، ويظهر ذلك من خلال مواقف كثيرة، وعلى سبيل المثال، فقد استطاعت حامية الإسكندرية تدمير قوات الإنزال الصقلية قبل أن تصل إليها إمدادات صلاح الدين. وطاردت حامية دمشق الفرنج عندما اقتربت قواتهم فوصلت (داريا) من ضواحي المدينة، في الوقت الذي كانت فيه قوات صلاح الدين عند أطراف الجزيرة الشامية. وقد أفاد صلاح الدين من هذا الاستعداد القتالي وعمل على تطويره حتى أصبح باستطاعته على سبيل المثال تحريك الأسطول من مصر، واستدعاء القوات المصرية أو الجزرية (نسبة للجزيرة الشامية) خلال أقصر فترة ممكنة، وقد كان هذا الاستعداد الدائم للقتال، هو العامل الأساسي فيما حققه صلاح الدين من نجاح في أعماله القتالية.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

وتميزت قوات المسلمين في عهد صلاح الدين بروحها المعنوية العالية؛ ذلك أن صلاح الدين حرص باستمرار على فرض العدالة في التعامل مع أبناء الأقاليم المختلفة، كما أظهر حرصه الدائم على ضمان الأمن وردع كل عدوان بعدوان أكبر، وبذل كل الجهود للاهتمام بالمسلمين في سلمهم وحربهم، في حريتهم وأثناء وقوعهم في الأسر، والعمل في كل ذلك على رفع راية الجهاد في سبيل الله لطرد الغزاة عن أرض الإسلام وتحرير المقدسات الإسلامية والإخلاص في ذلك، فكان في ذلك تعويضاً عما يلقاه المجاهدون عند احتمالهم لكره القتال. وكان الاهتمام بالتأمين الإداري للقوات في جملة العوامل التي دعمت من الروح المعنوية للمجاهدين. وقد عبرت هذه الروح المعنوية عن ذاتها في مناسبات كثيرة كانت أبرزها ليلة حطين حيث كان

المسلمون يمضون ليلهم في الصلاة والتكبير والدعاء، في حين كان الفرنج يرتعدون، وقد سيطر عليهم الرعب لما يشهدون ويسمعون.

٣ ـ الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب

كانت الأرض العربية تهتز تحت وقع سنابك فرسان المسلمين وهم يتنقلون عبر الصحارى والجبال، في الحر والبرد، في الليل والنهار. فقد جاء الفرنج بالمقاتلين من كل أنحاء الغرب يحملون معهم عدوانيتهم ووحشيتهم وبربريتهم. وكان على المجاهدين في سبيل الله تطويق هذه العدوانية وتدميرها مع كل ما يحمله ذلك من مباغتات. وإذا كان لا بد لمجابهة ذلك كله من توافر خصائص الاستعداد الدائم للقتال، فإنه كان لا بدَّ لهذا الاستعداد أيضاً من توفر خصائص أخرى أبرزها الكفاءة البدنية العالية، والقدرة على تحمل الصعاب. ولعل معركة حطين وما رافقها من أحداث في شهر تموز ـ يوليو، وما سبقها من تحركات واشتباكات، وما تبعها من قتال مستمر في المواقع والإمارات والمدن المتباعدة، إنما هو برهان على ما تميزت به قوات المسلمين خلال تلك الفترة من كفاءة بدنية عالية، ومن قدرة على تحمل كره القتال، وكان للروح المعنوية، يقيناً، دور أساسي وحاسم.

٤ ـ صلاح الدين والجهاد في سبيل الله (أو ما يعرف بالحرب الشعبية)

اعتمد صلاح الدين في حروبه على الشريعة الإسلامية التي فرضت الجهاد على كل قادر على حمل السلاح، للدفاع عن الإسلام، ولحماية أرض المسلمين. ورغم ما قام به صلاح الدين من تنظيم للقوات المقاتلة وإعداد لها، إلا أن التزامه بالشريعة الإسلامية من جهة، واستجابته لمتطلبات الحرب من جهة ثانية، دفعتاه أيضاً إلى تطوير قوات المجاهدين وإذكاء روح الجهاد. ولعل في دفع صلاح الدين لأقاربه من الأحداث، وحشده للقوات، حيث كانت أعداد كبيرة تعمل تطوعاً أثناء الحرب، ما يبرهن على نجاح صلاح الدين في تطبيق قاعدة الجهاد في سبيل الله، والتي تعرف حالياً باسم (الحرب الشعبية). وجدير بالذكر أن الفرنج قد طبقوا هذا المبدأ في حروبهم مع المسلمين، ولكن نجاح المسلمين كان أكبر لارتباطه أصلاً بعقيدتهم الدينية.

٥ ـ صلاح الدين وحرية العمل

لم يكن صلاح الدين من نوع القادة الذين يميلون إلى الأخذ بمبدأ الفاعلية

المطلقة للحرب، وهو إذا ما اضطر أن يستخدم العنف ويطور حرية العمل العسكري، فإن ذلك يبقى خاضعاً لمتطلبات المعركة ولظروف ميدان القتال. فإذا ما وصلت حرية العمل ذروتها في حسم الصراع المسلح، فإن «صلاح الدين» لا يلبث حتى يعود بسرعة إلى تقنين الحرب وإخضاعها لمجموعة من العوامل أبرزها (تحقيق التوازن بين هدف الحرب وغاية السلم) بحيث أن دمار الحرب لا يمتد إلى أبعد مما تطلبه ظروف القتال، وبحيث أن عنف الحرب لا يتعارض مع متطلبات بناء المستقبل، وقد يكون ذلك طبيعياً، فهمجية الفرنج ووحشيتهم إنما تعتمد في عامل منها على النهب الاستعماري، وعلى تحميل المسلمين أهل البلاد كل ويلات الحرب، في حين كان هدف صلاح الدين تعمير البلاد وزيادة مواردها لضمان القدرة على متابعة الحرب.

٦ ـ الانضباط والطاعة

يمثل أسلوب صلاح الدين في تعامله مع الخليفة العباسي في بغداد مفهوم الانضباط عند صلاح الدين، وهو انضباط يعتمد على الأخذ بالشكل لا بالمضمون، وكذلك موقفه من نور الدين بن عماد الدين. ويبقى مضمون الانضباط مرتبطاً بعد ذلك بالهدف المرحلي، فهو يفرض على ولاته الانضباط اللازم لتنفيذ الواجب. ويبقى عامل القوة هو الذي يحدد حدود الانضباط، سواء في العلاقة مع الرؤساء أو المرؤوسين. ولقد أمكن لصلاح الدين بناء دولته وأمجاده بالقوة، فمن الطبيعي أن يكون مفهومه للانضباط والطاعة قائماً على هذه القوة، سواء بوجودها في حد ذاته، أو بالقدرة على استخدامها. وليس اعتراف صلاح الدين بالخليفة إلا خضوعاً لما كان للخلافة من قوة معنوية، ومن هنا فقد كان اعترافه بها رمزياً أكثر منه فعلياً أو حقيقياً، إذ كان يتصرف بالأمور كلها، ولا يرجع للخليفة إلا من أجل الحصول على اعتراقه وموافقته على الحقائق القائمة.

خاتمة

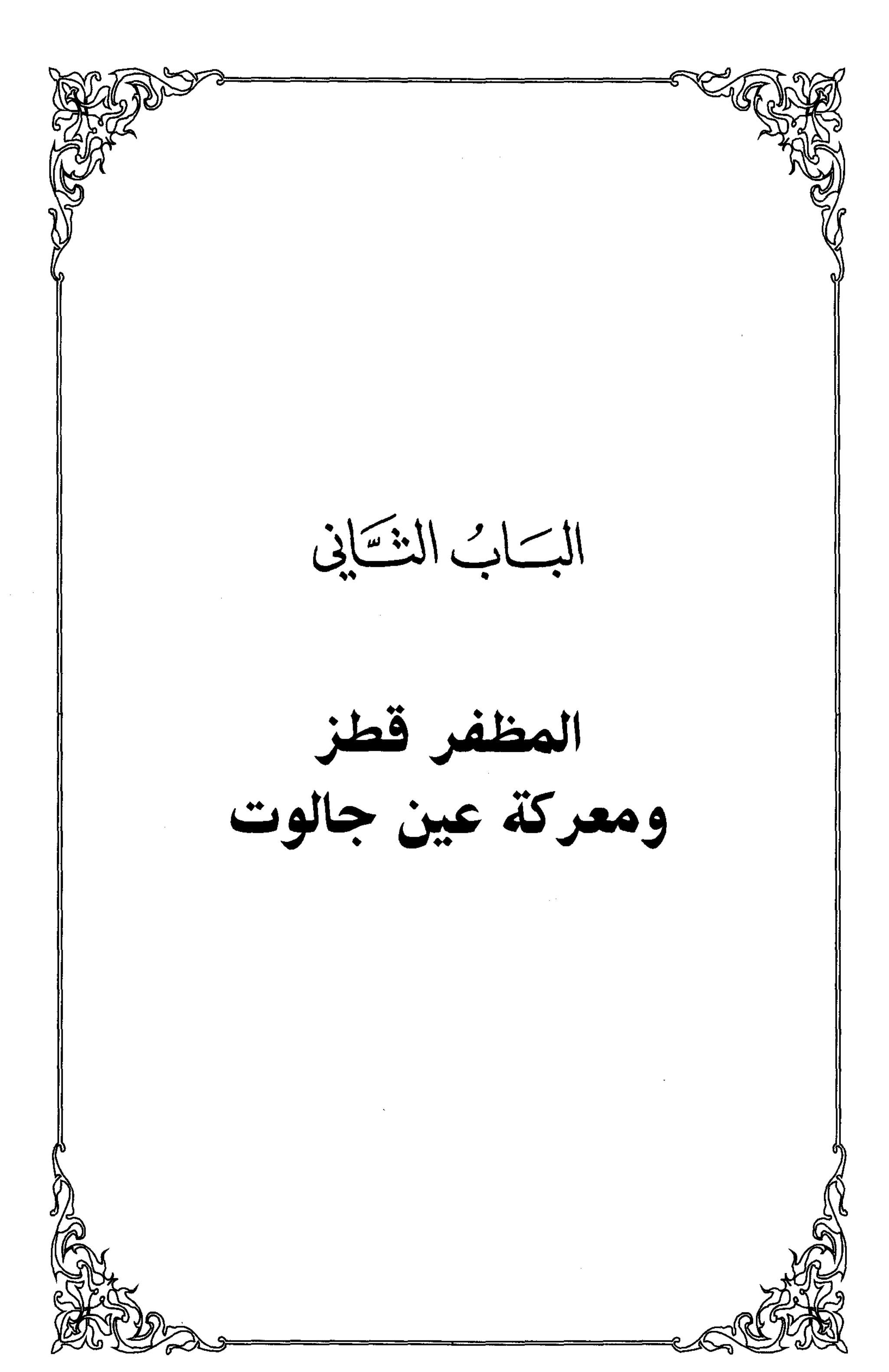
صلاح الدين وموقعه من الحروب الصليبية

لقد كان ظهور صلاح الدين امتداداً لحكم القوة الذي سبق للزنكيين إقامته، وكان كذلك نموذجاً لحكم المماليك الذي جاء بعده، والذي أفرز المظفر قطز وبيبرس وأحمد بن طولون وسواهم، وقد عمل هؤلاء جميعاً على تقديم أروع الخدمات لعالم العرب المسلمين في أصعب فترة من تاريخ العرب المسلمين. وتبقى الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن ظهور هؤلاء القادة قد توافق مع تعاظم يقظة العرب المسلمين، وتزامَن مع استجابة أبناء البلاد ضد الغزوة البربرية الهمجية لقوات الفرنج. لقد كانت المنطقة العربية تتمخض عن أحداث جسام، فقد أيقظت حملات الفرنج ما وصل إليه العالم الإسلامي من تقلص بعد مدِّه الكبير. وبرزت خطورة الانقسامات الإقليمية والسياسية، فأخذ المسلمون في البحث عن مصادر القوة، وهذا ما يفسر إقدام أهالي دمشق على إرغام أميرهم «الأمير دقاق» على الكتابة لصلاح الدين يستنصر به ويستمده. وقد استجاب صلاح الدين وبدأ بناء مجده العظيم باعتماده على دمشق، فكان ذلك هو العامل الذي ضمن له السيطرة على بلاد الشام كلها. وكان أهل الشام في أقاليمهم المختلفة هم الذين حملوا صلاح الدين على مركب الجهاد وأعانوه عليه ونصروه. وأظهر صلاح الدين من الإخلاص ما دفع أهل الشام لمبادلته المحبة والإخلاص. وكانت ميادين الجهاد هي المختبر الحقيقي الذي انصهرت فيه كل الفضائل والقيم المثلى التي ربطت بين الحكام والمحكومين خلال مرحلة الحروب مع قوات الغزو.

لم يتمكن صلاح الدين من تحرير الشام، ولم ينجح في القضاء على إمارات الفرنج وتصفية قواعدهم، ولكنه نجح في تقليص رقعة الإمارات وتمكن من تحرير القدس، واستطاع إعادة الثقة للنفوس، فمهد بذلك لظهور قيادات تتبع الطريق ذاته، وتساعد على إكمال ما بدأ به.

كان صلاح الدين في مثل تقى الخلفاء الراشدين، وكان في كفاءته القيادية مثل أولئك السلف الذين آمنوا بالإسلام ديناً فخرجوا إلى الدنيا وقادوا الفتوحات إلى مشرق العالم ومغربه، وكان انتصار صلاح الدين امتداداً لتلك الانتصارات التي يمكن تصنيفها تحت اسم حروب الإيمان.





البَـابُ الثّـَانى

المظفر قطز
ومعركة عين جالوت



المقدمة

بدأت الحملات الصليبية في سنة (١٠٩٩م)، ولما تمض أكثر من تسعين سنة حتى وقعت معركة «حطين» الخالدة بقيادة صلاح الدين الأيوبي (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ومضت فترة ٧٥ سنة أخرى قبل أن تحدث المعركة الحاسمة الثانية في «عين جالوت» (٦٥٩هـ/ ٣ أيلول ـ سبتمبر ١٢٦٠م) والمسافة الجغرافية بين «قرون حطين» و«عين جالوت» هي مسافة غير بعيدة (٦٥ كيلو متراً تقريباً). ولقد ارتبط ذكر «عين جالوت» باسم قائدها «المظفر قُطُز» بقدر ما ارتبطت معركة حطين باسم قائدها صلاح الدين. وهناك فوارق كبيرة بين القائدين في كفاءتهما القيادية، وفي دورهما التاريخي، ولكن رغم هذه الفوارق فهناك تشابه أيضاً؛ إنهما من صنع القدر، وكان قدرهما تسجيل أكبر انتصارات عرفها المسلمون، وهما أيضاً لم يعمرا طويلاً بعد انتصاراتهما، وكلاهما تميَّز بالتقوى والغيرة على الدين والحماسة للجهاد في سبيل الله.

لقد كان طريق صلاح الدين في الجهاد طويلاً وشاقّاً، وكان طريق المظفر قُطز قصيراً، بحيث أنه لولا معركة عين جالوت، ولولا انتصاره الحاسم فيها لأغفل التاريخ ذكره وتجاوزه بدون اهتمام كبير بحياته القيادية، ومن هنا يظهر فضل «عين جالوت» على قائدها. ولكن هل كانت «عين جالوت» من صنع «المظفر قطز»، على نحو ما كانت عليه «حطين» بالنسبة لصلاح الدين؟.

قد يكون من السابق لأوانه تقويم دور المظفر قطز في عين جالوت؛ إذ أن ذلك الانتصار الحاسم للمسلمين لم يحدث إلا بعد أن عمل المسلمون على استنزاف قوة التتار في معارك متتالية، كما أن المقاومة السلبية التي جاءت بعد المعركة، أو مجموعة المعارك الإيجابية، قد جعلت قوات التتار تسير في فراغ مما يساعد على مباغتتها وتدميرها، علاوة على أن فلول قوات العرب المسلمين التي انسحبت من وجه التتار بعد معاركها المتتالية انضمت إلى قوات مصر وكلها حماسة للجهاد في سبيل الله، ما دعم من موقف «المظفر قطز» وزاد من قوته.

ويظهر بوضوح أن النصر كان من نصيب المجاهدين الصابرين المحتسبين في سبيل الله، فهم الذين مهَّدوا للنصر الحاسم وهم كثيرون ـ الله بهم أعلم ـ ولو أغفلت أسماءهم كتب التاريخ.

من هنا تظهر ضرورة الأخذ بمعركة «عين جالوت» في إطار الجهاد ضد القوى المشتركة (الفرنج والتتار) والتركيز على الوضع العام والوضع الخاص أكثر من التركيز على المعركة ذاتها، وهذا ما يبرز بدوره أيضاً أهمية هذه المعركة في الإطار التاريخي الذي أحاط بها، وإن ذلك لا ينتقص من دور القائد «المظفر قطز» بقدر ما يعطيه حقه قدر المستطاع، والقضية، بعد ذلك وقبله، ليست قضية تقويم للحقوق والواجبات بقدر ما هي عملية عرض للأحداث بهدف استخلاص أهم الدروس وأكثرها فائدة مما ضمَّه التراث الخالد، حيث يبقى معلم التاريخ من أصدق المعلمين للأجيال وأكثرهم صفاء وإخلاصاً. وتتعاظم الحاجة للتعلم من صفحات التاريخ، في كل مرة تتعاظم فيها الأخطار المحيطة بالأمة، حيث تجد في تشابه الظروف ما يُعينها على الخروج من المآزق التي تجابهها، والانتصار على ذاتها وعلى غيرها، ذلك هو الهدف الكبير من دراسة التاريخ.

والله أسأل التوفيق.

أبرز الأحداث ما بين حطين وعين جالوت

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٥٨٣	١١٨٧	معركة حطين وفتح بيت المقدس.
٥٨٥ ـ ٥٨٨	١١٨٩ ـ ١١٩٢	الحملة الصليبية الثالثة.
٥٩٦ ـ ٦٠١	١١٩٩ ـ ١٢٠٤	الحملة الصليبية الرابعة.
٦٠٠	١٢٠٣	ولادة تيموجين، الذي عُرف فيما بعد باسم جنكيز خان، واعتباراً من عام ١٢٠٦، وهو مؤسس امبراطورية المغول.
٦١٥	١٢١٨	حملة الفرنج (الصليبيين) على دمياط في مصر.
٦٢٢	١٢٢٥	ضياع لوشة في الأندلس
٦٢٦	١٢٢٨	ضياع ماردة في الأندلس.
٦٢٧	١٢٢٩	استعادة الصليبيين مدينة «القدس».
٦٢٨	١٢٣٠	استيلاء الفرنج على ميورقة (الباليئار).
٦٣٤	١٢٣٦	موقعة أنيتشة (في الأندلس) وانتصار المسلمين.
٦٣٦	١٢٣٨	استيلاء قشتالة على قرطبة.
٦٤٥	١٢٤٧	استيلاء قشتالة على إشبيلية.
٦٤٣ ـ ٦٤٥	١٢٤٥ ـ ١٢٤٧	سفارة الفرنج إلى المغول لتحريضهم على المسلمين.
٦٤٧	١٢٤٩	حملة الفرنج على دمياط.
٦٤٨	١٢٥٠	شجرة الدر في مصر ثم المعز (عز الدين أيبك).
٦٥١	١٢٥٣	الخليفة في بغداد يتوسط في الصلح بين أمراء المسلمين.
٦٥٦	١٢٥٧	المنصور نور الدين علي بن أيبك يحكم مصر.
٦٥٧	١٢٥٨	المغول يدمرون بغداد.

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٥٨	١٢٥٩	المظفر سيف الدين قطر يحكم مصر.
٦٥٩	١٢٦٠ (٣ أيلول ـ سبتمبر)	المغول يدمرون حلب ودمشق، ويُهْزَمون في عين جالوت.
٦٥٩	١٢٦٠	مصرع المظفر سيف الدين قطز، وحكم الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري في مصر.

بعض ما قيل في عين جالوت

تعتبر معركة «عين جالوت» من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، والواقع أنه نظراً لما سبق وقوعه من أحداث على مسافة أربعة آلاف ميل، كان الجيش المغولي في سوريا من الضآلة ما يجعله عاجزاً عن القيام بإخضاع المماليك إلا إذا واتاه الحظ الطيب. ومن المحقَّق أنه لو أن المغول عجلوا بإرسال جيش كبير عقب وقوع الكارثة لتيسر تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما اتخذ في عين جالوت من قرار، فما أحرزه المماليك من انتصار أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرض له. فلو أن المغول توغلوا إلى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب. ومع أن المسلمينٍ في آسيا كانوا من وفرة العدد ما يمنع من استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يؤلِّفون العنصر الحاكم. ولو انتصر قائد التتار «كتبغا» المسيحي، لازداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السلطة لأول مرة منذ سيادة النحل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام، على أنه من العبث أن نفكر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ. فليس للمؤرخ إلا أن يروي ما حدث فعلاً، إذ أن معركة عين جالوت جعلت سلطنة المماليك بمصر القوة الأساسية في الشرق الأدنى في القرنين التاليين، وإلى أن قامت الامبراطورية العثمانية؛ إذ أتمَّت تقويض المسيحيين الوطنيين في آسيا. فما حدث من ازدياد قوة العنصر الإسلامي وإضعاف العنصر المسيحي، لم يلبث أن أغوى المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الإسلام، وعجَّلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية، لأن المسلمين المظفرين... أضحوا حريصين على أن يتخلصوا نهائياً من أعداء الدين.

(تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٥٣٧، ٥٣٨)



الفَصْلُ الأولُ

المظفر قطز
والطريق إلى عين جالوت

الحرب طويلة الأمد

أ ـ الموقف على الجبهة الإسلامية

١ ـ في دمياط ـ الملك الكامل

٢ ـ الصراعات بين الأيوبيين وإعادة بيت المقدس للصليبيين

٣ ـ الصالح أيوب بعد الكامل

٤ ـ الجيوش الفرنسية في مصر

ب ـ الموقف على جبهة الصليبيين

١ ـ الحملة الصليبية الثالثة

٢ ـ الحملة الصليبية الرابعة (تدمير الامبراطورية البيزنطية)

٣ ـ الحملة الصليبية الخامسة (حملات الأطفال)

٤ ـ الاتصالات مع التتار (الصليبيون والتتار)

٥ ـ الأرمن والتتار



الحرب طويلة الأمد

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[التوبة/٤١]

انطلقت جيوش التتار ـ المغول من قلب آسيا، وهي تجتاح في طريقها كل ما يصادفها، كالإعصار المدمر، ولا تترك وراءها سوى الموت والدمار. وتصل العاصفة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية (بغداد) فتعمل فيها تدميراً وإحراقاً ونهباً. ويخاف قائد التتار على جنده من أوبئة الموت التي رفع جنده راياتها على مدينة الحضارة العريقة، فيأمرهم بمغادرتها. وتمضي جيوش التتار نحو عاصمة الشمال في بلاد الشام (حلب)، وتحاول حاضرة المسلمين الصمود لهذه الغزوة البربرية، وهي التي اكتسبت قدرة على الصمود بحكم موقعها الجيواستراتيجي وتعرضها الدائم لهجمات الطامعين. ولكن قدرة الصمود تتجاوز الحدود، فتجتاح جائحة التتار هذه الحاضرة الخالدة وتنطلق نحو الجنوب حتى تصل دمشق، التي تحاول بذل ما بذلته شقيقتها في الشمال، وتنجح قوات البرابرة مرة أخرى في اجتياح عاصمة المسلمين.

ويظهر للفرنج (الصليبيين) أن هذا العالم الإسلامي الذي ناصبوه العداء وبادؤوه بالحرب قد أوشك على الانهيار دفعة واحدة تحت سنابك هؤلاء المتوحشين، الذين ما عرفوا من أسباب الحضارة سوى فنِّ الحرب والقتال. وانقسم هؤلاء الفرنج بين شامت ينتظر نهاية المسلمين على إيدي هؤلاء الغزاة القادمين من الشرق، وبين خائف من بطش البرابرة، الذين ارتبطوا معهم بمواثيق تحقق الهدف المشترك، وهو القضاء على المسلمين. وكان مصدر خوف هؤلاء هو عدم الثقة بالبرابرة الذين لا يمكن أن تقف أمام مطامعهم حدود ولا سدود، ولا يمكن أن تقيد أعمالهم مواثيق أو عهود، في حين أنهم ألفوا من المسلمين

نوعاً من التعامل الذي تحدده ضوابط وأسس وقواعد. ومقابل ذلك، ظهر للمسلمين أنهم أمام موقف لا عهد لهم به ولا قِبَلَ لهم بدفعه منذ ظهور الإسلام، فهؤلاء الصليبيون وقد أقاموا إمارتهم في الموقع المتوسط من فلسطين لتكون كالمِدْية التي تستنزف دماءهم وقدراتهم، وهؤلاء التتار وقد أزالوا لهم خلافتهم واستمروا في القضاء على بقية مواقعهم وحواضرهم.

ووسط هذه الظلمة المرعبة التي هيمنت على عالم الإسلام والمسلمين انبثق نور الضياء من قلب مصر ليبعث الأمل في النفوس التائهة، وليبدِّد ظلمة الليل الطويل الذي عاشته بلاد المسلمين. كان ذلك عندما وقف أتابك من المماليك اسمه «المظفر قُطُز» توافرت له بعض أسباب القوة، وتوافر له قدر أكبر من الإيمان، فوقف بعناد يرفض التحدي الجديد.

وانطلقت الجيوش من مصر تتحسَّس طريقها عبر سيناء، وتستبق الزمن وهي تسعى للقاء الأعداء، ولم يكن باستطاعتها انتظار هؤلاء الأعداء حتى يصلوا إلى حدودها. وبعد مسيرة طويلة وشاقة، وبعد مرحلة من التحركات التمهيدية، حدث اللقاء في «عين جالوت» قرب الناصرة، وغير بعيد كثيراً عن «حطين» حيث سبق أن شهدت قوات المسلمين أول انتصار حاسم لها على غزاة الغرب. هناك، في «عين جالوت» وقعت المعركة الحاسمة الثانية، وكانت هذه المعركة بدورها شبيهة بسابقتها؛ اشتباك قصير وحاسم ومعركة دامية انتهت بالظفر لمصلحة المسلمين، وزال القلق على مستقبل الإسلام والمسلمين. خيط رفيع كان يفصل بين الوجود والفناء، وانتصر الوجود على الفناء. واستثمر المسلمون هذا الظفر وأفادوا منه، فانطلقوا والثقة تملأ نفوسهم والإيمان يعمر قلوبهم لحرب أولئك الفرنج الذين تعاونوا مع التتار، وكانت حرباً مريرة على جبهتين، وكان كل انتصار على إحدى الجبهتين يعزِّز القدرة القتالية لتطوير الجهاد على الجبهة الأخرى. ومن قلب الهزيمة انطلق النصر، وظهر الأمل من قلب اليأس، وكتب المسلمون صفحات جديدة من صفحات الجهاد الناصعة التي حفظت لهم وجودهم وتراثهم وعقيدتهم قبل كل شيء، وأهم من كل شيء في وجودهم وتراثهم.

هنا، تظهر نقطة بارزة سبق لها أن أشرقت في معركة حطين أيضاً، وهي أهمية الحدث التاريخي بالقياس مع مقدماته ونتائجه؛ إذ كثيراً ما يظهر حدث من الأحداث فيتألق بسرعة ثم يخبو بمثل السرعة التي ظهر فيها ويزول، ومقابل ذلك فإن كثيراً من الأحداث العسكرية وغير العسكرية، تظهر بصورة صغيرة ثم

لا تلبث أن تتعاظم في حجمها بسبب التطوير المستمر لهذه الأحداث، واستثمار كل نجاح من أجل التمهيد لنجاح آخر. وبما أن المجال هنا متعلق بمعركة محدَّدة، هي معركة عين جالوت، فإن الأهمية فيها لا تكمن في النجاح الرائع الذي أمكن إحرازه فوق أرض المعركة بقدر ما يتعلق باستثمار نتائج النصر لتطوير الأعمال القتالية لإحراز مزيد من الانتصارات.

وعند هذه النقطة تكمن مفارقة مذهلة، فقد كان قائد المعركة وبطلها هو «المظفر قطز»، إلا أن هذا القائد لم يعمِّر طويلاً ليستثمر انتصاره، ومات غيلة على يد أحد قادته «بيبرس البندقداري» الذي لم يلبث أن أصبح حاكماً، فعمل على استثمار الظفر، وتطوير الأعمال القتالية طوال الفترة اللاحقة. وهكذا تظهر صعوبة إسناد النصر في العملية بمجموعها للمظفر قطز، أو للظافر بيبرس، ولعلَّ ذلك هو السبب في إغفال اسمَيْهما معاً، وإبراز اسم «عين جالوت» وحدها، وكأنها معركة مجهولة النسبة، مجهولة الأبوة، بعكس ما كانت عليه معركة «حِطِّين» التي اكتسبت أُبوَّتها بحكم قيادتها واستثمار نتائجها وتطويرها على يد قائدها الأول «صلاح الدين».

تلك نقطة، وهناك نقطة أخرى لا يمكن تجاوزها أيضاً، وهي أن معركة «عين جالوت» لم تكن حدثاً طارئاً، وإنما كانت حلقة في مجموعة الحرب طويلة الأمد التي جابهتها أُمتنا العربية الإسلامية أيام الحروب الصليبية، ومن هنا تظهر صعوبة فصلها كحدث مستقل، وتقديمها كنسيج متكامل، ومن هنا، فإن المعركة لا تكتسب أهميتها إلا من خلال عرض الوقائع الرئيسية الممهدة لها. وإذا كانت معركة «حطين» ترتبط ببداية الحروب الصليبية، فإن معركة «عين جالوت» ترتبط بنتائج معركة «حطين»، ومن هنا تظهر ضرورة التركيز على عرض مجموعة الأحداث التي بدأت بيوم «حطين» وانتهت بيوم «عين جالوت». وقد يكون من المحال اختصار كل الأحداث التاريخية خلال هذه الحقبة الزمنية المتطاولة في مدَّتها والغنية بوقائعها، ولهذا فقد يكون من الضروري الوقوف عند أبرز معالمها والانتقال فوق أشهر قممها. وعلاوة على ذلك، فقد كانت مجموعة الأحداث خلال تلك الحقبة التاريخية، شديدة التشابك والتعقيد إلى درجة مذهلة، وهذا ما يفرض إجراء عملية عزل لمواقف مراكز القوى المتصارعة، قدر المستطاع، من خلال عرض الموقف العام والموقف الخاص لما سبق المعركة من أحداث متصلة بها ومرتبطة فيها.

مهما كان عليه الموقف، فإن معركة «حطين» الخالدة لم تكن أول المعارك مع الصليبيين، كما أنها لم تكن آخرها، وكذلك الأمر مع موقعة «عين جالوت» التي لم تكن بدورها أول المعارك مع التتار ولا آخرها، ولكن المعركتين تشتركان بناظم واحد، وهو أنهما كانتا نقطة التحول الحاسمة في مسيرة الحرب طويلة الأمد، وقد سبقت كل واحدة منهما وتبعتها مجموعة من الانتصارات والهزائم، ولكن تلك الهزائم لم تكن قادرة على سلب الانتصارات ثمارها، أو إفراغها من أهدافها، وإنما كانت هزائم تكتيكية - تعبوية - في إطار انتصارات استراتيجية، وهذا ما حفظ لها خلودها، وضمن لها بقاء قيمتها. وقد لا تكون هناك حاجة مرة أخرى للبرهان على أنه كان من المحال صنع هذا النسيج المتصل من قِبَل قائد واحد أو حتى مجموعة من القادة، **وهذا ما يؤكد مرة أخرى على أن الفضل في صنع ذلك النسيج الممتد على صفحة الحروب الصليبية هو لأولئك الصابرين المجاهدين في سبيل الله**.

أ ـ الموقف على الجبهة الإسلامية

كان «**الأفضل**»، **أكبر أبناء «صلاح الدين الأيوبي»**، شاباً لا يزيد عمره على (٢٢) عاماً عندما وقع والده مريضاً في دمشق، وخاف «الأفضل» أن تتمزق وحدة المسلمين بعد تجمُّع، وأن تتفرق كلمتهم بعد توحُّد، والعدو لا يزال بإزائهم وسيفه موجَّه إلى نحورهم، فأسرع إلى أمراء دولة أبيه يجمعهم ويُلزمهم بأداء القسم؛ قَسَم الولاء لأبيه ومِنْ بعده له[١]، **ولكن ما أن توفي «صلاح الدين» (٣ آذار ـ مارس ١١٩٣م) حتى ظهرت صعوبة في المحافظة على وحدة المسلمين السياسية، بسبب المصالح الفردية والمطامع الأنانية**، فأعلن العزيز عثمان، وكان عمره لم يتجاوز الحادية والعشرين سنة، استقلاله بمصر وعدم الاعتراف بسلطة أخيه «الأفضل»، وكذلك فعل «الظاهر غازي»، الأخ الآخر، الذي استقل بإقطاعة حلب، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية أمراء الإقطاعات من أبناء «صلاح الدين» وأبناء إخوته، علاوة على أولئك الأمراء من بقايا الزنكيين الذين كانوا يحكمون إقليم الجزيرة. وكان أخطر ما في هذا الخلاف تحوُّلَه إلى صراع مسلح على نحو ما حدث بين حاكم مصر العزيز، الذي قام بالزحف إلى دمشق وتهديد أخيه «الأفضل»، ما دفع هذا إلى الاستنجاد بعمِّه الملك «العادل»، الذي قَدِم بجيشه من بلاد الجزيرة (حول الرها) فوصل إلى دمشق في (أيار ـ مايو ١١٩٤م)، وأمكن له إصلاح الخلاف بين الأخوَيْن، ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً؛ إذ لم تمض سنة أخرى حتى عاد «العزيز» لغزو أخيه

---

(١) كان نص القسم كالتالي: «أقسم... أنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي وأخلصت طويتي للملك الناصر «صلاح الدين» مدة حياته، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الذبِّ عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه، ثم من بعده لولده الملك «الأفضل» علي. ووالله إنني في طاعته، وأذبُّ عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمتثل أمره ونهيه وباطني وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل». (**النوادر السلطانية**، ابن شداد، الدكتور شيال، ص٢٤٥).

في الشام، وتدخَّل العم «العادل» من جديد وأمكن له تسوية الأزمة، ولكن ظهر له أن ابن أخيه «الأفضل» دون مستوى المسؤولية، فعزله عن دمشق في (تموز ـ يوليو ١١٩٦م). ومضى «الأفضل» إلى «صلخد» في حوران، ففرض على نفسه العزلة، والتزم التقوى والورع في مقرِّه الجديد.

وفي تلك الفترة، خرج حاكم مصر «العزيز» للصيد، وسقط من على فرسه أثناء مطاردته لابن آوى قرب أهرام الجيزة، ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه في (٢٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١١٩٨م)، ولما كان ابنه «المنصور» صبياً لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، فقد عمل وزراء «العزيز» على استدعاء «الأفضل» من صلخد، لتولِّي الحكم في مصر. وما أن استقر «الأفضل» في مصر حتى وجَّه جيشه إلى الشام في محاولة لاستعادة دمشق من عمه «العادل»، الذي أسرع بجيشه إلى دمشق، بعد أن ترك ابنه «الكامل» في «ماردين» الثائرة عليه لإخضاعها، ووصل العادل إلى دمشق في الوقت المناسب (٨ حزيران ـ يونيو ١١٩٩م)، وعندما وصل «الأفضل» بجيش مصر إلى دمشق انضمَّ إليه جيش حلب بقيادة «الظاهر». وحاصر الأخوَان عمَّهما لفترة ستة أشهر، ونجح «العادل» في النهاية من تمزيق التحالف القائم بين ولدَي أخيه. ولم تصل سنة (١٢٠٠م) إلى نهايتها حتى كان موقف «العادل» قد أصبح قوياً بفضل القوات التي انضمت إليه من جيشَي مصر وحلب، علاوة على وصول «الكامل» بجيش كبير لدعم أبيه.

وقام «العادل» بمطاردة ابن أخيه «الأفضل» حتى مصر، وبعد معركة قصيرة قرب «بلبيس»، انتصر «العادل»، وعاد «الأفضل» إلى صلخد، وقام «الظاهر» بقيادة جيشه من حلب للإفادة من غياب عمه في مصر، ولكن «العادل» ظهر فجأة في دمشق، وأمكن له معالجة الموقف بدهاء وكياسة، ورجع «الظاهر» إلى حلب بعد أن ضمَّ إليه، بموافقة عمه «العادل»، (سميساط) و(ميافارقين)، ولم تصل سنة (١٢٠١م) حتى نهايتها، حتى كان «العادل» قد نجح في إعادة الوحدة للعالم الإسلامي، وعيَّن ابنه «الكامل» لحكم مصر.

وأظهر «العادل» أنه لا يضارع «صلاح الدين» في احترام الناس له، ولكنه يفوقه في الدهاء والنشاط[1]. **وكان «العادل» يتولى منذ عهد أخيه «صلاح الدين»**

(١) يُذكر في هذا المجال موقف «العادل» من ولدي أخيه، «العزيز» حاكم مصر، و«الأفضل» حاكم دمشق، في سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٤م) عندما زحف «العادل» مع ابن أخيه «الأفضل» إلى مصر، =

التفاوض مع الصليبيين، ووجد أن من مصلحته عقد هدنة مع الفرنج، الذين كانوا في وضع من التمزق الذي يحتاج لهدنة يتم خلالها إصلاح ما بين إمارات الفرنج من خلافات. وتمَ عقد هدنة جديدة في أول (تموز ـ يوليو ١١٩٨م/ ٥٩٥هـ) لمدة خمس سنوات وثمانية شهور. وحصل الفرنج بموجب هذه المعاهدة على مدينتي جبيل وبيروت مقابل حصول «العادل» على مدينة يافا، وعلى أن يقتسم الطرفان مدينة صيدا. وظهرت فائدة هذه المعاهدة بالنسبة للملك «العادل» عند وفاة «العزيز» في تشرين الثاني ـ نوفمبر (١١٩٨م)، حيث أصبح باستطاعته إعادة توحيد العالم الإسلامي وفرض هيمنته على مصر. **ولم يكن باستطاعة «العادل» التحرك بحرية لولا معاهدة الهدنة التي سبق له عقدها، ثم عاد إلى تجديدها في أيلول ـ سبتمبر** (١٢٠٤م/ ٦٠١هـ). وفرض الفرنج على الملك «العادل» شروطاً جديدة، وهي حصولهم على يافا والرَّمْلة مع تيسير أمور الحج لمن يقصدون بيت المقدس والناصرة.

كان «ريتشارد قلب الأسد» قد أعلن قبل مغادرته للديار المقدَّسة بأن مصر هي النقطة الضعيفة في الامبراطورية الإسلامية، وتبعاً لذلك فلا بد من جعل مصر هدفاً للصليبيين. وخلال هذه الفترة من الهدوء النسبي في المشرق، كان الغرب يستعد لإرسال الحملة الصليبية الخامسة للتعويض عن فشل سابقتها، ولكن المعاهدة السابقة انقضت في سنة (١٢١٠م) ولم يظهر ما يشير إلى اقتراب الحملة الجديدة، ما دفع فرنج المشرق إلى التماس الحصول على معاهدة جديدة أمكن الوصول إليها لتبدأ من تموز ـ يوليو سنة (١٢١٢م/ ٦١١هـ)، ومدتها خمس سنوات. وكان الملك «الكامل»، ابن الملك «العادل» ونائبه في حكم مصر، قد عقد معاهدة تجارية مع البنادقة في سنة (١٢٠٨هـ/ ٦٠٥هـ) ساعدت على تسلل الأوروبيين إلى مصر، بحيث كان في مصر منهم عام (١٢١٥م/ ٦١٤هـ) ما لا يقل عن ثلاثة آلاف تاجر أوروبي.

= واصطدما بالمقاومة بـ«بلبيس»، وأراد «الأفضل» خوض معركة حاسمة ضد قوات أخيه «العزيز»، أو المضي إلى مصر، فعارضه «العادل» وقال لابن أخيه «الأفضل»: «هذه عساكر الإسلام، فإذا اقتتلوا في الحرب، فمن يرد العدو الكافر، وما بها حاجة إلى ذلك، فإن البلاد لك وبحكمك، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهراً زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء». ثم إنه عمل في الصلح بعد طول مقام إلى أن تم له ذلك. وعاد «الأفضل» إلى دمشق، وبقي «العادل» بمصر فترة عند ابن أخيه «العزيز»، ثم عاد إلى مقره في الجزيرة (الرها). (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب اللبناني، ٩/ ٢٣٥).

واطمأن الملك «العادل» إلى استقرار الأمور، بعد أن بلغ من الكِبَر ما يجعله يجنح إلى فترة من الهدوء، ولكن الحملة الصليبية الخامسة لم تلبث أن ظهرت في النهاية، يوم (٢٤) آب ـ أغسطس (١٢١٨م/٦١٧هـ)، وهي تشن هجومها على دمياط. ولم تمضِ أكثر من أربع وعشرين ساعة حتى استطاع الصليبيون، بعد قتال عنيف، أن يتخذوا مواضعهم على أسوار حصن دمياط، وأن يتدفقوا إلى داخله، **وظلَّت الحامية تقاتل بعناد حتى لم يبق على قيد الحياة إلا مائة رجل أُرغموا على التسليم**. ووقع في أيدي الصليبيين ما كان بالحصن من غنيمة ضخمة، وأقام الغزاة جسراً صغيراً نقلوا عليه هذه الغنيمة إلى الشاطىء الغربي، ثم قطعوا السلسلة وأزالوا الجسر الذي يعترض القناة الرئيسية، فأضحى بوسع سفنهم اجتياز النهر من أجل الوصول إلى أسوار دمياط. وكان الملك «العادل» مريضاً بدمشق حينما جاءه بعد أيام قليلة أنباء سقوط دمياط في أيدي الصليبيين. لقد سمع منذ زمن وجيز أن ابنه «المعظم» استولى على قيسارية ودمَّرها، غير أن صدمة الكارثة التي حلَّت بدمياط كانت أقوى من أن يحتملها، فمات في (٣١ آب ـ أغسطس ١٢١٨م/٦١٧هـ)، وقد ناهَزَ الخامسة والسبعين من عمره[1].

١ ـ في دمياط ـ الملك «الكامل»

أعاد الملك «الكامل» تنظيم قواته في مصر، وقام بمجموعة من الهجمات عبر النيل، في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر (١٢١٨م)، وكان هناك احتمال للنجاح لولا وصول الجيشين الفرنسي والإنكليزي بكاملهما، وكان لا بدَّ من التوقف وانتظار ظروف أفضل، مع تحصين المواقع والإعداد للهجوم التالي. وفي بداية

(١) تقع دمياط على بُعد ميلين من مصب نهر النيل، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة، وكان الأيوبيون قد حصَّنوا دمياط، وأقاموا سلسلة عبر النيل لإعاقة الملاحة فيه، وكانت هذه السلسلة تمتد من الشاطىء الشرقي حتى البرج القائم على جزيرة قريبة من الشاطىء الغربي على مسافة قصيرة أسفل المدينة، كما أقام الأيوبيون من خلف السلسلة جسراً من السفن. وكانت دمياط قد تعرضت قبل هذا الهجوم إلى هجوم في عام (١١٦٩م)، كما سبق هذا الهجوم أيضاً هجوم آخر في نهاية حزيران ـ يونيو (١٢١٨م). وحشد «العادل» جيش سوريا لمجابهة هذا الهجوم، كما وجَّه «الكامل» من القاهرة معظم جيشه، إلا أن قلة عدد السفن أعاقت الهجوم على المواقع التي احتلَّها الفرنج. وأفاد الفرنج من ذلك للتوقف وتنظيم هجوم بري ـ بحري استخدم فيه برج على سفينتين أحكم ربطهما معاً بالحبال، وجرت تغطية هذا البرج بالجلود وتزوَّد بالسلالم مما ساعد على نجاح الهجوم التالي ضد أبراج دمياط.

شهر شباط ـ فبراير (١٢١٩م/٦١٨هـ) عَلِم الملك «الكامل» بوجود مؤامرة دبَّرها له أحد أمرائه، عماد الدين أحمد بن المشطوب، بهدف اغتياله، وبالتعاون مع الفائز، أخ الكامل، وعمل الملك «الكامل» على سحب جيشه من مواقعه قرب دمياط وتوجَّه به إلى «أشمون» في الجنوب الشرقي، وهناك التقى الملك «الكامل» بأخيه الملك «المعظم» الذي جاء بجيش الشام لدعم أخيه ضد الصليبيين، وساعد ذلك الملك «الكامل» على إحباط المؤامرة (في ٧ شباط ـ فبراير ١٢١٩م).

وأفاد الفرنج من انسحاب «الكامل»، فقاموا بهجوم على «العادلية»، ونجحوا في احتلالها لخلوِّها من كل مقاومة، وأصبحت دمياط معزولة من كل الاتجاهات. ولم ينجح جيش مصر في إخراج الصليبيين من «العادلية»، بالرغم من دعم جيش الشام له، ما اضطر الملك «المعظم» للعودة بجيشه إلى الشام، وتمركز جيش «الكامل» في فارسكور على مسافة ستة أميال جنوب دمياط، بهدف تهديد مؤخرة الصليبيين فيما إذا قاموا بالهجوم على دمياط. وحدثت بعد ذلك معارك دامية لم تتمكن من حسم الصراع؛ وظهر احتمال المبادلة على بيت المقدس مقابل انسحاب الصليبيين من مصر، **وأمام هذا الاحتمال، قام الملك «المعظم» بتدمير أسوار القدس وتحصيناتها** (في ١٩ أيار ـ مايو ١٢١٩م) حتى لا يفيد منها الصليبيون. واستمر الصراع المرير في الصيف القائظ الذي جاء في أعقاب الشتاء القارس من تلك السنة، وكان من أبرز المعارك تلك المعركة التي حدثت يوم (٢٠) تموز ـ يوليو، حيث قام المسلمون بهجوم عنيف استطاع الصليبيون إحباطه فيما كانت مجانيق الفرنج تصب حجارتها على دمياط. وكان للنيران الإغريقية التي استخدمتها حامية دمياط دورها في تدمير قوات الصليبيين، لا سيما وأن النبيذ والأحماض التي استخدمها الفرنج لإطفاء الحرائق لم تفدهم شيئاً. وشنَّ المسلمون هجوماً آخر كاد يدمر كل الجيش الصليبي لولا حلول الظلام، ولم تحقق هذه الهجمات بمجموعها أكثر من تكبيد الخسائر الفادحة لقوات الطرفين، وهذا ما أثار الصراع بين قوات الصليبيين، التي اتَّهمت قادتها بالتراخي وسوء القيادة، وغادر قسم من الصليبيين مصر، وتخلَّوْا عن قضيتهم. وفي نهاية آب ـ أغسطس قام الصليبيون بهجوم قوي. وتظاهر المسلمون بالتراجع إلى أن تم لهم تطويق الغزاة التي تكبدت خسائر فادحة، ولم تنجح في الخروج من الحصار إلا بفضل شجاعة بعض القادة والفرسان من الصليبيين.

وفي شهر أيلول ـ سبتمبر أرسل «الكامل» وفداً للتفاوض على عقد هدنة قصيرة، مع التقدم باقتراح يظهر استعداد المسلمين للتنازل عن بيت المقدس، وتقرَّر قبول الهدنة التي لم تستمر طويلاً، فعادت الاشتباكات بين قوات الطرفين. وفي نهاية شهر تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٢١٩م) أرسل «الكامل» فارسين أسيرين ليعرضا على الفرنج شروطاً محددة للصلح تقضي بأنه إذا جلا الفرنج عن مصر، فسوف يعيد إليهم صليب الصلبوت، وسوف يحصلون على بيت المقدس وقلب فلسطين والجليل، وسوف لا يحتفظ المسلمون إلا بالقلاع الواقعة وراء النهر، غير أنهم سيؤدون عنها إتاوة. وكان ذلك عرضاً مثيراً للدهشة والقلق؛ إذ سوف يعيد للعالم المسيحي، بدون قتال، المدينة المقدسة وبيت لحم والناصرة وصليب الصلبوت.

وانقسم قادة الصليبيين على أنفسهم، فقد وافق على العرض بارونات إنكلترا وفرنسا وألمانيا، ورفضه بطريرك بيت المقدس وقادة آخرون، الذين اعتقدوا أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار، المسلمين، ووافقهم قادة الطوائف الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية؛ **إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس والقلاع الواقعة بالجليل، كما أنه من المحال المحافظة على بيت المقدس ما لم تتم السيطرة على إقليم ما وراء النهر**. وبلغ النزاع بين الفريقين من القسوة ما حمل أسقف عكا على الاعتقاد بأن السلطان «الكامل» لم يتقدم بعرضه إلا من أجل إثارة المنازعات بين الصليبيين، فتقرَّر رفض عرض السلطان «الكامل».

كانت حامية دمياط قد تعرضت خلال فترة الحصار الطويل للأمراض والأوبئة، ما اضطر أهل المدينة ذاتها للتسلل بصورة منتظمة، ومعهم مَنِ استطاع الانسحاب ومغادرة المدينة، ولم يشعر الصليبيون بخلوِّ المدينة إلا في وقت متأخر، عندما أعلم المراقبون قادتهم بأن أسوار دمياط قد أصبحت خالية من الحراسة. وأرسل الصليبيون يوم (٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر **١٢١٩م**) قوة قامت بتسلق السور الخارجي ثم السور الداخلي للمدينة، بدون أن يتعرضوا للمقاومة. واكتشفوا بداخل المدينة أن المرض نزل بمعظم رجال الحامية، ولم يتجاوز عدد الأحياء من سكان المدينة ثلاثة آلاف نفس، بلغ الضعف بعدد كبير منهم، أنهم لم يستطيعوا مواراة جثث الموتى. **ولم يكد يكتمل الاستيلاء على المدينة حتى تقرر فرز ثلاثمائة من الرجال البارزين واتخاذهم رهائن، أما الأطفال الصغار، فجرى تسليمهم إلى رجال الدين كيما يتنصَّروا ويُعَدُّوا لخدمة الكنيسة**، ومَن

تبقى منهم تقرر بيعهم رقيقاً، وتقرر أيضاً توزيع الأموال بين الصليبيين وفقاً لمكانة كلٍّ منهم ورتبته. ولم تمنع لعنات المندوب البابوي، العساكر من السرقة وإخفاء التحف الثمينة، وتشكلت حكومة صليبية في دمياط، وانصرف الطرفان لوضع خطط المرحلة التالية، هذا فيما كان الملك «المعظم»، ملك دمشق، يُغِير على أطراف الإمارات الصليبية في الشام لتخفيف الضغط عن مصر.

وفي آذار ـ مارس (١٢٢٠م/ ٦١٩هـ) هاجم المعظم قيسارية، ثم تحرك لحصار عثليت (أحد معاقل الداوية) ما اضطر هؤلاء المشتركين في حملة مصر إلى الانسحاب والعودة إلى فلسطين للدفاع عن معاقلهم. واستمر الصراع الطويل حتى صيف سنة (١٢٢٠م)، حيث زجَّ الملك «الكامل» قواته البحرية، التي أعاد تنظيمها ودعمها، بقطع كبيرة وكثيرة وأنزلها في فرع رشيد، وتوجَّه الأسطول المصري بعدها إلى قبرص وعثر على أسطول للصليبيين راسياً قرب ليماسول، فشنَّ عليه هجوماً مباغتاً أدى إلى إغراق كل السفن أو أسرها، ووقع في قبضة المسلمين آلاف الأسرى الذين عادوا بهم إلى مصر.

تدهورت الروح المعنوية للصليبيين بعد الجمود الذي سيطر على الموقف، ورجع كثير منهم إلى بلادهم، ولكن عاملاً جديداً ألقى بثقله لصالح الصليبيين، فقد وصل نبأ عن احتمال وصول امبراطور ألمانيا «فريدريك» الثاني إلى مصر، بعد أن كان قد أرسل قوة كبيرة إلى مصر بقيادة دوق «بافاريا». ونظم ملك دمياط «بلاجيوس» كلَّ ما أمكنه حشده لخوض معركة فاصلة ضد المسلمين، حتى بلغت قواته ستمائة وثلاثين سفينة مختلفة الأحجام، وخمسة آلاف فارس، وأربعة آلاف رام، وأربعين ألف راجل. وسار مع الجيش جمع كبير من الحجاج، ووصلَ هذا الجيش إلى مواجهة معسكر المسلمين المتمركزين وراء البحر الصغير الذي يجري من فروع دمياط إلى بحيرة المنزلة. وكان معسكر المسلمين قد أصبح بدرجة كافية من القوة، بعد أن وقف جيش مصر بقيادة «الكامل» إلى جانب جيش الشام بقيادة أخيه «المعظم»، وجيش حلب بقيادة الأخ الثالث «الأشرف». وإذ تصادف حدوث ذلك مع فصل الفيضان، أصبح باستطاعة الملك «الكامل» الإفادة من تفوُّقه البحري لعزل الصليبيين وتطويقهم منذ يوم وصولهم في (٢٤ تموز ـ يوليو ١٢٢١م).

وإذ شعر قادة الصليبيين بخطورة موقفهم، أخذوا في الانسحاب غير المنظَّم، فيما كان فرسان المسلمين يطاردونهم، ولم تمض سوى فترة شهر وبضعة أيام

(٢٨ آب ـ أغسطس ١٢٢١م) حتى ظهرت رسل الصليبيين في معسكر المسلمين وهم يطلبون الصلح. وفرض السلطان «الكامل» شروطه، وهي تخلي الصليبيين عن دمياط والالتزام بمراعاة الهدنة لمدة ثماني سنوات، وأن يصادق الامبراطور الألماني على معاهدة الهدنة، مع تبادل الأسرى من كِلا الجانبين، ويعيد «الكامل» من جانبه صليب الصلبوت. وفي يوم الأربعاء (٨ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٢٢١م) تحرَّرت مصر بعد حكم صليبي استمر سنتين وسبعة أشهر تقريباً، **وانتهت الحملة الصليبية الخامسة من دون أن تحرز نتائج حاسمة.**

٢ ـ الصراعات بين الأيوبيين وإعادة بيت المقدس للصليبيين

عاد الهدوء النسبي ليسيطر على المشرق الإسلامي في أعقاب انتهاء الحملة الصليبية الخامسة، ومع هذا الهدوء رجع الخلاف للظهور بين الإخوة الأيوبيين الثلاثة (**الكامل في مصر، والمعظم في الشام، والأشرف في إقليم الجزيرة**)، وشعر «المعظم» أن أخويه يريدان اقتسام بلاده. ولما كانت الامبراطورية الخوارزمية قد بلغت ذروة قوتها بقيادة «جلال الدين خوارزم شاه»، الذي نجح في رد إغارات التتار عن حدود بلاده، وأضحت امبراطوريته تمتد من أذربيجان إلى نهر السند، وأمكن له نتيجة لذلك فرض هيمنته على الخليفة العباسي في بغداد، فقد عمل الملك المعظم على طلب دعم «خوارزم شاه»، واعترف بسيادته في العام (١٢٢٦م/ ٦٢٣هـ)، فوجَّه «جلال الدين خوارزم شاه» جيشاً هدَّد به مملكة «الأشرف».

وفي هذه الفترة ذاتها، وأمام خطر الخوارزميين، أرسل الملك «الكامل» إلى صقلية أعظم مَن يثق به، وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ، الذي عرض على الامبراطور الألماني «فريدريك» التعاون مقابل إعادة بيت المقدس. وأظهر «فريدريك» تعاطفه مع هذا العرض، ولكنه لم يقطع وعداً بالمساعدة؛ إذ أنه لا زال يأمل في توجيه حملة قوية ضد المسلمين، ولهذا فإنه أبقى باب الحوار مفتوحاً، وأرسل إلى السلطان «الكامل» رسائل ودية وهدايا رمزية. ولكن الحصول على بيت المقدس كان يتطلب موافقة الملك «المعظم»؛ إذ كانت القدس تابعة له. وعندما توجه وفد صليبي إلى دمشق لمقابلة «المعظم» والحصول على موافقته، كان رده: «إنه ليس من الساعين إلى السلام وأنه لا زال يستخدم سيفه».

ولكن «المعظم» لم يعمِّر طويلاً، وتوفي في (١١ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٢٧م/ ٦٢٤هـ)، وخلفه في حكم دمشق ابنه «الناصر داود»، الذي لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وبادر «الكامل» بالتجهز إلى إضافة أملاكه إلى بلاده، وسار إلى فلسطين. واستنجد «الناصر داود» بعمه «الأشرف» الذي قدم من الجزيرة. ولما سمع «الكامل» بذلك توقف عن التقدم، وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه ويُعرِّفه أنه «ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد»، فأعاد «الكامل» الجواب، وكان مما قاله: «إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد مَن يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية، ولم يُمْنَعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان «صلاح الدين» فتح بيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على مرِّ الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر، وقُبْح الأُحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادَّخره عمنا، وأيُّ وجهٍ يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى، ثم إنهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدُّون إلى غيره، وحيث قد حضرت أنت، فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد، ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته. حاشى لله تعالى». وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل «تل العجول»، فخاف «الأشرف» والناس قاطبة بالشام، وعلموا أنه إن عاد، استولى الفرنج على البيت المقدَّس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه، فترددت الرسل، وسار «الأشرف» بنفسه إلى «الكامل» أخيه، فحضر عنده ومنعه من العود إلى مصر، فأقاما بمكانهما وبقي «الناصر داود» في دمشق.

كان الامبراطور الألماني «فريدريك» الثاني قد غادر قبرص في (٣ أيلول ـ سبتمبر ١٢٢٨م) ووصل عكا، وبالرغم من أنه لم يكن يمتلك من القوة ما يساعده على توجيه حملته ضد المسلمين، مع ما كان عليه معسكر الفرنج من تمزق، إلا أن معرفته بموقف الملك «الكامل» ساعده على توجيه حملة دبلوماسية رافقها بتظاهرة عسكرية. واستمر الاتصال بين «الكامل» و«فريدريك» إلى أن تمَّ الاتفاق على توقيع معاهدة لمدة عشر سنوات بالتقويم المسيحي (أي عشر سنوات وخمسة شهور بالتاريخ الهجري). وفي (١٨ شباط ـ فبراير ١٢٢٩م/ ٦٢٦هـ) وافق «فريدريك» على معاهدة الصلح ووقَّعها مع ممثلي «الكامل»، فخر الدين بن شيخ الشيوخ وصلاح الدين أمير إربل، وشهد على

المعاهدة مقدم الفرسان التيوتون وأسقفا أكستر وونشستر. وبمقتضى هذه المعاهدة تحصل مملكة بيت المقدس الصليبية على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع شريط من الأرض يخترق اللد، وينتهي عند يافا على البحر، فضلاً عن الناصرة وغرب الجليل؛ على أن يظل في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، مع ضمان حرية العبادة للمسلمين[1].

ولقيت هذه المعاهدة المقاومة من المسلمين والمسيحيين؛ إذ جزع العالم الإسلام لضياع القدس. وفي دمشق، لقي «الناصر داوود» فرصة لإعلان الحداد العام نتيجة لما تعرض له الإسلام من خيانة على أيدي عمَّيْه «الكامل» و«الأشرف»، كما أن أئمة «الكامل» أنفسهم جهروا بأنه أساء إلى الإسلام، ولم يقبل المسلمون وأئمتهم مزاعم الكامل من أنه احتفظ بالسيطرة العسكرية للمسلمين في الإقليم. أما المسيحيون، فأرادوا من فريدريك الاستيلاء بالقوة على بيت المقدس وإخراج المسلمين منه. ونظراً لما عهده المسلمون من غدر الصليبيين، فقد أخذوا في مغادرة المدينة المقدَّسة عندما وفد إليها فريدريك للحج، في (١٧ آذار ـ مارس ١٢٢٩م). وفي الوقت ذاته، نظم المسلمون مقاومات هدفها السطو على الحجاج وسلبهم وقتلهم، كما دبر أئمة المسلمين الزهَّاد، في حبرون ونابلس، إغارة على بيت المقدس، فهرب المسيحيون على اختلاف نِحَلِهم إلى برج داود، ما دفع ملك بيت المقدس إلى إرسال قوات للحماية، وبقي الوضع مضطرباً.

والواقع أن السلطان الكامل يُعتبَر إلى حد كبير مسؤولاً عن افتقار المسلمين إلى روح المهاجمة، نظراً لما اشتهر به من أنه رجل سلام وشرف، ولكنه نجح في طموحه لإعادة الوحدة إلى أسرة الأيوبيين؛ إذ استطاع أخوه الأشرف آخر الأمر، في حزيران ـ يونيو (١٢٢٩م)، أن ينتزع دمشق من الناصر داود، ابن أخيه المعظم عيسى، وحصل الناصر داود مقابل ذلك على مملكة في وادي نهر الأردن وإقليم ما وراء نهر الأردن، وعاصمتها الكرك، على أن يتولاها تحت سيادة الكامل. واحتفظ الأشرف بدمشق، غير أنه اعترف بسيطرة الكامل،

---

(١) ذكر «ابن الأثير» ـ **الكامل في التاريخ**، أحداث سنة (٦٢٦هـ) ـ ردَّ فعل المسلمين على هذه المعاهدة بقوله: «وتسلم الفرنج البيت المقدس، واستعظم المسلمون ذلك، وأكبروه، ووجدوا له من الوَهَن والتألم ما لا يمكن وصفه». يسَّر الله فتحه، وعوده إلى المسلمين بمنِّه وكرمه، آمين.

وتنازل له عن بلاد في إقليم الجزيرة وعلى امتداد نهر الفرات. ولما كانت هذه المنطقة من أكثر أقاليم بلاد الأيوبيين تعرضاً لهجوم الخوارزميين، لا سيما بعد أن استولى جلال الدين خوارزم شاه على حصن خلاط الضخم في سنة (١٢٣٠م)، فقد اتفق الكامل مع ملك السلجوقيين في الأناضول، السلطان كيقباذ، على محاربة الخوارزميين. ودارت معركة في سنة (١٢٣١م) قرب أزنجان انتهت بهزيمة جلال الدين، الذي لم يلبث أن لقي مصرعة في (١٥ آب ـ أغسطس) من السنة ذاتها، أثناء فراره من المعركة، على يد فلاح كردي، انتقاماً لأخيه الذي قتله جلال الدين منذ زمن طويل. لكن ما أن زال خطر الخوارزميين، حتى وجد **السلطان السلجوقي كيقباذ أن باستطاعته توسيع حدوده على حساب الأيوبيين**. ودارت معركة بين كيقباذ والكامل، واستمرَّت الحرب سجالاً من سنة (١٢٣٣م ـ ١٢٣٥م/ ٦٣١ ـ ٦٣٣هـ)، وانتهى الأمر بانتصار الكامل وتوطيد سلطته في الشمال.

توفي الملك الأشرف في شهر آب ـ أغسطس (١٢٣٧م/ ٦٣٥هـ)، وتولَّى أخوه الأصغر «الصالح إسماعيل» حكومة دمشق. ولكن الكامل زحف على دمشق في كانون الثاني ـ يناير (١٢٣٨م) وضمَّها إلى أملاكها، في حين حاز الصالح إسماعيل عِوَضاً عن دمشق إقطاعاً في بعلبك، غير أن الكامل لم يعش طويلاً بعد انتصاره؛ إذ مات بعد شهرين في دمشق، يوم (٨ آذار ـ مارس ١٢٣٨م/ ٦٣٦هـ) وهو في الستين من عمره، وكان ابنه الأكبر الصالح «أيوب» وقتذاك في الشمال.

٣ ـ الصالح أيوب بعد الكامل

ما أن توفي الكامل حتى قاد الصالح أيوب قواته متوجهاً بها إلى دمشق ومعه بعض قوات المسلمين من الخوارزميين، وهناك وجد أن «الجواد»، ابن أخ الكامل، قد استولى على الحكم في دمشق، فعمل «الصالح أيوب» على طرده منها. وفي تلك الأثناء استقرَّ «العادل الثاني»، أخو الصالح أيوب، سلطاناً في مصر. وقرر الصالح أيوب الاستيلاء على مصر وانتزاعها من أخيه، ولكن انقلاباً وقع في دمشق لمصلحة عمه «الصالح إسماعيل»، فتوجه «الصالح أيوب» إلى الجنوب حيث مملكة «الناصر داود» ملك الكرك الذي دعمه بالقوات لتحقيق هدفه وانتزاع مصر. ولما لم يكن «العادل الثاني» بالكفاءة التي تتطلبها إدارة

مصر في تلك الحقبة المضطربة، فقد نجح «الصالح أيوب» في عزله عن العرش (في حزيران ـ يونيو ١٢٤٠م)، وتقررت دعوة «الصالح أيوب» ليتولى حكم مصر. وكافأ «الصالح أيوب» عمه «الناصر داود» بأن جعله حاكماً عسكرياً على فلسطين؛ غير أن «الصالح إسماعيل» ما زال حاكماً على دمشق. وكان الصراع الذي استمر خلال السنوات العشر التالية، بين «الصالح أيوب» وعمه «الصالح إسماعيل» كافياً لتمزيق الأسرة الأيوبية. وحاول «توران شاه» ابن «الصالح أيوب»، أن يحكم أملاك جده بالجزيرة، غير أن «كيخسرو الثاني» سلطان السلاجقة استطاع انتزاع عدد من المدن وحرمان «توران شاه» منها، ولم يكن باستطاعة «المظفر» الأيوبي، أمير ميافارقين، أو «الناصر يوسف» أمير حلب، أو أميرا حماه وحمص أن يتخذوا أكثر من موقف الدفاع في مواجهة خطر الخوارزمية.

أفاد الفرنج من تمزق الأيوبيين لإعادة تنظيم أمورهم بهدوء، وتوافرت لهم الفرصة لبناء قوتهم والعمل على المساومة بين أفراد الأسرة الأيوبية، للحصول على امتيازات كبيرة من كل الأمراء والحكام المتنازعين على السلطة.

استعد الصليبيون للحرب من جديد، وحدث خلاف بين قادتهم في موضوع «هدف الحرب»؛ فبينما أراد بعضهم التوجه لمصر من أجل الإفادة من الأوضاع المتدهورة فيها، وكراهية الناس لحاكمها الملك «العادل الثاني»، **أراد الآخرون التوجه لدمشق، إذ اعتبروها العدوَّ الأول لهم، على أن يسبق ذلك تحصين قلاع الجليل، ثم تزحف القوات على عاصمة الشام ـ دمشق ـ بعد تأمين الجناح الجنوبي.**

وفي (٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٣٩م/ ٦٣٧هـ)، غادرت قوات تضم سرايا من مختلف الطوائف الدينية، وانطلقت من عكا في طريقها إلى يافا. وهناك توافرت المعلومات عن وجود قافلة تجارية ضخمة للمسلمين تسير مع نهر الأردن في طريقها إلى الشام، فأرسل قائد القوات الصليبية قوة تضم مائتي فارس لنصب كمين للقافلة. ودارت معركة قصيرة وحاسمة انتصرت فيها قوة الكمين على حرس القافلة، وقادت قوة الكمين الغنائم إلى يافا. وعلى إثر ذلك، استنفر ملك الكرك «الناصر داود» قواته، كما تقرر إرسال جيش مصر بقيادة الأمير المملوكي «ركن الدين» يضم مائة ألف مقاتل للانتقام من غدر الصليبيين، وتوجه «ركن الدين» إلى غزة، وفي (١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر) وصل

جيش الصليبيين إلى غزة. ونظراً لتوفر الاستطلاع الدقيق عند «ركن الدين» فقد حدد مواقع قوات أعدائه الذين أغفلوا استعداداتهم بعد المسير المضني في الأيام السابقة، ولم يشعروا إلا بقوات المسلمين وهي تطوّقهم. وحاول الصليبيون مقاومة حلقة الحصار والخروج منها، فسقط منهم ألف قتيل وستمائة جريح، واستطاع الآخرون الفرار. وفي تلك الأثناء كان «الناصر داوود»، أمير الكرك، يقود قواته إلى بيت المقدس حيث عمل على تدمير التحصينات والاستحكامات التي أقامها الصليبيون، وهاجم قلاعهم في المدينة المقدسة، وقاوم الصليبيون مدة (٢٧) يوماً، اضطروا بعدها إلى الاستسلام في (٧ كانون الأول ـ ديسمبر ١٢٣٩م) مقابل السماح لهم بالرحيل إلى الساحل.

وحدث بعد ذلك أن اندلعت الحرب، لا بين المسلمين والصليبيين، وإنما بين المسلمين أنفسهم؛ إذ قاد «الصالح أيوب» ملك مصر قواته لحرب «الصالح إسماعيل» أمير دمشق. وخاف «الصالح إسماعيل» أن يتعاون ملك مصر مع أمير الكرك «الناصر داود»، فعقد مع الصليبيين اتفاقاً يقوم بموجبه الصليبيون بالتصدي لجيش مصر مقابل تنازله ـ أي: الصالح إسماعيل ـ للصليبيين عن «هونين» و«صفد». ولما رفضت قوات المسلمين في المدينتين الاستسلام للصليبيين، قام «الصالح إسماعيل» بقيادة قواته لإخضاع المدينتين المتمردتين وتسليمهما للفرنج. وقام شيوخ المسلمين وقادتهم بالتوجه إلى مصر حتى لا يخضعوا لحكم الأعداء الذين تسلموا «هونين» و«صفد» وما بينهما من مواقع بدون حرب.

وأفاد الصليبيون من الصراع بين أمراء الأيوبيين لينتزعوا منهم اتفاقاً على تسليمهم المعبد في بيت القدس، وذلك في نهاية سنة (١٢٤٣م)، ولكن «الصالح أيوب» حاكم مصر، استخدم الخوارزميين للعمل ضد الصليبيين، وتوجه ألف فارس من هؤلاء، فاقتحموا المدينة المقدسة يوم (١١ تموز ـ يوليو ١٢٤٤م)، وأمكن لهم القضاء على حاميتها. وغادر ستة آلاف صليبي بيت المقدس الذي خرج بصورة نهائية من حكم الإفرنج[1]. وعلى أثر ذلك، حشد حكام الإمارات الصليبية وملوكها أضخم جيش توافر لهم منذ معركة حطين بهدف تدمير الجيش

---

(١) جاء في تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، (٣/٣٩٣) ما يلي: «وبذا خرجت بيت المقدس نهائياً من أيدي الفرنج، ولم يدخل أبوابها جيش مسيحي إلا بعد حوالي سبعة قرون». إشارة إلى دخول جيش «اللنبي» القدس في سنة (١٩١٧)، وبداية الحملة الصليبية الجديدة التي استخدمت الصهيونية لتحقيق أهدافها.

المصري الذي كان يقوده ركن الدين بيبرس البندقداري **(المعروف فيما بعد باسم الظاهر بيبرس)**، والذي كان يضم خمسة آلاف مقاتل من نخبة الجيش المصري، بالإضافة إلى جموع الخوارزمية. وتوجه الجيشان المتصارعان، وهما يبحثان عن المعركة، إلى أن تم لقاؤهما (يوم ١٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ) عند موقع قرب غزة يُعرف باسم «الحربية»[١]. وكان جيش الشام وجيش حمص وجيش الكرك يقاتلون إلى جانب الصليبيين وعلى أجنحتهم، الميمنة والميسرة، وكلهم يهدف إلى تدمير الجيش المصري للانتقام من «الصالح أيوب». ولكن الخوارزمية أظهروا عناداً في القتال بقدر ما أظهر «بيبرس» كفاءة في قيادته قواته، الأمر الذي انتهى بمصرع (٥) آلاف قتيل من جيش الفرنج والمتحالفين معه، بالإضافة إلى ثمانمائة أسير نُقلوا إلى مصر.

وأفاد «بيبرس» من انتصاره الحاسم، فأسرع بجيشه إلى عسقلان وحاصرها، ولكن «الصالح أيوب» وجَّه قواته إلى دمشق انتقاماً من ملكها، وحاصرها لمدة ستة أشهر (نيسان ـ أبريل سنة ١٢٤٥م) حتى أوائل (تشرين الأول ـ أكتوبر ١٢٤٥م) وانتصر «الصالح أيوب» ودخل دمشق، وظهر بوضوح للفرنج أن هزيمتهم في غزة قد سلبتهم كلَّ ما أحرزوه بجهودهم الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين؛ **إذ لم يكد «الصالح أيوب» يفرغ من تصفية خصومه في الشام وإعادة توحيدها حتى أخذ في توجيه اهتمامه إلى الفرنج**، فاستولى جيش مصر في (١٧ حزيران ـ يونيو ١٢٤٧م) على طبرية وقلعتها، ثم مضى إلى عسقلان فحاصرها براً وبحراً، وبعد معارك واشتباكات وأعمال قصف بالمجانيق، اقتحم جيش مصر عسقلان في (١٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٢٤٧م)، وانصرف «الصالح أيوب» بعدها إلى دمشق من أجل إعادة تنظيم الأمور في بلاد الشام.

٤ ـ الجيوش الفرنسية في مصر

يقال إن ملك فرنسا «لويس» التاسع (١٢١٤ ـ ١٢٧٠م)، والمعروف باسم لويس القدِّيس، أُصيب بمرض أشرف فيه على الهلاك بالحمَّى، في (تشرين الأول ـ أكتوبر ١٢٤٤م)، وهو إذ شعر بدنوِّ أجله نذر على نفسه أن يتوجَّه إلى

---

(١) **الحربية**، يعرف عند مؤرخي الحروب الصليبية باسم La Forbie، وهو يقع في السهل الرملي على مسافة بضعة أميال إلى الشمال الشرقي من غزة.

فلسطين لقيادة حملة صليبية إن هو نجا من الموت، وعندما غادر مرحلة الخطر، واستعاد عافيته، أخذ في الإعداد لقيادة حملة صليبية جديدة.

مهما كان عليه الموقف، فقد كانت قيادة الحملات الصليبية في تلك الفترة هي هدف القادة والملوك والمغامرين والطامعين في جميع أنحاء أوروبا. وعلى هذا، فقد بدأ «لويس» القدِّيس بالإعداد لحملته التي استمر تنظيمها وتجهيزها فترة ثلاث سنوات. وعندما انتهت الاستعدادات، غادر «لويس» باريس في (١٢ آب ـ أغسطس سنة ١٢٤٨م)، وأبحر من «إيج مورتز» في (٢٥ آب ـ أغسطس) يرافقه عدد كبير من أمرائه وقادته، وقوات من كل أنحاء أوروبا، ووصل الأسطول الملكي إلى «ليماسول» في قبرص يوم (١٧ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٢٤٨م). وهناك توقفت القوات لإعادة التنظيم والاستعداد للحرب ووضع مخططات الهجوم حتى (١٣ أيار ـ مايو ١٢٤٩م)، حيث أمكن حشد أسطول ضخم في «ليماسول» يضم (١٢٠) سفينة ضخمة، بالإضافة إلى عدد كبير من السفن الصغرى. وفي (٣٠ أيار ـ مايو ١٢٤٩م) أبحر الأسطول من قبرص ليصل إلى سواحل مصر في (٤ حزيران ـ يونيو ١٢٤٩م/ ٦٤٧هـ).

كان السلطان «الصالح أيوب» قد أمضى الشتاء في الشام، وهو يتابع استعدادات الإفرنج، وينتظر هجومهم الذي كان من المتوقع حدوثه في الشام. وعندما توافرت المعلومات عن توجه الصليبيين إلى مصر، رفع «الصالح أيوب» الحصار عن حمص، التي كان أمير حلب «الناصر يوسف» قد انتزعها من ابن عمِّه «الأشرف موسى»، وأراد «الصالح أيوب» إعادتها لأميرها «الأشرف موسى، ولكن نزول الفرنج في مصر اضطره إلى رفع الحصار عن حمص، وعجل بالعودة إلى مصر، بعد أن أمر جيوشه بالشام أن تتبعه إليها.

ولما كان السلطان «الصالح أيوب» قد وصل إلى مرحلة متقدمة من العمر، وكان مرض (السل) قد أرهقه حتى لم يعد باستطاعته ممارسة القيادة المباشرة، فقد أمر وزيره المتقدم في العمر «فخر الدين» أن يتولى قيادة الجيش، وعهد إليه بمنع الفرنج من النزول إلى البر، وأرسل إلى دمياط كميات ضخمة من الذخائر وشحنها برجال قبيلة «كنانة»، وهم من البدو المشهورين بالشجاعة، واتخذ مقره في «أشمون طناح» التي تقع إلى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل.

كانت قوات الصليبيين متفوقة بأعدادها، حيث كانت تضم، وفقاً لما تذكره بعض المصادر، نحواً من تسعة وخمسين ألف رجل، واعتمد «لويس» على تفوقه،

وأراد استثمار عامل المباغتة، فبدأ إنزال قواته على الفور. وبدأت معركة ضارية تكبَّد فيها المسلمون خسائر فادحة اضطرتهم في نهاية النهار إلى الانسحاب، والتوجه إلى دمياط التي هيمن عليها الذعر، بعد تجربة الحملة الصليبية السابقة. ولما لم تتمكن حاميتها من السيطرة على الموقف وإعاقة انسحاب السكان من المدينة، أصدر «فخر الدين» أوامره بالجلاء عن دمياط، وأُحرقت المدينة وما تضمُّه من مستودعات حتى لا تقع في قبضة الأعداء. وفي صبيحة اليوم التالي (يوم ٦ حزيران ـ يونيو) **علم الصليبيون من المسيحيين الذين لزموا دورهم أن دمياط تجرَّدت من كل أسباب الدفاع، فاجتازوا الجسر في موكب الانتصار إلى المدينة.** وتوقفت قوات الصليبيين انتظاراً لانتهاء موسم الفيضان الذي كان قد بدأ، من جهة، وانتظاراً لقدوم الإمدادات من فرنسا بقيادة أخي الملك ألفونسو كونت «بواتو»، وتم توزيع أحياء المدينة على القوى المختلفة المشتركة في الحملة.

أُصيب العالم الإسلامي بالذعر نتيجة ضياع دمياط وسقوطها في قبضة الصليبيين، وأسرع السلطان المريض إلى تقديم العرض الذي قدَّمه أبوه «الكامل» قبل ثلاثين سنة، وهو التنازل عن بيت المقدس مقابل الانسحاب من دمياط، ولكن هذا العرض لم يلقَ من الملك «لويس» إلا الرفض. وفي تلك الأثناء كان السلطان «أيوب» قد أنزل العقاب بالقادة المسؤولين عن ضياع المدينة (دمياط)، فأمر بإعدام أمراء بني كنانة، وبعزل «فخر الدين» وكبار قادة المماليك. وأراد المماليك أن يقوموا بثورة داخل القصر، غير أن «فخر الدين» أعاقهم عن تحقيق هدفهم، وكان ذلك سبباً في استعادة مكانته لدى «السلطان أيوب».

وأخذت القوات في التدفق إلى المنصورة، والتي كان السلطان «الكامل» قد شيدها في الموضع الذي أحرز فيه انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة. وأمر السلطان «أيوب» بحمله في محفته إلى المنصورة حتى يشرف بنفسه على تنظيم الجيش، وتحصين الدفاع. وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف، وظلوا يزحفون حتى بلغوا أسوار دمياط، يقتلون كل فرنجي يلتقون به خارج أسوار المدينة. وتحتَّم على الملك «لويس» أن يقيم الحواجز، وأن يحفر الخنادق لحماية معسكره.

وصلت قوات الدعم الفرنسية، بقيادة ألفونسو كونت «بواتو»، في (٢٤ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٢٤٩م)، وفي الوقت ذاته، كانت مياه النيل قد هبطت وأصبح بالإمكان استئناف التقدم في اتجاه القاهرة. وفي (٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر

١٢٤٩م) خرج الجيش الصليبي من دمياط، وسلك الطريق المتجه جنوباً نحو المنصورة. وبقيت بدمياط حامية قوية فضلاً عن الملك وبطريرك بيت المقدس. ولم تمض ثلاثة أيام على بداية الهجوم حتى توفي الملك السلطان «الصالح أيوب» في المنصورة، يوم (٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٢٤٩م/٦٤٧هـ)، وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة؛ إذ أن ابنه الوحيد «**توران شاه**» كان يقيم بعيداً في إقليم الجزيرة حيث ينوب عن أبيه في الحكم، ولم ينقذ مصر إلا السلطانة «**شجرة الدر**» التي منحت ثقتها إلى «جمال الدين محسن» الذي خضع البلاط لسلطانه، بقدر ما منحت ثقتها أيضاً إلى «فخر الدين»، **وأخفت خبر وفاة زوجها وزوَّرت وثيقة تحمل توقيعه، وتقضي بتعيين «توران شاه» ولياً للعهد، وتعيين «فخر الدين» قائداً عاماً للجيش، ونائباً للسلطان أثناء مرضه.**

عمل «فخر الدين» على الاحتفاظ بالقسم الأكبر من قواته خلف البحر الصغير الذي يتفرع عن المجرى الرئيسي لنهر النيل جنوبي المنصورة، ويسير مجتازاً «أشمون طناح» إلى بحيرة «المنزلة»، فيعزل بذلك ما يُعرَف بجزيرة دمياط. وفي الوقت ذاته، وجَّه «فخر الدين» مفارز من قواته للدفاع عن القنوات الكثيرة المتفرعة عن النيل، وقد نجح هؤلاء الفرسان في إيقاع الاضطراب بقوات الإفرنج عند اجتيازها لكل قناة من القنوات. وهكذا تقدم الملك «لويس» ببطء وحذر حتى اقترب من «فارسكور» حيث دارت معركة حاسمة في (٧ كانون الأول ـ ديسمبر ١٢٤٩م)، انتصر فيها الفرنج، ثم بلغ الملك في (١٤ كانون الأول ـ ديسمبر) إلى «البرمون». وفي (٢١ كانون الأول) عسكر الصليبيون على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة، وظل الجيشان ستة أسابيع يواجه أحدهما الآخر. وحدثت خلال هذه الفترة مجموعة من الاشتباكات الثانوية، كما حاول فرسان المسلمين توجيه ضربات إلى مؤخرة قوات الصليبيين الذين أحبطوا هذه الضربات.

وفي تلك الأثناء أمر الملك «لويس» بإقامة جسر على البحر الصغير، غير أنه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع، فإن ما لجأ إليه المصريون من إلقاء القذائف من الشاطىء المقابل، ولا سيما النيران الإغريقية، بلغ من الشدة والعنف ما دعا الفرنج إلى التخلي عن العمل، وتوقف الصليبيون حتى (٨ شباط ـ فبراير ١٢٥٠م) حيث استخدموا الجواسيس لعبور البحر الصغير. وعلى الرغم من الأوامر الصارمة التي أصدرها الملك إلى أخيه

الكونت «روبرت» الذي كان يقود المقدمة بعدم التوغل بعد العبور، إلا أن الكونت «روبرت» خالف الأوامر واندفع بفرسانه إلى قلب معسكر المسلمين الذين أخذتهم المباغتة، فلم يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم. ولقي كثير من قوات المسلمين مصرعهم، وعلى رأسهم القائد «فخر الدين» ذاته، فتولَّى «ركن الدين بيبرس البندقداري» القيادة، وأعاد تنظيم القوات بسرعة، ووضع الكمائن عند تقاطع الشوارع، ثم أمر بفتح أبواب المدينة. واندفع الصليبيون حتى إذا بلغوا أسوار القلعة انقضَّ عليهم المماليك من الشوارع الجانبية، ولما لم تتمكن خيول الفرنج من الاستدارة في الشوارع الضيقة، فقد وقعت على الفور في فوضى واضطراب، فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان بلغوا ضفاف النيل راجلين، ولم يلبثوا أن غرقوا في مياهه. واعتصم قائد المقدمة «روبرت» وحرسه في أحد البيوت، لكن الجند المصريين اقتحموا عليه مخبأه وقتلوه مع حراسه، واستطاع بعضهم الفرار والوصول إلى الملك الذي كان قد أكمل عملية العبور ليخبروه بما حدث في مدينة المنصورة، فأسرع الملك لتنظيم الدفاع، ومجابهة قوات المماليك التي انطلقت من المنصورة بعد القضاء على قوات الإفرنج فيها. واستمر الاشتباك على شاطىء النهر حتى المساء بدون أي نتيجة، وبذلك تكون قوات الصليبيين قد نجحت في عملية العبور، ولكنهم لم يتمكنوا من مغادرته. وقام المسلمون بهجوم جديد في يوم (١١ شباط ـ فبراير)، ولكن الصليبيين نجحوا في إحباطه بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة. وكان الملك «لويس» يتوقع قيام المصريين بثورة على قيادتهم، إلا أن ذلك لم يحدث، بل إن ما حدث قد جاء ليزيد من قدرتهم، فقد وصل «توران شاه» إلى مصر بعد أن بايعه أهل دمشق على خلافتهم.

وفي (٢٨ شباط ـ فبراير ١٢٥٠م)، وبعد أن تولى «توران شاه» إدارة السلطة، أمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة، ثم نقلها على ظهور الإبل إلى فروع النيل السفلى بمهمة اعتراض السفن الصليبية. واستولى المصريون على ثمانين سفينة للفرنج الواحدة بعد الأخرى. وحدث في (١٦ آذار ـ مارس) أن فقد الصليبيون قافلة مؤلفة من اثنين وثلاثين سفينة بعد أن تعرضت لهجوم واحد من قِبَل الأسطول المصري، ولم يلبث أن تعرض الفرنج لخطر المجاعة، وأعقب المجاعة اندلاع المرض بين الصليبيين.

أدرك الملك «لويس التاسع» في بداية شهر نيسان ـ أبريل سنة (١٢٥٠م/

٦٤٨هـ) أنه لا بد أن يبذل كلَّ ما في وسعه لكي يخلص الجيش من المأزق الذي يجابهه، وأن يتقهقر إلى دمياط، وأعدَّ نفسه آخر الأمر لأن يدخل في مفاوضات مع المسلمين، فأرسل إلى «توران شاه» يعرض عليه أن يستبدل بدمياط بيت المقدس، غير أن الوقت قد فات؛ إذ علم المصريون كيف أضحى مركز «لويس» بالغ الحرج، فلما لم يلق عرض «لويس» سوى الرفض، دعا قادته للاجتماع به لمناقشة أمر التراجع حتى دمياط. ونظمت خطة الانسحاب، فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدومهم.

وفي صبيحة يوم (٥ نيسان ـ إبريل سنة ١٢٥٠م) بدأت الرحلة الشاقة، فاتخذ الملك «لويس» مكانه في المؤخرة حتى يشجع الجنود الذين شردوا عن الطريق. وإذ شهد المماليك بالمنصورة تحرك الفرنج، نهضوا لمطاردتهم، فاكتشفوا أن الفرنج جميعاً قد اجتازوا البحر الصغير، غير أن المهندسين أهملوا تدمير الجسر، فهرعوا إلى اجتياز البحر الصغير على هذا الجسر، ولم يلبثوا أن أحاطوا بالفرنج من كل جانب. ومضى اليوم الأول من المطاردة وإحكام الطوق على الفرنج، وفي اليوم الثاني سقط الملك مريضاً بحيث لم يتمكن من ركوب حصانه، فتم نقله إلى كوخ صغير بقرية «ميت الخولي عبد الله» الواقعة إلى الشمال من «شرمساح».

وحاول قادة الصليبيين الاتصال بالسلطان «توران شاه»، وبينما كانت المفاوضات مستمرة للجلاء عن دمياط بدون قيد أو شرط، ارتفع صوت في المعسكر الصليبي يعلن قبول الملك بالاستسلام بدون قيد أو شرط، بدون علم الملك ومن قِبَل أحد جواسيس المسلمين، على ما تزعمه المصادر الغربية، فتم تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل المرضى إلى دمياط. ونقل الملك إلى منزل بالمنصورة، كما أُلقي بكبار القادة والبارونات في السجون. وفرضت على الملك غرامة قدرها خمسمائة ألف ليرة تورناوية ـ أي ما يقابل مليون بيزنته ـ مقابل إطلاق سراحه، كما فرضت على كل أمير فدية بحسب قدره ومكانته. وقضى الاتفاق بأن يتم تسليم دمياط للمسلمين بعد يومين (أي في ٣٠ نيسان ـ إبريل سنة ١٢٥٠م)، وبقي الأسرى مع «توران شاه» في «فارسكور» حتى يوم (٢ أيار ـ مايو سنة ١٢٥٠م).

كانت الملكة «مارغريت» في دمياط تضع مولودها عندما بلغها نبأ تسلم جيش

الفرنج واستسلامه، فأطلقت على ابنها اسم «الحزين»[1]. وبلغها بعد ذلك نبأ استعداد الجنويين والبيازنة للجلاء عن دمياط، فأرسلت إلى قادتهم، واستدعتهم إلى غرفتها حتى ترجوهم البقاء من أجل الاحتفاظ بورقة للمساومة من أجل إطلاق سراح الملك، وبذلت مبلغ ثلاثمائة وستين ألف ليرة لشراء الأغذية والمواد التموينية من أجل بقاء الجيش، فوافق الجنويون والبيازنة على البقاء. وعندما أصبح باستطاعتها السفر نصحها رجالها بالتوجه إلى عكا عبر البحر، فغادرت دمياط يرافقها بطريرك بيت المقدس.

شعر «توران شاه» بشدة وطأة المماليك وسيطرة زوج أبيه «شجرة الدر»، فأراد تعيين قادته وأنصاره في السلطة بعد أن عرف زوال الخطر الصليبي. وأدركت «شجرة الدر» ما سينتهي إليه وضعها عندما يسيطر «توران شاه» على السلطة، كما أدرك قادة المماليك ذلك، وعلى هذا أرسلت «شجرة الدر» إلى أنصارها تستنفرهم. وبينما كان «توران شاه» ينهض من طعام الغذاء، انقض عليه قادة المماليك بقيادة «بيبرس البندقداري»، واستطاع «توران شاه» الهرب بعد أن أصابته بعض الجراح، وطارده «بيبرس» حتى النهر، وهناك أجهز عليه.

ونصَّب المماليك «عز الدين أيبك» قائداً عاماً (أتابك) للعساكر ووصياً على العرش، فتزوج من السلطانة الأرملة «شجرة الدر» التي تمثل الصفة الشرعية في الحكم.

تسلم قادة المسلمين حصون دمياط يوم الجمعة (٦ أيار ـ مايو ١٢٥٠م)، ودفع الملك نصف الفدية، فتم إطلاق سراحه مع عدد من باروناته، فأقلع إلى عكا حيث حملته سفينة صغيرة، وبقي ألف وأربعمائة مقاتل في قبضة المسلمين كرهائن إلى أن يتم دفع النصف الثاني من الفدية.

غضبت بلاد الشام لمصرع «توران شاه» في يوم (٢ أيار ـ مايو)، ونهض «الناصر يوسف» فقاد جيش حلب، بعد أن أخذ البيعة لنفسه، وبايعه أهل حمص، **واستقبلته دمشق وبايعته يوم (٩ تموز ـ يوليو) باعتباره حفيد «صلاح الدين». وتجدد الصراع بين دمشق والقاهرة**، فسار جيش الشام إلى مصر، والتقى بجيش مصر الذي كان يقوده «أيبك»، وحدثت معركة حاسمة يوم (٢ شباط ـ فبراير ١٢٥١م) عند «العباسية» الواقعة على مسافة اثني عشر ميلاً إلى الشرق من

---

(١) Tristan.

مدينة «الزقازيق» الحالية. وانتصر جيش الشام في المرحلة الأولى من المعركة، ولكن جيش مصر انتصر في النهاية. وتوقف القتال، إلا أن المهم في الأمر هو أن الصليبيين قد أفادوا من هذا الصراع للمساومة على إطلاق سراح أسراهم، القدامى منهم والمحدثين، ممن وقعوا في الأسر في معركة غزة وحملة دمياط.

وفي تلك الفترة، كان الخليفة «المعتصم» يتابع الصراع، وأفزعه ما حدث من انشقاق في الجبهة الإسلامية خلال تلك الفترة التي كان فيها المغول ـ التتار ـ يهددون العالم الإسلامي بمجموعه، وأمكن إبرام الصلح في (نيسان ـ إبريل سنة ١٢٥٣م/ ٦٤١هـ) على أساس الاعتراف بـ «أيبك» سلطاناً على مصر، وله أن يضيف إلى سلطته ما يقع من فلسطين حتى الجليل شمالاً وحتى نهر الأردن من جهة الشرق. وعاد الهدوء ليسيطر على جبهات الصراع بين المسلمين والصليبيين، باستثناء بعض الاشتباكات الثانوية.

ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى أظهر الملك «لويس» رغبته في العودة إلى بلاده، فرنسا، ولكنه عمل قبل رحيله على عقد معاهدة مع «الناصر يوسف» سلطان دمشق **لمدة سنتين وستة شهور وأربعين يوماً، تبدأ من (٢١ شباط ـ فبراير سنة ١٢٥٤م)**، ورحَّب الملك «الناصر يوسف» بهذه المعاهدة التي ضمنت له تجنب خوض حرب كبيرة مع الفرنج، في الوقت الذي أصبح فيه الخطر المغولي جاثماً على حدود بلاد المسلمين.

ب ـ الموقف على جبهة الصليبيين

ما إن انتهت معركة حطين واستولى «صلاح الدين الأيوبي» على بيت المقدس، حتى ترددت أصداء هذا الحدث بأضعاف قوته في أوروبا. فقد انهار كل البناء الذي أقامه الغرب فوق أرض فلسطين بضربة واحدة، وانطلقت الوفود من مدينة صور التي أخذت على عاتقها جمع شمل الصليبيين لتنذر ملوك الغرب بصورة شخصية لما انتهى إليه وضع الفرنج. وكان ملك صقلية أول مَن استجاب للدعوة، «فلبث حزيناً وارتدى الملابس الخشنة من الخيش، والتمس مكاناً اعتزل فيه لمدة أربعة أيام، ثم كتب إلى رفاقه الملوك يحثهم على الاشتراك في حرب صليبية، بينما تجهز لتوجيه حملة إلى الشرق في أسرع ما يتهيأ له من الوقت»، وعقد صلحاً مع الامبراطور البيزنطي لإزالة الخلاف فيما بينهما وتوحيد جهودهما ضد المسلمين، كما استدعى أمير البحر الصقلي وطلب إليه العودة إلى البلاد استعداداً للحملة التالية.

أما في روما، فقد مات البابا الهرم «إيربان الثالث» كمداً، في (٢٠ تشرين الأول ـ أكتوبر ١١٨٧م) وخلفه «غريغوري» الثامن، الذي بادر على الفور إلى إرسال كتاب دوري إلى جميع المؤمنين بالغرب «حتى يكفِّر كل إنسان عن خطاياه... ووعد **جميع الصليبيين بقدر وفير من غفران الذنوب**، فينبغي أن ينعموا بالحياة الأبدية في السماء بينما تصير سلعتهم في الدنيا في حماية المقر المقدس»، واختتم كتابه بالدعوة إلى الصيام كل يوم جمعة لمدة خمس سنوات، والامتناع عن تناول اللحم يومي الأربعاء والسبت. وأعلن البابا أنه سوف يصوم أيضاً يوم الاثنين أهل بيته وأسر الكرادلة، **وتقرر أيضاً أن يتوجه من روما مبعوثون آخرون ليفرضوا على جميع أمراء العالم المسيحي الهدنة لمدة سبع سنوات**.

ولم يعش البابا «غريغوري» الثامن ليشهد نتيجة جهوده؛ إذ مات في «بيزا» يوم (١٧ كانون الأول ـ ديسمبر ١١٨٧م)، ولم يمض على بابويته سوى

شهرين، فتم انتخاب أسقف «براينيست» بعد يومين باسم «كليمنت الثالث».

ونجحت وساطة روما في عقد صلح بين ملكي إنكلترا وفرنسا، «هنري الثاني» و«فيليب أغسطس»، وذلك في كانون الثاني ـ يناير (١١٨٨م)، وتوقفت الحرب المستمرة بين البلدين من أجل توجيه الجهد لحرب المسلمين. وأقسم عدد كبير من كبار النبلاء بالمملكتين، فرنسا وإنكلترا، على أن يصحبوا الملكَيْن. وتقرر أن يسير الجيشان معاً، فاتخذ العساكر الفرنسيون الصليب الأحمر على أرديتهم، بينما اتخذ العساكر الإنكليز الصليب الأبيض، واختار الفلمنكيون الصليب الأخضر. وللإنفاق على الحملة فرض الملكان ضرائب خاصة؛ إذ اجتمع في نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير سنة (١١٨٨م) مجلس الملك «هنري» في «لي مانز» وقرر أن تؤدى الضريبة المعروفة باسم «عُشْر صلاح الدين»، والتي تُقدَّر بعشرة في المائة من ضريبة الدخل والأموال المنقولة، ويقتضي جبايتها من الرعايا للملك «هنري» في كل من إنكلترا وفرنسا.

إلا أن الحرب عادت فاندلعت بين إنكلترا وفرنسا في حزيران ـ يونيو (١١٨٨م)، وفي كانون الثاني ـ يناير (١١٨٩م)، واستمرت الحرب قائمة رغم كل جهود الكنيسة والنبلاء حتى وفاة ملك إنكلترا «هنري» الثاني في (٦ تموز ـ يوليو ١١٨٩م)؛ إذ عمل الملك «ريتشارد» على عقد صلح مع «فيليب أغسطس»، وعاد إلى إنكلترا حيث تم تتويجه في (٣ أيلول ـ سبتمبر ١١٨٩م) ومضى في الاستعداد للحملة الصليبية، وإعادة تنظيم المملكة. **ولكن الإنكليز لم ينتظروا انتهاء هذه الاستعدادات؛ إذ انطلق أسطول إنكليزي صغير يسيِّره بحارة من لندن**، فغادر نهر التيمس في شهر آب ـ أغسطس (سنة ١١٨٩م)، وبلغ البرتغال في الشهر التالي. وفي البرتغال وافقوا، مثلما وافق مواطنوهم قبل أربعين سنة، على أن يدخلوا مؤقتاً في خدمة ملك البرتغال. وبفضل مساعدتهم، استطاع «سانكو» ـ أو «سانتو» ـ ملك البرتغال أن ينتزع من المسلمين حصن «شلب» الواقع إلى الشرق من رأس القديس «فنسان». وفي (٢٩ أيلول ـ سبتمبر) اجتاز البحارة الإنكليز مضيق جبل طارق، ووصلوا إلى فلسطين مع سفن دانمركية وفلمنكية، يبلغ عددها نحو خمسمائة سفينة.

مضت ثلاثة أعوام على معركة حطين قبل أن تنتهي الاستعدادات للحملة الصليبية الثالثة، والتي أصبح من المقرَّر أن تضم في قيادتها، بالإضافة إلى ملكي إنكلترا وفرنسا، امبراطور ألمانيا «فريدريك بربروسة» وملك صقلية. وقاد

«فريدريك بربروسة» القوات الألمانية، وتوجه بها براً من (راتيزبون) في ألمانيا، في أوائل أيار ـ مايو (١١٨٩م)، وعبر نهر الدانوب عند بلغراد في (٢٣ حزيران ـ يونيو) ثم اجتاز البلقاء في بطء شديد حتى وصلت «غاليبولي» على الدردنيل في آذار ـ مارس (سنة ١١٩٠م)، وعندما هبط الجيش الألماني الضخم سهل سلوقية في ١٠ حزيران ـ يونيو (سنة ١١٩٠م)، وأخذ في عبور نهر «كاليكادنوس» سقط الامبراطور في النهر ومات قبل أن ينقذه حرسه، وكان ذلك سبباً في تمزق الجيش الألماني. أما بالنسبة لملك صقلية «وليم الثاني»، فقد مات في (١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١١٨٩م)، وحُرم من مرافقة الحملة، وجاء بعده «تانكرد» ليتولى قيادة قوات صقلية وليشترك في الحملة إلى جانب القوات الأوروبية المشتركة.

أخذت الإمدادات تصل من الغرب في بداية شهر أيلول ـ سبتمبر سنة (١١٨٩م)، فكان أول ما قدم منها أسطول ضخم للدانيين والغريزيان. ونظراً لما اشتهر به بحَّارة هذا الأسطول من المهارة، فقد كان لا بد من استخدامهم لإكمال حلقة الحصار على المدينة من جهة البحر. وكانت عكا، هذه المدينة، تخضع للحصار منذ أن استولى عليها صلاح الدين في العام (١١٨٧م). وبعد بضعة أيام، قدمت سفن من إيطالية تقلُّ وحدة من العساكر الفلمنكية والفرنسية. **وعمل صلاح الدين الأيوبي على حشد قواته لمجابهة الموجة الجديدة، ودعم حامية عكا**. وقد أمكن في ظروف مختلفة دعم هذه الحامية عن طريق البحر، كما أمكن ترميم الثغرات وإصلاح الأسوار التي دمرت في الهجوم السابق. واستمر الصرع المرير حول عكا، رغم ما كان يتخلله من مظاهر الفروسية، كتبادل التحية بين القادة، قبل كل معركة، وتبادل الهدايا في المناسبات والأعياد. وهكذا مضت سنة (١١٩٠م) في شبه هدنة مع استمرار القتال بدون الوصول إلى الحسم.

وفي النهاية، هبط ملك فرنسا «فيليب أغسطس» إلى المعسكر المسيحي أمام عكا، في (٢٠ نيسان ـ أبريل سنة ١١٩١م)، بينما قدم الملك «ريتشارد» ملك إنكلترا بعد سبعة أسابيع، ونزل قرب صور مساء يوم (٦ حزيران ـ يونيو سنة ١١٩١م)، وبدأت على الفور الأعمال القتالية للحملة الصليبية الثالثة.

١ ـ الحملة الصليبية الثالثة

استطاع الصليبيون تشديد قبضتهم على عكا، وبالرغم من كل الجهود التي

بذلها صلاح الدين لإنقاذ المدينة الصامدة، فقد استطاعت القوات الصليبية اقتحام المدينة يوم (١٢ تموز ـ يوليو ١١٩١م) بعد حصار استمر أكثر من ثلاثة أعوام، وبدأت بعد ذلك المفاوضات لتسليم الأسرى. وعند هذه المرحلة أعلن ملك فرنسا «فيليب أغسطس» عن رغبته بالعودة إلى بلاده بعد أن أدَّى واجبه في الاستيلاء على عكا، وتعهد بترك قواته في فلسطين وتولى ريتشارد المفاوضات، وهو إذ عمد إلى المماطلة، وأفاد من تأخر رد صلاح الدين على شروطه، قرر إجراء مذبحة في المسلمين، وأمر يوم (٢٠ آب ـ أغسطس) بذبح سبعمائة وألفي أسير من الذين بقوا على قيد الحياة من حامية عكا، «فاشتدت حماسة عساكره للقيام بهذه المجزرة، وقد حمدوا الله لما هيَّأ لهم من فرصة. . . **ولقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم**، ولم يبقوا على حياة أحد، سوى بعض الأعيان وبعض الرجال الأقوياء للإفادة منهم في أعمال السخرة. وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لإنقاذ ذويهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام، فإنهم لم يستطيعوا الوصول إليهم. ولما انتهت المذبحة غادر الإنكليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة، وأضحى بوسع المسلمين أن يقدموا للتعرف على شهدائهم»[(١)].

ومضى «ريتشارد» بعد ذلك يقود قوات الصليبيين في محاولة لاستعادة بيت المقدس، فغادر عكا يوم الخميس (٢٢ آب ـ أغسطس ١١٩١م/ ٥٨٧هـ)، في حين كان صلاح الدين يعسكر في «شفرعم» التي تتحكم في الطريقين الرئيسيين الممتدين من الساحل، فيتجه أحدهما إلى طبرية ودمشق، بينما يجتاز الطريق الثاني الناصرة إلى بيت المقدس، غير أن ريتشارد سار إلى الجنوب والتزم الطريق الممتد على الساحل، حيث يلقى جناحه الحماية من قِبَل البحر والأسطول. وسار صلاح الدين في خطٍّ موازٍ لتحرك الصليبيين، وحاول اختيار موقع المعركة المقبلة، فوقع اختياره على سهل «أرسوف»، وهناك دارت المعركة يوم (٧ أيلول ـ سبتمبر ١١٩١م)، إلا أن قوات صلاح الدين لم تحرز النصر، وكانت هذه النتيجة انتصاراً للملك ريتشارد والصليبيين الذين لم يتكبَّدوا فيها خسائر فادحة.

---

(١) **تاريخ الحروب الصليبية**، «رنسيمان»، (٣/ ١٠٦، ١٠٧).

استمرت العلاقات بعد ذلك بين المسلمين والصليبيين في تناوب بين الهدنة والحرب، وفي بذل الجهود لتسويات سلمية طوال سنتي (١١٩١ و١١٩٢م)، إلى أن تم التوقيع على معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد في (٢ أيلول ـ سبتمبر ١١٩٢م)، لتضع الحد للحملة الصليبية الثالثة. وغادر ريتشارد فلسطين وتوفي بعد ذلك صلاح الدين، **وعاد التمزق بين الصليبيين للسيطرة على الممالك التي تمت إقامتها في العالم الإسلامي**.

كان من أبرز الأعمال بعد ذلك حملة الصليبيين في سنة (١١٩٧م/ ٥٩٤هـ)، والتي عُرفت باسم «الحملة الصليبية الألمانية»، **والتي استطاعت فرض سيطرتها على بيروت**، ثم حاولت الوصول إلى بيت المقدس، وبدأت عملياتها بإبقاء الحصار على تبنين (في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ١١٩٧م) في الجليل، ولكن الحامية الإسلامية صمدت للحصار. وانتهت هذه العملية بالفشل، فانسحب الألمان، وتركوا في بيروت تنظيماً قتالياً جديداً عُرف باسم «الفرسان التيوتون»، على غرار فرسان الأسبتارية والداوية، وفي سنة (١١٩٨م) تلقت هذه القوة من ملك ألمانيا ومن البابا الاعتراف بها على أنها طائفة عسكرية.

٢ ـ الحملة الصليبية الرابعة (تدمير الامبراطورية البيزنطية)

توفي البابا «غريغوري» الثامن في سنة (١١٩٨م) وخلفه في كرسي البابوية البابا «أنوسنت» الثالث، الذي استهلَّ حياته بالكتابة إلى بطريرك بيت المقدس يطلب إليه موافاته بتقرير مسهب عن مملكة الفرنج في فلسطين، كما بدأ جهوده لتوجيه المفاوضات مع الامبراطور البيزنطي «ألكسيوس» الثالث في محاولة لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية. ووجَّه البابا «أنوسنت» الثالث أفضل دعاته إلى دول أوروبا وإماراتها من أجل الدعوة لحملة صليبية جديدة، واختار لهذه المهمة «فولك نيللي» الرحالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية، وكان أكبر مبشر للبابا في فرنسا. واشتهر «فولك» بأنه لا يخشى الأمراء، ومن الدليل على ذلك أنه طلب إلى الملك «ريتشارد» أن ينبذ كبرياءه ونهمه وشهوته.

وبناءً على طلب البابا، طاف «فولك» بالبلاد يحث أهل الريف على أن يتبعوا سادتهم إلى الحرب المقدسة. وفي الوقت ذاته كان «مارتن»، رئيس دير «بايريس»، يثير الحماسة في ألمانية بمواعظه. ولكن بالرغم من ذلك لم يثر «فولك» و«مارتن» من الحماسة الدينية ما أثاره دعاة الحملة الصليبية الأولى،

على أن التجنيد فاق في النظام ماحدث في الحملة الصليبية الأولى، فأضحى قاصراً على أتباع البارونات الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية، ولكن عدداً كبيراً من البارونات لم تحركهم التقوى مثلما أثارتهم الرغبة في حيازة أراضي جديدة.

وكانت مشكلة قيادة هذه الحملة من المشاكل الصعبة، وتقرر في النهاية انتخاب «يونيفاس مونتفيرات» لقيادة الصليبيين.

وقدم «يونيفاس» إلى فرنسا في شهر آب ـ أغسطس سنة (١٢٠١م)، والتقى في «سواسون» بكبار زملائه الذين أقروا تعيينه قائداً للحملة، نظراً لما له من صلات معروفة بالشرق؛ إذ أن «وليم» والد «يونيفاس» مات بالشرق. ومن فرنسا توجه إلى ألمانية ليقضي شهور الشتاء مع صديقه القديم «فيليب، دوق سوابيا» الذي أظهر اهتمامه بمشاريع صديقه، على أن أكثر ما اهتم به أمور بيزنطة، لا الشام؛ ذلك أن التمزق كان يسيطر على الأسرة الحاكمة البيزنطية، مما ساعد «ألكسيوس» على تنظيم مؤامرة في البلاط البيزنطي خلع بواسطتها أخاه «إسحاق» وابنه «ألكسيوس» الصغير وألقى بهما في السجن، وأعلن نفسه امبراطوراً باسم «ألكسيوس الثالث»، ولكن «ألكسيوس» الصغير استطاع الفرار من سجنه في نهاية سنة (١٢٠٢م) وغادر القسطنطينية، واتخذ طريقه إلى بلاط أخته في ألمانية، زوجة «فيليب» دوق سوابيا، فأحسن فيليب استقباله، ثم قدَّمه إلى «يونيفاس مونتفيرات»، فتشاور الرجال الثلاثة معاً، وأعرب «ألكسيوس» عن رغبته في أن يظفر بعرش والده، وأبدى «فيليب» استعداده لمساعدته حتى تصير الامبراطورية الشرقية تابعة للامبراطورية الغربية، وإذ صار تحت تصرف «يونيفاس» جيش صليبي ضخم، فقد وجد أن من مصلحته التوقف في القسطنطينية لتتويج «ألكسيوس» الصغير امبراطوراً لبيزنطة.

وابتدأت المفاوضات بعد ذلك بين الصليبيين والبندقية من أجل عقد معاهدة يتم بموجبها قيام البندقية بإمداد الحملة الصليبية بالإمداد والمؤن ما يكفي منها لمدة سنة، ولقوة (٤٥٠٠) فارس مع خيولهم، بالإضافة إلى (٩٠٠٠) من أتباع الفرسان، و(٢٠) ألف راجل. وتبذل جمهورية البندقية أيضاً خمسين سفينة لمرافقة الحملة، ومقابل ذلك تحصل البندقية على خمس وثمانين ألف قطعة فضية كلونية، وأن تحصل البندقية أيضاً على نصف ما تفتحه الحملة من البلاد. ووافقت البندقية على هذه المعاهدة في (٢٨ حزيران ـ يونيو سنة ١٢٠٢م/

٥٩٩هـ). وفي هذا الوقت كان الصليبيون قد حشدوا قواتهم في جزيرة صغيرة اسمها «نيقولو دي ليدو»، غير أن جمهورية البندقية لن تقدم السفن ما لم يتم الدفع على الفور. وأخذ التجار البنادقة في الإلحاح على قادة الحملة الصليبية بدفع ما يترتب عليهم من أموال، ويهددونهم بقطع المؤن عنهم، ولم يبق أمام قادة الحملة إلا الإذعان لما يطلبه حاكم البندقية الدوق «أنريكو دو أندولو».

ومن المعروف أن الحرب ظلت سجالاً بين جمهورية البندقية وملك المجر على امتداد عشرات السنين من أجل السيطرة على «دالماسيا»، وقد انتقلت منذ زمن قصير مدينتها الرئيسية «زارا» إلى حوزة المجريين، فجرى إخطار الصليبيين بأنهم إذا اشتركوا في حملة تمهيدية لاستعادة زارا، فسوف تستأنف الحملة سيرها، وتؤجل تسوية الديون. ووافق قادة الحملة على هذا العرض، واقلع الأسطول من البندقية في (٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة **١٢٠٢**م)، فبلغ «زارا» بعد يومين. ولم تلبث المدينة، بعد أن تعرضت لهجوم عنيف، أن استسلمت في (١٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر) فاستباحها العساكر. ثم نشب القتال بعد ثلاثة أيام بين البنادقة والصليبيين أثناء اقتسام الغنيمة، غير أن السلام لم يلبث أن التأم، واستقرت الحملة في «زارا» لقضاء فصل الشتاء

واكتفى البابا «أنوسنت الثالث» بإصدار أمر ينص على «أنه ينبغي ألا يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين إلا إذا كانوا فعلاً يعوقون الحرب المقدسة». ولما كان اليونانيون يرتابون دائماً في نوايا البابا، ويجهلون تعقيدات السياسات الغربية، فإنه تراءى لهم أن ما أصدره البابا من قرار هزيل يعتبر دليلاً على أنه كان وراء كل المؤامرة.

مهما كان عليه الموقف، فقد توجهت الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، ووصلتها في (٢٤ حزيران ـ يونيو **١٢٠٣**م/ ٦٠٠هـ)، وأمكن تنصيب الامبراطور «ألكسيوس» الصغير، ولكن هذا لم يكن قادراً على الوفاء بالالتزامات التي تعهد بتقديمها، وبدأت الأمور في الاضطراب، إلى أن قامت **ثورة قادها جند البندقية. وتعرضت القسطنطينية لنهب لا مثيل له في التاريخ**؛ إذ ظلت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للعالم المسيحي، فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية، وحفلت بما أجراه صنَّاعها المَهَرة من الروائع. **وعرف جند البندقية قيمة هذه الأشياء، فاستولوا على كل ما وصلت إليه أيديهم**، من الكنوز ونقلوها إلى مدينتهم، فزيَّنوا بها الميادين والكنائس والقصور. أما

الفرنسيون والفلمنكيون، فتسلطت عليهم الشهوة للتدمير، فاندفعوا كالرعاع المسعورة، يجوبون الشوارع ويغشون الدُّور، ينتزعون كل ما يتلألأ ويلمع، ويدمرون كل ما لم يستطيعوا حمله، ولم يتريثوا إلا لكي يقتلوا أو ينهبوا أو يقتحموا مستودعات النبيذ لينتشوا منها، ولم يفلت من التخريب الأديرة والكنائس والمكتبات[1]، وتقرر تقسيم المدينة على الطوائف المشتركة بالحملة، ولم تصل القوات إلى بلاد المسلمين.

٣ ـ الحملة الصليبية الخامسة (حملات الأطفال)

لقد كان من المتوقع في المناخ الذي صنعته الكنيسة أن تصبح الدعوة للحرب الصليبية هي سِمَة العصر وزيه ـ مودة ـ. وفي سنة (١٢١٢م) ظهر صبي راع في فرنسا، لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، واسمه «ستيفن»، وتولى الدعوة للحرب الصليبية، وأخذ في التجول عبر الأقاليم، وأمكن له حشد أكثر من ثلاثين ألف طفل، سار بهم إلى مارسيليا حتى ينشقَّ البحر ويستمرون في طريقهم إلى فلسطين، ولكن البحر لم ينشق، كما حدث مع موسى ﷺ، فتقدم تاجران من تجار مارسيليا، اسم أحدهما «هيو الصُّلب» واسم الآخر «وليم الخنزير»، وأخذا على عاتقهما نقل الأطفال إلى فلسطين، ولم يعد بعد ذلك هناك مَن يعرف ما انتهى إليه مصير الأطفال، ولكن بعض الشواهد تشير إلى أن التاجرين قد عملا على بيع الأطفال في مصر والجزائر.

وفي ألمانيا ظهر طفل آخر اسمه «نقولا» وتولى الدعوة، وحشد الأطفال وتوجه بهم إلى إيطاليا، حيث تم توزيعهم على جمهورية البندقية والمدن الإيطالية الأخرى، وعاد مَن استطاع منهم إلى بلاده، ولكن أحداً لم يصل إلى فلسطين.

---

(١) وصف مؤرخ لاتيني: Nicetas Choniates, p.p 757-763 ما تعرضت له القسطنطينية، فذكر ما يلي: «حدث في كنيسة القديسة «صوفية» ذاتها أن جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة، ويدوسون بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات. وبينما كانوا يتناولون الشراب في أواني المذبح مبتهجين تربعت عاهرة على كرسي البطريرك، وأخذت تردد أغنية فرنسية بذيئة. وتعرضت الراهبات للاغتصاب في أديرتهن. ولم تجر التفرقة بين القصور والأكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلفظون أنفاسهم في الشوارع. وظلت مناظر النهب وسفك الدماء المريعة مستمرة ثلاثة أيام، حتى أضحت المدينة الضخمة شبيهة بسوق اللحوم. إن المسلمين لأكثر منهم رحمة» (تاريخ الحروب الصليبية، ٣/ ٢٢٣).

بالرغم من هذه النتائج المخيبة للآمال، فلا زال البابا «أنوسنت» الثالث يعتقد أن بإمكانه توجيه حملة صليبية جديدة، فقرَّر عقد مجمع كبير للكنيسة في روما، في سنة (١٢١٥م)، ووجَّه الدعاة للتحريض من أجل حملة صليبية، وعقد مجلس «اللاتيران» في سنة (١٢١٥م). وتقرر دعم الإمارات الصليبية في فلسطين، وتوجيه الحملة في حزيران ـ يونيو (١٢١٧م). ولم يعش البابا «أنوسنت» ليشهد نتيجة جهوده؛ إذ توفي في (١٦ تموز ـ يوليو ١٢١٦م) وتم انتخاب الكاردينال «سافيللي» باسم البابا «هونوريوس» الثالث. وبدأ هذا عهده بمتابعة ما بدأ به سلفه. . . ولم تلق عملية التبشير للحرب الصليبية استجابة طيبة بمثل ما لقيته في بلاد الراين السفلى. وفي صيف (١٩١٧م) وصل إلى صقليا جماعات من الفرسان الفرنسيين، كما وصل جيش ملك المجريين إلى «سبالاتو» في «دالماسيا» في آب ـ أغسطس (١٢١٧م)، ولحق به فيها «ليوبولد» دوق«أوستريا» بجيشه. ووصلت الحملة في النهاية إلى عكا في (٢٦ نيسان ـ إبريل ١٢١٨م)، وسارت الحملة إلى مصر، تنفيذاً لمقررات مجمع «اللاتيران» التي جعلت مصر هي هدف الحملة. وقام الملك «الكامل» بالتعامل مع هذه الحملة.

فترت حماسة الغرب للحروب الصليبية، وجاء فشل حملة الملك «لويس القديس» التاسع على مصر ليبرهن على أن مدَّ الصليبية قد انتهى. وأصبح القلق يهيمن على ملوك الغرب في موضوع بقاء تلك المملكة التي أقاموها في قلب العالم الإسلامي، وعلى هذا فقد أخذ البحث عن حلفاء يمكن لهم إكمال ما عجز الفرنج عن تحقيقه.

وفي هذه الفترة كانت قوة المغول ـ التتار ـ في التعاظم، واجتذبت إليها أنظار الطامعين في القضاء على العالم الإسلامي، وبدأت الاتصال بين مسيحيِّي المغرب ووثنيِّي المشرق.

٤ ـ الاتصالات مع التتار (الصليبيون والتتار)

كان البابا «أنوسنت الرابع»[١] أول مَن بذل جهوده لإنقاذ العالم المسيحي ـ

---

(١) **أنوسنت** Innocent (Saint): اسم حمله عدد من الباباوات: أنوسنت الأول (٤٠٢ ـ ٤١٧م)، أنوسنت الثاني (من ١١٣٠ ـ ١١٤٣م)، أنوسنت الثالث (البابا من سنة ١١٩٨ ـ ١٢١٦م)، وهو المعروف بدوره في مجابهة ملك فرنسا «فيليب أغسطس» ومجابهة ملك إنكلترا «جان بلا أرض»، وهو الذي تولى المبادأة في الحملة الصليبية الرابعة. أنوسنت الرابع (البابا من سنة =

على ما يزعمه ـ عن طريق التحالف مع المغول، وأرسل في سنة (١٢٤٥م/ ٦٤٣هـ) سفارتين إلى منغوليا ـ حيث بلاط الخان الكبير ـ فغادرت السفارة الأولى، برئاسة الراهب الفرنسيسكاني «يوحنا بيان دل كاربيني» مدينة ليون في شهر نيسان ـ إبريل من تلك السنة. وبعد أن أمضت خمسة عشر شهراً في اجتياز روسيا وسهول آسيا الوسطى، وصلت إلى المعسكر الامبراطوري في «سيرا أوردو» الواقع قرب «قراقورم» في آب ـ أغسطس سنة (١٢٤٦م). وكان وصول السفارة في وقت مناسب توافق مع انعقاد المجلس «فوريلتاي» الذي انتخب «كيوك» خاناً كبيراً. وأحسن «كيوك» استقبال رسول البابا، نظراً لكثرة عدد المسيحيين ـ النساطرة ـ بين مستشاريه، غير أنه حينما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها أن يعتنق المسيحية، كتب رداً عليها بأنه طلب إلى البابا أن يعترف بسيادته العليا، وأن يقدم عليه مع سائر أمراء الغرب ليحلفوا يمين التبعية. ولما عاد «يوحنا بيان دل كاربيني» إلى المجلس البابوي في نهاية سنة (١٢٤٦م)، قدم إلى البابا «أنوسنت الرابع» مع هذه الرسالة المخيبة للآمال تقريراً مفصلاً أشار فيه إلى أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو والفتح.

لم يحبط هذا الفشل من عزيمة البابا «أنوسنت الرابع»، فعمل على تشكيل سفارة جديدة، وعيَّن لرئاستها الراهب الدومينيكاني «أسكلين اللومباردي». وغادرت هذه السفارة المقر البابوي بعد فترة قصيرة من عودة السفارة الأولى، فاجتازت سوريا والتقت في «تبريز» بالقائد المغولي «بيجو»، في شهر أيار ـ مايو سنة (١٢٤٧م).

وعلى الرغم من أن «أسكلين» قد وجد في «بيجو» رجلاً يميل إلى العدوان والهجوم، إلا أن «بيجو» أظهر استعداده لمناقشة قيام تحالف ضد الأيوبيين، وجعل أساس خطته القيام بالهجوم على بغداد، ولذا فقد كان من مصلحته قيام حملة صليبية تصرف مسلمي الشام عنه. وأرسل «بيجو» مرافقَيْن، هما «إيبك» و«سركيس»، ليصحبا «أسكلين» في عودته إلى روما، ومع أنه لم يكن لهذين

= ١٢٤٣ ـ ١٢٥٤م)، ثم أنوسنت الخامس (البابا في عام ١٢٧٦م)، وأنوسنت السادس (البابا من ١٣٥٢ إلى ١٣٦٢م)، أنوسنت السابع (بابا من سنة ١٤٠٤ ـ ١٤٠٦م)، أنوسنت الثامن (بابا من سنة ١٤٨٤ ـ ١٤٩٢م)، أنوسنت التاسع (بابا سنة ١٥٩١م)، أنوسنت العاشر (البابا من سنة ١٦٤٤ ـ ١٦٥٥م)، أنوسنت الحادي عشر (البابا من سنة ١٦٧٦ ـ ١٦٨٩م)، أنوسنت الثاني عشر (بابا من سنة ١٦٩١ ـ ١٧٠٠م)، أنوسنت الثالث عشر (بابا من سنة ١٧٢١ ـ ١٧٢٤م).

الرسولين سلطات السفراء المفوضين، فإن الآمال انتعشت من جديد في الغرب.

ومكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا، ثم حدث في تشرين الثاني ـ نوفمبر (١٢٤٨م)، أن أُخطرا بأن يعودا إلى «بيجو» بعد أن جرى الإعراب لهما عن الأسف بأنه لم يطرأ شيء جديد على التحالف.

كانت قبرص هي منطقة الحشد لكل القوات الصليبية قبل توجهها إلى بلاد المسلمين. وتصادف أثناء إقامة ملك فرنسا «لويس التاسع» في قبرص، أن وصل إلى نيقوسيا، في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٢٤٨م)، مبعوثان نسطوريان، وهما «مرقص» و«داود»، أرسلهما القائد المغولي «الجيهيداي» يحملان رسالة خاصة تؤكد عطف المغول على المسيحية، فأعرب «لويس» عن اغتباطه وبادر بإرسال بعثة مؤلفة من رهبان دومينيكانيين برئاسة «أندرو لونغ جيمو» وأخَيْه اللذين يتحدثان العربية. وحمل الأخَوان معهما كنيسة متنقلة تعتبر هدية تليق بـ «الخان» ـ حديث العهد باعتناق المسيحية ـ مع ما يلزم مذبحها من التوابع الدينية، فضلاً عن هدايا أخرى دنيوية.

وغادرت البعثة جزيرة قبرص في كانون الثاني ـ يناير سنة (١٢٤٩م)، قاصدة معسكر «الجيهيداي» الذي أرسل البعثة إلى منغوليا، وعندما وصلت إلى «قراقورم» تبيَّن لها أن الامبراطور (كيوك» قد مات، وأن أرملته (أغول فايميش) تولَّت الوصاية على العرش، فاستقبلت البعثة بحفاوة بالغة، على أن المشاكل التي برزت في بلدها منعتها من إرسال حملة ضخمة إلى العرب.

وحملت البعثة رسالة تضم شكر الامبراطورة على اهتمام الملك «لويس»، وبالرغم مما حملته الرسالة من السلبية، إلا أن الملك «لويس» لا زال يأمل في أن يتحقق التحالف مع المغول.

وتوجه الملك «لويس» بعدئذ بحملته إلى مصر، وخرج منها مهزوماً، فعاوده الأمل بالعثور على حلفاء يضطلعون ـ بالوكالة عنه ـ بأعباء الحرب الصليبية ضد المسلمين؛ لا سيما وقد ظهر للملك «لويس» أنه لم يعد هناك ثمة أمل في قدوم حملة صليبية جديدة من أوروبا؛ إذ أن «هنري الثالث» ملك إنكلترا الذي سبق أن وعد بالاشتراك مع عدد كبير من رعاياه في حملة صليبية في ربيع سنة (١٢٥٠م)، أقنع البابا بأن يسمح له بإرجاء أية حملة، ورفض أشقاء الملك «لويس» إرسال مساعدة من فرنسا.

واشتدت ثائرة الرأي العام في فرنسا، غير أنه لم يكن مخدوعاً، فحينما وصل

أول نبأ عن كارثة المنصورة، اجتاح البلاد حركة جنونية للرعاع المؤلفين من الفلاحين والعمال الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «الرعاة»[١]، وتولى قيادتهم قائد اتخذ لنفسه لقباً غريباً هو «سيد المجر»، وأخذوا يعقدون اجتماعات، اتهموا فيها علناً البابا وأكليروسه، ونذروا بأنهم سوف ينجدون الملك المسيحي، وبذلت لهم الملكة الوصية «يلانش» تأييدها أول الأمر، غير أنه وقع بينهم من الاضطراب والخلل ما قضى بضرورة قمعهم. أما النبلاء الفرنسيون، فقنعوا بما وجهوه من تلميحات مريرة إلى البابا، الذي آثر الدعوة إلى حملة صليبية لقتال أنصار الامبراطور من المسيحيين، على أن يبعث بمساعدة إلى أولئك الذين يقاتلون المسلمين. ومضت «بلانش» إلى أبعد من ذلك، فصادرت أملاك كل تابع استجاب لنداء البابا «أنوسنت الرابع» للاشتراك في حملة صليبية لقتال الملك «كنراد» سنة (١٢٥١م)، غير أنه لم يكن بوسعها أو بوسع مستشاريها أن يجرؤوا على إرسال حملة إلى الشرق.

وإذ سعى الملك «لويس» لالتماس حلفاء أجانب دخل مع الإسماعيلية (الحشيشية) في أشد ما تكون العلاقات وداً وصداقة. إذ حدث بعد فشل الحملة في دمياط أن أرسل زعيم «الحشيشية» في الشام إلى عكا يطلب من «لويس» أن يؤدي له مالاً مقابل التزام «الحشيشية» الحياد، غير أنه أزعجه ما أعطاه الملك لرسله من إجابة حاسمة بحضور مقدمي الطوائف الدينية العسكرية.

والواقع أن طائفة الإسماعيلية قد طلبت بصفة خاصة أن تتحلل من الالتزام بدفع جزية للأسبتارية، على أن السفارة الإسماعيلية التالية كانت أكثر تواضعاً؛ إذ حملت معها إلى الملك الهدايا الفائقة، وطلبت إقامة تحالف وثيق بينهما.

ونظراً لما يعلمه الملك «لويس» من العداوة التي تكنُّها الإسماعيلية (الحشيشية) للمسلمين السنِّيين، فقد شجع خطوتهم وأرسل «بيف البريتوني» للاتفاق على عقد معاهدة.

واستهوى «بيف البريتوني» محتوى المكتبة التي امتلكها الإسماعيلية في «مصياف»؛ إذ عثر فيها على موعظة من «سفر الأخبار» وجَّهها السيد المسيح إلى «القديس بطرس»، الذي يعتبر وفقاً لما ذكره رجال مذهب الإسماعيلية تجسيداً

---

(١) Pastouraux.

آخر لـ «هابيل» و«نوح» و«إبراهيم». وتمَّ بينهما إبرام معاهدة للدفاع المشترك، **على أن أهم ما كان يطمح «لويس» لتحقيقه من الناحية الدبلوماسية هو أن يظفر بصداقة المغول ألدِّ عدو للإسماعيلية.**

وحدث في بداية سنة (١٢٥٣م)، أن وصل إلى عكا تقرير يفيد بأن أحد أمراء المغول ـ وهو سارتاق بن باطو ـ قد تحول إلى المسيحية، فبادر «لويس» إلى إرسال راهبين دومينيكانيين، هما «وليم روبروق» و«بارثولوميو الكريموني» كيما يحثا الأمير المغولي على النهوض لمساعدة إخوانه المسيحيين في بلاد الشام؛ غير أنه لم يكن لأمير صغير من السلطات ما يجعله يعقد محالفة تعتبر بالغة الأهمية.

ولما وصل «وليم روبروق» إلى بلاط الخان الكبير، في الأيام الأخيرة من سنة (١٢٥٣م)، صادف حكومة تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك التي سبق أن احتفلت بـ «أندرو لونغ جيمو»، المبعوث السابق للملك «لويس». فحينما مات «كيوك بن أوكيتاي» سنة (١٢٤٨م) قامت أرملته «أوغول قيميش» بالوصاية على أبنائها الصغار «قوشو» و«نقو» و«قوغو»؛ غير أنها لم تكن تصلح للحكم وما من أحد من أبنائها كان يبشر بكفاءة قيادية عالية. وظهرت معارضة قوية ضد وصاية «قيميش»، فانعقد المجلس الوطني «القوريلتاي» وانتخب «منكو» خاناً كبيراً في أول تموز ـ يوليو سنة (١٢٥١م). ودارت رحى معارك خرج منها «منكو» وإخوته «قبيلاي» و«هولاكو» و«أريق بوقا» منتصرين.

وإذ تولى «منكو» العرش، أحيى المغول سياستهم التوسعية، وعاد كبار الأمراء إلى حكوماتهم؛ إذ صارت الأقاليم الشرقية موكولة إلى «قبيلاي»، ثاني إخوة «منكو»، فنهض لفتح الصين بكل ما توفر له من نشاط وما اتخذه من أساليب وطرق. وتحول قبيلاي إلى البوذية، واتسمت حروبه ومعاملته للمغلوبين على أمرهم بالرفق والإنسانية. أما «منكو»، فقد بقي مع شقيقه الأصغر «أريق بوقا» في «قراقورم» بمنغوليا للإشراف على ضبط هذه الامبراطورية المترامية الأطراف. أما ورثة «جغتاي» في تركستان، فشرعوا في القيام بمحاولات تمهيدية لمدِّ سلطانهم إلى الهند عبر «هضبة البامير». ونقل «باطو» ـ نائب الخان في الغرب ـ مقره إلى الروافد السفلى لنهر «الفولغا»، حتى يسيطر على أتباعه الأمراء في روسيا، وأنشأ بتلك الجهات «الخانية» التي أطلق عليها المؤلفون المسلمون اسم «القبجاق»، والتي اشتهرت عند المغول والروس باسم «القبيلة

الذهبية»[1]. أما حكومة فارس، فانتقلت إلى يد «هولاكو» ـ ثالث إخوة منكو ـ فأضحت جهود المغول الرئيسية موجَّهة إلى طرف فارس وطرف «قبيلاي» في الشرق.

وهكذا بدأت سفارة «روبروق» مهمتها وسط صراعات التتار الداخلية؛ فقد اجتاز «روبروق» في سفره عاصمة «باطو» على نهر الفولغا، حيث التقى بـ (سارتاق بن باطو» الذي اشتهر بميله للمسيحيين، على الرغم من أنه لم يكن مسيحياً، فبعث به «باطو» إلى منغوليا، وتولت الحكومة الإنفاق عليه في سفره على امتداد الطريق التجاري الطويل. وتهيأت له أسباب الراحة والأمن في الطريق الموحش، حيث كانت تمضي أياماً بأكملها من دون العثور على دار واحدة، ثم وصل في نهاية كانون الأول ـ ديسمبر سنة (١٢٥٣م) إلى معسكر «الخان» الكبير، الذي يقع على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من «قراقورم»، فمثل بين بدي «منكو» في (٤ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ)، ولم يلبث أن ارتحل مع البلاط إلى «قراقورم»، فألفى الحكومة المغولية قد عزمت فعلاً على مهاجمة المسلمين في غربي آسيا، وأنها على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من تدابير مشتركة، على أنه اعترض ذلك عقبة لم يتيسر التغلب عليها، ذلك أن «الخان الكبير» لا يقبل مطلقاً أن يكون في العالم سيد سواه، وكانت سياسته الخارجية بسيطة جداً، فأصدقاؤه يعتبرون أتباعاً له، وأما أعداؤه، فيجب إبادتهم أو إخضاعهم حتى يكونوا أتباعاً له.

وتلقى «وليم روبروق» وعداً صادقاً بأن ينال دعماً كبيراً طالما قدم أمراء الصليبية الولاء لسيد العالم، على أن ملك فرنسا لا يستطيع التفاوض على أساس هذا الشرط. وغادر «وليم روبروق» قراقورم في شهر آب ـ أغسطس سنة (١٢٥٤م)، بعد أن أدرك، مثلما أدرك كثيرون من السفراء الذين جاؤوا بعده إلى بلاط ملوك أقاصي آسيا؛ أن ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد الدبلوماسية الغربية الملتوية أو مبادئها المعقدة، فارتحل راجعاً إلى بلاط «باطو»، بعد أن اخترق آسيا الوسطى، ومن ثم اجتاز القوقاز وبلاد السلاجقة بالأناضول إلى أرمينيا ومنها إلى عكا.

٥ ـ الأرمن والتتار

كانت مملكة الأرمن بقلقيليا أول الإمارات المجاورة للبحر الأبيض

---

(١) القبيلة الذهبية Golden Horde.

المتوسط، والتي أدركت أهمية التعاون مع المغول. والمعروف أن الأرمن شهدوا في اهتمام بالغ ما أصاب الجيش السلجوقي المسلم من هزيمة مدمرة في سنة (١٢٤٣م/ ٦٤١هـ) أمام الحملة المغولية التي قادها أحد ولاة الأقاليم، فصار بوسعهم تقدير ما يكون عليه جيش الامبراطور من قوة لا سبيل إلى مقاومتها. ولهذا عمل ملك أرمينيا «هيثوم» كتاباً إلى «بيجو» في سنة (١٢٤٣م) يفيض بالولاء والاحترام. غير أن المغول انسحبوا وقتئذ، واسترد «كيخسرو» ما فقده من أراضيه ببلاد الأناضول، وأخذ من جديد في الضغط على أرمينيا، ويساعد الأمير الأرمني الثائر «قسطنطين سيد لامبرون». **وقدَّر «هيثوم» أن المغول ـ التتار ـ سوف يعودون، وأنه سوف يكون لهم أهمية كبرى وقيمة ثمينة بالنسبة للعالم المسيحي في بلاد الشام بصورة عامة، وله بصفة خاصة**، فأرسل في سنة (١٢٤٧م) أخاه «الكندسطبل سمباد» في سفارة إلى بلاط «الخان» الكبير، فوصل «سمباد» إلى «قراقورم» قبيل وفاة «كيوك» في سنة (١٢٤٧م)، واستقبله «كيوك» بحفاوة بالغة، ولما سمع بأن «هيثوم» مستعد لأن يعتبر نفسه من أتباع «الخان الكبير»، وعد بأن يبذل للأرمن المساعدة اللازمة لاسترداد ما انتزعه السلاجقة من المدن. ورجع «سمباد» يحمل تقليداً من «الخان الكبير» يكفل سلامة ممتلكات «هيثوم» بأن تولى عرش المغول «خان» آخر قوي توجه إلى «قراقورم».

وكانت «قراقورم» قد أصبحت في تلك الفترة مركز نشاط الدبلوماسية في العالم، فحينما وصل إليها «وليم روبروق»، سفير الملك لويس التاسع سنة (١٢٥٤م)، التقى هناك بسفارات من قِبَل الامبراطور اليوناني، ومن عند ملك دلهي، ومن جهة الخليفة العباسي، ومن قِبَل السلطان السلجوقي، كما صادف أمراء من الجزيرة الشامية وكردستان وروسيا، وجميعهم يقفون في خدمة الخان الكبير. **وظهر له أنه كان للمسيحيين النساطرة أقوى نفوذ ديني، وحباهم «منكو» بعطف خاص، تخليداً لذكرى أمه «سور جقتاي»، كما كانت الامبراطورة «كوتوكتاي» وكثيرات من زوجاته الأخريات على المذهب النسطوري أيضاً**[1].

---

(١) يظهر أن نشر المذهب النسطوري في بلاط «الخان» كان سياسياً أكثر منه دينياً، ويظهر ذلك من موقف سفير الملك «لويس» التاسع إلى بلاط الخان «وليم روبروق»، والذي أعلن «ارتياعه لما كان عليه رجال الكنيسة ـ النساطرة ـ من الجهل والانغماس في المباذل، فلم تزد صلواتهم على فجور السكارى، وشهد في يوم من أيام الآحاد الامبراطورة تترنح عند عودتها من القداس. =

ووصل إل «قراقورم» ملك أرمينيا «هيثوم» عقب رحيل «وليم روبروق»، وقدم من تلقاء نفسه على أنه تابع للخان الكبير، وحاز حظوة خاصة عنده، نظراً لأن سائر الزائرين الأجانب، إما كانوا أتباعاً جرى استدعاؤهم برغم إرادتهم، وإما كانوا ممثلين لملوك أظهروا حرصهم على استقلالهم. ففي حفل الاستقبال الرسمي الذي أقامه له «منكو» في (١٣ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٢٥٤م) منحه الخان وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة، وعدم انتهاك حرمتهما، وجرت معاملته على أنه كبير مستشاري «الخان» المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا، ووعده «منكو» بأن يعفي كل الكنائس المسيحية والأديرة من الضرائب، وصرح بأن أخاه «هولاكو» الذي استقر في فارس، قد تلقى الأوامر بالاستيلاء على بغداد وتدمير سلطان الخلافة، وتعهد بأنه إذا تعاونت معه كل القوى المسيحية، فسوف يعيد إلى المسيحيين بيت المقدس ذاتها.

وغادر «هيثوم» قراقورم في أول تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٢٥٤م) مثقلاً بالهدايا، ومبتهجاً بما تكللت به جهوده من نجاح، وارتحل عائداً إلى بلاده وقد سلك طريق تركستان ـ فارس، حيث بذل لـ (هولاكو» مظاهر الاحترام، ثم عاد إلى أرمينيا في شهر تموز ـ يوليو التالي (سنة ١٢٥٥م/ ٦٥٣هـ).

وكان «هيثوم» ينطلق في تفاؤله من احتمال قيام خانية مسيحية كبيرة، وأن هذه الخانية رغم تبعيتها للخان، إلا أنها ستخرج في الوقت المناسب من يد السلطة المركزية في منغوليا، ويؤكد ذلك ما كان يفكر به ملك فرنسا «القديس لويس» بأن المغول سوف يصبحون أبناء أوفياء لكنيسة روما، وما قد يقوم في غرب آسيا من إمارات مسيحية لن تبقى مستقلة، فما قد يحرزه المغول من انتصار سيفيد العالم المسيحي في مجموعه. أما الفرنج بالمشرق العربي، والذين أدركوا اتجاه الخان الكبير نحو الأمراء المسيحيين، فإنهم كانوا يفضلون التعامل مع المسلمين الذين عرفوهم، بدلاً من التعامل مع هذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس والقادم من الصحارى النائية، والذي كان سجله في شرقي أوروبا حافلاً بالمذابح.

على أن محاولة «هيثوم» لإقامة تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول لقيت

= وكلما ساءت أموره نزع إلى إلقاء اللوم على ما وقع من تنافس في هذه الهيئة الملحدة». (تاريخ الحروب الصليبية ٣/ ٥١٠).

قبولاً حسناً من المسيحيين، الذين أعلنوا انحيازهم إليه، وفي طليعتهم «بوهمند» أمير أنطاكية، الذي خضع لنفوذ صهره «هيثوم»، أما الفرنج بآسيا، فالتزموا الحياد.

ظهر واضحاً أن العالم الإسلامي قد بات مهدداً بخطر لم يعرفه من قبل، فهؤلاء المغول ـ التتار ـ قوة لا تعرف غير الإبادة والتدمير، وهي قوة تتفوق بوحدة قيادتها وبشدة بأس مقاتليها، في حين كانت الحروب الصليببية قد استنزفت قدراً غير يسير من قدراته القتالية، علاوة على تلك الانقسامات الداخلية التي أضعفت القدرة على المجابهة والصمود، وظهر أنه ما من خيار مفتوح سوى الاستسلام أو مجابهة خطر الإبادة، وكان من المحال على الإنسان المسلم الاستسلام، فكان لا بد من مجابهة خطر التدمير. وصحيح أن جيش التتار قد أصبح وهو يسيطر على مساحات واسعة من بلاد المسلمين، وضم إليه أيضاً مجموعات كبيرة منهم، مما يجعل خطر استئصال المسلمين صعباً إن لم يكن من المحال تحقيقه، إلا أن ذلك لا يعني الإنقاص من خطر القضاء على الكيان السياسي لدولة المسلمين.

وقد يكون من الضروري تكوين فكرة عن هذه القوة الطاغية التي ظهرت على مسرح الوجود لتهدد بإزالة الإسلام والقضاء على المسلمين، والتي استطاعت في الواقع التأثير على مستقبلهم تأثيراً غير قليل، ولكنها لم تحقق أهدافها الكاملة بالرغم عما توفر لها من التفوق المادي.

الفصل الثاني

المغول والمسلمون
(عين جالوت)

١ ـ المغول والتتار
٢ ـ المغول في القوقاز وفي أوروبا
٣ ـ هولاكو يقود الحرب
٤ ـ من بغداد إلى دمشق
٥ ـ الوضع الخاص قبل عين جالوت
٦ ـ المظفر قطز وعين جالوت
٧ ـ ما بعد عين جالوت (الثأر)



المغول والمسلمون

«إن اتساع مسرح العمليات، وحركية القطاعات الواسعة والاستخدام الأريب للمباغتة، جعلت معارك التتار ـ المغول ـ تنافس جميع المعارك التي يذكرها التاريخ إن لم تتفوق عليها»

(الكاتب العسكري البريطاني ليدل هارت)

١ ـ المغول والتتار

كثيراً ما تستخدم تسمية «المغول» كاسم مرادف لاسم «التتار»، وفي الواقع فالمغول والتتار فرعان متمايزان لأصل واحد، وقد يكون من الضروري معرفة هذا التمايز من خلال العودة لنشأة امبراطورية المغول التي أسسها شاب مغولي اسمه «تيموجين»، وعُرف في التاريخ بعدئذ باسم «**جنكيز خان**»، والذي وُلد في سنة (١١٦٧م)؛ أي قبل عشرين سنة من استرداد صلاح الدين بيت المقدس للمسلمين. كان والد «تيموجين» زعيماً مغولياً اسمه «يسوكاي» ووالدته «هويلون»، وقد وُلد في موضع على شاطئ نهر «أونون» في شمالي شرق آسيا. لم يكن المغول في تلك الفترة أكثر من مجموعة من القبائل الضاربة في أعالي نهر «آمور» التي تعيش في حرب دائمة بينهم وبين جيرانهم النازلين إلى الشرق منهم ـ وهم التتار ـ، والمعروف أن «كابل خان» جد «يسوكاي» نظَّم هذه القبائل في حلف ضعيف لم يلبث أن تمزق بعد وفاته، ما ساعد امبراطور الصين الشمالية «كين» على توطيد سلطته في كل المنطقة، **ولم يرث «يسوكاي» إلا شطراً صغيراً من الحلف القديم، غير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته، ما أنزله من الهزيمة ببعض قبائل التتار وإخضاعها**، وما حدث من تدخله في أمور «خان الكرايت» الذي يعتبر أعظم جيرانه المباشرين مدنية. و«**الكرايت**» شعب شبه بدوي، ينتمي إلى أصل تركي، استقرَّ بالأقاليم الواقعة حول نهر «أورخون» في أقصى أطراف منغوليا الحالية.

في أوائل القرن الحادي عشر تحول ملكهم ومعظم رعاياه إلى الديانة المسيحية، على المذهب النسطوري. وأدى تحول «الكرايث» إلى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك «**الأويغور**»، الذين كان بينهم عدد كبير من النساطرة. وسبق للأويغور أن أقاموا حضارة مستقرة في موطنهم في وادي «نهر التاريخ» ومنخفض «طورفان»، وابتكروا أبجدية للغة التركية استندت إلى الحروف السريانية، وفي الأزمنة المتقدمة سادت بينهم الديانة المانوية، على أن المانويين نزعوا تحت تأثير الصينيين إلى أن يتحولوا إلى البوذية.

ومع أن سلطان «الأويغور» أخذ في التداعي، فإن مدينتهم امتدت إلى «الكرايث» و«النايمان»؛ نظراً لأن بلاد «الأويغور» تقع بين هذين الشعبين التركيين.

عندما مات «كورياكوس» ابن «مير جوزخان» - خان الكرايث - في سنة (١٢٧٠م) **صادف ابنه «طغرل» بعض العقبات في الاستحواذ على ملكه** نتيجة معارضة إخوته وأعمامه، على أنه ظفر بحروبه على إخوته وأقاربه، وذلك بفضل مساعدة «يسوكاي»، الذي صار أخاً له بحكم ما تعاهدا عليه وأقسما من يمين، فهيأت هذه الصداقة لـ «يسوكاي» مكانة رفيعة بين زعماء المغول، غير أنه مات قبل أن يستقر خاناً أعظم للمغول؛ إذ دسَّ له السم بعض التتار الرحَّل الذين كان يشاركهم طعام العشاء، ولم يتجاوز ابنه الأكبر «**تيموجين**» أو «**جنكيز خان**» وقتذاك التاسعة من عمره، على أن ما اشتهرت به «**هويلون**» **أرملة** «**يسوكاي**» من الكفاءة هو الذي حفظ لابنها «تيموجين» قدراً من السلطان على قبائل أبيه.

أمضى «تيموجين» طفولة عاصفة؛ إذ برهن على كفاءته القيادية منذ كان صغيراً، فلم تكن تأخذه رحمة بمنافسيه ولا رأفة حتى لو كانوا من أقربائه وأسرته.

ففي أثناء الحروب التي ظفر فيها بالسيادة على المغول وقع لفترة من الزمن أسيراً في أيدي قبيلة «تايجيوت»، كما أن «بؤركة» التي تزوجها، وهو في السابعة عشرة من عمره، ظلت بضعة شهور في أسر «الترك المركيت» النازلين عند بحيرة «بايكال»، ولهذا حامت الشكوك حول شرعية بنوة ولدها الأكبر «جوجي» الذي تمت ولادته أثناء أسرها. على أن توالي انتصارات «تيموجين» يرجع إلى حد كبير إلى تحالفه مع «طغرل» خان الكرايث الكبير، الذي بلغ من محبته له أن اعتبره «تيموجين» والداً له، وقد ساعده «طغرل» في حروبه مع المركيت.

وحوالي سنة (١٢٩٤م) تم اختيار تيموجين ملكاً أو خاناً على جميع المغول، واتخذ اسم «جنكيز» أي «القوي»، ولم يلبث أن تلى ذلك اعتراف امبراطور الصين «كين» بـ«جنكيز خان»، على أنه خان أعظم على المغول، وظفر بتحالفه لمناهضة التتار، الذين كانوا يهددون حدود الصين، وأدّت حرب خاطفة إلى خضوع التتار لحكم جنكيز خان. ولما جرى طرد «طغرل خان» من عرش الكرايث سنة (١١٩٧م)، كان جنكيز خان هو الذي أعاده للحكم، ثم انحاز جنكيز خان بقواته سنة (١١٩٩م) إلى طغرل خان، فأنزل الهزيمة بـ«النايمان الترك».

واستمر جنكيز خان في إخضاع الترك النايمان، ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى فرض جنكيز خان سيطرته على كل القبائل النازلة بين حوض نهر «التاريم» ونهر «أمور»، وسور الصين العظيم، وأصبح بالإمكان بعد ذلك عقد مجلس أو «قوريلتاي» لكل زعماء القبائل التابعة له في سنة (١٢٠٦م)، على شاطىء نهر «أونون» حيث أعلن موافقته على ما اتخذه جنكيز خان من اللقب الملكي، كما أعلن أنه ينبغي أن **تُعْرَف كل أقوامه في مجموعها باسم «المغول»**.

وانصرف جنكيز خان لتنظيم امبراطوريته التي تألفت من مجموعة القبائل التي لم يحاول التدخل في شؤونها الداخلية، وكل ما فعله هو أنه فرض أسرته المعروفة باسم «التن أوروك»، **أي «القبيلة الذهبية»**، وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون، وجعل للعشائر الحرة أعداداً كبيرة من الأرقاء الذين اتخذهم من القبائل التي قاومته ثم قهرها، ومنح أقاربه وأصدقاءه الألوف من الأرقاء. ففي «القوريلتاي» الذي انعقد سنة (١٢٠٦م)، بذل لكل من أُمه «هويلون» وأخيه «تيموجيه» أو «تشين» عشرة آلاف أسرة ملكاً له، وجعل لكل من أبنائه الصغار خمس أو ست آلاف أسرة. أما القبائل أو المدن التي خضعت له بدون قتال، فإنه لم يتدخل في أمرها بل تركها وشأنها، طالما احترمت قوانينه ثقيلة الوطأة، وأدت لجباة الضرائب ما طلبه من أتاوة باهظة.

وأصدر جنكيز خان مجموعة القوانين المعروفة في التاريخ باسم «الياسة» أو «الياساك»، والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العُرْف في «الأستبس»، وذلك بهدف ربط الأقاليم بعضها ببعض. وقد صدرت «الياسة» مجزأة طوال حكمه وحددت ما للقبائل وزعمائها من حقوق وامتيازات، مع تحديد ما هو مقرر

للخان من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات وقواعد نظام الضرائب، فضلاً عن مبادىء القانون الجنائي والمدني والتجاري.

ولم يكد «جنكيز خان» ينظم إدارة امبراطوريته حتى شرع في توسيع حدودها؛ فقد أضحى لديه جيش ضخم أولى اهتماماً كبيراً لتنظيمه؛ إذ أن كل أفراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة سنة والستين سنة يلتزمون بالخدمة العسكرية وفقاً للعرف المغولي والتركي. ولم تكن حملات الصيد في كل شتاء لإمداد الجيش والبلاط باللحوم، أكثر من مناورات لتدريب المقاتلين بصورة مستمرة. وكانت القبائل تؤلف جيشاً من الفرسان والرماة والرماحة الذين يستخدمون الخيول السريعة العَدْو. ودرج الرجال والفرسان منذ الولادة على ممارسة الحياة القاسية، والقيام بأسفار بعيدة عبر الصحاري، وليس لديهم إلا قدر قليل من الزاد والماء. **وكان هذا الارتباط بين سرعة الحركة والنظام والأعداد الضخمة هو الطابع المميز لجيش المغول.**

استطاع «جنكيز خان» أن يستثمر التناقضات في الدول المجاورة له، فسيطر على مملكة «كين» في شمال الصين، وضمَّ إليه منشوريا واعترفت كوريا بسيادته، وأصبح باستطاعته التوجه نحو الجنوب الغربي لتركيز الجهد ضد دولة المسلمين التي وصلت خلال تلك الفترة إلى أوج قوتها بقيادة «محمد خوارزم شاه»، وكان هذا قد نظم الدولة الخوارزمية بحيث باتت تمتد من كردستان والخليج العربي حتى بحر «آدال» وهضبة «بامير» ونهر «السند»، ولم يكن محمد خوارزم شاه بالرجل الذي يتسامح مع منافس يتهدَّده.

ورغم تبادل السفارات بين جنكيز خان ومحمد خوارزم شاه، إلا أن جنكيز خان أخذ في استثارة منافسه، وطلب جنكيز خان ـ باعتباره خاناً على الشعوب التركية المغولية ـ إلى الأمير الخوارزمي أن يعتبره سيداً عليه.

وحدث في سنة (١٢١٨م) أن ارتحلت من منغوليا قافلة كبيرة من التجار المسلمين وبرفقتهم مائة من المغول، تقرر إرسالهم في سفارة خاصة إلى البلاط المغولي، فلما بلغت القافلة مدينة «أوترار» الواقعة على نهر «سيحون» ـ في أملاك محمد خوارزم شاه ـ أجهز حاكم «أوترار» على المسافرين وسلب بضاعتهم التي جرى حمل نصفها إلى «محمد خوارزم شاه»، وأصبحت الظروف مهيأة أمام جنكيز خان للنهوض وقتال الخوارزمية، وكان ذلك مشروعاً بالغ الخطورة؛ إذ كان بوسع محمد خوارزم شاه أن يزج في ميدان القتال نصف

مليون رجل، كما أن جنكيز خان سيقاتل على مسافة تبعد ألف ميل عن بلاده.

غادر الجيش المغولي المكوَّن من مائتي ألف مقاتل بقيادة جنكيز خان معسكره، عند نهر «أرتيش» في أواخر صيف سنة (١٢١٩م/ ٦١٦هـ)، وانضم إليه أثناء سيره نحو الغرب أتباعه من الملوك.

ولما كان محمد خوارزم شاه يجهل المكان الذي سيوجِّه منه المغول ضربتهم، فقد عمل على تقسيم جيشه بين خط نهر «سيحون» وممرات «فرغانة»، واحتفظ بالكتلة الرئيسية من جيشه في المدن الهامة بإقليم ما وراء النهر أمثال «بخارى» و«سمرقند». وتوجه الجيش المغولي مباشرة نحو الحوض الأوسط لنهر «سيحون»، فاجتاز النهر عند «أوترار» وتولَّت قوة من الجيش المغولي حصار المدينة الذي استمر فترة غير قصيرة، في حين هبط قسم من الجيش ليسير مع النهر بهدف مهاجمة الجيش الخوارزمي على ضفتَي نهر «سيحون»، وتوجهت قوة ثالثة من الجيش صعداً مع النهر لقطع الطريق على الجيش الخوارزمي في «فرغانة».

وزحف جنكيز خان بقواته الأساسية على «بخارى)، فوصلها في شهر شباط ـ فبراير سنة (١٢٢٠م/ ٦١٧هـ)، فبادر السكان المدنيون على الفور بفتح أبوابها له، على أن الترك المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون بضعة أيام، ثم لقوا مصرعهم عن آخرهم مع الأئمة المسلمين الذين وقفوا إلى جانبهم في القتال. ثم تحرك جنكيز خان من بخارى إلى سمرقند، بينما انسحب محمد خوارزم شاه إلى عاصمته في «أورجنده» قرب «خيوه» على نهر جيحون. وإذ لحق بـ«جنكيز خان» أبناؤه في سمرقند بعد أن استولوا على أوترار، بادرت الحامية التركية في سمرقند إلى التسليم على الفور، فأمر جنكيز خان بإبادتهم جميعاً. وحاولت فئة من سكان سمرقند المقاومة، غير أن المغول أبادوها أيضاً. وبعث جنكيز خان أبناءه لفتح أورجنده، ولكن حامية المدينة دافعت بعناد ولم تتمكن قوات المغول من اقتحامها إلا بعد شهور عديدة.

وأثناء ذلك تمكن محمد خوارزم شاه من التسلل والخروج إلى خراسان، ومنها إلى جزيرة صغيرة داخل بحر قزوين، حيث قضى نحبه هناك في كانون الأول ـ ديسمبر سة (١٢٢٠م). وخلال ذلك كان «جلال الدين بن محمد خوارزم شاه» قد لحق بالجيش الخوارزمي في فرغانة، ثم تقهقر إلى أفغانستان فأنزل هزيمة ساحقة بالجيش المغولي الذي تم إرساله لقهره وتدمير جيشه، وذلك في «بيروان» الواقعة إلى الشمال من جبال «هندوكوش».

أما جنكيز خان، فعبر نهر جيحون، واجتاز «بلخ» التي خضعت له فأبقى عليها، ومنها توجه إلى «باميان» في قلب جبال هندوكوش، وامتنع الحصن عليه. وفي أثناء الحصار لقي مصرعه حفيده «موتوجين»، أحب الناس إليه، فلما سقطت المدينة عنوة، لم يُبْقِ على الحياة أحداً من سكانها.

وفي تلك الأثناء كان ابنه «تولوي» وصهره «توقشتار» يقاتلان في أقصى الغرب، فاستوليا على مدينة «مرو» التي لم يبق على قيد الحياة من سكانها الذكور سوى أربعمائة من الصناع المهرة. ثم سقطت «نيسابور» حيث لقي مصرعه «توقشتار»، وتعرضت لنفس المصير الذي تعرضت له مرو، حيث أشرفت زوجة توقشتار - أرملته - بنفسها على عملية الذبح والإبادة. وتقرر إرسال الصناع من المدينتين - نيسابور ومرو - إلى منغوليا.

وواصل جنكيز خان في خريف سنة (١٢٢١م/٦١٨هـ) سيره مخترقاً أفغانستان لمهاجمة جلال الدين، فحاصره على ضفتي نهر السند. وتحطم الجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس دارت في (٢٤ تشرين الثاني - نوفمبر سنة ١١٢١م)، واستطاع جلال الدين النجاة بعد أن اجتاز نهر السند، فالتجأ إلى ملك «دلهي»، أما أطفاله، فوقعوا في أيدي جنكيز خان، الذي أمر بذبحهم.

أمضى جنكيز خان مدة سنة تقريباً في أفغانستان، وخلال هذه الفترة تمردت مدينة «هراة» التي استسلمت للغزاة بدون مقاومة ثم حفزتها المظالم للتمرد؛ لا سيما بعد انتصار جلال الدين على المغول في بيروان، وظل الجيش المغولي يحاصرها شهوراً عديدة، فلما سقطت في يد المغول في حزيران - يونيو سنة (١٢٢٢م) دارت مذبحة رهيبة في كل سكانها الذين يبلغ عددهم مئات الألوف، واستمر القتال أسبوعاً. أما المدن التي دمرت والأراضي التي خلت من النبات، فتولى إدارتها رجال من المغول يدعمهم جند كاف من المغول لإخضاع السكان.

ثم عاد جنكيز خان إلى إقليم ما وراء النهر، الذي كان يقل خراباً عن الجهات الأخرى، فنصب على إقليم ما وراء النهر حاكماً خوارزمياً اسمه «مسعود يلواج»، وجعل إلى جانبه مستشارين من المغول ليراقبوه. وارسل «محمود يلواج) والد «مسعود» ليحكم «بكين»، وكان هدفه من ذلك اجتذاب مسعود حتى يزيد في درجة ولائه له.

وعبر جنكيز خان نهر سيحون مرة أخرى، في ربيع سنة (١٢٢٣م)، وأخذ

يسير في بطء حتى بلغ نهر «أرتيش» في صيف سنة (١٢٢٤م)، ثم وصل في الربيع التالي إلى موطنه على نهر «تولا». ولما عاد جنكيز خان بجيوشه إلى منغوليا، غادر جلال الدين خوارزم شاه مأواه في الهند، فالتفت حوله بقايا جيوش أبيه. ولقي جلال الدين ترحيباً كبيراً في فارس على أنه بطل المقاومة ضد المغول، ولم تحل سنة (١٢٢٥م) حتى صارت له السيطرة على الهضبة الفارسية وأذربيجان، وفي سنة (١٢٢٦م/ ٦٢٣هـ) غدت له السيادة على بغداد.

وإذ أخذت مملكة جلال الدين خوارزم شاه تهدد الأيوبيين، فقد صارت عاملاً بالغ الأهمية في سياسة الفرنج بالشام؛ غير أن المسيحيين بأقصى الشمال لم يلقوا في جلال الدين ما يرجونه؛ إذ أنه أغار سنة (١٢٢٥م) على بلاد الكرج، وطوَّر أعماله القتالية بعد الانتصار على جيش الكرج حتى استولى على تفليس عاصمة بلاد الكرج، وأضاف إلى مملكته جميع وادي نهر كور. وأضحت مملكة الكرج قاصرة على أملاكها الواقعة على البحر الأسود، فلم تعد بالغة القيمة باعتبارها المعقل الواقع في الشمال الشرقي للعالم المسيحي، وباعتبارها دولة تستطيع أن تتحدى المسلمين في آسيا الصغرى.

توفي جنكيز خان في سنة (١٢٢٧م/ ٦٢٤هـ)، وترك امبراطورية واسعة تمتد من كوريا حتى فارس ـ إيران ـ ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة. وتميزت فتوحاته بتجردها من الهدف ـ اللهم إلا هدف التدمير والنهب ـ كما أنه لم يحفل أبداً بحياة البشر ولم يهتم بمصائبهم وآلامهم؛ فقد هلك في حروبه ملايين الأبرياء من سكان المدن، وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم تتعرض للدمار والخراب، فقامت امبراطوريته على بؤس الناس وشقائهم وتعاستهم.

٢ ـ المغول في القوقاز وفي أوروبا

قد لا تكون لغزوات المغول في القوقاز وأوروبا علاقة مباشرة فيما تعرض له المسلمون على أيدي المغول ـ التتار ـ، ولكن من الضروري إلقاء نظرة خاطفة على هذه الغزوات؛ إذ أنها تبرز الأسلوب المدمر لهؤلاء البرابرة، بقدر ما تبرز أيضاً خصائص قوات المسلمين وصمودها في مواجهة القوة الطاغية وعدم استسلامها لمنطق القوة المدمرة أو استراتيجية الرعب، في الوقت الذي لم تتمكن فيه قوة ـ في عالم القرون الوسطى ـ من إبراز هذه الفضائل الحربية.

سبقت الإشارة إلى ذلك الجيش الذي أرسله جنكيز خان لمطاردة محمد خوارزم شاه في سنة (١٢٢١م) بقيادة «سبوتاي» و«جيب»، ولكن هذا الجيش لم يتمكن من تحقيق واجبه المباشر، حيث تمكن محمد خوارزم شاه من النجاة واللجوء إلى الهند، فتابع القائدان «سبوتاي» و(جيب» زحفهما في اتجاه الغرب، وقاما في بداية سنة (١٢٢١م) بالاستيلاء على مدينة «الري» ـ الواقعة قرب مدينة طهران حالياً ـ ثم سقطت في أيديهما مدينة «قم»، ولم يفلت أحد من سكانها من القتل، وحلَّ هذا المصير ذاته بمدينتي «قزوين» و«زنجان»، أما «همذان» فخضعت في الوقت المناسب فنجا أهلها من الإبادة بعد أن أدُّوا فدية باهظة. واستطاع أمير «أذربيجان» أن يدرأ الهجوم على «تبريز» بما بذله من الأموال، وتجاوَزَه المغول في شباط ـ فبراير سنة (١٢٢١م) لمهاجمة بلاد الكرج حيث عملوا على تدمير جيش الكرج بعد معركة حاسمة عند «خناني» ـ جنوبي «تفليس» ـ ولم ينهض هذا الجيش بعد ذلك أبداً.

غير أن الغزاة البرابرة استداروا راجعين نحو الجنوب لتأديب «همذان» التي تمردت على طاعتهم، وفي طريقهم دمروا «مراغة» في أذربيجان ونهبوها، ثم دمروا همذان وأبادوا أهلها، وتوقفوا في شمال غربي فارس لقضاء ما بقي من السنة، ثم توجهوا من جديد إلى الشمال في أوائل سنة (١٢٢٢م)، وبعد أن استباحوا الأقاليم الشرقية من بلاد الكرج، وأنزلوا الهزيمة بالقوات التي توجهت لوقف تقدمهم، مضوا في سيرهم على امتداد شاطىء بحر قزوين، فاجتازوا دروب قزوين، واتجهوا نحو بلاد «القبجاق» الواقعة بين نهري «الفولغا» و«الدون»، فأسرع «القبجاق» إلى التحالف مع القبائل النازلة شمالي جبال القوقاز من «اللان» و«اللكز»؛ غير أنه لما عرض «سبوتاي» و«جيب» على القبيلتين نصيباً من الغنيمة لم تتدخلا حينما سحق المغول قوات القوقازيين.

وكان «اللان» و«اللكز» يأملان في أن يتحالفوا مع الروس حتى ينهضوا لمساعدتهم عندما ظهر أن المغول سيتحولون لقتالهم بعد فراغهم من القوقازيين.

وقام الروس بحشد جيش ضخم قاده أمراء «كييف» و«جاليش» و«شرنيخوف» و«سمولنسك»، ولكن المغول نجحوا في تحطيم هذا الجيش على ضفتي نهر «كلكا» قرب بحر «آزوف». ولم يتابع القائدان المغوليان استثمار انتصارهما، بل توجها إلى بلاد القرم، فدمرا ونهبا المحطة التي أقامها الجنويون في «صو لدايا»، ثم انطلقا إلى الشرق ولم يتوقفا إلا ريثما يدمران جيشاً لـ «بلغار» ـ كاما ـ

وينهبان بلادهم، ثم لحقا بـ «جنكيز خان» مرة أخرى في أوائل سنة (١٢٢٣م) عند نهر سيحون. وكانت هذه الغزوات ذات أهمية كبرى للمغول؛ إذ أنها كانت بمثابة غزوات استطلاعية اكتسب قادة المغول من خلالها خبرات قتالية جيدة ومعرفة بجغرافية المناطق المختلفة، علاوة على ما خلفته من رعب في وسط الشعوب التي تعرضت لهجماتهم.

وعاش العالم فترة من الهدوء في أعقاب موت جنكيز خان، ريثما أُعيد تنظيم أمور الامبراطورية، إلا أنه لم تمض أكثر من سنتين حتى بدأ التحرك الجديد لسحق ثورة «كين» في شمال الصين، وأخذ الامبراطور الجديد «أوكيتاي» في التطلع إلى آفاق جديدة.

ظهر جيش مغولي ضخم في بلاد فارس بقيادة «شورماجان»، مع بداية سنة (١٢٣١م/ ٦٢٩هـ)، وأفاد هذا الجيش من مناخ الرعب الذي تركته الهجمة السابقة، فتقدم بدون مقاومة من خراسان إلى أذربيجان. وهرب «جلال الدين خوارزم شاه»، ولم يلبث أن توفي في كردستان، في وسط ظروف غامضة، وتمزق الجيش الخوارزمي تمزقاً مؤلماً، والتحق بعواصم البلاد الإسلامية. وأضاف القائد المغولي «شورماجان» كل شمال فارس وأذربيجان إلى الامبراطورية المغولية، وظل يحكم هذا الإقليم من سنة (١٢٣١م) حتى سنة (١٢٤١م) من معسكره في «موقان» قرب بحر قزوين. ثم أغار «شورماجان» على بلاد الكرج، واستولى على الشطر الشرقي منها. وفي سنة (١٢٤٣م) عقدت ملكة الكرج اتفاقاً مع قائد المغول اعترفت فيه بتبعيتها على أن يكون لابنها من بعدها كل ممكة الكرج يحكمها تحت السيادة المغولية.

احتشد جيش مغولي ضخم في ربيع سنة (١٢٣٦م) شمالي بحر «آدال» بقيادة «باطو بن جاجي» الذي شملت أملاكه تلك السهوب. وصحب «باطو» إخوته وأربعة من أبناء أعمامه، هم «كيوك» و«قاذن» ولدا الخان الأكبر «أوكيتاي» و«بايدار بن جغتاي» و«مونك بن تولوي»، أما القائد الشيخ «سبوتاي»، فكان رئيساً لأركان حرب الجيش.

ولما فرغ الجيش المغولي من قمع القبائل التركية النازلة على نهر الفولغا، زحف إلى البلاد الروسية في خريف سنة (١٢٣٧م)، فاستولى عنوة على «ريضان» في (٢١ كانون الأول ـ ديسمبر) ودارت مذبحة هلك فيها أميرها وجميع سكان المدينة، ثم سقطت «كولومونا» بعد بضعة أيام. وفي أوائل السنة

الجديدة (١٢٣٨م) هاجم المغول مدينة «فلاديمير» الكبيرة، فلم تصمد للقتال أكثر من ستة أيام، واقترن سقوطها في (٨ شباط ـ فبراير) بمذبحة جماعية جديدة. وتعرضت «سوذدال» للنهب في الفترة ذاتها، وتبع ذلك الاستيلاء على المدن الأخرى في روسيا الوسطى وتدميرها وأهمها «موسكو» و«يوريف» و«جاليش» و«بريسلاف» و«روستوف» و«ياروسلاف».

وحدث في (٤ آذار ـ مارس سنة ١٢٣٨م) أن حلَّت الهزيمة بالأمير الكبير «يوري» سيد فلاديمير، ولقي مصرعه على ضفاف نهر «سيتي»، ولم تلبث «تغير» و«تورزوك» أن سقطتا في أيدي المغول بعد المعركة. وتقدم الغزاة، فاجتازوا تلال «فالداي» قاصدين «نوفجورود»، ولكن أمطار الربيع حولت النطاق المحيط بالمدينة إلى مستنقعات تعيق عمل الفرسان، فانسحب «باطو»، وأمضى ما تبقى من السنة في سَحق آخر ما صادفه من المقاومة من قِبَل القبجاق، بينما قهر ابن عمِّه «مونك» اللان والقبائل النازلة بشمال القوقاز، ثم قام بغارة استطلاعية حتى وصل «كييف».

عاد «باطو» ليقود جيش المغول الرئيسي إلى «أوكرانيا» في خريف سنة (١٢٤٠م/ ٦٣٨هـ)، فنهب «شرنيجوف» و«بريسلافل» واستولى عنوة على «كييف» في (٦ كانون الأول ـ ديسمبر سنة١٢٤٠م)، بعد أن استبسلت في الدفاع. وقام المغول بتدمير قسم كبير من كنوزها العظيمة، ولقي أكثر سكانها مصرعهم، على أنه جرى الإبقاء على حياة «ديمتري» قائد الحامية لشجاعته التي استحوزت على إعجاب «باطو». ثم تحركت قوة من الجيش المغولي بقيادة «بايدر بن جغتاي» ومضت نحو الشمال إلى بولندا، فنهب «ساندومير» و«كراكوف»، فاستنجد الملك البولندي بالفرسان التيوتون (الألمان) النازلين على ساحل بحر البلطيق، غير أن جيوشهم المتحدة بقيادة «هنري» دوق «سيليزيا» تعرضت في (٩ نيسان ـ أبريل) لهزيمة ساحقة بعد معركة عنيفة دارت رحاها في «فاهلشتات» قرب «ليبجنتز»، غير أن «بايدر» لم يجرؤ على المضي نحو الغرب إلى أبعد من ذلك، فاجتاح «سيليزيا» ودمرها ثم توجه نحو الجنوب ـ إلى بلاد المجر ـ بعد أن اجتاز «مورافيا».

وفي تلك الأثناء مضى «باطو» و«سبوتاي» إلى «غاليسيا» بعد أن ساقا أمامهما جموعاً من الأسرى الذين استبدَّ بهم الخوف وانتموا إلى كل الأقوام، ثم اجتازا جبال «الكربات» إلى سهل المجر. وقاد «بيلا» ملك المجر جيشه للقائهما، غير

أنه حلَّت به هزيمة ساحقة في (١١ نيسان ـ إبريل)، عند جسر «موهي»، على نهر «سايو»، فتدفق المغول على بلاد المجر، ونفذوا إلى «كرواتيا»، وواصلوا زحفهم حتى بلغوا سواحل البحر الأدرياتيكي. وأقام «باطو» بضعة شهور في بلاد المجر، ثم جاءه الرسل يحملون إليه النبأ بأن الخان الكبير «أوكيتاي» مات في «قراقورم» في (١١ كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١٢٤١م)، ولم يعد باستطاعة «باطو» متابعة أعماله قبل أن يستقر الحكم من جديد في بلاد المغول.

لقد عمل المغول على تدمير قسم كبير من أوروبا، وكان من المفروض مجابهة هذا الخطر بإجراء مشترك؛ غير أن أُمراء أوروبا وملوكها، اعتبروا هذا الاجتياح بمثابة ظاهرة مؤقتة ليس لها تأثيرها على الاتجاه العام. فقد تزوج القسم الأكبر من قادة المغول، من فتيات مسيحيات، أصبح لهن ثقلهن في بلاط الخان الكبير وفي الأوساط القيادية، كما أن الكنائس التي كانت تتابع تحركات المغول لا زالت تأمل في استخدام القوة الجديدة والتحالف معها ضد المسلمين، وكان يتم تغليف هذه الآمال بالأساطير، مثل أسطورة «بريستر يوحنا» التي قضت على أن الخلاص سوف يجيء من الشرق، والتي تمسك بها عدد كبير من رجال الدين المسيحي والقادة والأمراء في الغرب، وتحقيقاً لهذه الرؤيا كان لا بد للكنيسة من إثارة العواطف للقيام بالدعوة لحملة صليبية جديدة.

٣ ـ هولاكو يقود الحرب

أصبح «كيوك بن أوكيتاي» هو الخان الأكبر للمغول في الفترة بين سنة (١٢٤١م) و(١٢٤٨م)، ومضت فترة من الاضطراب إلى أن انعقد المجلس الوطني «القوريلتاي»، فانتخب في الأول من تموز ـ يوليو سنة (١٢٥١م) «منكو» خاناً كبيراً، وأصبح باستطاعة إخوة «منكو»، وهم «قبيلاي» و«هولاكو» و«أريق بوقا» تحقيق ما تم التفكير به طويلاً، وهو القضاء على المسلمين. وكان «هولاكو» هو قائد القوات في فارس، فأخذ على عاتقه قيادة الحرب، وقد عُرف عنه حبه للشر وتجرده من كل نزعة إنسانية، كما كان يعاني من نوبات الصرع، وحدَّة المزاج، وكان لزوجته «طقز خاتون» أقوى نفوذ في البلاط، وهي من أميرات قبيلة «الكرايت» حفيدة لـ «طغرل خان»، فتعتبر ابنة عم والدة «هولاكو»، وكانت شديدة التعلق بالنسطورية، فلم تخفِ كراهيتها للإسلام وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم.

كان أول هدف لـ «هولاكو» هو تدمير الإسماعيلية (الحشاشين) والاستيلاء على مقرهم في قلعة «ألموت»؛ إذ كان من المحال ـ بحسب ما كان يراه هولاكو ـ إقامة حكومة منظمة ما لم يتم القضاء على الإسماعيليين، لا سيما بعد أن عمل هؤلاء طويلاً على إلحاق الأذى بالمغول عندما اغتالوا «جغتاي»، ثاني أبناء جنكيز خان، **وكانت حاضرة الخلافة العباسية (بغداد) هي الهدف الثاني لـ«هولاكو»؛ إذ يصبح بإمكان الجيش المغولي بعدها التوغل في الشام.**

وأمضى هولاكو فترة خمسة أعوام تقريباً في الإعداد لهذه الحملة الضخمة، فأعدَّ كل شيء بدقة وعناية، وعمل على إصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس، وتمَّت إقامة الجسور على الأنهار، وجُهِّزت العربات اللازمة لجلب أدوات الحصار من الصين، وتولى القائد «**كتبغا النسطوري**» أقرب القادة إلى هولاكو وأعظمهم موطناً لثقته قيادة الجيش المكلف بتمهيد الطريق للغزو، وكان كتبغا ينتمي إلى عنصر «النايمان»، والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق.

ومضى كتبغا لتنفيذ مهمته التي استغرقت ثلاث سنوات، فأعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة بالهضبة الإيرانية (الفارسية)، واستولى على بعض معاقل الإسماعيلية التي تتحكم بمحاور الطرق. وعندما انتهت الاستعدادات اصطحب هولاكو «طقز خاتون» وزوجتين أُخريين وولديه الكبيرين. وكان يمثل «بيت جغتاي» حفيده «نيقودار» وأرسل «باطو» من القبيلة الذهبية ثلاثة من أبناء أخيه الذين ارتحلوا على امتداد الساحل الغربي لبحر قزوين ولحقوا بالجيش المغولي في فارس. وقدمت كل قبيلة من قبائل الحلف خُمس رجالها المقاتلين، واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينيين الذين برعوا في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار.

وعندما بدأ هذا الجيش تحركه في كانون الثاني ـ يناير سنة (**١٢٥٦م**)، واجتاز نهر جيحون؛ ظهر أن المروج والسهول قد أصبحت خالية من قطعان الماشية وذلك من أجل توفير الأعشاب الضرورية لخيول المغول.

كان زعيم الإسماعيليين «**ركن الدين خورشاه**» يعرف ما يتهدَّده به المغول، فحاول أن يدرأ الخطر باللجوء إلى الطرائق الدبلوماسية التي أتقن قادة الإسماعيليين استخدامها، ولكن جهوده لصرف المغول عن أهدافهم لم تحقق أي نجاح.

وتحرك «هولاكو» بقوة، ولكن بصورة بطيئة، فاجتاز «ديموند» و«عباس آباد»،

وانحدر إلى وديان الإسماعيلية (الحشاشين). ولما ظهر الجيش الضخم أمام «**قلعة ألموت**» وأخذ في تضييق الحصار على القلعة، لم يسع ركن الدين إلا التسليم، فقدم بنفسه في كانون الأول ـ ديسمبر إلى خيمة هولاكو، وأعلن خضوعه وإذعانه، غير أن حاكم القلعة رفض إطاعة ما أصدره إليه من أوامر بتسليم القلعة، فسقطت عنوة بعد بضعة أيام. وتلقى ركن الدين وعداً من هولاكو بالإبقاء على حياته، غير أنه طلب إليه التوجه إلى «قراقورم»، لعله يحصل من الخان الكبير منكو على شروط تفضل تلك التي بذلها هولاكو، غير أنه لما وصل إلى قراقورم، رفض منكو أن يلقاه، وقال: «إنه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة»، على أن اثنين من حصون الإسماعيلية، وهما «جردوه» و«لمبوذر»، امتنعا على المغول، فجرى إخطار ركن الدين بالعودة إلى بلاده ليحملهما على التسليم، غير أنه لقي مصرعه مع أصحابه أثناء مسيره. وصدرت الأوامر في الوقت ذاته إلى هولاكو باستئصال شأفة الإسماعيلية (الحشيشية)، وتقرر إرسال عدد من أقارب زعيم الإسماعيلية إلى ابنة «جغتاي» (**سالقان خاتون**) حتى تنتقم منهم لمصرع أبيها، بينما تم استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم، ودارت فيهم مذبحة هلك فيها الألوف منهم، ولم تنته سنة (**١٢٥٧م/ ٦٥٥هـ**) حتى لم يبق إلا عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس. أما الإسماعيلية في الشام، فإنهم لم يكونوا في متناول منكو، ومع ذلك ترقَّبوا ما ينتظرهم من مصير.

وكان الإسماعيلية يحتفظون في «ألموت» بمكتبة ضخمة زخرت بكتب في علوم الفلسفة والتنجيم، فأرسل هولاكو حاجبه المسلم «عطا الملك الجويني» ليفحصها، فأخرج منها ما صادفه من المصاحف وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية، وأمر بحرق جميع كتب الملحدين، إلا أن حريقاً كبيراً نشب أثناء ذلك فالْتَهم جميع الكتب والمؤلفات الخاصة بالمذهب السنِّي.

أصبح باستطاعة هولاكو التوجه إلى بغداد بعد أن انتهى من تحقيق هدفه الأول، فتحرك بجيشه لمهاجمة مقر الخلافة ببغداد، وكان الخليفة وقتذاك «**المستعصم بالله**»، وهو الثالث والثلاثين من الخلفاء العباسيين. وقد حاول «المستعصم» ـ ابن المستنصر ـ أن يعيد للخلافة سلطتها ومجدها، بعد أن أصبح للخلافة سلطتها التامة بزوال هيمنة الخوارزمية، كما أن التنافس بين الأمراء في القاهرة ودمشق هيَّأ للخليفة الفرصة لممارسة دوره في توحيد المسلمين.

وأحاط المستعصم نفسه بظواهر العظمة التي اكتسبتها الخلافة عبر قرون طويلة، إلا أن الضعف الكامن بقي مختفياً خلف ظواهر القوة هذه، نتيجة لما كان متوافراً من العداء بين وزيره الشيعي «**مؤيد الدين بن العلقمي**» وكاتبه السني «**أيبك**» الذي سانده ولي العهد.

اشتهرت بغداد بقوة تحصيناتها ومناعة استحكاماتها، وكان باستطاعة الخليفة «المستعصم» حشد جيش ضخم يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائة وعشرين ألف فارس، ولكن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي قام بدور مشبوه في إثارة شكوك الخليفة بقواته، ونصحه بتخفيض قواته لتوفير المال الذي يمكن تقديمه لهولاكو حتى لا يهاجم بغداد. وظهرت خيانة الوزير العلقمي عندما ردَّ هولاكو على الخليفة طالباً منه الاعتراف بالسيادة على الخلافة ذاتها، ولم يلق اقتراح هولاكو إلا الرفض الشديد من الخليفة الذي طلب إلى كاتبه «أيبك» الاستعداد للحرب.

وإذ ظهر أن الحرب باتت وشيكة الوقوع، جمع هولاكو قادته وتحدث إليهم في شيء من القلق والاضطراب، لا سيما وأن منجموه لم يتفقوا على أن النصر سيكون حليفاً للحملة. ولما كان يخشى تخلي أتباعه من المسلمين عنه، علاوة على احتمال تدخل أمراء دمشق ومصر، فقد بادر إلى اتخاذ التدابير القوية لمراقبة تصرفات المسلمين في جيشه. وفي تلك الأثناء ازداد جيشه قوة بوصول فرقة من القبيلة الذهبية، وبقدوم الجيش الذي ظل «بيجو» يحتفظ به على أطراف الأناضول في السنوات العشر الأخيرة، فضلاً عن فرقة من فرسان الكرج الذين كانوا في شوق لمهاجمة عاصمة المسلمين، وتوافر لهولاكو بذلك جيش لم يتمكن المغول من حشده من قبل.

تحرك الجيش المغولي من قاعدته في «همذان» في نهاية سنة (١٢٥٧م/ ٦٥٥هـ)، وعبر القائد بيجو بجيشه نهر «دجلة» عند «الموصل»، وسار إزاء الشاطىء الغربي للنهر. **أما كتبغا والجناح الأيسر للجيش، فدخل سهل العراق الواقع شرقي العاصمة مباشرة**، بينما زحف هولاكو بقلب الجيش مخترقاً «كرمان شاه».

ولم يكد الجيش الرئيسي للخليفة ينهض بقيادة «أيبك» ليلتقي بـ «هولاكو» حتى سمع باقتراب جيش «بيجو» القادم من جهة الشمال الغربي، فعبر «أيبك» نهر «دجلة» من جديد. وفي (١١) كانون الثاني ـ يناير سنة (١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ) باغت المغول قرب الأنبار، على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من بغداد، فتظاهر

«بيجو» بالتراجع، وبذا جرَّ قوات المسلمين إلى منطقة منخفضة تغمرها المستنقعات، وأرسل المهندسين ليقطعوا ما يقع خلفهم على نهر الفرات من السدود. وتجدَّد القتال في اليوم التالي، وارتد جيش «أيبك» إلى الحقول المغمورة بالمياه، وانسحب «أيبك» وحرسه بطريق النهر إلى بغداد. أما معظم جيشه، فقد أُبيد في ميدان المعركة، وتمزق مَن بقي منهم على قيد الحياة، وفروا إلى البادية.

ولم يلبث هولاكو أن ظهر أمام الأسوار الشرقية لمدينة بغداد يوم (١٨) كانون الثاني ـ يناير سنة (١٢٥٨م/ ٦٥٦هـ). وفي (٢٢) كانون الثاني ـ يناير تعرضت المدينة للهجوم من كل الجهات بعد إقامة جسور من القوارب على نهر دجلة، بأعلى المدينة وأسفلها. والمعروف أن بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة، على أن المدينة الغربية التي شملت قصر الخلفاء الأوائل، أضحت أقل أهمية من المدينة الشرقية التي تركزت بها مباني الحكومة. وركز المغول أشد هجماتهم على الأسوار الشرقية، وأخذ «المستعصم» يفقد الأمل. وفي نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير بعث بوزيره الذي يدافع عن سياسة المصالحة مع المغول ومهادنتهم ـ **الوزير الشيعي «مؤيد الدين بن العلقمي» ـ وأرسل معه البطريرك النسطوري الذي كان الخليفة يأمل في أن يتوسط عند «طقز خاتون» لمحاولة التفاوض مع هولاكو، غير أنه تقرر إعادة الرسولين بدون أن يقابلا هولاكو.**

وأخذ السور الشرقي لبغداد بالانهيار بعد أن تعرض للقذف الشديد في الأسبوع الأول من شهر شباط ـ فبراير سنة (١٢٥٨م). وفي (١٠) شباط ـ فبراير، وبينما كان جند المغول يتدفقون إلى داخل المدينة، ظهر الخليفة وسلَّم نفسه لـ «هولاكو» مع كبار قادة الجيش وكبار موظفي الدولة، وبعد أن صدرت إليهم الأوامر بإلقاء سلاحهم، تم الإجهاز عليهم ولم يجر الإبقاء إلا على حياة الخليفة حتى دخل «هولاكو» المدينة والقصر في (١٥) شباط ـ فبراير سنة (١٢٥٨م)، **ولقي الخليفة مصرعه، بعد أن كشف لـ «هولاكو» عن الأماكن التي اختبأت فيها ثروته وكنوزه.** وفي تلك الأثناء ظلت المذابح مستمرة في جميع أنحاء المدينة بغداد، وتعرض للقتل على السواء أولئك الذين بادروا إلى التسليم وأولئك الذين مضوا في القتال، وهلك النساء والأطفال مع رجالهم، وعثر أحد المغول في شارع جانبي على أربعين طفلاً حديثي الولادة، وقد ماتت أُمهاتهم فأجهز عليهم. أما عساكر الكرج، الذين كانوا أول مَن اقتحم الأسوار،

فاشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التدمير، فهلك في أربعين يوماً نحو ثمانين ألفاً من سكان بغداد، ولم يبق على قيادة الحياة إلا فئة قليلة واتاها الحظ، فلم يكتشف المغول الملاجىء والحواصل التي اختبؤوا فيها، فضلاً عن عدد قليل من الغلمان والفتيات ممن تم انتقاؤهم وأخذهم أرقاء، وكذا الجالية المسيحية التي لجأت إلى الكنائس، فلم يتعرض لها أحد بسوء وفقاً لأوامر «طقز خاتون».

وتفجر الحقد ضد المسلمين حتى شمل كل ما يتصل بهم، حتى مكتباتهم الزاخرة بالعلم والمعرفة أصبحت هدفاً للتدمير، وأُلقي بها في النهر الذي أصبح ماؤه أسود لأيام كثيرة.

ولما لم يبق في بغداد مَن يعمل على مواراة القتلى ودفنهم، فقد بدأت الجثث بالتعفن. وفي نهاية شهر آذار ـ مارس ظهر احتمال انتشار الأوبئة، وأصبح من الصعب احتمال مناخ الموت في المدينة المدمَّرة، فأمر «هولاكو» قواته بالانسحاب من بغداد. وحزن كثير منهم لمغادرة المدينة لاعتقادهم أنه لا زال بها من التحف القيمة ما يمكن العثور عليه، غير أنه صار بحوزة «هولاكو» كل ما تجمَّع في خزائن الخلفاء العباسيين من ثروات وكنوز طوال خمسة قرون.

وبعد أن أرسل هولاكو شطراً كبيراً من الغنائم إلى أخيه الخان الأكبر منكو، انسحب راجعاً إلى همذان في تمهل، ومنها توجه إلى أذربيجان، حيث شيَّد قلعة منيعة في «شها» على شاطىء بحيرة «أرمية»، وجعل منها مستودعاً لكل ما حازه من الذهب والمعادن النفيسة والجواهر، وجعل على بغداد والياً هو الوزير السابق **مؤيد الدين بن العلقمي**، الذي خضع لإشراف دقيق من قِبَل الموظفين المغول. أما البطريرك النسطوري «ماكيكا» فغمره هولاكو بالهدايا، وجعل له أحد قصور الخليفة مقراً وكنيسة. وأخذت المدينة بغداد تستعيد رويداً رويداً نظافتها، وتعود إلى سابق عهدها من النظام والترتيب، على أنها لم تعد بعد أربعين سنة، سوى مدينة إقليمية لا تتجاوز عشر حجمها السابق.

كان لذيوع أنباء تدمير بغداد أثر عميق في جميع أنحاء آسيا، وابتهج المسيحيون في كل مكان؛ إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط «بابل» الثانية، وهللوا لـ «هولاكو» و«طقز خاتون»، واعتبروهما قسطنطين وهيلينا، **وأنهما ليسا إلا أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح**. أما المسلمون فاعتبروا تخريب بغداد صدمة مريعة وتحدياً مخيفاً. فعلى الرغم من أن الخلافة العباسية ظلت منذ زمن طويل تفقد قدراً كبيراً من سلطتها المادية، إلا أن مكانتها المعنوية لا زالت

قوية، كما أن القضاء على الأسرة العباسية وتدمير عاصمتهم قضى على وحدة العالم الإسلامي.

أصبح باستطاعة «هولاكو» تطوير أعماله القتالية للتوغل في بلاد الشام، إلا أن هناك عقبة تعترض سبيله؛ إذ كانت إمارة الأمير الأيوبي «الكامل محمد» في «ميافارقين» تسيطر على إقليم الجزيرة سيطرة قوية، وكان الأمير محمد عنيداً، أظهر رفضه القاطع منذ البداية لقبول السيادة المغولية، وعندما أرسل إليه هولاكو رسولاً من قِبَله هو «قسيس يعقوبي» بهدف حمله على قبول سيادة المغول، كان رد الأمير «الكامل محمد» هو صلب «قسيس» وتجنب الرد على هولاكو. إلا أن أمراء الشام وحكامها لم يكونوا جميعاً بمثل قدرة «الكامل محمد» أو لديهم ما توافر له من تصميم وعناد في مجابهة العدوان، فقد توجه مبعوثون من قِبل إمارات عديدة إلى مقر هولاكو قَبْل مغادرة معسكره القائم بالقرب من مراغة، وكان بين هؤلاء «بدر الدين لؤلؤ» أتابك الموصل السابق الذي أسرع للمثول بين يدي هولاكو، ليعتذر عما بدر منه من أفعال سيئة، ولم يلبث أن وصل بعده سلطانا السلاجقة، ولدا «كيخسرو» وهما «كيكاوس الثاني» و«قلج أرسلان الرابع»، وحاول أولهما ـ وهو كيكاوس ـ استرضاء هولاكو والإمعان في التملق إليه حتى يتجاوز عن قصة مقاومته لـ «بيجو» في سنة (١٢٥٦م)، وكان أسلوبه في التزلف منفراً مما صدم المغول ذاتهم. ثم حدث آخر الأمر أن أرسل «الناصر يوسف» أمير حلب ودمشق ابنه «العزيز» ليؤدي إلى هولاكو واجب الخضوع والطاعة.

وأفاد هولاكو من هذه المواقف المتخاذلة والمهينة بقدر ما أفاد من دعم حلفائه «**الكرج والأرمن**»، أولئك أفادوه بسلبيتهم وهؤلاء بدعمهم، وبذلك أمكن له المضي بدون تردد نحو أهدافه التالية. فانطلق في بداية سنة (١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ)، فحاصر «ميافارقين»، ولم تمض فترة طويلة حتى تم القضاء على مقاومتها الضارية. **فدارت مذبحة في المسلمين بينما جرى الإبقاء على حياة المسيحيين، وتعرض الكامل للتعذيب والتنكيل بأن أرغموه على أن يأكل من لحم جسده حتى مات.**

وبزوال هذه الإمارة الأيوبية زالت عقبة أساسية صلبة كانت تتصدى لهجوم المغول، وأصبحت بلاد الشام أمام خطر المغول مباشرة بدون وجود أي درع يضمن لها الوقاية.



امبراطورية المغول

٤ ـ من بغداد إلى دمشق

نظم هولاكو جيشه للتوغل في سوريا، فعيَّن كتبغا لقيادة مقدمته، بينما تولى بيجو قيادة الميمنة، وتولى سنجق قيادة الميسرة، وتولى هولاكو ذاته قيادة قلب الجيش، ثم انطلق في أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٥٩م/ ٦٥٨هـ)، فتجاوز في تقدمه «نصيبين» و«حران» و«الرها» حتى بلغ «البيرة» حيث عبر نهر الفرات، **وحاولت «سروج» مقاومة تقدمه، فتعرضت للنهب والتدمير.**

وفي أوائل السنة الجديدة (١٢٦٠م/ ٦٥٩هـ)، وبينما كانت قوة من المغول تتعاون مع الكرج والأرمن بالقضاء على «ميافارقين» أطبق جيش المغول على مدينة «حلب» من كل الجهات، ولكن حامية المدينة رفضت التسليم وصممت على المقاومة. ولما كان السلطان «الناصر» في دمشق، فإنه كان يأمل بأن يكون وجود ابنه في معسكر «هولاكو» كافياً لدرء الخطر عن بلاده، وعندما تبين له أنه كان مخطئاً في تقديره للأمور، حاول اللجوء إلى طريقة جديدة أكثر مهانة وأكثر مذلة من سابقتها؛ إذ عرض على هولاكو الاعتراف بسيادة المماليك على مصر إذا وعدوه بالمساعدة. وفي الوقت ذاته حشد جيشه خارج دمشق، ودعا ابني عمه أميري «حماه» و«الكرك» لمساعدته؛ غير أنه بينما كان ينتظر في ظاهر دمشق، أخذ بعض قادته الترك في التآمر عليه، واكتشف خططهم في الوقت المناسب، وعرف هؤلاء القادة اكتشاف أمرهم، فهربوا إلى مصر مصطحبين معهم أحد إخوته، وأدّى تسللهم وفرارهم إلى إضعاف جيشه، بحيث أنه فقد كل أمل في التحرك إلى حلب لدعمها ومساعدة حاميتها.

قرَّر هولاكو اقتحام حلب في (١٨) كانون الثاني ـ يناير سنة (١٢٦٠م/ ٦٥٩هـ)، **وأظهر «توران شاه» عم «الناصر يوسف» شجاعة كبيرة وكفاءة عالية في إدارة المعركة،** غير أن الأسوار لم تلبث أن تداعت للسقوط بعد أن تعرضت للقذف مدة ستة أيام متوالية. وتدفق المغول إلى داخل المدينة، وحدث بحلب مثل ما حدث في كل مكان؛ **إذ دارت المذابح في المسلمين في حين لم يتعرض المسيحيون لسوء.** وظلت قلعة حلب تقاوم بقيادة «توران شاه» أربعة أسابيع أخرى، فلما سقطت آخر الأمر أظهر هولاكو من الفروسية ما لم يكن متوقعاً منه؛ إذ أبقى على حياة «توران شاه» لكبر سنِّه وشجاعته، ولم تتعرض حاشيته للقتل أو الإبادة. ووقع في قبضة هولاكو مقادير كبيرة من الثروة. ثم عهد هولاكو بحكومة حلب إلى «الأشرف» ـ أمير حمص السابق ـ الذي كان قدم منذ

بضعة شهور إلى معسكر «هولاكو»، وجعل من نفسه تابعاً له، وأمدَّه «هولاكو» بالمستشارين من المغول وبحامية مغولية لضبط تصرفاته.

تابع «هولاكو» تقدُّمه من حلب إلى أنطاكية، إلا أن حامية **(حصن حارم)** رفضت الاستسلام ما لم يضمن أحد أمراء المسلمين الوعد الذي قطعه هولاكو بعدم إبادة الحامية. وقام المغول بحصار الحامية حتى تم إخضاعها، وعندما اقتحم المغول الحصن، قاموا بذبح كل المسلمين على نحو ما فعلوه في كل موقع اقتحموه.

وقدم هولاكو إلى طرف أنطاكية، وزار معسكره كلٌّ من ملك أرمينية «هيثوم» وصهره أمير أنطاكية «بوهمند» لأداء الولاء وإعلان خضوعهما من جديد. ونظراً لما قامت به القوات الأرمينية من دعم لقوات المغول، فقد كافأ هولاكو ملك أرمينية بأن منحه قدراً من الغنائم التي نهبها من حلب، وطلب إلى الأمراء السلاجقة المسلمين أن يردوا له ما سبق أن استولى عليه أبوهم من الممتلكات في قيليقية. وظفر «بوهمند» أيضاً بمكافأة جزاء له على انقياده لـ «هولاكو»، فتقرر أن يعود إلى إمارة أنطاكية بعض المدن والحصون التي ظلت بأيدي المسلمين منذ زمن صلاح الدين، ومنها اللاذقية، مقابل أن يوافق بوهمند على أن يحل البطريرك اليوناني «يونيميوس» في أنطاكية مكان البطريرك اللاتيني. ومع أن ملك أرمينيا «هيثوم» لم يكن شديد الميل إلى اليونانيين، فإنه خضع لرغبة «هولاكو» الذي أدرك أهمية وجود النفوذ اليوناني في أنطاكية، علاوة على رغبة هولاكو بدعم العلاقات الودية التي كانت قائمة بينه وبين الامبراطور اليوناني في «نيقية»، مما دفعه إلى اتخاذ إجراء يزيد من قوة الروابط بينهما.

اعتبر اللاتين في أنطاكية أن انقياد «بوهمند» لرغبات «هولاكو» هو أمر مشين، نظراً لما يتضمنه من إذلال للكنيسة اللاتينية بأنطاكية. وكان للبنادقة ـ اللاتين ـ نفوذهم القوي بمملكة بيت المقدس، كما كان لهم علاقاتهم التجارية الجيدة مع مصر، وارتبطت مصلحتهم بالتجارة القادمة من الشرق الأقصى، والتي تجتاز الطريق الجنوبي عبر الخليج العربي أو البحر الأحمر.

وراقب البنادقة باهتمام كبير طرق القوافل المغولية التي تجتاز آسيا الوسطى إلى البحر الأسود، حيث أخذ الجنويون يوطدون سلطتهم بعد تحالفهم مع اليونانيين، وتطلعت (حكومة عكا) ـ وهي الممثلة لحكومة بيت المقدس ـ تلتمس حماية أحد العلمانيين.

وكان معروفاً أن لـ «شارل»، كونت آنجو ـ شقيق ملك فرنسا ـ أطماعه في البحر المتوسط، وأخذ يدبر المؤامرات فعلاً للوصول إلى عرش صقلية، فتقرر إنفاذ رسالة مثيرة له في أيار ـ مايو (١٢٦٠م) تتناول وصف أخطار الغزو المغولي وتلتمس منه التدخل.

وحدث في الوقت الذي أرسلت فيه مملكة بيت المقدس بعكا كتاباً إلى «شارل» كونت أنجو أن أضحى المغول سادة لدمشق. ولم يحاول السلطان «الناصر يوسف» أن يدافع عن عاصمته دمشق؛ ذلك أنه عندما بلغه سقوط حلب واقتراب الجيش المغولي من مدينته عمد إلى الفرار إلى مصر ليلتجىء إلى المماليك، ثم غيَّر رأيه، فألقى المغول القبض عليه حينما ركب متوجهاً إلى الشمال مرة أخرى.

وكانت «حماة» قد أرسلت في شهر شباط ـ فبراير سنة (١٢٦٠م/ ٦٥٩هـ) وفداً إلى هولاكو يحمل إليه مفاتيح المدينة، ولم تمض إلا بضعة أيام حتى احتذى بهم أعيان دمشق، فدخل «كتبغا» دمشق في أول آذار ـ مارس على رأس جيش مغولي، وصحبه ملك أرمينيا وأمير أنطاكية. **وشهد سكان عاصمة بني أمية لأول مرة منذ ستة قرون ثلاثة أمراء مسيحيين يركبون معاً بموكبهم الحافل وهم يخطرون في شوارع المدينة، على أن قلعة دمشق ظلت تقاوم الغزاة بضعة أسابيع حتى اضطرت إلى التسليم في يوم (٦) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٦٠م/ ٦٥٩هـ).**

لقد ظن أعداء الإسلام في تلك الفترة أن الإسلام قد انتهى، أو كاد يشرف على الانتهاء بسقوط المدن الثلاثة الكبيرة: بغداد، وحلب، ودمشق، وهي القواعد الأساسية للمسلمين في بلاد الشام، بعد أن تم إزالة المدن الإسلامية في كل أنحاء فارس ـ إيران ـ، ولم يكن للفتح المغولي في أنظار الصليبيين وأنصارهم أكثر من معنى واحد هو القضاء على المسلمين، وأدى ذلك إلى انتعاش المسيحيين المحليين، فالقائد المغولي «كتبغا» هو مسيحي لم يحاول إخفاء عواطفه، وأصبح المسلمون في بلاد الشام ولأول مرة منذ الفتح الإسلامي قبل خمسة قرون، وهم أقلية مغلوبة على أمرها، فباتوا وهم يتحرقون شوقاً للثأر.

أرسل «كتبغا» أثناء فصل الربيع من السنة ذاتها (سنة ١٢٦٠م/ ٦٥٩هـ) قوات من المغول، فاحتلت نابلس وغزة في فلسطين، غير أنها لم تصل إلى بيت المقدس، وبذلك أحاط المغول بالإمارات الصليبية، ولم يكن في نية «كتبغا» وقيادته المغولية مهاجمة تلك الإمارات والممالك.

وحاول قادة الفرنج ـ الصليبيون ـ تجنب إثارة المغول، إلا أنه كان من المحال عليهم إلزام جميع القادة بذلك. وكان «جوليان» سيد صيدا والشقيف أشد الصليبيين تطرفاً، وظن أن الصراع بين المسلمين والمغول يضمن له فرصة جيدة للإغارة على سهل البقاع الخصيب؛ غير أن «كتبغا» لم يكن ليسمح للفرنج بإثارة الاضطراب في التنظيم الذي أقامه حديثاً لتشديد قبضته على البلاد، فأرسل قوة من جنده، بقيادة ابن أخته، لإنزال العقاب بقوات «جوليان»، فما كان من هذا إلا أن طلب الدعم من جيرانه الفرنج، فكمنوا لابن أخت «كتبغا» وقتلوه.

وغضب «كتبغا» لما حدث، فأرسل جيشاً كبيراً وصل إلى مدينة صيدا وخربها، ولم ينقذ قلعة البحر إلا السفن الجنوية التي قدمت من صور. وأظهر ملك أرمينيا «هيثوم» غضبه عندما بلغه ما قام به صهره والذي لم يكن له سيطرة عليه، وألقى اللوم على الداوية الذين أفادوا من خسائر جوليان، فانتزعوا منه حق رهن صيدا والشقيف «واللتين كان جوليان قد رهنهما عند فرسان الداوية لقاء أموال طائلة أنفقها بما عُرف عنه من تبذير وإسراف». وزادت الأمور سوءاً عندما قام يوحنا الثاني سيد بيروت وفرسان الداوية بعد ذلك بقليل، بالإغارة على الجليل، ما دفع «كتبغا» إلى التصرف بما لا يرغب فيه؛ إذ وجه قوات مغولية إضافية عاملت الفرنج معاملة قاسية.

٥ ـ الوضع الخاص قبل عين جالوت

توفي الخان الكبير «منكو» في (١١) آب ـ أغسطس سنة (١٢٥٩م)، بينما كان يشترك مع أخيه «قبيلاي» في حملة على الصين. ولم يُعقد المجلس الوطني (القوريلتاي) لانتخاب الأخ الأصغر «أريق بوقا» لمنصب الخان الكبير إلا في ربيع سنة (١٢٦٠م). وبقي «هولاكو» خلال هذه الفترة ملتزماً جانب الحذر قرب الطرف الشرقي لأملاكه. وكان أكثر ما يخشاه «هولاكو» هو تدخل أبناء عمومته من القبيلة الذهبية، والذين كان يتزعمهم «الخان بركة» **في منطقة جبل القوقاز،** ذلك أنه بينما كان بلاط «هولاكو» يتعصب للمسيحيين ويظهر عطفه الشديد عليهم، كان «الخان بركة» يتحول إلى جانب المسلمين ويتعصب لهم وينكر ما أجراه «هولاكو» من مذابح للقضاء على المسلمين، ولم يكن باستطاعة «الخان بركة» اتخاذ أي إجراء؛ لأن القوات الرئيسية كانت مع «هولاكو». وأخيراً وقع

الاحتكاك في جبال القوقاز التي تشكِّل الحدَّ الفاصل بين منطقتي نفوذ «بركة» و«هولاكو»، فدأب «الخان بركة» وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية. وما أقدم عليه «هولاكو» بعد ذلك من محاولة لتوطيد سلطته في الجانب الشرقي لجبال القوقاز أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها «نوغاي»، ابن أخت «بركة»، بجيش «هولاكو» في سنة (١٢٦٥م) قرب نهر «تريك».

لم يبق في العالم الإسلامي سوى دولة واحدة كبيرة تستطيع مجابهة التحدي المغولي ـ الصليبي المشترك، وهذه الدولة هي دولة المماليك في مصر، إلا أن هذه الدولة كانت تعاني من المتاعب الداخلية، وقد سبق التعرض لما قامت به «شجرة الدر» في القضاء على السلطان الأيوبي بمساعدة «أيبك» أول سلاطين المماليك، ولكن «أيبك» لم يكن مطمئناً إلى وضعه رغم زواجه من «شجرة الدر» لإعطاء الصفة الشرعية لحكمه، فعمل على تعيين الطفل «الأشرف موسى» الأيوبي ليكون قسيماً له في السلطنة، ولكن هذا الطفل لم يلبث أن تحول إلى عبء ثقيل يرهق السلطة. كما أن طموح «شجرة الدر» لم يلبث أن اصطدم في سنة (١٢٥٧م) بطموح «أيبك»، ولم تكن «شجرة الدر» على استعداد للتنازل عن سلطاتها، فدبرت مؤامرة لقتل «أيبك» بالتعاون مع «الطواشية» الذين قضوا على «أيبك» أثناء استحمامه في نيسان ـ إبريل سنة (١٢٥٧م)، وكاد مصرعه يثير حرباً أهلية بين هؤلاء ـ أنصار أيبك ـ وأولئك الذين كانوا يجدون في «شجرة الدر» رمزاً للحكم الشرعي في البلاد. وكسب أعداؤها آخر الأمر المعركة، حيث تعرضت «شجرة الدر» للضرب الشديد من وصيفاتها حتى ماتت في (٢) أيار ـ مايو سنة (١٢٥٧م). وتقررت المناداة بـ «نور الدين علي» ابن السلطان «أيبك»، الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، ليكون سلطاناً على مصر، ولكن «نور الدين» كان مجرداً من الكفاءة القيادية، فعزله «المظفر قطز»، أحد رفاق أبيه القدامى، في كانون الأول ـ ديسمبر (١٢٥٩م)، وحلَّ مكانه في السلطنة؛ وإذ تولى «المظفر قطز» السلطة، عاد إلى مصر سائر المماليك، أمثال بيبرس، والذين حملتهم كراهيتهم لـ «أيبك» على الفرار إلى دمشق.

لم يكد «المظفر قطز» يسيطر على الموقف حتى وصلته سفارة من قِبَل «هولاكو» في بداية سنة (١٢٦٠م/٦٥٨هـ) تطلب إليه الخضوع لسلطان المغول والإذعان لهم، **وكان رد «المظفر قطز» هو الإقدام على قتل رسول «هولاكو»**، والبدء على الفور بالاستعداد للحرب التي لم يعد هناك مجال لتجنبها. وكانت

مصر قد أصبحت في هذه الفترة ملجأ كل القادة الذين رفضوا الخضوع للمغول والاعتراف بسلطتهم، ومعهم فلول القوات التي مزَّقتها جموع المغول، ومنها على سبيل المثال الخوارزمية وقوات أمير الكرك الأيوبي.

ووجد «المظفر قطز» أن الموقف يفرض عليه دفع إمارات الصليبيين للوقوف على الحياد من صراعه مع المغول، لا سيما وأنه سيضطر للسير على الساحل الفلسطيني، ثم المضي إلى داخل بلاد الشام متوجهاً إلى أقصى الشمال لتهديد مواصلات خصمه «كتبغا»، إذا تقدَّم إلى فلسطين، ولذا عمل على إرسال سفارة مصرية إلى «عكا» تطلب الإذن باجتياز أراضي الفرنج والحصول على المؤن اللازمة للجيش أثناء مسيره، هذا مع دراسة إمكانات تقديم دعم حربي حقيقي لجيش المسلمين ضد المغول.

وعندما وصل طلب «المظفر قطز» إلى عكا اجتمع البارونات جميعاً لمناقشة هذا الطلب، وكان البارونات يشعرون بالغضب من المغول لما أقدموا عليه منذ عهد قريب من نهب لمدينة صيدا، كما أنهم لم يثقوا بهذه القوة القادمة من الشرق، والتي حفل سجلها بالمذابح الجماعية، وبكل أنواع الجرائم البشعة.

لقد أَلِف معظم هؤلاء البارونات الحضارة الإسلامية، وكانوا يفضلون التعامل مع المسلمين على التعامل مع المسيحيين الوطنيين الذين حباهم المغول بقدر كبير من العطف. وأظهر البارونات أول الأمر ميلهم إلى أن يقدموا للسلطان «المظفر قطز» قوات مسلحة إضافية؛ غير أن مقدم طائفة الفرسان (التيوتون) ـ الألمان ـ «أنو سانجر هاوزن» كان يقدِّر سياسة الملك «هيثوم» المؤيدة للمغول، فحذرهم بأنه من الحماقة المبالغة في الوثوق بالمسلمين، ولا سيما إذا اشتد زهوهم بما يحرزونه من النصر على المغول.

والمعروف أن لطائفة الفرسان التيوتون ممتلكات كثيرة في مملكة أرمينيا، فكان من مصلحتهم تأييد سياسة «هيثوم». وكان لموقف «أنو سانجر هاوزن» تأثيره على مجلس البارونات، فتقرر رفض التحالف العسكري مع المسلمين، على أنهم وعدوا السلطان بأن يسمحوا له باجتياز أراضيهم، وأن يقدموا له المساعدات اللازمة لضمان تموين جيشه.

أنهى السلطان «المظفر قطز» استعداداته للحرب، وشكَّل مقدمة لقواته، وكلف قائده «بيبرس» بالتقدم. وانطلق «بيبرس»، فتجاوز الحدود في (٢٦) تموز ـ يوليو (١٢٦٠م)، وزحف على غزة، ولما لم يكن بغزة سوى قوة صغيرة بقيادة

«بايدار» فقد تم إرسال إنذار إلى «كتبغا» لإعلامه بتقدم القوات المصرية، وطلب إرسال الدعم، إلا أن «بيبرس» تحرك بسرعة ونجح في الاستيلاء على غزة وتدمير حاميتها قبل أن يصلها أيُّ دعم.

ولم يلبث السلطان «قطز» أن غادر مصر في شهر آب ـ أغسطس، وسار بجيشه على الطريق الساحلي، ولم تمض أكثر من أيام قليلة حتى أقام معسكره في الحدائق الواقعة خارج أسوار عكا. وقرر حاكم المدينة دعوة عدد من أمراء «قطز» لزيارة المدينة باعتبارهم ضيوف الشرف، وكان من هؤلاء الأمراء «بيبرس» الذي اقترح على «قطز» عقب عودته إلى المعسكر الاستيلاء على عكا بهجوم مباغت نظراً لضعف الحامية فيها، غير أن «قطز» لم يكن مستعداً لخيانة مَن اتفق معهم على شروط محددة، كما أنه لم يكن على استعداد لتعريض قواته لغزوات انتقامية من قِبَل الإفرنج، في حين أنه لم يحسم الصراع بعد مع المغول، العدوِّ الأساسي الذي خرج لحربه.

ومرت لحظة حرجة شعر فيها الفرنج بالخطر نتيجة لكثرة عدد زائريهم من فرسان المسلمين ورجالهم، ولكن الطمأنينة عادت لنفوسهم عندما وعدهم «المظفر قطز» ببيعهم ما يقع في أيدي المسلمين من خيول المغول بأثمان منخفضة.

ولقد كان التوقف بظاهر عكا مناسبة جيدة للمسلمين الذين كانوا في حاجة لفترة قصيرة من الراحة بعد عناء المسير الطويل في سيناء خلال أصعب شهور السنة.

٦ ـ المظفر قطز وعين جالوت

كان «كتبغا» في بعلبك عندما وصلته أخبار تحرك الجيش المصري إلى غزة، فتجهَّز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل، **ولكن ثورة اندلعت في دمشق أعاقت تحرك «كتبغا». فقد ضاق أهل دمشق ذرعاً بمضايقات الصليبيين، فهبَّ المسلمون في ثورة عاتية تحطمت أمامها دور المسيحيين وكنائسهم، وكان من المحال السيطرة على الموقف إلا بعد أن تمَّ زجُّ قوات كبيرة من المغول لإعادة الأمن إلى نصابه**، وعندما فرغ «كتبغا» من قمع ثورة عاصمة الأمويين قاد جيشه في اتجاه الجنوب.

وبينما كان «قطز» في عكا علم أن «كتبغا» عَبَر نهر الأردن ووصل إلى الجليل

الشرقي، فبادر على الفور بقيادة جيشه في اتجاه الجنوب الشرقي، واجتار مدينة الناصرة، فوصل في (٢) أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٦٠م/٦٥٨هـ) إلى «عين جالوت» حيث سبق للجيش الصليبي أن تحدَّى «صلاح الدين» في سنة (١١٨٣م، ٥٧٩هـ).

وفي صبيحة اليوم التالي، قدم الجيش المغولي، وصحب خيالة المغول كتائب كرجية وأرمنية. **وافتقر «كتبغا» إلى الكشافة وعناصر الاستطلاع، كما كان شعور السكان مناوئاً له، فلم يتمكن من معرفة الموقف الصحيح لا من الناحية الطوبوغرافية، ولا من ناحية الموقف في معسكر المسلمين، ولم يعرف أن جيش المسلمين بكامله قد أصبح قريباً جداً منه، وأن عناصر استطلاع المسلمين كانت تتابع كل تحرك لقوات المغول**، هذا في حين كان «المظفر قطز» يضع مخططه بإحكام للإيقاع بجيش المغول بكامله، وبدون أن يترك له أي فرصة للنجاة أو التملص من المعركة. ولما كانت قوات الطرفين في شبه تعادل، فقد كان من الضروري تشتيت قوات المغول واستنزافها قبل القضاء عليها. ومن أجل ذلك، عمل «المظفر قطز» على إخفاء كتلة قواته الرئيسية في التلال القريبة، ولم يُظهر للعدو إلا المقدمة التي كان يقودها «بيبرس البندقداري».

ونظم القائد المغولي «كتبغا» قواته، ولما شاهد مقدمة قوات المسلمين في مواجهته ألقى بكل قواته في المعركة حتى يستطيع حسم المعركة لمصلحته بأسرع ما يمكن. وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها «بيبرس» ورجاله، فخاض معركة قاسية ثم تظاهر بالتراجع نحو التلال، وأسرع «كتبغا» لمطاردة «بيبرس»، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى تم تطويق الجيش المغولي بكامله، وبصورة مباغتة. ومضت بضع ساعات من الصراع المرير، حاولت خلالها مجموعات من رجال «كتبغا» أن تشق لها طريقاً للخروج من دائرة الحصار، فكانت سيوف المسلمين في انتظارهم، ولم يتمكن من النجاة سوى عدد قليل من المغول. وتحول ميدان المعركة إلى مجزرة حقيقية، ورغم ما تكبَّده المسلمون من خسائر، إلا أنهم استطاعوا انتزاع النصر.

ولم يحاول «كتبغا» الفرار من ميدان المعركة، بل بقي يقاتل بعناد حتى إذا ما أحاط به فرسان المسلمين لم يكن قد بقي حوله من رجاله سوى عدد ضئيل. **وأصيب حصان «كتبغا» فلقي مصرعه، وسقط «كتبغا» إلى الأرض، فأُلقي القبض عليه، واقتيد أسيراً، وبأسره انتهت المعركة**؛ إذ جرى حمله مقيداً

بالأغلال إلى السلطان الذي سخر لسقوطه، غير أنه أجاب في اعتزاز وتحدٍّ، بعد أن تنبأ بما سيتعرض له من انتقام من قِبَل الظافرين به، فقال متباهياً بأنه يختلف عن أُمراء المماليك بأنه ظل دائماً محافظاً على ولائه لسيده، فاجتزُّوا رأسه.

مضت خمسة أيام على معركة «عين جالوت» عندما فتحت دمشق ذراعيها لاستقبال القائد المنتصر. وتولى «الأشرف الأيوبي» إمارة حمص من جديد بعد أن تخلى عن المغول، كما رجع أمير حماة الأيوبي، والذي سبق له أن فرَّ إلى مصر عندما تقدم المغول، فتولى إمارة حماة. ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى تمَّ طرد المغول من حلب، واستعاد المسلمون السيطرة على بلادهم.

وعلى الرغم من غضب «هولاكو» لتمرد بلاد الشام وخروجها عن طاعته، فإنه لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعل. وبالرغم من ذلك، فقد أرسل جيشاً قوياً في محاولة منه لاسترداد حلب (في كانون الأول ـ ديسمبر). وسيطر هذا الجيش على حلب، إلا أن المقاومة استمرت بعناد مما أرغم المغول على الانسحاب بعد أربعين يوماً، قاموا خلالها بذبح أعداد كبيرة من المسلمين انتقاماً لمصرع «كتبغا»، وكان ذلك كل ما استطاع «هولاكو» أن يفعله للانتقام لصديقه الوفي.

أما السلطان «قطز» فقد استأنف رحلة العودة إلى مصر يكلِّله المجد والغار، ولكنه أخذ يرتاب في سلوك القائد «بيبرس»، أقوى أتباعه وأشدهم بأساً، ولهذا فعندما طلب إليه «بيبرس» تعيينه نائباً على حلب، رفض «قطز» طلبه، فكان ذلك حافزاً إضافياً لإكمال المؤامرة. وحينما وصل الجيش المصري إلى حافة الدلتا، رأى «المظفر قطز» أن يمضي يوم العطلة في الخروج إلى صيد الأرانب، فخرج في جماعة من أُمرائه يوم (٢٣) تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٢٦٠م). ولم يكد الموكب يبتعد عن المعسكر حتى تقدم أحدهم من السلطان كأنه يلتمس طلباً إليه، وبينما أمسك بيد السلطان كأنه يهم بتقبيلها، اندفع «بيبرس» فأتاه من الخلف وغرس سيفه في ظهر سيده، وعندئذ أسرع المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان. وكان «أقطاي»، أتابك العساكر، في خيمة السلطان حين وصل المتآمرون، فبادر بالسؤال أيهم قام بقتل السلطان؟ فلما اعترف «بيبرس» بأنه هو الذي فعل ذلك، طلب إليه «أقطاي» أن يجلس في دست السلطنة، وكان أول مَن بذل الولاء لـ «بيبرس»، ثم حذا حذوه جميع قادة

الجيش، وعاد «بيبرس» إلى القاهرة، وقد أصبح سلطاناً على مصر[1].

تعتبر معركة «عين جالوت» من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، على الرغم من أنها، من الناحية العسكرية ومن ناحية العمليات، نموذج لكمين كبير يقوم به جيش ضد جيش آخر، وهو نموذج سبق استخدامه في التاريخ. **ولكن أهمية المعركة تكمن في قهر الجيش الذي انتقل من نصرٍ إلى نصر على امتداد أربعة آلاف ميل.** وتبرز أهمية معركة «عين جالوت» في أنها أنقذت الإسلام من أخطر تهديد تعرض له. وكان من نتيجة المعركة أيضاً دعم المغول (الإيلخانية) وحملهم على اعتناق الإسلام والدفاع عنه. وعجَّلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية؛ إذ استعاد المسلمون قدرتهم بسرعة فائقة، وأصبح بإمكانهم العمل للتخلص نهائياً من أعداء الدين. وبذلك تكون معركة «عين جالوت» نقطة التحول الحاسمة في الصراع ضد الصليبيين وضد المغول في وقت واحد، هذا بالرغم من أن الصليبيين قد رغبوا في التعاون مع التتار لتدمير المسلمين بصورة نهائية، وتبقى نتائج معركة «عين جالوت» أكثر أهمية بكثير من المعركة ذاتها.

٧ ـ ما بعد عين جالوت (الثأر)

انصرف «بيبرس» لتوطيد حكمه، وقد وضع هدفه الأول إنزال العقاب بالمسيحيين الذين سبق لهم أن قدَّموا الدعم للمغول، وتركَّز غضبه بصورة خاصة على «هيثوم» ملك أرمينيا، و«بوهمند» أمير أنطاكية، فأرسل في نهاية فصل الخريف من سنة (١٢٦١م) جيشاً للسيطرة على حلب، وشن الغارات الواسعة على أملاك أنطاكية. وتجددت الغارات في الصيف التالي، وتعرض ميناء السويدية للتخريب والنهب، وتم تهديد مدينة أنطاكية ذاتها. غير أن «هيثوم» استنجد بـ«هولاكو»، ثم وصل بقوة مؤلَّفة من المغول والأرمن في الوقت

---

(١) **السلطان بيبرس،** هو: ركن الدين بيبرس البندقداري (١٢١٠ ـ ١٢٧٧م/ ٦٠٧ ـ ٦٧٦هـ) ينتمي إلى الأتراك القبجاق. ضخم الجثة، أسمر البشرة، أزرق العينين، ذو صوت جهوري شديد الوقع، وصل إلى الشام لأول مرة بين عدد من الأرقاء، وجرى عرضه للبيع على أمير حماة الذي فحصه، فاعتقد أنه غلام جلف غليظ، غير أنه أثناء عرضه بالسوق لفت نظر أحد الأمراء المماليك وهو (البندقداري) الذي أدرك ما عليه من ذكاء. وتم شراء «بيبرس» وأُلحق بالمماليك السلطانية، فارتفع شأنه منذئذ بسرعة، فلما أحرز النصر على الفرنج سنة (١٢٤٤م) صار يُعتبَر من أكفأ عساكر المماليك، وبرهن على أنه رجل سياسي من الطراز الأول، بقدر ما برهن على كفاءة قيادية عالية في الحرب.

المناسب لإنقاذ أنطاكية. وإذ ظلت سلطة المغول في شمال شرقي سوريا من القوة ما يكفي لتهديد «بيبرس»، فقد عمل على استخدام الطرائق الدبلوماسية.

وحدث في تلك الآونة أن أعلنت «القبيلة الذهبية» بقيادة «بركة خان» الجهر بالإسلام، كما أعلن زعيمها «بركة خان» استعداده للتحالف مع «بيبرس»، كما أعلن «كيكاوس»[1] تحالفه مع «بيبرس»، وكذلك فعل «قرمان» الزعيم التركماني في شرقي «قونية»، وأصبح باستطاعة «بيبرس» الإفادة من هؤلاء الحلفاء للضغط بصورة مستمرة على أرمينية.

ما أن رجع «بيبرس» من الشمال حتى استقبل في نهاية سنة (١٢٦١م) سفارة تضم «يوحنا» كونت يافا، و«يوحنا» سيد بيروت؛ وذلك للتفاوض في عودة أسرى الفرنج الذين وقعوا في أيدي المسلمين في السنوات الأخيرة، وفي استيفاء الوعد الذي قطعه السلطان «أيبك» بإعادة «زرين» في «الجليل» إليهم، أو دفع تعويض عنها. ورفض «بيبرس» الاستماع إليهما برغم ما كان يظهره من ميل إلى «يوحنا» كونت يافا. وفي شباط ـ فبراير سنة (١٢٦٣م) قام «يوحنا» كونت يافا بزيارة أخرى إلى السلطان الذي كان يعسكر في تلك الفترة قرب جبل الطور، فحصل منه على وعد بعقد هدنة وتبادل الأسرى، غير أن الداوية والأسبتارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم، نظراً لأنهم كانوا صناعاً مهرة، ولِمَا لهم من أهمية مادية للطائفتين.

وأصيب «بيبرس» ذاته بالذهول لهذا النَّهم الاستغلالي، فقطع المفاوضات، ومضى إلى بلاد الفرنج. وبعد أن نهب «الناصرة»، ودمر كنيسة العذراء، شنَّ هجوماً مباغتاً على عكا في (٤) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٦٣م/ ٦٦٢هـ)، فدار قتال عنيف خارج أسوار عكا، وكبَّد الفرنج خسائر فادحة، على أن «بيبرس» لم يكن في حينها مستعداً لمنازلة المدينة فانسحب من أرباضها. وساور الناس الشكوك في أنه رتب أن يتعاون معه «فيليب مونتفورت» والجنويون من صور، غير أن ضمير هؤلاء منعهم في آخر لحظة من التعاون معه.

بقيت الحدود بين المسلمين وإمارات الفرنج ميداناً للإغارات من الجانبين

---

(١) كان «كيكاوس» هذا أحد سلطاني السلاجقة بالأناضول، سبق أن حرمه التحالف بين المغول والبيزنطيين من جهة، وأخيه «قلج أرسلان» من جهة أخرى الحكم في بلاده، فهرب إلى بلاط «بركة خان» ثم عاد إلى بلاده بعد أن تلقى مساعدة من القبيلة الذهبية و«بيبرس».

المتصارعين، وحدث في نيسان ـ إبريل سنة (١٢٦١م) أن قام سيد أرسوف «باليان إبلين» بتأجير إقطاعه للأسبتارية، بعد أن أدرك أنه عاجز عن الدفاع لحمايته.

وفي بداية سنة (١٢٦٤م) قبل الداوية والأسبتارية توحيد قواتهما للاستيلاء على حصن «مجدو» الذي أطلق عليه الصليبيون اسم «حصن ليزون»، ثم قامت الطائفتان بعد بضعة شهور بإغارة مشتركة على «عسقلان»، بينما حدث في الخريف أن نجح المقاتلون الفرنسيون الذين دفع لهم أجورهم «القديس لويس» في التوغل حتى بلغوا أرباض بيسان، ورد المسلمون على ذلك بأن شدَّدوا في نهب قرى الفرنج الواقعة إلى الجنوب من جبل الكرمل، حتى لم تعد الحياة مأمونة.

خرج «بيبرس» من مصر على رأس جيش كثيف في بداية سنة (١٢٦٥م/ ٦٦٤هـ)، بعد أن بلغه استعداد المغول للعدوان على شمال سوريا في ذلك الشتاء، وعندما وصل إلى جنوب سوريا بلغه أن المقاتلين في شمال الشام منعوهم من تحقيق أهدافهم، فأصبح باستطاعته استخدام جيشه لمهاجمة الفرنج في الجنوب. وبعد أن تظاهر بالتلهي في حملة صيد في التلال الواقعة وراء «أرسوف»، **ظهر مباغتة أمام قيسارية، فسقطت المدينة على الفور في (٢٧) شباط ـ فبراير سنة (١٢٦٥م)**، بينما صمدت القلعة مدة أسبوع، فأذعنت الحامية في (٤) آذار ـ مارس سنة (١٢٦٥م)، وسمح لها «بيبرس» بالخروج من غير أن تتعرض للأذى، غير أنه أمر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتهما بالأرض، **ثم ظهر المقاتلون المسلمون في حيفا بعد بضعة أيام**، فهرع السكان الذين تلقوا الإنذار في الوقت المناسب إلى السفن الراسية بالميناء بعد أن تخلوا عن المدينة والقلعة اللتين جرى تدميرهما عن آخرهما.

وفي تلك الأثناء هاجم «بيبرس» قلعة «عثليت» الضخمة التابعة للداوية، وأمر بإشعال الحريق في القرية الواقعة خارج الأسوار، أما القلعة، فإنها نجحت في مقاومتها له. وفي (٢١) آذار ـ مارس تخلَّى بيبرس عن حصارها ثم زحف على «أرسوف» التي سبق للأسبتارية أن شحنوها بالمقاتلين والمؤن، وكان بالقلعة نحو مائتين وسبعين من الفرسان الذين استبسلوا في القتال، غير أن المدينة السفلى سقطت في (٢٦) نيسان ـ إبريل بعد أن دمرت أسوارها أدوات الحصار التي نصبها السلطان «بيبرس»، ولم تنقض ثلاثة أيام حتى استسلم قائد قلعة

«أرسوف» الذي فقد ثلث عدد فرسانه[1].

وحل الدور على «عكا»، غير أن الوصي «هيو» من سادة أنطاكية، والذي كان بقبرص، هرع بسرعة فحشد كل مَن استطاع جمعه من الرجال، في الجزيرة، واجتاز بهم البحر. فلما تحرك «بيبرس» مرة أخرى من «أرسوف» في اتجاه الشمال، ظهر له أن «هيو» قد هبط إلى «عكا» في (٢٥) نيسان ـ إبريل، فعاد الجيش المصري إلى بلاده بعد أن ترك حاميات قوية واجبها حماية البلاد التي تم فتحها حديثاً. وبادر «بيبرس» بالكتابة عن أخبار انتصاراته إلى ملك صقليا «مانفرد»، الذي لا زال بلاط مصر يحتفظ بالصداقة التي أقامها أبوه «فريدريك الثاني».

كان «قبيلاي» قد منح أخاه «هولاكو» لقب «إيلخان»، وجعل له الحكم وراثياً على ممتلكات المغول في جنوب غربي آسيا. ومع أن مشاكله مع «القبيلة الذهبية» ومغول التركستان الذين اعتنقوا أيضاً الإسلام منعته من مواصلة شن هجوم عنيف على المماليك، فإنه لا زال يدَّخر من القوة ما يكفي لمنع المماليك من مهاجمة حلفائه.

وفي تموز ـ يوليو سنة (١٢٦٤م) عقد آخر «قوريلتاي» في معسكره قرب «تبريز»، وشهد الاجتماع كل أتباعه، ومنهم «داود» ملك الكرج، و«هيثوم» ملك أرمينيا، و«بوهمند» أمير أنطاكية. ولكن هذا الاجتماع لم يحقق نتائج مهمة، فقد مات «هولاكو» في أذربيجان يوم (٨) شباط ـ فبراير سنة (١٢٦٥م)، وتولت زوجته «طقز خاتون» ولاية العرش الذي احتفظت به لابن «هولاكو» الأثير عنده «أباقا»، والذي كان والياً على تركستان. وماتت «طقز خاتون» في صيف السنة ذاتها، فاشتدَّ حزن المسيحيين عليها، غير أن المسلمين شعروا بأنهم تخلصوا من أكثر الأعداء الحاقدين عليهم، «هولاكو» و«طقز خاتون»، وأصبح باستطاعة السلطان «بيبرس» متابعة جهوده الدبلوماسية التي خلقت المتاعب لـ «الإيلخان أباقا» بعد أن أتعبت «هولاكو» من قَبْله، مع العمل في الوقت ذاته لاستئناف حملاته ضد الصليبيين من دون أن يخشى تدخلاً خارجياً.

---

(١) كان وقع سقوط القلعتين في قبضة المسلمين مريراً على نفوس الفرنج، وأوحى إلى شاعر الداوية الغنائي ـ من التروبادور ـ وهو «ريسو برنوميل» بأن ينظم قصيدة بالغة الحزن والأسى يشكو فيها أن المسيح أضحى فيما يظهر مسروراً لما حلَّ بالمسيحيين من ذلَّة ومهانة.
Gestes Des Chiprois, p. 171.

قام «الخان بركة» بالإغارة على حدود «أباقا» ابن «هولاكو» في أوائل صيف سنة (١٢٦٦م)، وانصرف «أباقا» إلى ردِّ الإغارة عن فارس. وفي هذه الفترة خرج من مصر جيشان كبيران تولى قيادة الجيش الأول «الظافر بيبرس»، وتولى قيادة الجيش الثاني أكثر قادة المماليك كفاءة وهو «**سيف الدين قلاوون**»، ومضيا لتنفيذ واجبين متباعدين.

لم تمض فترة طويلة حتى ظهر الجيش الذي يقوده «بيبرس» أمام عكا في الأول من حزيران ـ يونيو (١٢٦٦م)، وكانت حامية عكا التي ينفق عليها ملك فرنسا «لويس التاسع» قد تلقت منذ عهد قريب دعماً قوياً من فرنسا، وبذلك استطاعت مقاومة هجوم جيش «بيبرس» الذي عمل عندما عرف قوة الحامية في عكا، على تحويل مركز ثقل هجومه، فقام بتظاهرة أمام حصن «مونتفورت» الذي كان تحت حماية الفرسان التيوتون ـ الألمان ـ، ثم زحف بصورة مباغتة على «صفد» التي تحكم الداوية من قلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل. والمعروف أن تحصينات «صفد» قد تم تجديدها بكاملها منذ خمس وعشرين سنة، وأن الحامية كانت وفيرة العدد، ولو أن عدداً كبيراً منهم كانوا من المحاربين المسيحيين الوطنيين أو من المهجنين. وعلى هذا فقد نجحت حامية «صفد» في إحباط مجموعة الهجمات التي شنها «بيبرس» في أيام (٧ و١٣ و١٧) تموز ـ يوليو (١٢٦٦م). وعندئذ أعلن «بيبرس» عن طريق (المنادين) بأنه يمنح العفو التام لكل مَن يستسلم له من العساكر الوطنيين، وكان لذلك أثره حيث التحق عدد كبير من هؤلاء بمقر قيادة «بيبرس». وفي الوقت ذاته حدث انشقاق بين فرسان الداوية تحول إلى صراع مرير، وأخذ المسيحيون الوطنيون في الفرار من الجيش.

ولم يلبث الداوية أن أدركوا أنه من المحال عليهم الاحتفاظ بالقلعة، فأرسلوا في نهاية الشهر جندياً من أصل سوري، اعتقدوا ولاءه وإخلاصه، بمهمة الذهاب إلى معسكر «بيبرس» وعرض تسليم الحصن، وعاد السوري واسمه «ليو» بوعد من السلطان بأن تنسحب الحامية إلى عكا بدون أن تتعرض للأذى، وتحول «ليو» عن ديانته فاعتنق الإسلام.

وباستيلاء «بيبرس» على «صفد» أصبح باستطاعته السيطرة على الجليل، وقد أفاد من ذلك، فقام بالهجوم مباشرة على «**تبنين**»، فسقطت في قبضته بدون قتال، ثم أرسل من «تبنين» قوة لتدمير «**قارة**» المسيحية والواقعة بين حمص

ودمشق بسبب صلتها بالإفرنج ومناصرتها لهم، وأمر بقتل البالغين واسترقاق الأطفال. وعندما أرسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة القتلى، أغلظ في رفض طلبهم، وقال لهم بأنهم «إذا كانوا يلتمسون جثث الشهداء فسوف يجدونها في وطنهم»، ولتنفيذ تهديده، هبط إلى الساحل وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين.

وعندما انسحب «بيبرس» بجيشه في فصل الخريف تم تجميع فرسان الطوائف الدينية العسكرية والكتيبة الفرنسية للقيام بهجوم مضاد على الجليل، غير أن مقدمة هذا الجيش وقعت في كمين أقامته حامية صفد يوم (٢٨) تشرين الأول ـ أكتوبر، بينما هاجم العرب معسكر الفرنج ما اضطر قوات الإفرنج للانسحاب بعد أن تكبدت خسائر فادحة.

بينما كان «بيبرس» يقود الحرب في الجليل، كان الأمير «قلاوون» يقوم بإغارة مباغتة في اتجاه طرابلس استولى أثناءها على حصني «القليعة» و«حالبة» ومدينة «عرقة»، التي تحكمت في الطريق القادم من «البقيعة» إلى طرابلس، ثم أسرع بقيادة جيشه في اتجاه الشمال ليلحق بجيش «المنصور» أمير حمص، وتوجهت قواتهما المشتركة بعدئذ إلى حلب، ثم انحرفت نحو الغرب إلى «قليقية». وكان ملك أرمينيا (الملك هيثوم) يتوقع قيام المسلمين بالهجوم، وحاول عند سماع نبأ وفاة (هولاكو) أن يصالح «بيبرس» سنة (١٢٦٣م). ولما كانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على ما يَرِد إليها من أخشاب من جنوب الأناضول ولبنان، ونظراً لوقوع هذه الغابات تحت سيطرة «هيثوم» وصهره «بوهمند» أمير أنطاكية، فقد كانا يأملان باستخدام هذه الوسيلة للمساومة، غير أن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى إمعان «بيبرس» في عزمه على القتال.

وفي ربيع سنة (١٢٦٦م) توجَّه هيثوم إلى بلاط «الإيلخان» في تبريز، بعد أن علم أن هجوم قوات المسلمين قد بات وشيك الوقوع. وبينما كان في تبريز يلتمس المساعدة من المغول، هبت العاصفة على «قليقية». كان الجيش الأرمني بقيادة ولدي «هيثوم»، وهما «ليو» و«ثوروس». وعندما عبرت قوات المسلمين جبال الأمانوس أسرع الأرمن لاعتراض طريقهم عند هبوطهم إلى سهل «قليقية». ودارت المعركة الحاسمة يوم (٢٤) آب ـ أغسطس، وتعرض الأرمن للهزيمة الساحقة، وسقط «ثوروس» قتيلاً، بينما وقع «ليو» في الأسر. وانساب المسلمون المظفرون في «قليقية»، فقام «قلاوون» بتدمير «أياس» و«أذنة»

و«طرسوس»، بينما قام المنصور أمير جيشهم، فتجاوز «المصيصة» إلى عاصمة الأرمن «سيس»، حيث تم تدمير القصر الملكي ونهبه، وأُشعلت النيران في الكاتدرائية، وقُتل بضعة آلاف من السكان. وعادت قوات المسلمين إلى حلب في نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر، وهي تحمل معها نحو أربعين ألف أسير وقافلة ضخمة من الغنائم. وأسرع الملك «هيثوم» بالعودة من بلاط «الإيلخان»، ومعه قوة من المغول، فألفى ولي عهده أسيراً وعاصمته خراباً وبلاده بأكملها مستباحة، ولم تنهض مملكة «قليقية» من هذه الكارثة أبداً، ودفعت ثمن تحالفها مع المغول.

أرسل «بيبرس» قواته في خريف سنة(١٢٦٦م/ ٦٦٥هـ) لمهاجمة أنطاكية بعد أن تخلص من الأرمن، غير أن قادته لم ينفذوا الواجب على النحو الذي كان يريده «بيبرس»، ما أثار غضبه، أما هو فإنه لم يترك للفرنج فرصة للراحة. وظهر مرة أخرى أمام عكا في أيار ـ مايو سنة (١٢٦٧م/ ٦٦٦هـ). ورفع «بيبرس» الرايات التي سبق أن استولى عليها من الداوية والأسبتارية ما ساعد قواته على المسير حتى أسوار عكا قبل أن تنكشف الخدعة، ولكن حامية عكا استطاعت بالرغم من ذلك إحباط الهجوم، ولكنها تكبَّدت مقابل ذلك خسائر فادحة جداً. وزاد الأمر سوءاً ما حدث من صراع بين الصليبيين أنفسهم، البنادقة ضد الجنويين، ما جعل الحياة في عكا بالغة القسوة.

خرج «بيبرس» مرة أخرى من مصر في أوائل سنة (١٢٦٨م/ ٦٦٧هـ)، ولم يبق للمسيحيين من ممتلكات جنوبي عكا سوى قلعة «عثليت» التي امتلكها الداوية، ومدينة «يافا» التي كانت في حوزة رجل القانون «يوحنا إبلين»، الذي استطاع دائماً الحصول على احترام المسلمين. إلا أن «يوحنا» هذا مات في ربيع سنة (١٢٦٦م)، فزجَّ «بيبرس» قواته التي ظهرت مباغتة أمام «يافا» في (٧) آذار ـ مارس سنة (١٢٦٦م)، ونجحت في الاستيلاء عليها بعد اثنتي عشرة ساعة من القتال المرير، وسمح للحامية بالالتجاء إلى عكا، ودمَّر القلعة، وأمر بإرسال ما تحويه من خشب ورخام إلى القاهرة من أجل استخدامها في بناء المسجد الكبير الجديد الذي كان «بيبرس» يشيده. وكان الهدف التالي لـ «بيبرس»، قلعة «الشقيف» التي نظم «بيبرس» الحصار حولها وأقام عليها المنجنيقات تقذفها لمدة عشرة أيام متواصلة، فاستسلمت الحامية في (١٥) نيسان ـ إبريل، وسمح «بيبرس» للأطفال والنساء بالانتقال إلى صور، وأصلح «بيبرس» القلعة وشحنها

بقوة كبيرة من العساكر، ثم توجه إلى وادي العاصي. ووصل في (١٤) أيار ـ مايو إلى أنطاكية حيث قسم قواته إلى ثلاثة جيوش: توجه جيش للاستيلاء على «السويدية» وقطع الاتصال بين أنطاكية والبحر، وتحرك الجيش الثاني إلى دروب الشام لمنع كل مساعدة تصل إلى أنطاكية من قليقية، أما الجيش الرئيسي بقيادة «بيبرس» ذاته، فإنه أخذ يقترب من المدينة لتطويقها.

ولما كان أمير أنطاكية «بوهمند» في طرابلس، فقد تولى قيادة الحامية المدافعة عن أنطاكية «الكندسطبل سيمون مانسل»، وكان قد تم إصلاح أسوار أنطاكية، بحيث أنها أصبحت قادرة على ضمان نوع من الحماية، إلا أن قائد الحامية ارتكب حماقة كبيرة؛ إذ قاد قواته لقتال المسلمين خارج المدينة، وهو نوع من القتال يجيده المسلمون أكثر مما يتقنه الفرنج، وسقط قائد الحامية أسيراً، فاستخدمه «بيبرس» لإقناع الحامية بالاستسلام، غير أن نوَّابه داخل الأسوار رفضوا الإصغاء إلى أوامره.

وقام المسلمون بعد فشل المفاوضات بشن هجوم شامل من كل جهات أنطاكية يوم (١٨) أيار ـ مايو سنة (١٢٦٨م/ ٦٦٧هـ)، وبعد أن اشتدَّ القتال حدثت ثغرة حيث امتدت الأسوار على منحدر جبل «سلبيوس»، وتدفق منها المسلمون إلى داخل المدينة. وقرر «بيبرس» إغلاق أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وجرت مذبحة لم تتمكن في كل الأحوال منافسة تلك المذابح التي قام بها المغول وأنصارهم من قوات أنطاكية وأرمينية، ولو أن المسلمين لم يعتادوا في حروبهم إجراء مثل هذه المذابح.

وفي (١٩) أيار ـ مايو، أمر السلطان بجمع الغنائم وتوزيعها. وظهر أن مدينة أنطاكية هي من أغنى مدن الصليبيين؛ إذ تجمَّع فيها كل ما نهبه المقاتلون في حروبهم مع المسلمين، وجاء المسلمون الآن لاسترداد أموالهم وكنوزهم. وتوافر بها من النقود الذهبية والفضية ما صار يوزَّع بالطاسات ـ كما يقول المؤرخ المسلم «أبو الفداء» ـ وانتهت حياة هذه الإمارة الصليبية التي عاشت مائة وسبعين سنة خارج حظيرة الإسلام.

ولم تمض سوى فترة قصيرة على سقوط أنطاكية حتى استقر في دمشق مقر كل من الكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية بسوريا. وقرر الداوية بعد أن ضَعُفت أرمينيا ودُمِّرت أنطاكية أنه من المحال عليهم الاحتفاظ بقلاعهم في جبال الأمانوس، فجلوا بدون قتال عن «بغراس» وقلعة «لاروش دي روسول»، ولم

يبق من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية، التي أصبحت جيباً معزولاً.

ووجد «بيبرس» أنه من الضروري التوقف قليلاً بعد إزالة أول إمارة صليبية أقامها الفرنج في الشام، لا سيما وأنه ظهرت بعض الشواهد التي تشير إلى احتمال قيام المغول بهجوم جديد، كما ترددت شائعات تفيد بأن ملك فرنسا أخذ في الإعداد لحملة صليبية ضخمة[١]. فلما أظهر الفرنج رغبة في عقد هدنة، أرسل «بيبرس» سفارة إلى عكا تعرض وقف العداوة بصفة مؤقتة.

وحاول «هيو» ملك قبرص والوصي على بيت المقدس الحصول على بعض الامتيازات عن طريق التظاهر بالقوة، فقام باستعراض قواته أمام سفير «بيبرس»، محيي الدين، ولكن هذا أجاب في غير اكتراث «بأن كل هذا الجيش ليس في كثرة عدد الأسرى المسيحيين في القاهرة». وتم عقد اتفاق للهدنة لمدة سنة، ولكن هذه الهدنة لم تكن لتمنع القيام بإغارات صغيرة في ربيع سنة (١٢٦٩م) على البلاد التي لا زالت تحت قبضة الصليبيين.

حاول الفرنج تنظيم أمورهم وإزالة الخلافات القائمة فيما بينهم، وقام «جيمس الأول» ملك برشلونة بتوجيه حملة إلى الشرق، ولكنها لم تفلح في التأثير على الموقف؛ إذ استطاع «بيبرس» نصب كمين بالقرب من عكا في نهاية كانون الأول ـ ديسمبر (١٢٩٦م) دمَّر فيه قوات الصليبيين الذين غادروا عكا لقتال المسلمين تدميراً كاملاً، ولم يلبث بعدها ابنا ملك برشلونة أن عادا إلى بلادهما من دون تحقيق أيٍّ نتيجة.

وفي تلك الأثناء بقيت الاتصالات بين المغول والصليبيين مستمرة، ولكن المساعدة الوحيدة التي استطاع الإيلخان «أباقا» تقديمها للمسيحيين هي تقديم قائد من أشهر قادة المماليك إلى ملك أرمينيا، وهو القائد «شمس الدين سنقر الأشقر» ـ الباشق الأحمر ـ والذي أسره المغول في حلب. ووافق «بيبرس» على

(١) حاول ملك أراجون «جيمس الأول» الاشتراك مع البابا في إثارة حملة صليبية جديدة بالتعاون مع المغول، فأوفد سفارة برئاسة «جيمس ألاريك بربينيان» إلى بلاط «الإيلخان أباقا» في سنة (١٢٦٧م) للإعلام عن قرب قيام حملة يقودها ملك برشلونة وملك فرنسا، واقتراح عقد اتفاق عسكري مع «الإيلخان»، ولكن «أباقا» لم يكن في وضع يسمح له بقطع وعد بسبب انصرافه لقتال القبيلة الذهبية (مسلمي المغول)، على أن «أباقا» كتب إلى ملك فرنسا «القديس لويس» يعاهده في سنة (١٢٧٠م) على بذل كل دعم عسكري ممكن إذا ما قدمت حملة صليبية إلى فلسطين.

أن يطلق سراح ابن ملك أرمينيا «ليو» مقابل إطلاق سراح «شمس الدين سنقر الأشقر»، كما وافق على عقد هدنة مع ملك أرمينيا «هيثوم»، بشرط أن يسلِّمه الأرمن حصون جبال الأمانوس، وهي «دربساك» و«بهسنا» و«رعبان»، وتمَّ إبرام المعاهدة في آب ـ أغسطس سنة (١٢٦٨م).

وفي سنة (١٢٧٠م) قام ملك فرنسا بقيادة حملة صليبية جديدة لم تتوجه إلى فلسطين، وإنما توجهت إلى «تونس»، ولكن قائدها لم يلبث أن مات تحت أسوار «تونس»، وبموت الملك رجعت الحملة من دون تحقيق أي نتيجة.

وتحالف «بيبرس» مع «الإسماعيلية» الذين أنكروا تحالف الصليبيين مع المغول الذين عملوا على تدميرهم في فارس وفي الشام، كما جاءت فتوحات «بيبرس» لتحررهم من الأتاوة التي كانوا يدفعون للأسبتارية. وعلى أساس هذا الاتفاق قام «الإسماعيلية» بتنظيم الاغتيالات ضد أولئك الذين كانوا يشكِّلون تهديداً للمسلمين، ومنهم «فيليب مونتفورت» الذي أُجريت محاولة اغتياله في كنيسة صور مع ابنه يوم الأحد (١٧) آب ـ أغسطس (١٢٧٠م). وتعاون «الإسماعيلية» مع «بيبرس» في الاستيلاء على «القلعة البيضاء» في «صافيتا» في شباط ـ فبراير (١٢٧١م)، وحصن الأكراد أو «قلعة الحصن» في (٣) آذار ـ مارس (١٢٧١م)، والتي اشترك فيها جيش حماة بقيادة أمير المدينة المنصور، وتبع ذلك الاستيلاء على «عكار» وقلعة الأسبتارية جنوب البقيعة التي سقطت في أول أيار ـ مايو بعد حصار استمرَّ أسبوعين.

قَدِم إلى فلسطين بعد ذلك ولي عهد إنكلترا «الأمير إدوارد»، الذي وصل إلى عكا في (٩) أيار ـ مايو سنة (١٢٧١م)، وحاول إعادة تنظيم الأمور وشن الحرب على المسلمين وإثارة الحماسة، لكنه وجد أنه من المحال عليه تغيير الموقف الذي وصل إلى مرحلة كبيرة من التدهور، ولهذا جرَّب من جديد استثارة المغول، **فأرسل سفارة إلى الإيلخان «أباقا» تتألف من ثلاثة رجال إنكليز، هم «ريجنالد رسل» و«جودفري ويلبس» و«يوحنا باركر»**.

وافق «أباقا» على تقديم كل دعم ممكن، وعمل على سحب عشرة آلاف فارس من حامياته في بلاد الأناضول وقادها إلى سوريا، عن طريق «عين تاب» في تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٢٧١م). ونجح «أباقا» في هزيمة حامية التركمان التي كانت تدافع عن حلب، وتابع المغول تقدمهم إلى «معرة النعمان» و«أفامية».

وكان «بيبرس» وقتها في «دمشق» ومعه جيش كثيف، ولكنه بالرغم من ذلك طلب الإمداد من مصر، ثم أخذ في التحرك نحو الشمال في (١٢) تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٢٧١م)؛ وما أن علم المغول بذلك حتى أخذوا في الانسحاب؛ إذ لم يكن باستطاعتهم مجابهة جيش «بيبرس»، وفي الوقت ذاته تمرَّد أتباعهم من الترك المسلمين في بلاد الأناضول، واكتفى المغول بما حصلوا عليه من غنائم.

وأفاد ولي عهد إنكلترا «إدوارد» من انصراف «بيبرس» لقتال المغول، فقاد الفرنج عبر جبال الكرمل وأغار على سهل«شارون»، ولكنه وجد أنه من الصعب عليه احتلال أصغر حصن في الجليل، فاضطر إلى الانسحاب من دون تحقيق أي نتيجة. وتوسط «هيو» ملك قبرص والوصي على بيت المقدس، في الصلح بين «بيبرس» و«إدوارد»، وتم إبرام الصلح في (٢٢) أيار ـ مايو سنة (١٢٧٢م/ ٦٧١هـ)، وذلك في قيسارية، بين السلطان «بيبرس» وحكومة عكا، كفل الصلح السلام لمملكة بيت المقدس بعكا لمدة عشر سنوات وعشرة شهور. وتعرض «إدوارد» بعد ذلك لمحاولة اغتيال، وهو في حجرة نومه، يوم (١٦) حزيران ـ يونيو سنة (١٢٧٢م)، وما أن تماثل للشفاء حتى أقلع من عكا في (٢٢) أيلول ـ سبتمبر، وعاد إلى إنكلترا فألفى نفسه ملكاً عليها.

أدرك البابا «غريغوري» العاشر خطورة ما وصلت إليه الإمارات الصليبية، فأمضى الفترة بين سنتي (١٢٧٢م و١٢٧٤م) في جمع التقارير عن الموقف ودراستها، ومن ثم عُقِد «مجمع ليون» في أيار ـ مايو سنة (١٢٧٤م)، واتُّخِذت مقررات لحمل أمراء أوروبا، الذين لم يُظهروا حماسة لإرسال حملات جديدة، من أجل تنفيذ ما أصدره المجمع من قرارات (جليلة الشأن).

ولكن شيئاً لم يحدث، سوى زيادة نفوذ فرنسا في الشرق، الأمر الذي كان يساعد «بيبرس» على الاطمئنان للمضي في مشروعاته بدون أن يتعرض لتهديد التدخل من قِبَل الغرب. وكان الانقسام في معسكر الغرب هو أفضل ضمانة لانصراف الصليبيين عن المسلمين.

وعلى هذا قاد «بيبرس» جيشه في ربيع سنة (١٢٧٥م)، فأغار على قليقية ودمَّر المدن الواقعة في السهول، وبعد سنتين أغار على بلاد الأناضول، حيث مملكة السلاجقة الخاضعة للإيلخان «أباقا». وأنزل «بيبرس» بجيش المغول هزيمة ساحقة في (١٨) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٧٧م)، ولم تنقضِ سوى خمسة أيام

حتى دخل «بيبرس» قيصرية «مازاكا» - قيصرية اروم -. وأظهر السلاحقة، المغلوبون على أمرهم، بانتصار قوات المسلمين على المغول، وهذا ما أغضب «أباقا» الذي جرَّد جيشاً قوياً وصل به إلى الأناضول، بعد أن كان «بيبرس» قد انسحب منها وعاد إلى بلاد الشام، فتعرضت المملكة السلجوقية من جديد لانتقام المغول.

لم يعمر «بيبرس» بعد ذلك طويلاً، فتوفي في أول تموز - يوليو سنة (١٢٧٧م)، وزال بوفاته أكبر قائد عمل طويلاً للمسلمين بعد «صلاح الدين».

عندما تولى «الظاهر بيبرس» السلطنة، كانت ممتلكات الفرنج تمتد على الساحل من غزة حتى قليقية، وما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميها، وعندما توفي بعد سبع عشرة سنة من حكمه لم يبق للصليبيين أكثر من بضع مدن على امتداد الساحل، أبرزها عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وأنطرطوس، فضلاً عن مدينة اللاذقية المعزولة وقلعتي عثليت والمرقب، ولم يعش «بيبرس» ليشهد اختفاءها التام، غير أنه جعل ذلك أمراً لا مفرَّ منه.

واستطاع «بيبرس» انتزاع إعجاب المسلمين بما أظهره من الغيرة على الدين والالتزام بالعمل له، علاوة على ما تميَّز به من خصائص أبرزها كونه جندياً لامعاً وسياسياً بارعاً وإدارياً حكيماً، لم ينتقص من قدره أنه جرى عليه الرق التزاماً بقواعد الشريعة الإسلامية، ولم ينتقص من قيمته أنه كان عبداً قبل ذلك، فقد حرَّر نفسه ثم عمل على تحرير المسلمين، وقد حفلت كتب السيرة والتراث الخالد بكثير من الشواهد عن عظمته وكفاءته.

وما هو مهم بالنسبة لموضوع البحث هنا هو أنه كان من أعظم حكام عصره في السياسة والحرب. أما اهتمامه بالعلوم والفنون والبناء وإحياء الدين والغيرة عليه، فهي أمور متداخلة كلها في إطار «تأمين القاعدة الصلبة» لمجابهة التحديات في أخطر فترة عرفها المسلمون حتى تلك الفترة.



الفَصْلُ الثَّالِث

فن الحرب والحروب الصليبية

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

٣ ـ بناء المجتمع وإعادة التنظيم

٤ ـ وضوح الهدف

٥ ـ الحرص على المسلمين

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

ب ـ في مبادىء الحرب

١ـ المباغتة

٢ ـ أمن العمل

٣ ـ القدرة الحركية

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

٦ ـ المحافظة على الهدف

٧ ـ المؤخرات والشؤون الإدارية

جـ ـ قادة المسلمين وفن القيامة

١ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

٢ ـ التحريض على الجهاد

٣ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر

٤ ـ القرارات الصحيحة

٥ ـ إدارة الحرب وحماية المسلمين المجاهدين في سبيل الله

د ـ المجاهدون في سبيل الله

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

٢ ـ الروح المعنوية العالية

٣ ـ القدرة على تحمل الصعاب

٤ ـ الانضباط والطاعة

٥ ـ حرية العمل العسكري والسياسي

فن الحرب والحروب الصليبية

مجموعة من الخصائص تبرزها مسيرة الأحداث في الحروب الصليبية، منها ما يتعلق بالسياسة الاستراتيجية (أو السياسة العليا)، ومنها ما يرتبط بأفق العمليات (أو الأعمال القتالية)، ومنها أيضاً ما يتصل بتنفيذ الواجبات القتالية تعبوياً (تكتيكياً). **ولئن قام المسلمون في أيام الفتوحات بتطبيق الأعمال القتالية في إطار ما يمكن تسميته وفق المصطلحات الحديثة بـ «الهجوم الاستراتيجي»، فقد عمل المسلمون في أيام الحروب الصليبية بتطبيق ما يمكن تسميته بـ «الدفاع الاستراتيجي»، ولكن بقيت الأعمال في الحالين أعمالاً هجومية على مستوى العمليات**، فلم يكن العرب المسلمون الأوائل، ولم يكن أحفادهم من المسلمين ينتظرون قدوم العدو، وإنما كانوا يخرجون بحثاً عن المعركة، ولم يكونوا في الحالين يعتصمون وراء التحصينات، وإنما كانوا يعتمدون على تطوير حرب الحركة من أجل الوصول إلى الحسم، هذا في حين كان الفرنج ـ على الأغلب ـ يعتمدون سياسة استراتيجية مغايرة؛ إذ قاموا بهجوم استراتيجي وقادوا أعمالهم القتالية في إطاردفاعي (عمليات دفاعية لهجوم استراتيجي)، ويظهر ذلك من حرص الصليبيين على تنظيم المواقع الدفاعية والاهتمام بالتحصينات وبناء القلاع بقدر ما يظهر حرص المسلمين على تدمير المواقع الدفاعية وإزالة التحصينات وتدمير القلاع. ولكن بالرغم من هذا الإطار العام، فهناك ظواهر بارزة في التحول الاستراتيجي الذي جاء في أعقاب معركة حطين، ثم برز بصورة أكثر وضوحاً بعد معركة «عين جالوت»، **وهو انتقال المسلمين من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي، وانتقال الفرنج من الهجوم الاستراتيجي إلى الدفاع الاستراتيجي، وقد أخذ هذا التحول شكلاً مميزاً يمكن أن يُطلق عليه اسم «التحرير الزاحف»، وهو شكل يناقض تماماً إقامة الإمارات الصليبية في البداية، والذي يمكن تسميته بـ «الضم الزاحف»**.

وقد بات من الواضح أن الصليبيين قد بدؤوا حربهم بالاستيلاء على المدن

الهامة، ثم أخذوا في تأمين الاتصال فيما بينها مع التوسع التدريجي للسيطرة على الحصون الهامة والمواقع الرئيسية، وبذل الجهود باستمرار للإفادة من كل ضعف يُظهره المسلمون لتطويرعملية «الضم الزاحف»، ثم جاء التحول، فبدأ «صلاح الدين» بتحرير القدس والمدن الداخلية، التي كانت تعيق اتصال المسلمين في مصر وبلاد الشام، وتطورت عملية التحرير الزاحف في الاتجاه المضاد، من الداخل في اتجاه الساحل، حتى لم يبق بعد معركة «عين جالوت» وانتهاء عهد «الظاهر بيبرس» سوى مدن قليلة وبعض المواقع الثانوية.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن هذا التحول لم يكن بسبب انتصار المسلمين في «حطين» وفي «عين جالوت»، ولو أنهما حَدَّدتا زمنياً هذا التحول، وإنما كان نتيجة لحروب الاستنزاف الطويلة التي قادها المسلمون وأظهروا فيها تصميمهم وعنادهم على متابعة الجهاد حتى النصر، وحتى تحرير البلاد من هجمات الغرباء البرابرة. ولقد أدَّت حروب الاستنزاف التي مهدت للمعارك الحاسمة إلى تكوين قناعات في الغرب بعدم جدوى هذه الحملات، وأنه من المحال الإبقاء على البناء الضخم الذي حشد الغرب كل إمكاناته وقدراته لإقامته. وعلى هذا، وبالرغم من تجدد الدعوة الصليبية بعد كل انتصار للمسلمين، وبالرغم من استمرار تدفق الحملات لمنح الكيانات دماً جديداً يساعدها على البقاء والاستمرار، إلا أن استنزاف قدرات هذه الحملات قد أقنعها، في النهاية، وأقنع قادتها؛ بأن كل الجهود إنما تصطدم بجدار صلب لا سبيل لإضعافه أو النيل منه، وأن مصير هذا البناء في النهاية هو الانهيار الحتمي، ويصبح من الطبيعي إيجاد التفسير الصحيح لفتور الحماسة وضعف العاطفة الصليبية، التي أدَّت في النهاية إلى انحراف الحملات الصليبية عن أهدافها، كالحملة الرابعة التي توجهت إلى بيزنطة أو حملة الأطفال أو حملة ملك فرنسا على تونس.

وفي إطار حرب الاستنزاف هذه، كان من المحال على قادة العرب المسلمين التفكير في الحسم الشامل للصراع بمعركة واحدة، ولكن ذلك لم يكن يتعارض مع عملية البحث المستمر عن النصر الموضعي أو النصر المحدود، وكانت محصِّلة الانتصارات هي الطريق للنصر الشامل. ومن هنا، فقد رسمت الحروب الصليبية كل أبعاد الحرب طويلة الأمد قبل أن يعرف العالم نظرية «الحرب طويلة الأمد» بأكثر من سبعة قرون، وحددت جماهير المسلمين هذه النظرية عندما

رفضت الاستعباد الديني (والذي يقابله في العصر الحديث الاستعباد القومي)، وصمَّمت على انتزاع النصر.

وطبيعي أن تكون هذه الحرب طويلة الأمد تناوباً بين السِّلم والحرب، وتواتراً بين الهدنة والصراع المسلح، ولكن النقطة البارزة هي تحديد السِّلم أو الهدنة بمدة محدودة جداً وبصورة دقيقة، على نحو ما سبق ذكره «تحديد الهدنة بالسنوات الميلادية وما يقابلها من سنوات وأشهر هجرية». والنقطة البارزة الثانية هي إجراء المفاوضات من قِبَل مندوبين عن ملوك المسلمين وأمرائهم، وتجنُّب الاتصال المباشر. والنقطة البارزة الثالثة هي عدم التساهل أبداً في حقوق المسلمين أو التفريط بها «ويظهر ذلك من خلال ردود الفعل الغاضبة التي أظهرها المسلمون عندما تساهل خلفاء «صلاح الدين»، فمنحوا الصليبيين حق الإقامة في القدس وتسليمها لهم، ما دفع المسلمين إلى تنظيم المقاومة، وتصعيد الجهاد، إلى أن يتم إحباط الاتفاقية بهجوم الخوارزمية». وكان هذا الدرس كافياً لإقناع أمراء المسلمين بعدم جدوى أي اتفاق يتناقض مع مصلحة المسلمين، وعدم فائدة أي معاهدة تعيق المجاهدين في سبيل الله عن متابعة الحرب حتى تحقيق الهدف.

ولقد تعاقب على قيادة الحرب ضد الفرنج وضد التتار عدد غير قليل من القادة، من زنكيين وأيوبيين ومماليك وسلاجقة، ولم يكن هؤلاء جميعاً يشكلون وحدة سياسية، **فكانوا إلى الاختصام أقرب منهم إلى الاتفاق**، وكان العداء فيما بينهم يصل أحياناً إلى درجة الحرب، أو حتى إلى الحرب الفعلية، كما أنهم لم يكونوا جميعاً على درجة واحدة من الكفاءة القيادية، ولم يكن حظهم متساوياً في إدارة الحرب وفي اقتناص النصر، إلا أنهم كانوا جميعاً أتباع مدرسة واحدة في فن الحرب، إنها مدرسة «المذهب العسكري الإسلامي المتفرع عن العقيدة الدينية»، وهي مدرسة أصبحت، قبل الحروب الصليبية بعهد طويل، محدَّدة المبادىء راسخة الجذور، وأصبحت فضائلها الحربية الطابع المميز لكل مجاهد في سبيل الله. وفي هذا المناخ الشامل يصبح واجب القادة محدداً بتنسيق الجهد، وتوجيه الفاعليات والقدرات القتالية، وهو واجب برهن جميع القادة على كفاءتهم العالية في ممارسته.

يظهر ذلك كله صعوبة فصل ما حدث **فوق أرض «عين جالوت»** عمَّا حدث قبل ذلك بمدة ثلاثة وسبعين سنة **فوق أرض «حطين»**، وعما حدث بعد ذلك من

تصفية للإمارات الصليبية. فقد كانت الأحداث تسير وهي متشابكة بمجموعة معقدة جداً من الروابط، مما يفرض بالضرورة التركيز على أبرز العلاقات والروابط المتعلقة بتلك الأحداث.

لقد كانت أسس السياسة الاستراتيجية الإسلامية واضحة كل الوضوح، وكانت مبادىء الحرب محددة بدقة كاملة، بحيث أن غياب ملك أو سقوط أمير لم يكن ليبدِّل من الموقف، «ولعل في سلوك «شجرة الدر» أثناء الغزو الصليبي لمصر هو أفضل برهان على ذلك». ويؤكد ذلك، مرة أخرى، على أن الدور الأساسي في الحروب الصليبية هو ذلك الذي اضطلعت به جماهير المجاهدين في سبيل الله، وبصورة خاصة في الشام ومصر والتي كانت تعمل على فرض وجودها بصورة مستمرة لتطوير الصراع المرير إلى أن تم بلوغ الهدف، وهو النصر الكامل.

أ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ استراتيجية الهجوم غير المباشر

عندما تحرك «المظفر قطز» إلى «عين جالوت»، سار على امتداد الساحل، وعقد هدنة مع عكا واتفق معها على السماح لقواته بالمرور، وكان هدفه السير في اتجاه الشمال لقطع خطوط إمداد قوات المغول وضرب مؤخراتهم، **وتعتبر هذه المناورة النموذج المثالي لاستراتيجية الهجوم غير المباشر على مستوى العمليات.**

وجرى قبل ذلك، وأثناء هجوم الصليبيين على مصر، أنْ عمل «الكامل» في منتصف آب ـ أغسطس (١٢٢١م) على إنزال السفن في النيل «فقطعت على الأسطول الصليبي السبيل عند ارتداده. . . وعزل الجيش عن قواعده في دمياط. . وتم تطويقه بكامله، ما أرغم قادة الفرنج على الرضوخ لشروط «الكامل»، وذلك بالتخلي عن دمياط والالتزام بمراعاة الهدنة لمدة ثماني سنوات»، وهذا نموذج مثالي أيضاً لاستراتيجية الهجوم غير المباشر على مستوى العمليات.

وعندما فشل «بيبرس» في اقتحام «صفد» بالهجوم المباشر في أيام (٧ و١٣ و١٧) تموز ـ يوليو (١٢٦٦م) أعلن أنه يمنح العفو التام لكل مَن يستسلم له من العساكر الوطنيين. والتحق كثير من أفراد حامية صفد بقوات «بيبرس»، ما خلق انشقاقاً في صفوف قادة الحامية الصليبية أرغمها على الاستسلام في نهاية شهر تموز ـ يوليو. وعندما أرسل «بيبرس» سفارة إلى عكا، وحاول الأمير «هيو» إرهاب رئيس السفارة «محيي الدين» بإجراء تظاهرة بالقوة، كان رد «محيي الدين»: «إن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع الأسرى المسيحيين في القاهرة»، ووجد أمير عكا أنه أمام خصوم لا يمكن إرهابهم، وأنه في موقف الضعف، لا سيما بعد أن انتزع المسلمون أنطاكية من قبضة الصليبيين، فاضطر لتلبية الشروط التي فرضها «بيبرس».

وتُبرز هذه النماذج، وهي قليلٌ من كثير، استخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر لإقناع الصليبيين، قادتهم ومقاتليهم، بعدم جدوى مقاومتهم، وأنه من المحال الوصول إلى أهدافهم، وقد انتقلت هذه القناعة إلى العرب، بحيث لم يعد هناك بين الملوك والأمراء مَن يعتقد بضرورة استمرار المشروع الصليبي، فتخلى الجميع عنه. ولعل الظاهرة المميزة هي البدء بتكوين هذه القناعات على مسرح الأعمال القتالية، فحروب الاستنزاف والتدمير المستمر لقوات الصليبيين قد حوَّل الإمارات القائمة إلى عبء ثقيل أرهق إمارات الغرب وممالكها.

وهكذا لم تكن أعمال التطويق والالتفاف العميق وضرب المؤخرات على مستوى العمليات سوى الوسيلة لإقناع قادة العمليات بفشلهم، ثم تطوير هذا المفهوم على مستوى السياسة الاستراتيجية، وإقناع أصحاب المشروع الصليبي ذاته بفشل مشروعهم. وقد جاء فشل المغول ـ التتار ـ في «عين جالوت» برهاناً حاسماً على فشل كل الوسائل المتاحة للقضاء على المسلمين، ما ساعد قادة المسلمين على تطوير صراعهم العسكري والسياسي، وكان النصر في المعركة، باستمرار، هو الوسيلة الوحيدة لبناء القناعات كلها. وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على أن هذه الاستراتيجية لا زالت تحتفظ بكل خصائصها ومميزاتها في كل الحروب التقليدية.

٢ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة

لقد انطلقت الحروب المضادة للحروب الصليبية من قاعدة قوية ومأمونة، وهي قاعدة **«الوحدة السياسية للمسلمين» ووحدة العمل، أو وحدة القيادة على مستوى العمليات**. ولقد تعرضت هذه الوحدة للتمزق في بعض الأحيان، وجابهت مآزق صعبة في أحيان أخرى، وبقي الاتفاق أقوى من الخلاف، فخرج جيش مصر باستمرار لخوض معاركه فوق أرض الشام، في عين جالوت، كما في حِطين من قَبْل، وكما في تحرير أرمينيا وأنطاكية من بعد. وخرج جيش الشام في مرات كثيرة لخوض الصراع فوق أرض النيل، **كما حدث عندما قام الفرنج بالهجوم على مصر واحتلوا دمياط**. وكان «ريتشارد» قلب الأسد هو الذي أدرك قوة هذه القاعدة، ولعله أول مَن عرف ذلك، فنصح بتوجيه الحملات ضد مصر التي لم تنجح الإمارات الصليبية في عزلها عن الشام، وذلك لضرب أحد طرفي القاعدة، فتضعف القاعدة بكاملها. ولم تنجح كل المحاولات لإضعاف الروابط

القائمة بين مسلمي المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي على طرفي القارتين الآسيوية والأفريقية. ولم تكن قوة هذه القاعدة، بما توافر لها من قدرات مادية، بشرية وقتالية، بقدر ما كانت قوَّتها في تنسيق الجهود المتوافرة، وفي توجيه هذه الجهود نحو الهدف الواحد. وهكذا، فلم يكن الحرص على توحيد القاعدة وضمان تماسكها هدفاً في حدٍّ ذاته، وإنما كان وسيلة لتحقيق الهدف، وهو مجابهة التحديات المفروضة على ديار الإسلام، وهذا ما كان يدفع المسلمين على مجابهة كل انحراف بقسوة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإن القاعدة كانت بما توافر للمدينتين الخالدتين، القاهرة ودمشق، من طبقة مؤمنة صلبة فرضت ذاتها على الأحداث، وهذا ما كان يحمل القادة والحكام على التماس الدعم من جماهير المسلمين، وكانت الجماهير دائماً على مستوى الوعي المطلوب وعلى مستوى المسؤولية التاريخية.

لم تكن قوة القاهرة ودمشق في تحصيناتهما، كما لم تكن بقدرتهما البشرية وإمكاناتهما القتالية، ولكن قوتهما بقيت أبداً في صمودهما وعمق الإيمان فيهما مما ساعدهما على العمل المشترك، وأعاق الفرنج من النَّيْل منهما أو الوصول إليهما، وكان في ذلك نصرهما؛ على ما أُريد لهما، وهو نصرٌ على الذات، وعلى الآخرين.

٣ ـ بناء المجتمع وإعادة التنظيم

تتطلب كل معركة، بل كل عمل من أعمال الحياة، إعادة التنظيم من أجل معالجة نقاط الضعف السابقة والاستعداد لمرحلة جديدة من مراحل الصراع والجهاد. ومن الواضح أن كل مرحلة من مراحل الصراع تطلبت نوعاً جديداً من الأهداف المرحلية وإيجاد طرائق العمل المناسبة لتلبية متطلبات الأهداف المرحلية. وكان بناء المجتمع وإعادة التنظيم يشمل عملين متكاملين: العمل على الصعيد الداخلي، والعمل على الصعيد الخارجي. وإذا كان هدف العمل الداخلي هو تحقيق مزيد من التلاحم، فقد كان هدف العمل الخارجي مجابهة المخططات الخارجية بما هو مناسب لها.

وكان من الطبيعي في إطار الحرب طويلة الأمد أن تسير الحياة بصورة عادية، فقوافل التجارة والأعمال الصناعية وزراعة الأرض كانت مستمرة حتى في أثناء المعارك. وكان العدوان على أحد هذه المرافق كافياً لتجدد الاشتباكات

واستئناف المعارك، ذلك أنه كان من المحال على المسلمين الاستمرار في الحرب إن لم تتوافر لهم الإمكانات الضرورية لمتطلبات الحرب وزيادة القدرة الذاتية. وهكذا تكوَّن ما يطلق عليه حديثاً اسم «**اقتصاد الحرب**».

وقد حاول الصليبيون في مرات كثيرة تركيز الجهد لتدمير هذا الاقتصاد: «الاستيلاء على القوافل التجارية ونصب الكمائن لها والإغارة على الحقول وإحراقها والتمسك بالأسرى من الحِرَفيين المَهَرة من الصنَّاع». وقد عرف قادة المسلمين تأثير ذلك على إضعاف القدرات الذاتية، فركزوا لردع كل عدوان بعدوان أشد ضراوة وأشد عنفاً، مما يضمن تحقيق هدف مزدوج أوله الحرص على الروح المعنوية للمسلمين، والثاني دعم القدرة الذاتية.

وإذا كان باستطاعة الصليبيين الاعتماد على مواردهم الكثيرة، القادمة من وراء البحار، فإنه لم يكن باستطاعة المسلمين الاعتماد في حربهم إلا على قدرتهم الذاتية، ومن هنا تظهر أهمية إعادة التنظيم المستمر للقدرات والموارد. وقد عمل المغول بصورة خاصة على تركيز كل الجهد لتدمير القدرات الاقتصادية وإبادة الحياة في بلاد المسلمين، ولم يلبثوا أن شعروا بخطئهم، فحاولوا إعادة التنظيم على أسس عمل المسلمين، ولكن الزمن تجاوزهم بعد معركة «عين جالوت»، فوقعوا ضحية ما ارتكبوه من جرائم.

٤ ـ وضوح الهدف

عندما قاد «المظفر قطز» جيش المسلمين، ونزل بأرباض عكا، أقام الفرنج حفلات لقادة المسلمين وأمرائهم، وكان بين المدعوين «بيبرس» الذي اقترح على «قطز» القيام بهجوم مباغت للاستيلاء على المدينة، بعد أن لمس ضعف الحامية فيها، ولكن «المظفر قطز» رفض الاقتراح، ولم يحاول الاشتباك مع الفرنج أو استثارتهم طالما أنه لم يحسم المعركة مع المغول.

وعندما فرغ «بيبرس» من إعادة التنظيم في مصر، انطلق بالمسلمين للانتقام من أولئك الذين تعاونوا مع المغول، فعمل على تدمير إمارة الأرمن «قليقية» و«أنطاكية». وعندما أدرك «بيبرس» أن المغول يستعدون لغزوة جديدة، عقد صلحاً مع عكا حتى يتفرغ لقتال المغول.

وعندما قاد الأخوان الأيوبيان «المعظم» و«الأشرف» قواتهما من جيشي دمشق وحلب لدعم أخيهما «الكامل» في مصر؛ كانا يعرفان أن الفرنج في الشام

لا يستطيعون فتح جبهة ثانية، وعنما ظهر احتمال وصول قوات صليبية جديدة إلى فلسطين؛ عَمِل الأخوان على التوجه نحو فلسطين لتدمير حدود إمارات الفرنج وبعض المواقع ما أضعف موقف القوات الصليبية في مصر.

وتُظهر هذه الأُمثولات أن الهدف المرحلي كان واضحاً تماماً بقدر وضوح الهدف العام. وإذا كان هدف المسلمين منذ بداية الحروب الصليبية هو تحرير بلادهم من غزوات الفرنج، فقد كان الهدف المرحلي هو تحقيق الانتصار في كل معركة وحشد القوى والوسائط الضرورية للوصول إلى الهدف. ولقد كان سلوك القادة جميعهم، وفي مختلف الظروف واحداً، وهو الالتزام بإنجاز الهدف المرحلي في إطار الهدف العام، أو الهدف النهائي. وتبقى الظاهرة المثيرة هي المعرفة الدقيقة لما كان يحدث في أفق الحرب من تطورات، سواء على مستوى العمليات داخل الإمارات الصليبية، أو على مستوى الحرب بين قادة أوروبا وأمرائها، ما كان يساعد أمراء المسلمين على وضع المخططات المناسبة لمجابهة متطلبات كل مرحلة. والظاهرة المثيرة الثانية هي وضوح الهدف على مستوى القيادات بمثل وضوحه على مستوى قاعدة المسلمين المجاهدين في سبيل الله.

والشواهد كثيرة، منها موقف دمشق وأئمة المسلمين من إعادة تسليم القدس للصليبيين، على نحو ما سبق ذكره، ودفع قادة المسلمين للتعاون المشترك ضد العدو المشترك. وليست وساطة الخليفة العباسي «المستنصر» بين أمراء الشام ومصر لإحلال الصلح محل الخصام من أجل مجابهة خطر المغول ـ التتار ـ سوى نتيجة لوضوح الهدف، وإدراك خطورة الموقف وما يحمله من تهديد مصيري لكل جماهير المسلمين فوق أرض العرب المسلمين.

٥ ـ الحرص على المسلمين

وقعت على كاهل المسلمين في ظروف الحروب الصليبية أعباء تزيد على كل ما يمكن تصوره، فقد كان على جمهور المسلمين المحافظة على الاستعداد القتالي باستمرار، وحمْل السلاح لردِّ العدوان، وكان على جمهور المسلمين أيضاً بناء مجتمعه باستمرار للمحافظة على قدرته المادية وروحه المعنوية في أشرس حرب عرفها التاريخ وأشدها ضراوة ووحشية. وكان خطر التدمير والإبادة هو الخطر الجاثم باستمرار، ولم يكن هذا الخطر بتهدد أمراء المسلمين

وحكّامهم، بقدر ما يتهدد القاعدة الصلبة للمسلمين، وهذا ما يفسر أعمال الإبادة المادية والتصفية الجسدية التي مارسها الفرنج من قَبْل وتابعها المغول من بعد. ويكون من الطبيعي ظهور حرص المسلمين على حشد الطاقات وتوفير الموارد لدعم أمرائهم وحكامهم وحرص قادة المسلمين على ضمان الأمن والدفاع عن المسلمين.

والشواهد كثيرة، فعندما حدث الخلاف بين أمراء الأيوبيين تصدى «الكامل» لرأب الصدع حتى لا يستنزف المسلمون إمكاناتهم في تحول الصراع من صراع المسلمين مع أعدائهم إلى صراع المسلمين بعضهم مع بعض. وعندما كانت تتم المفاوضات بين المسلمين والفرنج كان أمراء المسلمين يحرصون باستمرار على تحرير الأسرى، فإذا لم يتم الوصول إلى هذا الهدف، كان يظهر أنه من المحال الوصول إلى معاهدة أو اتفاق، ما كان يُرغم قادة الفرنج في كثير من المناسبات على إطلاق سراح أسرى المسلمين.

ولقد أدرك أمراء الفرنج وملوكهم مع تقدم الصراع وتطوره أهمية عامل (القدرة البشرية)، فحاولوا استخدام أسرى المسلمين لتلبية متطلبات الصليبيين وتأمين خدماتهم وتكليفهم بأعمال الزراعة والصناعة، وتزايدت هذه الحاجة مع نضوب الموارد الغربية، ومع تناقص إمكانات الدعم، ما كان يفرض على الإمارات الصليبية زيادة اعتمادها على أسرى المسلمين لتأمين متطلبات العمل وتفريغ الفرنج لأعمال الحرب فقط.

ومقابل ذلك، لجأ المسلمون لهذه الوسيلة ذاتها، فأخذوا في استخدام أسرى الصليبيين لأعمال الزراعة، وبصورة خاصة في مصر، إلا أن أمراء المسلمين وقادتهم كانوا أكثر حرصاً على عنصر المسلمين، وأكثر تشدداً في تحرير الأسرى، بالرغم من أن أعداد الأسرى تحت قبضة المسلمين كان أكبر دائماً من أسرى المسلمين، الذين كانوا يفضلون الموت أو النزوح إلى بلاد المسلمين الأخرى من الخضوع للفرنج، ويعود سبب حرص قادة المسلمين على المسلمين من أجل توفير القدرة القتالية من جهة، ومن أجل المحافظة على الروح المعنوية للمسلمين من ناحية أخرى. ويصبح من السهل تفسير الغضب الذي كان يُهيمن على قادة المسلمين عندما يتعرض المسلمون للهجمات الغادرة، ما كان يدفعهم لقيادة الأعمال الانتقامية، والثأر لشهداء المسلمين.

٦ ـ استراتيجية الحرب التشتيتية

لقد نظم الصليبيون إماراتهم بصورة مستقلة، فكانت هناك مملكة بيت المقدس ومملكة طرابلس وأنطاكية وأرمينية، وإلى جانب هذه الممالك كانت هناك إمارات مستقلة أيضاً، مثل إمارة صيدا وإمارة صور وإمارة الكرك وإمارة اللاذقية، وهناك أيضاً القلاع والحصون وهي خاضعة على الأغلب لتنظيمات الفرسان الدينية الأسبتارية والداوية والتيوتون، وكانت تبعية هذه الإمارات والممالك مختلفة بحسب القوات التي قامت بفتحها من دول الغرب.

ومن الطبيعي أن يكون هناك تناقضات بين الملوك والأمراء والقادة، وهي تناقضات كثيراً ما أدَّت إلى صراعات مسلحة، كالصراع المستمر بين البنادقة والجنويين، والصراع بين الطوائف الدينية بعضها مع بعض. وكان لكل مملكة وإمارة وقلعة حاميتها، وفي حالة التعرض للخطر كانت هذه القوى تتعاون فيما بينها، على نحو ما حدث في حطين، وفي مرات كثيرة بعد ذلك وقبله. ومقابل ذلك، **كان لكل مدينة من مدن المسلمين قواتها الدفاعية وجيشها الهجومي، فكان هناك جيش مصر، وجيش إمارة الكرك، بعد تحريرها، وجيش دمشق، وجيش حمص، وجيش حماة، وجيش حلب وهكذا. وكانت جيوش المسلمين تتعاون فيما بينها لتنسيق أعمالها القتالية.**

وكان هدف قادة المسلمين بصورة مستمرة إعاقة كل تنسيق للتعاون بين هذه الممالك والإمارات والقلاع عن طريق تطبيق (استراتيجية الحرب التشتيتية). وكانت هذه الاستراتيجية تأخذ أحياناً شكل اتفاقات أو معاهدات تشمل بعض الممالك الصليبية ولا تشمل بعضها الآخر، ما كان يسمح لقادة المسلمين بتركيز الجهد ضد الإمارات أو الممالك أو القلاع التي لا تشملها المعاهدات.

وكانت هذه الحرب التشتيتية تأخذ في بعض الأحيان الأخرى، وعلى مستوى العمليات، فتح جبهة للتخفيف عن جبهة أخرى. **ففي سنة (١٢١٩م)، وبينما كان الملك «الكامل» يقود الحرب ضد الفرنج في مصر؛ قام الملك «المعظم» بتدمير استحكامات بيت المقدس. وفي سنة (١٢٢٠م) وجد «المعظم» أمير دمشق أن أفضل ما يؤديه للمسلمين في مصر من مساعدة هو أن يشن هجوماً على عكا ذاتها. ولم يلبث «المعظم» أن طوَّر أعماله القتالية، فهاجم قلعة قيسارية ثم توجه إلى قلعت عثليت؛ وإذ علم فرسان الداوية بذلك، اندفعوا عائدين من دمياط للدفاع عن قلاعهم في فلسطين.**

وقد أظهرت مسيرة الأحداث أن حملة المغول لم تكن بمعزل عن التنسيق مع البابا ومع قادة الغرب من جهة، ومع مراكز القوى الصليبية في الشام.

ويُظهر ذلك أهمية الحرب التشتيتية التي طبقها «المظفر قطز» باتفاقه مع حامية مدينة عكا، وعزلها عن التعاون مع المغول. وجاءت الحملات التأديبية بالقضاء على أرمينيا وإزالة مملكة أنطاكية في إطار الحرب التشتيتية لمنع كل تعاون في المستقبل بين مراكز القوى المضادة للعالم الإسلامي. وقد أخذت الحرب التشتيتية على مسرح العمليات أيضاً شكلاً معروفاً للمسلمين، وهو الهجوم على عدد من مواقع الفرنج في وقت واحد، أو التحرك بسرعة من موقع إلى موقع آخر، ما كان يعيق كل تعاون بين قوى الفرنج. فإذا ما نجح الفرنج في تجميع قواتهم، فإن قوات المسلمين غالباً ما كانت تتوجه إلى المملكة والإمارة التي تزعمت التجمع أثناء غياب حاميتها. وهكذا، فبينما كانت قوات التجمع تسير نحو موقع من مواقع المسلمين تكون قوات المسلمين قد وجَّهت تهديداً لأكثر العقد أهمية وأخطرها ما كان يمزق التحالف، ويصرف قوات الفرنج للانشغال بنفسها.

ويمكن في إطار الحرب التشتيتية الإشارة إلى جهد «بيبرس» للتحالف مع الخان «بركة»، زعيم القبائل الذهبية المسلمة، من أجل مجابهة المغول، الذين كان يتزعمهم «أباقا» (في سنة ١٢٦٦م). وأفاد «بيبرس» من ذلك، فقاد جيشه للهجوم على عكا وإمارات الفرنج وقلاعهم في جنوب الشام مع توجيه جيش آخر بقيادة «قلاوون» نحو الشمال للتعاون مع جيش حمص، الذي كان يقوده «المنصور»، وذلك للإغارة على إمارات الفرنج في شمال الشام والهجوم على قليقية وتدمير المملكة الأرمنية.

٧ ـ استراتيجية الهجمات الوقائية

لم تكن هناك استراتيجية ثابتة وصلبة تخضع لها كل عمليات الحروب الصليبية، وإنما هناك قدر كبير من المرونة التي تستجيب لمختلف المواقف. وإذا كان بالمستطاع تمييز المرحلة السابقة لمعركة حطين بأعمال الردع والردع المضاد، فإن بالإمكان تمييز الأعمال القتالية في معركة عين جالوت وما سبقها وما تبعها بالهجمات الوقائية. (ولم تكن عين جالوت ذاتها سوى هجوماً وقائياً هدفه إبعاد خطر المغول عن مصر وعدم السماح لهم بالاقتراب منها). وفي هذا

الإطار ذاته تم تنفيذ الأعمال القتالية ضد قوات الفرنج، الذين كانوا يحاولون القيام بهجمات مباغتة كلما وصلتهم قوات دعم جديدة، مثل حملة ولدَي ملك أراغون سنة ١٢٦٩م، وحملة القوات الإنكليزية بقيادة ولي عهد إنكلترا الأمير «إدوارد» في سنة ١٢٧١م، كما أن هجوم الظاهر «بيبرس» في بلاد الأناضول سنة (١٢٧٧م) لم يكن أكثر من هجوم وقائي هدفه توجيه جهد المغول نحو هذه المنطقة، ووقاية بلاد المسلمين في الشام من هجمات جديدة. ولقد كان هدف التحرير في قلب استراتيجية الهجمات الوقائية. ومن هنا، فقد كانت هذه الاستراتيجية مركبة وليست بسيطة تحقق هدفاً مزدوجاً، الأول منع أعداء المسلمين، الفرنج والتتار، من تصعيد أعمالهم العدوانية على بلاد المسلمين، وانتزاع ما يمكن انتزاعه من قلاع ومدن في إطار التحرير الزاحف.

ويمكن في هذا المجال الإشارة إلى جهد البحرية المصرية ومحاولاتها المستمرة لاعتراض سفن الإفرنج كوسيلة في جملة الوسائل التطبيقية لاستراتيجية الهجمات الوقائية؛ إذ إن تدمير القوات في البحر كان نوعاً من التدابير الوقائية لإضعاف الفرنج، وكذلك الأمر بالنسبة لإغارات القوات البحرية المصرية على قبرص التي تحولت أثناء الحروب الصليبية إلى قاعدة متقدمة لحشد قوات الإفرنج.

قد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أن أمراء الصليبيين وقادتهم قد طبَّقوا هذه الاستراتيجيات في ظروف متباينة، ولكن مهارة الصليبيين تجلَّت بصورة أفضل في طرائقهم التعبوية ـ التكتيكية ـ كتنظيم أعمال الحصار والدفاع عن الحصون والقيام بالإغارات، في حين أظهر قادة المسلمين تفوقاً واضحاً في أفق السياسة الاستراتيجية وفي إدارة الحرب على مستوى العمليات، ما ضمن للمسلمين الشروط المناسبة لتحقيق أهدافهم النهائية.

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتـة

وصل «المظفر قطز» إلى «عين جالوت» قبل وصول قوات المغول بيوم واحد، فعمل على إخفاء قواته في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها «بيبرس»، ووقع «كتبغا» في الفخ... ولم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة. وبعد عين جالوت بخمس سنوات تقريباً خرج «بيبرس» من مصر على رأس جيش كثيف، وتظاهر بالتلهي في حملة صيد في التلال الواقعة وراء «أرسوف»، ثم ظهر فجأة أمام «قيسارية»، فسقطت المدينة على الفور. وفي السنة التالية (سنة ١٢٦٦م/ ٦٦٥هـ) قام «بيبرس» بتظاهرة أمام حصن «مونتفورت» ثم زحف فجأة على «صفد»... وفي السنة التالية أيضاً ظهر«بيبرس» مرة أخرى أمام عكا؛ وإذ رفع «بيبرس» الرايات التي سبق أن استولى عليها من الداوية والأسبتارية، استطاع أن يمضي رأساً إلى أسوار عكا قبل أن تنكشف الخدعة... وتلك هي بعض الشواهد على حرص قادة المسلمين لتحقيق المباغتة. ومن الواضح أن المباغتة عند قادة المسلمين لم تكن مباغتة بسيطة، زمنية أو مكانية، وإنما كانت مباغتة معقدة تأخذ شكل مباغتة استراتيجية أو مباغتة عمليات. **وقد أدت المباغتة في «عين جالوت» إلى تطويق جيش المغول بكامله وتدميره تدميراً شبه كامل**، كما أدت في مناسبات مختلفة إلى استسلام قوات العدو وتخلِّيها عن مواقعها. وكان «الظاهر بيبرس» ـ بصورة خاصة ـ يحرص على تحقيق المباغتة من خلال ما يمكن تسميته بالمناورة الخداعية، والتظاهر بممارسة عمل أو الاتجاه إلى مكان معين، ثم تغيير طبيعة العمل أو الاتجاه إلى الهدف ما كان يضمن تحقيق المباغتة في مسرح العمليات.

وفي مناسبات مختلفة استُخدمت المناورت الخداعية باستخدام أعلام العدو وراياته ووسائطه. ففي سنة (١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ) قام فرسان الخوارزمية بالهجوم على بيت المقدس، وغادرها حوالي ستة آلاف من فرسان الصليبيين ورجالهم

ونسائهم وأولادهم وتركوها للخوارزمية، وبينما كان المسيحيون يتحركون على الطريق إلى يافا؛ تطلعت جماعة منهم إلى الوراء، فشاهدت أعلام الفرنج ترفرف على أبراج المدينة، وإذ اعتقدوا أن نجدة قد وصلت إلى بيت المقدس، أصرَّ عدد كبير من الفرسان على الرجوع إلى المدينة، غير أنهم وقعوا في كمين تحت أسوار المدينة، فهلك نحو ألفين، وقد لجأ «الظاهر بيبرس» إلى استخدام هذه الوسيلة ذاتها لتحقيق المباغتة.

وفي كل الأحوال بقيت المباغتة وسيلة المسلمين للتغلب على تفوق العدو العددي، واستنزاف قدرته البشرية بصورة مستمرة مما مهَّد للتحولات الحاسمة في مسيرة الصراع.

٢ ـ أمـن العمل

تبقى وسيلة المسلمين، قادة ومقاتلين، في تحقيق أهدافهم المرحلية هي الحرص المستمر على ضمان مبدأ: «أمن العمل». وكان تحقيق هذا المبدأ يفرض على قادة المسلمين الحصول على المعلومات من المصادر المختلفة (استطلاع القادة الشخصي وتنظيم شبكات الجاسوسية في وسط قيادات العدو، والتوسع الكبير في تنظيم مفارز الاستطلاع، واتخاذ تدابير الحماية لوقاية القوات وحرمان العدو من مباغتتها. . .) والشواهد المتوافرة كثيرة. ولكن هناك نقطة حاسمة وأساسية برزت أهميتها في «عين جالوت». فقد كان «المظفر قطز» يتابع تحرك خصمه «كتبغا» بدقة وبصورة مستمرة، في حين كان قائد المغول يقود قواته إلى المعركة وهو يجهل كل شيء تقريباً، وكان العامل الأساسي في ذلك **هو حرص المسلمين على إرسال المعلومات المستمرة للقائد «قطز»، والشعور العدائي للمغول والذي حرمهم من التعاون مع العناصر التي تضمن إمدادهم بالمعلومات**. وقد نجح المغول في آسيا بسبب وجود عناصر كثيرة من المغول ـ التتار ـ التي وصل بعضها إلى قلب البلاط العباسي، في حين بقي العنصر العربي المسلم هو الغالب في بلاد الشام، وكان هذا العنصر لا يقبل التساهل في قضيته ولا يرضى بالتعاون مع أعداء الدين، بحسب كل الشواهد المتوافرة، ولقد كان شعور السكان العدائي هو أفضل وسائل أمن العمل لقوات المسلمين، سواء في الصراع مع التتار أو في الصراع مع الفرنج من قبل ومن بعد.

وتُظهر متابعة الصراع السياسي بين قادة المسلمين وقادة الفرنج أن قادة

المسلمين كانوا بصورة عامة أكثر معرفة بالموقف الداخلي للإفرنج مما كان يعرفه قادة الفرنج عن المسلمين، وكان قادة المسلمين أيضاً يحرصون على إخفاء مشاريعهم وإحاطتهم بنطاق من السرية لضمان أمن العمل. وقد اشتهر عن «صلاح الدين» ومِن بعده «المظفر قطز»، وكذلك «الظاهر بيبرس» التزامهم جميعاً **بالسرعة والسرية فيما يتخذونه من قرارات**، وذلك هو الشرط الأساسي لضمان أمن العمل. وإذا ما تم الانتقال بعد ذلك إلى أفق مسرح العمليات، فستظهر تدابير (أمن العمل) على شكل تنظيم دفاعي ثابت. وعلى سبيل المثال، فعندما انسحب جيش مصر في خريف سنة (١٢٦٦م)، حاولت الطوائف الدينية العسكرية التعاون مع القوات الفرنسية لشن هجوم على الجليل، ولكن حامية صفد نصبت كميناً لمقدمة القوات الصليبية في (٢٨) تشرين الأول ـ أكتوبر ودمَّرتها، كما قامت قوات العرب بالهجوم على معسكر الفرنج. وفي سنة (١٢٦٩م) قام الفرنج بتوجيه قوة تحت قيادة ولدَي ملك أراغون (ملك البرتغال ـ برشلونة) ولكن هذه القوة لم تكد تغادر عكا حتى وقعت على الفور في الكمين الذي نصبه «بيبرس»، ولم يبقَ على قيد الحياة، من أصل القوة، إلا عدد بالغ القلَّة.

٣ ـ القدرة الحركية

لقد كانت جيوش المسلمين تعتمد على قدرتها الحركية العالية لنقل المعارك بصورة مستمرة إلى حدود الأرض المحتلة، ولتحميل الإمارات الصليبية أعباء الحرب. وفي معركة «عين جالوت» لم ينتظر جيش مصر وصول قوات المغول، رغم ما في ذلك من ميزة لإطالة خطوط مواصلات الغزاة وإبعادهم عن قواعدهم وإرغامهم على عبور سيناء، مع ما يتضمنه ذلك من إرهاق لقوات المغول، وفضَّل «المظفر قطز» الإفادة من القدرة الحركية العالية لقوات المسلمين من أجل نقل المعركة بعيداً عن أرض مصر. ولقد تميَّزت قوات المغول أيضاً بقدرتها الحركية العالية، وليست قضية المسير عبْر أكثر من أربعة آلاف ميل، هي بالمسيرة السهلة بالنسبة لقوات ضخمة تقوم بأعمال قتالية عبر مسيرتها الطويلة والشاقة. وقد يكون من الصعب تقويم القدرة الحركية للطرفين المتصارعين من خلال معركة «عين جالوت» وحدها، وإنما يتطلب ذلك إجراء تحليل شامل لمعطيات حرب الحركة لدى المغول ولدى العرب المسلمين. ولعل أبرز الفوارق هي اعتماد العرب المسلمين على القدرة الحركية وتطويرها في البر

والبحر، في حين كانت القدرة الحركية للمغول قدرة برية ـ قارية فقط، وهذا ما ساعد المسلمين بعد ذلك على مجابهة الغزوات الصليبية القادمة من وراء البحار بنفس القدرة التي ساعدتهم على مجابهة غزوة المغول ـ التتار ـ.

وتُظهر عملية تحرير دمياط في الغزوات الصليبية المتتالية أهمية القدرة البحرية وما تضمنته من تطوير للقدرة الحركية، وتظهر أهمية القدرة الحركية بعد ذلك في تأمين تنسيق التعاون بين جيوش مصر والشام وحمص وحماة وحلب؛ فقد كان على هذه الجيوش الانتقال باستمرار من مصر إلى الشام وبالعكس، مع تلبية متطلبات العمليات للتحرك إلى أقصى الشمال حيث الإمارات الصليبية في قليقية ـ أرمينية ـ وأنطاكية، ثم الانتقال إلى أقصى الجنوب حيث إمارات الفرنج. وضمنت القدرة الحركية أيضاً إنجاز الواجبات بسرعة ومجابهة المواقف الطارئة بمرونة وتطبيق مبادىء الحرب بكفاءة عالية. وقد لا تكون هناك حاجة للقول إنه كان من المحال على قادة المسلمين تحقيق المباغتة أو ضمان (أمن العمل)، لولا ما توافر لقوات المسلمين من قدرة حركية عالية. وهنا يظهر الفرق أيضاً في القدرة الحركية لتطبيق مبادىء الحرب، في حين اعتمد المغول على (القوة المدمرة الطاغية) لتحقيق هدف الحرب، وهذا لا يعني تجرد حرب الحركة لدى المغول من مبادىء الحرب، وإنما يعني تقنين حرب الحركة لدى المسلمين وتطبيق مبادىء الحرب بصورة أفضل لدى المسلمين مما كان عليه الأمر لدى المغول.

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية

يُظهر العرض السابق لمسيرة الأحداث حرص قادة المسلمين، من ورثة صلاح الدين والمماليك، على الإمساك بالمبادأة، وعدم السماح للأعداء بفرض المواقف؛ ولم يكن تطوير القدرة الحركية والحرص على المباغتة سوى بعض الوسائل للمحافظة على المبادأة. وهنا تَظهر أهمية نقاط التحول في مسيرة الصراع. فقد استطاع قادة الفرنج الإمساك بالمبادأة ـ على الأغلب ـ قبل «حِطين»، ثم تناول قادة المسلمين وقادة الفرنج الإمساك بالمبادأة التي انتقلت بصورة شبه كاملة إلى أيدي قادة العرب المسلمين في «عين جالوت» وبعدها؛ وذلك لا يعني غياب المبادأة قبل «صلاح الدين»، وإنما كانت هذه المبادأة بمثابة رد فعل على ما يقوم به قادة الفرنج من تطوير للصراع، وكان استخدام القوات الهجومية في إطار الدفاع الاستراتيجي ـ على نحو ما سبق ذكره ـ. أما

المبادأة واستخدام القوات الهجومية، فقد تحول بعد «حِطين» في إطار الانتقال من الدفاع الاستراتيجي إلى الهجوم الاستراتيجي.

واعتباراً من هذه المرحلة أخذت المبادأة كل أبعادها، بحيث لم يعد باستطاعة الفرنج أو المغول فرض المواقف على المسلمين. وفي كل الأحوال، لم تكن مبادأة عسكرية فحسب، بقدر ما كانت مبادأة شاملة في إطار السياسة الاستراتيجية. فقد استطاع قادة المسلمين فرض المعاهدات والاتفاقات وإجراء التحركات السياسية بما يتوافق مع أهداف المسلمين ووفقاً لمبادأة قادتهم. وقد كان رد «المظفر قطز» على سفارة «هولاكو»، وإعدام «المظفر قطز» لسفير «هولاكو»، هو إعلان للحرب. ولكن «المظفر قطز» لم يترك للمغول فرصة فرض المبادأة، وإنما أمسك بالمبادأة بيديه، فنظم قواته وقادها إلى ميدان المعركة وفرض ميدان القتال المناسب له.

وكان إمساك «المظفر قطز» بالمبادأة هو العامل الرئيسي الذي ساعد على تحقيق المباغتة، وكسب المعركة في النهاية. ولقد كان احتفاظ قادة المسلمين بالمبادأة هو العامل الأساسي الذي ساعدهم على تطوير أعمالهم القتالية وتصعيدها باستمرار بعد نقطتي التحول في حطين وعين جالوت، والإفادة من ذلك خلق مواقف جديدة لا يستطيع أعداء المسلمين مجابهتها.

وبكلمة أكثر وضوحاً، كان قادة الفرنج هم الذين يمسكون المبادأة السياسية والمبادأة العسكرية، قبل حطين، تاركين لقادة المسلمين العمل على أساس رد الفعل المحسوب. أما بعد حطين، وبوضوح أكثر بعد عين جالوت، فقد أمسك قادة المسلمين بالمبادأة وأرغموا أعداءهم من مغول وفرنج على إدارة حربهم في إطار ردود الفعل، أو بالاصطلاح السهل، كان المسلمون يرقصون على الناي الذي تحرك أصواته أصابع الفرنج ثم المغول، ثم أصبح هؤلاء يرقصون على أنغام الناي الذي تعبث به أصابع المسلمين.

٥ ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى

يكسب المعركة مَن يحتفظ بآخر طلقة وآخر مقاتل، ذلك هو مبدأ معروف، ويتزايد هذا المبدأ أهمية في إطار الحرب طويلة الأمد، وفي مناخ حروب الاستنزاف. وقد عرف قادة المسلمين في الحروب الصليبية أهمية القدرة البشرية، ودور اقتصاد الحرب لضمان التوازن بين القوى والوسائط وحشد ما

تتطلبه الحرب من وقود بما يتناسب وحجم هذه الحرب. وتظهر مسيرة الأحداث حرص قادة المسلمين باستمرار على زجِّ ما هو ضروري من القوى والوسائط مع الاحتفاظ بالقدرة الكامنة لضمان توافر القوى من أجل الاستمرار في الصراع.

وهكذا، فقد كان جهد الفرنج لإلقاء أثقال جديدة في ميادين الصراع يقابَل من قادة المسلمين بإلقاء أوزان أو أثقال معاكسة للمحافظة على التوازن في القوى، ولكن الاحتفاظ بالقوى من خلال تطبيق مبدأ الاقتصاد بالقوى لم يكن هو الوسيلة الوحيدة للمحافظة على التوازن، وإنما هو إحداها. وكانت الوسيلة الأكثر فاعلية، لتحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى، هي استنزاف قدرات العدو وإضعافها عن طريق إدارة الحرب بكفاءة، كالهجوم القوي على النقاط الضعيفة وتجنب الخوض في معارك باهظة الثمن، ويَظهر ذلك بوضوح في عمليات كثيرة تم خلالها تجنب الهجوم على المواقع المحصَّنة أو الإغارة على المواقع الهامة، والتي تتوفر فيها إمكانات النصر بما يعادل ثمن الحرب.

٦ ـ المحافظة على الهدف

لم تكن الهجمة الصليبية مجرد حملة عسكرية، وإنما كانت حرباً ضد الفكر الإسلامي والدين الإسلامي، وكانت حملة المغول عاصفة مدمرة للوجود الإسلامي. ولقد بُذِلت جهود كثيرة على امتداد صفحة الحروب الصليبية الطويلة لحرف المسلمين عن أهدافهم، وإبعادهم عن مواقع صمودهم، ولكن عناد المسلمين وإيمانهم بقي ثابتاً ولم يتزعزع. وكما حاول قادة الصليبيين حَرْف الجماهير من المسلمين عن أهدافهم، فقد حاولوا حرف قادة المسلمين عن أهدافهم العسكرية، ولكن هذه المحاولات لم تحقق بدورها أي نجاح، يَظهر ذلك بوضوح في عمليات الصراع السياسي التي تركزت على تحقيق مكاسب بالطرائق الدبلوماسية عجزت عن تحقيقها القوات العسكرية، ويظهر ذلك في محاولات اجتذاب قادة المسلمين إلى معارك في غير صالحهم، فكان هؤلاء القادة يمضون إلى أهدافهم وفقاً لمبادأتهم، وبحسب ما تفرضه مصلحة المسلمين.

وتبرز هنا العلاقة الجدلية التي كانت قائمة بين جماهير المسلمين وقادتهم، فكان التزام جماهير المسلمين بأهدافهم يدعم مواقف قادتهم في المحافظة على الهدف، بقدر ما كان تمسُّك القادة بالهدف والمحافظة عليه يدعم إيمان الجماهير، ويزيد من ثقتها بحتمية انتصارها ووصولها إلى هدفها. وكانت

الرابطة بين محافظة القادة على الهدف والتزام الجماهير بهذا الهدف أيضاً هي المقياس الصحيح لتقويم القادة وأعمالهم؛ فدمشق التي فتحت ذراعيها للمظفر قطز بعد عين جالوت، هي نفسها التي تمردت على «الظاهر بيبرس» في بداية عهده، ثم منحته الدعم والتأييد وسارت معه حتى نهاية الصراع، عندما أظهر التزامه بالمحافظة على الهدف الذي حققه «المظفر قطز» في عين جالوت. وكذلك الأمر بالنسبة لبقية جيوش الشام التي ما أن عرفت بانتصار المماليك في عين جالوت حتى منحتهم قيادتها وخضعت لهم من أجل الاستمرار في السير على الطريق نحو الهدف. وقد يكون لقادة المسلمين دورهم الكبير في المحافظة على الهدف، إلا أن دور جماهير المسلمين يبقى هو العامل الأقوى، فهو الذي حدَّد الهدف وهو الذي حافظ عليه، وحمل القادة على الالتزام به.

٧ ـ المؤخرات والشؤون الإدارية

لم يكن انتصار المسلمين في مصر على قوات الغزو في دمياط والمنصورة سوى نتيجة ضرب مؤخرات العدو وحرمانه من موارده الإدارية، ولم يكن ضعف الصليبيين نتيجة استنزافهم المستمر إلا بسبب ضعف المؤخرات والشؤون الإدارية. وقد عرف قادة المسلمين أهمية هذا المبدأ من خلال ممارساتهم، فعملوا باستمرار على ضمان أمن المؤخرات، وتأمين الإمداد الإداري للقوات بشكل مستمر. وتبرز مسيرة الأحداث أن اهتمام القادة باستمرار قد تركز على تكوين احتياطات من القدرة البشرية ومن وسائط القتال لمجابهة احتمالات تطور الصراع.

وقد يذهل القارىء عند متابعة صفحة الصراع في الحرب طويلة الأمد من ظاهرة توافر قوات احتياطية للعمل باستمرار، ولم يكن ذلك سوى نتيجة الجهد الدؤوب للقادة على اختلافهم بإعداد المؤخرات وضمان الإمداد الإداري. وهكذا، فقد كان جهد القادة مركزاً في اتجاهين: الاتجاه الأول، هو حماية مؤخرات المسلمين وتأمينها إدارياً. والاتجاه الثاني، هو ضرب مؤخرات العدو وحرمانها من مواردها الإدارية.

وعن هذا الطريق استطاع قادة المسلمين تحطيم التفوق لدى أعدائهم وتحويل ميزان القوى لمصلحتهم باستمرار. وهل اتفاق «المظفر قطز» مع مملكة عكا، قبل عين جالوت، سوى اتفاق لحماية مؤخرة قوات المسلمين وضمان الإمداد الإداري للقوات، مقابل حرمان المغول من استخدام هذا المبدأ؟.

جـ ـ قادة المسلمين وفن القيادة

١ ـ العنف في القضاء على أعداء المسلمين

قد يكون من المناسب هنا التمييز بين حالتين:

الحالة الأولى: استخدام العنف كعمل انتقامي وكأسلوب ردع على نحو ما فعله المسلمون في معركة عين جالوت وعكا وقليقية وأرمينية، حيث تذكر المصادر الإسلامية الصدمة التي أصابت المسلمين ذاتهم عند وقوع المذبحة القاسية في أعقاب فتح أنطاكية، وكذلك ما حدث في غزو قليقية قبلها وإبادة الأرمن.

والحالة الثانية: استخدام العنف للقضاء على قادة العدو ممن يعملون باستمرار لقيادة الصراع ضد المسلمين والتحريض لحربهم.

الواقع أن ما اشتهر به العرب المسلمون من فضائل حربية، **وما عرفه التاريخ عنهم من تطبيق رائع لمبادىء الحرب ولأسس السياسة الاستراتيجية التي توازن بدقة بين «غاية السلم» و«هدف الحرب»، قد جعل ظاهرة «العنف» في حروب العرب المسلمين مقنَّنة بدقة ومنظمة بإحكام**، إلا أن أعمال الإبادة الوحشية التي تميزت بها الحروب الصليبية، وأعمال القتل الإجماعي والتدمير الشامل التي ميَّزت حروب المغول ـ التتار ـ، قد دفعت المسلمين دفعاً لاستخدام العنف المضاد، غير المقنَّن، واللجوء إلى أسلوب «الفاعلية المطلقة في الحرب». وقد لا تكون هناك حاجة للقول إن مشاعر الغضب التي هيمنت على المسلمين لإزالة خلافاتهم في بغداد، وكذلك الشعور بالحاجة للانتقام والثأر كوسيلة للمحافظة على الروح المعنوية للمسلمين، قد وجدت لها مخرجاً في استخدام العنف المضاد، **وليس هناك من يستطيع توجيه اللوم للمسلمين إن هم استخدموا «الفاعلية المطلقة في الحرب»**، واستخدموا أيضاً وسيلة الإبادة بعد كل ما تعرضوا له من أعمال الإبادة والقتل الجماعي والتدمير الشامل.

أما الحالية الثانية، وهي استخدام العنف للقضاء على أعداء الإسلام من

القادة، فتظهر في مناسبات كثيرة، أبرزها محاولة اغتيال ولي عهد إنكلترا وملكها فيما بعد ـ إدوارد ـ الذي أعلن في مناسبات كثيرة أنه سيعود إلى بلاده لتجهيز حملة ضخمة، فأوعز «الظاهر بيبرس» إلى حلفائه من الإسماعيلية لاغتياله، ولو أنه تبرأ من ذلك عندما لم تنجح المؤامرة في اغتياله، وإنما أصابته بجراح بالغة بقي يعاني منها زمناً طويلاً، وعندما شفي من جراحه غادر الشرق، ولم يعد يفكر في العودة إليه أبداً.

وهناك حالات مماثلة نجح فيها الاغتيال السياسي بالقضاء على أكثر قادة الفرنج تطرفاً، ما أثار خلافات حول «الإرث» ومزق وحدة الفرنج. والظاهرة المميزة لمثل هذه الظواهر في استخدام العنف كانت مدروسة بدقة، بحيث أنها كانت تحقق الهدف المطلوب وهو التطوير المستمر لاستراتيجية الهجوم غير المباشر.

٢ ـ التحريض على الجهاد

لم تكن جموع المجاهدين في سبيل الله في حاجة لما يثير حماستها، كما أنها لم تكن في حاجة لمن يحدِّد لها واجبها، وكان عليها «هي» أن تحدد الواجبات والأهداف على امتداد الصفحة الجغرافية لبلاد الإسلام، من حدود الهضبة الإيرانية شرقاً وحتى أقصى بلاد الأندلس غرباً، ومن المحيط الهندي جنوباً حتى القفقاز وأرمينيا شمالاً؛ ذلك أن هذه الجموع وجدت نفسها وهي معرَّضة للإبادة والفناء على أيدي الغزاة، الذين رفعوا لواء الحرب الصليبية، ولكن بالرغم من ذلك، فقد عمل قادة المسلمين على إثارة الحماسة، وتظهر الأوابد بما ضمَّته من وثائق التاريخ أن قادة المسلمين لم يقصِّروا في استثارة جموع المسلمين لمتابعة الجهاد في سبيل الله، ولكن من الملاحظ أن التحريض على الجهاد قد أخذ، في هذه الفترة بالذات، طرائق عملية أبرزها:

١ ـ «البحث عن النصر.

٢ ـ مقاومة الهجمات بطرائق مختلفة تتناسب مع المواقف.

٣ ـ تحديد الهدف من التحريض ـ هدف الحرب».

إلى جانب استنزاف كل الطرائق الممكنة لضمان القدرة على الصمود، وتوفير كل ما هو ضروري لتأمين استمرار الصراع في الحرب طويلة الأمد.

لقد كان البحث عن النصر هو الوسيلة الأولى للقادة من أجل التحريض على الجهاد؛ فقد مرَّت على الأمة الإسلامية فترة صعبة ـ عند بداية الحروب الصليبية ـ

ظهر من خلالها أنه من الصعب مقاومة هذه الهجمة البربرية الوافدة من وراء البحار. ثم أخذت الأمة الإسلامية في النهوض من ذهول الصدمة ـ أو المباغتة ـ لتجد أنها أمام تحدٍّ مصيري يرتبط بوجودها ومستقبلها، وأخذت الاستجابة شكل مقاومة انفردت بها بعض مراكز القوى (الزنكيون في البداية، ثم تبعهم الأيوبيون ثم المماليك). وتركزت هذه المقاومة في عاصمتي الإسلام، القاهرة ودمشق المدينتين الخالدتين اللتين اضطلعتا بأعباء الدفاع عن الإسلام طوال الحروب الصليبية. وأخذت دوائر المقاومة في الاتساع حتى ظهرت نقطة الانعطاف الحاسمة في «حِطين»، وتبعتها «عين جالوت» لتقرِّران مستقبل الإسلام؛ لا في بلاد الشام ومصر، وإنما في العالم كله.

وخلال هذه الفترة كان البحث عن النصر، مهما كان صغيراً ومحدوداً، هو الوسيلة الأولى لاستثارة الحماسة وتحريض المجاهدين لمتابعة طريق الجهاد، وقد كان كل نصر يدعم النصر السابق له ويزيد من قدرة الصمود إلى أن أمكن حسم الصراع في النهاية لمصلحة المسلمين.

أما الوسيلة الثانية في مجال التحريض على الجهاد، فهي اختيار الطرائق المناسبة لمجابهة المواقف المختلفة. وعلى سبيل المثال، فقد وقفت «القبيلة الذهبية» التي تضم المغول وهي عاجزة عن مجابهة المغول «التتار» أو الانتصار للمسلمين، بالرغم من كل معاناتها لما كان يتعرض له المسلمون من ذبح وتقتيل، وعندما تحقق الانتصار في «عين جالوت» استطاعت القبيلة الذهبية أن تضطلع بواجبها، سواء عن طريق إغراء المسلمين في صفوف التتار للانسحاب من قوات المغول التتار، أو عن طريق توجيه تهديدها لأنصار المغول من دول الفرنج ـ الصليبيين ـ «إمارة أرمينية». وكانت «رابطة الدين» هي الوسيلة للتحريض على الجهاد ومقاومة مخططات أعداء الدين. وفي هذا المجال أيضاً، فإن الجهد المستمر لتوحيد إمكانات المسلمين، وبصورة خاصة في مصر والشام، لم يكن إلا تحريضاً على الجهاد وتعبيراً عن وحدة المسلمين في اعتقادهم وممارساتهم.

أما الوسيلة الثالثة في مجال التحريض على الجهاد، فهي تحديد هدف الحرب والدعوة لها. وكانت الرسائل المتبادلة بين قادة المسلمين تحدد هدف المعركة، وهي تماثل ما يطلق عليه حديثاً اسم «التوعية» أو «نشر الوعي»، حيث يطلب إلى جيوش المسلمين التوجه لتنفيذ أعمال مشتركة، أو القيام بعمليات تساعد على

تنسيق الجهد وتنظيم التعاون بين جيوش المسلمين بعضهم مع بعض.

٣ ـ الشجاعة في مواجهة الخطر

لم تكن فترة الحروب الصليبية فترة احتمال لمواجهة الخطر، وإنما هي تعايش مع الخطر ذاته، فقد كان الخطر جاثماً على كل صدر ومقيماً بصورة مستمرة، وتظهر مسيرة الأحداث أنه ما من مرة ظهر فيها الخطر على مختلف المستويات حتى ظهرت فضائل المجاهدين في سبيل الله، وفي طليعتها الشجاعة، فعملت على إحباط الخطر والقضاء عليه. وهنا، وعلى مستوى القيادات، يمكن على سبيل المثال تصور موقف «المظفر قطز» وقد وصلته رسالة «هولاكو» التي تطالبه بالخضوع لجبروت المغول وطغيانهم، وكانت جيوش المغول قد اجتاحت العالم الإسلامي في المشرق، ووصلت طلائعها حتى غزة، فهل هناك ما هو أكبر من هذا الخطر؟

لقد كانت لحظة حرجة بدون ريب تتطلب أعلى مراحل الشجاعة، وقد برهن «المظفر قطز» على توافر هذه الشجاعة عندما قرر عدم الرد على «هولاكو» وإعدام سفيره إلى القاهرة، وهي وسيلة لم يكن قادة المسلمين يقدمون على استخدامها إلا في ظروف نادرة. وكان نصيب «المظفر قطز» من الشجاعة أكبر عندما انتصر على الذات، فرفض إغراء الحصول على نصر سريع بالاستيلاء على عكا، وفقاً لما نصحه به بيبرس. وظهرت شجاعته الكبرى يوم وزّع قواته في التلال المحيطة بـ «عين جالوت» وأخذ في إدارة الحرب. وفي لحظة من اللحظات أظهر فيها قائد التتار المغول «كتبغا» كل كفاءته القيادية، فمزّق صفوف القوات المصرية، وعندها اندفع «المظفر قطز» إلى قلب المعركة، فجمع القوات حوله وأعاد التنظيم بسرعة، وتابع إدارة المعركة الحاسمة حتى تحقّق له النصر.

وتظهر الشجاعة في مواجهة الخطر أيضاً لدى قائد حامية حلب «الشيخ توران شاه»، عم «الناصر يوسف»، الذي جابه بقوات قليلة جيش «هولاكو»، واستمر في المقاومة لمدة أربعة أسابيع، بالرغم من سقوط المدينة في قبضة «هولاكو»، ما حمل قائد المغول على احترام شجاعة هذا الشيخ والإبقاء على حياته. وإذا ما تم الانتقال من مستويات القادة إلى مستويات جماهير المسلمين، فستظهر الشجاعة لدى المجاهدين في «ميافارقين» الذين رفضوا الخضوع لهؤلاء الذين دمَّروا حاضرة المسلمين في بغداد، رغم معرفتهم بما سيتعرضون له عند هزيمتهم، وهو

احتمال كان واقعاً بعد كل ما أحرزه المغول من انتصارات في مسيرتهم الطويلة.

وتظهر الشجاعة في مواجهة الخطر أيضاً لدى جماهير «دمشق»، الذين أعلنوا ثورتهم على المغول الغزاة الذين احتلوا مدينتهم، وأخذوا يتيهون على الإسلام والمسلمين فخراً بسيطرتهم على أقوى قواعد الإسلام. وكانت جماهير دمشق تعرف يقيناً أن الثمن الذي ستدفعه سيكون غالياً بعد ما عرفته من مذابح أبادت أولئك الذين دافعوا عن قلعة دمشق يوم اقتحمتها قوات التتار والصليبيين في موكب واحد، والشواهد بعد ذلك أكثر من أن تُحصى. وتبقى الظاهرة المميزة هي أن هذه الشجاعة لم تكن أكثر من امتداد للفضائل الحربية التي حملتها قوات الفتح الإسلامي، فكانت شجاعة الخلف على مثل ما كانت عليه شجاعة السلف، وكان هؤلاء وأولئك من تلاميذ مدرسة واحدة هي مدرسة الإسلام التي رسمت للمجاهدين في سبيل الله الطريق الصحيح للجهاد، وحددت لهم أهدافه.

٤ ـ القرارات الصحيحة

ليس بالمستطاع تقويم صحة القرارات أو خطئها إلا من خلال ما تتضمنه من نتائج وما تحققه من منجزات، وتتزايد صعوبة تقويم القرارات في إطار الظروف المعقدة التي كانت تُحيط بالمواقف المختلفة أثناء فترة الحروب الصليبية، وليس بالإمكان انتقاء موقف معين أو مناقشة قرار محدد، ذلك أن تشابك المواقف يجعل كل قرار مرتبطاً بمجموعة المعطيات المكوِّنة للصراع. وعلى هذا، فليس هناك مَن يُنكر صحة قرار «صلاح الدين الأيوبي» في حِطين، سواء في مجال اتخاذ قرار الحرب أو في مجال انتقاء ميدانها أو تحديد إدارة الحرب فيها، وكذلك الأمر بالنسبة لقرار «**المظفر قطز**» **الذي أدَّى إلى معركة** «**عين جالوت**»، وهو قرار تطلب بالضرورة اتخاذ مجموعة من القرارات، مثل إقامة اتفاق مع الفرنج، ومثل انتقاء ميدان المعركة وتحديد توقيتها، وبرهنت مسيرة الأحداث على صحة القرارات كلها.

ويمكن بعد ذلك جمع الشواهد الكثيرة في مجال إدارة «الظاهر بيبرس» لأمور الحرب، سواء في إقامة التحالفات التي تضمن تركيز الجهد ضد المغول في بعض الأحيان، لتنتقل هذا الجهد ضد الفرنج في أحوال أخرى، أو في مجال إدارة الحرب ذاتها في إطار «**التحرير الزاحف**» الذي انطلق من الداخل نحو الساحل، فحوَّل الممالك الصليبية إلى عدد من المدن المنعزلة والممزقة فوق

إطار جغرافي ضيق لا يتجاوز المناطق المحيطة بهذه المدن.

وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على أن العامل الأساسي الذي ساعد قادة المسلمين، عموماً، على اتخاذ القرارات الصحيحة هو رؤيتهم الواضحة لأبعاد الصراع وعوامله، ومعرفتهم الدقيقة لما كان يحدث وراء أفق المعركة، ومعلوماتهم الكاملة عما كان يحدث في أفق المعركة ذاته، فكان ذلك يساعدهم على تقويم المواقف المختلفة بصورة صحيحة، بدون خداع في الرؤية وبدون انفعالات بظروف طارئة، وهذا مما كان يؤدي بدوره إلى القرارات الصحيحة.

وهنا يمكن التساؤل: **هل كان قرار «المظفر قطز» في رفض تحدي «هولاكو» هو نتيجة معرفته بما توافر لديه من مصادر القوة مقابل ما استنزفته الحروب من قدرة المغول والتتار؟...**

قد يكون ذلك، فالمسيرة الطويلة عبر البلاد الإسلامية قد أضعفت قوة «زخم» هجوم التتار من دون ريب، ووصلت بالسيل إلى أسفل المنحدر السهلي، ولكن لم يكن باستطاعة «المظفر قطز» اتخاذ قراره التاريخي يقيناً لولا ما توافرت لديه من معرفة بقدراته الذاتية. وليست القرارات الصحيحة في النهاية سوى نتيجة التقويم الصحيح لمصادر القوة لدى الصديق والعدو، وكان هذا التقويم الصحيح هو العامل فيما اتخذه قادة المسلمين من «**قرارات صحيحة**».

٥ - إدارة الحرب وحماية المسلمين المجاهدين في سبيل الله

لقد كانت الحروب الصليبية، منذ بدايتها وحتى نهايتها، بما فيها الحروب ضد التتار والمغول، حرب إبادة جسدية وتصفية فكرية عقائدية. وقد يكون من الطبيعي، حتى على أساس الفعل ورد الفعل، أن يحرص قادة المسلمين على حماية المجاهدين في سبيل الله واتخاذ كل التدابير الوقائية لإحباط مخططات أعداء المسلمين. وهذا يظهر أهمية المبدأ الذي التزم به قادة المسلمين، وهو «**البحث عن النصر**» وإدارة الحرب بكفاءة مع دفع الحد الأدنى من «**ثمن الحرب**» والعمل باستمرار لتحميل أعداء المسلمين «**الثمن الباهظ للحرب**» في إطار الاستنزاف المستمر الذي يؤدي إلى الحسم.

ولقد تحمل المسلمون في البداية ثقل الهجمة الصليبية، ودفعوا ثمن الحرب غالياً. ثم أخذ المسلمون تدريجياً في ممارسة اللعبة ذاتها، إذا صح التعبير، فأخذوا في استخدام الطرائق ذاتها، ولكن في حدود مذهبهم العسكري المميز

بطرائق حرب الحركة وبالتطبيق المتكامل لمبادىء الحرب، وهنا يظهر تفوق القادة المسلمين.

ويجب الاعتراف هنا أن قادة الصليبيين وقادة التتار كانوا جميعاً على درجة عالية من الكفاءة، **وقد كان كتبغا أكفأ قادة المغول وأقربهم إلى هولاكو**، وهو الذي مهَّد لتقدم المغول حتى بغداد، ثم تولّى قيادة المقدمة حتى حلب، وتولى إدارة الحرب بعد ذلك في بلاد الشام، فكان انتصار «المظفر قطز» انتصاراً على أقوى قادة المغول، وكان انتصار «بيبرس» بعد ذلك انتصاراً على كبار قادة الفرنج، وأكثرهم خبرة. وكان مقاتلو الفرنج والمغول من أفضل المقاتلين الذين عرفتهم حروب العصور الوسطى، وبصورة خاصة منهم فرسان الطوائف الدينية.

ومن هنا تظهر صعوبة العمل في إدارة الحرب مع تحقيق مبدأ حماية المسلمين المجاهدين في سبيل الله، وهو ما أمكن تحقيقه في معظم المعارك الصليبية.

د ـ المجاهدون في سبيل الله

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال

حروب مستمرة على امتداد قرنين من عمر الزمن، وحملات من الغرب والشرق تحمل مختلف الرايات، وكلها تسير على قرعات طبول واحدة. وخاض المسلمون حروباً مريرة فوق أرضهم وفي قلب بلادهم، لم يحاولوا في يوم من الأيام التخلي عن أسلحتهم أو الاستسلام لما يريده أعداؤهم منهم، وهذا في حدِّه هو النموذج الأعلى «للاستعداد الدائم للقتال». وكانت تمرُّ على جماهير العرب المسلمين في الشام ومصر فترات تتطلب منهم نوعاً من المهادنة، ولكن الهدنة أو الاتفاق بقيت محدودة أبداً بزمن معين، كان المسلمون أثناءها يلتقطون أنفاسهم في غمرة الحرب طويلة الأمد، وليعاودوا استئناف الاحتكام إلى السلاح وهم أكثر قدرة بإمكاناتهم وأكثر ثقة بأنفسهم وأكثر استعداداً لمتابعة جهادهم، وهذا هو التعبير الصحيح أيضاً عن «الاستعداد الدائم للحرب». أما تطبيق مبدأ «الاستعداد الدائم للحرب» على مستوى العمليات، فيتجلى بإحباط كل محاولات قادة الفرنج لمباغتة المسلمين، ومن من مرة جرَّب الفرنج الوصول إلى دمشق بصورة مباغتة أو مهاجمة القاهرة بصورة مفاجئة، فكان المجاهدون في سبيل الله أبداً خلف أسلحتهم، لا يسمحون للعدو الغدر بهم أو النَّيْل منهم.

ويظهر الاستعداد الدائم للقتال أيضاً في تلبية جيوش المجاهدين في سبيل الله لأول نداء للحرب، فما إن كانت تطلب القاهرة نجدة جيش دمشق حتى كان هذا الجيش يسرع للوصول إلى هدفه في الوقت المناسب، وما من مرة طُلب إلى جيش مصر التوجه إلى بلاد الشام حتى كان هذا الجيش في ذروة استعداده للقتال.

وكان المجاهدون في سبيل الله يخوضون المعارك في إطار «وحدة مسرح العمليات»، وفي إطار «الهدف الواحد للحرب»، ولهذا فإن الاستعداد الدائم للقتال لم يكن محدداً في إطار دفع العدوان ضمن منطقة محددة، وإنما كان استعداداً لمجابهة العدوان فوق كل أرض من ديار المسلمين.

٢ ـ الروح المعنوية العالية

قد تحبط الهزائم الروح المعنوية بقدر ما ترفعها وتعزِّزها الانتصارات، وكانت الحروب الصليبية تناوباً بين الهزائم والانتصارات. وبالرغم من ذلك، فالشواهد التاريخية المتوافرة تبرهن على توافر الروح المعنوية العالية لدى المسلمين حتى وهم يعانون قسوة الاحتلال ووحشية العدوان، ويعود السبب في ذلك إلى جذوة الإيمان المتقدمة في قلب المؤمنين والتي تضيء لهم الظلمة الخارجية المحيطة بهم، وتبعث لديهم الأمل بحتمية النصر بالرغم من كل قسوة الظروف المحيطة. ولقد كان المجاهدون في سبيل الله يطلبون دائماً إحدى الحسنيين (**الشهادة أو النصر**)، فكان الخلَف على نحو ما كان عليه السلف من الذين أقاموا القواعد الصلبة للمسلمين في بلاد الشام ومصر، وفي كل موقع من العالم الإسلامي. أولئك أقاموا قواعد المسلمين، وهؤلاء حافظوا عليها، وجميعهم استمدُّوا من إيمانهم العميق ما يضمن لهم النصر على كل التحديات الخارجية، وهذا هو الاختلاف الأساسي بين المسلمين وبين أعدائهم الذين كانوا شديدي التأثر بالنصر بقدر شدة تأثرهم بالهزيمة، وهذا ما يفسر الجهود الكبيرة التي بُذلت لقهر المسلمين عسكرياً، ثم انهيار البناء العسكري الذي أقامه الفرنج بضربة واحدة، ولقد جاءت هذه الضربة في «حِطّين» ضد الفرنج، ثم جاءت الضربة التالية ضد المغول حلفاء الفرنج، وجاءت الضربة القاضية بعد ذلك؛ ثلاث ضربات فقط وانهار البناء، وكانت الروح المعنوية العالية للمسلمين هي أساس كلِّ هذه التحولات.

٣ ـ القدرة على تحمل الصعاب

ستَّة أجيال تعاقبت والحروب الصليبية مستمرة، ولم تفقد هذه الأجيال أصالتها، ولم تشعر بالملل من الحرب أو تظهر التعب من خوضها. ولم يكن على هذه الأجيال المتعاقبة خوض الصراع واحتمال كره القتال فقط، وإنما كان عليها القيام بالمسيرات الشاقة الطويلة عبر سيناء ذهاباً وإياباً، في حرِّ الصيف وقرِّ الشتاء، في الليل كما في النهار، وتجاوز ذلك للسير من أقصى بلاد الشام في الجنوب حتى أقصاها في الشمال، والتوغل عبر أقاليم ما وراء الدروب إلى بلاد القفقاز والأرمن، والقيام بأعمال الحصار وخوض المعارك ضد قوات شديدة البأس متوافرة القوة تحميها تحصينات قوية وأسوار منيعة. ويشكل التناوب في الأعمال القتالية بين الحروب الدفاعية والحروب الهجومية في حدِّ ذاته نوعاً من الصعوبات التي تنوء بها القوات المقاتلة، كما يشكل التناوب بين الأعمال القتالية في السهول والأعمال

القتالية في الجبال صعوبات إضافية مرهقة، ويشكل التناوب في المناخ أيضاً بين أقاليم الصحارى والأقاليم الباردة في شمال الشام ما يزيد من تلك الصعوبات كلها، ولكن هل كانت هذه هي كل ما جابهه المجاهدون من صعاب؟..

إن استعراض مسيرة الأحداث يبرز ما تعرض له المسلمون من صعوبات بالغة في تحقيق التوازن بين متطلبات السِّلم ومتطلبات الحرب، وضمان الموارد الاقتصادية لتأمين متطلبات الحرب، وكان أصعب ما في ذلك كله، أيضاً، تحمل الصعوبات الناجمة عن التناقضات الداخلية أحياناً، والصعوبات الناجمة عن ظروف العمل تحت سيطرة الاحتلال الأجنبي. وعلى هذا، فإن محصِّلة الصعاب لم تكن مادية فقط، وإنما هي صعوبات مادية ـ معنوية، ولعل الصعوبات المعنوية كانت تزيد في وطأتها وفي ثقلها على الصعوبات المادية، وهنا يظهر من جديد تأثير العامل المعنوي «**الإيمان**» في دعم القدرة على تحمل الصعاب.

٤ ـ الانضباط والطاعة

لقد تميَّزت فترة قيادة الزنكيين والأيوبيين والمماليك بتعاظم الصراعات الداخلية، وأعمال القتل والاغتيال السياسي. فقد ذهب «أيبك» و«شجرة الدر» و«المظفر قطز» وغيرهم كثيرون نتيجة المطامع والمطامح، وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدل على ضعف مفهوم الانضباط وسيادة مذهب القوة، وكان سبب ذلك هو غياب الشرعية، ولكن ذلك لا ينفي اكتساب مفهوم الانضباط نوعاً متطوراً من الشرعية التي تضع في اعتبارها متطلبات الظروف المحيطة بالصراع. **وكان التزام القادة بمبدأ الجهاد هو الذي يدعم سلطتهم الشرعية**، ويمنحهم القدرة لاكتساب ثقة جمهور المسلمين. وفي إطار مفهوم الجهاد كان بالمستطاع فرض الانضباط والطاعة مما تتطلبه ضرورات الحرب، وعلى هذا لم تكن القوة الطاغية للحكام هي التي تفرض وجودهم على المناطق الإسلامية التابعة لهم، وإنما كان التزامهم بمبدأ الجهاد والإخلاص له وتخصيص كل الجهد من أجله هو الذي يخلق المناخ الطوعي للانضباط.

ومن الملاحظ أن جماهير المسلمين لم تكن في موقع السلبية من تطورات الأحداث أو التناقضات الداخلية، فقد كانت تظهر طاعتها لمن يمارس دوره بكفاءة أكبر في قيادة الجهاد، ما كان يدفع القادة للمنافسة من أجل اكتساب ثقة الجماهير، وتلك هي الطاعة، وذلك هو الانضباط اللذان هَيْمنا على مناخ المجاهدين في الحروب الصليبية، وهو انضباط يبقى في الواقع مرتبطاً بجوهر المفهوم بأكثر مما هو مرتبط بشكل الانضباط وظاهره، فالهدف الدائم هو تنفيذ

الأوامر والتعليمات وفقاً لمضمونها؛ لا بحسب أشكالها، ومن هنا، فإن مضمون الانضباط والطاعة بقي ثابتاً وفقاً لمعطيات المذهب العسكري الإسلامي.

٥ ـ حرية العمل العسكري والسياسي

وكانت مسيرة الحروب الصليبية تناوباً بين الصراع السياسي والصراع المسلح، ولكن الأمر الواضح هو أن هامش التحرك السياسي كان يتزايد اتساعاً بقدر ما تتزايد حرية العمل العسكري. وكان التحرك السياسي بالمقابل يضيق مع كل تراجع في مجال العمل العسكري، **ويشكل هذا المبدأ في الواقع مبدأ خالداً في العلاقات الدولية**، ولكن الحروب الصليبية أعطت هذا المبدأ كل أبعاده وأبرزته بكل وضوحه.

لقد كان هامش التحرك السياسي ضيقاً قبل معركة حطين، بحيث لم يكن باستطاعة قادة المسلمين من الزنكيين فرض إرادتهم على الفرنج. وبعد حِطين تزايد هامش التحرك السياسي بما يتناسب والنصر العسكري، ثم جاء انتصار «عين جالوت» ليمنح «بيبرس» هامشاً كبيراً للتحرك السياسي، بحيث أصبح باستطاعة «بيبرس» فرض إرادته على قادة الفرنج مجتمعين ومنفردين، ليس ذلك فحسب؛ بل إنه أخذ في زيادة هامش حرية العمل العسكري والسياسي في وقت واحد عن طريق إيجاد حلفاء من المسلمين، وعن طريق إثارة الشقاق بين قادة الفرنج وانتزاع المكاسب منهم لحساب قضية المسلمين.

ويظهر من خلال ما سبق أن «فن الحرب» في فترة الحروب الصليبية بقي محافظاً على كافة الأسس والمبادىء التي طبقها قادة العرب المسلمون في حروبهم منذ بداية الفتح وحتى قيام الحروب الصليبية، وقد جاءت هذه الحروب لإغناء التجارب القتالية للمسلمين، وأبرزها التعامل مع القلاع والتحصينات، كما جاءت لتثبيت الفضائل الحربية التي ميَّزت المذهب العسكري الإسلامي، الذي يعتمد على معطيات ثابتة أبرزها الثلاثية التي سبق عرضها في مناسبات مختلفة، وهي:

١ ـ وجود جيل من القادة كلهم على درجة عالية من الكفاءة القيادية.

٢ ـ التطبيق الرائع للأسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب.

٣ ـ توافر أجيال صلبة من المجاهدين في سبيل الله.

وبذلك أمكن للمسلمين الانتقال من الهزيمة إلى النصر، والتحرك بعد ذلك فوق قمم النصر حتى تحقيق هدف الحرب، وهو تحرير بلاد المسلمين من كل الغزاة والطامعين.

أيام صليبية

وبعد، فتلك هي أيام صليبية، قاتل فيها المسلمون بقيادة «صلاح الدين الأيوبي» حيناً، وبقيادة الزنكيين من قبل و«المظفر قطز» و«بيبرس» من بعد، كلها تنتظم بناظم واحد، في منطلقاتها وفي مسيرتها وفي أهدافها. إنها تنطلق من قاعدة الدفاع عن بلاد المسلمين وحمايتها من الغزاة البرابرة، هؤلاء القادمون من الغرب وأولئك الوافدون من الشرق، وهي تسير في اتجاه واحد، وهو اتجاه الاعتماد على القوة الذاتية، وتوفير القدرات للصمود في القتال والاستمرار في الحرب، وكلها تهدف في النهاية إلى تحرير بلاد المسلمين ورفع راية الإسلام.

وقد يصاب المرء بالذهول وهو يطالع تلك الصفحات المشرقة، فالغزاة البرابرة قَدِموا من الغرب بجموعهم الضخمة لإقامة بناء في أرض المسلمين، والمغول وفدوا من الشرق لتحقيق الهدف ذاته. ورغم قسوة الهجمات المتواقتة في موعدها، فقد استمرت روح الصمود، وقاومت مدن الشام رغم معرفتها بما ستتعرض له من تخريب ودمار، ولم تضعف ولم تستسلم، فهل كان ذلك بفضل القادة الزنكيين أو الأيوبيين أو المماليك أو حتى السلاجقة والأتراك ـ القبائل الذهبية من المغول ـ؟ . . . يقيناً لا. فالفضل للمسلمين في بلاد الشام ومصر، إنهم القاعدة الصلبة التي أرغمت كل أولئك القادة على السير في اتجاه التحرير. لقد تخلى العرب المسلمون عن دورهم القيادي، وتركوه لمراكز القوى المتصارعة على القيادات، وركب هؤلاء الموجة.

ولم يكن العرب المسلمون في الشام ومصر يبتغون زعامة أو دوراً قيادياً، بقدر ما كان يهمُّهم الوصول إلى الهدف الكبير، وهو الدفاع عن دين العرب، الإسلام، وحماية بلاد المسلمين من الطامعين فيها، ويتأكد ذلك كله من حقيقة واحدة، وهي تبدل مراكز القوى وتنوُّعها والإبقاء على الهدف ذاته، مما يدلُّ على أن هذا الهدف كان أقوى من القيادات وأقوى من مراكز القوى ذاتها.

وجاء الصليبيون إلى الشام ومصر، يحملون لواء الصليبية، واعتنق كثير منهم الإسلام، وجاء البرابرة والمغول يحملون الوثنية، وخرجوا من بلاد الشام وقد

انتصر الإسلام. واعتنقت قبائل المغول ذاتها الدين الإسلامي، وتلك هي القاعدة الصلبة التي حفظت للعرب المسلمين بلادهم، والتي ضمنت لهم بقاء وجودهم المادي والمعنوي. **وكانت مذابح التتار بعد ذلك قاسية إلى درجة لا يمكن وصفها، ولا يمكن تصورها**، وأثارت الحقد، فكان ردُّ الفعل خروج المسلمين عن التسامح الذي عُرِفت به حربهم وتميَّزت به معاركهم، **ولكنه حقد دفع إلى الانتقام في حدود الهدف ذاته، وهو حماية المسلمين، ومن هنا، فإنها لم تصل أبداً إلى المرحلة الوحشية التي وصلتها أعمال التتار.**

ولا ينتقص ذلك، بداهةً، من قَدْر قادة المسلمين، من الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ولا يحطُّ من قدرهم أو يضعف من كفاءتهم القيادية. فقد ظهر جيل من القادة على مستوى التحدي المفروض. وقد يكون هناك ثمة اختلاف فيما بينهم من حيث مستوى القدرة ودرجة الكفاءة، إلا أنهم جميعاً تميَّزوا بوحدة طرائقهم في الصراع السياسي والصراع المسلح. وتبقى «عين جالوت» بعد «حِطِّين» منارة في تاريخ المسلمين، ونقطة تحول حاسمة في مسيرة الصراع ضد أعداء الدين.

تُرى هل كان من الأفضل أن يحمل هذا الباب عنوان «أيام صليبية» بدلاً من عنوان «المظفر قطز وعين جالوت».

قد يظهر ذلك للوهلة الأولى، فنصيب «المظفر قطز، ومعركة عين جالوت» من البحث أقل من المساحة التي احتلَّتها أعمال «صلاح الدين الأيوبي» أو أعمال «بيبرس». ولكن هل كان باستطاعة «بيبرس» الرجوع إلى مصر لولا استيلاء «المظفر» على السلطة في مصر وتنحية «ابن أيبك»؟ . . ثم هل كان باستطاعة «بيبرس» تطوير الأعمال القتالية لولا الانتصار الرائع الذي أحرزه «المظفر قطز» في «عين جالوت».

القضية ليست في مناقشة الاحتمالات، أو طرح الافتراضات، ولكن الحقائق كلها تشير إلى أن ما حدث قبل «عين جالوت» هو الذي مهَّد لهذا الحدث التاريخي، كما أن أعمال «بيبرس» كانت من نتائج أعمال «المظفر قطز» في «عين جالوت». ومن هنا، فليست الأهمية لما يحتله الحدث من مساحة زمنية أو مساحة تاريخية، وإنما هي في أهمية الحدث ذاته، وما تمخَّض عنه من نتائج. **ويبقى «المظفر قطز» و«عين جالوت» في قمة هذا الحدث، ويكون من الطبيعي أن يحمل البحث اسمه، بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأخرى.**

تبقى القضية الأكثر أهمية في مجال التعلم من التاريخ، وهو هدف البحث وغايته، هي في التركيز على الوقائع والأحداث بأكثر مما يتم التركيز على السِّيَر وحياة الأفراد، **ولو أن الصلة بينهما وثيقة والرابطة قوية. وهذا يبرز أيضاً**

ضرورة ربط ما حدث في «عين جالوت» بممهداته ونتائجه. وكانت الممهدات والنتائج أكثر اتساعاً وأبعد عمقاً من الحدث ذاته، في إطارَيْه الزمني والمكاني. ويصبح من الطبيعي أن يحتل حدث «عين جالوت» مساحة محدودة هنا في مجال البحث، بقدر المساحة التي احتلَّتها سيرة القائد «المظفر قطز».

لقد قررت معركة «عين جالوت» مصير المغول البرابرة، بقدر ما قررت مستقبل العرب المسلمين ومستقبلهم فوق أرضهم، وبقدر ما قررت أيضاً مصير الإمارات الصليبية التي أقامها الفرنج فوق الأرض الطاهرة من بلاد الشام. ولكن قد يكون من الضروري أيضاً الإشارة إلى مجموعة تلك المقاومات التي واجهتها قوات الغزو فوق كل شبر من الأرض العربية في «ميافارقين» وفي «حلب» وفي «دمشق». جاءت ثورة دمشق لتعيق قائد المغول «كتبغا» بعضاً من الوقت الذي ضمن «للمظفر قطز» مزيداً من حرية العمل العسكري في حدود الزمن المتوافر، وبالإضافة إلى ذلك، فقد استنزفت هذه المقاومات المتتالية بعضاً من قوة المغول، كما أن القاعدة الصلبة للمسلمين والشعور العدائي ضد الغزاة قد وضع التتار في محيط معزول، فكانت ضرباتهم في شبه فراغ. ومن هنا تظهر ضرورة وضع المعركة في إطارها العام ـ السابق واللاحق ـ قضية أخرى، كان لا بدَّ من طرحها ببعض التفصيل، وهي قضية التنسيق والتعاون بين قوات الفرنج وقوات المغول وما تمَّ خلالها من اتصالات واتفاقات، ومحاولة الفرنج تنظيم «الحرب بالوكالة» وإغراء المغول على الاضطلاع بما عجز الغرب عن تحقيقه.

قد يشعر الإنسان بشعور متناقض من قضية الصراع بين قادة المسلمين، وما انتهى إليه ذلك الصراع؛ من قتل لقائد معركة «عين جالوت» على يد صنيعته «بيبرس»، ولكن ما قام به «بيبرس» من أعمال وما حقَّقه من إنجازات تشفع له عند المسلمين، وتبقى قضية القتل معلَّقة بين «بيبرس» وخالقه حتى يوم الحساب. وقد استطاع «بيبرس» في الواقع انتزاع إعجاب المسلمين والحصول على محبَّتهم بعد كره؛ لا بسبب أصله كعبد رقيق، فقد تجاوز الإسلام ذلك، وإنما بسبب غدره بقائد «عين جالوت» وبطلها.

تلك هي بعض صفحات من الأيام الصليبية، وهي صفحات فيها صورة المسلمين في أصعب فترة عاشوها منذ الفتح، وفيها ما هو مشرق وما هو مظلم، ولكن صمود المسلمين وعنادهم وفضائلهم الحربية وقوة إيمانهم قد بعث النور من قلب الظلام، فأشرقت الدنيا بانتصارهم، بالرغم من كل ما عانوه، وبالرغم من كل ما تعرَّضوا له واحتملوه. وتوقفت الأيام الصليبية، ولا زالت الحرب مستمرة.

البَابُ الثَالِث

الظاهر بيبرس

(٦٠٧ ـ ٦٧٦هـ/١٢١٠ ـ ١٢٧٧م)

ونهاية الحروب الصليبية القديمة



المقدمة

تمضي مئات السنين ويبقى اسم الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون والأشرف خليل مضيئة كالشُّهُب في سماء دنيا المسلمين، مشرقة ساطعة في دنيا فن الحرب. فقد تولى هؤلاء المماليك الثلاثة قيادة جماهير المسلمين؛ من عرب وترك وأكراد وسواهم من شعوب العالم الإسلامي، وأكملوا مسيرة تحرير بلاد المسلمين من بقايا الكيانات الصليبية العدوانية. فكيف أمكن لهم ذلك؟...

لقد بدأت الحملات الصليبية والعالم العربي ـ الإسلامي في حالة من التمزق المرعب، فكان في ذلك انتصار الغزاة البرابرة الذين أثملتهم انتصاراتهم، فانطلقوا لإقامة كياناتهم فوق الأرض العربية، وارتكبوا في سبيل ذلك من الجرائم الوحشية، ما لم يعرفه العالم الإسلامي الذي اشتهر بتسامحه. وظن الفرنج الصليبيون، للحظة من لحظات التاريخ، أنهم قد نجحوا في إقامة بنيان ثابت سيبقى إلى الأبد، تماماً كما حلم بذلك قادة الغزوات التالية، بدايةً من حملات نابليون بونابرت ومروراً باللنبي وغورو، ونهايةً بقيادة الكيان الصهيوني، بيغن وديان وبيريس ومدرستهم الاستعمارية الاستيطانية.

وجاءت مسيرة الأحداث في الحرب طويلة الأمد لتبرهن على كذب تلك المزاعم وبطلان تلك الظنون، فقد ظهر بوضوح ما بعده وضوح؛ أن دنيا العرب المسلمين هي للعرب المسلمين، وأنه من المحال على الأرض الطيبة احتمال كل ما هو غريب عنها من قوات أجنبية أو كيانات غريبة أو معتقدات طفولية، وتبيَّن أن كل بنيان غريب، إنما هو بنيان فوق الرمال، لن يلبث طويلاً حتى تبتلعه رمال الصحراء، أو هو كالثلج الذي لا بدَّ له من الانصهار عندما تدركه حرارة الشمس.

وهكذا جاء قلاوون والأشرف خليل، ومن قبلهما الظاهر بيبرس، فكانوا كالشمس الساطعة التي صهرت ثلوج الغرب الباردة، وحوَّلتها إلى سراب قذفت به ريح الإسلام القوية إلى حيث قدمت.

المهم في الأمر، هو أن مرحلة التحرير التي قادها سلاطين المماليك؛ لم تكن إلا نتاجاً لجهود ضخمة وتضحيات لا حدود لها، ومعاناة تقصر الكلمات عن وصفها على امتداد مائتي سنة، تعرضت خلالها المنطقة العربية والعالم الإسلامي لهجمات ونكبات متواصلة، لم يكن أقلها هجوم المغول البرابرة من الشرق وتدميرهم للخلافة العباسية وإبادتهم للحياة الإنسانية، في كل موقع وطئته أقدامهم، ولم يكن أقلها أيضاً تدنيس المقدسات الإسلامية، وفي طليعتها القدس الشريف، وإقامة كيانات قائمة على النهب والسلب والتدمير المستمر لقدرات العرب المسلمين، وللمسلمين من غير العرب.

ولقد كانت هذه الهجمات واسعة الأبعاد في أهدافها، وفي مسارح عملياتها. فقد كان في طليعة أهدافها تدمير المسلمين، وكانت مسارح عملياتها تمتد من حدود بلاد الصين، وحتى شمال الأندلس، بما في ذلك البحر الأبيض المتوسط.

وخاض المسلمون حربهم طويلة الأمد على كل مسارح العمليات بتصميم لا مثيل له، وخرجوا من كل حروبهم والانتصار حليفهم، فبقي الإسلام وزالت كيانات أعداء المسلمين؛ ليس ذلك فحسب، بل إن الشعوب التي هاجمت بلاد المسلمين، لم تلبث أن اعتنقت الإسلام وتبنَّت مذهبه ورفعت رايته وحملت أعباء الدفاع عنه.

وكان من أبرز أحداث تلك الحرب طويلة الأمد، وقوع معركتين حاسمتين على أرض العدوان. فقد حطمت معركة «حِطِّين» الخالدة قوة الصليبيين، وجاءت بعدها معركة «عين جالوت» لتدمِّر المغول التتار، وانحسرت موجات الغزاة، وجاءت في أعقابها عملية التحرير الشامل لبلاد المسلمين في المشرق الإسلامي.

انتصر الإسلام في النهاية، وانتصر المسلمون، وكان أول انتصار لهم هو انتصارهم على ذاتهم وعلى نقاط ضعفهم، وقد تثير هذه الظاهرة قدراً غير قليل من التأمل؛ إذ أن عامل النصر بقي دائماً في القوة الداخلية الكامنة في الإسلام، والتي كانت بالنسبة للمسلمين المحرِّض الأساسي لمجابهة كل التحديات والانتصار عليها، وليس من الغريب بعد ذلك أن يتعرض الإسلام للحرب الشاملة بهدف القضاء على عوامل القوة لدى المسلمين.

لقد كان للقادة المماليك ـ السلاطين ـ دورٌ لا يُنكر في قيادة مسيرة التحرير ـ

بحسب المفهوم الحديث ـ ولكن العامل الأساسي هو «القدرة الكامنة في الإسلام» وفي إيمان المسلمين بهذه القدرة غير المحدودة، فأقبلت الشعوب البربرية التي جاءت لتدمير الإسلام على اعتناق الإسلام، مؤمنة بما يتوافر للعقيدة الإسلامية من قدرة كامنة، فكانت القوة، وستبقى أبداً، هي التي تفرض وجودها وهي التي تحقق الانتصار.

وتمضي مئات السنين بعضها يجر رقاب بعض، وتعود الأحداث لتتشابه في كثير من فصولها وأحداثها، ويغيب اسم العالم الإسلامي، وتتعرض الأمة العربية والإسلامية لمخاضات عسيرة، وتعتبر هذه المخاضات من الأمور الطبيعية المرافقة للمرحلة الأولى من كل حرب طويلة الأمد، وقد لا يكون من العسير توقع التحولات المحتملة في مسيرة هذه الحرب.

وبعد، فأحداث التاريخ نسيج متصل، وهو نسيج مكتوب بالكثير من الجهود والعرق والدماء، وهو إلى ذلك يضم الكثير من الدروس التي لا زالت تحتفظ بكل فائدتها وبكل أهميتها.

وتبقى دروس التاريخ هي المنهل لكل رائد يرغب في بناء المستقبل الصحيح على أُسس سليمة. ولعل من أهم ما يمكن تعلُّمه من أستاذ التاريخ هو أن **التصميم لبلوغ النصر** يشكل العامل الأساسي لتحقيق هذا النصر: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.



الوجيز في حياة
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٠٧	١٢١٠	ولادة الظاهر بيبرس.
٦٤٢	١٢٤٤	انتصار بيبرس في غزة (معركة الحربية).
٦٤٨	١٢٥٠	معركة المنصورة وظهور كفاءة بيبرس القيادية.
٦٤٨	١٢٥٠	بيبرس يتزعم مؤامرة ويقتل توران شاه لمصلحة عز الدين أيبك.
٦٥٤	١٢٥٦	خلاف بيبرس مع أيبك، وفرار بيبرس إلى دمشق.
٦٥٨	١٢٥٩	عودة بيبرس إلى مصر بعد مقتل عز الدين أيبك وتولي المظفر قطز الحكم في مصر.
٦٥٩	١٢٦٠	معركة «عين جالوت» واشتراك بيبرس في قيادتها.
٦٥٩	١٢٦٠	بيبرس يقود مؤامرة فيقتل المظفر قطز ويصبح حاكماً على مصر.
٦٦٠	١٢٦١	استيلاء بيبرس على دمشق وحلب.
٦٦٢	١٢٦٣	بيبرس يهاجم عكا.
٦٦٤	١٢٦٥	بيبرس يحرر قيسارية وحيفا وأرسوف.
٦٦٥	١٢٦٦	بيبرس يحرر الجليل، وقائده قلاوون يدمر أرمينيا.
٦٦٧	١٢٦٨	بيبرس يحرر أنطاكية.
٦٧٦	١٢٧٧	بيبرس يغزو بلاد الأناضول ثم يتوفى بعدها عن عمر يناهز السابعة والستين عاماً.

وجيز الأحداث بعد الظاهر بيبرس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٦٧٦	١٢٧٧	وفاة الظاهر بيبرس.
٦٧٨	١٢٧٩	قلاوون (المنصور) يستولي على حكم مصر.
٦٧٩	١٢٨٠	قلاوون يحبط هجوماً للمغول.
٦٨٠	١٢٨١	قلاوون ينتصر على المغول قرب مدينة حمص.
٦٨٤	١٢٨٥	تحرير حصن المرقب.
٦٨٦	١٢٨٧	قلاوون يحرر مدينة اللاذقية.
٦٨٨	١٢٨٩	قلاوون يحرر مدينة طرابلس.
٦٨٩	١٢٩٠	وفاة السلطان قلاوون وتولي ابنه الأشرف خليل.
٦٩١	١٢٩١	تحرير عكا وإخراج بقايا الصليبيين من بلاد الشام.
٦٩٤	١٢٩٤	وفاة الأشرف خليل وتولي الناصر محمد بن قلاوون مقاليد الحكم.

الفَصْلُ الأول

الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري

١ ـ بيبرس والبداية

٢ ـ بيبرس وطريق الجهاد

أ ـ الهجوم على قليقية (أرمينية) سنة (١٢٦٦م)

ب ـ تحرير أنطاكية سنة (١٢٦٨م)

جـ ـ الحملة البرتغالية الصليبية سنة (١٢٦٩م)

د ـ الحملة الإنكليزية بعد البرتغالية سنة (١٢٧١م)

هـ ـ حملة بيبرس الأخيرة سنة (١٢٧٧م)



الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري

(٦٠٧ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢١٠ ـ ١٢٧٧م)

«سينتصر مَن أتقن فن الخداع، لأنه فن المناورة»

(سان تسي ـ فن الحرب ـ ٥٠٠ ق.م.)

«إن أعظم انتصار وأنجحه هو في إرغام العدو على التخلي عن مشروعاته وخططه، بدون أن يتحمل الطرف الآخر أي أذى».

(بيلزير)

١ ـ بيبرس والبداية

كان سوق بيع الأسرى والأرقّاء في دمشق يضجُّ بالحركة والصَّخب، فقد ضمنت الحروب الصليبية إمداداً مستمراً من القدرة البشرية المتوافرة للبيع، كما كانت الحروب على تخوم الدولة الإسلامية، وما يرافقها من فوضى واضطراب، عاملاً إضافياً يدفع إلى أسواق بيع الأرقاء المزيد من القدرة البشرية، وهكذا ازدهرت تجارة الرقيق، وأصبحت مواردها في جملة «موارد الحرب».

وعلى الرغم من أن الإسلام قد حدَّ من قيود الرق وفرض الشروط الصارمة في معاملة الرقيق، ويسَّر الأمور لإعتاقهم، إلا أن حياة العصر، والظروف الاستثنائية التي كان يعيشها العالم الإسلامي؛ ساعدتا على توسُّع تجارة الرقيق.

وهكذا انتقلت هذه التجارة وتطوَّرت مع توسُّع الحروب، ولم تعد أسواق الغرب وحدها هي التي تستأثر بهذا النوع من التجارة، وإنما أصبحت شاملة وعامة في كل عواصم العالم القديم.

وفي سوق دمشق، وقف شاب ينتمي إلى الأتراك القبجاق، ضخم الجثة، أسمر البشرة، أزرق العينين، ذو صوت جهوري، شديد الوقْع، ينتظر قَدَره

ليعرف أين سينتهي به المصير. ومرَّ أمير حماة، فنظر إلى هذا الشاب وفحصه، إلا أنه لم يجد فيه غايته، فانصرف عنه، ولكن أميراً من المماليك اسمه البندقداري وجد في هذا الغلام الجلف الغليظ ما يريده، وأدرك ما يميزه من الذكاء والفطنة، فاشتري بيبرس وألحقه بالمماليك السلطانية.

وانصرف بيبرس لممارسة أمور الحرب والتدرُّب عليها، ولم تمضِ سوى فترة قصيرة حتى أخذ بيبرس في شقِّ طريقه نحو القيادة. وجاءته الفرصة المناسبة أثناء معركة المنصورة في مصر (سنة ١٢٥٠م)؛ فقد قام الفرنج بهجوم قوي للاستيلاء على المنصورة، وسقط قائد حامية المدينة «فخر الدين» في المعركة، إلا أن قادة المماليك تمكَّنوا من إعادة النظام والسيطرة على الموقف، وكان الفضل في ذلك إلى «بيبرس» الذي تولَّى القيادة، فبرهن أنه من أقدر القادة وأكثرهم كفاءة، وذلك عندما أعاد تنظيم القوات بسرعة، ووزَّع المقاتلين على المواقع الحساسة داخل المدينة، وعند تقاطع الشوارع، ثم ترك خيالة الفرنج يتدفقون على المدينة، مجتازين الباب الذي أمر بفتحه؛ وإذ شق الفرسان الفرنسيون ومَن اقتفى أثرهم من الداوية طريقهم حتى بلغوا أسوار القلعة، انقضَّ عليهم جند «بيبرس» من الشوارع الجانبية.

ولما لم تتمكن خيول الفرنج من الاستدارة في الشوارع الضيقة، فقد دبَّت الفوضى في صفوفهم، ولم يفلت من فرسان الفرنج غير عدد قليل، بلغوا ضفاف النيل راجلين، ولم يلبثوا أن غرقوا في مياهه، واستطاعت فئة قليلة أخرى أن تخلِّص نفسها من المنصورة.

أما الداوية، فلقوا مصرعهم وهم يقاتلون في الشوارع، ولم يبقَ منهم على قيد الحياة إلا خمسة من مجموعهم الذي يبلغ مائتين وتسعين فارساً.

واستمر الصراع المرير ثلاثة أيام (٨ ـ ١١ شباط ـ فبراير ١٢٥٠م)، ولكن المنصورة صمدت في وجه العدوان، وتمكَّنت من صدِّ الغزاة، وكان للجهود الرائعة التي بذلها بيبرس دور غير قليل في ما تمَّ إحرازه من نصر.

كانت مصر في تلك الفترة تحت حكم السلطان الصالح أيوب (الأيوبي)، ولما قام الفرنج بغزو مصر، لم يحتملِ الصالح أيوب الصدمة، فمات في (٢٣) تشرين الثاني ـ نوفمبر (١٢٤٩م)، وتولَّت زوجته «شجرة الدر» الحكم بدعمٍ من المماليك، وذلك في انتظار قدوم «توران شاه» بجيشه من الجزيرة الشامية.

واستطاع «توران شاه» إلحاق الهزيمة بالفرنج، وأخذ في بسط نفوذه على

أجهزة الحكم، فاصطدم بشجرة الدر التي لم تلبث أن عادت فاستنجدت بالمماليك الذين كان يقودهم «بيبرس».

وفي يوم الاثنين (٢) أيار ـ مايو سنة (١٢٥٠م)، وبينما كان «توران شاه» ينهض من مائدة الطعام، اقتحم عليه موضعه عساكر المماليك البحرية، وعلى رأسهم «بيبرس البندقداري»، وشرعوا، يتصدَّرهم «بيبرس»، في ضرب السلطان «توران شاه» بسيوفهم، فهرب هذا، وقد أصابته الجراح، إلى برج خشبي يقع إلى جانب نهر النِّيل.

ولما تعقبه الأجناد، وأشعلوا الحريق في البرج، قفز إلى النيل وأخذ يتوسل إليهم، وقد وقف في مياه النهر ملتمساً الرحمة، بعد أن عرض عليهم التنازل عن السلطة والعودة إلى إقليم الجزيرة بالشام؛ غير أنه ما من أحد استجاب لندائه. ولما لم تنجح الرماية بالسهام في قتله، وثب بيبرس من الشاطىء إلى النهر، وأجهز على السلطان توران شاه بسيفه.

وانتقلت السلطة إلى الأتابك ـ قائد الجيش ـ عز الدين أيبك، الذي تزوَّج شجرة الدر، ولم يلبث أن أخذ في منازعتها على السلطة والنفوذ، ومقابل ذلك شدَّد عز الدين الخناق على أنصار شجرة الدر، ما اضطر بيبرس إلى النجاة بنفسه ومغادرة مصر واللجوء إلى دمشق.

وفي نيسان ـ إبريل سنة (١٢٥٧م) دبَّرت شجرة الدر أمر اغتيال عز الدين أيبك، ولكن أنصاره تمكَّنوا من الانتقام له، فدبَّروا مؤامرة ضد شجرة الدر التي تعرضت يوم (٢) أيار ـ مايو سنة (١٢٥٧م) للضرب الشديد الذي أوْدى بحياتها، وانتقلت السلطة إلى المظفر قطز، فعاد بيبرس إلى مصر، ورحَّب به المظفر قطز وضمَّه إلى قادة جيشه.

تعرض العالم الإسلامي في تلك الفترة لأخطر محنة جابهها منذ أقام العرب المسلمون دولتهم، فقد هاجم المغول بغداد ودمَّروها، ووصلت جحافلهم إلى حلب واجتاحتها، وتقدَّمت إلى دمشق فاحتلَّتها، وسيطرت على بلاد الشام، ولم يبق أمامها سوى عبور سيناء للقضاء على المغرب الإسلامي.

وتصدَّى المظفر قطز للموقف، فقاد جيشه، وغادر مصر في (٢٦) تموز ـ يوليو (١٢٦٠م). وتولى بيبرس قيادة المقدمة، فسبق القوات إلى غزة، حيث كانت تدافع عنها حامية مغولية، بقيادة بايدار، ولم تصمد الحامية المغولية أمام هجمات بيبرس المنظَّمة والقوية.

وكان انتصار بيبرس في غزة هو بداية التحول في الموقف. ثم تابعت القوات الإسلامية تقدمها حتى وصلت إلى عكا، وكان المظفر قطز قد عقد هدنة مع الفرنج الذين وافقوا على إمداد المسلمين بالمواد التموينية، وأذنوا لهم بالمرور في المناطق التي يسيطرون عليها، كما قرَّروا دعوة أمراء المسلمين لزيارة عكا، باعتبارهم ضيوف شرف.

وقام بيبرس بزيارة عكا، وعندما رجع من زيارته اقترح على المظفر قطز القيام بهجوم مباغت للاستيلاء على عكا، بعد أن عرف بضعف الحامية الصليبية المدافعة عنها، غير أن المظفر قطز لم يكن مستعداً للغدر بحلفائه، أو فتح جبهة ثانية قبل أن يحسم الموقف مع المغول.

ووقعت معركة «عين جالوت»، وفيها تولَّى بيبرس قيادة المقدمة، حيث جابه ثقل هجمة المغول الذين كان يقودهم «كتبغا»، ثم تظاهر بالتقهقر في اتجاه الكتلة الرئيسية، والتي كانت تختفي في ثنايا التلال المحيطة بعين جالوت، وانقضَّ المسلمون بصورة مباغتة وأحاطوا بالمغول، وكان دور بيبرس كبيراً فيما تمَّ إحرازه من نصر.

وبعد المعركة، وعندما اتخذ المظفر قطز طريق العودة إلى مصر؛ تقدَّم بيبرس إلى المظفر قطز وطلب تعيينه حاكماً لمدينة حلب، وارتاب المظفر قطز، فلم يوافق على طلب بيبرس الذي أخذ في تنظيم مؤامرة على الفور.

وفي يوم (٢٣) تشرين الأول ـ أكتوبر (١٢٦٠م)، وصل الجيش إلى دلتا النيل، ورأى المظفر قطز أن يمضي يوماً من الراحة والخروج إلى الصيد في جماعة من أمرائه، من بينهم بيبرس وبعض أصدقائه. ولم يكد المظفر قطز يبتعد عن معسكره كثيراً حتى تقدَّم إليه أحدهم متظاهراً بتقبيل يده والتماس طلب منه وأمسك بيده، وفي تلك اللحظة انقض المتآمرون، واندفع بيبرس فأتاه من الخلف، وغرس سيفه في ظهر قائده المظفر قطز، ثم أسرع المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر، وأعلنوا نبأ مصرع السلطان.

وكان قائد الجيش، أقطاي، في خيمة السلطان عندما وصل المتآمرون، فبادر بالسؤال عمَّن تولى قتل السلطان، وأعلن «بيبرس» أنه هو الذي نفذ المؤامرة، فطلب إليه «أقطاي» الجلوس في دست السلطنة، وكان أول من قدَّم له فروض الولاء والطاعة، وحذا حذوه جميع قادة الجيش، **وعاد بيبرس إلى القاهرة، وقد أصبح سلطاناً يناهز الخمسين من عمره.**

٢ ـ بيبرس وطريق الجهاد

تلك هي البدايات الأولى لحياة «بيبرس» القيادية، وهي بدايات حافلة بالمتناقضات، تلتقي فيها قيم الوفاء بالغدر، والعبودية بالحرية. وقد يكون من الصعب تقويم فضائل تلك الفترة بمفاهيم العصر الحديث، فقد كان الوصول إلى مراكز القوة في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي قائماً على «المفاهيم الماكيافيلية» بكل ما فيها من وسائل غير مشروعة للوصول إلى أهداف مشروعة. وهكذا كان بيبرس صورة لعصره، ولا يضيره في ذلك ما تميَّزت به المرحلة الأولى من حياته، من غدرٍ وتآمر.

أما الناحية الأخرى، وهي الانتقال من العبودية إلى الحرية، فقد كانت قضية شائكة؛ إذ تعتبر الحرية والعقل شرطان في جملة الشروط الأساسية لمن يتولى شؤون المسلمين، ولكن نظام العتق من الرق والذي جاء به الإسلام، يسَّر الحل على فقهاء المسلمين، فتمَّ بيع بيبرس وإعتاقه، وأصبح باستطاعته ممارسة دوره في قيادة المسلمين وحكمهم.

ما أن استولى بيبرس على السلطة حتى وجد أمامه مجموعة من الأعمال الكبيرة، **وكان عليه قبل كل شيء أن يوطِّد مركزه، باعتباره حاكماً تقرر الاعتراف به سلطاناً في مصر بدون أية معارضة أو مقاومة.** ولكن حدث أن استولى على السلطة في دمشق أمير آخر من أمراء المماليك هو «سنجر الحلبي»، وكان سنجر مقبولاً في دمشق، وفي الوقت ذاته ظهر خطر المغوليين الذين قاموا بالهجوم على حلب، غير أن أميرَي حمص وحماه الأيوبيين أنزلا الهزيمة بالمغول، فزحف بيبرس على دمشق، وانتصر على جيش سنجر يوم (١٧) كانون الثاني ـ يناير سنة (١٢٦١م).

ومع أن سكان دمشق حاربوا في جانب سنجر، إلا أن بيبرس استطاع قمع مقاومتهم، ثم مضى لمعالجة أمر الأيوبيين، فبذل الوعود لأمير الكرك وحمله على الخضوع إليه، وبذلك تمكَّن من التخلص منه. أما الأشرف (أمير حمص)، فقد سمح له بيبرس بالبقاء على حكمها، حتى إذ توفي سنة (١٢٦٣م)، أضافها إلى مناطق حكمه المباشر. ولم يحدث إلا في حماه وحدها أن استطاع، من فروع الأسرة الأيوبية، البقاء في الحكم لمدة ثلاثة أجيال أخرى، ولو أن هذا الفرع بقي خاضعاً لمراقبة المماليك القوية والمحكمة.

وأراد بيبرس أن يجعل لحكمه سنداً شرعياً (دينياً)، فجاء إلى القاهرة جماعة من البدو وبصحبتهم رجل أسود البشرة اسمه «أحمد»، فأعلنوا أنه ابن عم الخليفة الذي قتله هولاكو، فناداه بيبرس على أنه الخليفة، بعدما تحقق من نسبه، غير أنه جرَّده من كل سلطة مادية.

ولم يلبث «أحمد»، الذي صار يُعرف بالحاكم، أن جرى تسييره إلى بغداد لاستردادها من أيدي المغول، وهناك لقي «أحمد» مصرعه أثناء محاولته التي لم تلقَ إلا مساندة ضئيلة من بيبرس، وارتقى ابنه هذه الخلافة الاسمية، وبقي هذا الفرع الذي يمثل الشرعية (العباسية) قائماً في مصر طوال حكم المماليك، إلا أنه لم يكن له من الأمر شيء.

كان على بيبرس بعد ذلك الانصراف لإنزال العقاب بأولئك الذين تعاونوا مع المغول من المسيحيين، وفي طليعتهم «هيثوم» ملك أرمينية، و«بوهمند» أمير أنطاكية، اللذين خصَّهما بيبرس بغضبه وكراهيته، فأرسل في أواخر فصل الخريف من سنة (١٢٦١م) جيشاً للسيطرة على حلب، بعد أن أعلن أميرها، من المماليك، العصيان، وشن غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية.

وتجدَّدت الإغارات في الصيف التالي، وتعرَّض ميناء السويدية للنهب، وجرى تهديد أنطاكية ذاتها؛ غير أن «هيثوم» استنجد بهولاكو، ثم وصل بقوة مؤلفة من المغول والأرمن في الوقت المناسب لإنقاذ أنطاكية.

وإذ ظلت سلطة المغول في شمالي سورية من القوة ما يكفي لتهديد بيبرس، فقد لجأ هذا إلى الدبلوماسية. وحدث وقتذاك أن جهر قائد القبيلة الذهبية «بركة خان» بالإسلام، وأعلن استعداده للتحالف مع بيبرس. وأفاد أحد سلطاني السلاجقة بالأناضول واسمه «كيكاوس» من دعم زعيم القبيلة الذهبية وبيبرس للعودة إلى بلاده واستعادة حكمه، الذي حرمه منه ما سبق حدوثه من تحالف بين المغول والبيزنطيين، وبين شقيقه قلج أرسلان، فهرب إلى بلاط خان بركة واستنصره لاستعادة حكمه المسلوب، فنصره.

وحدث في تلك الفترة أيضاً أن ظهر زعيم تركماني قوي في جنوبي شرقي قونية اسمه «قرمان»، فتمَّ الاتفاق معه حتى يقوم بضغط مستمر على الأرمن؛ وبرهن بيبرس بذلك على أنه دبلوماسي ماهر بقدر ما هو مقاتل شجاع.

أصبح باستطاعة بيبرس بعدئذٍ تركيز جهده لمعالجة الصليبيين (الفرنج) بالشام، وكان قد استقبل في نهاية سنة (١٢٦١م) وفداً يضم كونت يافا «يوحنا»

وسيد بيروت «يوحنا» أيضاً، اللذين جاءا للتفاوض في عودة أسرى الفرنج الذين وقعوا في أيدي المسلمين في السنوات الأخيرة، ولتنفيذ الوعد الذي كان قد قطعه السلطان عز الدين أيبك بإعطاء «زرين» في الجليل للصليبيين، أو دفع تعويض عنها، غير أن «بيبرس» رفض الاستماع إليهما، وأصدر أوامره بإرسال جميع الأسرى للعمل، وللإفادة من القدرة البشرية في الأعمال الزراعية.

غير أن الصليبيين في عكا لم يداخلهم اليأس من ابتزاز المكاسب، والإفادة من مساعدتهم للمسلمين في فترة معركة «عين جالوت»، فأوفدوا في شهر شباط ـ فبراير سنة (١٢٦٣م) كونت يافا «يوحنا» لمفاوضة السلطان بيبرس مرة أخرى في موضوع الأسرى، وكان السلطان بيبرس في تلك الفترة يعسكر بالقرب من جبل الطور، كما كان يحمل شعوراً ودِّياً تجاه يوحنا، كونت يافا، ولهذا وافق على عقد هدنة مع الصليبيين، كما وافق على تبادل الأسرى.

غير أن قادة طائفتي الداوية والأسبتارية رفضوا التخلي عن أسرى المسلمين الذين بحوزتهم، نظراً لأنهم كانوا صنَّاعاً مهَرة، ونظراً لما كان لهم من أهمية مادية للطائفتين. وارتاع «بيبرس» ذاته لهذا الاستغلال البشع، فقطع المفاوضات، ومضى إلى البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون.

وتعرضت مدينة الناصرة للنهب، كما دارت معارك عنيفة خارج أسوار عكا. ولما لم يكن «بيبرس» في تلك الفترة مستعداً لمهاجمة المدينة، فقد اكتفى بما أحرزه من نصر وانسحب إلى مواقعه، وبقيت الحدود مسرحاً للإغارات من قِبَل قوات الطرفين المتصارعين، المسلمين وأعدائهم. وفي أوائل سنة (١٢٦٤م) اتفق قادة الطائفتين، الأسبتارية والداوية، على توحيد قواتهما للعمل ضد المسلمين.

وكانت أول عملية مشتركة لهما هي محاولة الاستيلاء على مجدو، التي أطلق عليها الفرنج اسم حصن ليزون، ثم قامت قوات الطائفتين بإغارة مشتركة، بعد بضعة شهور، على عسقلان.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد حدث في خريف سنة (١٢٦٤م) أن قام المقاتلون الفرنسيون، الذين كانوا يتقاضون رواتبهم من ملك فرنسا، بالتوغل حتى بلغوا أرباض بيسان، وردَّ المسلمون على ذلك بأن شددوا في نهب القرى التي يحتلها الصليبيون إلى الجنوب من جبل الكرمل. وظهر أن تصعيد هذا التوتر لا بدَّ له وأن يؤدي إلى تطوير الصراع على طرفي الحدود، وعلى هذا خرج

بيبرس من مصر على رأس جيش كثيف في بداية سنة (١٢٦٥م).

وظهر خلال تلك الفترة ما يشير إلى تحرك المغول في الشمال للعدوان على سورية، وأصبح هدف «بيبرس» هو مجابهة هجوم المغول، غير أن الأنباء وردت بسرعة مبشِّرة بنجاح قوات المسلمين في صدِّ عدوان المغول في الشمال، وبذلك توافرت الفرصة أمام «بيبرس» لاستخدام قواته ضد الصليبيين في الجنوب.

وتظاهر «بيبرس» بالتلهي في رحلة صيد، في التلال الواقعة وراء أرسوف، ليظهر بصورة مباغتة أمام «قيسارية»، فسقطت المدينة على الفور في (٢٧) شباط - فبراير سنة (١٢٦٥م)، بينما صمدت القلعة مدة أسبوع قبل أن تستسلم حاميتها في (٤) آذار - مارس سنة (١٢٦٥م)، وسمح «بيبرس» للحامية بالخروج من دون أن تتعرض للأذى، غير أنه أمر بتدمير المدينة والقلعة وتسويتهما بالأرض.

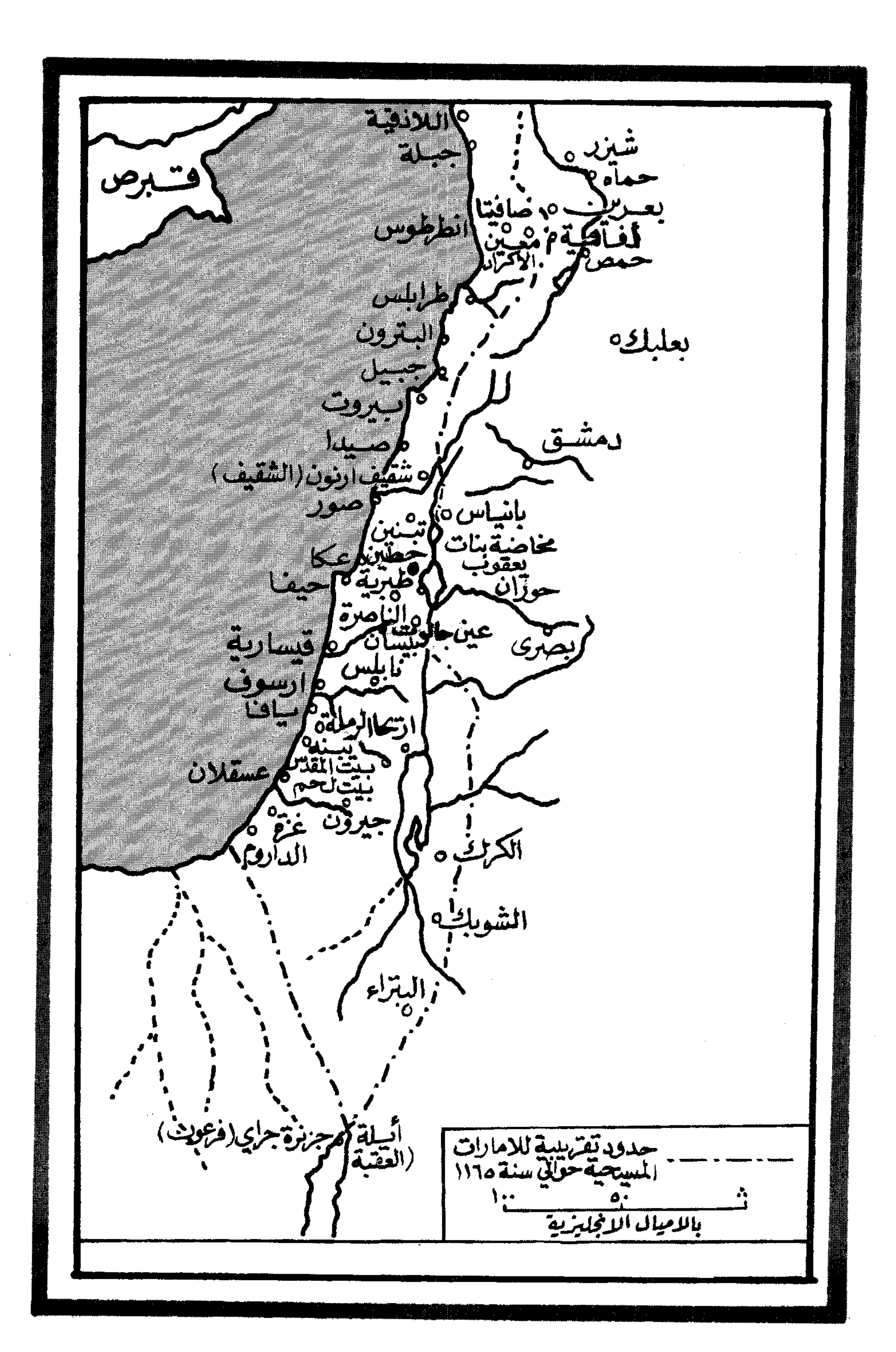
ثم ظهرت قوات «بيبرس» مرة أخرى أمام حيفا بعد بضعة أيام، وهرع السكان الذين تلقوا الإنذار في الوقت المناسب إلى السفن الراسية بالميناء، بعد أن تخلوا عن المدينة والقلعة اللتين جرى تدميرهما عن آخرهما. وفي تلك الأثناء هاجم «بيبرس» قلعة «**عثليت**» الضخمة التي كانت خاضعة لحكم فرسان الداوية، وأمر بإشعال الحرائق في القرية الواقعة خارج الأسوار، أما القلعة، فإنها نجحت في مقاومتها.

وفي (٢١) آذار - مارس، تخلَّى بيبرس عن حصارها، ثم زحف على «أرسوف» التي سبق للأسبتارية أن شحنوها بالمؤن والمقاتلين، فكان في القلعة نحو مائتين وسبعين من الفرسان الذين استبسلوا في القتال، غير أن المدينة السفلى سقطت في (٢٦) نيسان - إبريل سنة (١٢٦٥م)، بعد أن دمَّرت أدوات الحصار أسوار القلعة، ولم تمض أكثر من ثلاثة أيام حتى استسلم قائد القلعة الذي فَقَد ثلث عدد فرسانه، مقابل الحصول على وعد بالإبقاء على حياة الذين نجوا من القتل[1].

---

(١) أثار سقوط الحصنين الكبيرين في قبضة المسلمين مشاعر الفرنج ومخاوفهم، وهذا ما أوحى إلى شاعر الداوية الغنائي «ريسو بونوميل» من التروبادور، بأن ينظم قصيدة بالغة المرارة، يشكو فيها من أن المسيح أصبح فيما يظهر مسروراً لما حلَّ بالمسيحيين من مذلة وهوان. انظر القصيدة في:

Bar Tholomaeis, V. De Poesie Provenziale Storiche Relative All" Italis, Instituto Storico Italiano, Rome, 1931, Vol: II. P.P. 451, 452.



جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

وصل الدور على عكا، غير أن الوصي «هيو» من سادة أنطاكية، والذي كان بقبرص، هرع فعلاً بكل من استطاع أن يحشده من الرجال من الجزيرة، واجتاز بهم البحر. فلما تحرك بيبرس مرة أخرى من أرسوف صوب الشمال، تبين له أن هيو قد هبط إلى عكا في (٢٥) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٦٥م)، فعاد بالجيش المصري إلى بلاده بعد أن خلف عسكراً يكفي للسيطرة على الأقاليم التي تمَّ فتحها حديثاً، وأضحت حدود المناطق التي حرَّرها المسلمون على مرأى من عكا ذاتها.

وبادر بيبرس فكتب بأنباء انتصاراته إلى ملك صقلية «مانفرد»، الذي لا زال بلاط مصر يحتفظ بالصداقة التي مهَّد لها أبوه «فريدريك الثاني»[١]. واستمر الحظ في خدمة بيبرس، بعد أن حالفه طوال سنة (١٢٦٥م)؛ فقد مات هولاكو في أذربيجان، في (٨) شباط ـ فبراير سنة (١٢٦٥م)، ولم تلبث زوجته «طقز خاتون» أن ماتت بعد ذلك في صيف السنة ذاتها، وأصبح باستطاعة بيبرس استئناف حملاته لقتال الصليبيين بدون أن يخشى أي تدخل خارجي من قِبَل المغول؛ لا سيما وأن «أباقا»، الزعيم المغولي الجديد، أصبح مرغماً على تركيز جهده لرد غارات مغول «القبيلة الذهبية» الذين كان يقودهم الخان بركة، ومغول التركستان الذين تحولوا إلى الإسلام.

وهكذا خرج بيبرس من مصر في أوائل صيف سنة (١٢٦٦م)، وهو يقود جيشين. وظهر الجيش الأول الذي يقوده بيبرس أمام عكا في أول حزيران ـ يونيو سنة (١٢٦٦م)، على أن الكتيبة الفرنسية المدافعة عن عكا، كانت قد تلقت منذ عهد قريب دعماً أرسله ملك فرنسا «القديس لويس».

ولما اكتشف «بيبرس» أن الحامية المدافعة عن عكا، قد وصلت إلى مرحلة كافية من القوة؛ قام بتظاهرة عسكرية أمام حصن مونتفورت، الذي كان تحت سيطرة الفرسان التيوتون ـ الألمان، ثم زحف فجأة على صفد التي كانت تحت سيطرة فرسان الداوية، والتي كانت قلعتها الضخمة في مرتفعات الجليل.

وكانت تحصينات صفد وأسوارها قد أُعيد تجديدها بكاملها منذ خمس

---

(١) **فريدريك الثاني** (Fréderik II) (١١٩٤ ـ ١٢٥٠م): من مواليد ليسي (Lesi)، أصبح ملكاً على صقلية سنة (١١٩٧م)، ثم ملكاً على ألمانيا في سنة (١٢١٦م)، ثم امبراطوراً على الغرب سنة (١٢٢٠م)، ودخل في صراع مستمر ضد السلطة البابوية، كما اشترك في الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩م).

وعشرين سنة، كما كانت الحامية فيها وفيرة؛ غير أن عدداً كبيراً من المقاتلين كانوا من المسيحيين الوطنيين أو من المهجنين. وأظهرت هذه الحامية عناداً في القتال، وتمكنت من إحباط الهجمات المتتالية التي قام بها بيبرس في أيام (٧ و١٣ و١٧) تموز ـ يوليو.

وعند ذلك أعلن بيبرس، عن طريق المنادين، بأنه يمنح العفو التام لكل من يستسلم له من المسيحيين الوطنيين، فثارت شكوك فرسان الداوية على الفور بهؤلاء المسيحيين، ودارت بين الطرفين دائرة المهاترات والسباب، وتحولت هذه إلى مضاربة وتشابك، وأخذ السوريون في الفرار من الجيش الصليبي.

ولم يلبث الداوية أن أدركوا بأنه بات من المحال عليهم الاحتفاظ بالقلعة، ولهذا أرسلوا في نهاية شهر تموز ـ يوليو جندياً سورياً اعتقدوا في ولائه وإخلاصه، ووصل هذا المندوب إلى معسكر بيبرس، واسمه «ليو»، فعرض تسليم الحصن، ثم عاد بوعد من بيبرس يسمح بموجبه للحامية بالانسحاب إلى عكا بدون أن يتعرض أفرادها للأذى؛ غير أنه لما سلم الداوية القلعة إلى بيبرس، وفقاً لهذه الشروط؛ أمر بقتلهم جميعاً، وليس هناك أي دليل أو برهان يؤكد منح بيبرس مثل تلك الشروط، ومن المحتمل أن يكون «ليو» قد غدر بالفرنج الصليبيين، بعد أن أعلن تحوُّله إلى الإسلام.

والواقع أن الاستيلاء على صفد هيَّأ للقائد بيبرس الفرصة لتحرير الجليل؛ إذ أعقب ذلك بأن هاجم «تبنين» التي سقطت في قبضته بدون قتال، ثم أرسل من تبنين قوة مقاتلة لتدمير قرية قارة المسيحية، والتي تقع بين دمشق وحمص، وذلك بسبب اتصال أهلها بالفرنج الصليبيين، فأمر بقتل البالغين من سكانها واسترقاق الأطفال.

ولما أرسل المسيحيون وفداً من عكا يطلب منه السماح لهم بمواراة جثث الموتى، أغلظ في رفض طلبهم، وقال لهم: بأنهم إذا كانوا يلتمسون جثث القتلى، فسوف يجدونها في وطنهم. ولتنفيذ تهديده، هبط إلى الساحل، وقتل كل من وقع في يديه من المسيحيين؛ غير أنه لم يهاجم عكا وتجنَّب التعرض لها مرة ثانية.

ومقابل ذلك، حاول الفرنج الإفادة من فرصة انسحاب بيبرس، في فصل الخريف، فقاموا بتنظيم هجوم قوي ضم فرسان الطوائف الدينية العسكرية وقوة الكتيبة الفرنسية، بقيادة جفري سارجينس، وذلك لإعادة سيطرة الصليبيين على

الجليل؛ غير أن مقدمة الجيش وقعت في كمين نصبته حامية صفد يوم (٢٨) تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٢٦٦م)، كما قام العرب المسلمون بالهجوم على معسكر الفرنج الرئيسي، الذي كان يقوده هيو، وأصبح هذا مرغماً على سحب قواته التي تكبَّدت خسائر فادحة.

أ ـ الهجوم على قليقية «أرمينية» سنة (١٢٦٦م)

بينما كان بيبرس يحرِّر الجليل، احتشد في مدينة حمص جيش آخر بقيادة أكفأ أمراء بيبرس، الأمير قلاوون، وقام هذا الجيش بإغارة سريعة على محور طرابلس، استولى خلالها على حصني القليعة ومالبة، بالإضافة إلى مدينة عرقة التي كانت تتحكم بمحور العمليات، ما بين البقيعة وطرابلس، ثم أسرع جيش «قلاوون» في تحركه نحو الشمال ليلحق بجيش حمص، الذي كان يقوده أميرها المنصور، ثم توجهت قواتهما المشتركة إلى حلب، ولم تلبث أن انحرفت صوب الغرب، في اتجاه قليقية.

وكان ملك أرمينية «الملك هيثوم» يتوقع مثل هذا الهجوم، ولهذا حاول أن يصالح بيبرس بمجرد سماعه بأنباء موت هولاكو، مستخدماً في ذلك أسلوب المساومة؛ إذ كانت البحرية المصرية في حاجة للأخشاب من أجل بناء سفنها، وكانت هذه الأخشاب متوافرة في جنوب لبنان والأناضول، وهما من المناطق التي يسيطر عليها «هيثوم» وصهره أمير أنطاكية «بوهمند»، وكان الاثنان يأملان باستخدام أسلوب فرض الحظر على تصدير الأخشاب من أجل الضغط على بيبرس وإقناعه بعقد الصلح معهما؛ غير أن أسلوب الحصار الذي فرضاه لم يؤدِّ إلا إلى إمعان بيبرس في عزمه على القتال.

وعندما أدرك «هيثوم» عقم محاولاته، توجَّه في ربيع سنة (١٢٦٦م) إلى بلاط الإيلخان المغولي في تبريز في محاولة للحصول على دعمه لمواجهة هجوم المسلمين الذي بات وشيك الوقوع.

وبينما كان «هيثوم» في تبريز، هبَّت العاصفة على قليقية، وكان جيش أرمينية تحت قيادة ولديِّ هيثوم، وهما «ليو ـ وثوروس»، ينتظر عند دروب الشام، وقد تولى فرسان الداوية في بغراس حراسة جناحيه (مجنبتيه)؛ غير أن جيش المسلمين انحرف في اتجاه الشمال، فعبر جبال الأمانوس قرب سرفنتكار، وأسرع جيش أرمينية في محاولة لاعتراض تقدم المسلمين عند هبوطهم إلى سهل قليقية.

ودارت رحى معركة حاسمة يوم (٢٤) آب ـ أغسطس، وتعرَّض الأرمن للهزيمة المدمرة، فلقي أحد الأميرين الأرمينيين، وهو ثوروس، مصرعه، بينما وقع الآخر «ليو» في الأسر. وتدفقت قوات المسلمين الظافرة إلى قليقية، فتوجه قلاوون إلى إياس وأذنة وطرسوس لتدمير هذه المدن ونهبها، في حين قاد المنصور جيشه، فتجاوز المصيصة إلى عاصمة الأرمن «سيس»، حيث تمَّ تدمير المدينة ونهبها، وفي نهاية أيلول ـ سبتمبر انسحبت قوات الهجوم المنتصرة إلى حلب، وفي حوزتها نحواً من أربعين ألف أسير، وقافلة ضخمة من الغنائم.

وأسرع الملك «هيثوم» بالعودة من بلاط الإيلخان في جماعة صغيرة من المغول، فألفى ولي عهده أسيراً، وعاصمته خراباً، وبلاده بأكملها مستباحة. ولم تنهض ممكلة قليقية مطلقاً من هذه الكارثة، ولم يعد بوسعها إلا أن تقوم بدور سلبي في الأمور السياسية بآسيا الصغرى.

أراد بيبرس الإفادة من الموقف بعد أن تمَّ القضاء على خطر أرمينيا، فأرسل جيشاً في خريف سنة (١٢٦٦م) لمهاجمة أنطاكية؛ غير أن قادته أظهروا فتوراً في القتال، بعد أن امتلأت أيديهم بالغنائم. واستشاط بيبرس غضباً، وصمم على القيام بهذه العملية تحت إشرافه المباشر، إلا أنه قرر إرجاء ذلك وإعطاء الأفضلية المرحلية لمعالجة أمر الصليبيين في فلسطين، وعدم ترك فرصة لهم لاستعادة قوتهم، وعلى هذا قاد بيبرس الجيش ليظهر مرة أخرى أمام عكا، في أيار ـ مايو سنة (١٢٦٧م).

ولجأ بيبرس إلى مناورة خداعية، حيث رفع الرايات والأعلام التي سبق له أن استولى عليها من الداوية والأسبتارية، وبذلك تمكن من المضي مباشرة إلى أسوار عكا، قبل أن تنكشف الخدعة. ولكن على الرغم من ذلك، فقد تمكَّنت حامية عكا من إحباط الهجوم، فقنع بيبرس بما قام به من تدمير للقرى المحيطة بعكا، ومن إبادة للفرنج الذين تكبَّدوا في هذه العملية خسائر فادحة.

وانعكست أعمال بيبرس بصورة سلبية على الحياة في عكا، والتي أصبحت بالغة القسوة، وأثار ذلك الصراعات الداخلية بين الفرنج ـ الصليبيين ـ ذاتهم، حيث تجدَّد القتال بين البنادقة والجنويين من أجل السيطرة على الميناء.

وفي (١٦) آب ـ أغسطس سنة (١٢٦٧م)، شقَّ أمير البحر الجنوي «لوتشيتو جربمالدي» طريقه إلى الميناء في ثماني وعشرين سفينة، بعد أن استولى على برج الذباب الذي يقع في طرف حاجز المياه؛ غير أنه توجه بعد اثني عشر يوماً

إلى صور في خمس عشرة سفينة لإصلاحها. وفي أثناء تغيُّبه ظهر أسطول للبنادقة يضم ستّاً وعشرين سفينة، وهاجم ما تبقى من السفن الجنوية. وفَقَد الجنويون خمس عشرة سفينة في المعركة، بينما شقت السفن الأخرى طريقها إلى صور.

لم يبق للمسيحيين من ممتلكات جنوبي عكا سوى قلعة (عثليت)، التي كان يحتلها فرسان الداوية، ومدينة يافا التي كانت تحت سيطرة «يوحنا إبلين»، والتي ارتبطت بهدنة مع بيبرس.

وفي بداية سنة (١٢٦٨م)، خرج بيبرس بجيشه من مصر بهدف الاستيلاء على يافا وتحريرها، بعد أن مات حاكمها «إبلين» ولم يبق هناك ما يلزم بيبرس بتجنب الصراع معها. وهكذا، فما إن ظهر بيبرس أمام يافا يوم (٧) آذار ـ مارس سنة (١٢٦٨م) حتى استسلمت له بعد معركة قاسية لم تستمر أكثر من اثني عشرة ساعة، وتمت إبادة المقاومة؛ غير أن بيبرس سمح لمن بقي من الحامية بالالتجاء إلى عكا. وتمَّ تدمير القلعة، وأرسل ما تحويه من خشب ورخام إلى القاهرة لاستخدامها في بناء المسجد الكبير، الجديد، الذي كان بيبرس يشيِّده بها.

وتوجَّه بيبرس بعد ذلك لتحقيق هدفة التالي، وهو تحرير قلعة الشقيف، التي كان الداوية قد فرضوا سيطرتهم عليها منذ عهد قريب، فاستسلمت الحامية في (١٥) نيسان ـ إبريل، بعد أن تعرضت القلعة للقصف المتواصل بالمجانيق، لمدة عشرة أيام، ومنح بيبرس الحرية للنساء والأطفال، وسمح لهم بالانتقال إلى صور، أما الرجال، فقرَّر الاحتفاظ بهم أرقّاء، وأصلح القلعة، ووضع بها حامية قوية من المسلمين.

ب ـ تحرير أنطاكية سنة (١٢٦٨م)

تحرك بيبرس بعد ذلك بجيشه ليظهر في أول أيار ـ مايو سنة (١٢٦٨م)، وبصورة مباغتة أمام طرابلس؛ غير أنه انحرف فجأة في اتجاه الشمال، عندما عرف أن هناك حامية قوية تدافع عن طرابلس.

وأسرع «الداوية» في طرطوس وصافيتا، فتوسلوا إلى بيبرس أن يُبقي لهم المناطق التي بحوزتهم، فاستجاب بيبرس لرغباتهم وأسرع بالهبوط نحو وادي نهر العاصي، الذي أطلق الفرنج عليه اسم (الأورنت)، ووصل في (١٤) أيار ـ مايو إلى أمام أبواب أنطاكية.

وهناك قسَّم قواته إلى ثلاثة أقسام، فتوجَّه جيش للاستيلاء على السويدية،

وبذلك يقطع الاتصال بين أنطاكية والبحر، وتحرك الجيش الثاني إلى دروب الشام، لمنع كل مساعدة تصل إلى أنطاكية من قليقية، أما الجيش الرئيسي، بقيادة بيبرس نفسه، فإنه أخذ يقترب من المدينة ليطوِّقها.

وكان «بوهمند» أمير أنطاكية في طرابلس، فتولى قيادة أنطاكية الكندسطبل «سيمون مانسل»، الذي تزوَّج من أرمنية تمتُّ بصلة القرابة للأميرة زوجة بوهمند.

ومع أن أسوار أنطاكية جرى الاهتمام بإصلاحها، فإن الحامية لم تكن من كثرة العدد ما يكفي لشحن أسوارها الممتدة. على أن الكندسطبل حمله الطيش على أن يقود جماعة من العساكر إلى خارج المدينة، في محاولة لمنع مهاجمة المدينة؛ غير أنه وقع في أسر المماليك، فأمره آسروه بأن يدبر أمر استسلام الحامية، غير أن نوابه داخل الأسوار رفضوا الاستماع إليه.

وقام المسلمون في اليوم التالي بأول هجوم على المدينة، غير أن الفرنج نجحوا في إحباطه، فاستؤنفت المفاوضات من جديد ولكنها لم تُصِبْ نجاحاً.

وفي يوم (١٨) أيار ـ مايو، شنَّ المسلمون هجوماً عاماً على جميع القطاعات، وبعد أن اشتدَّ القتال حدثت ثغرة حيث امتدَّت الأسوار على منحدر جبل «سلبيوس» وتدفق منها المسلمون إلى داخل المدينة. وتفجر الغضب دفعة واحدة، فدارت رحى مذبحة رهيبة؛ إذ أمر السلطان بيبرس بإغلاق أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من المقاتلين، فتمَّت إبادة المقاومات بالشوارع، وامتدت الإبادة لأولئك الذين هربوا من القتال، فالتجؤوا إلى بيوتهم، ووقع بقية الرجال في قبضة الأسر، كما نجح الألوف من السكان بالهرب مع عائلاتهم واللجوء إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل، فتقرر الإبقاء على حياتهم.

وفي (١٩) أيار ـ مايو، أمر السلطان بيبرس بجمع الغنائم وتوزيعها، ومع أن رخاء أنطاكية ظلَّ عشرات السنوات يتداعى وينهار، فإن المدينة ظلت زمناً طويلاً من أغنى المدن التي وقعت في حوزة الفرنج، وما تكدَّس بها من الأموال يثير الدهشة؛ إذ كان بها مقادير كبيرة من الحلي الذهبية والفضية، وتوافر بها من النقود ما صار يوزَّع بالطاسات. أما عدد الأسرى، فكان بالغ الضخامة، فما من جندي من جنود المسلمين لم يَحُز مملوكاً، وبلغ الفائض من الوفرة ما جعل ثمن الغلام الصبي ينخفض إلى اثني عشر درهماً، بينما لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم.

كانت إمارة أنطاكية الصليبية أول إمارة أقامها الفرنج في بداية حروبهم الصليبية، وعاشت تحت حكم الفرنج مائة وإحدى وسبعين سنة، ولهذا فقد كان تحريرها ضربة قوية لهيبة الصليبيين ووجودهم، وفي الوقت ذاته كان تدمير أنطاكية وتحريرها ضربة قوية للمسيحيين الوطنيين الذين لم يتوقفوا عند حدود التعاون مع الفرنج الصليبيين، وإنما تجاوزوهم لمن كان أخطر منهم، وهم المغول، ولهذا فقد اعتُبِرت هذه الضربة تأديباً لهم.

ولم تنهض أنطاكية بعد ذلك؛ إذ فقدت أهميتها التجارية وتحوَّلت إلى مجرد قلعة على طرف حدود البلاد الإسلامية، وانتقل موظفو الكنائس إلى مواضع أكثر أهمية، بحيث لم يمضِ زمن طويل على سقوط أنطاكية، حتى استقرَّ في دمشق كل من الكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية بسوريا.

وإذ ضَعُفت أرمينيا وتدمرت أنطاكية، قرر الداوية أنه أضحى من المحال عليهم البقاء في قلاعهم المعزولة في جبال الأمانوس، فجلوا بدون قتال عن بغراس وقلعة «لاروش دي روسول»، التي تقلُّ عنها شأناً، ولم يبقَ من إمارة أنطاكية سوى مدينة اللاذقية التي أصبحت جيباً معزولاً، وقلعة القصير التي انعقدت أواصر الصداقة بين قائدها وبين المسلمين، فسمحوا له بالبقاء لمدة سبع سنوات أخرى، على أنه من أتباع السلطات بيبرس الذي أخلد فترة قصيرة إلى الراحة بعد تحريره لإمارة أنطاكية، وأخذ في الإعداد لمجابهة التطورات المحتملة، حيث ظهرت بعض الشواهد التي تشير إلى احتمال قيام المغول بدور إيجابي كبير. وفي الوقت ذاته، تردَّدت شائعات عن قيام ملك فرنسا «القديس لويس» بالإعداد لحملة صليبية ضخمة، ولهذا، فعندما أرسل الوصي على عكا «هيو» يطلب عقد هدنة؛ ردَّ «بيبرس» عليه بإيفاد سفارة إلى عكا تعرض وقف العداوة بصفة مؤقتة.

وكان «هيو» يأمل في الحصول على بعض الامتيازات، فحاول أن يهدِّد السفير «محيي الدين» بأن استعرض قواته في تعبئة القتال، غير أن «محيي الدين» اكتفى في إجابته عليه بقوله: «إن كل هذا الجيش ليس في كثرة العدد ما يضارع الأسرى الفرنج في القاهرة».

وطلب أمير أنطاكية «بوهمند» أن يدخل في عقد الهدنة، وساءه أن السلطان بيبرس لم يخاطبه في إجابته إلا على أنه كونت؛ نظراً لأنه فَقَدَ إمارته أنطاكية، غير أنه قَبِلَ في ارتياح ما تهيَّأ له من فترة للاستقرار.

والتفت أمراء الفرنج لإعادة تنظيم أمورهم وحل مشاكلهم الداخلية، في حين انصرف بيبرس لمجابهة التحديات الجديدة.

جـ ـ الحملة البرتغالية الصليبية سنة (١٢٦٩م)

لم تخمد جذوة الروح الصليبية نهائياً في أوروبا، ففي أول أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٦٩م)، أبحر من برشلونة «جيمس الأول» ملك أراغون بأسطول قوي لإنقاذ الشرق، ولكن عاصفة عاتية ما لبثت أن هبَّت في وجه الأسطول، فأثارت الرعب والاضطراب، ما حمل الملك على العودة إلى وطنه ومعه القسم الأكبر من أسطوله، ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير يقوده ولدان غير شرعيين للملك، وهما «فرناندو سانكيز، وبدرو فرنانديز»، فبلغا عكا في نهاية كانون الأول ـ ديسمبر سنة (١٢٦٩) متلهفين لقتال المسلمين.

وكانت الهدنة المعقودة بين «بيبرس» و«هيو» قد نقضت في بداية ذلك الشهر (كانون الأول)، وظهر بيبرس ومعه ثلاثة آلاف مقاتل في الحقول المترامية أمام عكا، بعد أن ترك بقية قواته مختبئة وراء التلال.

وأراد ولدا جيمس أن يبادرا على الفور بشنٍّ هجوم على المسلمين، ولم يُثْنِهما عن عزمهما سوى ما بذله معهما الفرسان الرهبان من كياسة؛ إذ ارتابوا أن يقعا في كمين نصبه بيبرس.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت قوة الصليبيين قد تناقصت إلى درجة كبيرة بنتجة حرب الاستنزاف في المعارك السابقة، وبصورة خاصة الكتيبة الفرنسية، التي خرجت بهدف التعرض للمسلمين، فوقعت في كمين أعدَّه لها الظاهر بيبرس، بحيث لم يبقَ من أفرادها على قيد الحياة إلا عدد بالغ القلَّة.

ولما تصايح جند الفرنج داخل عكا يطلبون المسير لإنقاذهم؛ منعهم من ذلك ولدا ملك أراغون اللذان وعيا دروسهما، ولم يلبثا أن عادا بعدئذٍ إلى أراغون من دون أن يحقِّقا شيئاً.

لم تكن المساعدة التي قدَّمها الغرب كافية لدعم الفرنج (الصليبيين)، ولكن أمل الفرنج بقي قوياً في الحصول على دعم المغول، ولهذا قرَّر ملك أراغون الاشتراك مع البابا «كليمنت الرابع» في إرسال سفارة إلى بلاط المغول في سنة (١٢٦٧م)، بهدف إعلامه عن قرب قدوم حملة ملك أراغون وحملة الملك لويس الصليبيتين، وعقد معاهدة عسكرية معه؛ غير أن امبراطور المغول في تلك

الفترة «أباقا» لم يبذل إلا وعوداً غامضة، نظراً لانصرافه التام إلى قتال القبيلة الذهبية، التي تحوَّلت منذ عهد قريب بكاملها لتكون دعامة للإسلام، وقد ظهر عجز «أباقا» عن تقديم أي دعم في السنة التالية، عندما هاجم المسلمون أنطاكية ولم يتمكن المغول من إرسال أي دعم لها.

ولم يلبث «أباقا» أن واجه حرباً جديدة مع أبناء عمومته (من بيت جغتاي)، الذين أغاروا على أملاكه الشرقية في سنة (١٢٧٠م)، ولم يرتدوا إلا بعد معركة عنيفة دارت قرب هراة.

ووجَّه «أباقا» كل اهتمامه في السنتين التاليتين لاستئناف المفاوضات مع عمِّه وسيده الخان الكبير في الصين «قبيلاي». على أن «أباقا» كتب في سنة (١٢٧٠م) إلى ملك فرنسا «القديس لويس» يتعاهد بأن يبذل مساعدة عسكرية متى ظهرت الحملة الصليبية في فلسطين. ولكن ما حدث بعد ذلك هو أن ملك فرنسا لم يصل أبداً إلى فلسطين، كما لم يقدم «أباقا» أي دعم، وكل ما فعله لمصلحة «هيثوم» ملك أرمينيا، هو أنه أطلق سراح أشهر أمراء المماليك، واسمه «شمس الدين سنقر الأشقر» (أي: الباشق الأحمر)، والذي أسره المغول من قبل، وذلك لقاء موافقة «بيبرس» على إطلاق سراح «ليو» ولي عهد هيثوم. ووافق بيبرس أيضاً على عقد هدنة مع هيثوم، بشرط أن يتنازل الأرمن له عن حصون جبال الأمانوس، وهي دربساك وبهنسا ورعبان، وتمَّ إبرام المعاهدة في شهر آب ـ أغسطس (١٢٦٨م).

وفي أوائل السنة التالية (١٢٦٩م) عاد ليو إلى أرمينيا، بعد أن أذن له بيبرس بالحج إلى بيت المقدس، وبادر والده «هيثوم» بالتنازل عن العرش، ثم لجأ إلى أحد الأديرة، ثم مات في السنة التالية. وأقرَّ «أباقا» تنصيب «ليو» ملكاً على أرمينية، فتوجه إليه «ليو» وبذل له يمين الولاء.

أما بيبرس، فقد بلغته أنباء تحرُّك ملك فرنسا «القديس لويس»[1] على رأس

---

(١) **القديس لويس** (Louis IX - ou Saint Louis): هو ابن ملك فرنسا لويس الثامن والملكة بلانش دو كاستيل، وُلد في بواسي (Poissy) سنة (١٢١٤م)، وأصبح ملكاً لفرنسا (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠م)، وقد ملك في البداية تحت وصاية أُمه (١٢٢٦ ـ ١٢٣٦م)، التي اضطلعت بأمر القضاء على ثورة إقليم «تارن»، وهي الثورة المعروفة باسم «البيجين Albigeois»، والتي انتهت بمعاهدة باريس سنة (١٢٢٩م)، حيث حصل إقليم «تارن» على استقلاله عن «أكيتانيا» ثم عن «اللانغدوك» وانضم إلى التاج الفرنسي سنة (١٢٧١م). وما أن بلغ الملك «القديس لويس» سن =

حملة صليبية جديدة، ولهذا فقد ظلَّ ملتزماً الهدوء والسكون طوال صيف سنة (١٢٧٠م)؛ غير أنه كيما يضعف الفرنج دبَّر اغتيال «فيليب مونتفورت» سيد صور (١٢٤٠ ـ ١٢٧٠م)، والذي كان يُعتبَر من أعلام بارونات الفرنج وكبار قادتهم، وقد أوْكل بيبرس هذه المهمة إلى الإسماعيلية (الحشاشين)، وقد أظهر هؤلاء استعدادهم للتعاون بصدق مع بيبرس، نظراً لأن ما قام به بيبرس من الفتوح حرَّرتهم من أداء الجزية التي كانوا يدفعونها لفرسان الأسبتارية (الصليبيين). وعلاوة على ذلك، فقد استنكر الإسماعيليون بشدة ما دار من مفاوضات وما حدث من تعاون بين الفرنج والمغول الذين دمَّروا معاقلهم في فارس وأبادوهم في كل موقع سيطروا عليه.

وعلى هذا أرسل الإسماعيليون أحد الفدائيين إلى صور، وتظاهر هذا بأنه مسيحي، ودخل إلى الكنيسة يوم الأحد (١٧) آب ـ أغسطس سنة (١٢٧٠م)، حيث كان «فيليب مونتفورت» يؤدي بها الصلاة، ومعه ابنه «يوحنا»، فانقضَّ عليهما فجأة، وتعرَّض «فيليب» لجراح قاتلة قبل أن تصل إليه النجدة، على أنه بقي على قيد الحياة حتى علم بأنه تمَّ إلقاء القبض على قاتله، وأن ابنه نجا من القتل.

وهكذا تخلص بيبرس من خصم خطير، ولم تلبث أن جاءته الأنباء وهي تحمل له البشائر عن التخلص من خصم خطير آخر، فقد مات«القديس لويس» أمام أبواب تونس، ولم تعد هناك حاجة للمضي من أجل مساعدة أمير تونس.

وعرف «بيبرس» أنه لم يعد هناك ما يخشاه، فسار مرة أخرى في سنة (١٢٧١م) لمهاجمة الفرنج، وظهر بصورة مباغتة في شباط ـ فبراير من عام

= الرشد، وأصبح ملكاً، حتى ثار ضده «كونت دو لامارش»، بدعم من الإنكليز. واستمر الصراع حتى سنة (١٢٥٩م) بموجب معاهدة باريس التي ضمنت لملك فرنسا أن يضم إليه أقاليم «النورماندي وأنجو وماين وبواتو». وما أن علم «لويس» بانتصار «صلاح الدين» حتى قاد جيشه واحتل مصر، إلا أن المسلمين ألحقوا بقواته الهزيمة في «المنصورة» سنة (١٢٥٠م)، فافتدى نفسه وانسحب إلى فلسطين وبقي فيها (١٢٥٠م ـ ١٢٥٤م)، حيث عاد إلى فرنسا بعد موت والدته التي استطاعت القضاء على الثورات أثناء غياب الملك (ابنها). وانصرف الملك «لويس» لبناء الدولة وتنظيمها اقتصادياً وإدارياً وعسكرياً وقضائياً، وساعده ذلك على توحيد البلاد. وفي سنة (١٢٧٠م)، أراد «لويس» الوفاء بنذره الذي قطعه على نفسه أثناء مرضه، بقيادة حملة صليبية، ولكن هذه الحملة اصطدمت بالمقاومة الإسلامية في مدينة تونس، ولم يلبث «لويس» أن مات أمام أبواب تونس، وفشلت حملته في الوصول إلى هدفها.

(١٢٧١م) أمام صافيتا أو «القلعة البيضاء»، التي كانت تحت حكم طائفة الداوية، وبعد أن استماتت الحامية في الدفاع؛ أشار عليها مقدم الداوية بالتسليم، فسمح بيبرس لمن بقي على قيد الحياة بالالتجاء إلى طرطوس.

ثم زحف بيبرس على حصن الأكراد الضخم، أو قلعة الحصن، والتي كانت تحكمها طائفة الأسبتارية، فبلغها في (٣) آذار ـ مارس. وفي اليوم التالي لحقت به كتائب من مقاتلي الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ كما لحق به أيضاً أمير حماة «المنصور» ومعه جيشه، إلا أن الأمطار الغزيرة التي استمرت عدة أيام أعاقته عن جلب أجهزة الحصار. وعلى الرغم من ذلك، فقد استطاعت قوات المسلمين أن تجد لها طريقاً للوصول إلى باب السور الخارجي، بعد قصف شديد لم يستمر طويلاً، ثم شقوا لهم طريقاً إلى السور الداخلي بعد أسبوعين، فقتلوا كل من صادفهم من الفرسان المدافعين عن البرج، وأسروا المقاتلين من المسيحيين الوطنيين، واستمر كثير من الجند المدافعين في مقاومتهم لمدة عشرة أيام أُخرى في محاولة للاحتفاظ بالبرج الكبير الذي يقع في الجنوب من السور، وأخيراً، أعلنوا استسلامهم يوم (٨) نيسان ـ إبريل، فتقرَّر إرسالهم بأمان من السلطان بيبرس إلى طرابلس.

وكان استيلاء بيبرس على حصن الأكراد الذي صمد في وجه قادة المسلمين، ومنهم صلاح الدين الأيوبي، عاملاً ضَمَن لبيبرس السيطرة على الطرق المؤدية إلى طرابلس.

وأتبع بيبرس ذلك بالاستيلاء على عكار، القلعة الواقعة إلى جنوبي البقيعة، والتي كانت أيضاً تحت احتلال طائفة الأسبتارية، والتي سقطت بدورها في أول أيار ـ مايو، بعد حصار استمر أسبوعين.

جعل «بوهمند» أمير أنطاكية السابق من مدينة طرابلس عاصمة له بعد أن فَقَدَ عاصمته السابقة؛ وإذ خشي بوهمند أن يفقد طرابلس أيضاً، بعد أن تعاظمت تحديات بيبرس، فقد أرسل إليه يلتمس عقد هدنة معه، إلا أن بيبرس سخر منه لافتقاره إلى الشجاعة، فقد طلب إليه أن يؤدي كل نفقات الحملة الأخيرة، ولما لم يكن باستطاعة بوهمند الاضطلاع بمثل هذا العبء، فقد أظهر تصميمه على رفض شروط بيبرس القاسية.

وفي تلك الأثناء نظم بيبرس هجوماً على معقل (مرقية) الصغير، والذي تمَّ تشييده تجاه الساحل بين بانياس وطرطوس، ولكن هجوم قوات المسلمين فشل

فشلاً أثار غضب بيبرس، فحرَّض الإسماعيلية على اغتيال قائد حامية (مرقية) واسمه «بارثولوميو»، والذي كان قد توجه إلى بلاط المغول يلتمس الدعم.

وتوافرت المعلومات عند بيبرس عن احتمال وصول حملة صليبية جديدة، فوافق على ما كان «بوهمند» قد طلبه، وتمَّ عقد هدنة لمدة عشر سنوات لم تتضمن من الشروط سوى احتفاظه بالمناطق التي تمَّ تحريرها حديثاً.

ثم توجه بيبرس عائداً إلى مصر، إلا أنه توقف قليلاً في طريق العودة، لإلقاء الحصار على (حصن مونتفورت) الذي كان تحت سيطرة الفرسان الألمان ـ التيوتون ـ، وبعد حصار أسبوع واحد استسلمت حامية الحصن يوم (١٢) حزيران ـ يونيو، ولم يبق بأيدي الفرنج حصون في داخل البلاد.

وفي تلك الفترة تقريباً، وجَّه بيبرس أسطولاً مؤلفاً من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص، بعد أن سمع أن الملك «هيو» غادر قبرص إلى عكا. وظهر أسطوله فجأة تجاه ليماسول، غير أن بحارة الأسطول أظهروا ضعفاً في مهارتهم البحرية، فتحطمت إحدى عشرة سفينة، ووقع بحارتها أسرى في أيدي القبارصة.

د ـ الحملة الإنكليزية بعد البرتغالية (سنة ١٢٧١م)

كان ملك إنكلترا «هنري الثالث»[1] قد التزم منذ وقت طويل بقيادة حملة صليبية جديدة، ولكنه وصل إلى مرحلة الكهولة من عمره، ولمَّا لم يتمكن من الوفاء بالتزامه؛ حمل ابنه ـ وولي عهده ـ «إدوارد»[2] على قيادة حملة إلى فلسطين.

كان إدوارد في أوائل الثلاثينات من عمره، عندما صمَّم على قيادة حملته بعد أن وصلته أنباء تحرير المسلمين لمدينة أنطاكية. وعندما أخذ «إدوارد» بالإعداد لحملته، أخذ نبلاء إنكلترا، الذين سبق لهم أن وعدوا بمرافقة «إدوارد»، بالانسحاب والاعتذار واحداً بعد الآخر. وفي النهاية، غادر «إدوارد» إنكلترا في

---

(١) **هنري الثالث** (Henri - III) (١٢٠٧ ـ ١٢٧٢م): من مواليد وينشستر (Winchester)، أصبح ملكاً لإنكلترا اعتباراً من سنة (١٢١٦م) (تحت الوصاية).

(٢) **إدوارد الأول** (Edward - 1er) (١٢٣٩ ـ ١٣٠٧م): ملك إنكلترا، وقد تولى الملك اعتباراً من سنة (١٢٧٢م)، خضع لسيطرة الغالوازيين وخاض بحزم صراعاً ضد الإيقوسيين، وكان يحترم إلى حد كبير الحرية البرلمانية، فاستحق أن يطلق عليه لقب جوستينيان البريطاني (نسبة إلى المشرع والامبراطور جوستينيان البيزنطي).

صيف سنة (١٢٧٠م)، ولم يصحبه أكثر من ألف رجل، فضلاً عن زوجته إليانور قشتالة، ثم لحق به أخوه دوق لانكستر «إدموند» الذي سبق ترشيحه ليكون ملكاً على صقلية، ومعه قوة دعم صغيرة من البريتونيين، بقيادة كونت بريتاني، وسرية من عساكر الأراضي المنخفضة، بقيادة رئيس أساقفة لييج تيد ألوفيسكونتي.

وكان «إدوارد» ينوي اللحاق بالملك الفرنسي «القديس لويس» في تونس، والإقلاع معاً إلى فلسطين؛ غير أنه لما وصل إلى تونس، علم بموت ملك فرنسا واستعداد الحملة الفرنسية الفاشلة للعودة إلى فرنسا، فأمضى «إدوارد» فصل الشتاء في صقلية، وأبحر في الربيع التالي إلى جزيرة قبرص، ومنها إلى عكا حيث وصلها في (٩) أيار ـ مايو سنة (١٢٧١م)، ولم يلبث أن لحق به الملك هيو والأمير بوهمند.

وعندما قام «إدوارد» بدراسة الموقف، تبين له مدى التدهور الذي وصلت إليه حالة الفرنج في بلاد الشام، وأدرك أن جيشه الصغير لا يستطيع أن يحقق شيئاً يُذكر؛ غير أنه بقي محتفظاً بالأمل في توحيد المسيحيين في بلاد الشام، ليكوِّن منهم قوة ضخمة، كما كان يأمل أيضاً في الإفادة من القدرة القتالية للمغول، ودفعهم للقيام بهجوم جديد على المسلمين.

وحاول «إدوارد» توحيد جهود الفرنج، وبذل جهوداً كبيرة، إلا أن محاولاته اصطدمت بعقبات كؤود، فلم تفلح جهوده بالوصول إلى أهدافها. ولم يكن الأمير الإنكليزي أكثر توفيقاً في علاقته مع المغول؛ إذ أنه أرسل سفارة إلى الإيلخان بمجرد وصوله إلى عكا، وتألفت هذه السفارة من ثلاثة رجال إنكليز، هم: «ريجنالد رسل، وجودفري ويليس، ويوحنا باركر».

ووافق أباقا الذي كانت جيوشه الأساسية تقاتل في تركستان، على أن يرسل كلَّ ما في وسعه من مساعدة، وفي الوقت ذاته قنع «إدوارد» بما شنَّه عبر الحدود من بضع إغارات صغيرة. ووفى «أباقا» بوعده، في منتصف شهر تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٢٧١م)، فسحب قوة عشرة آلاف مقاتل من حامياته في بلاد الأناضول، وأرسلها إلى سورية عن طريق عين تاب. ونجحت قوة المغول هذه بهزيمة حامية المسلمين التي كانت تدافع عن حلب، والتي انسحبت بقاياها إلى حماة، حيث تابع المغول زحفهم، فتجاوزوا حلب إلى معرة النعمان وأفامية، وساد الذعر والخوف بين السلكان المسلمين.

وكان بيبرس يتابع الموقف وهو يحتفظ معه بجيش كثيف في دمشق، علاوة

على ما طلبه من دعم من مصر. ولما شرع في التحرك صوب الشمال في (١٢) تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٢٧١م) انصرف المغول راجعين بعد أن عرفوا أنه لا قِبَلَ لهم بمجابهة القوات التي يقودها بيبرس، كما أن أتباعهم من الترك في بلاد الأناضول جنحوا إلى التمرد، فانسحبوا إلى ما وراء نهر الفرات، بعد أن امتلأت أيديهم بالغنائم.

وبينما كان «بيبرس» منصرفاً إلى قتال المغول، قاد إدوارد الفرنج عبر جبال الكرمل، وأغاروا على سهل شارون، إلا أن قوة الهجوم الصليبي كانت من الضعف العددي بحيث لم تكن قادرة على اقتحام حصن «قافون» الصغير الذي كان يحرس الطريق عبر التلال.

وظهر بوضوح أنه من المحال على الفرنج قهر المسلمين ما لم يتم حشد حملة ضخمة، وما لم تقم حملة مغولية كبيرة، ولهذا فما أن حلَّ ربيع سنة (١٢٧٢م)، حتى أدرك الأمير «إدوارد» أنه أضاع وقته هباء؛ إذ لم يتمكن من حشد قوة ضاربة كبيرة، كما لم يتمكن من حشد حلفاء كثيرين، فانصرف لعقد هدنة تضمن بقاء الكيانات الصليبية لفترة إضافية في بلاد الشام.

وفي الوقت ذاته، كان الظاهر بيبرس على استعداد لعقد مثل هذه الهدنة؛ إذ أن ما تبقى من المناطق الخاضعة للفرنج الصليبيين سيبقى تحت رحمته، ما لم تجابهه قوى خارجية.

وبما أن خطر المغول بقي هو الخطر الرئيسي الذي يتهدده في تلك الفترة، فقد كان في حاجة لتركيز جهد دبلوماسي كبير من أجل خلق المتاعب أمام المغول وإعاقتهم عن كل تحرك خارج بلاد الأناضول والأستبس، فإذا ما أمكن للظاهر بيبرس أن يشعر بالاطمئنان على تلك الجبهة، أصبح من السهل عليه أن يبذل الجهد اللازم لإخضاع ما تبقى من الحصون وتحريرها من قبضة الإفرنج.

وكان عليه من أجل تحقيق هذا الهدف أيضاً أن يمنع كل تدخل من الغرب، ولتحقيق هذا الهدف؛ تحتَّم عليه المحافظة على علاقاته الجيدة مع «شارل كونت أنجو»[1]، وهو الأمير الوحيد الذي كان باستطاعته تقديم دعم حقيقي لمساعدة

---

(١) **شارل، كونت آنجو** (Charles 1er D'anjou): شقيق ملك فرنسا لويس التاسع «أو القديس لويس» (١٢٢٦ ـ ١٢٨٥م)، كان ملكاً لجزيرة صقلية في سنة (١٢٦٦م)، واقتصر ملكه على مدينة نابولي بعد تمرد الصقليين في سنة (١٢٨٢م).

إمارة عكا الصليبية، وكان شارل قد جعل نصب عينيه الاستيلاء على القسطنطينية، ولم يكن لسورية عنده وقتذاك سوى أهمية ثانوية، كما لم يكن لديه أكثر من أفكار غامضة في موضوع إضافة الإمارات الصليبية في بلاد الشام إلى امبراطوريته. ولهذا فقد كان يودُّ المحافظة على بقاء الإمارات الصليبية في الشام، إلا أنه كان يودُّ في الوقت ذاته عدم زيادة سلطة الملك «هيو»؛ نظراً لأنه كان يأمل بأن يحل مكانه في يوم من الأيام، فأعرب عن رغبته في التوسط بين بيبرس وإدوارد.

وفي (٢٢) أيار ـ مايو سنة (١٢٧٢م)، تمَّ إبرام الصلح في قيسارية بين الظاهر بيبرس وحكومة عكا. وكفل الصلح لإمارة عكا الاحتفاظ بممتلكاتها التي تألفت من السهل الساحلي الضيق من عكا إلى صيدا، وأن يكون لها الحق في استخدام طريق الحجاج إلى الناصرة بدون أن تلقى معارضة، والمعروف أن الهدنة التي انعقدت سنة (١٢٧١م)، كفلت لكونتية طرابلس الأمان.

وإذ أضحى معروفاً أن الأمير إدوارد يود القدوم مرة أُخرى إلى الشرق على رأس حملة صليبية كبيرة، فقد قرَّر الظاهر بيبرس التخلص منه، على الرغم من عقد الهدنة. وفي يوم (١٦) حزيران ـ يونيو سنة (١٢٧٢م)، دلف إلى حجرة الأمير أحد الفدائيين الإسماعيلية الذي تنكر في هيئة مسيحي وطني، وطعنه بخنجر مسموم. ومع أن الجراح لم تكن قاتلة، فإن إدوارد ظلَّ بضعة شهور يعاني من جراحه الخطيرة. وبادر السلطان بيبرس بالتملص من هذا الحادث بأن بعث إلى الأمير إدوارد بالتهنئة على نجاته.

ولم يكد إدوارد يتماثل للشفاء، حتى تجهز للإقلاع إلى بلاده، وقد سبقه في الرحيل معظم رفاقه، وكان أبوه قد اقتربت منيته. وإذ ساءت صحة إدوارد، ولم يكن ثمة من الأعمال الأخرى ما يستطيع أن يؤدِّيه، أبحر من عكا يوم (٢٢) أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٧٢م)، وعاد إلى إنكلترا فألفى نفسه ملكاً عليها.

انصرف الفرنج في بلاد الشام مستفيدين من الهدنة لمعالجة شؤونهم الداخلية وخلافاتهم المستعصية على الحل. وفي الوقت ذاته، أمضى البابا غريغوري العاشر الفترة من سنة (١٢٧٢م) إلى سنة (١٢٧٤م) لدراسة الوضع في الإمارات الصليبية بالشام، وإجراء الأبحاث عن سبب فتور حماسة أمراء الغرب للحملات الصليبية.

وعندما عقد البابا «غريغوري العاشر» مجمع ليون سنة (١٢٧٤م)، لم يحضره

أحد تقريباً من ملوك أوروبا، إلا أن البابا لم ييأس من هذه النتيجة، فتابع بذل جهوده لحمل ملوك أوروبا على قيادة حملة صليبية جديدة وإعداد المناطق المحتلة في فلسطين لاستقبال الحملات التي يحتمل إرسالها.

أما السلطان بيبرس، فقد كان باستطاعته الوثوق بالوعود التي حملها إليه مندوب «شارل أنجو»، والتي أكَّد له فيها بأنه لن يثير ضده حرباً صليبية، ولن يتآمر مع المغول.

وبفضل هذا الإحساس بالاطمئنان، كان بيبرس مستعداً لأن يهيىء للإمارات الصليبية البقاء بضع سنوات أخرى، وفي الوقت ذاته يستطيع أن يتخذ خطة لمهاجمة الإيلخان.

وأدرك «أباقا» ما يتعرض له من الخطر، فحرص على أن يقيم تحالفاً مع الغرب، وأرسل إلى عكا خطاباً موجهاً إلى ملك إنكلترا «إدوارد» في سنة (١٢٧٣م)، وفيه يسأله متى تجري حملته الصليبية التالية، وقد حمل هذه الرسالة إلى أوروبا راهب دومنيكاني اسمه «داود»، فأرسل «إدوارد» ردّاً ودّياً؛ غير أنه أعرب عن أسفه بأنه لم يقرر هو والبابا موعد إرسال حملة صليبية جديدة إلى فلسطين.

وفي السنة التالية ظهر مبعوثون من المغول في مجمع ليون، وتنصَّر اثنان منهم على يد كاردينال أوستيا، الذي صار فيما بعد البابا «أنوسنت الخامس»، إلا أن الردود التي تلقَّاها المبعوثون من البابا كانت وعوداً غامضة، ولو أنها ودِّية في الوقت ذاته.

وقام الإيلخان «أباقا» بمحاولة أخرى في خريف سنة (١٢٧٦م)، حيث هبط الأخوان الكرجيان: «يوحنا وجيمس فاسيلي» في إيطاليا، لزيارة البابا، وقد تزوَّد بأوامر للمضيِّ إلى بلاد ملكَي فرنسا وإنكلترا، وحملا رسالة شخصية من «أباقا» إلى «إدوارد الأول»، أشار فيها إلى اعتذاره بأن مساعدته لإدوارد سنة (١٢٧١م) لم تكن بالغة القوة.

على أنه لم يكن لهذا النشاط الدبلوماسي أيَّة نتيجة؛ إذ أنه على الرغم من صدق إدوارد في عزمه على التوجه بحملة صليبية إلى فلسطين، إلا أنه لم يكن مستعداً حتى تلك الفترة لإرسال حملة صليبية، وكذلك الأمر بالنسبة لملك فرنسا.

وعلاوة على ذلك، فقد كان المجلس البابوي خاضعاً لتأثير مضاد من قِبَل

«شارل أنجو»، الذي كان يكره المغول لأنهم أصدقاء أعدائه البيزنطيين والجنويين، كما أن كل سياسته كانت قائمة على الوفاق الودِّي مع بيبرس.

وكان البابوات يأملون، متفائلين، في أن يُدخِلوا المغول في حظيرة كنيستهم، غير أنهم لم يدركوا أن الوعد بالمكافآت في السماء ليس إغراءً كافياً للإيلخان، بل إن دعاوى «ليو الثالث» ملك أرمينيا، الذي كان في الوقت ذاته من أتباع الإيلخان المخلصين، ويسير وفقاً لشعائر كنيسة روما؛ لم تستطع أن تستخلص مساعدة عملية من البابوية.

هـ ـ حملة بيبرس الأخيرة (سنة ١٢٧٧م)

أضحى في استطاعة بيبرس أن ينفذ مشروعاته بدون أن يتعرض لتهديد التدخل من قِبَل الغرب، فقاد بنفسه إغارة على قليقية في ربيع سنة (١٢٧٥م)، واستباح المدن الواقعة بالسهل؛ غير أنه لم يتوغل في حملته حتى يبلغ «سيس» عاصمة الإقليم.

وبعد سنتين قرر «بيبرس» غزو بلاد الأناضول، ولم يكن السلطان السلجوقي «كيخسرو الثالث» وقتذاك إلا طفلاً، أما وزيره «سليمان برواناه» حامل أختام السلطان، فكان صاحب السلطة المطلقة في البلاد؛ غير أنه عجز عن ضبط الإمارات التي أخذت في الظهور، وأهمها إمارة القرمانيين.

واحتفظ الإيلخان «أباقا» بحماية مفكَّكة على سلطنة السلاجقة، قامت بفرضها الحامية المغولية القوية المرابطة بالبلاد، على أن هذه الحامية تعرضت في (١٨) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٧٧م) لهزيمة ساحقة في البستان على أيدي المسلمين المماليك.

ولم تنقضِ خمسة أيام حتى دخل بيبرس قيصرية الروم (قيصرية مازاكا)، فبادر «سليمان برواناه» وزير السلطان السلجوقي والأمير القرماني بتهنئة الظافر المنتصر «بيبرس»، وهذا ما أثار غضب الإيلخان «أباقا» الذي تولَّى بنفسه قيادة جيش مغولي في تعبئة الحرب إلى بلاد الأناضول.

ولم ينتظر «بيبرس» وصول الجيش المغولي، بل انسحب إلى سوريا، فعجَّل «أباقا» باسترداد سيطرته على سلطنة السلاجقة، وقام بإلقاء القبض على سليمان برواناه وأعدمه، «وترددت الشائعات بأنه جعل من لحمه شواءً جرى تقديمه في المأدبة الرسمية التالية التي أقامها الإيلخان».

لم يَعِشْ «بيبرس» طويلاً بعد حملته في بلاد الأناضول، وذكرت المصادر روايات مختلفة عن سبب وفاته؛ إذ ذكرت بعض المصادر أن بيبرس مات متأثراً بجراحه التي أصابته في معركته الأخيرة، في حين ذكرت مصادر أخرى أنه مات مسموماً حيث كان قد أعدَّ قميزاً مسموماً (والقميز شراب من لبن الفرس يتم تناوله بعد تخميره، ويهواه الترك والمغول)، وذلك لتقديمه للقاهر بن الناصر داود الأيوبي أمير الكرك، الذي لحق بجيشه، ووجَّه إليه إهانة شديدة؛ وإذ لم يحفل بيبرس بتنظيف الكأس، شرب منها فمات في أول تموز ـ يوليو سنة (١٢٧٧م).

أدَّت وفاة «بيبرس» إلى زوال أكبر خطر كان يتهدد الإمارات الصليبية منذ أيام صلاح الدين الأيوبي. فحينما تولى بيبرس السلطنة، كانت ممتلكات الفرنج تمتد على الساحل من غزة إلى قليقية، مع ما يتبعها من الحصون الداخلية التي تحميها من الشرق.

وأمكن لبيبرس خلال فترة حكمه، التي امتدَّت سبع عشرة سنة، تحرير مناطق كثيرة بحيث لم يبق في قبضة الفرنج الصليبيين أكثر من بضعة مدن ساحلية، هي عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس، بالإضافة إلى مدينة اللاذقية المعزولة وقلعتي عثليت والمرقب، ولم يعش بيبرس ليشهد اختفاءها التام، غير أنه جعل ذلك أمراً لا مفرَّ منه.

وقد استطاع بيبرس تحقيق ما أنجزه بفضل ما توافر له من الصفات، فقد كان جندياً لامعاً وسياسياً بارعاً وإدارياً حكيماً، التزم السرعة فيما اتخذه من قرارات، وكان نافذ البصيرة في أغراضه وأهدافه، فأحبَّه المسلمون واحترموه، وخافه خصومه وقدَّروه، وكان في ذلك كله من أعظم حكام عصره.



الفَصْلُ الثَّاني

سيف الدين قلاوون

١ ـ ماذا حدث بعد وفاة بيبرس؟
٢ ـ الموقف على جبهة الفرنج ـ الصليبيين
٣ ـ حملة جديدة للمغول (١٢٨٠ ـ ١٢٨١م)
٤ ـ الصراع الفرنسي ـ الأراغوني في صقلية (سنة ١٢٨٢م)
٥ ـ قلاوون يتابع طريق التحرير (سنة ١٢٨٥م)
٦ ـ محاولة جديدة للتحالف المغولي ـ الصليبي (١٢٨٧ ـ ١٢٨٩م)
٧ ـ قلاوون يحرر اللاذقية وطرابلس (١٢٨٧ ـ ١٢٨٩م)



الملك المنصور سيف الدين قلاوون
الألفي العلائي الصالحي

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

[الشورى/٣٩]

١ ـ ماذا حدث بعد وفاة بيبرس؟

لقد أوجز «المقريزي» مسيرة الأحداث بقوله[١]:

«تولى الحكم السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي، التركي الجنس، أحد المماليك البحرية، وجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في سابع عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٥٩م)، ولم يزل حتى مات بدمشق في يوم الخميس سابع عشر من المحرم سنة ست وسبعين وستمائة (١٢٧٧م)، فكانت مدته سبع عشرة سنة وشهرين واثني عشر يوماً.

وقام من بعده ابنه، السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة قان، وهو يومئذٍ بقلعة الجبل ينوب عن أبيه، وقد عهد إليه بالسلطنة وزوَّجه بابنة الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، فجلس على التخت في يوم الخميس السادس عشر من صفر سنة ست وسبعين، إلى أن خلعه الأمراء في سابع ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين (١٢٧٩م)، وكانت مدته سنتين وشهرين وثمانية أيام، لم يحسن فيها تدبير ملكه، وأوحش ما بينه وبين الأمراء، فأقيم بعده أخوه السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس، وعمره سبع سنين وأشهر، وقام بتدبيره الأمير قلاوون «أتابك العساكر»، ثم خلعه بعد مائة يوم، وبعث به إلى الكرك فسُجن مع أخيه بركة.

---

(١) كتاب **المواعظ والاعتبار** (المعروف **بالخطط المقريزية**)، دار صادر، لبنان، (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩).

وقام من بعده السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي، وهو أحد المماليك الأتراك البحرية. كان قبجاقي الجنس من قبيلة مرج أغلى، فجُلب صغيراً واشتراه الأمير علاء الدين آق سنقر الساقي العادلي بألف دينار، وصار بعد موته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب في سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩م)، فجعله من جملة المماليك البحرية، فتنقلت به الأحوال حتى صار أتابك العساكر (قائد الجيش) في أيام العادل سلامش، وذكر اسمه مع العادل على المنابر، ثم جلس على التخت بقلعة الجبل في يوم الأحد العشرين من شهر رجب سنة ثمان وسبعين، وتلقَّب بالملك المنصور، وأبطل عدة مكوس، فثار عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر بدمشق، وتسلطن ولقَّب نفسه بالملك الكامل في يوم الجمعة الرابع عشر من ذي الحجة، فبعث إليه وهزمه واستعاد دمشق.

ثم قدمت التتر (المغول) إلى بلاد حلب، وعاثوا بها، فتوجَّه إليهم السلطان بعساكره، وأوقع بهم على حمص في يوم الخميس الرابع عشر من رجب سنة ثمانين وستمائة، وهزمهم بعد مقتلة عظيمة، وعاد إلى قلعة الجبل.

وتوجه في سنة أربع وثمانين (١٢٨٥م) حتى نازل حصن المرقب ثمانية وثلاثين يوماً، وأخذه عنوة من الفرنج، وعاد إلى القلعة، ثم بعث العسكر، فغزا بلاد النوبة في سنة سبع وثمانين (١٢٨٨م) وعاد بغنائم كثيرة.

ثم سار في سنة ثمان وثمانين لغزو الفرنج بطرابلس، فنازلها أربعة وثلاثين يوماً حتى فتحها عنوة في رابع ربيع الآخر (١٢٨٩م)، وهدمها جميعها وأنشأ قريباً منها مدينة طرابلس الموجودة الآن، وعاد إلى قلعة الجبل، وبعث لغزو النوبة ثانياً عسكراً، فقتلوا وأسروا وعادوا، ثم خرج لغزو الفرنج بعكا وهو مريض، فمات خارج القاهرة ليلة السبت سادس ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠م)، فكانت مدته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوماً.

وقام من بعده ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل، في يوم الأحد سابع ذي القعدة المذكور، وسار لفتح عكا في ثالث ربيع الأول سنة تسعين وستمائة (١٢٩١م)، ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقاً، وقاتل مَن بها مِنَ الفرنج أربعة وأربعين يوماً حتى فتحها عنوة في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى، وهدمها كلها بما فيها وحرقها، وأخذ صور وحيفا وعثليت

وأنطرطوس (طرطوس) وصيدا وهدمها، وأجلى الفرنج من الساحل، فلم يبق منهم أحد ولله الحمد، وتوجه إلى دمشق وعاد إلى مصر».

لكن هل تكفي هذه الصورة الإجمالية (الشاملة) لمعرفة مجموعة الأحداث التي تلاحقت، فحررت بلاد الشام من بقايا الحملات الصليبية القديمة؟.

٢ ـ الموقف على جبهة الفرنج ـ الصليبيين

ابتهج الفرنج الصليبيون لوفاة الظاهر بيبرس في الأول من تموز ـ يوليو سنة (١٢٧٧م)، ولما كان أكبر أبنائه «بركة» شاباً ضعيفاً، فقد استنفد عهده في محاولة ضبط الأمراء المماليك، وكان هذا الأمر من الضخامة بما لا يقوى عليه، ولم يلبث سيف الدين قلاوون قائد جيش الشام، أن زحف على القاهرة في شهر آب ـ أغسطس سنة (١٢٧٩م)، وتنازل بركة عن العرش لأخيه الذي لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره، وتولى قلاوون مقاليد الحكم، ولم تنقض أربعة أشهر حتى نزع قلاوون الشاب من السلطة، ونصب نفسه سلطاناً.

على أن حاكم دمشق سنقر الأشقر، رفض الاعتراف بسلطنة قلاوون، وأعلن نفسه سلطاناً بدمشق في نيسان ـ إبريل سنة (١٢٨٠م)، غير أنه لم يكن بوسعه الصمود في وجه قلاوون؛ إذ أنه بعد أن دارت معركة بالقرب من دمشق في حزيران ـ يونيو سنة (١٢٨٠م)، انسحب سنقر الأشقر إلى شمال سوريا، ولم يلبث أن تصالح مع قلاوون الذي حاز بذلك كل سلطة بيبرس والمناطق التي كان قد حررها، علاوة على تلك التي كانت خاضعة لحكمه.

لم يفد الفرنج من فترة الهدوء التي توافرت لهم، ولم تجد نفعاً الجهود التي بذلها زعيم المغول «الإيلخان أباقا» لإثارة حرب صليبية جديدة، كما لم تجد نفعاً جهود ليو الثالث ملك أرمينيا للوصول إلى الهدف ذاته، ولم يساندهما في جهودهما إلا فرسان الأسبتارية. أما «شارل أنجو» المعروف بكراهيته لبيزنطة وحلفائها من الجنويين، فإنه أمر نائبه بعكا «روجر سان سفيرينو» بأن يحافظ على التحالف مع البنادقة والداوية والبلاط المملوكي في القاهرة.

وإذ حرص البابا على أن يصرف شارل أنجو عن شنِّ هجوم على القسطنطينية، بعد أن وعده الامبراطور ميخائيل بأن تخضع له الكنيسة البيزنطية، فقد توجه اهتمام شارل أنجو لتطوير مخططاته في بلاد الشام. ومع أن إدوارد الأول ملك إنكلترا أظهر تعاطفه مع المغول، فإنه كان بالغ البعد في إنكلترا،

ولم يتوافر له من الوقت والمال ما يكفي لإعداد حملة صليبية جديدة.

كان «بوهمند السابع»[1] يتعاون مع خاله الأرمني، إلا أنه لم يكن على علاقات طيبة مع الداوية. وحدث في سنة (١٢٧٧م) أن وقع شجار بينه وبين أشدّ أتباعه مراساً، وهو جاي الثاني «أمبرياكو» سيد جبيل؛ إذ أن «جاي»، وهو ابن عم بوهمند وصديقه الحميم، سبق أن حصل على وعد بأن يتزوج أخوه يوحنا من وريثة أسرة اليمان المحلية؛ غير أن «بارثولوميو» أسقف أنطرطوس كان يود أن يجعل الإرث لابن أخته، وظفر بموافقة بوهمند، ولم يسع جاي عندئذٍ إلا أن يختطف الفتاة، ويزوجها من أخيه يوحنا، وإذ خشي جاي انتقام بوهمند، فرَّ إلى الداوية.

وردَّ بوهمند بأن دمر عمائر الداوية في طرابلس، وقطع أشجار غابة كانوا يملكونها في «أبو حلقة» «مونتروك» قرب طرابلس، فبادر مقدم الداوية، وليم بوجيه، على الفور بقيادة فرسان الطائفة لمهاجمة طرابلس، فقام بمظاهرة خارج أسوارها، ولما انسحب أشعل النار في قلعة البترون، غير أن ما قام به من محاولة لاقتحام «نيفين» أدَّت إلى أسر اثني عشر من فرسانه، كان بوهمند ألقى بهم في الحبس في الوقت المناسب.

ولما تحرك الداوية راجعين إلى عكا، نهض بوهمند لمهاجمة جبيل، على أن جاي، الذي خلف له وليم بوجيه كتيبة من الداوية، توجه للقاء بوهمند، فدارت معركة ضارية على مسافة بضعة أميال شمالي البترون، واشترك في القتال في كلٍّ من الجانبين نحو مائتي فارس؛ غير أن القتال اشتد وازداد عنفاً، وتعرض بوهمند لهزيمة ساحقة. ومن الفرسان الذين فقدهم بوهمند في المعركة ابن عمه، وصهر جاي، باليان، سيد صيدا الذي يعتبر آخر من تبقى من أسرة جارنييه الكبيرة.

---

(١) **بوهمند السابع** (Bohémond VII)، أحد أفراد أسرة حملت اسم بوهمند، وهم من النورمانديين، ومن عائلة هوتفيل (Hauteville) التي تولَّت إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، وأولهم بوهمند الأول (من مواليد الفترة بين ١٠٥٢ و١٠٦٠م)، وتوفي سنة (١١١١م)، وهو ابن روبرت جيسكارد، وأحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وتزوج من كونستانس ابنة فيليب الأول ملك فرنسا. ثم بوهمند الثاني (١١٠٧ ـ ١١٢٩م)، والذي حكم أنطاكية من سنة (١٢٢٦م) إلى سنة (١١٢٩م). وكان آخر هذه السلالة هو بوهمند السابع كونت طرابلس، والذي مات سنة (١٢٨٧م)، والذي تولى إمارة طرابلس (كونتية طرابلس) من سنة (١٢٧٥م) حتى سنة (١٢٨٧م)، والذي خلفته لوسيا لمدة سنة واحدة (١٢٨٨م)، حيث حرَّر المسلمون هذه الإمارة.

وقبل بوهمند عقد هدنة لمدة سنة بعد أن حلَّت به الهزيمة، غير أن جاي والداوية هاجموه من جديد سنة (١٢٧٨م). وحلَّت الهزيمة مرة أُخرى ببوهمند، على أن عاصفة شتَّتت اثنتي عشرة سفينة (للداوية) حاولت أن تشق طريقها إلى ميناء طرابلس. وما أرسله بوهمند عندئذٍ من سفن، عددها خمس عشرة سفينة، لمهاجمة قلعة صيدا، الخاضعة للداوية، نجحت في إلحاق الضرر بها قبل أن يتدخل مقدم الأسبتارية «نقولا لورجان»، فعجل بوهمند بالمسير إلى طرابلس ووافق على عقد هدنة جديدة.

ولكن «جاي» سيد جبيل، لا زال يهدد ويتوعد؛ إذ عزم على أن يستولي على طرابلس ذاتها. ففي كانون الثاني ـ يناير سنة (١٢٨٢م) استطاع أن يتسلَّل مع إخوته وبعض أصدقائه إلى أحياء الداوية في طرابلس؛ غير أنه سبق أن وقع سوء تفاهم، وكان قائد الداوية «ريديكير» متغيباً، وارتاب «جاي» في حدوث خيانة، فاشتدَّ ذعره، ولما حاول أن يلجأ إلى دار الأسبتارية؛ تلقى «بوهمند» إخطاراً بذلك من بعض الأشخاص، فهرب المتآمرون إلى برج بالاسبتار، حيث حاصرهم جند بوهمند.

على أنه حدث بعد بضع ساعات أن وافقوا، بناء على طلب الأسبتارية، على أن يستسلموا بشرط الإبقاء على حياتهم؛ غير أن بوهمند نقض عهده، فأمر بسمل عيون رفاق جاي، بينما تقرر نقل جاي إلى «نيفين» مع أخويه «يوحنا وبلدوين» وابن عمه «وليم»، فجرى إنزالهم بخندق، ودفن أجسادهم حتى أعناقهم، وظلوا على هذه الصورة حتى هلكوا جوعاً.

وارتاع جميع أتباع «بوهمند» لما تعرض له العصاة من مصير رهيب، يضاف إلى ذلك أن أسرة «أمبرياكو» كانت تتذكر أصلها الجنوي، وكان من المتآمرين كثير من الجنويين؛ وإذ كان الجنويون أصدقاء مخلصين للأرمن، ومن دعاة التحالف مع المغول، فقد ابتعد بوهمند عن سياستهم.

وفي تلك الأثناء تجهز «يوحنا مونتفورت» الصديق الحميم للجنويين للتحرك من صور للانتقام لأصدقائه؛ غير أن بوهمند سبقه في الوصول إلى جبيل، ولم يبتهج لكل ما حدث سوى البيازنة الذين كرهوا الجنويين.

ولم تكن الأمور السياسية بأحسن حالاً في أقصى الجنوب؛ إذ أن حكومة «روجر سان سفيرينو» في عكا، لم تكن مقبولة من النبلاء المحليين. ففي سنة (١٢٧٧م)، حاول وليم بوجيه أن يجتذب إلى جانبه «يوحنا مونتفورت»، ونجح

في التوفيق بين يوحنا والبنادقة، الذين أضحى مسموحاً لهم العودة إلى أحيائهم السابقة في صور غير أن يوحنا التزم بالابتعاد عن حكومة عكا.

وفي سنة (١٢٧٩م) هبط الملك هيو فجأة إلى صور، آملاً في أن يحمل النبلاء على الالتفاف حوله، فسانده يوحنا، ولم ينهض أحد غيره لنصرته وتأييده.

على أن فترة الشهور الأربعة التي يصح له قانوناً بمقتضاها أن يحضر أتباعه القبارصة من وراء البحار، قد انقضت بدون أن يجري فيها شيء من النشاط، فلما عاد فرسانه إلى قبرص؛ لم يسع الملك إلا أن يقتفي أثرهم، ووجّه اللوم إلى الداوية لما أصابه من فشل، بحجة أن وليم بوجيه هو الذي جعل عكا تحافظ على ولائها لروجر سان سفيرينو، وللانتقام من الداوية صادر ممتلكاتهم في قبرص، ومن بينها قلعتهم في جاستريا، ورفع الداوية شكواهم إلى البابا، الذي كتب إلى هيو يأمره بإعادة أملاك الداوية، غير أنه تجاهل أمر البابا.

ومع أن هيو أقر، فيما يبدو، التحالف مع المغول؛ لا لسبب سوى أن روجر سان سفيرينو يعارض هذا التحالف، فإنه لم يكن في وضع يسمح له بأن يتخذ إجراء في الإمارات الصليبية القائمة على ساحل بلاد الشام.

٣ ـ حملة جديدة للمغول (١٢٨٠ ـ ١٢٨١م)

كان الإيلخان أباقا، خليفة هولاكو في فارس، حريصاً على أن يقاتل المماليك المسلمين، قبل أن يستطيع قلاوون توطيد مركزه؛ وإذ لا زال سنقر نائب دمشق السابق يتحدى قلاوون في شمال سوريا، عَبَر نهر الفرات جيش مغولي في نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٨٠م)، فاحتلَّ عين تاب وبغراس ودربساك، وفي (٢٠) تشرين الأول ـ أكتوبر دخل حلب، حيث نهب الأسواق وأشعل الحريق في المساجد، فهرب إلى دمشق المسلمون من سكان تلك المناطق، وقد استبدَّ بهم الخوف والجزع.

وحدث في الوقت ذاته أن قام المغول بإغارة مثمرة على البقيعة بعد أن توغلوا في سيرهم، حتى كادوا يبلغون حصن الأكراد، ثم أَنزلوا، قرب مرقية أثناء عودتهم، الهزيمة بجيش إسلامي، قَدِم لوقف زحفهم. على أن المغول لم يكونوا من القوة ما يكفي للاحتفاظ بحلب في قبضتهم، فلما حشد قلاوون قواته في دمشق ارتدوا إلى ما وراء نهر الفرات. واكتفى السلطان قلاوون بإنفاذ قوة

لإنزال العقاب بالأسبتارية الذين دحروها أمام حصن المرقب. وحوالي ذلك الوقت، ظهر في عكا سفير مغولي، قدم لينهي إلى الفرنج أن الإيلخان اقترح أن يرسل إلى سوريا في الربيع التالي، جيشاً مؤلفاً من مائة ألف رجل، وليلتمس منهم أن يمدُّوه بالرجال والذخائر، فبعث الأسبتارية بالرسالة إلى إدوارد ملك إنكلترا، ولم يلقَ سفير المغول استجابة في عكا. على أن نبأ الغارة المقبلة للمغول أزعج قلاوون، فعقد صلحاً مع سنقر في حزيران ـ يونيو سنة (١٢٨١م)، بأن جعل أنطاكية وأفامية إقطاعاً له، وأرسل إلى عكا يعرض عقد هدنة مع الطوائف الدينية العسكرية لمدة عشر سنوات.

أما الهدنة التي سبق عقدها مع حكومة عكا سنة (١٢٧٢م)، فلا زال باقياً على نهاية أجلها سنة واحدة. على أن بعض الأمراء في السفارة المصرية الموفدة إلى عكا، أخطروا الفرنج بألا يعقدوا صلحاً مع قلاوون؛ إذ أنه لن يلبث أن يهوي من السلطنة. فلما سمع بهذا روجر سان سفيرينو، بادر على الفور بالكتابة إلى السلطان يحذره، فاستطاع أن يلقي القبض على المتآمرين في الوقت المناسب.

وفي تلك الأثناء وافقت الطوائف الدينية العسكرية بعكا على الهدنة التي تمَّ إبرامها في (٣) أيار ـ مايو، وعقد بوهمند هدنة مماثلة مع قلاوون في (١٦) تموز ـ يوليو، وكان ذلك انتصاراً دبلوماسياً لقلاوون؛ إذ أن توحيد الفرنج لجهودهم على أحد جناحي جيشه، ولو لم تقدم أمداد من الغرب، كان لا بدَّ أن يعرقل حملته لقتال المغول.

وفي أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٨١م)، توجه إلى بلاد الشام جيشان مغوليان، الأول يقوده الإيلخان أباقا ذاته، وتولى أثناء سيره البطيء إخضاع الحصون الإسلامية الواقعة على امتداد حد الفرات. أما الجيش المغولي الثاني، الذي قاده شقيقه منجو تيمور، فإنه بادر أول الأمر بالاتصال بليو الثالث ملك أرمينيا، ثم هبط إلى وادي نهر العاصي بعد أن اجتاز عين تاب وحلب.

وكان قلاوون قد توجه فعلاً إلى دمشق، حيث حشد قواته، ثم هرع صوب الشمال. ونأى الفرنج عن النزاع، باستثناء الأسبتارية في حصن المرقب، الذين رفضوا اعتبار أنفسهم ملزمين بالهدنة التي عقدها الأسبتارية بعكا، فركبت فئة قليلة منهم للحاق بملك أرمينية.

التقى جيش المغول بجيش المسلمين في ظاهر حمص يوم (٣٠) تشرين

الأول ـ أكتوبر سنة (١٢٨١م)، وتولى منجو تيمور قيادة قلب الجيش المغولي، واتخذ أُمراء آخرون من المغول مواقعهم في ميسرته، على حين أنه كان على ميمنته عساكر الكرج المساعدة، وليو ملك أرمينية والأسبتارية. وقاد المنصور حاكم حماة (أميرها) ميمنة الجيش الإسلامي، وتولى قلاوون نفسه قيادة قلب الجيش (من المصريين) وإلى جانبه جيش دمشق، أما ميسرة الجيش الإسلامي، فكانت بقيادة سنقر الأشقر ومعه التركمان والمقاتلون من شمال بلاد الشام.

ولما دارت المعركة، لم يلبث المسيحيون في ميمنة الجيش المغولي أن هزموا سنقر الذي ظلوا يطاردونه حتى معسكره في حمص، فانقطع بذلك اتصالهم بقلب الجيش المغولي. وفي تلك الأثناء ظلت ميسرة المغول صامدة في القتال، بينما أُصيب منجو تيمور بالجراح حينما شنَّ المسلمون هجومهم على قلب الجيش المغولي فاشتدَّت ثائرته، وأمر بالارتداد السريع، وأضحى ملك أرمينيا ورفاقه معزولين، وكان لزاماً عليهم أن يقاتلوا ليشقوا لهم طريقاً للعودة صوب الشمال، فتكبدوا خسائر فادحة. غير أن قلاوون فَقَدَ من الرجال أعداداً كبيرة جعلته عاجزاً عن مطاردة ليو، واجتاز المغول نهر الفرات بدون أن يتكبَّدوا خسائر أُخرى.

وأضحى نهر الفرات حدّاً فاصلاً بين الامبراطوريتين الإسلامية والمغولية، ولم يخاطر قلاوون بالمضيِّ لإنزال العقاب بالأرمن، واكتفى بما حققه من نصر، وعاد إلى دمشق حيث استقبل وفود ملوك الفرنج، ومنهم مندوب أو سفير شارل أنجو، الذين قدموا لتهنئته على ما حقَّقه من نصر.

٤ ـ الصراع الفرنسي ـ الأراغوني في صقلية (سنة ١٢٨٢م)

بينما كان قلاوون يتابع جهوده بصبر نافذ لتحرير بلاد المسلمين في الشام، حدث في صقلية من الأحداث ما ترك أثراً عميقاً على مسيرة الصراع الإسلامي ـ الصليبي. فقد استيقظت صقلية فجأة لتشهد ثورة عامة تمَّ فيها قتل كل من أمكن مصادفته بالجزيرة من الفرنسيين، مساء يوم (٣٠) آذار ـ مارس سنة (١٢٨٢م)، وذلك بعد أن ضاق أهل الجزيرة ذرعاً بغطرسة «شارل أنجو» وجنوده الفرنسيين.

وكان لمذبحة صقلية من الآثار البعيدة المدى ما لم يتصوره أهل الجزيرة الذين استبد بهم الغضب، فما أقامه «شارل» من امبراطورية كبيرة في البحر المتوسط لم تستند إلى أساس، ولم تنجح كافة المحاولات التي قام بها خلفاء

شارل طوال عشرات السنين التالية لاسترداد صقلية من أيدي أُمراء أراغون الذين جرى انتخابهم ليتولوا عرشها[١].

ولم تعد مملكة «أنجو» في نابولي قوة عالمية. أما البابوية التي كفلت لأسرة «أنجو» مملكتهم بصقلية، فتعرضت للمذلة والهوان، وأصابها الخراب المالي في محاولاتها استعادة السيطرة على أتباعها، فجرى التخلي عن المشروعات التي يعمل لها ملوك «أنجو» من أجل فرض سيطرتهم على البلقان، وفيما هو أبعد من البلقان (في بلاد الشام). ومقابل ذلك، تحررت الامبراطورية البيزنطية من التهديد، وأصبح باستطاعة امبراطورها إرضاء قومه عن طريق رفض إخضاع كنيستهم لسلطة البابا في روما.

وفي بلاد الشام، اكتشف «روجر سان سفيرينو» نائب «شارل أنجو» أنه أضحى فجأة وحيداً وبدون أي دعم، فاستدعاه سيده للعودة إلى إيطاليا. وغادر «روجر» عكا في نهاية السنة، بعد أن عهد بوظيفته كنائب للملك إلى صنجيله (أودو بواليشيان).

وكان انهيار سلطان «شارل أنجو» صدمة لزعماء المماليك، فعلى الرغم من أن انهيار مملكة «شارل أنجو» قد حرَّر قلاوون من سيطرته، إلا أن ما عُرف عن «شارل أنجو» من الصدق قد ساعد قلاوون، كما ساعد بيبرس من قبل، على إقامة هدنة ساعدت قلاوون وبيبرس على التفرغ لقتال المغول.

وامتنع المماليك وأنجو، كلٌّ عن مهاجمة حدود الآخر طوال الفترة السابقة، ولكن الهدنة السابقة انتهت في حزيران ـ يونيو سنة (١٢٨٣م)، فاقترح قلاوون على «أودو بواليشيان» تجديد أمد الهدنة لمدة عشر سنوات أُخرى، فقبل «أودو» العرض عن طيب خاطر، غير أنه لم يكن مطمئناً إلى سلطته، ولذا وقع على الهدنة من جانب الفرنج قومون عكا والداوية في عثليت وصيدا، وكفلت الهدنة

---

(١) **أراغون** (Aragon): اسم مملكة قديمة ظهرت في الشمال الشرقي من الأندلس أيام حكم المسلمين، وهي تشمل (في الحدود الحالية) إقليم هوسكا (Huesca)، وساراقوزه وتيرول، ثم توحدت هذه الأقاليم (في القرن الثاني عشر) في إمارة كاتالونيا، ثم لم تلبث أن اتسعت بفتح فالانسيا وجزر الباليئار وكورسيكا وسردينيا وصقلية، وكانت عاصمتها ساراقوزه. وتطورت مملكة أراغون، واتسعت عبر الصراع الصليبي ضد المسلمين إلى أن تم زواج ملك أراغون في سنة (١٤٦٩م) بملكة قشالة (إيزابيلا)، مما أدّى إلى توحيد قوة المملكتين في الصراع ضد المسلمين، وإخراجهم بصورة نهائية من الأندلس بعد احتلال غرناطة سنة (١٤٩٢م).

للفرنج (الصليبيين) بقاء سيطرتهم على الشريط الساحلي من صور إلى شمالي عكا وجبل الكرمل وعثليت وصيدا، غير أنه تقرر استبعاد صور وبيروت من عقد الهدنة، وجرى الإبقاء على الحق الذي يجيز الحج بالمجان إلى الناصرة.

وابتهج «أودو» بالمحافظة على الهدنة؛ إذ كان «الملك هيو» ملك قبرص، على وشك بذل محاولة أُخرى لاسترداد مملكته في فلسطين. فقد ماتت منذ عهد قريب سيدة بيروت «إيزابيلا»، فانتقلت مدينتها (بيروت) إلى أختها «إيشيفا» زوجة همفري مونتفورت، الأخ الأصغر لسيد صور.

ونظراً لثقة «هيو» بدعم أسرة «مونتفورت»، فقد أبحر من قبرص في نهاية شهر تموز ـ يوليو مع ولديه هنري وبوهمند، وكان ينوي النزول في عكا، غير أن الرياح دفعته إلى بيروت، فوصلها في الأول من آب ـ أغسطس، ولقي فيها استقبالاً حاراً، ثم أبحر بعد بضعة أيام إلى صور، بينما أرسل قواته براً، فساروا إزاء الساحل، وفي أثناء الطريق تعرضوا لإغارات قوات المسلمين الذين أنزلوا بهم بعض الخسائر.

وأيقن الملك «هيو» أن الداوية بصيدا هم الذين حرَّضوا المسلمين عليهم، فلما هبط الملك «هيو» في ساحل صور، ظهرت نبوءات في غير صالحه؛ إذ هوى لواؤه في البحر، ولما خرج رجال الدين (الإكليروس) في موكب لاستقباله، أفلت من أيديهم الصليب الكبير الذي يحملونه، فهشم جمجمة طبيب البلاط (وكان يهودياً)، وظل «هيو» بعد ذلك ينتظر في صور، ولكن ما من أحد من عكا تحرك للترحيب به هناك؛ إذ أن قومون عكا والداوية آثروا حكومة «أودو بواليشيان» التي لم تقحم نفسها في أُمورهم.

ولم يكن باستطاعة الملك «هيو» الانتظار طويلاً؛ إذ أن قوانين المملكة كانت لا تسمح لنبلاء قبرص بمرافقة الملك إلى خارج الجزيرة لأكثر من أربعة أشهر، وقبل أن تنتهي هذه المدة مات ابنه «بوهمند» الذي كان أكثر ما يأمل فيه من الخير من أبنائه، في (٣) تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٢٨٣م)، بل إن أشدَّ ما ساءه هو وفاة صديقه وصهره يوحنا مونتفورت؛ وإذ لم ينجب ذرية، سمح الملك «هيو» بأن تنتقل صور إلى شقيقه ووارثه همفري سيد بيروت، غير أنه أضاف نصاً في الوثيقة بأن بوسعه متى شاء، أن يشتري مدينة (صور) ويعيدها للتاج مقابل مائة وخمسين بيزنت، غير أن همفري ذاته مات في شهر شباط ـ فبراير التالي، فتزوجت أرملته بعد فترة مقبولة من «جاي» أصغر أبناء «هيو»،

فنقلت إليه ملكية بيروت، أما صور، فإنها بقيت في حينها خاضعة لمرغريت أرملة يوحنا.

على أن الملك «هيو» بقي في صور، حتى بعد أن ارتحل نبلاؤه. وفي صور مات هيو في (٤) آذار ـ مارس سنة (١٢٨٤م)، وخلفه على العرش ابنه الأكبر يوحنا الذي كان يناهز من العمر سبع عشرة سنة، وتمَّ تتويجه في نيقوسيا في (١١) أيار ـ مايو سنة (١٢٨٤م) ملكاً على قبرص. ثم تلى ذلك مباشرة أن عبر البحر إلى صور حيث جرى تتويجه ملكاً على بيت المقدس (المحررة)، غير أنه لم يعترف بسلطته في الإمارات الصليبية سوى صور وبيروت، على أنه لم يحكم إلا سنة واحدة؛ إذ مات في قبرص يوم (٢٠) أيار ـ مايو سنة (١٢٨٥م).

وورث الملك من بعده أخوه هنري الذي لم يكن يتجاوز عمره أربع عشرة سنة، فتم تتويجه ملكاً على قبرص في (٢٤) حزيران ـ يونيو سنة (١٢٨٥م)، ولم يجد من الجرأة ما يدفعه في تلك الفترة إلى اجتياز البحر لإكمال عملية تتويجه على الإمارات الخاضعة له في بلاد الشام.

٥ ـ قلاوون يتابع طريق التحرير (سنة ١٢٨٥م)

لم يغب هدف تحرير بلاد المسلمين أبداً عن أنظار السلطان سيف الدين قلاوون، الذي أخذ بالاستعداد لشن هجوم على أولئك الفرنج الذين لم يدخلوا في الهدنة التي انعقدت سنة (١٢٨٣م). وإذ علمت السيدتان الأرملتان «إيشيفا ومرغريت» اللتان تحكمان بيروت وصور بما يعتزم قلاوون تنفيذه، أسرعتا بطلب عقد الهدنة، ووافق قلاوون على ذلك، ومضى لتحقيق هدفه وهو تحرير قلعة (المرقب) الكبيرة التي كان يحتلها فرسان الأسبتارية، والتي دأبت حاميتها على التحالف مع المغول ودعمهم.

وظهر الجيش الإسلامي الذي يقوده قلاوون يوم (١٧) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٨٥م)، بقوته الكثيفة على سفح الجبل الذي تقع بأعلاه القلعة، وقد جلب معه من المجانيق أعداداً كثيرة بلغت من الوفرة ما لم يسبق أن شهدها أحد. وتولى الرجال جرَّ هذه المجانيق على جانب التل، ثم شرعوا في دكِّ أسوار القلعة. على أن القلعة توافرت عدتها، وتميَّزت مجانيقها باحتلال مواقع جيدة، وبذلك أمكن لها الصمود، وتدمير عدد كبير من مجانيق المسلمين الذين أمضوا شهراً تقريباً بدون أن يحرزوا نصراً حاسماً، وخلال ذلك كان النقابون يعملون

باستمرار لإحداث ثغرة تحت (برج الأمل) الذي يبرز عن السور في نهاية الزاوية الشمالية، وملأوا هذه الثغرة بأخشاب سريعة الالتهاب، ثم أشعلوا النار في الثغرة يوم (٢٣) أيار ـ مايو سنة (١٢٨٥م). وأخذ البرج في التداعي والسقوط، وأوقف انهيار البرج هجوم المسلمين، ولما حاول رجال الحامية مجابهة هجوم المسلمين؛ ظهر لهم أن الثغرة امتدت بعيداً تحت تحصيناتهم، وعرفوا أنهم خسروا كل شيء، ولم يبق أمامهم إلا الاستسلام

وقرَّر قلاوون السماح لمن كان بداخل القلعة من قادة الأسبتارية، وعددهم خمسة وعشرون، أن يخرجوا بكل أمتعتهم، وعلى ظهور خيولهم ومعهم سلاحهم الكامل. أما بقية الحامية، فقد سمح لهم بالانسحاب بدون أن يحملوا معهم شيئاً، فلجأوا إلى أنطرطوس (طرطوس) ومنها إلى طرابلس، ودخل قلاوون القلعة في موكب مهيب يوم (٢٥) أيار ـ مايو سنة (١٢٨٥م).

أثار تحرير حصن المرقب شعور الذعر في وسط الفرنج الصليبيين الذين يحتلون عكا، وفي تلك الفترة ذاتها انتشر خبر موت «شارل أنجو»، وكان ابنه شارل الثاني (ملك نابولي) يقود بحماسة الحرب ضد صقلية، بحيث أنه لم يكن مستعداً ليشغل نفسه بما كان يحدث في بلاد الشام.

وإذ أخذت الحرب تشغل غرب أوروبا أكثر فأكثر، لم يعد هناك من يهتم بتطورات الصراع في الشرق أكثر من ملك قبرص، بسبب قربه من مسرح العمليات، ولهذا أخذ بنصيحة الأسبتارية، فأرسل مبعوثاً إلى عكا، اسمه «يوليان الأصفر»، بمهمة إجراء المفاوضات حول الاعتراف به ملكاً على بيت المقدس، ولم يعترض قومون عكا، وأعرب فرسان الأسبتارية والتيوتون عن عطف الطائفتين، ووافق الداوية بعد شيء من التردد على أن يساندوه، غير أن «أودو بواليشيان» رفض أن يتخلى عن نيابته عن ملك صقلية، ولقي «أودو» الدعم من الكتيبة الفرنسية التي لا زال ينفق عليها ملك فرنسا.

وهبط ملك قبرص «هنري الثاني» في عكا يوم (٤) حزيران ـ يونيو سنة (١٢٨٦م)، حيث استقبله قومون عكا بالفرح والسرور على الرغم من أن مقدمي الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة (الأسبتارية والداوية والتيوتون) رأوا أنه من بالغ الحكمة أن يتغيبوا عن استقباله؛ إذ قالوا إن مهنتهم الدينية تحتم عليهم أن يلتزموا الحياد.

وتوجه هنري في موكب رسمي إلى كنيسة الصليب المقدس، فأعلن بها أنه

سوف يقيم بالقلعة مثلما فعل الملوك السابقون؛ غير أن «أودو بواليشيان» رفض أن يغادر القلعة التي حشد فيها الجند الفرنسيين، فتوجه أسقف فاماجستا، ورئيس «دير المعبد»[1] بعكا للتفاوض معه، ولما لم يود أن يستمع إليهما، أعلنا احتجاجاً قانونياً. أما الملك الذي كان يقيم بصفة مؤقتة في قصر سيد صور الراحل، فإنه صرَّح ثلاث مرات بأن الفرنسيين يستطيعون مغادرة القلعة آمنين بما يحملونه من أمتعة، ولن يتعرض لهم أحد بأذى.

وفي تلك الأثناء أخذ سكان المدينة يضيقون ذرعاً بـ «أودو بواليشيان» واستعدوا لمهاجمته، وعندئذٍ أقنع قادة الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة (أودو) أن يسلم إليهم القلعة، بعد أن عرفوا أين تتجه الريح، ثم بذلوها لهنري، فدخلها في موكب رسمي يوم (٢٩) حزيران ـ يونيو، ومضت بعد ذلك ستة أسابيع إلى أن تمَّ الاحتفال بتتويج هنري في صور (يوم ١٥ آب ـ أغسطس)، وتبعت ذلك فترة إقامة المهرجانات التي استمرَّت أسبوعين.

ولم يستقبل السلطان قلاوون بالقاهرة أنباء احتفالات الفرنج بأي اهتمام. أما إيلخان المغول في تبريز، فقد ظنَّ أن الوقت قد حان للقيام بعمل بالغ الجدية، فقد مات «أباقا» في أول نيسان ـ إبريل سنة (١٢٨٢م)، وخلفه على الحكم أخوه «تكودار» الذي تنصَّر في طفولته على المذهب النسطوري، واتخذ اسم «نقولا»؛ غير أن أهواءه كانت مع المسلمين، فلم يكد يتولى العرش حتى أعلن تحوله للإسلام، واتخذ اسم «أحمد» وتلقب بالسلطان.

وفي نفس الوقت أرسل إلى القاهرة يطلب عقد معاهدة صداقة مع قلاوون، وأزعجت سياسته شيوخ المغول في بلاطه، الذين بادروا على الفور برفع شكواهم إلى الخان الكبير «قبيلاي»، فأعلن «أرغون ابن أباقا»، بموافقة قبيلاي، الثورة بخراسان حيث كان يتولى إدارتها، فلحقت به الهزيمة أول الأمر؛ غير أن قادة أحمد لم يلبثوا أن تخلوا عنه، فلقي أحمد مصرعه في (١٠) آب ـ أغسطس سنة (١٢٨٤م)، في مؤامرة تمَّ تدبيرها في القصر، وبادر أرغون إلى اعتلاء العرش.

وكان أرغون هذا كأبيه، يدين بالفلسفة الانتقائية، ومع أن عواطفه كانت نحو البوذية، فإن وزيره «سعد الدولة» كان يهودياً. وكان «يابهالا» جاثليق

---

(١) دير معبد: Templum - Domini.

النساطرة أعز صديق له، وكان هذا الرجل ينتمي إلى أصل تركي من الأنجوت، وُلد في إقليم شانسي الصيني، على ضفاف نهر «هوانجهو»، وجاء مع مواطنه «رابان سوما» نحو الغرب يراودهما الأمل الكاذب في تأدية الحج إلى بيت المقدس.

وبينما كان بالعراق سنة (١٢٨١م)، تصادف شغور منصب الجاثلقية، فتقرر انتخابه ليشغل هذا المنصب، وكان له تأثير كبير على الإيلخان الجديد «أرغون»، الذي تطلع إلى تخليص ما للعالم المسيحي من أماكن مقدسة من أيدي المسلمين؛ غير أنه قال دائماً بأنه لن يفعل ذلك إلا إذا قدم له ملوك المسيحيين بالغرب الدعم والمساعدة.

وعلى هذا كتب أرغون إلى البابا «هونوريوس الرابع» في سنة (١٢٨٥م)، يقترح عليه القيام بعمل مشترك؛ غير أنه لم يتلقَّ إجابة على رسالته، فقرَّر بعد مضي سنتين أن يوفد سفارة إلى الغرب، واختار «رابان سوما»، صديق مار يابهالا، ليكون سفيراً له.

٦ ـ محاولة جديدة للتحالف المغولي ـ الصليبي (١٢٨٧ ـ ١٢٨٩م)

انطلق السفير المغولي لرحلته في بداية سنة (١٢٨٧م)، فأبحر من أطرابزون، ووصل إلى القسطنطينية في عيد القيامة، ولقي استقبالاً ودياً حافلاً من الامبراطور البيزنطي «أندرونيقوس»، ثم قام بزيارة كنيسة القديسة صوفية وسائر المشاهد الكبيرة بالقسطنطينية.

وكان الامبراطور البيزنطي على علاقات طيبة مع المغول، وتوافرت لديه الرغبة لتقديم المساعدة لهم، إلا أنه لم تتوافر له الموارد الكافية لتقديم مثل هذه المساعدة، فتوجه السفير المغولي «سَوْمَا» من القسطنطينية إلى نابولي، حيث وصلها في نهاية شهر حزيران ـ يونيو.

وفي نابولي شهد معركة بحرية في الميناء بين أسطولي أراغون ونابولي، وكان ذلك أول دليل يشير إلى أن غرب أوروبا لا زال غارقاً في صراعاته، فواصل سيره إلى روما، وتبين له أن البابا «هونوريوس الرابع» قد مات قبل وصوله بقليل، ولم تكن هيئة الكرادلة قد اجتمعت بعد لاختيار خلف له، فاستقبله الإثنا عشر كاردينالاً المقيمون بروما، واكتشف «سَوْمَا» أنهم جهال ضعاف لا تُرجى منهم مساعدة؛ إذ لم يعلموا شيئاً عن انتشار المسيحية بين المغول، وصدمهم أن

«سَوْمَا» يخدم سيداً وثنياً، ولما حاول أن يناقشهم في الأمور السياسية، صاروا يستجوبونه حول إيمانه وعقيدته، وانتقدوا انحرافات إيمانه عن عقيدتهم.

وكاد آخر الأمر يفقد أعصابه، فقال لهم: إنه قدم ليؤدي احترامه للبابا، ويرسم الخطط للمستقبل، لا ليعقد مناظرة عن العقيدة. ثم توجه فرحاً مسروراً إلى جنوة، بعد أن أدَّى الشعائر الدينية في الكنائس الرئيسية بروما، واستقبله الجنويون باحتفال كبير؛ إذ أن التحالف مع المغول كان أمراً بالغ الأهمية عندهم، فأوْلوا اقتراحات السفير ما هي جديرة به من الاهتمام.

ثم توجه «سَوْمَا» إلى فرنسا حيث وصل باريس في بداية شهر أيلول ـ سبتمبر، ولقي بها من الاستقبال كل ما كان يبتغيه؛ إذ رافقه حرس خاص إلى العاصمة، ولما أضحى في حضرة الملك الشاب «فيليب الرابع» بذل له ما يليق بالملك من المراسم والتشاريف؛ إذ نهض الملك من العرش ليحيِّيه، وأصغى في احترام إلى رسالته، فخرج من حضرة الملك بوعد أنه سوف يتولى بنفسه (إن شاء الله) قيادة جيش لتخليص بيت المقدس.

وابتهج السفير لما شاهده في باريس؛ إذ أن الجامعة التي كانت وقتذاك في ذروة مجدها في العصور الوسطى، كانت أكثر ما أثَّرت فيه. ورافقه الملك في زيارة كنيسة سانت شابيل، فشهد المخلفات التي اشتراها القديس لويس من القسطنطينية. ولما أزمع مغادرة باريس، عَيَّن الملك سفيراً له اسمه «جوبرت هيلفيل» ليصحب «سَوْمَا» في عودته إلى بلاط الإيلخان، وليعد معه تفاصيل التحالف مع المغول.

ثم تلا ذلك أن أضحى «سَوْمَا» في ضيافة إدوارد الأول، ملك إنكلترا، الذي كان وقتذاك في بوردو، عاصمة أملاكه الفرنسية. وصادف في إدوارد الذي سبق له أن حارب في بلاد الشام، وطالما دافع عن التحالف مع المغول، استجابة عملية لمقترحاته. وأدهشه الملك بأنه أكفأ سياسي التقى به في الغرب، وخصَّه الملك بالمجاملة حين سأله أن يؤدي القداس في البلاط الإنكليزي، على أن الملك إدوارد راوغ حين تقرر وضع جدول زمني، فلم يكن بوسع إدوارد، أو فيليب ملك فرنسا أن يحدد موعداً للقيام بالحملة الصليبية.

وعاد «سَوْمَا» إلى روما وهو قلق الفكر؛ وإذ توقف في جنوة حتى موعد عيد الميلاد، تصادف أن التقى بالمندوب الكاردينال «يوحنا توسكلوم» فأنهى إليه بمخاوفه؛ إذ كان المسلمون يستعدون في تلك الفترة لاستئصال شأفة آخر ما

تبقى للمسيحيين من إمارات في سوريا، وما من أحد في الغرب سوف يعير هذا التهديد شيئاً من اهتمامه.

تمَّ اختيار «نقولا الرابع» لمنصب البابا في شباط ـ فبراير سنة (١٢٨٨م)، وكان من أول أعماله أنه استقبل السفير المغولي، فقامت بينهما أحسن العلاقات الشخصية؛ إذ خاطب «سَوْمَا» البابا على أنه رأس أساقفة العالم المسيحي، وبعث البابا «نقولا» ببركاته إلى جاثليق النساطرة واعترف به بطريركاً في الشرق.

وفي أثناء أسبوع الآلام، احتفل السفير بالقداس أمام جميع الكرادلة، وتناول العشاء الرباني من يد البابا ذاته، وغادر روما وبصحبته «جوبرت هليفيل» في ربيع سنة (١٢٨٨م)، وهو يحمل من البابا الهدايا، وكثير منها من المخلفات الدينية القيِّمة للإيلخان والجاثليق ورسائل إليهما، وإلى أميرتين مسيحيتين في البلاط المغولي، وإلى دنيس أسقف اليعاقبة في تبريز؛ غير أن الرسائل تتسم بالغموض، فلم يَعِد البابا باتخاذ إجراء معين في وقت محدد.

وأدرك «سَوْمَا» في آخر الأمر أن لدى ملوك الغرب من الأمور ما يشغلهم؛ إذ أن شبح «شارل أنجو» اتحد مع ما اتصفت به البابوية من الميل إلى الانتقام لمنع القيام بحملة صليبية. فالمعروف أن البابا سبق أن قدم صقلية للأنجويين، على أن الصقليين لم يلبثوا أن انقلبوا على الأنجويين، وأصبح لزاماً على البابوية وفرنسا، بما ينتحلانه من كرامة ومكانة، أن تقاتلا الدولتين البحريتين الكبيرتين في البحر المتوسط، وهما جنوة وأراغون، من أجل استرداد صقلية. ولم يكن كل من نقولا وفيليب مستعداً للتفكير في حملة صليبية إلا بعد تسوية مسألة صقلية.

وأدرك إدوارد ملك إنكلترا الخطر، فعمل في سنة (١٢٨٦م) من أجل عقد هدنة بين فرنسا وأراغون، غير أنها كانت هدنة قلقة محفوفة بالخطر، طالما كان القتال مستمراً في إيطاليا وعلى البحر. يضاف إلى ذلك أنه كانت لدى إدوارد مشاكله الخاصة؛ إذ كان يتوق إلى إنقاذ الأرض المقدسة، غير أنه أدرك أن ما هو أكثر أهمية من المصالح، وأدعى إلى التعجيل بها، هو الاستيلاء على «ويلز» ومحاولة فتح اسكتلندا؛ إذ تحول نظره صوب الشمال بعد وفاة إسكندر الثالث ملك اسكتلندا سنة (١٢٨٦م)، نظراً لأنه كان يدبِّر أمر السيطرة على المملكة المجاورة عن طريق ولية عهدها «مرغريت النروجية»، ولا بدَّ للشرق أن ينتظر، ولم يكن للرأي العام من القوة ما يفرضها على الملوك. ودلَّت

أبحاث البابا «غريغوري العاشر» على أن الروح الصليبية أوشكت على الفناء.

حرص الإيلخان أرغون، زعيم المغول، على استقبال سفيره «رابان سَوْمَا» عند عودته من رحلته، استقبالاً حافلاً كما حرص على إظهار مودته للسفير الفرنسي المرافق لسفيره «جوبرت هليفيل»؛ غير أنه لم يصدق أن المسيحيين في الغرب، بما اشتهروا به من التظاهر الديني بالتعلق بالأرض المقدسة، يظهرون مثل هذا الاستخفاف بما يحيق به مصيرها من خطر.

وعندما بدأ «أرغون» في مباحثة سفير فرنسا «جوبرت» من أجل تحديد دقيق لخطة العمل في المستقبل، ظهر له أنه ليس باستطاعة «جوبرت» الاضطلاع بهذا العبء، وهذا ما دفع «أرغون» إلى إرسال سفير آخر في أعقاب عيد القيامة سنة (١٢٨٩م)، وكان هذا السفير من جنوة واسمه «بوسكارد جيز ولف»، أقام في بلاد المغول زمناً طويلاً واكتسب ثقة زعمائهم.

وحمل السفير معه رسائل من الإيلخان أرغون إلى البابا وملكي فرنسا وإنكلترا، ولا زالت رسالته إلى ملك فرنسا «فيليب» باقية، وفيها «يعلن أرغون أنه سوف يتوجه إلى سوريا بعون الله في الشهر الأخير من فصل الشتاء من سنة الفهد (أي في كانون الثاني ـ يناير سنة ١٢٩١م)، وأنه سيصل إلى دمشق حوالي منتصف أول شهور الربيع (أي في شباط ـ فبراير)، فإذا أرسل الملك قوات إضافية، واستولى المغول على بيت المقدس، فسوف يجعلها له، أما إذا لم يتعاون، فسوف تتبدد الحملة». وأضاف «بوسكارد» إلى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية، تنطوي على تحيات لبقة موجهة إلى الملك الفرنسي. ويضيف «بوسكارد» أن أرغون سوف يصحب معه الملكين المسيحيين ببلاد الكرج، ونحو عشرين أو ثلاثين ألفاً من الفرسان، وسوف يتكفل بما يكفي رجال الغرب من المؤن، ولا بدَّ أن رسالة مماثلة لا زالت مفقودة قد وُجِّهت إلى الملك إدوارد، أضاف إليها البابا حاشية تتضمن توصيته وتشجيعه.

وقد ضاع ردُّ فيليب على رسالة الإيلخان، غير أن ردَّ «إدوارد» لا زال محفوظاً: «وتضمن بذل التهنئة للإيلخان على حملته لصالح المسيحيين، ويزجي إليه التحيات الودية؛ غير أنه لم يذكر شيئاً عن التاريخ الفعلي، ولم ينطوِ على أي وعد، وإنما جرت الإشارة إلى التجاء الإيلخان إلى البابا، الذي لن يفعل شيئاً إلا بتعاون الملكين الإنكليزي والفرنسي».

وفي تلك الفترة أصدر فرنجي آخر (مجهول الاسم) رسالة يبيِّن فيها أنه من

اليسير أن تهبط قوة من الغرب إلى البر عند إياس (في أرمينية)، التي يعتبر ملكها أكثر الناس ميلاً إلى المساعدة، ومن ثم تستطيع هذه القوة أن تلتقي بالمغول؛ غير أنه لم يحفل أحد بنصيحته.

وعلى الرغم من أن «بوسكارد» قد رجع بإجابات غامضة لا تبشِّر بشيء، فإن أرغون أرسله من جديد مع اثنين من المغول المسيحيين، وهما «أندرياس زاكان» و«سهادين»، فتوجهوا أول الأمر إلى روما، حيث استقبلهم البابا نقولا، ثم مضوا لزيارة ملك إنكلترا بعد أن تزوَّدوا برسائل عاجلة من البابا، الذي اعتبر، على ما يظهر، أن إدوارد أكثر ميلاً لشن الحرب الصليبية من ملك فرنسا «فيليب»، فوصلوا إليه في زمن مبكر من سنة (١٢٩١م)، غير أن إدوارد كان منغمساً في أمور اسكتلندا بعد وفاة مرغريت في السنة السابقة. وعاد الرسل إلى روما، وقد اشتدَّ بهم الضيق، فمكثوا بها فصل الصيف، ولكن الوقت قد فات عندئذٍ؛ إذ أن مصير الإمارات الصليبية في دمشق، كان قد تقرَّر بصورة نهائية، كما كان الإيلخان أرغون قد مات.

لقد أسهبت المصادر الغربية في توجيه النقد لزعماء الغرب وملوكه الذين تقاعسوا، ولم يتمكنوا من استثمار التحالف مع المغول لتحقيق أهدافهم. ومما ذكروه في هذا المجال: «من أنه لو تمَّ التحالف مع المغول، ولو أخلص الغرب في إنجازه؛ لكان بالمستطاع يقيناً إطالة أمد الشرق الفرنجي، وتجريد المماليك من القوة أو تدميرهم، وأن تعيش إيلخانية فارس دولة صديقة للمسيحين والغرب».

على أن ما حدث فعلاً هو أن حكم المماليك استمر بعد ذلك لفترة ثلاثة قرون، وتحول مغول فارس إلى الإسلام، ولما يمض على وفاة أرغون إلا أربع سنوات. ولم يكن فرنج الشرق ـ الصليبيون ـ هم الذين ضاعوا بسبب إهمال الغرب، بل شاركهم في ذلك الجماهير التعسة التي تنتمي إلى العالم المسيحي الشرقي، وهذا الإهمال يرجع أساساً إلى الحرب الصقلية التي نبعت من حقد البابوية والاستعمار الفرنسي.

لم يكن الموقف في الإمارات الصليبية بالشام أفضل مما كان عليه الموقف في الغرب، حيث أخذ الضعف في التزايد يوماً بعد يوم وساد مناخ انعدام تقدير المسؤولية.

وهكذا لم يكد الملك هنري يعود إلى قبرص، بعد أن تمَّ تتويجه في صور،

وأقام الاحتفالات والمهرجانات المثيرة في عكا، حتى اندلعت الحرب الأهلية على ساحل بلاد الشام بين البيازنة والجنويين. فقد أرسل الجنويون أسطولاً إلى شرق البحر الأبيض المتوسط في ربيع سنة (١٢٨٧م) تحت قيادة أميري البحر توماس سبينولا وأورلاندو أشيري. وتوجه سبينولا إلى الإسكندرية لتوطيد العلاقات الودية مع السلطان قلاوون، في حين انطلق أشيري بالأسطول ليمخر عباب البحر على امتداد ساحل بلاد الشام من أقصاه إلى أقصاه، عاملاً على إغراق أو أسر كل ما يصادفه من سفن البيازنة، وقد حاول أشيري بيع الأسرى، لكن فرسان الداوية تدخلوا فأحبطوا محاولته ومنعوه من تنفيذها، لكن ذلك لم يمنع أشيري من الإعداد لهجوم يقوم به على ميناء عكا.

وقام البنادقة بالمقابل على إشراك أسطولهم المحلي مع أسطول البيازنة لحماية الميناء؛ غير أن أشيري انتصر تجاه حاجز الأمواج في المعركة التي جرت يوم (٣١) أيار - مايو سنة (١٢٨٧م)، ولكنه لم يتمكن من اقتحام الميناء. ولما أبحر «سبينولا» من الإسكندرية استطاع الجنويون أن يفرضوا الحصار على كل الساحل، ولكن مقدمي الداوية والأسبتارية ومَن معهم من ممثلي النبلاء المحليين، نجحوا في نهاية الأمر بإقناع الجنويين بالعودة إلى صور عبر البحر، وذلك بهدف إفساح المجال أمام حركة الشحن.

وبقيت مدينة اللاذقية طوال هذه الفترة بعيدة عن الصراع، وهذا ما سمح لها بالاستمرار في السيطرة على تجارة المسلمين، ومن المعروف أن اللاذقية كانت هي آخر مدينة من المدن التي شكَّلت فيما مضى إمارة أنطاكية الصليبية.

٧ - قلاوون يحرر اللاذقية وطرابلس (١٢٨٧ - ١٢٨٩م)

أدَّت استفزازات اللاذقية واستثارتها للتجار المسلمين، إلى توجُّه هؤلاء إلى السلطان قلاوون، ورفع شكواهم إليه. وفي الوقت ذاته أصبحت الظروف كلها مناسبة لتحرير هذه المدينة، التي لم تدخل في الهدنة المعقودة مع طرابلس، باعتبارها جزءاً من إمارة أنطاكية القديمة.

ولهذا أرسل السلطان قلاوون مجموعة قتالية، بقيادة الأمير حسام الدين طرنطاي، وكان قد وقع زلزال في (٢٢) آذار - مارس سنة (١٢٨٧م) أدَّى إلى إلحاق أضرار غير قليلة بأسوار اللاذقية. وهكذا فما أن وصل حسام الدين إلى اللاذقية حتى سقطت المدينة في قبضته بدون مقاومة تقريباً؛ إذ أسرعت الحامية

المدافعة عن المدينة بالانسحاب إلى حصن كان يقع في مدخل الميناء، ويتصل بالبر بواسطة جسر، وما كان من حسام الدين إلا أن عمل على توسيع الجسر، ما أرغم الحامية على الاستسلام في (٢٠) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٨٧م).

ولم يعش بوهمند السابع طويلاً بعد ضياع المدينة التي كان يحكمها؛ إذ مات في (١٩) تشرين الأول ـ أكتوبر بدون أن يترك ذرية تخلفه، وكانت وريثته هي أخته «لوسيا» التي سبق أن تزوجت من أمير البحر السابق لدى «شارل أنجو»، واسمه «مارجوتوسي»، والذي كان يعيش في «أبوليا».

ولم يكن لنبلاء طرابلس وسكانها رغبة خاصة في أن يستدعوا إلى الشرق أميرة تكاد تكون مجهولة عندهم، فضلاً عن ارتباطها بالأنجويين (الكريهين)، فعرضوا الكونتية عوضاً عنها على الأرملة «سبيللا» أميرة أرمينية، ولم تكد سبيللا تتلقى العرض حتى كتبت إلى صديقها القديم «بارثولوميو»، أسقف أنطرطوس، تدعوه إلى أن يكون نائباً عنها؛ غير أن رسالتها جرى الاستيلاء عليها أثناء الطريق، وقدم إليها نبلاء إمارة طرابلس، فأعلموها بأن الأسقف ليس مقبولاً؛ غير أنها رفضت النزول على رأيهم، فانسحب النبلاء بعد لقاء حافل بالغضب والسخط، وأخذوا يستشيرون كبار التجار، فأعلنوا جميعاً خلع الأسرة عن العرش، وإقامة هيئة حاكمة (قومون) تكون لها السلطة والسيادة. وكان رئيس الهيئة «بارثولوميو إيمبرياكو» الذي كان أبوه بلدوين من ألد أعداء بوهمند السادس، كما أن أخاه وليم تعرَّض مع ابن عمه حاكم جبيل، لميتة قاسية على يد بوهمند السادس.

ولجأت الأميرة سبيللا إلى أخيها في أرمينية، غير أنه حدث في وقت مبكر من سنة (١٢٨٩م) أن قدمت إلى عكا لوسيا مع زوجها لتتوجه منها إلى طرابلس حتى تتسلم إرثها، فلقيت استقبالاً حافلاً من الأسبتارية، الحلفاء القدامى للأسرة، فرافقوها حتى «نيفين»، المدينة الواقعة على طرف الإمارة، وبها أصدرت إعلاناً يتضمن حقوقها، وردَّت الهيئة الحاكمة بنشر قائمة طويلة عن الظلامات والشكاوى إزاء ما ارتكبه من قسوة وجبروت، أخوها ووالدها وجدها. وأعلن (أعضاء الهيئة) أنهم لن يقبلوا بحال من الأحوال هذه الأسرة، واستعاضوا عن ذلك بأن وضعوا أنفسهم تحت حماية جمهورية جنوة. وتوجه مندوب عن الهيئة إلى جنوة، فأعلم أميرها بالموقف، وأسرع أمير جنوة فأرسل أمير البحر «بنيتو زكريا» ومعه خمس سفن بمهمة إجراء المفاوضات مع الهيئة الحاكمة.

وفي تلك الأثناء- سار إلى طرابلس مقدمو الطوائف الدينية العسكرية الثلاثة، وبصحبتهم نائب البنادقة في عكا للدفاع عن حق وريثة الكونتية «الأميرة»، فأما مقدم الأسبتارية فحمله على ذلك ما كان هناك من صداقة تربط طائفته مع أسرتها القديمة، على حين أن مقدمي الداوية والتيوتون لم يَقْدما إلا لمساندة البندقية على جنوة؛ غير أنه تمَّ إعلامهم أنه لا بدَّ لـ«لوسيا» من أن تعترف بالهيئة الحاكمة كحكومة شرعية للإمارة.

ووصل «زكريا» فطلب عقد معاهدة تمنح الجنويين شوارع عديدة أُخرى في طرابلس، وتجعل لهم الحق في أن يكون لهم حاكم يتولى أمور جاليتهم، على أنه ما كان للهيئة الحاكمة من حريات وامتيازات. غير أن الشكوك أخذت تثور في نفوس أهل طرابلس حول ما إذا كانت جنوة ستهتم بمصلحتهم على نحو ما تهتم بمصالحها؛ لا سيما وأن «بارثولوميو إيمبرياكو» اشتد شغفه ونهمه ليفوز بالإمارة لنفسه، بعد أن سبق له أن ظفر بالسيطرة على جبيل، وذلك بعد أن زوَّج ابنته أجنيس لابن عمه الصغير «بطرس بن جاي الثاني»، ولهذا فقد أرسل رسالة إلى القاهرة ليعرف مدى دعم السلطان قلاوون له فيما إذا أعلن نفسه أميراً على طرابلس، وهكذا أثار طموحه الريبة، ودفع أهل طرابلس إلى مساندة قضية لوسيا.

وكتبت الهيئة الحاكمة إلى لوسيا في عكا تعرض الاعتراف بها إذا أقرت وصفه، غير أن لوسيا تصرفت بدهاء ومكر، وأعلمت زكريا الذي كان في إياس بعقد معاهدة تجارية مع ملك أرمينية، فهرع إلى عكا للقائها، فوافقت على أن تعترف بامتيازات كل من الهيئة الحاكمة وإمارة جنوة، ووفقاً لهذه الشروط تقرر الاعتراف بها كونتيسة على طرابلس.

ولم يرض البنادقة بهذا الاتفاق، وكذلك الأمر بالنسبة لـ«بارثولوميو إمبرياكو»، الذي أرسل إلى السلطان قلاوون يلتمس منه التدخل، ويحذره من أن سيطرة جنوة على طرابلس ستساعدها على فرض سلطتها على كل شرقي البحر الأبيض المتوسط.

وشعر السلطان قلاوون بأن الظروف أصبحت مناسبة لتحرير طرابلس، فاستجاب بسرعة لطلب بارثولوميو، وأخذ من هذا الطلب حجة لنقض الهدنة التي كانت معقودة مع طرابلس، وتحرك بكل الجيش المصري إلى سوريا في شهر شباط ـ فبراير سنة (١٢٨٩م)، بدون أن يكشف النقاب عن هدفه؛ غير أن أحد أمرائه وهو «بدر الدين بكتاش الفخري» أرسل إلى مقدم الداوية «وليم

بوجيه» ينذره بأن قلاوون يقصد طرابلس، فعجل وليم بإنذار المدينة، وطلب إليها أن تتحد، وأن تلتفت إلى تقوية أسباب دفاعها.

على أنه ما من أحد من سكان المدينة كان على استعداد لتصديقه بسبب ما كان عليه من سمعة سيئة، وبسبب ما اشتهر به من التآمر السياسي، وارتاب الناس في أنه اخترع هذه القصة بهدف الحصول على مكاسب خاصة؛ إذ كان يأمل في أن تجري دعوته للتوسط بين المتخاصمين.

وهكذا مضت الأحزاب في مشاجراتها وصراعها إلى أن اجتاز جيش السلطان الضخم البقيعة في نهاية شهر آذار ـ مارس، واحتشد أمام أسوار المدينة. ولم يحفل الناس بالخطر إلا آخر الأمر، حيث جعل رجال الهيئة الحاكمة كامل السلطة في قبضة الأميرة «لوسيا»، وكذلك فعل النبلاء الذين دعموا سلطة الأميرة داخل المدينة. وأرسل الداوية قوة بقيادة مارشالهم «جيفري فنداك»، وتولى قيادة الأسبتارية مارشالهم «ماثيو ـ كليرمونت»، وتوجهت الكتيبة الفرنسية من عكا إلى طرابلس بقيادة «يوحنا جرايللي». وكان بالميناء أربع سفن جنوية وسفينتان للبنادقة، بالإضافة إلى عدد من السفن الصغيرة الأخرى، التي كان لبيزا بعضها. وأرسل الملك هنري من قبرص قوة من الفرسان بقيادة أخيه الأصغر «أملريك» ومعه أربع سفن. وفي تلك الأثناء هرب إلى قبرص عدد كبير من غير المحاربين، بعد أن اجتازوا البحر، وظهر أن المدينة باتت قادرة على الدفاع لمدة كافية في مجابهة هجوم المسلمين.

كانت طرابلس في ذلك العصر تقع على البحر، وتحتل شبه الجزيرة التي تقع عليها ضاحية الميناء في الوقت الحاضر، ولم تكن متصلة بقلعة الحجاج التي لم تحاول مقاومة هجوم المسلمين. أما مدينة طرابلس، فكانت محمية بتحصينات دفاعية قوية، وكانت الحامية المدافعة عن طرابلس تعتمد على تفوقها في القدرة البحرية، غير أنه ظهر للحامية أنه ما من سبيل لمقاومة هجوم المسلمين الذين توافرت لهم كمية مناسبة من أجهزة الحصار، وتفوَّقوا بقدرتهم البشرية، ولهذا قرر البنادقة أنه من المحال المضي في الدفاع، وذلك بمجرد انهيار برج الأسقف الذي كان يقع في الجهة الجنوبية الشرقية للسور البري، وبرج الأسبتارية الذي كان يقع بين برج الأسقف والبحر، وأخذ البنادقة بشحن سفنهم بكل أمتعتهم، ثم أقلعوا إلى خارج الميناء.

وكان من نتيجة ذلك أن ثارت شكوك الجنويين الذين خافوا من استيلاء

البنادقة على بعض سفنهم، فأسرع أمير البحر الجنوي، واستدعى رجاله، وغادروا المدينة بعد أن نهبوا كلَّ ما استطاعوا نهبه من متاجر المدينة، وأدّى ذلك إلى انتشار الفوضى في صفوف المسيحيين الوطنيين.

وفي صبيحة يوم (٢٠) نيسان - إبريل سنة (١٢٨٩م)، أمر السلطان بشن هجوم عام، فتدفقت قوات المسلمين إلى داخل المدينة، بعد أن اجتازت السور الواقع إلى الجنوب الشرقي، والذي تعرض للانهيار بنتيجة القصف الشديد والمركَّز، وأسرع سكان المدينة بالبحث عن طريق مأمون يصل بهم إلى الميناء. وتمكنت الأميرة «لوسيا» من ركوب البحر والاتجاه إلى قبرص، ومعها أمير قبرص «أملريك» ومارشالا الطائفتين الداوية والأسبتارية، في حين لقي مصرعه كل من قائد الداوية «بطرس مونكادا» وبارثولوميو أمبرياكو. وأخذت قوات المسلمين في إبادة المقاومات التي تعترض سبيل تقدُّمهم عبر شوارع المدينة، بينما جرى سبي النساء والأطفال.

ولما تمَّ احتلال المدينة، أمر السلطان قلاوون بتدميرها تدميراً تاماً حتى لا يحاول الفرنج الاستيلاء عليها من جديد بفضل سيطرتهم البحرية، وأصدر الأوامر بوضع أساس مدينة جديدة في سفح تل الحجاج على بعد بضعة كيلومترات إلى الداخل.

ومضت قوات المسلمين بعد ذلك، فحرَّرت البترون ونيفين من قبضة الفرنج الصليبيين، وعرض «بطرس أمبرياكو» سيد جبيل على السلطان قلاوون إذعانه وخضوعه، فسمح له السلطان بالاحتفاظ بالمدينة لمدة عشر سنوات أخرى، ولكن تم وضعه تحت الرقابة الصارمة للمسلمين.

استقبل السكان في عكا أنباء تحرير طرابلس بالذهول، فقد كانت الصدمة كبيرة؛ إذ كان سكان عكا يعتقدون طوال السنوات القليلة الأخيرة أنهم بمأمن طالما أنهم لم يقوموا بالعدوان على المسلمين. ولم يكن لدى السلطان قلاوون في الواقع ما يمنع من الموافقة على بقاء المدن الصليبية على امتداد الساحل؛ غير أنه لم يكن باستطاعة قادة المسلمين تجاهل ما كانت تشكله القلاع من تهديد مستمر لمدن المسلمين، كما لم يكن باستطاعة قادة المسلمين أيضاً تجاهل ما كانت تقوم به الطوائف الدينية العسكرية، والتي كان واجبها يقتصر على أعمال القتال مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية القوية، وبما كانت تقوم به من دور لتمويل الإمارات الصليبية.

ومقابل ذلك، كان التجار وأصحاب المخازن والحوانيت بالميناء يرغبون بصدق استمرار مناخ السلام، كما أن الأمراء المحليين استسلموا لحياة الترف، واصبحوا أكثر رغبة في تجنب كل اضطراب أو ارتباك تسببه الحروب الصليبية. وكانت عكا وأمثالها من المدن الساحلية قد ضمنت أسباب الراحة للمسلمين والمسيحيين سواء في ممارسة التجارة، كما كان سكانها قد رفضوا بصدق التحالف مع المغول. وبذلك تكون حوافز الحرب في حالة تعادل مع عوامل السلم، إلا أن تحرير طرابلس قد جاء بصورة مثيرة ليبرهن على أن الحروب الصليبية لن تتوقف طالما بقي للإمارات الصليبية وجود في العالم الإسلامي.

لم تمض ثلاثة أيام على تحرير طرابلس حتى وصل إلى عكا ملك قبرص «هنري»، فصادف بها رسولاً أوفده السلطان قلاوون بمهمة تقديم احتجاج على ما قامت به الطوائف الدينية الصليبية ـ العسكرية ـ من نقض للهدنة وإرسال للقوات من أجل دعم حامية طرابلس، فردَّ هنري على ذلك بأن الهدنة لا تنطبق إلا على مملكة بيت المقدس، فلو أن طرابلس كانت داخلة في الهدنة لما أقدم السلطان على مهاجمتها وتحريرها.

وقبل رسول السلطان قلاوون هذا العذر، وتجددت الهدنة لمدة عشر سنوات أخرى وعشرة شهور وعشرة أيام، على أن تدخل فيها مملكتا بيت المقدس وقبرص.

وبادر ملك أرمينية وسيدة صور إلى احتذاء هذا المثال، غير أن ملك قبرص «هنري» لم يعد يمتلك الثقة بقدرة الإمارات الصليبية على البقاء والاستمرار، كما أنه لم يكن قادراً على المغامرة وطلب النجدة من المغول؛ إذ أن السلطان قلاوون سيعتبر ذلك انتهاكاً للهدنة، غير أنه قبل أن يعود إلى قبرص في أيلول ـ سبتمبر سنة (١٢٨٩م)، وذلك بعد أن ترك أخاه نائباً عنه في عكا، كما أرسل «يوحنا جرايللي» إلى أوروبا بمهمة تحذير ملوك الغرب، وإطلاعهم على الموقف الذي بات شديد الخطورة.

وأظهر ملوك الغرب قلقهم من تحرير طرابلس، غير أن الموقف على جبهة صقلية بقي يشغل عقولهم جميعاً، وبالإضاف إلى ذلك فقد كان ملك إنكلترا «إدوارد» منصرفاً لمعالجة قضية اسكتلندا التي وصلت إلى مرحلة الأزمة الحاسمة.

ولم يكن موقف البابا نقولا الرابع بأفضل من موقف ملك إنكلترا؛ إذ أنه على

الرغم من استقباله الحار لسفير ملك قبرص «يوحنا جرايللي» غير أن تورطه بقضية صقلية جعله عاجزاً عن القيام بأي عمل إيجابي، وكل ما كان يستطيعه هو إرسال الرسائل واستثارة رجال الدين من أجل الدعوة إلى حرب صليبية، على أن الأمراء والسادة الذين توسل إليهم، فضَّلوا الانتظار حتى يتحرك الملك «إدوارد» الذي كان قد قطع وعداً بالاشتراك في حملة صليبية، علاوة على تجربته القديمة في الحرب الصليبية عندما كان ولياً للعهد، ولكن إدوارد لم يتحرك.

أما جمهورية جنوة التي ألحق ضياع طرابلس خسارة فادحة بها، فإنها شنت حملات انتقامية بأن استولت على سفينة تجارية مصرية كبيرة في مياه جنوب الأناضول، وأغارت على ميناء التين بالدلتا «التينة»، والذي كان مجرداً من أسباب الدفاع. ولما أغلق السلطان قلاوون ميناء الإسكندرية في وجه الجنويين بادروا بعقد الصلح، فلما وصلت رُسلهم إلى القاهرة، التقوا بسفارتين من قِبَل الامبراطور البيزنطي والامبراطور الألماني، وهما تقفان على خدمة السلطان.

وهكذا لم يلقَ نداء البابا استجابة إلا في شمال إيطاليا، كما أن هذه الاستجابة اقتصرت على الفلاحين والعاطلين عن العمل من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا، وكلهم كانوا يتطلعون إلى المغامرة التي يمكن أن تعود عليهم بشيء من الجزاء، أو الخلاص، أو قد تصيبهم بقدر من الغنيمة، ولم يكن البابا راضياً عنهم، غير أنه قَبِل مساعدتهم، فجعلهم تحت قيادة أسقف طرابلس الذي قدم إلى روما لاجئاً، وكان يأمل بأنهم لن يرتكبوا حماقة، بعد أن خضعوا لسيطرة رجل كنيسة يستطيع أن يكبح جماحهم، فضلاً عن سابق معرفته بأوضاع الإمارات الصليبية.

أما البنادقة الذين لم يحزنوا لما فقدته جنوة من قاعدة في طرابلس، والذين أحسوا بشعور مختلف حول عكا، حيث كانت لهم السيطرة التجارية، فإنهم بذلوا عشرين سفينة بقيادة «نقولا تيببولا ـ ابن الدوق» يساعده بناء على طلب البابا يوحنا جرايللي، وروسللي، وحاز كل من هؤلاء القادة الثلاثة ألف قطعة من الذهب من خزانة البابوية؛ غير أنهم افتقروا إلى المؤن، فلما أبحر الأسطول في اتجاه الشرق، انضمت إليه خمس سفن أرسلها جيمس «ملك أراغون» الذي حرص على تقديم ما يمكنه من المساعدة.

بقيت الهدنة المعقودة بين السلطان قلاوون وملك قبرص «هنري» سارية

المفعول، وبفضل هذه الهدنة استقرت الأوضاع وعادت الثقة لأهل عكا، وأخذت التجارة في تلك الفترة طريقها للازدهار، وأخذ تجار دمشق في إرسال قوافلهم إلى الساحل، وتوافر المحصول في تلك السنة في الجليل، وحمل الفلاحون المسلمون منتجاتهم إلى عكا التي ازدحمت بالمتنافسين على الأسواق، وشهدت المدينة نشاطاً لم تعرفه في أيِّ وقت مضى بمثل ما عرفته في تلك السنة.

ولكن لم يلبث الصليبيون الإيطاليون أن وصلوا إلى عكا في شهر آب ـ أغسطس من صيف سنة (١٢٩٠م)، فأثاروا الارتباك للسلطات منذ أن وطأت أقدامهم أرض الساحل بسبب ما اشتهروا به من الفسق والفجور والسكر والإخلال بالأمن، ولم يكن لقائدهم عليهم سيطرة أو سلطان، لا سيما بعد أن عجز عن دفع رواتبهم؛ وإذ اعتقدوا أنهم جاؤوا لقتال الكفار ـ المسلمين ـ فإنهم انطلقوا لمهاجمة التجار والفلاحين المسلمين.

وحدث ذات يوم أن اندلعت الفتنة، في نهاية شهر آب ـ أغسطس. وبدأت هذه الفتنة عندما أشيع أن مسلماً اغتصب سيدة مسيحية، واستغاث زوجها بالجيران للانتقام له، وأسرع الفرنج (الصليبيون) يجوبون شوارع المدينة، ثم خرجوا إلى الضواحي، وأخذوا يذبحون كل مَن صادفهم مِن المسلمين؛ وإذ اعتقدوا أن كل ذي لحية مسلم، هلك أيضاً عدد من الوطنيين المسيحيين.

واستبدَّ الرعب بأمراء المدينة وفرسان الطوائف الدينية العسكرية، على أن كل ما استطاعوا عمله هو إنقاذ عدد قليل من المسلمين الذين نقلوهم إلى القلعة، حيث يتوافر لهم الأمن، بالإضافة إلى إلقاء القبض على عدد من المحرِّضين المعروفين. لكن أنباء المذبحة انتشرت، فأثارت المسلمين ووصلت إلى أسماع السلطان قلاوون فأثارت غضبه، وقرر أن الوقت قد حان لتحرير بقية بلاد المسلمين من قبضة الصليبيين.

وشعر قادة عكا بما يتهددهم، فأسرعوا بإرسال سفارة لهم إلى القاهرة بهدف تقديم الاعتذار إلى السلطان قلاوون، فما كان من السلطان قلاوون إلا أن أرسل سفارة إلى عكا بمهمة تقديم طلب يقضي بتسليم المجرمين الذين اشتركوا في المذبحة، وأثاروا الفتنة، فدعا أمير عكا «أملريك» مجلس حكم الإمارة. وفي هذا المجلس نهض مقدم الداوية، فطالب بتسليم كل المذنبين المسيحيين المعتقلين وقتئذ في سجون عكا لممثلي السلطان باعتبار أنهم هم المجرمون

والمسؤولون عن الفتنة؛ غير أن هذا النصح اصطدم بمقاومة أولئك الذين يعتقدون بأن الرأي العام لا يسمح بإرسال المسيحيين ليلقوا مصرعهم على أيدي المسلمين.

وهكذا لم تلق سفارة السلطان قلاوون الاستجابة المناسبة، بل حدث العكس؛ إذ جرت محاولة فاشلة لإثبات أن بعض تجار المسلمين هم الذين بدؤوا الفتنة، ويجب إلقاء المسؤولية على عاتقهم، ولم يبقَ أمام السلطان قلاوون سوى الاحتكام إلى السلاح.

ولجأ السلطان قلاوون إلى الفقهاء لاستفتائهم في قضية نقض الهدنة، وجرت مناظرة صدر بعدها الإفتاء الشرعي الذي يسمح للسلطان، بنقض الهدنة. وأخذ قلاوون بالاستعداد للحرب، لكنه أسدل على هذه الاستعدادات ستاراً من السرِّية والكتمان. وبينما كانت تتم تعبئة الجيش في مصر، صدرت الأوامر إلى جيش الشام بإعداد أدوات الحصار، والتوجه إلى قيسارية على ساحل فلسطين بقيادة نائب دمشق «ركن الدين طقسو».

وترددت الشائعات بأن الحملة تقصد جهة ما في أفريقيا، غير أن الأمير فخر الدين بكتاش، والذي كان يتقاضى رواتب من الداوية على ما يظهر، عاد مرة أخرى فأنذر مقدم الداوية «وليم» بالنوايا الحقيقية للسلطان، فأذاع وليم الإنذار، غير أنه ما من أحد أراد أن يصدقه، وتكرر معه ما سبق أن صادفه في طرابلس من الرفض والمقاومة وإثارة الشكوك في نواياه، فما كان منه إلا أن أرسل مندوباً عنه إلى القاهرة، فعرض قلاوون أنه يبقى على المدينة مقابل أن يُسَلِّم له فدية من البنادقة تضارع عدد سكان المدينة.

فلما تقدم وليم بهذا العرض إلى المحكمة العليا، قررت رفضه في سخرية، وجرى اتهام وليم بالخيانة وتعرض عند مغادرة قاعة المحكمة للإهانة من قِبَل الرعاع.

ومع اقتراب سنة (١٢٩٠م) من نهايتها كان السلطان قلاوون قد أنهى استعداداته، ولم تبق هناك حاجة به لإخفاء نواياه وأهدافه تجاه مدينة عكا، وأرسل رسالة إلى ملك أنطاكية أشار فيها إلى أنه أقسم بألا يترك في المدينة مسيحياً على قيد الحياة.

وخرج السلطان قلاوون على رأس جيشه من القاهرة في يوم (٤) تشرين الثاني - نوفمبر سنة (١٢٩٠م)، لكنه لم يكد يبدأ بالمسير حتى سقط مريضاً،

وبعد ستة أيام من بدء مرضه، قضى نحبه في مرجة الطين على بعد مسافة خمسة أميال من عاصمته، على أنه عمل وهو على فراش الموت، فاستدعى ابنه الأشرف خليل، وحمله على أن يقطع وعداً بأن يواصل حملته ويحقق هدفه. وحينما وردت إلى عكا أنباء وفاة السلطان قلاوون، استقبل الفرنج الصليبيون ذلك بالفرح والبهجة اعتقاداً منهم أن الخطر الذي كان يتهدَّدهم قد زال بزوال السلطان قلاوون.

الفَصْلُ الثّالِث

الأشرف خليل وتحرير عكا

١ ـ الأشرف خليل ينفذ ما وعد به
٢ ـ تحرير عكا، ثم تدميرها
٣ ـ تحرير بقية بلاد الشام
٤ ـ نهاية السلطان الأشرف



الأشرف خليل وتحرير عكا

١ ـ الأشرف خليل ينفذ ما وعد به

اشتهر السلطان قلاوون بالشرف والاستقامة والعاطفة الدينية العميقة، والعمل المستمر لقيادة الجهاد في سبيل الله، وجاء ابنه الأشرف خليل ليسير على نهجه، وليحتذي سيرته، ويحقق له أهدافه. ولكن كان لزاماً على الأشرف خليل السيطرة على الموقف الداخلي قبل أن ينطلق إلى الحرب الخارجية؛ إذ أن الأمير طرنطاي نظم مؤامرة للسيطرة على الحكم بعد وفاة السلطان قلاوون، وتمكن الأشرف خليل من التحرك في الوقت المناسب، فألقى القبض على طرنطاي وقضى على أقطاب المؤامرة ووطّد مركزه، وتطلب ذلك بعض الوقت، وأقبل فصل الشتاء، فقرر السلطان الأشرف خليل تأجيل الأعمال القتالية إلى فصل الربيع من السنة التالية.

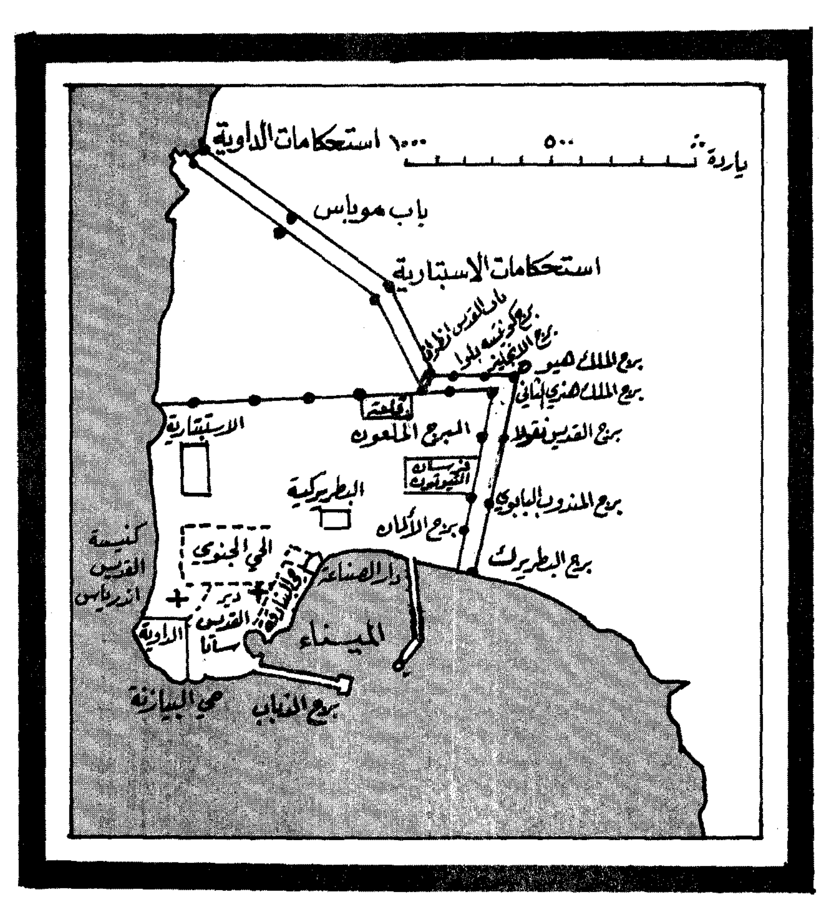
وأثناء ذلك حاولت حكومة عكا الإفادة من فترة الهدوء، فأرسلت من جديد سفارة إلى القاهرة، ترأسها أحد أعيان عكا واسمه «فيليب ماينبيف»، الذي كان من الثقاة في دراسة اللغة العربية، وصحبه إلى القاهرة فارس من الداوية هو «بارتولوميو بيزان»، وآخر من الأسبتارية اسمه «جورج»، ورفض السلطان الأشرف استقبالهم، وألقى بهم في السجن.

وأكمل السلطان الأشرف الاستعداد حتى وصل إلى مرحلة بالغة الدقة، وجمع آلات الحصار من جميع أنحاء البلاد الإسلامية. وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من حماة، من الثقل ما جعله يستغرق شهراً في تحركه إلى عكا، وزاد من صعوبة هذا التحرك هطول الأمطار الغزيرة التي أغرقت الأرض وحوّلتها إلى مستنقعات طينية.

وكان لا بدَّ للقوات المتحركة من شمال بلاد الشام أن تتوقف قليلاً أمام حصن الأكراد من أجل نقل عرادة ضخمة اسمها المنصورة، بالإضافة إلى مائة قطعة

أُخرى من أدوات الحصار التي كان قد تمَّ صنعها في دمشق والقاهرة. وكان مع الجيش أيضاً عرادة كبيرة أُخرى اسمها «الغاضبة»، ومناجيق اشتهرت باسم «الثيران السوداء»، والتي كانت أخف وزناً، ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير.

وغادر السلطان الأشرف القاهرة في يوم (٦) آذار ـ مارس سنة (١٢٩١م)، وعندما وصل دمشق، أوْدع فيها أهله، ثم تابع تحركه إلى عكا، فوصلها ومعه كل قواته الكثيفة يوم (٥) نيسان ـ إبريل. وتذكر المصادر أن جيش المسلمين الذي قاده السلطان الأشرف كان يضم ستين ألف فارس، ومائة وستين ألفاً من المشاة «الراجلين». ومن المحتمل أن تكون ثمة مبالغة في تقدير القوة العددية لجيش المسلمين، إلا أنه يتفوق في قوته بالتأكيد على كل ما استطاع الفرنج الصليبيون حشده من القوات.



عكا يوم حررها المسلمون في الحروب الصليبية (١٢٩١م/٦٩١هـ)

كانت قيادة عكا تتابع استعدادات السلطان الأشرف بقلق كبير، وأدركت حامية عكا وسكانها ما ينتظرهم من مصير قاتم، فدفعهم ذلك إلى إرسال استغاثات عاجلة إلى أوروبا، منذ فصل الشتاء، غير أنها لم تؤدِّ إلا إلى نتيجة تافهة. فقد وصل جماعة قليلة من الفرسان الذين جاؤوا متفرقين، ومن بينهم «أوتو غراندسن» السويسري في فئة من الإنكليز الذين أرسلهم ملك إنكلترا «إدوارد الأول»، وحشد الداوية والأسبتارية كل ما استطاعوا حشده من الرجال المقاتلين.

أما مقدم طائفة فرسان التيوتون «الألمان» واسمه «بورشارد شفاندن»، فقد اختار هذه اللحظة الحرجة ليستقيل من منصبه، كما أن خلفه في القيادة، وهو كنراد فويختغانجن، توجه إلى أوروبا بناء على دعوة وُجِّهت إليه ومعه جماعة من رفاقه، وكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المقاتلين المدافعين عن عكا.

أما ملك قبرص «هنري»، فقد أرسل قوة من المقاتلين، وعهد إلى أخيه «أملريك» بأن يتولى قيادة الدفاع عن عكا، ووعد بأنه سوف يقتفي أثرهم بالإمداد. وتقرر تجنيد كل قادر على حمل السلاح من سكان عكا، ليقوم بدوره في الدفاع. وكان عدد سكان عكا يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً، كما كان بعكا نحواً من ألف فارس «خيالة»، وحوالي أربعة عشر ألفاً من المشاة.

وكانت تحصينات المدينة قوية ومتينة، كما كان ملك قبرص «هنري» قد أصدر أوامره حديثاً بتعزيز هذه التحصينات وزيادة قوتها، فأضحى خط التحكيمات مؤلَّفاً من سورين مزدوجين يحميان شبه الجزيرة التي تقوم عليها المدينة وضاحيتها الشمالية، مونتموسارت، ولم يكن يفصل عكا عن مونتموسارت إلا سور واحد تقع القلعة عليه، قرب التقائه بالسورين المزدوجين.

وانتصب اثنا عشر برجاً على أبعاد متساوية على امتداد السورين الداخلي والخارجي، والمعروف أن كثيراً من هذه الأبراج جرى تشييدها على نفقة بعض أغنياء الحجاج؛ فالبرج الإنكليزي شيَّده إدوارد الأول، بينما أقامت كونتيسة بلوا البرج الذي يليه، وعلى الزاوية حيث تتوقف الأسوار عن المضي نحو الشمال، فتنحرف من خليج عكا، وتتجه صوب الغرب نحو البحر، قام على السور الخارجي برج كبير يقع مقابل البرج الملعون على السور الداخلي، وقد عمَّره منذ زمن قريب الملك «هنري الثاني»، وقبالة برج الملك هنري، شيَّد الملك «هيو» برجاً على مدخل الحصن، وهذه الزاوية بأكملها تعتبر أضعف جانب في

خطوط الدفاع، ولهذا تقرر أن يتولى الدفاع عنها عساكر ملك قبرص بقيادة أخيه «أملريك»، وعن يمينه اتخذ مواقعهم الفرسان الفرنسيون والإنكليز بقيادة يوحنا جرايللي وأوتو غراندسن، ثم تليهم قوات البنادقة والبيازنة فضلاً عن جند إمارة عكا. وعلى يسار أملريك أقام على كل أسوار مونتموسارت الأسبتارية، ثم يليهم الداوية، يتولى مقدم كل منهم قيادة طائفته، أما الفرسان التيوتون، فعززوا الكتيبة الملكية عند البرج الملعون.

بدأ حصار عكا يوم (٦) نيسان ـ إبريل سنة (١٢٩١م)، واتخذ جيش حماة مواقعه عند البحر (وكان برفقته المؤرخ أبو الفداء)، وكانت هذه المواقع في مواجهة برج الداوية. وانتشر جيش مصر من نهاية سور مونتموسارت حتى خليج عكا، أما مركز القيادة، حيث خيمة السلطان الأشرف، فلم يكن بعيداً عن شاطىء البحر في مواجهة برج المندوب البابوي.

وانطلقت منجنيقات المسلمين وعراداتهم لتقذف الأحجار الضخمة بكثافة متزايدة يوماً بعد يوم، بالإضافة إلى ما كانت تلقيه القدور الضخمة من المتفجرات على أسوار المدينة أو تلقيها من فوق الأسوار إلى داخل المدينة. وانصرف رماة السهام من المسلمين، فأمطروا بسهامهم المدافعين المتمركزين فوق أبهاء الأبراج وأفاريزها، فمنعوهم من ممارسة دورهم، وضمنوا الحماية لمهندسي قوات المسلمين الذين تحركوا لِنقبِ مواطن الضعف في التحصينات والأسوار، وتشير المصادر إلى أن السلطان الأشرف خليل خصَّص لكل برج ألف مهندس.

ولم يشعر أهل عكا، ولا الحامية المدافعة عنها، بالضيق من الحصار؛ إذ ضمنت السيطرة البحرية للصليبيين تأمين الإمداد المستمر من قبرص إلى عكا بصورة منتظمة؛ غير أن الصراع المستمر أبرز الحاجة للمزيد من الأسلحة، كما أبرز ضعف الحامية، حيث ظهر أنه من المحال تأمين الأعداد الكافية للدفاع عن الأسوار جميعها، ولكن ذلك لم يضعف من تصميم الصليبيين على متابعة الصراع، فجهَّزوا إحدى سفنهم بعرادة ألحقت ضرراً بليغاً بمعسكر المسلمين.

وفي ليلة (١٥) نيسان ـ إبريل، أفاد الفرنج من ضوء القمر، الذي كان بدراً، فقام الداوية بشن هجوم مباغت على معسكر جيش حماة، وأخذوا قوات المسلمين على حين غرة؛ غير أن عدداً كبيراً من الداوية تعثرت أقدامهم في حبال الخيام، فهووا إلى الأرض ووقعوا في الأسر، وارتد الآخرون على أعقابهم إلى داخل عكا بعد أن تكبَّدوا فادح الخسائر.

وحاول بعد ذلك بليالٍ فرسان الأسبتارية تجربة حظهم على أمل أن يحققوا من النجاح ما عجز الداوية عن تحقيقه، وانطلقوا بإغارة مباغتة مستفيدين من الظلمة القاتمة، ولكن قوات المسلمين كانت على استعداد لمجابهة مثل هذه المباغتة، على ما يظهر؛ إذ أسرعوا فأوقدوا المشاعل وأشعلوا النيران، وكان فشل الأسبتارية وما تكبدوه من الخسائر أكبر بكثير مما تعرض له فرسان الداوية.

وظهر للفرنج بعد فشل الإغارة الثانية أنهم تكبدوا في العمليتين خسائر ضخمة، زادت من ضعف قدرتهم البشرية، فتقرر الالتزام بالدفاع، وعدم القيام بمغامرة جديدة للقيام بأعمال تعرضية هجومية، ولكن التخلي عن المبادرة انعكس بصورة سلبية على الحالة النفسية لمقاتلي الفرنج الذين أخذت روحهم المعنوية في التدهور يوماً بعد يوم، وأخذ الشعور باليأس في الهيمنة على المقاتلين المدافعين عن عكا، وأصبح عامل الوقت في الصراع الطويل إلى جانب قوات المسلمين الذين استخدموا قدراتهم البشرية المتفوقة لاستنزاف قدرة خصومهم المادية والمعنوية، كل ذلك مع تطوير الصراع وتصعيده بصورة مستمرة، وأخذت السفن في إجلاء الشيوخ والأطفال والنساء عن عكا بصورة متزايدة.

٢ ـ تحرير عكا، ثم تدميرها

مضى زهاء شهر على بداية حصار عكا عندما وصلها ملك قبرص «هنري» في يوم (٤) أيار ـ مايو سنة (١٢٩١م)، ومعه كل ما استطاع حشده من القوات، وكل ما أمكنه زجه من الأجهزة ووسائط القتال، ولم تكن قوة الدعم هذه تتجاوز في عددها مائة فارس وألفي جندي من المشاة نقلتهم أربعون سفينة. وجرى استقبال الملك بكل مظاهر الولاء والتقدير والبهجة، ولم يكد يهبط إلى اليابسة حتى تولى بنفسه قيادة الدفاع، واستطاع رفع الروح المعنوية قليلاً، وأعطى الدفاع زخماً جديداً؛ غير أنه لم يلبث أن اقتنع بأن إمداداته كانت قليلة إلى درجة بات من المحال معها إجراء أي تغيير في النتيجة التي باتت متوقعة وقريبة.

وعلى هذا قرر الملك «هنري» بذل محاولة أخيرة لإعادة السلام، فأوفد فارسين من الداوية، هما «وليم كافران» و«وليم فيلييه» بمهمة مقابلة السلطان الأشرف والاستعلام عن سبب نقض الهدنة، مع قطع الوعود بإنصاف كل

شكوى. واستقبلهما السلطان الأشرف خارج خيمته، غير أنه قبل أن يسلماه الرسالة التي يحملانها، سألهما في إيجاز ما إذا كانا قد أحضرا معهما مفاتيح المدينة، فلما أنكرا، قال لهما: إن ذلك هو الموضع الذي يطلبه، ولا يهمه مصير سكان المدينة، غير أنه تقديراً منه لشجاعة الملك بقدومه للقتال، وهو لا زال حدثاً، فضلاً عن مرضه، فإنه سوف يبقي على حياتهم إذا ما استسلموا له.

ولم يكد الرسولان يجيبان بأنهما سوف يعتبران خائنين إن هما وعدا بالإذعان، حتى قذفت عرادة من الأسوار حجراً سقط قرب الجماعة، فاستشاط الأشرف غضباً، وسلَّ سيفه وهمَّ بقتل السفيرين؛ ولكن الأمير الشجاعي تدخل فمنعه من ذلك، وقال له: بأنه لا يصح أن يدنس سيفه بدماء الخنازير، ثم سمح للفارسين بالعودة إلى ملكهما.

وأثناء ذلك، كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلاً في نقب الأبراج. وفي (٨) أيار - مايو قرر رجال الملك «هنري» بأن البرج الذي أقامه الملك «هيو» لم يعد قادراً على الصمود، فأشعلوا النار به وتركوه ينهار. وفي خلال الأسبوع التالي، تمَّ تقويض البرج الإنكليزي، وبرج كونتية بلوا، وأخذت في الانهيار الأسوار القائمة عند باب القديس أنطوان، وعند برج القديس نقولا، أما البرج الجديد المعروف باسم برج هيو الثالث، فظل يقاوم حتى (١٥) أيار - مايو، حيث انهار شطر من سوره الخارجي.

وفي صبيحة اليوم التالي شق المسلمون طريقهم إلى داخل الخرائب، وأجبروا المدافعين على التقهقر إلى الخط الداخلي من الأسوار. ووقع في ذلك اليوم هجوم مركَّز على باب القديس أنطوان. ولم يمنع قوات الهجوم من دخول المدينة إلا صمود الداوية والأسبتارية.

وفي أثناء اليوم التالي، شدَّد المسلمون سيطرتهم على السور الخارجي، وأصدر السلطان الأشرف أوامره بشن هجوم عام في صبيحة يوم الجمعة (٨) أيار - مايو. وجرى الهجوم على امتداد الأسوار، بداية من باب القديس أنطوان وحتى برج البطريرك عند خليج عكا؛ غير أن الهجوم الرئيسي للمسلمين كان موجهاً إلى البرج الملعون الواقع في زاوية الحصن.

وقذف السلطان الأشرف بكل القوات المتوافرة في المعركة، ولم تتوقف المنجنيقات عن القذف، أما سهام الرماة، فكانت تسقط داخل المدينة وهي كالكتلة الصلبة لشدة كثافتها. واندفعت كتائب المجاهدين في سبيل الله،

الواحدة بعد الأخرى، لمهاجمة تحصينات المدينة، يقودها الأمراء الذين كانوا يلبسون العمائم البيضاء. وكان صخب القتال يثير الخوف والفزع؛ إذ صار المسلمون يكبِّرون ويهتفون بصيحات الحرب، وإلى جانب ذلك كانت أصداء أصوات الطبول والمزامير التي يحملها ثلاثمائة جمل، تزيد من حماسة المجاهدين وتلقي بالمزيد من الفزع والرعب في قلوب الفرنج الصليبيين.

ولم يمض وقت طويل حتى شقَّت قوات المسلمين طريقها إلى البرج الملعون، وأجبروا حاميته على التراجع نحو الغرب حيث باب القديس أنطوان، وأسرع الداوية والأسبتارية لمساعدتهم، فظلُّوا يقاتلون معاً، متجاهلين كل خصوماتهم وعداواتهم ومنافساتهم الحادة التي استمرت زهاء قرنين من الزمن.

واستمات «ماثيو كليرمونت» في محاولة للقيام بهجوم معاكس بهدف استرداد البرج، ومع أن مقدمي الطائفتين اقتفيا أثره وعملا على دعمه، إلا أن الهجوم باء بالفشل. كما أن المقاومة التي كان يقودها «يوحنا جرايللي» و«أوتو غراندسن» على امتداد السور الشرقي للمدينة لم تصمد لأكثر من ساعات قليلة، واستطاع المجاهدون في سبيل الله أن يجتازوا الأسوار المنهارة بعد سيطرتهم على البرج الملعون، ونجحوا في السيطرة على باب القديس نقولا، فأمكن لهم بذلك تحرير كل البرج في زاوية الحصن. واستقرَّ المسلمون بداخل المدينة حيث دار قتال عنيف في الشوارع والأزقة، وكان قتالاً يائساً من جانب الفرنج الصليبيين ومَن ساندهم مِن المسيحيين الوطنيين؛ إذ بات من الواضح أنه ما من فرصة لإيقاف تيار المسلمين.

وسقط في هذا الصراع مقدم الداوية «وليم بوجيه» أثناء قيامه بهجوم معاكس غير مثمر على البرج الملعون، فحمله الداوية إلى دارهم حيث قضى نحبه، وكان «ماثيو كليرمونت» بصحبته، غير أنه عاد إلى المعركة وظل يقاتل حتى لقي مصرعه. أما مقدم الأسبتارية «يوحنا فيلييه»، فأصابته الجراح، فحملوه إلى الميناء وأنزلوه، برغم اعتراضه، إلى سفينته.

وسبق أن أبحر الملك الشاب «هنري» وأخوه «أملريك» إلى قبرص، وتعرض الملك «هنري» فيما بعد للاتهام بالجبن، لتخلّيه عن المدينة، غير أنه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً، ومن واجبه لمملكته أن يتجنب الوقوع في الأسر. وفي القطاع الشرقي أصيب «يوحنا جرايللي» بجراح، على أن «أوتو غراندسن» تولّى القيادة، فحشد من سفن البنادقة كل ما استطاع أن يعثر عليه، ونقل إليها «يوحنا

جرايللي» وسائر من استطاع أن ينقذهم من العساكر، وكان هو آخر من لحق بهم.

وسادت الفوضى المريعة على أرصفة الميناء؛ إذ أن العساكر وسكان المدينة، ومنهم النساء والأطفال، تزاحموا على القوارب التي تسيِّرها المجاذيف يلتمسون الوصول إلى السفن الراسية في مواجهة الشاطىء. أما البطريرك الكهل «نقولا هنابا» الذي أصابه جرح طفيف، فنقله خدامه المخلصون إلى زورق صغير، غير أن حب الخير حمله على أن يسمح بأن يصعد إلى زورقه اللاجئون الذين بلغوا من كثرة العدد أنْ هوى الزورق بحمولته إلى جوف البحر، فغرق بجميع مَن فيه.

على أن جماعة من الرجال حملتهم بديهتهم الحاضرة على أن يختطفوا قارباً، وتقاضوا أجوراً باهظة من التجار والنساء الذين استبدَّ بهم اليأس على رصيف الميناء. فالمغامر الكاتلاني «روجر فلور» الذي استبسل في القتال أثناء الحصار باعتباره من الداوية قاد سفينة كبيرة للداوية، وحقق ثروة ضخمة بما ابتزَّه من أموال نبيلات عكا.

على أن السفن كانت من القلة ما أعجزها عن إنقاذ كل اللاجئين. ولم يلبث المجاهدون المسلمون أن شقوا طريقهم إلى داخل المدينة يقتلون كلَّ من يصادفهم. وهكذا لم يبق من أهل المدينة إلا عدد قليل، وما من أحد يستطيع تقدير الذين هلكوا.

ولم تحل ليلة (١٨) أيار ـ مايو سنة (١٢٩١م)، حتى أضحت مدينة عكا بكاملها تحت سيطرة قوات المسلمين، فيما عدا دار الداوية الضخمة البارزة في داخل البحر، في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وقد لجأ إليها كل من بقي على قيد الحياة من الداوية، فضلاً عن عدد من السكان من الجنسين، وظلت أسوارها الضخمة تقاوم المسلمين عدة أيام أخرى، وأسرعت لمساعدتها السفن بعد أن أنزلت اللاجئين في قبرص.

على أن السلطان الأشرف عرض بعد نحو أسبوع على مارشال الداوية «بطرس سيفري» أنه إذا سلم له الحصن، فإنه يسمح له بأن يُبحر إلى قبرص، مع كل الناس المقيمين بداخل الحصن، بكل أمتعتهم. وقَبِل بطرس الشروط، وجرى الإذن لأمير مملوكي في مائة من المماليك أن يدخلوا الحصن، ليشرفوا على التدابير، بينما ارتفع لواء السلطان فوق البرج؛ غير أنه انفلت زمام المماليك، واهتاج الداوية فانقضوا على المقاتلين المسلمين وذبحوهم، وأنزلوا

علم المسلمين، واستعدوا لمتابعة الصراع. وفي الليل، بعث «بطرس سيفري» أموال الداوية مع قائد الطائفة «تيبالد جودين» وفئة قليلة من غير المحاربين، في زورق أقلهم إلى قلعة صيدا.

وفي اليوم التالي عرض السلطان الأشرف، مثلما فعل من قبل، نفس الشروط المشرِّفة بعد أن شهد مناعة القلعة وشجاعة حاميتها النادرة. وتوجه بطرس في جماعة من رفاقه، بعد الحصول على أمان السلطان الأشرف، للمناقشة في تسليم الحصن؛ غير أنهم ما كادوا يصلون خيمة السلطان حتى تمَّ إلقاء القبض عليهم وتكبيلهم وإعدامهم انتقاماً لشهداء المسلمين الذين سقطوا نتيجة غدر الداوية. ولما شهد المدافعون فوق الأسوار ما حدث، أغلقوا باب الحصن، ومضوا في القتال، غير أنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا المهندسين المسلمين من الزحف إلى الأسوار وحفر نقب كبير بأسفلها.

وفي (٨) أيار ـ مايو أخذ جانب البناء الذي يطل على البر بالانهيار، ولم يتردد الأشرف في أن يقذف بألفين من المجاهدين في هذه الثغرة التي ازدادت اتساعاً، على أن الثقل كان من الشدة ما لم تحتمله أساسات الحصن التي أخذت في التداعي والسقوط. وبينما كانوا يشقُّون طريقهم إلى داخل الحصن؛ انهار كل البناء، فهلك المدافعون والمهاجمون معاً في خرائبه.

ولم تكد عكا تصير في قبضة السلطان الأشرف حتى شرع في تدميرها وفقاً لخطة موضوعة؛ إذ عزم على ألَّا تكون مرة أخرى رأس حربة لما يقوم به الفرنج الصليبيون من اعتداء على بلاد الشام، فتقرر استباحة دورها وأسواقها، ثم إشعال الحريق بها، وجرى تدمير التحصينات التي أقامتها الطوائف الدينية العسكرية لحماية دورها، كما تم تدمير الأبراج والقلاع المنيعة، وأمر بترك أسوار المدينة لما تتعرض له من التداعي والانهيار، ولم تبق إلا كنيسة أو كنيستان لم يكتمل تدميرها. وتمَّ انتزاع مدخل كنيسة القديس أندرياس ونقله إلى القاهرة من أجل إكمال بناء مسجد السلطان الأشرف.

٣ ـ تحرير بقية بلاد الشام

لم يبق هناك ما يعيق تحرير بقية بلاد الشام وطرد الفرنج الصليبيين منها، **فوجه السلطان الأشرف جيشاً لتحرير مدينة صور منذ يوم (١٩) أيار ـ مايو.** وكانت مدينة صور من أمنع المدن على سواحل بلاد الشام، وكان من الصعب

على المسلمين اقتحامها طالما لم تتوافر لهم القدرة البحرية، وقد ظهر ذلك عندما استعصت أسوارها على صلاح الدين مرتين، كما كان قد حدث قبل بضعة شهور أن الأميرة «مرغريت»، التي كانت أميرة لمدينة صور، تنازلت عنها إلى ابن أختها، أملريك، شقيق ملك قبرص، غير أن حاميتها كانت قليلة العدد، فلم تكد قوات المسلمين تقترب منها حتى فَقَدَ نائب أملريك في صور «آدم كافران» أعصابه، وأبحر إلى قبرص، بعد أن تخلى عن المدينة بدون قتال.

وعزم الداوية على أن يقاوموا في صيدا؛ إذ كان بها «تيبالا جودين» بما حمله من أموال الداوية، وقد اختاره مَن بقي مِن فرسانهم على قيد الحياة، مقدِّماً لهم خلفاً لـ «وليم بوجيه». وظلوا يعيشون في هدوء وسلام لمدة شهر، ثم قدم إليهم جيش المسلمين الكبير بقيادة الأمير الشجاعي، وكان فرسان الداوية من القِلَّة ما يمنعهم من المحافظة على المدينة «صيدا»، ولهذا لجأوا مع عدد كبير من أعلام المدينة إلى قلعة البحر، المشيَّدة على جزيرة صخرية تبعد مسافة مائة ياردة من الشاطىء، وقد تجددت عملية بناء تحصيناتها منذ زمن قريب. وبادر «ثيبالد» على الفور إلى الإقلاع والتوجه إلى قبرص لتجنيد المقاتلين وتقديم المساعدة للقلعة؛ غير أنه لم يفعل شيئاً عند وصوله إلى الجزيرة، إما لجبنٍ أصابه، وإما لما استحوذ عليه من اليأس.

واستبسل الداوية بالقلعة في القتال، غير أنه لما شرع المهندسون المسلمون في تشييد جسر في عرض البحر، فَقَدَ الداوية الأمل، وأبحروا إلى أنطرطوس وهم يسيرون إلى جانب الساحل.

ودخل الأمير الشجاعي القلعة يوم (١٤) تموز ـ يوليو، وأمر بتدميرها، ثم تابع تقدُّمه ليظهر أمام بيروت قبل مضيِّ أسبوع على تدمير قلعة صيدا، وكانت حاميتها تعتقد أنها بمأمن نتيجة الهدنة التي كانت قد عقدتها أميرتها «إيشيفا» مع السلطان قلاوون، ولكن الأمير الشجاعي أصدر أوامره إلى قادة الحامية بالمثول بين يديه، فبادروا بلهفة إلى الإذعان له، ووقعوا في الأسر؛ وإذ لم يَعُد للحامية قادة يقومون بإدارة الحرب، فلم يَعُد هناك مِن رجال الحامية مَن يفكر بالدفاع، وأسرعوا إلى سفنهم ولاذوا بالفرار بعد أن حملوا معهم المخلفات الدينية في الكاتدرائية. ودخل المسلمون بيروت يوم (٣١) تموز ـ يوليو، وتقرر هدم أسوارها، وتحطيم قلاعها وأسوارها وتحويل كاتدرائيتها إلى مسجد.

لم يلبث السلطان الأشرف بعدئذ أن احتل «حيفا»، في يوم (٣١) تموز ـ يوليو

بدون مقاومة تُذكر، **في حين انطلقت قوات المسلمين إلى جبل الكرمل لتطهيره من بقايا الفرنج الصليبيين**، فتمَّ إحراق الأديرة، ولم تبق سوى قلعتي طرطوس «أنطرطوس» وعثليت؛ غير أنه لم تكن الحامية بكل منهما من القوة بما يكفي لمواجهة حصار طويل الأمد. **فجلت حامية طرطوس يوم (٣) آب ـ أغسطس، وتأخرت حامية عثليت حتى يوم (١٤) آب ـ أغسطس**، ولم يعد بحوزة الداوية سوى الحصن الواقع **بجزيرة أرواد** الواقعة على بُعد مسافة ميلين من الساحل في مواجهة طرطوس، فظلوا محافظين على موقعهم اثنتي عشرة سنة أخرى، **ولم يغادروا الجزيرة إلا سنة (١٣٠٣م)**، بعد أن أصبح مستقبل الطائفة الداوية بكامله معرضاً للخطر في كل أنحاء أوروبا.

ثم تابعت جيوش المسلمين أعمالها بتوجيه السلطان الأشرف، وهي تجوب بلاد الشام من أقصاها إلى أقصاها لمدة شهور كاملة، وهي تعمل على تدمير كل ما تعتبره ذا أهمية بالنسبة للفرنج الصليبيين إذا ما حاولوا مرة أخرى النزول إلى البر. وتقرَّر اجتثاث الأشجار وتعطيل أدوات الري، وتطبيق ما يُعرف حديثاً باستراتيجية الأرض المحروقة، ولم يسلم من الدمار إلا تلك القلاع الواقعة في داخل البلاد.

وسادت الوحشة والدمار على امتداد الساحل، وهرب مَن بقي مِن أنصار الفرنج إلى الجبال، فأما من كان منهم ينتمي إلى أصول الفرنج، فبادروا إلى الامتزاج والاندماج بالسكان الوطنيين، ذلك أن التسامح الذي كان يلتزم به الإسلام والمسلمون طوال حياتهم قد انقضى عهده، ولم يبق هناك مجال للرحمة تجاه الكفار بعد أن فجرت الحروب الصليبية الطويلة كل مشاعر الغضب والمرارة.

ولم يكن المسيحيون الذين هربوا مع الفرنج إلى قبرص بأحسن حالاً؛ إذ ظلوا جيلاً من الزمن وهم يعانون الحياة التعسة على أنهم لاجئون ليس مرغوباً فيهم، وتضاءل العطف عليهم مع انقضاء السنوات بعضها في إثر بعض؛ إذ أضحوا يذكرون القبارصة بكارثتهم المروعة ـ هذا إذا كان القبارصة في حاجة لمن يذكرهم ـ وظلت عقائل الجزيرة مدة قرن، يرتدين عند خروجهن من دورهن العباءات السوداء التي تغطيهن من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وكان ذلك رمز الحداد على زوال الإمارات الصليبية.

وتحدث الرحالة الذين زاروا البلاد بعد سقوط عكا، بأنهم شاهدوا بعض

الداوية الذين اعتنقوا الإسلام وهم يعيشون حياة البؤس في القاهرة تكفيراً لهم عما ارتكبوه من الجرائم، وأشاروا إلى جماعة أخرى من الداوية تمارس العمل في قطع أشجار الغابات قرب البحر الميت لتكسب من ذلك عيشها.

وتقرر إطلاق سراح بعض الأسرى، فعادوا إلى أوروبا بعد أن ظلوا في الأسر تسع أو عشر سنوات. أما الأرقاء الذين كانوا فرساناً، فإنهم لقوا من المسلمين قدراً من الاحترام، فعاشوا وذريتهم حياة كريمة في ظل الرق. على أن عدداً كبيراً من النساء والأطفال الذين فقدوا رجالهم وجدوا لهم ملاذاً في بيوت أمراء المسلمين (المماليك)، وبلغت أعداد هؤلاء من الوفرة حتى أن ثمن الفتاة في سوق الرقيق بدمشق هبط إلى درهم واحد فقط.

ولما انتهى كل شيء وضاع، حدث ما هو متوقع في مثل هذه الأحوال؛ إذ التفت الفرنج الصليبيون إلى خصوماتهم واتهام بعضهم بعضاً بالتقصير والجبن والتقاعس والخيانة والفجور؛ غير أنه ما من سبيل لإنكار المقاومة الضارية التي أبداها المقاتلون من فرسان الداوية والأسبتارية، وكذلك البنادقة والبيازنة، الذين صنعوا عرادة ضخمة، فاقت في تأثيرها كل ما كان لدى الفرنج من أجهزة الحصار.

ويظهر أن الانتصارات الحاسمة التي أحرزها المسلمون لم تكن نتيجة ضعف الفرنج وتخاذلهم بقدر ما كانت نتيجة لتعاظم قدرة المسلمين، وحماسة المجاهدين في سبيل الله، وتصميمهم على اقتلاع آخر مواقع الفرنج الذين بقوا، وعلى امتداد مائتي سنة، جسماً غريباً في كيان العالم الإسلامي، ما أدّى في النهاية إلى لفظهم وطردهم وتحرير البلاد الإسلامية من وجودهم.

وانهار كل ما أقامه الفرنج، وما جهدوا لتصنيعه دفعة واحدة، وكأنه بناء فوق الرمال، أو بناء من الثلج لم تلبث أن صهرته حرارة الشمس.

٤ ـ نهاية السلطان الأشرف

تركت الحروب الصليبية جراحات عميقة في نفوس المسلمين، فما عانوه من قهر وتقتيل طوال مائتي عام أمر لا يمكن نسيانه، ولم يكن باستطاعة السلطان الأشرف تجاهل هذا الهاجس أو تجاوزه، وهو الذي قاد المجاهدين في سبيل الله لاقتلاع آخر الكيانات الصليبية، فمضى في بذل الجهود المضنية لإعداد البلاد من أجل مجابهة الاحتمالات الممكنة، وبقي الخطر الذي يتهدد ديار المسلمين

قائماً على جبهتين: جبهة الشرق حيث استمرت قوة المغول محافظة على قدرة قتالية عالية وعلى استعدادات عدوانية لا يستهان بها، أما على جبهة الغرب، فقد بقي التهديد قائماً طالما بقي هناك محرضون للحرب ومستثمرون لها.

وكانت قبرص في كل ذلك مركز الخطر الأساسي؛ إذ حافظت على الرغم من استئصال الداوية وهجرة الأسبتارية إلى رودس؛ الحكومة الصليبية الوحيدة التي اشتدَّ اهتمامها بمعاودة الاستيلاء على «الأرض المقدسة». والمعروف أن ملك قبرص يعتبر من الناحية الاسمية ملكاً لبيت المقدس حتى بعد تحريرها؛ إذ ظل ملوك الجزيرة، ولأجيال عديدة متتالية، يحرصون بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم على قبرص في نيقوسيا، على أن يبلغوا تاج بيت المقدس في (فاماجستا)، على اعتبارها أقرب مدينة لما يزعمونه من ملك ضائع في بلاد الشام. ويضاف إلى ذلك أن ساحل بلاد الشام كان بالغ الأهمية لجزيرة قبرص، من الناحية الاستراتيجية؛ إذ أن كل عدو ينزع إلى الاعتداء على هذا الساحل، لا بدَّ له من استخدام الجزيرة والإفادة من موقعها وقدراتها.

وقد عرف السلطان الأشرف ذلك، فدمَّر كل المواقع والمدن والتحصينات الساحلية ليحرم كل عدو من الإفادة منها، وكان يفضِّل أن تبقى منطقة الساحل مهجورة طالما بقي التهديد الصليبي قائماً.

ولم تتوقف جهود السلطان الأشرف عند هذا الحد، بل إنه أخذ في الإعداد لحملة بحرية ضخمة يهدد بها قبرص ذاتها، وزاد من قناعته هذه ما قام به ملك الجزيرة «هنري» الذي أرسل في سنة (١٢٩٢م) قوة مكوَّنة من خمس عشرة سفينة تساندها عشر سفن من لدى البابا، فأغارت هذه القوة على الإسكندرية، وارتكبت مذابح رهيبة، ولكن مقاومة المسلمين الضارية أرغمت الحملة على الانسحاب مكتفية بما حققته من دمار، وما حصلت عليه من غنائم.

وأدَّت هذه المحاولة الفاشلة إلى زيادة تصميم السلطان الأشرف خليل على فتح الجزيرة والاستيلاء عليها، فأمر بعمارة مائة سفينة، وكان يتابع الاستعداد وهو يهتف (قبرص، قبرص، قبرص)، كما كانت لديه مشاريع أُخرى ومخططات أكبر تزيد في أهميتها على ما كانت تحتله قبرص من أهمية في تفكيره وعمله؛ إذ كان لا بدَّ له قبل كل شيء من سحق المغول، وتحرير حاضرة الإسلام القديمة (بغداد) من طغيانهم.

وفيما كان السلطان الأشرف يمضي قدماً في استعداداته الطموحة، أخذت

المخاوف تتعاظم من حوله بسبب تعاظم قوته، وقام أمراؤه بتنظيم مؤامره انتهت بقتله يوم (٣١) كانون الأول ـ ديسمبر سنة (١٢٩٣م)، وجاء اغتياله ضربة قاصمة للمسلمين، كما جاء بمثابة مكافأة حقيرة لهذا الشاب قوي العزيمة، والذي أتمَّ رسالة صلاح الدين والمظفر قطز والظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، فطرد آخر من تبقَّى من الفرنج من بلاد الشام.

الفَصْلُ الرَّابع

محاولات صليبية جديدة

١ ـ صدمة الغرب
٢ ـ المغول، وحملاتهم اللاحقة
٣ ـ حملات صليبية جديدة
٤ ـ مصير الطوائف الدينية الصليبية



محاولات صليبية جديدة

١ ـ صدمة الغرب

أفاق الغرب فجأة من ذهول الصدمة ليجد أن جهوده الضخمة على امتداد مائتي سنة قد انهارت فجأة، فقد زالت من فوق الصفحة الجغرافية لبلاد الشام كل تلك البصمات الدخيلة، واستعادت بلاد المسلمين سيادتها على أرضها، وتبدَّد كابوس الرعب والتمزُّق الذي عاشته بلاد المشرق الإسلامي طوال أجيال متتالية.

وصحيح أن صلاح الدين الأيوبي قد دمَّر مملكة بيت المقدس الصليبية، وأحدث تحولات جذرية في مسيرة الحرب طويلة الأمد، إلا أن ملوك الغرب وأمراءه احتفظوا بالأمل في استقرار ما بقي لهم من مدن وحصون وقلاع منتشرة في كل مكان من بلاد الشام. وكان الملوك والأمراء يأملون في توافر ظروف مناسبة تسمح لهم بمعاودة الانطلاق من هذه القواعد للتوسع من جديد، فجاء اقتلاع هذه القواعد ليشكل صدمة روَّعت الغرب وأذهلته.

وكان من الطبيعي أن تتحرك البابوية بأسرع من تحرك غيرها من مستثمري الحروب الصليبية، غير أن هذه البابوية كانت قد فقدت منذ زمن طويل قوتها وسحرها بنتيجة الصراع مع ملوك الغرب وأمرائه، وقد حاول البابا «نقولا الرابع» بذل أقصى جهوده في محاولة لإيقاف تيار التاريخ، غير أنه مات في سنة (١٢٩٠م) بدون أن يحقق شيئاً يُذكر، وجاء أخلافه فعكفوا على دراسة الموقف، سياسياً وعسكرياً، وإبراز نقاط الضعف التي ظهرت أثناء الحروب الصليبية، في محاولة لبعث روح صليبية جديدة تضع في اعتبارها الدروس المستخلصة من مجموعة التجارب الطويلة في الصراع مع المسلمين، مع وضع المخططات لعمليات المستقبل.

وهكذا أعقب تحرير عكا وسائر بلاد الشام ثورة فكرية في الغرب، إذا صح

التعبير، هدفها تجديد الروح الصليبية بإطار مبرمج وعلمي، وظهرت كتب كثيرة ومتنوعة تضمنت اقتراحات مثيرة فيما يجب عمله لعودة الحملات الصليبية إلى بلاد الشام.

وليس المجال هو مجال عرض البحوث والدراسات التي أعدَّتها الكنيسة، أو طلبت إعدادها، من أجل قتال المسلمين، إلا أن المثير في الأمر هو أن هذه الدراسات على الرغم من اتفاقها بشأن ضرورة إعداد حملات صليبية جديدة، إلا أنها كانت مختلفة في شروط العمل، وفي الأهداف الواجب تحقيقها، والأمر الأكثر أهمية، هو أن هذه الدراسات كانت تعبيراً عن بقاء الروح الصليبية، وبقاء الفكر الصليبي على الرغم من كل الجرائم التي ارتُكبت باسم الصليب، وعلى الرغم أيضاً من الفشل الذريع والهزائم المنكرة التي لم تلبث أن انعكست بعد حين، على الكنيسة ذاتها على شكل حركات إصلاحية.

ويبقى الأمر الأكثر أهمية هو عدم استجابة أحد من ملوك أوروبا في تلك الفترة لنداء الكنيسة، إلا أن الإصرار العنيد على ضرورة استئناف الحرب ضد المسلمين، وجد له استجابة بعد فترات طويلة، فقامت حملات صليبية جديدة لم يكن لها أي نصيب من النجاح إلا فيما أثارته من غضب، وفيما نكأته من جراح لم تكد تندمل بعد، وتمثل ذلك بحملة تدمير الإسكندرية (سنة ١٢٦٥م).

وإلى جانب ذلك فقد حدث تحوُّل في أهداف الحملات؛ إذ لم يعد المشرق الإسلامي هو هدف هذه الحملات، وإنما أصبح الهدف موجهاً نحو أوروبا ذاتها. فقد أدَّت القوة المتعاظمة للترك إلى اجتياح أوروبا والوصول إلى فيينا، فتمَّ توجيه الصراع نحو البحر الأبيض المتوسط ونحو أوروبا، مع التركيز في الوقت ذاته على تطوير الحرب الصليبية على جبهة الأندلس، إلى أن تمَّ إخراج المسلمين نهائياً (سنة ١٤٩٢م) مع ما تبع ذلك من قيام محاكم التفتيش للقضاء على جذوة الإسلام في الأندلس.

وخلال ذلك كله حاول المغول متابعة دورهم في محاربة المسلمين وغزو بلادهم في الشام، ولكن هذه الحملات لم تسفر عن نتائج إيجابية، وأدَّى ذلك بدوره إلى حدوث تفاعلات انتهت باعتناق المغول للإسلام واندماجهم في المجتمع الإسلامي، ولم تكن هذه النتائج بمجموعها إلا محصلة لما كان عليه الإسلام من قوة في نفوس معتنقيه، وقد يكون من المناسب استقراء بعض ملامح الصراع واستطالاته، خلال الفترة التي أعقبت تحرير بلاد الشام.

٢ ـ المغول، وحملاتهم اللاحقة

لقد صحّ شعور السلطان الأشرف، وظهر صدق تقديره للأمور عندما وجّه كل جهده لمجابهة خطر المغول، ولو أن يد الغدر انتزعت حياته قبل أن يكمل تحقيق أهدافه، فيحرر بغداد من قبضة المغول؛ إذ حدث في سنة (١٢٩٥م) أن توفي الإيلخان «أرغون» بعد أن داخله اليأس من الحصول على دعم الغرب قبل تحرير عكا، وتولى أمور المغول بعد ذلك وريثه «الإيلخان غازان» الذي اعتنق الإسلام واعتبره الديانة الرسمية للإيلخانية، وتحرر بذلك من ولائه للخان الكبير في الشرق، إلا أن غازان هذا كان صديقاً للفرنج ـ الصليبيين ـ بحكم نشأته وتربيته التي أشرفت عليها «ديسبينا خاتون» زوجة الإيلخان أباقا، والتي كانت موضع تقدير الفرنج والمسيحيين واحترامهم، نظراً لما قدَّمته لهم من الخدمات الجلى في إثارة الحقد ضد المسلمين، وشن الحروب ضدهم وتوفير الحماية للمسيحيين كلما كان بوسعها ذلك، وإلى جانب ما سبق ذكره، فإن اعتناق غازان للإسلام لم ينقص من حقده ضد الترك والمماليك.

وهكذا أخذ الإيلخان غازان في الإعداد للحرب، ثم لم يلبث أن أغار على سوريا في سنة (١٢٩٩م)، وكانت البلاد تحت حكم السلطان الناصر قلاوون، والذي لم يكن حكمه متصلاً، بل تعرض كثيراً للانقطاع. واستطاع غازان الذي استبدل لقب إيلخان بلقب السلطان، أن يلحق الهزيمة بقوة تابعة للمماليك قرب سلمية، المجاورة لمدينة حمص، في (٢٣) كانون الأول ـ ديسمبر، ولم تلبث دمشق أن خضعت للمغول في كانون الثاني ـ يناير سنة (١٣٠٠م)، واعترفت بسيادته، إلا أنه لم يلبث أن عاد إلى فارس بعد أن أعلن أنه سيعود من أجل فتح مصر.

ومع أن غازان اعتنق الإسلام، فإن ذلك لم يمنعه من الترحيب بحلفاء من الفرنج الصليبيين، فبادر «ريمون لل»[1] بالتوجه إلى بلاد الشام، حينما سمع بنبأ

---

(١) **ريمون لل**: مبشر إسباني (١٢٣٢ ـ ١٣١٥م)، من مواليد جزيرة ميورقة (جزر الباليئار)، اشتهر بأنه من الزهاد، وكان من رجال السياسة العمليين، معرفته باللغة العربية كانت معرفة واسعة وعميقة، طاف بكثير من الأقاليم الإسلامية. وقدَّم إلى البابا في سنة (١٢٩٥م) مذكرة عن الإجراء المطلوب لقتال المسلمين. ثم أصدر في سنة (١٣٠٥م) كتابه المشهور باسم (Liber De Fine) والذي حوى بالتفصيل أفكاره، ومنها تعليماته إلى المبشرين، الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم، أن يبذلوا كل جهد للظفر بالمسلمين، وأوصى بإعداد حملة مسلحة يتولى قيادتها ملك =

غزو غازان لها؛ غير أنه وصل متأخراً فلم يُقدَّر له أن يجتمع بغازان، ثم عاد إلى قبرص، وطلب إلى ملكها أن يساعده للتوجه ببعثة تبشيرية إلى الأمراء المسلمين من المغول، ولكن الملك «هنري» أغفل طلبه؛ إذ أنه لم يوافق على فكرة أن خير وسيلة لكسب صداقة الكفار، هي أن يكشف لهم عن أخطائهم.

وعلى كل حال، فقد تعرض الجيش المغولي لهزيمة ساحقة في مرج الصفر (سنة ١٣٠٣م)، إلا أن غازان عاد من جديد، فقام بغزو بلاد الشام في سنة (١٣٠٨م)، وتوغل فيها حتى وصل مدينة القدس ذاتها. وتردَّدت الشائعات بأنه سوف يسلم المدينة المقدسة عن طيب خاطر إلى المسيحيين، لو أن دولة مسيحية عرضت التحالف معه.

وعلى الرغم من أن البابا وفيليب ملك فرنسا كانا يجهران وقتذاك بالإعلان عن حملتهما الصليبية المرتقبة، إلا أنه لم تُبذل أية محاولة للتفاوض مع المغول، بينما أضحت قبرص بالغة الضعف بسبب المنازعات بين الملك «هنري» وأخيه. وكيفما كان الأمر، فقد كان من الصعب على السلطان غازان الوفاء بوعده للصليبيين بعد أن تحول إلى الإسلام، ثم لم يلبث غازان أن توفي سنة (١٣١٦م)، فتضاءلت بذلك فرصة تحالف الفرنج الصليبيين مع المغول، لا سيما وأن ابن أخيه «أبو سعيد» والذي خلفه على السلطنة، اتجه بسياسته نحو التفاهم مع المسلمين المماليك، ويعتبر أبو سعيد هذا، هو آخر السلاطين المغول الكبار في فارس؛ إذ أخذت الإيلخانية السابقة في التفكك بعد وفاته سنة (١٣٣٥م).

عاد خطر المغول من جديد ليتهدد العالم الإسلامي عندما ظهر تيمورلنك أو «تيمور الأعرج»[1]، وانصرف في الفترة من سنة (١٣٨١م) إلى سنة (١٣٨٦م)

= محارب (Rex-Bellator) على أن تتوحد الطوائف الدينية الحربية تحت قيادته في طائفة واحدة. كما أوصى بإعداد حملة صليبية ضخمة لطرد المسلمين من أسبانيا، وأخيراً قَبَض عليه المسلمون، وتقرر إعدامه رجماً بالحجارة في بوجيه بشمال أفريقيا.

(١) **تيمورلنك ـ أو تيمور الأعرج** ـ (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥م): قائد وزعيم مغولي، ينحدر من أسرة تركية، مغولية كانت تقيم بإقليم الصغد (قرب سمرقند). بدأ حياته أميراً صغيراً على قبيلة من قومه، وأصبح في سنة (١٣٦٩م) سيداً على جميع البلاد التي كان يحكمها فرع جغتاي من المغول، ومنذئذ أخذ يمد ممتلكاته بما شنَّه من حروب لا تعرف الرحمة أو الشفقة. والتزم أول الأمر التؤدة والبطء، ثم قوي عزمه واشتدَّت حركته، فأغار على بلاد الشام، وحارب بضراوة مغول القبيلة الذهبية المسلمين، وطاردهم حتى موسكو، ثم التفت لحرب الأتراك العثمانيين، فهزم =

لتدمير إمارة المغول في فارس، والتي سبق لها أن تحولت إلى الإسلام، ثم استولى تيمور في سنة (١٣٨٦م) على تبريز وتفليس، وفي سنة (١٣٩٢م) استولى على بغداد، ثم توجه في السنوات التالية للقيام بحملات لقتال مغول القبيلة الذهبية في روسيا، ومضى في توغله حتى بلغ موسكو، ثم ظهر في شرق الأناضول سنة (١٣٩٥م)، فدانت له أرزنجان وسيواس. ولم يلبث أن فتح الهند بحملة ضخمة استولى فيها على شمال البلاد، وزاد من أثر هذه الحملة ما قام به تيمور من مذابح رهيبة. ثم تحول من جديد في سنة (١٤٠٠م) صوب الغرب، فانساب في بلاد الشام، وأنزل الهزيمة بجيش المماليك في حلب أولاً ثم في دمشق، واحتلَّ كل المدن الكبيرة في بلاد الشام واستباحها. وفي سنة (١٤٠١م) أنزل العقوبة ببغداد التي ثارت على المغول، فأمر بتدمير المدينة تدميراً كاملاً، وعادت مدينة بغداد لتلقى من الدمار ما كانت قد لقيته قبل قرن ونصف القرن على أيدي هولاكو.

وعاد تيمور إلى الأناضول سنة (١٤٠٢م)، وقد صمَّم على قهر السلطان العثماني بايزيد، الذي لم يبق سواه من الأمراء المسلمين الذين لم تصل إليهم شرور «تيمور الأعرج». ودارت المعركة الحاسمة في أنقرة يوم (٢٠) تموز ـ يوليو سنة (١٤٠٢م). وحلَّت الهزيمة الساحقة بالسلطان بايزيد، الذي وقع أسيراً ومات في أسره بعد بضعة شهور.

وفي تلك الأثناء توالى سقوط المدن العثمانية بالأناضول في أيدي «تيمور»، وظهر لفترة أن الإسلام يقترب من نهايته على أيدي المغول، غير أن الأتراك كانوا من التماسك في الأناضول بحيث استعصى على «تيمور» القضاء عليهم. ولم يكن لتيمور تلك العبقرية التي انفرد بها سلفه جنكيز خان، وأخذت امبراطوريته في التمزُّق بمجرد وفاته سنة (١٤٠٥م). وأسرع المماليك باسترداد الشام وتحريرها من قبضة المغول، كما ظهرت في أذربيجان أسرة الشاة السوداء، وأقامت ملكاً امتد من شرقي الأناضول حتى بغداد.

وظهرت فورات دينية في فارس تمخضت عن ظهور الأسرة الصفوية. أما في الأناضول، فلم يكن من نتيجة غزو «تيمور» سوى إدخال سيل جديد من الأتراك

= السلطان بايزيد قرب أنقرة، وأسره إلى أن توفي سنة (١٤٠٢م)، وكانت غزوات تيمورلنك هذه من أكبر الكوارث التي جابهت العالم الإسلامي.

الذين زادوا من قدرة الدولة العثمانية، ذلك أنه حين مات تيمور، تسلَّم أبناء بايزيد مملكة أبيهم، وحدثت مرحلة من الصراع الداخلي التي انتهت في سنة (١٤١٣م) بسيطرة السلطان محمد الأول على الحكم، حيث بدأت مرحلة جديدة تمت خلالها إعادة تنظيم الدولة، وعندما توفي السلطان محمد سنة (١٤٢١م) ترك دولة قوية داخلياً، ولديها كل الإمكانات لمجابهة الأخطار الخارجية، فانطلق السلطان مراد الثاني لحرب المجر وإخضاعها طوال فترة حكمه (١٤٢١ ـ ١٤٥١م)، حتى إذا ما جاء بعد ذلك السلطان محمد الثاني؛ ركَّز جهده للقضاء على الامبراطورية البيزنطية، وتمَّ له فتحها يوم (٢٩) أيار ـ مايو سنة (١٤٥٣م)، والاستيلاء على عاصمتها «القسطنطينية»، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من تاريخ المسلمين، حيث أخذت الدولة العثمانية على عاتقها قيادة الجهاد في سبيل الله، وتحوَّل الصراع بعد ذلك إلى جبهة الغرب، إلى أن تمَّ التحول جدياً إلى المشرق الإسلامي بزوال الامبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

٣ ـ حملات صليبية جديدة

ظهر أول رد فعل على تحرير المسلمين لبلاد الشام (عكا) في البلاط البابوي، كما ظهر أيضاً بالقوة ذاتها في البلاط الفرنسي. وكان «فيليب الرابع»[1] قد أعرب من قَبْل عن رغبته في إعداد حملة صليبية جديدة، ثم جاء تحرير عكا، فتم في البلاط البابوي وفي باريس إعداد المخططات وإجراء الدراسات لتسيير الحملة. وكان فيليب يتحرك بتأثير حافز قوي هو التسلح بذريعة الحرب الصليبية لينتزع من الكنيسة بعض ما تراكم فيها من ثروات ضخمة.

---

(١) **فيليب الرابع** (Philippe IV - Le.Bel): ابن فيليب الثالث وإيزابيلا (Isabelle) ملكة أرغون. وُلد في فونتينبلو (١٢٦٨ ـ ١٣١٤م) أصبح ملكاً لفرنسا سنة (١٢٨٥م)، وتميَّزت فترة ملكه بالاضطراب، فقد بدأ حكمه في البداية على شامبانيا ونافار (إرث زوجته جان الأولى ملكة نافار)، وبذل كل جهده في تنظيم البرلمان. وحدث صدام بين البحارة الإنكليز والنورمانديين مما أدى إلى اندلاع الحرب بين فيليب الرابع وإدوارد الأول ملك إنكلترا. واعتمد إدوارد على إقليم الفلاندر في حين اعتمد فيليب على دعم الأيقوسيين، ولكن البابا تدخل لإيقاف الصراع. ثم قام فيليب بإيقاف الأسقف باميير (Pamiers)، ولكن البابا تدخل من أجل إجراء محاكمة الأسقف أمام محكمة خاصة، وأرسل مذكرة إلى الملك فيليب بذلك. وتدهورت العلاقات بين الكنيسة وملك فرنسا إلى أن مات البابا بونيفاس الرابع، وحل محله البابا كليمنت الخامس (Clément-V) في سنة (١٣٠٥م)، حيث أفاد الملك فيليب من مجموعة الظروف لإضعاف سلطة الكنيسة وزيادة قوة الأجهزة القضائية والإدارية في فرنسا.

وحدث صدام مع بونيفاس الثامن «البابا» خرج منه الملك «فيليب» منتصراً، وشعر الملك بالارتياح عندما مات البابا بونيفاس؛ إذ خلفه على عرش البابوية «كليمنت الخامس» في سنة (١٣٠٥م)، وكان «كليمنت» هذا فرنسياً استقرَّ في أفينيون، على طرف ممتلكات ملك فرنسا، وأظهر الانصياع الدائم للملك، وبادر بجمع المذكرات عن الحرب الصليبية بهدف مساعدة الملك الفرنسي.

وكان من أهم المذكرات التي تمَّ تقديمها للملك «فيليب»، تلك المذكرة التي كتبها رجل القانون الفرنسي «بطرس ديبوا»، والتي تمَّ انتقاء مقتطفات منها لتوجيهها إلى أمراء أوروبا ومطالبتهم بالاشتراك في الحركة بقيادة ملك فرنسا. وتضمنت كذلك توصيات خاصة تتعلق بالطريق الذي ينبغي اتباعه والوسائل اللازمة لتحويل الحملة، ويتطلب ذلك سحق الداوية وانتزاع أملاكهم، مع فرض ضريبة التركات على رجال الدين، وتحويل الأديرة إلى مدارس للبنات.

وتضمنت المذكرات نصيحةً لملك فرنسا بالسيطرة على الكنيسة، وذلك عن طريق تعيين الكرادلة ممن يؤيدونه، ويحثه أيضاً على إقامة امبراطورية شرقية يتولاها أحد أبنائه. ولم يلبث كبير المستشارين الدبلوماسيين عند فيليب «وليم نوجاديت» أن أرسل سنة (١٣١٠م) مذكرة إلى البابا تتضمن خطة الحملة الصليبية. وشملت المذكرة مقترحات استراتيجية كانت ضئيلة، إلا أن هذه المقترحات تركَّزت على التمويل، وبموجبها كان على الكنيسة تقديم كل الأموال اللازمة. وكان تدمير الداوية ومصادرة أموالهم هو العمل الأول الذي يجب تنفيذه.

المهم في الأمر هو أن فيليب الرابع أمضى بقية حياته وهو يتخذ الإجراءات لإرسال حملة صليبية لم يتم إرسالها، والمهم أيضاً هو أن جهود البابا لم تسفر عن نتيجة إيجابية، وعندما تمَّ عقد مجمع فيينا سنة (١٣١١م) نوقشت فيه خطة الحملة الصليبية المقبلة والمقترحات المختلفة لضمان ظروف النجاح، إلا أن شيئاً ما لم يتحقق، فما من أحد أصبح ينظر إلى الحرب الصليبية بصورة جادة، وما من أحد لديه الاستعداد لتحمل أعبائها، بعد أن أصبحت مشاريعها خاسرة وكبيرة التكاليف. وكان لا بدَّ من انتظار فترة أُخرى حتى تتوافر مجموعة من الحوافز الإضافية التي تجعل إرسال حملة صليبية جديدة أمراً ممكناً.

وهكذا انصرفت الكنيسة لإصلاح أمورها، في حين عاد ملوك أوروبا وأمراؤها لخلافاتهم ومنازعاتهم. أما فرسان الطوائف الدينية المختلفة، فكانت

لديهم همومهم المختلفة التي صرفتهم عن أمور الدين، ولم تكن المحاكمات التي تعرضوا لها في مختلف أنحاء أوروبا، بتحريض من ملك فرنسا، هي أقل تلك الهموم.

جاء بعد ذلك «فيليب السادس»[١] وتولى حكم فرنسا، وكان أكثر صدقاً وإخلاصاً في حديثه عن الحرب الصليبية من عمِّه، ولقيت دعوته للحرب كل تشجيع من البابا يوحنا الثاني والعشرين، وعادت الأبحاث والدراسات لتفرِّق البلاطين البابوي والفرنسي. غير أن شيئاً لم يحدث؛ إذ لم يلبث الملك فيليب أن وجَّه الحرب ضد خصمه إدوار الثالث، وهي الحرب التي عُرفت باسم حرب المائة عام، والتي أغرقت فرنسا وإنكلترا بالمتاعب حتى لم يبق هناك مجال للحديث عن حرب صليبية في خارج أوروبا. واستمر الوضع على ذلك إلى أن تولى بطرس الأول عرش قبرص (في سنة ١٣٥٩م)، فبعث فكرة الحرب الصليبية ضد المسلمين من مهدها.

كان بطرس الأول هو أول ملك، منذ زمن القديس لويس ملك فرنسا، يتحرك بتأثير الرغبة المسيطرة عليه لإشعال نار الحرب المقدسة، وكانت حماسته لمثل هذه الحرب متوقدة باستمرار، فعمل منذ شبابه المبكر على تنظيم طائفة جديدة من الفرسان المتدينين، أطلق عليهم اسم «فرسان السيف»، وحدد لطائفته هدفها، وهو انتزاع بيت المقدس من المسلمين. وقد أثارت تصرفاته هذه سخط أبيه «الملك هيو الرابع»، إلا أن بطرس تمرَّد على رغبة أبيه، وحاول الرحيل إلى الغرب ليجمع المتطوعين من أجل حملته الصليبية.

وعندما أصبح ملكاً كان أول عمل له هو التصدي للأتراك المسلمين في الأناضول وشن الحرب ضدهم، وخرج من هذه الحرب وقد استولى على حصن

---

(١) **فيليب السادس** (Philippe VI-De Valois): ابن شارل دوفالوا ومارغريت دوسيسيل (صقلية)، وابن أخ فيليب الجميل (الرابع) (١٢٩٣ ـ ١٣٥٠م). أصبح ملكاً لفرنسا سنة (١٣٢٨م) بعد أن تمَّ إبعاد إدوارد الثالث ملك إنكلترا، والذي كان يطالب بالتاج على اعتباره يتحدَّر من سلالة فيليب الرابع (الجميل) عن طريق أمه. وقد عُرف عن فيليب السادس شجاعته، إلا أنه كانت تنقصه المشاعر والأحاسيس العملية، وقد تدخل منذ بداية ملكه في الفلاندر لمصلحة لويس دوبثيل (Louis De. Bethel)، وانتصر على الغلامين في كاسل سنة (١٣٢٨م)، مما أدَّى إلى انفجار حرب المائة عام. وحقق فيليب السادس انتصارات متتالية، على الملك إدوارد، ثم تدخل البابا لعقد صلح بين الملكين بهدف الإعداد لحملة صليبية مشتركة، غير أن ذلك لم يتحقق بسبب ظهور مؤامرات في البلاط صرفت الملكين إلى تركيز جهودهما للداخل.

«كوريكوس» من الأرمن. ثم شرع في رحلة عبر العالم المسيحي في سنة (١٣٦٢م)، بهدف دعم أهدافه الأساسية، فقام بزيارة جزيرة رودس، وحصل على وعد من فرسان الأسبتارية بالدعم والمساعدة. ثم أبحر إلى البندقية حيث أقام فيها حتى بداية السنة الجديدة (سنة ١٣٦٣م). وأظهر البنادقة، من الناحية الرسمية، عواطفهم تجاه مخططاته وأهدافه. ثم توجه إلى جنوة بعد زيارة ميلان، وانصرف في جنوة لتسوية ما وقع من اختلافات بين مملكته «قبرص» وجمهورية «جنوة»، على أنه لم يظفر بالرغم من كل جهوده إلا بتأييد غامض من الجنويين.

ووصل ملك قبرص إلى أفينيون في (٢٩) آذار ـ مارس سنة (١٣٦٣م)، وكانت قد مضت بضعة شهور على ولاية إيربان الخامس للبابوية، فكان أول الأعمال التي قام بها هي دفاعه عن حقه في اعتلاء العرش إزاء هيو أمير الجليل، ابن أخيه الأكبر الراحل، وتقرر تعويض هيو براتب سنوي قدره خمسون ألف بيزنته. وبينما كان في أفينيون، قدم لزيارة المدينة يوحنا الثاني ملك فرنسا، فوعد بالتعاون الحار معه. وقرر الملكان في نيسان ـ إبريل الاشتراك في حملة صليبية مع عدد كبير من نبلاء فرنسا وقبرص.

وفي الوقت ذاته، دعا البابا إلى الحرب المقدسة، وعيَّن الكاردينال «تاليران» مندوباً عنه، ثم طاف ملك قبرص «بطرس» بالفلاندر وبرابانت وبلاد الراين، وتوجَّه بعد ذلك إلى باريس في شهر آب ـ أغسطس ليلتقي بالملك يوحنا مرة أُخرى، فقررا بأنه لا بدَّ للحملة الصليبية من أن تتوجه في شهر آذار ـ مارس القادم.

ثم سار «بطرس» من باريس إلى روان وكاين، وأبحر إلى إنكلترا حيث أمضى شهراً في لندن، عُقد خلاله سباق كبير ومباراة في الفروسية (في سميثفيلد) تكريماً له، وأهداه الملك إدوارد سفينة رائعة، اسمها «كاترين»، وأعطاه أموالاً لتغطية نفقاته التي صرفها حديثاً، ولكن قطاع الطرق سلبوه أمواله وهو في طريق عودته إلى الساحل. ورجع إلى باريس، فأمضى فيها عيد الميلاد، ثم توجه جنوباً إلى أكيتانيا ليلتقي في بوردو بـ«**الأمير الأسود**».

وعلم الملك بطرس وهو في بوردو بوفاة الكاردينال «تاليران»، في كانون الثاني ـ يناير (١٣٦٤م)، وأعقب ذلك وفاة الملك يوحنا (في أيار ـ مايو)، فتوجَّه إلى سان دينيه للاشتراك في تشييع جنازة الملك يوحنا، والانتقال بعد

ذلك إلى «ريمس» لمشاهدة تتويج خلفه «شارل الخامس». ومضى بعد ذلك إلى ألمانيا، حيث عرض عليه فرسان مدينتي أيسلنجن وإيرفورت وسكانهما الاشتراك في الحملة الصليبية المرتقبة، غير أن حاكم ناحية فرانكونيا ودوق ساكسونيا «رودولف الثاني» أعلماه أن قرارهما لدعمه يتوقف على موافقة الامبراطور، وعند ذلك توجه، في صحبة رودولف، إلى براغ (براهة) حيث كان يقيم الامبراطور «شارل». وأظهر «شارل» هذا حماسته للمشروع، ودعا بطرس «لمرافقته» إلى «كراكاو» لحضور مؤتمر كان على وشك أن يعقده مع ملك بلاد المجر وبولندا. وتقرر في نهاية المؤتمر توجيه منشور إلى جميع أمراء الامبراطورية يدعوهم إلى الاشتراك في الحرب المقدسة.

وعاد «بطرس» إلى البندقية في تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٣٦٤م)، بعد أن قام بزيارة فيينا، حيث وعده رودولف الرابع، دوق النمسا، بدعم إضافي. ولقي «بطرس» في البندقية استقبالاً حماسياً نظراً لما قامت به قواته منذ عهد قريب في مساعدة البندقية على قمع فتنة اندلعت في جزيرة كريت. وأقام «بطرس» بالبندقية إلى نهاية شهر حزيران ـ يونيو سنة (١٣٦٥م)، وعقد أثناء إقامته بها معاهدة مع جنوة لتسوية جميع الاختلافات القائمة.

وفي تلك الأثناء، كان البابا إيربان يتابع بدون كلل أو ملل إرسال الرسائل إلى أمراء أوروبا يحثهم على الاشتراك في الحملة. ولقيت جهوده مساندة قوية من المندوب البابوي الجديد في الشرق، بطرس سالينياك دي توما، البطريرك الأسمى للقسطنطينية، والذي عُرف عنه أنه رجل قوي الشخصية، شديد المعارضة للمنشقين والملحدين والمسلمين، على أن ما اتصف به من الحماسة والإخلاص، جعله موضع الاحترام حتى من أولئك الذين اضطهدهم، واشترك معه في النشاط تلميذه «فيليب مزيير»، صديق الملك بطرس الحميم، والذي سبق أن عيَّنه رئيس ديوان الإنشاء في قبرص. ولكن كل ما بذلاه من جهد لم ينجم عنه من إعداد المقاتلين، ما كان الملك بطرس يتوقعه، وما سبق أن وعد به، فلم يتقدم إليه مقاتلون من ألمانيا، ولم يأت أحد من كبار النبلاء في فرنسا وإنكلترا أو البلاد المجاورة، باستثناء مَن وصل مِن (إيميه) أمثال كونت جنيف، ووليم روجر، وفيكونت تيرين، وإيرل هيرفورد.

على أن عدداً كبيراً من صغار الفرسان قد جاؤوا من مناطق مختلفة، وبينهم مَن وصل مِن جهات نائية مثل اسكتلندا، فاجتمع في البندقية قبل أن يغادرها

الملك بطرس، جيش ضخم بالغ الخطورة. وما أسهم به البنادقة في هذا الجيش كان كبير النفع، غير أن الجنويين تقاعسوا عن تقديم أي دعم أو بذل أي مساعدة. وتقرر أن تحتشد الحملة الصليبية في شهر آب ـ أغسطس سنة (١٣٦٥م)، في جزيرة رودس، ولكن وجهتها المقبلة ظلت في طي الكتمان؛ إذ أن ما قد يفضي به تاجر بندقي للمسلمين من أنباء ينجم عنه خطر بالغ الشدَّة.

ووصل الملك بطرس إلى رودس في وقت مبكر من شهر آب ـ أغسطس، وفي (٢٥) منه، أبحر إلى الميناء كل الأسطول القبرصي المكوَّن من ثمانمائة سفينة، ما بين سفينة كبيرة (شواني ـ ومفردها شانية)، وسفن نقل وسفن تجارية وزوارق خفيفة، فإذا ما تمت إضافة السفن الضخمة التي اشتركت بها البندقية، والتي قدَّمها الأسبتارية، فإن عدد سفن الأسطول يصل إلى خمس وستين ومائة سفينة. وأقلَّت هذه السفن حمولة كاملة من الرجال، مع عدد كبير من الأفراس (الخيول) ومقادير وافرة من المؤن والأسلحة. وبلغ حجم ما تمَّ حشده للحملة مقداراً يزيد على كل ما تم حشده منذ الحملة الصليبية الثالثة.

ومع أنه خاب الرجاء في أن يشترك في قيادة هذه الحملة كبار الأمراء من الغرب، فإنه يقابل ذلك ميزة كبيرة وهي أن الملك بطرس يعتبر القائد الذي لا نزاع فيه، فتوافرت بذلك فرصة تحقيق مبدأ «وحدة القيادة».

كتب الملك بطرس إلى الملكة إليانور أراغون في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر يُعلمها بأن كل شيء أضحى جاهزاً للحملة، وفي الوقت ذاته، أصدر أمراً إلى رعاياه في بلاد الشام يعلمهم بالعودة إلى الوطن، ويمنعهم من ممارسة التجارة مع بلاد الشام، وأراد بذلك أن يعتقد الناس بأن بلاد الشام هي هدفه.

وفي (٤) تشرين الأول ـ أكتوبر ألقى البطريرك بطرس من السفينة الملكية موعظة مثيرة على الفلاحين المحتشدين، فهتفوا: «يعيش، يعيش بطرس ملك بيت المقدس وقبرص، رغم أنف المسلمين ـ الكفرة».

وأقلع الأسطول في ذلك المساء، ولما أضحت جميع السفن في عرض البحر، جرى الإعلان أنها تقصد الإسكندرية بمصر. وكان بطرس قد اتخذ قراره بمهاجمة الإسكندرية، وذلك على أساس أنه بات من المحال مهاجمة شواطىء بلاد الشام التي تحولت إلى مجموعة من الخرائب، كما برهنت تجارب الحروب أن حكام مصر على استعداد للتنازل عن مدينة بيت المقدس للفرنج الصليبيين فيما إذا تعرضت دمياط للهجوم، وبما أن الإسكندرية أكثر أهمية من دمياط، فقد

تم اختيارها لتكون هدفاً للحملة؛ لا سيما بعد أن توافرت فيها الثروات المكدسة والمؤن الكثيرة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مجموعة الترع والقنوات، من جهة البر، تضمن الدفاع الجيد عن المدينة بعد احتلالها.

وكان وقت اختيار الحملة ملائماً للفرنج الصليبيين، فقد كانت مصر في تلك الفترة تحت حكم «شعبان بن قلاوون»، وهو صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكانت السلطة في قبضة الأمير «يلبغا» الذي لم يكن محبوباً من زملائه الأمراء وسائر الناس. أما والي الإسكدرية «خليل بن عرام»، فكان غائباً عن مدينته لأداء فريضة الحج، وناب عنه في حكم الإسكندرية أمير صغير اسمه «جنفرة». ولما لم يكن هناك مَن يتوقع بأن تتعرض الإسكندرية للعدوان، فقد كانت الحامية المدافعة عنها صغيرة الحجم، لا تكفي للدفاع عنها، غير أن حصون الإسكندرية وأسوارها كانت على درجة كافية من المِنعة والقوة.

وصل أسطول الفرنج الصليبيين إلى مياه الإسكندرية مساء يوم (٩) تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٣٦٥م)، وظن سكان المدينة أول الأمر أن ما يشاهدونه ليس أكثر من أسطول تجاري، فقد بَعُد العهد بينهم وبين الحروب، ومضت فترة (٧٥) سنة تقريباً على تحرير بلاد الشام من الفرنج، واستعد التجار لعقد الصفقات مع الأسطول الذي لم يكشف عن حقيقته إلا في صبيحة اليوم التالي عندما دخلت سفنه إلى الميناء الغربي، لا الميناء الشرقي، الذي لا يسمح للسفن المسيحية أن تقتحمه أو تدخل إليه.

وعندها أسرع نائب الوالي «جنفرة» بحشد رجاله، على حافة الشاطىء في محاولة لمنع الإنزال؛ غير أن قوات الفرنج المتفوقة استطاعت أن تشق طريقها إلى الشاطىء على الرغم مما أظهره المقاتلون المغاربة من الإقدام والبأس والشدَّة في القتال. وبينما تدفق التجار الوطنيون من المدينة مجتازين الأبواب المطلة على البر، كان «جنفرة» يحشد قواته، وراء الأسوار للدفاع عن القطاع المواجه لموضع الإنزال.

وعزم الملك بطرس على أن يتريث في هجومه؛ إذ أراد أن ينزل كل رجاله وأفراسه بتمهل إلى شبه جزيرة فاروس الواقعة بين المرفأين (أو الخليجين) الغربي والشرقي، ولكنه لما استشار قادته اكتشف أن الأكثرية منهم لا توافق على اختيار الإسكندرية كهدف للحملة. وأشار القادة إلى أن قوة الحملة لا تكفي لاحتلال حصن الإسكندرية وأسوارها الضخمة، كما أنها لا تتمكن من

الزحف إلى القاهرة للسبب ذاته. وأعربوا عن رغبتهم في الإقلاع إلى مكان آخر، ووافقوا على البقاء بشرط أن يتم الاستيلاء على المدينة عنوة وعلى الفور، وذلك للإفادة من المباغتة وتنفيذ العملية قبل أن يرسل السلطان جيشاً لنجدتها.

ولم يكن هناك مجال أمام ملك قبرص إلا الإذعان لرغبة قادته، فتقرر شن الهجوم على الفور للاستيلاء على السور الغربي، كما توقع جنفرة. وأظهرت قوات المسلمين مقاومة ضاربة أرغمت الفرنج على الارتداد إلى القطاع المواجه للمرفأ الشرقي، والقيام بالهجوم هناك، ولم يكن باستطاعة «جنفرة» توجيه رجاله في الوقت المناسب لإحباط الهجوم الجديد؛ وإذ اعتقد المقاتلون المسلمون أن المدينة قد سقطت، فقد أخذوا في التخلي عن مواقعهم والانسحاب عبر الأبواب الجنوبية.

ولم يحل منتصف نهار يوم الجمعة (١٠) تشرين الأول ـ أكتوبر حتى استقر الصليبيون بداخل المدينة، وظل القتال محتدماً بالشوارع. وحدث أثناء ليلة الجمعة أن شنَّ المسلمون هجوماً عنيفاً من أحد الأبواب الجنبوية، غير أن قوات الفرنج نجحت في إحباطه، وأضحت الإسكندرية تحت رحمة الفرنج الصليبيين اعتباراً من ظهر يوم السبت (١١) تشرين الأول ـ أكتوبر.

واحتفل الفرنج بانتصارهم، على طريقتهم التقليدية، بأن أقاموا المذابح التي لا مثيل لها في وحشيتها فيما وقع من الحروب طوال مائتين وخمسين سنة تقريباً، لم تعلِّم هؤلاء البرابرة شيئاً عن إنسانية الحروب، فما أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت عند الاستيلاء على القدس الشريف سنة (١١٩٩م)، ولم يبلغ المسلمون مثل هذه القسوة أبداً حتى عند استيلائهم على أنطاكية أو تحريرهم عكا.

والمعروف أن ثروة الإسكندرية كانت بالغة الشهرة، واشتد جنون الظافرين حين شهدوا هذه الغنيمة الوفيرة، فلم يبقوا على أحد؛ إذ أن ما تعرض له السكان الوطنيون من يهود ومسيحيين لم يكن بأقل مما تعرض له المسلمون، وحتى التجار الأوروبيون المقيمون في المدينة تعرضوا للمصير القاتم ذاته، فتم نهب متاجرهم ومستودعاتهم بدون تمييز.

وأغار الغزاة البرابرة على المساجد والمقابر، فنهبوا ودمروا كل ما استطاعوا نهبه وتدميره، وتعرضت الكنائس للنهب أيضاً. واقتحم الصليبيون المنازل، فأبادوا وقتلوا كلَّ من صادفهم، وجرى حمل خمسة آلاف من المسلمين واليهود

والمسيحيين لبيعهم في أسواق الرقيق. ثم قام الصليبيون بحمل غنائمهم الراسية بالميناء، وذلك بواسطة أرتال طويلة من الجمال والخيول، ثم تقرر إعدامها بعد أن أدَّت عملها. وفسد هواء المدينة بالرائحة الكريهة التي انبعثت من الجثث المتراكمة، والتي اختلطت فيها جثث الإنسان بجثث الحيوان.

وحاول ملك قبرص «بطرس» عبثاً أن يعيد الأمن إلى نصابه؛ إذ كان يأمل في الاحتفاظ بالمدينة، ولهذا أصدر أمره بتدمير الجسر الواقع على القناة الكبيرة، والذي يجتازه الطريق المؤدي إلى القاهرة، بعد أن أحرق الصليبيون أبواب المدينة، غير أن الصليبيين لم يفكروا وقتئذ إلا في حمل ما حصلوا عليه من الغنائم والوصول بها إلى بلادهم بأسرع ما يمكن.

وكان السلطان شعبان قد وجَّه جيشاً من القاهرة لقتال الفرنج، فأظهر قادة الحملة عدم استعدادهم للاشتباك معه، كما أن شقيق الملك بطرس أخبره أنه من المحال على قوات الفرنج الاحتفاظ بالمدينة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أشار الكونت تيرين ومعظم الفرسان الإنكليز والفرنسيين إلى أنهم لن يبقوا بعدئذ بالمدينة. وضاعت سدى احتجاجات بطرس والمندوب البابوي.

ولم يحل يوم الخميس (١٦) تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٣٦٥م)، حتى لم يبق بالمدينة إلا بعض الجند القبارصة، بينما كانت كل قوات الحملة قد استقرت فوق السفن مع غنائمها استعداداً للرحيل. ولما أصبح الجيش الذي أرسله السلطان على وشك الوصول إلى ضواحي المدينة، استقل بطرس سفينته، وأصدر أمره بالجلاء عن الإسكندرية. وبلغت حمولة السفن من الثقل أنه كان لا بدَّ من إلقاء مقادير كبيرة من القطع الضخمة إلى البحر. وظلَّ الغطاسون المصريون شهوراً وهم يستخرجون التحف الثمينة من مياه خليج أبي قير، الضحلة. ووصلت قوات أسطول الفرنج إلى قبرص.

واطمأن الملك بطرس والمندوب البابوي إلى ما أودعوه من غنائم في الجزيرة، وبعد ذلك عاودهما الأمل من جديد في أن ينهض الصليبيون مرة أُخرى لمرافقة بطرس في حملة أُخرى؛ غير أنه لم يكد الصليبيون يبلغون فاماجستا حتى شرعوا في إعداد الترتيبات للرحيل إلى الغرب والوصول بغنائمهم إلى أوطانهم. وتجهز المندوب البابوي لاقتفاء أثرهم، كيما يظفر بمغامرين آخرين يحلون محلهم، غير أنه تعرض لمرض أودى به قبل أن يغادر جزيرة قبرص. وأقام الملك بطرس قداس شكر عند عودته إلى نيقوسيا، غير أن قلبه

كان كسيراً جريحاً، وعبَّر عن ذلك بتقريره إلى البابا، والذي ضمنه ما أحرزه من انتصار، وما أصابه أيضاً من خيبة أمل مريرة.

استقبل الغرب أنباء نهب الإسكندرية وتدميرها بمشاعر مختلفة وأهواء مضطربة، فقد جرى أول الأمر التهليل لما حدث باعتباره انتصاراً حربياً على المسلمين وإذلالاً لهم. وابتهج البابا لذلك؛ غير أنه أدرك أنه لا بدَّ من إمداد الملك بطرس مباشرة بقوات تحل مكان أولئك الذين تخلوا عنه، فوعد ملك فرنسا «شارل» بإرسال جيش من أشهر فرسانه «برتراند دي جويسلين» الذي وعد بالاشتراك في الحملة، وأماديوس كونت سافوي (المعروف في القصص باسم الفارس الأخضر)، والذي كان يستعد للرحيل إلى الشرق، فقرر أن يبحر إلى جزيرة قبرص.

وحدث عندئذٍ أن أعلن البنادقة أن ملك قبرص «بطرس» قد عقد صلحاً مع السلطان شعبان بن قلاوون، فاستدعى الملك شارل جيشه، وتوجه جويسلين للقتال في أسبانيا، بينما مضى أماديوس إلى القسطنطينية.

واختلف موقف البنادقة عن موقف البابا؛ إذ أنهم لم يرتاحوا لما أسفرت عنه الحملة الصليبية من نتيجة، فقد كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجاري في مناطق العالم الإسلامي، فجاءت النتيجة معاكسة لذلك؛ إذ تعرضت أملاكهم الكثيرة في الإسكندرية للدمار، فضلاً عن توقف تجارتهم مع مصر، وكاد نهب الإسكندرية يدمرهم باعتبارهم دولة تجارية، وابتهج لذلك الجنويون الذين ظفروا بالمكافأة لامتناعهم عن الاشتراك بالحملة. ولم يلبث جميع الغرب أن تأثر بنتائج الحملة الصليبية، حيث ارتفعت أسعار التوابل والمنسوجات الحريرية، وسائر السلع الشرقية التي أصبح الناس في الغرب يألفونها.

كان ملك قبرص «بطرس» قد بدأ المفاوضات مع مصر بمجرد عودته من حملته الفاشلة، بهدف عقد هدنة؛ غير أن كلًّا من الجانبين بلغت به العداوة درجة بات من الصعب معها الوصول إلى الصلح. ولهذا فقد تابع «يلبغا» جهده لبناء أسطول قوي من أجل غزو قبرص مع مراوغة حاكمها «الملك بطرس» بهدف كسب عامل الوقت.

ومقابل ذلك، فقد لجأ الملك بطرس إلى رفع ثمن التخلي عن البلاد المقدسة لفرض شروط قاسية على خصمه «يلبغا»، وأتبع ذلك بشن إغارات على الساحل السوري؛ غير أن هوسه بالحرب الصليبية أخذ يزعج رعاياه الذين سيطرت عليهم

مخاوف استنزاف موارد الجزيرة في قضية خاسرة لا أمل فيها. وهكذا فلما أعدَّ أحد فرسان بطرس، الذي تشاجر معه، أمر اغتياله سنة (١٣٦٩م) لم ينهض أحد لإنقاذه، حتى إخوته لم يهرعوا لإنقاذه، ومهد ذلك لعقد معاهدة الصلح مع السلطان (في السنة التالية) فتمَّ تبادل الأسرى.

وضعت مذبحة الإسكندرية نهاية لتلك الحملات الصليبية التي جعلت هدفها المباشر هو استرجاع الأرض المقدسة، وثارت الشكوك حول ما إذا كانت الحملة في صالح الفرنج الصليبيين، حتى لو كانوا جميعهم من المتحمسين لها بمثل الحماسة التي دفعت الملك بطرس للقيام بمغامرته؛ ذلك أنه حينما جرت الحملة، كانت مصر وقتذاك في سلام مع الفرنج لفترة تزيد على نصف قرن. وأخذ حكام المسلمين يفقدون ما اتصفوا به، في وقت مبكر، من التعصب، وتحسنت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين، وأضحى الحجاج أحراراً في التوجه إلى الأماكن المقدسة، وراجت التجارة بين الشرق والغرب.

وجاءت مذبحة الإسكندرية ففجرت كامن الغضب من جديد، فهاجم المسلمون الكنائس، وأغلقت كنيسة القيامة أبوابها لمدة ثلاث سنوات. وبقي على قبرص أن تدفع الثمن، فقد أظهر حكام المسلمين قبل مذبحة الإسكندرية، استعدادهم للتساهل في الإبقاء عليها تحت حكم الصليبيين، إلا أن المذبحة أظهرت أن الجزيرة أصبحت عدواً يجب استئصاله. وظلت مصر تنتظر ستين سنة للأخذ بالأثر، وما حلَّ بجزيرة قبرص من تخريب مريع في سنة (١٤٢٦م)، لم يكن إلا عقاباً مباشراً وعادلاً لما سبق أن تعرضت له الإسكندرية من النهب والتدمير.

وكان فشل هذه الحملة الصليبية هو بداية تحول الصراع من فلسطين (الشرق) إلى أوروبا (الغرب)، وظهر ذلك في حملة كونت سافوي الصليبية سنة (١٣٦٦م). وسبقت الإشارة إلى أن البابا إيربان السادس كان منصرفاً في تلك الفترة للدعوة إلى حرب صليبية بالتعاون مع بطرس - ملك قبرص - وذلك عندما قرَّر «أماديوس» كونت سافوي، التوجه بحملته إلى الأرض المقدسة؛ غير أنه كان يرغب في مساعدة ابن عمه يوحنا الخامس، شقيق الامبراطور البيزنطي، فأذن له الامبراطور البيزنطي بأن يستهل حملته بقتال المسلمين الأتراك، بشرط أن يكفل خضوع الكنيسة اليونانية.

وبذل البنادقة قصارى جهدهم لوقف حملته الصليبية، لتخوفهم من تدخلها في

سياستهم التجارية. وأكثر ما كانوا يودون هو ألا ينحاز كونت سافوي إلى بطرس ملك قبرص، ولهذا شعروا بالارتياح لما حملته شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع السلطان على أن يوطد عزمه على تركيز جهوده على بيزنطة، فحشد نخبة مختارة من الفرسان، غير أنه صادف منذ البداية عقبات حول المال.

ووصلت الحملة مضيق الدردنيل في شهر آب ـ أغسطس سنة (١٣٦٦م)، فألقت على الفور الحصار على «غاليبولي» التي سقطت في (٢٣) آب ـ أغسطس، على أن «أماديوس» واصل السير بحراً إلى القسطنطينية بدلاً من الهبوط في تراقية، لمحاولة إخراج الأتراك المسلمين من الإقليم. وتبين له في القسطنطينية أن الامبراطور البيزنطي وقع غدراً في أسر ملك بلغاريا، شيشمان الثالث، ولهذا وجَّه أماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد أن هاجم أماديوس ميناء فارنا البلغاري.

ولما تمَّ إنقاذ الامبراطور يوحنا، اكتشف أماديوس أنه أنفق كل ما لديه من المال، فضلاً عن المال الذي ابتزه من السكان المحليين والذي اقترضه من الامبراطورة، فكان لزاماً عليه أن يعود إلى وطنه، غير أنه قبل عودته حمل الامبراطور على أن يقطع على نفسه وعداً بأن تخضع كنيسته لروما. ولما قدم فيلوثيوس، بطريرط القسطنطينية برفقة فارس يوناني، إلى سفينة «أماديوس» ليخطره أن اليونانيين سوف يخلعون الامبراطور عن العرش إذا وافق على طلبه، اختطفهما ونقلهما معه إلى إيطاليا.

وعاد أماديوس إلى وطنه في سنة (١٣٦٧م)، وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة القيمة؛ إذ أن الأتراك المسلمين استولوا من جديد على غاليبولي عقب رحيله مباشرة. وفي زمن مراد[1] بادر الأتراك العثمانيون إلى زيادة سلطانهم؛ إذ ألزم مراد الأمراء بغرب الأناضول بالخضوع له، ومضى في زحفه في أوروبا،

(١) **مراد الأول** (١٣١٩ ـ ١٣٨٩م): هو ابن أورخان، وقد تولى السلطة سنة (١٣٦٢م) عندما توفي والده، وبدأ حياته في الحكم بالقضاء على الحكام المحليين الذين كانت تمزقهم الصراعات الداخلية، وجعل أدرنة عاصمة له (اعتباراً من سنة ١٣٦٦م)، ثم تابع جهوده فاستولى على صوفيا ونيش (١٣٨٥ ـ ١٣٨٦م)، واستولت قواته على مكدونيا وغاليبولي (سنة ١٣٨٥م)، وكانت حياته جهاداً مستمراً، حالفته الانتصارات التي أدَّت إلى بعث الحروب الصليبية في أوروبا، وساعدت في الوقت ذاته على سيطرة المسلمين على عدد من أقطار أوروبا تحت حكم الامبراطورية العثمانية.

فأضحت بلغاريا إمارة تابعة له، ولم تلبث أن أضيفت إلى بلاد المسلمين، وذلك عقب الانتصار الذي أحرزه على الصربيين، على نهر ماريتزا، في سنة (١٣٧١م). ودارت في سنة (١٣٨٩م) معركة حاسمة في قوصوه بين الصربيين والأتراك المسلمين، ومع أن مراد اغتاله أحد الصربيين قبل نشوب المعركة، فإن المسلمين أحرزوا انتصاراً تاماً وأصبحوا سادة شبه جزيرة البلقان.

وعلى الرغم من أن النشاط الصليبي في الغرب تحول في سنة (١٣٩٠م) بالحملة الفاشلة، التي قادها لويس الثاني دوق بربون لمهاجمة المدية (قرب تونس)، فقد كان من الواضح للغرب أنه لا بدَّ من وقف زحف الأتراك المسلمين من أجل سلامة أوروبا المسيحية. وهكذا أصبحت أوروبا في موقف الدفاع بعد أن كانت في موقف الهجوم، إلا أن هذا الدفاع على جبهة أوروبا تحول إلى هجوم على جبهة «الأندلس»، واستمرت الحروب الصليبية على الرغم من توقف حملاتها.

٤ ـ مصير الطوائف الدينية الصليبية

يظهر استعراض تاريخ الحروب الصليبية أنه كان للطوائف الدينية دور كبير فيها، فقد تشكلت تلك الطوائف الدينية العسكرية للقتال أصلاً في الأرض المقدسة من فلسطين، باسم العالم المسيحي، وقد تميَّزت هذه الطوائف بتعصبها الشديد ضد المسلمين، وارتكبت في سبيل ذلك أبشع الجرائم.

ولهذا، وعلى سبيل المثال، فقد تسامح صلاح الدين الأيوبي مع كل الأعداء الفرنج، باستثناء مقاتلي الطوائف الدينية، وكان من أبرز تلك الطوائف، على ما سبق ذكره، طائفة الفرسان التيوتون (الألمان) وطائفة فرسان الأسبتارية، وطائفة فرسان الداوية. وقد أفادت هذه الطوائف من ظروف الحروب الصليبية، فتحوَّلت إلى كيانات متميزة جعلت في طليعة مشاغلها تكديس الثروات الضخمة، وجمع الغنائم الوفيرة، والعيش على حساب الحرب. فلما حرَّر المسلمون بلادهم خرجت هذه الطوائف محتفظة بكياناتها وتنظيماتها على أمل ممارسة دورها في أي منطقة تقيم فيها.

فأما طائفة التيوتون، فقد غادرت عكا عند تحريرها (سنة ١٢٩١م)، وتوجهت إلى البندقية، ثم لم تلبث أن انتقلت إلى مارينبورغ في بروسيا سنة (١٣٠٩م)[1].

---

(١) جاء في تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٤٩٥)، ما يلي: «أخذ الفرسان التيوتون، بعد أن يئسوا من =

وأما طائفتا الداوية والأسبتارية، فقد اتخذتا من جزيرة قبرص مقراً لهما؛ وإذ عجزت الطائفتان عن مباشرة واجباتهما بشكل سليم ومقبول في قبرص، فإنهما أخذتا في التدخل بالسياسات المحلية، وكانتا تتلقيان دعم البابا وتأييده على أمل الإفادة منهما إذا ما نجحت المساعي المبذولة لتوجيه حملة صليبية. على أن ما كان لهما من أحباس ضخمة وأموال متراكمة في جميع أنحاء أوروبا أثارت من الغيرة والحسد ما قد يؤدي إلى نتائج في غير صالح الطائفتين، إلا إذا عملتا على استخدام ما يتوافر للطائفتين من إمكانات مادية لدعم حجة وجودهما (وهي الحرب الصليبية)، ومقابل ذلك، فإن الطائفتين لم تكونا على استعداد للقيام بأي عمل إلا إذا حصلتا على الثمن مسبقاً وبشكل مناسب.

ومن أجل ذلك، تابع قادة طائفتي الفرسان، الداوية والأسبتارية، دورهما في التحريض. وفي سنة (١٣٠٧م) وصل إلى «أفينيون» مقدم الداوية ومقدم الأسبتارية، فطلب إليهما البابا كليمنت وضع تقرير يتضمن مقترحاتهما للحملة الصليبية المقبلة. فبادر مقدَّم الداوية «جيمس مولاي» على الفور إلى إرسال تقرير أوصى فيه بأن تتولى عشر سفن كبيرة أول الأمر تطهير البحر الأبيض المتوسط من سفن المسلمين، ثم يتلوها إرسال جيش يتراوح عدد مقاتليه، على الأقل، بين اثني عشر ألفاً وخمسة عشر ألف فارس، وبين أربعين وخمسين ألف راجل، ولن يلقى ملوك الغرب صعوبة في تجنيد هذه الأعداد، وينبغي حمل الجمهوريات الإيطالية على أن تتعهد بنقلهم. ولم يوافق «جيمس مولاي» على إنزال القوات في قليقية، بل اقترح حشد القوات في قبرص للإنزال بعد ذلك على سواحل بلاد الشام.

وحدث بعد أربع سنوات، عند انعقاد مجمع فيينا سنة (١٣١١م)، أن كتب مقدم الأسبتارية «فولك فيلاريت» رسالة إلى ملك فرنسا «فيليب» تضمنت عرضاً لما سبق لطائفته أن أعدَّته للحملة الصليبية، وما تستطيع القيام به في المستقبل.

ويظهر ذلك أن الطوائف الدينية العسكرية قد عاشت فترة من الاضطراب والقلق بعد تحرير بلاد الشام، وكان من أول ما جابهته من الصعوبات تلك

= مستقبل سوريا، في توجيه اهتمامهم الرئيسي إلى شواطىء بحر البلطيق النائية حيث حازوا منذ سنة (١٢٢٦م) أراضٍ وقلاعاً مقابل ما يبذلونه من مساعدة في ترويض الوثنيين من البروسيين والليفونيين وحملهم على اعتناق المسيحية».

القيود التي فرضتها حكومة قبرص. وأظهر الأسبتارية التعقل والحكمة في سلوكهم، وأخذ قادتها في البحث عن وطن آخر. وتصادف أن وصل إلى قبرص في سنة (١٣٠٦م) قرصان جنوي اسمه «فينولو دي فينولي»، سبق أن حصل من الامبراطور البيزنطي «أندرونيقوس» على عقد باستئجار جزيرتي كوس وليروس، ففرض على مقدّم الأسبتارية «فولك فيلاريت» بأن يقوم مع الأسبتارية بفتح جميع جزر أرخبيل الدوديكاينز واقتسامها معاً على أن يحتفظ لنفسه بالثلث.

وبينما أقلع «فولك» إلى أوروبا ليحصل على موافقة البابا على الخطة، وصل إلى جزيرة رودس أسطول صغير للأسبتارية، ومعه بعض السفن الجنوية للدعم، وشرع بإخضاع الجزيرة. وأظهرت الحامية اليونانية بالجزيرة قدراً كبيراً من الصمود في القتال، بحيث أن قلعة فيليرمو الكبيرة لم تسقط في أيدي الأسبتارية إلا عن طريق الخيانة، وذلك في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة (١٣٠٦م). أما مدينة رودس ذاتها، فظلت تقاوم لمدة سنتين أُخريين.

وحدث آخر الأمر أن وصلت إلى جزيرة قبرص سفينة تقل إمداداً للحامية مرسلة من القسطنطينية، وذلك في صيف سنة ١٣٠٨م، وكانت هذه السفينة قد انحرفت عن طريقها بتأثير العواصف، فوقعت في «فاماجستا» في قبضة فارس قبرصي اسمه «فيليب الأصغر»، فسار بها وبمَن فيها من الركاب إلى رودس. ووافق قائدها، وهو من رودس، على إجراء المفاوضات مع الحامية اليونانية لتسليم المدينة. ونجحت المفاوضات، وفتحت رودس أبوابها للأسبتارية يوم (١٥) آب ـ أغسطس سنة (١٣٠٨م).

وأقام الأسبتارية على الفور مقرهم في الجزيرة، وجعلوا من المدينة بمينائها الرائع أمنع الحصون في شرقي البحر الأبيض المتوسط؛ وإذ تحقق هذا الانتصار على حساب اليونانيين (المسيحيين) فقد لقي ترحيباً في الغرب باعتبار أنه انتصار صليبي. والواقع فإن فتح رودس قد وهب الأسبتارية قوة جديدة، وهيَّأ لهم الوسيلة التي ساعدتهم على متابعة الطريق الذي اختاروه لأنفسهم، وأصبح لزاماً على أهل جزيرة رودس الانتظار لمدة تزيد على ستة قرون، حتى يستردوا حريتهم.

كان الداوية أقل من الأسبتارية فيما نالهم من الحظ، وأقل منهم أيضاً في البحث عن المغامرة؛ غير أنهم فاقوهم فيما كانوا يثيرونه دائماً من الحقد والعداء، وكانوا أيضاً أكثر ثراء. ومن المعروف أنهم مارسوا طويلاً أعمال

الصيرفة، وإقراض المال في بلاد الشام، فحصلوا بذلك على أموال ضخمة وثروات كبيرة، ولو أن نجاحهم في هذه المهنة، ومبالغتهم في الربا قد جرَّدتهم من الثقة والاحترام. وجرى دائماً نعت سياستهم بأنها تقوم على الإثرة وانعدام المسؤولية.

وعلى الرغم مما اشتهر به فرسانهم من الضراوة ومن التعصب في قتال المسلمين أيام الحروب، إلا أن نشاطهم المالي أدى إلى أن يكونوا على اتصال وثيق بالطوائف المماثلة لهم عند المسلمين «الإسماعيلية»، واتخذ كثير منهم أصدقاء من المسلمين، واهتموا بالمذاهب والدراسات الإسلامية. وانتشرت المعلومات عن قيام الداوية بدراسة فلسفة غريبة وراء أسوار قلاعهم، وممارسة طقوس جرى نعتها بالهرطقة، وكان للمبتدئين (المريدين) شعائر منافية للدين والأخلاق، وكثر الحديث عما يصحب تلك الطقوس من ممارسة للرذائل المنافية للطبيعة من شعائر العربدة. ولم يكن بالمستطاع نفي الأحاديث المتعلقة بهذه المواضيع أو منعها أو حتى اعتبارها اختراعاً من قِبَل أعداء الطائفة؛ إذ كانت ممارسات الداوية تبرهن أن ما هو معروف عن الطائفة، إنما هو مرتبط بحقائق لا مجال لدحضها، وكان لذلك دوره في التحريض ضد الداوية وتكوين قناعة بمهاجمة هذه الطائفة والقضاء عليها.

وهكذا، فعندما توجَّه مقدَّم الداوية «جيمس مولاي» إلى فرنسا سنة (١٣٠٦م) ليدرس مع البابا كليمنت ترتيبات وخطة الحملة الصليبية التي سبق وضعها، سمع أن التُّهم قد وُجِّهت إلى طائفته، فطلب إجراء تحقيق عام، وتردَّد البابا في ذلك؛ إذ أن معرفته بأن الملك فيليب قد عزم على سحق الطائفة حملته على تجنب إثارة غضبه أو الدفاع عن الداوية، وزاد الموقف حرجاً عندما أصدر الملك فيليب أوامره بصورة مباغتة لإلقاء القبض على جميع من كان في فرنسا، من فرسان الداوية، في تشرين الأول ـ أكتوبر سنة (١٣٠٧م)، وتقديم الداوية إلى المحاكمة بتهمة الإلحاد، والتي صاغها فارسان سبق طردهما من الطائفة، فتطوَّعا بتقديم تقرير عما يعرفانه عن الطائفة إلى ملك فرنسا.

وعندما أُجريت المحاكمات، أنكرت فئة قليلة من الداوية كل شيء، إلا أن الغالبية أعربت عن ارتياحها للاعتراف بكل ما يُطلب منها. وفي الربيع التالي، أصدر البابا، بناءً على طلب الملك فيليب، الأوامر إلى كل أمير يحوز الداوية ممتلكات ببلاده، بإلقاء القبض عليهم، والشروع في إجراء محاكمات لهم.

واستجاب له بعد قليل من التردد، سائر ملوك أوروبا وأمرائها، باستثناء ملك البرتغال دنيس، الذي لم تكن له مصلحة في التعرض للداوية.

وتقررت مصادرة أملاك الداوية في كل مكان، وظهر فرسانهم أمام المحاكم، ولم يتعرض هؤلاء للتعذيب، إلا أنه تقرر وضع صيغة ثابتة لاستجوابهم، فكان المتهمون يعرفون ما هو مطلوب منهم، فاعترف عدد كبير منهم بما كانوا يرتكبونه من جرائم، وما يقومون به من أعمال هدَّامة.

على أن ما كان له أهمية خاصة عند البابا، هو تعاون حكومة قبرص معه للقضاء على الداوية، لا سيما وأن هؤلاء قد اتخذوا من الجزيرة مقراً لهم. وكان ملك قبرص في تلك الفترة، هو أملريك شقيق هنري الثاني، والذي سبق له أن أطاح بملك أخيه بفضل مساعدة الداوية له، ولهذا فإنه امتنع في البداية عن اتخاذ أي إجراء ضدهم.

ثم وصل إلى قبرص، في شهر أيار ـ مايو سنة ١٣٠٨م، المقدَّم هايتون قادماً من أفينيون، وهو يحمل رسالة من البابا تتضمن أمراً بإلقاء القبض فوراً على الفرسان الداوية، بعد أن تبيَّن أنهم ليسوا مؤمنين. وأرجأ «أملريك» تنفيذ الأمر، فتوافر لفرسان الداوية بقيادة مارشالهم «إيميه أوزيليه» من الوقت ما يكفي للاستعداد من أجل الدفاع عن وجودهم، على أنهم استسلموا في أول تموز ـ يوليو سنة (١٣٠٨م)، بعد أن لجؤوا إلى استخدام السلاح لفترة قصيرة. وتقرر نقل أموالهم، باستثناء شطر كبير منها كان قد تمَّ إخفاؤه بإتقان، فلم يتيسر كشفه، من ليماسول إلى دار أملريك في نيقوسيا، بينما تمَّ وضع الفرسان تحت الحراسة في خيروخيتيا أول الأمر، ثم في يورماسويه، ثم في ليفكارا، بعدئذٍ، حيث ظلوا بها ثلاث سنوات. وتقرر آخر الأمر تقديم الداوية إلى المحاكمة، بناء على إصرار البابا وإلحاحه، وبعد أن عاد هنري الثاني إلى ملكه وأُبعد أخوه أملريك، تعرض عدد كبير منهم في فرنسا للموت حرقاً، بينما أُلقي بهم في جميع أنحاء أوروبا في السجون، أو جرى الإبقاء عليهم في حالة من البؤس والفقر.

ولم يكن لدى الملك هنري ما يدفعه لحماية فرسان الداوية الذين خانوا قضيته، وتآمروا مع أخيه أملريك ضده قبل سنوات قليلة؛ غير أنه هيأ لهم محاكمة عادلة، وتمَّ اتهام ستة وسبعين فارساً منهم بالهرطقة وممارسة الأعمال الهدامة، ولكن المتهمين جميعاً أنكروا التهمة الموجَّهة إليهم، وأقسم شهود بارزون على أنهم أبرياء.

وكانت النتيجة أن صدر الحكم ببراءة المتهمين جميعاً، ولما بلغت أفينيون أنباء براءتهم، استشاط البابا غضباً، فكتب إلى الملك هنري يطلب إعادة المحاكمة، وأرسل ممثلاً شخصياً بالنيابة عنه، اسمه «دومينيك باليسترينا» ليتأكد من أن العدالة قد أخذت مجراها. ووضع ملك قبرص «هنري» فرسان الداوية في السجن حتى سنة (١٣١٣م)، حيث تمَّ تنفيذ قرار البابا القاضي بقمع طائفة الداوية وتسليم كل مالها من ثروة وأملاك للأسبتارية، بعد أن تسترد السلطات المدنية ما بذلته من نفقات على المحاكمات المختلفة. وأدرك الملوك في جميع أنحاء أوروبا أن هذه النفقات كانت باهظة، فلم يحصل الأسبتارية إلا على جانب صغير من الأملاك الحقيقية، ولم يطلق أبداً سراح قادة الداوية في قبرص، على أنهم كانوا أكثر حظاً؛ إذ أن مقدَّمهم مات حرقاً في باريس، في آذار ـ مارس من سنة ١٣١٤م، بعد سنوات تعرض خلالها للاعتقال والتنكيل والاعترافات العديدة، وإعلان تخلِّيه عن عقائدهم.

وهكذا، أكلت الحروب الصليبية إفرازاتها، والتهمت عواملها، ودمرت ذاتها، ولكن جذوة الصليبية لم تخمد نهائياً، وبقيت (حجة الصليبية) ذريعة في قبضة الطامعين، حتى إذا ما انتصر الأتراك العثمانيون انتصارهم الكبير بالاستيلاء على عاصمة البيزنطيين «القسطنطينية» سنة (١٤٥٣م)، تصدى البابا بيوس الثاني للدعوة من أجل إيقاظ الروح الصليبية، واستمر في دعوته حتى سنة (١٤٦٤م)، إلا أنه لم ينجح في جمع عدد يتجاوز قلة من المأجورين، الذين لم يلبثوا أن تخلوا عن واجبهم قبل أن تتحرك الحملة.

لقد ماتت الروح الصليبية ولو إلى حين، لتبعث بعد ذلك تحت أشكال مختلفة وشعارات مغايرة.



الفَصْلُ الخَامِسُ

الحملات الصليبية وفن الحرب



الحملات الصليبية وفن الحرب

١ ـ الحروب الصليبية والحروب طويلة الأمد

لم تكن الصفحات السابقة أكثر من كلمات قليلة في ملحمة الحرب الصليبية طويلة الأمد، وهي تبرز أعمال ثلاثة من القادة الذين جاؤوا على التتابع ليقودوا مسيرة تحرير البلاد الإسلامية من الصليبيين، وهؤلاء القادة هم: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، ولو تمَّ تجاوز أسماء القادة لظهرت الأعمال في إطار نسيج متصل، ولكن هل بدأت مسيرة التحرير بما قام به الظاهر بيبرس؟

في الواقع لم تكن جهود الظاهر بيبرس أكثر من حلقة محكمة الاتصال بما قام به المظفر قطز من قبل، ولم تكن جهود المظفر قطز إلا ثمرة ما قام به الأيوبيون، بصورة خاصة في عهد صلاح الدين، ولم تكن جهود صلاح الدين وأعماله إلا استمراراً لما قام به الزنكيون (نور الدين زنكي وعماد الدين زنكي)، وليس ذلك إلا برهاناً ثابتاً على طبيعة تلك الحرب، كحرب طويلة الأمد.

ويؤكد ذلك وبطريقة غير مباشرة دور جماهير المسلمين، في كل بلاد المسلمين، والتي حملت على عاتقها قضية الجهاد في سبيل الله ومضت بتصميم لا نظير له، وعزم لا تلين له قناة، إلى غايتها، تاركة الأمر للمتصارعين على السلطة، والمتنازعين على النفوذ والسلطان، ولم يكن باستطاعة المتصدِّرين للحكم، الممسكين بمراكز القوة إلا مسايرة التيار، وإلا الاستجابة لأهداف جماهير المسلمين.

ولقد عرف العالم، بعد ذلك، أنواعاً من الحروب طويلة الأمد، منها على سبيل المثال حرب الوراثة الإسبانية (١٧٠١ ـ ١٧١٤م)، وحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨م)، وحرب الوردتين من قبل (١٤٥٥ ـ ١٤٨٥م)، والحروب السيليزية الثلاث (١٧٤٠ ـ ١٧٦٣م)، كما عرف العالم القديم نوعاً

من هذه الحروب طويلة الأمد، ولعل أبرزها الحروب البونية، بين القرطاجيين والرومانيين (٢٦٥ ـ ١٤٦ ق.م).

وجاءت بعد ذلك حروب يمكن اعتبارها امتداداً للحروب الصليبية، وهي الحرب الأفغانية ـ البريطانية (١٨٣٨ ـ ١٩١٩م)، والحرب الروسية ـ التركية (١٦٧٧ ـ ١٩١٨م)، وأخيراً الحرب الصينية ـ اليابانية التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية.

وليس المجال هنا، على كل حال، هو مجال حصر الحروب طويلة الأمد أو إجراء إحصاء لها، وإنما المهم في الأمر هو إبراز ميزة الحروب الصليبية من بينها جميعاً، بسبب طول مدتها من جهة، وبسبب ميزتها وخصائصها من جهة أُخرى، وبسبب ما تخلَّلها من صراع مرير ومستمر من جهة ثالثة، وأخيراً بسبب ما حققته من نتائج.

وليس من قبيل المبالغة أو التهويل، وصف الحروب الصليبية بأنها حرب فريدة في التاريخ، ولا مثيل لها أو نظير بين كل ما عرفه العالم من الحروب؛ ذلك أن هذه الحرب بمقدماتها ونتائجها، قد اكتسبت شكل صراع دائم. وإذا ما أمكن طرد الفرنج الصليبيين من الشام بعد مائتي سنة تقريباً من وصولهم إليها، فقد استمرت الحرب الصليبية على جبهة الأندلس لمدة تزيد على خمسة قرون، واستمرت هذه الحرب على جبهتي أوروبا وآسيا بعد ذلك حتى تمت إزالة الامبراطورية العثمانية، وحتى تمت تجزئة العالم العربي ـ الإسلامي إلى كيانات ودويلات وأنظمة قائمة على الصراع فيما بينها، وعلى الاختلاف بعضها مع بعض. ويصبح من الطبيعي بعد ذلك كله، ربط الهجمة الاستعمارية (الصهيونية) بمجموعة الهجمات التي تعرَّض لها العالم العربي ـ الإسلامي، وتسميتها بالحرب الصليبية الجديدة.

وقد يكون من المثير في الواقع ملاحظة ذلك التشابه في أساليب الحروب الصليبية القديمة، وأساليب الحروب الصليبية «الصهيونية» الجديدة. فإذا كانت الحروب الصليبية القديمة قد أفرزت طوائف دينية متصلبة تنطلق من منطلقات الكراهية والحقد (فرسان التيوتون والأسبتارية والداوية)، فقد جاءت الحروب الصليبية الجديدة لتفرز طوائف دينية تنطلق من المنطلقات ذاتها، وتقوم بالدور ذاته، ولعل من أبرزها «جماعة غوش أمونيم وحركة شيلي وحزب المغدال وحركة أغودات إسرائيل وحركة حيروت، التي اندمجت بالليكود برئاسة الإرهابي مناحيم بيغن».

وليس ذلك كل ما في الحروب الصليبية، القديمة منها والحديثة، من تشابه، فلقد كانت الطوائف الدينية العسكرية هي المسؤولة عن المذابح في القدس خاصة، وفي كل البلاد التي وطئتها أقدام الفرنج الصليبيين. وجاءت العصابات الصهيونة «أرغون زفاي ليومي، والهاغاناه، وشتيرن» فقامت بارتكاب المذابح ذاتها في دير ياسين وقبية ونحالين، علاوة على ما رافق الحروب العربية ـ الصهيونية من مذابح وجرائم.

وتتشابه الحروب الصليبية القديمة مع كل الحروب طويلة الأمد بقاسم مشترك، وهو أنها مرت بمرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى: وهي مرحلة الهجوم الاستراتيجي من جانب الفرنج الصليبيين، والتزام المسلمين بالدفاع الاستراتيجي. ثم المرحلة الثانية، وتتميز بأنها مرحلة الهجوم الاستراتيجي من جانب المسلمين، والتزام الفرنج الصليبيين بالدفاع الاستراتيجي، ويلاحظ ذلك من خلال أعمال الحصار والدفاع في القلاع ووراء الأسوار والتحصينات.

وتعتبر معركة حِطِّين الخالدة، وتحرير مدينة القدس في عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) هي نقطة، أو مرحلة التوازن الاستراتيجي في الصراع. فقد كان المسلمون قبل ذلك يخوضون حروبهم دفاعياً، وعلى نطاق معارك أو حروب محدودة، وكانت قوات المسلمين تتزايد صلابة وتماسكاً عبر الحروب، في حين كانت هذه الحروب تستنزف قدرة الفرنج الصليبيين وتضعفهم، إلى أن تمَّ الوصول إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي في الصراع، ثم بدأ التحول لمصلحة المسلمين.

وعلى الرغم من محاولات الفرنج الصليبيين المتكررة لإلغاء الانتصارات العسكرية الإسلامية باستخدام وسائل الصراع السياسي، وتحقيق مكتسبات في السلم، كان من الصعب تحقيقها في زمن الحرب، إلا أن جذوة الجهاد في سبيل الله، كانت تتزايد اتِّقاداً يوماً بعد يوم، فكانت نتائج الحروب تلغي المكاسب السياسية.

واستمر الوضع على ذلك إلى أن أمكن حسم الموقف بالصراع المسلح، وذلك خلال فترة قيادة الظاهر بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف، ويبرز ذلك دور الاستنزاف المستمر في إجراء التحولات الحاسمة عبر مسيرة الصراع، مع ما يقابل ذلك من زيادة الاستعداد لدى المسلمين وتصعيد الصراع، **كما يبرز ذلك أهمية عامل (ثمن الحرب). فقد كان ملوك أوروبا وأمراؤها على استعداد لدفع**

ثمن معقول ومقبول لتأمين وقود الحرب، إلا أن حروب الاستنزاف وتصميم المسلمين على متابعة الصراع المسلح وعملهم الدؤوب لتدمير قوات الفرنج الصليبيين في معارك متتالية، قد جعل ثمن الحرب مرتفعاً، فجاءت الحملات الصليبية المتتالية في محاولة لتحقيق مكاسب، تجعل ثمن الحرب مقبولاً، إلا أن الانتصارات التي أحرزها المسلمون، أحبطت كل تلك المحاولات. وهذا ما يفسر انصراف ملوك الغرب وأمرائه عن تقديم الدعم في المرحلة الأخيرة من تحرير بلاد الشام، وهذا ما يفسر أيضاً جنوح قادة الصليبيين في الشام نحو عقد هدنة في إثر هدنة مع قادة المسلمين.

وتتوافق هذه الحقيقة مع معطيات كل الحروب طويلة الأمد، بما في ذلك الحروب الاستعمارية؛ إذ بات من المعروف أن سقوط الاستعمار لم يكن إلا محصلة لمجموعة من المتحولات، يشكل عامل «ثمن الحرب» طليعة لها، وهل كان جلاء الفرنسيين عن الجزائر، وجلاء الأمريكيين عن فيتنام أكثر من نتيجة لارتفاع ثمن الحرب، وزيادة هذا الثمن عن الغنائم المحتملة؟. . .

هنا تظهر مرة أُخرى أهمية تصميم المسلمين على تفضيل طريقة الصراع المسلح باستمرار، فقد اختار المسلمون منذ بداية الحروب الصليبية طريقة الجهاد في سبيل الله، واستعدُّوا لما يتطلبه الجهاد من التضحيات، وحشدوا قوافل المجاهدين جيلاً بعد جيل، وعلى امتداد ستة أو سبعة أجيال إلى أن تمَّ الوصول إلى هدف الحرب، وهو تحرير بلاد الشام من رجس الغزاة البرابرة.

وتجدر الإشارة إلى أن المسلمين قد حرصوا في مرحلتي الدفاع الاستراتيجي والهجوم الاستراتيجي على تدمير القدرة البشرية للفرنج، وتحقيق الانتصارات في كل المعارك، الكبيرة منها والصغيرة، وبذل كل جهد مستطاع للحصول على أعداد كبيرة من الأسرى الفرنج للإفادة منهم في دعم الجهد الحربي، مما كان يسمح بالتالي بتوجيه مزيد من القدرة البشرية الإسلامية للحرب، علاوة على ما كانت تفيده عملية الحصول على الأسرى من فوائد في إجراء المبادلة مع مَن يقع مِن مجاهدي المسلمين أسرى في قبضة المسلمين أو إبادتهم، للانتقام من الفرنج فيما إذا أقدموا على إعدام أسرى المسلمين.

وتظهر بعد ذلك قضية الحروب الصليبية، وخاصة منها مرحلتها الأخيرة أو مرحلة التحرير، وهي في شكل تناوب بين الهدنة والحرب، بين الصراع السلمي والصراع المسلح، وقد يكون ذلك طبيعياً في كل حرب طويلة الأمد، حيث أنه

من المحال استمرار الصراع المسلح بوتيرة واحدة. ومن الملاحظ ما تميَّزت به مرحلة الهجوم الاستراتيجي الإسلامي، في عهد الظاهر بيبرس وبعده، من مميزات أهمها المعرفة الدقيقة لمراكز القوى في جبهة الفرنج الصليبيين داخل الإمارات الصليبية ذاتها، وفي علاقات هذه الإمارات مع مراكز القوى الخارجية في الغرب، واستثمار التناقضات بشكل مثير ورائع، مما كان يساعد قادة المسلمين على التحرك السياسي في إطار خدمة هدف الحرب، وفي إجراء أعمال الحرب وتنفيذها من خلال التحرك السياسي! ولقد كان التكامل في التحرك السياسي والعسكري من أول العوامل التي ضمنت للمسلمين انتصاراتهم الرائعة.

وهذا ما يفسر تقييد كل هدنة بين المسلمين وأعدائهم بمدة زمنية محددة؛ فقد كان المسلمون يعرفون بأنه من المحال تحقيق سلام دائم مع وجود الكيانات العدوانية الصليبية التي لم تتم إقامتها أصلاً إلا من أجل العدوان. ولهذا كانت عملية الهدنة ذات هدف محدد، وهو الاستعداد للحرب القادمة، وإعداد الظروف السياسية المناسبة لخدمة هذا الهدف. وفي الوقت ذاته، فقد كانت فترات الهدنة، أو فترات السلام المسلح، بمثابة اختبار للفرنج من أجل تقديم البرهان على زوال عدوانيتهم، إلا أنه كان من المحال توقع زوال هذه العدوانية، فكان لا بدَّ من الإجابة على كل عدوان بما يناسبه.

وهذا ما يميز مرونة الطرائق التي استخدمها قادة المسلمين في إطار الهدف النهائي، وهو التحرير وطرد الفرنج من بلاد الشام. ولعل من أبرز ما تميَّزت به مرحلة التحرير من مميزات هو التفتيت المعنوي المستمر للفرنج الصليبيين، مقابل دعم الروح المعنوية للمسلمين.

وظهرت هنا فائدة التواتر بين الهدنة والحرب؛ فقد كان قادة المسلمين يحرصون على الإفادة من كل هدنة لزيادة التلاحم بين قوات المسلمين وقياداتهم، مقابل إضعاف هذا التلاحم بين مراكز القوى في صفوف الفرنج الصليبيين، وتعتبر هذه الظاهرة من أبرز ملامح التحولات الاستراتيجية في الحروب طويلة الأمد، حيث تمارس نظرية «النسبية في القوى» دورها الأساسي؛ إذ إن تعاظم القدرة القتالية للمسلمين كان يقابله باستمرار تناقص القدرة القتالية للفرنج الصليبيين، ولا يعني ذلك بداهة عدم وجود تناقضات بين مراكز القوى الإسلامية، إلا أن الانتصارات ضد الفرنج ساعدت على زيادة القدرة الذاتية للمسلمين، وساعدت على إذابة التناقضات وصهرها في إطار

الهدف الكبير، ومقابل ذلك، كانت الهزائم المتتالية التي لحقت بالفرنج عاملاً ساعد على زيادة حِدَّة التناقضات وأسهمت بإبرازها.

وهذا ما يفسر حرص قادة المسلمين، في مرحلة التحرير خاصة، على تجنب المعارك الفاشلة، واتخاذ كل التدابير الممكنة لتحقيق النصر في كل معركة من المعارك، وحشد القوى والوسائط الضرورية لحسم الصراع المسلح في مصلحة المسلمين.

وهنا يعود ثمن الحرب ليمارس دوره في إطار العوامل المتشابكة والمعقدة للصراع، فقد كان الثمن الذي يدفعه المسلمون في معاركهم، أثناء مرحلة التحرير، أقلَّ بكثير من ذلك الذي يرغِمون أعداءهم على دفعه، سواء عن طريق تحرير المدن والقلاع والحصون التي كانت تحت حكم الفرنج الصليبيين أو عن طريق ما يكبدونه للعدو من خسائر بشرية فادحة.

ويظهر هذا الموقف بشكل مضاد تماماً للمرحلة الأولى من الحروب الصليبية، حيث كان المسلمون هم الذين يدفعون الثمن المركب للحرب، بانتزاع أراضيهم وتشريدهم وإبادتهم، ما كان له أثر سلبي على روح القتال لدى المسلمين، وهذا ما يبرز أيضاً أهمية الدور الذي مارسه قادة المسلمين خلال تلك الفترة من أجل القضاء على عوامل الهزيمة، والانتقال إلى مراحل النصر، وإحراز كل تلك التحولات عبر الصراع المرير الذي خاضته جماهير المسلمين على كل جبهات القتال المتباعدة جغرافياً والمتلاحمة عقائدياً ودينياً.

وتشكل القناعة النفسية بحتمية الانتصار في الحرب عاملاً أساسياً في التحريض على القتال، وبصورة خاصة في الحروب طويلة الأمد، ومن هنا يتركز جهد القادة والحكام في الحروب طويلة الأمد من أجل إقناع الجماهير بـ(إيديولوجية الحرب وعدالتها).

وليس من الغريب أن تصرف الكنيسة سنوات عديدة في تعبئة الجماهير نفسياً قبل إرسال كل حملة صليبية إلى بلاد الشام من أجل قتال المسلمين، إلا أن المسلمين بالمقابل لم يكونوا في حاجة لمثل هذه التعبئة؛ ذلك أن الجهاد في سبيل الله هو فرض على كل مسلم ومسلمة، وهو فرض عين، عندما تتعرض بلاد المسلمين للخطر أو العدوان... ولهذا كان واجب قادة المسلمين سهلاً في حشد القوات وتعبئتها، ولا يتطلب الأمر أكثر من تنظيم القدرات القتالية وتوجيهها وإدارة الحرب.

وصحيح أن مقاومة المسلمين في المرحلة الأولى من الحرب ـ مرحلة الدفاع الاستراتيجي ـ لم تكن على مستوى الهجمة الصليبية، إلا أن السبب في ذلك لم يكن قصوراً أو تقصيراً من جانب المسلمين بقدر ما كان نتيجة لتمزق القيادات العربية الإسلامية. وبرهنت مسيرة الصراع لهؤلاء القادة أنه لا مصلحة لهم ولا لشعوبهم في الإبقاء على مثل هذا التمزق، ولذا أخذ القادة في العمل التدريجي لتحقيق مبدأ وحدة القيادة، سياسياً وعسكرياً، ولسدِّ الثغرة التي أدت إلى الانتكاسات المريرة خلال المرحلة الأولى من الحروب الصليبية.

أما على مستوى المجاهدين في سبيل الله، فقد تزايد التلاحم عبر المعارك المستمرة، وهو التلاحم الذي ساعد قادة المسلمين على حشد القوات والوسائط بسهولة ويسر، ويظهر ذلك بوضوح، سواء عند تحريض المسلمين في حلب لتحرير اللاذقية بعد تحرير أنطاكية واستجابة السلطان قلاوون لذلك، أو عندما زحف السلطان الأشرف لتحرير عكا، حيث تدفقت جيوش حماة وحمص لتلتقي بجيش مصر ودمشق وليزحف الجميع من أجل تحرير عكا واقتلاع بقية الكيانات الصليبية من ديار المسلمين.

وتبقى الظاهرة المثيرة هي في الاقتران الصحيح بين تصميم المسلمين على تحرير بلادهم ومقدساتهم، وبين ممارساتهم العملية في مجال الإعداد للحرب والاستعداد لها، وقد ظهر ذلك بوضوح على امتداد صفحة الحروب الصليبية، سواء في مرحلة الدفاع الاستراتيجي أو في مرحلة الهجوم الاستراتيجي، قبل صلاح الدين وبعده. ولهذا، وعلى سبيل المثال، فقد كان تجهيز أدوات الحصار وإعداد المجانيق لاقتحام عكا قد تمَّ في مصر ودمشق، كما تم في حماة وحلب وغيرهما من حواضر المسلمين، مما يشير إلى وضوح هدف المسلمين من الحرب، ومما يبرهن على التصميم الكامل لدى كل جماهير المسلمين، وهو التصميم الذي برز على شكل منافسة في مجال الإعداد للحرب والاستعداد لها بكل القوى والوسائط المتوافرة.

وتعود القناعة النفسية بحتمية الانتصار لتمارس دورها فيما حدث من تحولات عبر الحرب طويلة الأمد؛ فقد أفاد الفرنج الصليبيون من انتصاراتهم الأولى لينشروا قناعاتهم حول حقهم في إقامة إمارات لهم وفي السيطرة على الأماكن المقدسة؛ غير أن المسلمين رفضوا هذه القناعات ولم يقبلوا بها وتمسكوا بمواقعهم وأخذوا في زيادة استعداداتهم القتالية واستنزاف قوة أعدائهم

من خلال كسب المعارك المتتالية، حتى إذا ما تحققت مرحلة التوازن الاستراتيجي انعكس الموقف، ولم يبق للفرنج الصليبيين من همٍّ سوى الاحتفاظ بمواقعهم، ولو أنهم استمروا في المحافظة على تسمية حاكم بيت المقدس حتى بعد تحرير القدس، وحتى بعد طرد الفرنج الصليبيين من بلاد الشام.

ومقابل ذلك تابع المسلمون فرض قناعاتهم، مما كان له أثر في زيادة قوة المسلمين المادية والمعنوية، وفي إضعاف قوة الفرنج الصليبيين المادية والمعنوية، ويتأكد ذلك من خلال سلوك الفرنج خلال المرحلة الأخيرة من التحرير. فإذا ما تمَّ استثناء المقاومة الضارية التي أظهرتها بعض الطوائف الدينية العسكرية للفرنج في عكا، فإن عملية التحرير كانت أشبه ما تكون بالمطاردة؛ إذ لم تكن تظهر قوات المسلمين أمام مدن الساحل المتناثرة حتى تسرع قوات الصليبيين إلى ركوب البحر متوجهة إلى قبرص، ومنها إلى حيث جاءت قبل أكثر من مائتي سنة.

وتثير قضية استمرار القتال واتصال الصراع في الحروب الصليبية سؤالاً بارزاً، وهو سبب عدم إفادة الفرنج الصليبيين من الظروف السليمة التي كانت تتوافر خلال فترات الهدنة للاستقرار بصورة ثابتة وإيجاد والوسائل للتعايش مع سكان البلاد المسلمين.

إن الإجابة على مثل هذا التساؤل تكمن في طبيعة التكوُّن الصليبي، فقد ضمت الحملات الصليبية نماذج متنافرة ذات أهداف متباينة، فبينما جنحت الأكثرية إلى الاستقرار والتعايش مع المسلمين، بقيت الطوائف الدينية العسكرية متصلبة في عدائها، محافظة على عدوانيتها، فكانت تعمل باستمرار على إثارة العدوان واختراق الهدنة، في كل مرة يتم فيها عقد هدنة، وكان بعض القادة الطامعين يركبون موجة التطرف في محاولة لتحقيق المزيد من المكاسب، فكان هذا التصلب يثير تصلباً مماثلاً في صفوف المسلمين ويؤكد قناعاتهم الثابتة بأنه من المحال تحقيق السلام إلا بزوال الكيانات الصليبية للفرنج.

وهكذا لم يكن رينالد شاتيون الذي اعتمد على الطوائف الدينية إلا نموذجاً للقادة الطامعين، الذين نجحوا في إثارة غضب صلاح الدين، وكانوا السبب المباشر في معركة حطِّين الخالدة[1].

---

(١) يمكن في هذا المجال العودة إلى الباب الأول (صلاح الدين الأيوبي)، حيث سبق إبراز دور =

وقد استمرت هذه الطوائف الدينية العسكرية بممارسة دورها في خلق مناخ عدم الاستقرار. ويبقى عامل عدم الاستقرار كافياً في الطبيعة العدوانية للحملات الصليبية ذاتها، فقد جاءت هذه الحملات لتحقيق هدف معين، ونتج عن ذلك نتائج مختلفة، أقلُّها إثارة غضب الجماهير الإسلامية، والعدوان على أرضهم ومقدساتهم، وكان من المحال على المسلمين قبول هذا الواقع، ثم جاءت المذابح لتزيد من عامل الغضب.

وتراكمت بعد ذلك أيضاً الممارسات العدوانية لتزيد من حجم المشاكل الناجمة عن العدوان الأول. ويظهر بوضوح أنه كان من المحال على الفرنج الصليبيين الاندماج مع العالم الإسلامي والانفتاح عليه بدون أن يتخلُّوا عن تعصبهم الصليبي، وبدون أن يهجروا إلى الأبد أساليبهم العدوانية، كما أن مثل هذا التحول سيحملهم على الخضوع للأكثرية الإسلامية. ولقد كان بالمستطاع تحقيق مثل هذا الاندماج، نظرياً على الأقل، لو لم يكن للمسلمين متل تلك الصلابة، ومثل ذلك الالتزام بدينهم وتعاليمه.

وعلى هذا، فإن قضية التعايش، التي طرحتها الصليبية فيما بعد، كانت بحاجة لتراجع أحد الطرفين عن مواقعه، ولم يكن المسلمون على كل حال مستعدين لمثل هذا التراجع، فكانت كل إثارة يقوم بها الفرنج تقابلها استجابة مناسبة من جانب المسلمين، ما أدَّى إلى استمرار الصراع وتطوره حتى وصل إلى نهايته الحتمية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الظاهرة ـ ظاهرة وجود مراكز متطرفة في الأنظمة العدوانية ـ هي بدورها قاسم مشترك في كل الحروب الاستعمارية ـ وفي الحروب طويلة الأمد خاصة ـ وإن استعراض تاريخ الثورة الجزائرية والثورات

= رينالد شاتيون والطوائف الدينية العسكرية في إثارة الحرب. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الطوائف الدينية تتشابه مع نظيرتها في الكيان الصهيوني، حيث تنقسم الفئات بين حمائم وصقور، متفقة في أهدافها ووسائلها ومختلفة في بعض ممارساتها. وتبقى الطوائف الدينية العسكرية في الكيان الصهيوني هي الأداة لتنفيذ الفكر الصهيوني، والوسيلة لإبراز التطرف عندما تكون هناك حاجة للتطرف من أجل ابتزاز المواقف السياسية والعسكرية من العرب، وكذلك من أجل خلق حقائق تكون هي المحرض لتجدد الصراع المسلح. وتعتبر هذه الظاهرة من جملة العوامل المدمرة للكيان الصهيوني بشرط أن يقوم العرب بالاستجابات المناسبة، تماماً على نحو ما كان عليه موقف المسلمين من الحروب الصليبية القديمة.

المماثلة تؤكد وجود هذه الظاهرة المتلاحمة بالتكوُّن العدواني ذاته، ويؤكد ذلك أن الحروب الصليبية قد حملت في جوفها، في تنظيمها وكياناتها، أسباب مصرعها، لكن هذا المصرع لم يكن ليتحقق في كل الأحوال لولا استجابة المسلمين الاستجابات الصحيحة والمضادة للعدوان.

ليست العوامل السابقة، أو الظواهر المشتركة، هي كل ما يمكن التعرض له في مجال الحروب الصليبية طويلة الأمد. وعلى كل حال يمكن تلخيص أبرز العوامل وفقاً لما سبق ذكره بما يلي:

١ ـ **مرور الحروب الصليبية القديمة بثلاثة مراحل أساسية، مثلها في ذلك مثل كل الحروب طويلة الأمد.** وهذه المراحل هي: مرحلة الهجوم الاستراتيجي للفرنج الصليبيين والدفاع الاستراتيجي للمسلمين (٤٩٣ ـ ٥٨٣هـ/ ١٠٩٩ ـ ١١٨٧م)، أي منذ استيلاء الفرنج على القدس حتى تحريرها من قِبَل المسلمين في عهد صلاح الدين الأيوبي. والمرحلة الثانية هي مرحلة التوازن الاستراتيجي (٥٨٣ ـ ٦٦٥هـ/ ١١٨٧ ـ ١٢٦٦م)، أي منذ تحرير القدس وحتى القضاء على المغول في عين جالوت، ثم تولي الظاهر بيبرس أمور المسلمين. أما المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التحرير، وتبدأ بالظاهر بيبرس وتنتهي بتحرير عكا، وفقاً لما تضمنه البحث في هذا الباب.

٢ ـ **توافر قناعة ثابتة، كالجبال، لدى المسلمين بحتمية انتصارهم النهائي على الفرنج الصليبيين، واستعداد المسلمين لبذل كل التضحيات من أجل تحقيق هذا النصر، وإعداد القوى والوسائط التي تتطلبها الحرب طويلة الأمد.**

٣ ـ **التكامل في استخدام وسائط الصراع السياسي والصراع المسلح، بحيث يؤدي هذا التكامل إلى استنزاف قدرة العدو المادية وإضعاف روحه المعنوية وإقناعه باستمرار أنه يخوض حرباً لا أمل له في كسب نتائجها، ويدخل في هذه الوسائل الإفادة من تناقضات مراكز القوى في الغرب، وإقناعها بفشل مشروعها الصليبي.**

٤ ـ الاعتماد على القدرة الذاتية قبل كل شيء لدحر العدوان الصليبي ومَن يحالفه، وذلك بتوحيد جهود المسلمين والإفادة من قدراتهم وإمكاناتهم، والتصميم على استخدام وسيلة الحسم في الصراع المسلح كوسيلة وحيدة يمكن لها تحقيق هدف الحرب، وذلك على نحو يقابل ذات الوسيلة التي كان يعتمد عليها الفرنج في إقامة كياناتهم، وفي ضمان بقاء هذه الكيانات واستمرارها،

وعدم الاعتماد على العامل السياسي ـ الهدنة ـ إلا من أجل إكمال الاستعداد للحرب، وإلا من أجل تطوير نتائج المعارك السابقة.

٥ ـ ظهور قيادات على مستوى قيادة العالم الإسلام في كل مرحلة من مراحل الحرب الصليبية طويلة الأمد. فقد جاء الزنكيون، فعملوا على امتصاص النتائج السلبية للهجوم الصليبي الاستراتيجي، وعملوا على تكوين القاعدة الصحيحة لمجابهة العدوان. ثم جاء الأيوبيون كإفراز مهَّد لظهوره الزنكيون، فتابعوا الطريق ذاته وقادوا التحولات الحاسمة عن طريق الصراع المسلح. وجاء المماليك بعد ذلك، فأفادوا من منجزات المراحل السابقة، وعملوا على قيادة المسلمين حتى تمَّ لهم الوصول إلى هدف الحرب، وهو إجلاء الفرنج الصليبيين عن بلاد الشام.

ويمكن التساؤل عن الموقف واحتمالاته، لو كان المماليك هم الذين حكموا المسلمين قبل الأيوبيين، أو كان هؤلاء قبل الزنكيين. إن ذلك يُبرز الدور الأساسي لجماهير المسلمين، الذين يمثلون تيار التاريخ، والذين احتملوا أعباء الحرب ومغارمها، وقَبِلوا كل ما تفرضه الحرب من تضحيات واستعدادات، ولا ينتقص ذلك بداهةً من دور القيادات الإسلامية التي أظهرت كفاءة عالية في مختلف مراحل الحرب طويلة الأمد.

ويظهر بعد ذلك أن انتصارات المسلمين في المراحل المختلفة للحرب طويلة الأمد، لم تكن إلا محصِّلة لالتقاء ثلاثة عوامل أساسية:

أولها: قوة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين والإيمان الراسخ بالإسلام ديناً للمجتمع الإسلامي وقاعدة للجهاد في سبيل الله.

وثانيها: جموع المسلمين الذين صهرهم الإسلام في بوتقة واحدة، من عرب وكرد وترك وفرس وأحرار ومماليك، كلهم انطلقوا معاً لحمل راية الإسلام ومجابهة العدوان الصليبي.

وأما ثالثها: فظهور قيادات على درجة عالية من الكفاءة والقدرة وتحمل المسؤولية.

وإذا كان الإسلام جاء فدفع العرب لحمل الرسالة إلى كل الشعوب، فقد جاءت هذه الشعوب بكياناتها وقياداتها لتدافع عن الإسلام ولترفع رايته، وليس الفضل بعد ذلك للعرب في البداية، ولا للشعوب الأخرى في النهاية بدحْر العدوان، وإنما يعود الفضل إلى جذوة الإسلام التي حرَّرت النفوس وأطلقتها لتحقيق مبادىء الحق والخير والعدل.

٢ ـ فن الحرب في مرحلة التحرير

ربما كان من الصعب تحديد ملامح مميزة لفن الحرب في مرحلة التحرير؛ إذ أن هذه الملامح لا تنفصل عن الملامح السابقة لها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الأعمال القتالية لم تكن بدورها أكثر من تطوير للأعمال التي سبقتها، ولكن الحقيقة الثابتة هي أن أعمال القادة في مرحلة التحرير تتشابه إلى حد بعيد في أساليبها وطرائقها.

ولعل من أبرز الملامح المميزة لفن الحرب أيام الحروب الصليبية هو اعتماد الفرنج الصليبيين على القلاع والتحصينات الثابتة واعتماد المسلمين على حرب الحركة، وخوض المعارك التصادمية، ولكن لا بدَّ هنا من ملاحظة ذلك التغيير الذي برز خلال مرحلة التحرير؛ ذلك أن القلاع والتحصينات كانت بالنسبة للفرنج بمثابة قواعد الانطلاق للهجوم والعدوان أثناء المرحلة الأولى من الحروب الصليبية، ولكن ما أن بدأت مرحلة التوازن الاستراتيجي حتى أخذ هذا الدور في التناقص، بحيث أن معارك التحرير قد حدثت في إطار أعمال التطويق والحصار لكل مدينة أو قلعة بمعزل عن المدن الأخرى.

وقد يكون لنقص القدرة البشرية لدى الفرنج دوره في إرغام الفرنج الصليبيين على الاحتماء بالتحصينات والدفاع من خلف الأسوار، وقد يكون أيضاً لتدهور الروح المعنوية لدى الفرنج وانعدام الروح الهجومية، دوره أيضاً في تحديد حرية العمل العسكري للفرنج الصليبيين وإلزامهم بالدفاع من وراء الحصون والقلاع، وقد تكون هناك أسباب أُخرى، مثل تفوق المسلمين بالقوى والوسائط. المهم في الأمر هو أن المسلمين قد طوَّروا أساليب حرب الحركة، في حين تقهقر المفهوم الدفاعي للفرنج بحيث اقتصر على أعمال الدفاع الثابتة المحرومة من حرية العمل والمجردة من المبادأة.

ولقد عانى المسلمون كثيراً من اقتحام المواقع الدفاعية، ولهذا يظهر بوضوح قيام الظاهر بيبرس بتدمير القلاع والحصون التي عمل على تحريرها، وجاء بعد ذلك قلاوون يتَّبع الأسلوب ذاته. وعندما تولى الأشرف خليل تحرير ما بقي من البلاد والقلاع عمل على تطوير هذا الأسلوب، فحوَّل مدن الساحل جميعها، وقلاع السهل والجبال إلى خرائب متناثرة، مُحوِّلاً بذلك الصفحة الجغرافية لبلاد الشام إلى أرض محروقة تماماً، ومحرومة من وسائل العيش وسبل الحياة.

ولقد ظهر من خلال عرض سيرة القادة الثلاثة «بيبرس وقلاوون والأشرف» ما

كان للقلاع والحصون من دور كبير في إعاقة مخططات المسلمين، ولكن على الرغم من ذلك، فقد برهنت مسيرة الأعمال القتالية عن ضعف «التحصينات الدفاعية وحروب الثبات» أمام وسائل حرب الحركة؛ إذ أن أمنع الحصون، بما فيها حصون عكا، لم تلبث أن تهاوت تباعاً وتساقطت بسرعة كبيرة أمام حرب الحركة.

وهنا يمكن العودة إلى تجارب المسلمين السابقة مع حرب القلاع، فقد امتنعت حصون الكرك على صلاح الدين الأيوبي مرات عديدة، وصمدت حصون القدس في وجه هجمات المسلمين إلا أنه ما إن بدأت مرحلة التحول الاستراتيجي بمعركة حطين، حتى فقدت الحصون أهميتها، وحتى ضَعُفت إرادة القتال لدى الحاميات المدافعة عن الحصون والقلاع والمدن المحمية بالأسوار.

ويعتبر ذلك تأكيداً لمعطيات الحرب الحديثة التي لا تعتبر التحصينات إلا مرحلة لامتصاص ضربات العدو والانتقال بعد ذلك إلى الهجوم، أو حرب الحركة، وهو ما يسمى أيضاً بالدفاع المَرِن.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن صمود القلاع والتحصينات في وجه المسلمين، خلال المرحلة الأولى من الحروب الصليبية، وفشل هذه القلاع ذاتها في احتمال ضربات المسلمين خلال المرحلة الأخيرة من الحروب الصليبية، إنما يبرهن على ارتباط القدرة القتالية بالروح المعنوية للمقاتلين وكفاءتهم القتالية أكثر من ارتباط هذه القدرة بالقلاع والتحصينات، ويبرهن ذلك أيضاً أن أمنع التحصينات وأقوى القلاع لا يمكن لها الصمود أبداً في وجه أعمال الحصار، عندما تتوافر للقوات القائمة على الحصار القوى والوسائط الضرورية، وعندما تكون قوات الهجوم مصمِّمة على حسم الصراع لمصلحتها، مهما بلغ حجم التضحيات، ومهما عَظُم الجهد المبذول من أجل إحراز النصر.

يمكن بعد ذلك ملاحظة دور القادة في مرحلة التحرير من خلال تطبيقهم لأسس الاستراتيجية العليا، ولكن المثير قبل كل شيء هو وصول الظاهر بيبرس للحكم بعد مؤامرة اغتيال المظفر قطز، بطل معركة عين جالوت، ثم وصول السلطان قلاوون للحكم بعد عزل أبناء الظاهر بيبرس، وهذا يعني انتهاك الشرعية التي كانت متَّبعة في تلك الحقبة الزمنية. ولعل الأشرف خليل هو الوحيد الذي ورث الحكم بصورة شرعية، واستطاع متابعة الحكم والاضطلاع بأعبائه، بعد القضاء على الفتن الداخلية.

وتبقى القضية المثيرة لا في وصول هؤلاء الحكام إلى السلطة، وإنما في طريقة انقياد الجماهير في كل بلاد المسلمين ـ الشام ومصر خاصة ـ وليس ذلك إلا دليلاً على ما توافر لهؤلاء القادة من شروط الحكم، وأولها الكفاية والحرية والعقل السليم، كما يعتبر ذلك أيضاً دليلاً ساطعاً على أن جماهير المسلمين كانت تسير في تيار التحرير غير ملتفتة كثيراً، وغير معنيَّة كثيراً بالنزاع على مراكز السلطة بقدر اهتمامها بمن يحقق لها تطلعاتها، ويضمن لها تحقيق أهدافها. وعلى هذا، فإن توجُّه الحكام الثلاثة في فترة التحرير إلى قيادة الجيوش بمجرد استلامهم للسلطة، وبذلهم لكل جهد مستطاع، ليس إلا استجابة صحيحة لما كان يتفاعل في نفوس جماهير المسلمين.

ويتناقض ذلك نسبياً مع مواقف الحكام في المرحلة الأولى من الحروب الصليبية، حيث كان الصراع بين مراكز القوى مميَّزاً بالضراوة والعناد، ويظهر ذلك بصورة خاصة في عهد صلاح الدين، الذي قضى شطراً من حياته في الصراع الداخلي، مما يؤكد أن جماهير المسلمين لم تكن، بعد، قد ارتفعت إلى مستوى المسؤولية، أو أنها، في أحسن الأحوال، كانت مشتتة في ولاءاتها لمن يستطيع تحقيق أهدافها؛ لا سيما وأن الانتكاسات كانت أكثر من الهزائم، ويبرهن ذلك على أن من طبيعة الحرب طويلة الأمد، المرور بمرحلة التشتُّت إلى أن تكتسب الجماهير وقياداتها الصلابة اللازمة عبر الصراع المرير والمستمر، إلى أن تصل بعد ذلك إلى مرحلة الاستعداد الكامل لمجابهة التحدِّيات الخارجية والداخلية (والداخلية قبل الخارجية)، وتلك هي إحدى السِّمات البارزة في كل حرب طويلة الأمد.

وليست القضية على كل حال هي قضية مفاضلة بين قادة مرحلة التحرير «بيبرس وقلاوون والأشرف»، وبين قادة المرحلة الأولى «الزنكيين ثم الأيوبيين»، وإنما هي قضية إبراز للتكامل خلال مراحل الحرب المختلفة، وهو تكامل على كافة المستويات، بداية من مستوى المجاهدين في سبيل الله، ونهاية بقياداتهم على أرفع المستويات.

ويُبرِز ذلك أيضاً السِّمة الأساسية للحروب طويلة الأمد، والتي تعتبر حروباً جماهيرية (شعبية) بالدرجة الأولى، وحرباً عقائدية مذهبية؛ إذ أنه من المحال تحمُّل أعباء الحروب لفترات طويلة بدون وجود محرِّض أساسي يستثير الحماسة ويحرِّك مشاعر الغضب، وقد برهنت التجارب، عبر التاريخ، أنه ما من محرِّك

يمكن له إيقاظ الجماهير كالمحرك الديني، الذي يدفع إلى بذل كل التضحيات الممكنة من أجل رفع المثل العليا التي حملتها رسالة الإسلام[1].

وهنا يظهر دور القادة في دعم عامل التحريض أو إضعافه؛ إذ إن من شأن النصر تعزيز عامل التحريض الديني، كما أن الهزيمة أو الفشل تضعفان منه، وقد استطاع قادة مرحلة التحرير إدارة الحرب بكفاءة عالية، فساعدهم ذلك على استثارة حماسة الجماهير وحشدها بسهولة ويُسْر، فكان في ذلك بعض عوامل النصر.

وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أنه كان من المحال الوصول إلى مثل هذه النتائج لولا صدق حكام المسلمين وإخلاصهم، الأمر الذي ضمن نجاح التفاعل بين القيادات والجماهير على حدٍّ سواء.

وفي مجال السياسة العليا، أو السياسة الاستراتيجية، يمكن الإشارة إلى أهم ميزة توافرت للقيادة الإسلامية في مرحلة التحرير، ألَا وهي وحدة القيادة السياسية والعسكرية. وصحيح أنه حدثت بعض المتاعب الداخلية والتمزق على مستوى القيادات في بداية كل عهدٍ من عهود القادة الثلاثة، بيبرس وقلاوون والأشرف خليل، إلا أن هؤلاء القادة استطاعوا تصحيح الموقف بسرعة، وسيطروا على الوضع الداخلي بقوة، فاستطاعوا بذلك ممارسة دورهم في إطار وحدة القيادة سياسياً وعسكرياً.

ويقابل ذلك وبشكل مثير تمزق في وحدة القيادة السياسية والعسكرية لدى الفرنج الصليبيين، بحيث اعتبر، على سبيل المثال، كونت طرابلس، ومِن قبله كونت أنطاكية واللاذقية، مستغلين في قياداتهم. وعلاوة على ذلك، فقد كانت عكا تابعة لملك قبرص الذي كان بعيداً في كثير من الأحيان عن مسرح الأحداث (مسرح العمليات)، وكانت إمارات الفرنج عموماً مرتبطة بخيوط بعيدة في

---

(١) تظهر هذه الصورة بشكل واضح جداً في استخدام الصهيونية للعقيدة الدينية اليهودية من أجل استخدام كل القوى اليهودية وزجها في الحرب، لخدمة الهدف الصهيوني والفكر الصهيوني الذي يحقق للأمبريالية أهدافها، وللاستعمار أغراضه. وكذلك الأمر بالنسبة لمعظم الحروب المتفجرة، في إيرلندا والفيليبين والحبشة وقبرص، وغيرها من البؤر المتفجرة التي يتم تحريضها تحت ذريعة دينية من أجل إثارة الحماسة والوصول إلى هدف الحرب. وقد يكون من المحال بالنسبة للصراع العربي ـ الصهيوني، تصور إحراز النجاح إلا بوجود محرض ديني لدى الخصم، مع إضعاف هذا المحرض لدى العرب.

الغرب، الذي كان غارقاً في انقساماته وصراعاته. وأفاد قادة مرحلة التحرير من هذه الانقسامات إلى أبعد الحدود، ولم يكن تحرير طرابلس إلا نتيجة لمثل هذه الانقسامات التي لم تكن لتسمح بتخطيط بعيد المدى لمجابهة احتمالات المستقبل.

وعندما أدرك قادة الفرنج في عكا خطورة الموقف، وحاولوا تشكيل قيادة سياسية عسكرية واحدة؛ كانت مسيرة الأحداث قد تجاوزتهم وأصبح قادة المسلمين «الأشرف خليل» مسيطراً سيطرة تامة على الموقفين السياسي والعسكري.

ويمكن ملاحظة عكس هذا الوضع تماماً في المرحلة الأولى من الحملات الصليبية، حيث كان قادة الفرنج الصليبيين يعملون في إطار قيادة سياسية عسكرية واحدة، على الرغم من الاختلاف الكبير في تكوينهم، وعلى الرغم من اختلاف أهدافهم، وكانت الحماسة للحرب عاملاً مساعداً في فرض وحدة القيادة السياسية والعسكرية التي أمكن لها حل التناقضات فيما بينها على حساب ما كان يتمُّ اكتسابه من أرض المسلمين وبلادهم، هذا في حين كان قادة المسلمين في حالة من التمزق الشديد؛ لا سيما في مجال الخلاف العقائدي، بين السنَّة في بغداد والزنكيين من جهة، وبين الفاطميين في مصر من جهة أُخرى، وكان انتصار صلاح الدين في القضاء على حكم الفاطميين هو بداية التوحيد المذهبي الذي حل التناقضات الجوهرية.

ولم يبق هناك مجال للاختلاف في النوازع الشخصية والاجتهاد حول طرائق الصراع مع الفرنج والمنافسة بين حكام المسلمين فيمن هو أكثر كفاءة وأكثر قدرة لقيادة جيوش المجاهدين في سبيل الله، ويبرهن ذلك على أن جماهير المسلمين وقياداتهم قد أفادوا من تجاربهم في الصراع مع الفرنج الصليبيين خلال كل مرحلة من مراحل الصراع؛ إذ ليس من المعقول، أو المقبول، التسليم بأن مجموعة تلك التحولات قد حدثت خلال مائتي عام بصورة عفوية، أو نتيجة بروز قادة على درجة عالية من الكفاءة، بل إن الأمر المقبول والذي تؤيده مجموعة كبيرة من الشواهد، هو أن هذه التفاعلات وتلك التحولات لم تكن إلا نتيجة نقد ذاتي مستمر، **مارس فيها خطباء المساجد وفقهاء المسلمين وعلماؤهم دوراً غير قليل.**

ولم يكن هؤلاء إلا ضمير جماهير المسلمين وألسنتهم الناطقة بالحق

والصدق، ولعل خطبة إمام دمشق محيي الدين بن الزكي على منبر القدس يوم تحريرها[1]، وكذلك ما سبق عرضه من استثارة المسلمين للسلطان قلاوون من أجل تحرير اللاذقية (تجار حلب)، وكذلك أيضاً ما سبقت الإشارة إليه في مجال اعتماد قلاوون على إفتاء مشايخ القاهرة لتحرير عكا، هي بعض الشواهد المتوافرة، والتي تؤكد دور جماهير المسلمين في عملية النقد الذاتي وإجراء التحولات الحاسمة عبر الصراع المرير في الحرب طويلة الأمد.

ويمكن تلخيص هذه التحولات بأن المسلمين تعلَّموا من تجاربهم وأفادوا من أخطاء الفرنج الصليبيين، وأن هؤلاء بالمقابل قد أخذوا عن المسلمين أخطاءهم، ولم يتعلموا من تجاربهم مع المسلمين، فكان في ذلك نصر المسلمين وهزيمة أعدائهم، وأبرزها أهمية الوحدة القيادية في مجال السياسة العليا.

وتبقى هناك مجموعة من الأُسس الاستراتيجية التي برزت في أعمال قادة التحرير الثلاثة (بيبرس وقلاوون والأشرف)، ولعل من أهمِّها استراتيجية الحرب التشتيتية، واستراتيجية الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، واستراتيجية الهجوم أو التقرب غير المباشر، وتتلاحم هذه الاستراتيجيات وسواها في هدف الحرب، فترسم خطوط التحرك السياسي وتحديد أساليب الصراع المسلح.

وتظهر الحرب التشتيتية بأوضح صورة لها من خلال تحرك قوات المسلمين فوق ميادين القتال المتباعدة في وقت واحد. وعلى سبيل المثال، فبينما كان الظاهر بيبرس يقود عملياته في فلسطين لتحرير صفد ومجموعة القلاع في الجليل، كانت قوات المسلمين بقيادة قلاوون تهاجم حصنَي القلعة وحالبة على محور طرابلس، ثم إذا بهذه القوات تتحرك نحو الشمال لتلتقي بجيش حمص، بقيادة الأمير المنصور، لتهاجم إمارة أرمينية وتدمرها بسبب تعاونها مع المغول.

وفي عهد السلطان قلاوون أغار المغول على شمال بلاد الشام ووصلوا مدينة حمص، وقامت قوات المسلمين بهزيمة المغول. وأعقب ذلك قيام قلاوون بتحرير حصن المرقب، ثم أعقب ذلك بعد سنتين بتحرير اللاذقية وطرابلس مع استمرار تحرير المناطق الداخلية.

وفي عهد الأمير الأشرف خليل، مضت جيوش المسلمين في كل اتجاه

---

(١) خطبة الإمام محيي الدين بن الزكي ـ الروضتين ـ أبو شامة، (ص٣٢٠ ـ ٣٤٠).

لتقتلع، وفي وقت واحد، مجموعة الكيانات الباقية للفرنج الصليبيين، وقد أدى ذلك إلى حرمان الفرنج الصليبيين من تنسيق التعاون فيما بينهم، وحرمانهم بالتالي من حرية العمل السياسي وحرية العمل العسكري.

وهنا يمكن الإشارة إلى الأسلوب الذي اتَّبعه قادة المسلمين للحد من حرية العمل العسكري، والذي يتلخص بإنزال العقاب الصارم بكل مَن يتعاون مع المغول (التتار)، وبكل من يخترق اتفاقات الهدنة، وهذا ما دفع الظاهر بيبرس لمهاجمة أرمينية وتدميرها، وجاء بعد ذلك قلاوون ليُجْهِز على بقية إمارة أنطاكية الصليبية، ثم جاء الأشرف فأنزل العقاب بكل الصليبيين وحلفاء المغول، دفعة واحدة.

وكان إنزال العقاب الصارم بالمتعاونين مع المغول أو الذين لا يلتزمون بشروط الهدنة أمراً كافياً لإدخال الرعب في وسط قيادات الفرنج، ما أدَّى إلى حرمان أمراء الكيانات وملوكها من كل تنسيق للتعاون فيما بينهم وخوض معاركهم بصورة مستقلة، ومنفصلة بعضها عن بعض، ما ضمن لقادة المسلمين، بالتالي، القدرة على حشد القوى والوسائط لحسم الصراع المسلح في كل موقع، وفي كل مدينة تتعرض للهجوم.

ويظهر واضحاً أن وصول قادة العرب المسلمين للإفادة من حرية العمل السياسي وحرية العمل العسكري لم يكن أكثر من محصِّلة لالتقاء مجموعة الاستراتيجيات التي سبقت الإشارة إليها، وهذه الاستراتيجيات ذاتها هي التي ساعدت القادة في بحثهم عن النصر؛ إذ من الواضح أن النصر كان حليفاً لمجموعة الأعمال القتالية التي خاضها قادة مرحلة التحرير (بيبرس وقلاوون والأشرف خليل).

أما في مجال تطبيق استراتيجية الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، فمن الواضح أن قادة مرحلة التحرير قد حرصوا قبل كل شيء على الاستناد إلى قاعدة جماهير المسلمين الموحدة في بلاد الشام ومصر، قبل القيام بأي عمل خارجي (ضد الفرنج الصليبيين)، ولم يكن ذلك إلا نتيجة للخبرات المتوافرة عبر مسيرة الصراع الطويلة والشاقة. فقد عمل الزنكيون، ومنذ البداية، على ترسيخ جذور هذا المبدأ وإبراز أهميته، وجاء بعد ذلك الأيوبيون فكانت انتصاراتهم في معظمها ثمرة لهذا المبدأ أو الاستراتيجية، التي ساعدت على حشد القوى والوسائط الضرورية من أجل تصعيد الصراع المسلح. وعلى هذا، فإن جهد

مرحلة التحرير لتطبيق هذه الاستراتيجية لم يكن إلا تأكيداً لأهمية الأسس الاستراتيجية التي ساعدت على تحقيق الانتصارات المتتالية.

ويبرز ذلك نقطة حاسمة، وهي «**التعلم من الحرب**»؛ إذ من المعروف بأن تكوين الجيوش وتنظيم قياداتها في تلك الفترة لم يكن إلا مجالاً لمن يتنافسون على القيادة ممن تتوافر فيهم الكفاءة القيادية العالية، وممن ينجحون في الإفادة من خبرات الحروب وتجاربها، فكانت المعارك المستمرة، هي المدرسة الميدانية الحقيقية لتعلم الحرب على كافة المستويات، ويصبح من البدهي، نتيجة لذلك، أن تبرز مجموعة كبيرة من القادة على كل المستويات ممن تتوافر لهم الخبرة القتالية والكفاءة القيادية العالية.

وتبقى الظاهرة المثيرة هي في قدرة المسلمين، مقاتليهم وقياداتهم، على التعلم من تجارب الحرب أكثر مما استطاع الوصول إليه مقاتلو الفرنج وقادتهم باعتراف مؤرخي الفرنج وكتّابهم، ويمكن اعتبار ذلك مؤشراً في مجال تفوق المسلمين عسكرياً، وانخفاض القدرة المقابلة لدى الفرنج؛ إذ أن التعلم من الحرب يتطلب قبل كل شيء تحليلاً موضوعياً وعلمياً، لعوامل النصر والهزيمة، مع إجراء تقويم شامل لمعطيات الصراع، والعمل على التقويم الذاتي (أو النقد الذاتي) لكل مرحلة من مراحل الصراع المسلح. ويدخل في عملية التقويم اختيار الوسائل المناسبة للصراع على مستوى العمليات، وفي مجال تطبيق الأساليب التعبوية التكتيكية، وقد ظهر ذلك كله في عمليات الحصار والتطويق والاقتحام، خلال مرحلة التحرير.

وتبقى استراتيجية الهجوم غير المباشر (التقرب غير المباشر) من أبرز الاستراتيجيات التي طبَّقها قادة مرحلة التحرير (بيبرس وقلاوون والأشرف خليل)، وقد أخذت هذه الاستراتيجية، وفقاً لما أبرزته مسيرة العمليات، شكل مسيرات طويلة تبدأ من أقصى الشمال (أرمينية وقليقية) وتنتهي بأقصى الجنوب، حيث بقايا الإمارات الصليبية في فلسطين، مما وضع الفرنج الصليبيين تحت التهديد الدائم، وانعكس ذلك على الروح المعنوية لمقاتلي الفرنج الصليبيين وقادتهم الذين أخذوا جميعاً في التماس الطرائق التي تساعدهم على تجنب الاشتباك مع المسلمين وعدم الدخول معهم في معارك جبهية تظهر لهم نتائجها، وهي مقرَّرة لمصلحة المسلمين مسبقاً.

ولقد ارتبطت هذه التطورات بأساليب حرب الحركة، التي سبق الحديث

عنها، حيث كانت قوات المسلمين تتحرك كالسيل الجارف الذي يقتلع كل ما يصادفه من عقبات. فإذا ما جابه السيل عقبة تجمَّع حولها حتى يتم له اقتلاعها ليمضي بعد ذلك في مرونة ويسير نحو الأهداف الصغرى، وتكون مجموعة التحركات أشبه ما تكون باستثمار النصر بعد المعركة الظافرة.

وتعود الحقيقة الساطعة لتبرز مرة أخرى بشكل قوي من خلال التشابه بين أعمال قادة التحرير الثلاثة (بيبرس وقلاوون والأشرف)، فقد كانوا إفرازاً من إفرازات المخاض العميق الذي عانته الأُمة الإسلامية في تلك الفترة التاريخية.

ويمكن بعد ذلك إيجاز أبرز الاستراتيجيات التي ميَّزت أعمال قادة مرحلة التحرير بما يلي:

١ ـ وحدة القيادة سياسياً وعسكرياً في معسكر المسلمين مقابل تمزق هذه القيادة في معسكر الإفرنج، وهو الأمر الذي يناقض تماماً ما كان عليه موقف المعسكرين المتصارعين خلال المرحلة الأولى من الحروب الصليبية.

٢ ـ حرية العمل السياسي والعسكري التي توافرت لقادة مرحلة التحرير، والتي كانت نتاجاً للتحولات الكبرى التي رافقت مسيرة الحروب الصليبية، كما كانت نتاجاً للجهود الرائعة التي بذلها قادة التحرير من المسلمين.

٣ ـ الاعتماد على قاعدة قوية ومأمونة في الشام ومصر، الأمر الذي ضمن لقادة التحرير من أجل حشد القوات والوسائط الضرورية للحرب، وإحراز التفوق الساحق في المكان والزمان المناسبين لكل معركة.

٤ ـ تطوير وسائل حرب الحركة، وخوض الصراع على امتداد الصفحة الجغرافية لبلاد الشام، مما دفع الفرنج لخوض معارك دفاعية صلبة من وراء الأسوار والتحصينات، وبدون أي تنسيق للتعاون فيما بين إمارات الصليبيين بعضهم مع بعض، الأمر الذي ضمن لقادة مرحلة التحرير حسم الصراع المسلح لمصلحتهم.

٥ ـ كان لاستراتيجية التقرب غير المباشر واستراتيجيات الحروب التشتيتية دورها الحاسم في إقناع قادة الفرنج الصليبيين ومقاتليهم بعدم جدوى مقاومتهم، الأمر الذي حملهم في كثير من الأحيان على البدء في الجلاء والتخلي عن مواقعهم بمجرد ظهور قوات المسلمين عند أفق المعركة.

٦ ـ وأظهر قادة المسلمين في مرحلة التحرير كفاءة عالية في إدارة الحرب، وفي البحث عن النصر، وفي التصميم على بلوغ الهدف، ويؤكد ذلك عدم

تعرُّض المسلمين لأية انتكاسة أو هزيمة خلال مرحلة التحرير، كما يؤكد ذلك التطبيق الماهر لمبادىء الحرب في كل المراحل المتعاقبة للمعارك التي حفلت بها تلك المرحلة التاريخية.

٣ ـ مبادىء الحرب وإدارتها

تظهر الكفاءة القيادة العالية لقادة مرحلة التحرير، من خلال تطبيقهم الرائع لمبادىء الحرب، وكثيراً ما تَرِد في سيرة الظاهر بيبرس عبارة «وظهر مباغتة أمام عكا، أو أنطاكية أو في أرمينية»، ويتكرر مثل ذلك في سيرة السلطان قلاوون والأشرف خليل، **حيث كان للمباغتة دورها الأساسي والحاسم في تطوير الأعمال القتالية، وفي تنفيذ عملياتها خلال تلك الفترة.** والأمر الواضح هو أن هذه المباغتة لم تكن بسيطة في تكوينها، وإنما كانت مباغتة استراتيجية، ومباغتة على مستوى العمليات في كثير من الأحيان ما يشير إلى درجة التعقيد الكبيرة التي وصل إليها مستوى الأعمال القتالية في تلك المرحلة.

ولقد اعتمدت المباغتة على ما تظهره سيرة قادة التحرير الثلاثة على مجموعة من المعطيات التي باتت معروفة تماماً للقادة، ومنها على سبيل المثال:

١ ـ حشد القوات بالكثافة المناسبة لحجم العمليات.

٢ ـ اتخاذ ترتيبات الحيطة الضرورية لضمان أمن القوات، ويتأكد ذلك من خلال تنفيذ مجموعة الأعمال القتالية بدون أن تتعرض قوات المسلمين للمباغتة.

٣ ـ إجراء التحركات بصورة سريعة لا تسمح للعدو بوضع المخططات المضادَّة، وتنفيذها بصورة ناجعة.

٤ ـ اختيار المكان والزمان المناسبين لتنفيذ العملية القتالية.

وهنا لا بد من القول إن العلاقة بين الطرفين المتصارعين (المسلمين وأعدائهم) أصبحت، بحكم استمرار الصراع، علاقة مكشوفة في كثير من الأحيان، بحيث كان للطرفين جواسيسهم وأنصارهم على مختلف المستويات، وكان هؤلاء يرسلون بمعلوماتهم إلى الأعداء في الوقت المناسب (علاقة قائد الفرسان بدر الدين بكتاش الفخري بمقدم الداوية وليم بوجيه، وإنذاره له بتحرك المسلمين عند الاستيلاء على طرابلس وتحريرها، ثم قيام المسلمين بتحرير عكا بعد ذلك).

ولكن المثير في الأمر هو عدم إفادة الفرنج الصليبيين من الإنذار المبكر، ويؤكد ذلك نقطتان وهما:

١ ـ إن مجموعة التدابير الأمنية التي كان يتخذها قادة التحرير قد أقامت ستاراً من الشك في موضوع المعلومات الواردة عن طريق العملاء (الجواسيس).

٢ ـ إن الموقف الداخلي على جبهة الفرنج، لم يعد قادراً على مجابهة التطورات المقابلة على جبهة المسلمين، ولم يبق أمام قوات الفرنج وقياداتها سوى الاستسلام لمصيرها.

ويبرز ذلك الحقيقة الأساسية، وهي أن النجاح في تطبيق مبادىء الحرب، إنما يرتبط بالمحصِّلة العامة لعوامل الصراع؛ إذ كان من المحال أن تأخذ المباغتة أبعادها المناسبة، لو لم تتم التحولات العامة في السياسة الاستراتيجية ـ على نحو ما سبق عرضه ـ والأمر مماثل بالنسبة لبقية مبادىء الحرب التي تشكل نسيجاً متلاحماً فيما بينها من جهة، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالاستراتيجية وأسسها، من جهة أخرى.

وهكذا، فإن التحولات على مستوى الاستراتيجية، والانتقال من مرحلة التوازن الاستراتيجي إلى مرحلة الهجوم الاستراتيجي للمسلمين قد ساعد قادة التحرير على تطبيق مبادىء الحرب بشكل رائع.

ولا ينتقص ذلك، في كل الأحوال، من كفاءة قادة مرحلة التحرير؛ إذ أن نجاحهم على المستوى الاستراتيجي، وعلى مستوى العمليات لم يكن إلا ثمرة لتقويمهم الصحيح للمواقف، وتقديرهم السليم للتحولات الحاسمة في مسيره الصراع، على جبهتي الأصدقاء والأعداء، ثم الخروج من ذلك كله بحساب متوازن ودقيق لمتطلبات كل معركة من المعارك وحشد القوى والوسائط الضرورية لها.

وكان للمبادأة في أعمال قادة التحرير دورٌ لا يقل عن دور المباغتة؛ إذ يظهر اهتمام هؤلاء القادة في عدم إتاحة الفرصة أمام قادة الفرنج الصليبيين، وأمام قادة المغول للقيام بأعمال تؤثر على مخططاتهم، ولعل هذا ما دفع بيبرس إلى مهاجمة أرمينية، لإخضاع المغول وإرغامهم على التحرك بما يتوافق ومخططاته، وهذا ما دفع بيبرس أيضاً إلى مهاجمة الفرنج باستمرار لحرمانهم من المبادأة. وجاء قادة التحرير بعد ذلك «قلاوون والأشرف»، فطبَّقا المبدأ ذاته، حرصاً على

إمساك المبادأة باستمرار، وذلك بفرضهما المعركة في الزمان والمكان اللذين يتم اختيارهما.

ولم تكن المبادأة عند قادة مرحلة التحرير، تقتصر على فرض المعركة فقط على العدو، ولم تكن أيضاً تقتصر على حرمان هذا العدو من حرية العمل والمبادأة، وإنما كانت تتجاوز ذلك إلى تقنين حجم الصراع وتحديد مسرح عملياته، بل كان الأمر يتجاوز ذلك أيضاً عند تحديد حجم القوات المعادية في المعركة عن طريق إلزام الأعداء بشروط الهدنة، ما كان يفرض على هؤلاء عدم التدخل، وهذا مما كان يضمن بالتالي تحديد الحجم الحقيقي لقوات العدو التي سيتم فرض المعركة عليها. وهكذا سارت معارك التحرير بسهولة ويسر على ضوء المعرفة الواضحة تماماً لقدرات العدو وإمكاناته وطرائق عمله.

ويبقى مبدأ الإمداد الإداري للقوات من أهم المبادىء التي برزت في أعمال قادة التحرير، ولعل مراجعة الاستعدادات لمعركة عكا تؤكد هذه الحقيقة. فقد ذكرت المصادر التاريخية ما سبق ذكره، والذي يمكن إعادته على سبيل المثال، وفيه: «أكمل السلطان الأشرف الاستعداد حتى وصل إلى مرحلة بالغة الدقة، وجمع آلات الحصار من جميع أنحاء البلاد الإسلامية، وبلغت أمتعة الجيش عند خروجه من «حماة» من الثِّقَل ما جعله يستغرق شهراً في تحركه إلى عكا... وكان لا بدَّ للقوات المتحركة من شمال بلاد الشام أن تتوقف قليلاً أمام حصن الأكراد من أجل نقل عرادة ضخمة اسمها المنصورة، بالإضافة إلى مائة قطعة أخرى من أدوات الحصار، التي كان قد تمَّ صنعها في دمشق والقاهرة. وكان مع الجيش أيضاً عرادة كبيرة أخرى اسمها «الغاضبة»، ومجانيق اشتهرت باسم «الثيران السوداء»، والتي كانت أضعف وزناً ولكنها من طراز بالغ القوة والتأثير».

وتبرز هذه المقولة مجموعة من الحقائق، لعل أبرزها:

١ ـ اعتماد المسلمين على قوتهم الذاتية قبل كل شيء، وإعداد متطلبات الحرب بإمكاناتهم، فانتشرت المصانع الحربية في كل المدن الإسلامية لتأمين وقود الحرب، وصنع نماذج مختلفة من المجانيق ذات الأهداف المتباينة والقدرات المتنوعة. ويدخل في مجال الإعداد للحرب أيضاً والاستعداد لها، تدريب القدرة البشرية الاختصاصية للاضطلاع بالأعباء والواجبات المختلفة، ومثال ذلك أيضاً تدريب الأعداد الضخمة من النقَّابين «المهندسين» لتدمير أسوار عكا.

٢ ـ التنسيق في إدارة الحرب على المستوى الاستراتيجي الشامل في بلاد الشام ومصر، وحشد المتطلبات الأساسية للحرب ـ الإمداد الإداري ـ من كل أنحاء العالم الإسلامي.

والأمر الواضح هو أن تنظيم موضوع الإمداد الإداري لم يكن من جهد قائد واحد أو حاكم فرد، وإنما كان نتيجة تضافر مجموعة من الجهود خلال عهود متتالية؛ إذ من المحال تصور توافر كل الإمكانات بصورة دائمة بدون تنظيم مستمر، ويتوافق ذلك مع ما سبق عرضه من أن التصميم الأساسي للحرب طويلة الأمد قد اعتمد قبل كل شيء على القاعدة الواسعة لجمهور المسلمين.

ولم يكن من الصعب بعد ذلك على قادة المسلمين حشد كل الإمكانات المتوفرة وزجها في المعركة. وهنا قد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند ظاهرة الإمكانات المتوافرة؛ إذ كان من المحال على المسلمين مجابهة الخطرين الكبيرين، والقادم أحدهما من الشرق والمتمثل بالمغول، والثاني القادم من الغرب والمتمثل بالفرنج الصليبيين بدون أن تتوافر في بلاد المسلمين تقنية عالية لا في مجال تطور فن الحرب وحده، وإنما في مجال صنع الأسلحة.

وصحيح أن أسلحة ذلك العهد لم تكن على درجة من التعقيد تتشابه مع ما وصلته أسلحة اليوم، إلا أن صناعتها لم تكن بالأمر السهل على كل حال، كما أن استخدام تلك الأسلحة كان يتطلب درجة عالية من المهارة، لا سيما وأن أعداد الأسلحة الإجماعية (المجانيق وأدوات الحصار) كان كبيراً.

ولهذا فإن عملية بناء القدرة الذاتية لتوفير الإمكانات الضرورية كانت تعني تطبيق مبدأ آخر من مبادىء الحرب، وهو **الاستعداد الدائم للقتال**، وإن استمرار الحرب لأجيال متتالية في حالة من الاستعداد الدائم للقتال إنما تشير إلى درجة الإيمان الصلب بحتمية النصر لدى جماهير المسلمين.

ومن المناسب أيضاً الإشارة إلى أن بناء هذه القدرة خلال الأجيال المتتالية قد بدأ من مرحلة متدنية جداً، وصحيح أنه كان للمسلمين جيوشهم القوية يوم بدأ الفرنج حملاتهم الصليبية، إلا أن الحروب المستمرة قد استنزفت قدرة تلك الجيوش؛ لا سيما وأن النصر كان حليفاً للفرنج يوم بدؤوا حملاتهم الأولى، فأمكن لهم بذلك سحق جيوش المسلمين.

وعندما استطاع المسلمون بناء قدرتهم الذاتية والوصول إلى مرحلة التوازن الاستراتيجي في مرحلة الصراع مع الفرنج (في حطين)، جاءت موجات المغول

لتدمر كل القدرة الإسلامية القتالية، ولم يبق إلا فلول القوات الممزقة التي تجمعت في مصر، بالإضافة إلى جيشها (جيش أبناء مصر وجيش المماليك)، واستطاعت هذه القوات مجتمعة أن تصحح المواقف بانتصارها في (عين جالوت). إلا أن هذه القوات الإسلامية خرجت من المعركة الخالدة وهي ممزقة وضعيفة، بدلالة عجز قائد معركة عين جالوت عن إجراء المطاردة واستثمار النصر، ولكن الاستعداد الدائم للقتال لدى جماهير المسلمين أخذ شكلاً جديداً؛ إذ قامت جماهير المسلمين في مدن دمشق وحمص وحماة وحلب بانتفاضة عامة للانتقام من المغول، فلم يمض شهر على معركة عين جالوت حتى أمكن طرد المغول نهائياً وإبعادهم إلى ما وراء نهر الفرات في الشرق.

وعادت القيادات الإسلامية مرة أخرى لبناء قدرتها الذاتية وتطوير قدراتها القتالية، حتى أمكن لها في النهاية القضاء على الخطرين الكبيرين في وقت واحد، خطر المغول من الشرق، وخطر المغول من الغرب، وتلك هي الحقيقة المذهلة التي تكمن في شعلة الإسلام عندما تضيء لها الأنفس المجاهدة الصابرة، فلا ترضى بغير العزة للإسلام ثمناً، ولا ترضى من خيارات للحياة إلا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وذلك هو السر الحقيقي الذي ساعد باستمرار على توافر القدرة الذاتية في الحروب الصليبية طويلة الأمد.

وفي مجال حشد القدرة البشرية، لا بد من الإشارة إلى القضاء على عامل التمزق المذهبي الذي كان يفتت العالم الإسلامي في بداية الحرب الصليبية؛ إذ كان العالم الإسلامي محكوماً بقوتين رئيسيتين هما الفاطميين في مصر والسُّنَّة في بغداد، وقد أدَّى هذا الخلاف في كثير من الأحيان إلى نشوب الحرب في محاولة كل طائفة لفرض وجودها على العالم الإسلامي، وإلى جانب ذلك كانت طائفة الإسماعيلية (الحشاشين) المنتشرة على الجبهة الشرقية بداية من أعماق إيران (حصن أليوت) ونهاية «بسلمية»، وقد تحالف هؤلاء مع الفرنج الصليبيين في بداية الحملات الصليبية أيضاً، كل ذلك بالإضافة إلى المسيحيين الوطنيين الذين انضموا إلى الفرنج وأصبحت لهم إماراتهم المستقلة في أرمينية وأنطاكية، وكان هؤلاء أكثر عداء للمسلمين من الفرنج الصليبيين.

وكانت المرحلة الأولى في التوحيد المذهبي القضاء على الفاطميين في مصر، ثم أدَّت الحروب الصليبية إلى فرز أعداء الداخل. وتعرض المسيحيون الوطنيون لغضب المسلمين، فكان القضاء على إماراتهم المستقلة في أرمينية وأنطاكية هو

بداية مرحلة التحول الاستراتيجي. أما بالنسبة للإسماعيلية، فقد تعرضوا لحرب المسلمين في البداية أيام صلاح الدين والأيوبيين، ثم تعرضوا للمذابح الإجماعية على أيدي المغول «التتار»، وظهر لهم بعد ذلك أن تحالفهم مع الفرنج الصليبيين لا يفيدهم، فأخذوا في الانحياز لمعسكر المسلمين. وبذلك ساعدت ظروف الصراع على فرز مراكز القوى المتنافرة وتدميرها ما أدَّى إلى توحيد العالم الإسلامي تحت سيادة السُّنَّة، وهم الأكثرية السائدة في العالم الإسلامي. وكان من أول النتائج البارزة هو انقياد العالم الإسلامي إلى إدارة واحدة، وكان في ذلك بعض عدَّة النصر، إن لم يكن أكثرها أهمية، بسبب اعتماد الحرب على العامل الديني كمحرِّض أساسي للحرب، وكعامل جوهري في الصراع الإيديولوجي.

وفي مجال التطبيق الماهر لمبادىء الحرب، يمكن الإشارة إلى مبدأ «**المحافظة على الهدف**»، والمرتبط اصلاً باستراتيجية «**وضوح الهدف**». فقد كان هدف المسلمين وقياداتهم منذ بداية الحملات الصليبية هو تحرير بلاد المسلمين من الغزاة البرابرة. وتعرض المسلمون لانتكاسات مريرة، وهزائم كثيرة، إلا أن ذلك لم يحجب عنهم الهدف الذي يريدون، والذي من أجله يعملون، فتابعوا صراعهم في ظروف قاسية، لم يداخلهم اليأس في الوصول إلى الهدف المنشود، ولم يتعبهم طول الطريق الذي يسلكون، ولم يداخلهم الحنين لإلقاء السلاح الذي يحملون. وتتابعت قوافل الشهداء والأضاحي عبر الأجيال المتتالية، وكان يحفزهم باستمرار إدراكهم الكبير للهدف، وما يتطلبه الوصول لهذا الهدف من جهد وتضحيات، وكانوا، وهم في أشد الحالات ضيقاً وعسراً، يعيشون على الأمل الكبير في بلوغ الهدف. وكانت محافظة المسلمين على الهدف، هي في طليعة العوامل التي ضمنت لهم القدرة على الصمود في مجابهة ما تعرضوا له من تحدِّيات، وما جابهوه من نكبات.

ولقد عرف العالم في القديم والحديث أنواعاً مختلفة من «الحروب طويلة الأمد»، ولكنه لم يعرف يقيناً حروباً بمثل الحروب الصليبية في قسوتها ووحشيتها وطول مدتها. وقد يذهل الإنسان، غير المسلم، لمثل تلك القدرة الرائعة في التحدي والصمود، والتي اعتمدت في جوهرها على العقيدة الدينية الإسلامية، وعلى العقيدة القتالية الإسلامية.

وقد جاء بعض المؤرخين القدامى والمحدثين، فاعترفوا، ولو بطرائق غير

مباشرة، بتلك الفضائل الحربية التي ميَّزت العالم الإسلامي خلال الحروب طويلة الأمد. ولقد كانت هذه الفضائل الحربية قاسماً مشتركاً بين المسلمين وقياداتهم على السواء. ولقد كانت، على سبيل المثال، هجمات المغول الوحشية وتدميرها لعاصمة المسلمين (بغداد) كافية لو حصلت في العصر الحديث لإحباط عزائم أقوى المعاندين، وأقسى الصامدين، إلا أن ذلك لم يضعف من إرادة القتال لدى المجاهدين في سبيل الله، والذين لم يعرفوا لوجودهم معنى إلا في اختيار إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

وهذه الفضائل التي يأتي في طليعتها «**الصبر في مجابهة الخطر والشجاعة في اقتحام مواطنه**»، هي التي دفعت المظفر قطز إلى اقتحام معركة «عين جالوت»، وهي التي دفعت بيبرس إلى تدمير أرمينية، وهي التي حملت قلاوون على تحرير معظم بلاد المسلمين وترك قضية تطهير ما بقي منها على عاتق ابنه الأشرف خليل. وتبرز أعمال هؤلاء القادة عاملاً أساسياً في كل التحولات، وهو «**الشدة والعنف في القضاء على أعداء المسلمين في الداخل والخارج**». فقد ساعدت الحروب الصليبية طويلة الأمد على فرز أعداء المسلمين في الداخل والخارج، ولم يكن من الطبيعي، أو من المحتمل، ترك أعداء الداخل أو التساهل معهم إرضاء لمراكز القوى الخارجية، كما لم يكن من الطبيعي أيضاً التعامل مع الأعداء بغير الأسلوب الذي يعرفونه، والذي يمارسونه.

ولم يكن المسلمون على كل حال هم البادئون باستخدام العنف؛ فمذابح القدس، ومذابح الإسكندرية، التي سبق الحديث عنها في الحملات التالية لتطهير بلاد الشام من الفرنج الصليبيين، وبذلك فقد أوجد الفرنج، ومن بعدهم المغول، الحجة لتطبيق المبدأ الإسلامي «العين بالعين والسن بالسن والجراحات قصاص».

وهكذا انصرف سلاطين مرحلة التحرير لإنزال العقاب الصارم بأولئك الذين تعاونوا مع المغول من الأعداء (أرمينية وأنطاكية)، فأنزلوا بهم أقسى العقاب. واتبعوا الأسلوب ذاته في القضاء على أعداء الداخل، أثناء مرحلة التحرير وبعدها، بحيث لم يبق للمغول أو الفرنج قواعد أو أنصار، يمكن لهم الاعتماد عليهم للتحريض الداخلي أو لتسهيل مهمتهم فيما إذا عاودوا التفكير في استئناف الحملات ضد عالم المسلمين. ولكن على الرغم من ذلك كله، وباعتراف كتّاب الفرنج ومؤرخيهم، فإن القسوة والشدة اللتين طبّقهما المسلمون لم تبلغا في يوم

من الأيام مبلغ الوحشية والبربرية اللتين طبَّقهما أعداء المسلمين.

يظهر من خلال ما سبق ذكره أن تقنين العنف في القضاء على أعداء المسلمين بقي مملوكاً بعاملين: أولهما: تطابق استخدام العنف مع هدف الحرب؛ فقد كان هدف المسلمين هو تحرير بلادهم من الفرنج الصليبيين، ومن المغول فيما بعد، وكان هدف المسلمين أيضاً ردع مراكز القوى الخارجية عن التفكير في استخدام العنف ضد المسلمين. أما العامل الثاني، فكان يتلخص في المحافظة على الروح المعنوية للمسلمين من خلال فرض العقاب المماثل للجريمة، وهو العقاب العادل الذي فرضته الشريعة الإسلامية، وفي حدود هذين العاملين لم يكن هناك مجال للانسياق وراء ردود الفعل، والمبالغة في العقاب.

وتبرز هذه الظاهرة في كل الأعمال القتالية للمسلمين على امتداد صفحة الحروب الصليبية، والتي يمثلها صلاح الدين الأيوبي في مرحلة التحول الاستراتيجي عند تحرير القدس الشريف، هذا في حين كان هدف الفرنج ومِن بعدهم المغول القضاء على العالم الإسلامي وتدميره، وهذا ما أظهر الحروب الصليبية بصورتها البربرية الوحشية التي فاقت كل وصف، وتجاوزت كل معقول.

وفي الواقع، فقد تعرضت ظاهرة استخدام العنف في القضاء على أعداء المسلمين للكثير من الجدل والنقاش بين وجهتي نظر متباينتين: إحداهما تدين قادة المسلمين الذين تساهلوا مع الفرنج الصليبيين، وهم في ذروة النصر (صلاح الدين والأيوبيون)، ما أدَّى إلى إطالة أمد الحروب الصليبية، وما أدى إلى بقاء قدر من القوة المقاتلة للفرنج. ومنهم من دافع عن وجهة نظر الالتزام بالحد الأدنى في استخدام العنف للقضاء على أعداء المسلمين. المهم في الأمر هو أنه من المحال محاكمة أحداث الماضي من خلال معطيات تختلف عن معطيات الفترة التاريخية التي وقعت فيها الأحداث. والمهم في الأمر هو التأكيد على أن استخدام العنف في القضاء على أعداء المسلمين، كان عاملاً في جملة العوامل التي أدَّت إلى التحولات الحاسمة في مسيرة الحروب الصليبية.

وقد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى أن ما سبق ذكره قد أدى إلى دعم وإبراز مبدأ هام من مبادىء الحرب، وهو مبدأ «**الاقتصاد بالقوى**»، حيث عمل قادة مرحلة التحرير على إدارة الحرب بكفاءة عالية على جبهات مختلفة ومتباعدة، ما كان يفرض حشد القوات على مسارح العمليات الرئيسية، ثم

الانتقال بها وتوزيعها على المواقع المختلفة لتنفيذ مهام وواجبات ثانوية، والعمل على إعادة تجميع القوات من جديد لتنفيذ واجبات رئيسية أُخرى، وقد ضمن ذلك لقادة مرحلة التحرير استخدام القوى المتوافرة والوسائط الموجودة، وفقاً لما تتطلبه الأعمال القتالية المختلفة.

ويبرز هذا المبدأ الإفادة من القدرة الحركية المتوافرة لقوات المسلمين من أجل استخدامها هجومياً، ويشير ذلك بداهة إلى أن جيش المسلمين قد تحول في معظمه إلى جيش من الفرسان، وقد سبقت الإشارة إلى أن جيش الأشرف خليل قد ضمَّ عند حصار عكا ٦٠ ألفاً من الفرسان مقابل ١٦٠ ألفاً من المشاة، في حين لم تتجاوز قوة الفرسان في جيش عكا قوة ألف فارس و١٦ ألف من المشاة.

ويبرز ذلك مقدار التطور الكبير في تصعيد القدرة القتالية للمسلمين، كما يبرز الاهتمام بتطوير القدرة الحركية للقوات الإسلامية من أجل الإفادة منها هجومياً. وتشكل قوة الفرسان بذلك ما يعادل ثلث، أو ربع، حجم الجيش الإسلامي. وإذا ما تمَّ الأخذ بالاعتبار أن قوة الفرسان كانت تمارس الدور الذي تضطلع به القوات المدرعة في العصور الحديثة، فسيظهر أن تطوير القوة الضاربة لفرسان المسلمين، قد وصل إلى مرحلة متقدمة لم ينافسهم بها إلا المغول «التتار»، والذين قصَّروا بعد ذلك عن المسلمين في هذا المجال.

خلاصة القول: لقد استطاع قادة مرحلة التحرير تطبيق مبادىء الحرب ـ وفقاً لما سبق عرضه ـ بكفاءة عالية، ولم يكن ذلك بالمستطاع، لولا الالتزام بأسس السياسة الاستراتيجية التي أمكن لها تحقيق التحولات الحاسمة في مسيرة الحروب الصليبية. وفي كل الأحوال، كانت تلك التحولات ترسم أبعادها الحقيقية بما يتم إحرازه على ميادين القتال.

٤ ـ من الهزيمة إلى النصر

استمرَّت الحروب الصليبية القديمة على أرض الشام ومصر زهاء مائتي سنة، لم يتوقف خلالها الصراع أو يهدأ، ومضت قوافل شهداء المسلمين جيلاً بعد جيل، منهم من قضى بسبب القصور في الاستعداد القتالي (المرحلة الأولى من الحروب الصليبية)، ومنهم من قضى أثناء مرحلة التحرير.

ولعل عملية إحصاء بسيطة تظهر الفارق الكبير في المقارنة بين من سقطوا في

مرحلة الدفاع، وبين من سقطوا في مرحلة الهجوم الاستراتيجي أو التحرير. ويطرح ذلك قضية أساسية في كل حرب طويلة الأمد، وهي أن الخسائر في الدفاع تكون دائماً أكبر من الخسائر في الهجوم، وذلك لسببين على الأقل:

أولهما: أن المقاتلين المدافعين في البدء يخضعون لمجموعة من العوامل مثل تفوق العدو بالقوى والوسائط، وتمتع المهاجم بنفسية عدوانية هجومية، تجعل رصيده المعنوي أكبر من الرصيد المعنوي للمقاتل دفاعياً، كما أن القوات المدافعة غالباً ما تخوض معاركها بصورة مجزَّأة، وبدون تنسيق كامل، في حين تخوض قوات الهجوم معاركها متجمعة فتلتهم المقاومات الفردية، مقاومة بعد مقاومة، مما يجعل ثمن الدفاع، من حيث الخسائر في الأرواح، مرتفعاً إلى درجة عالية. فإذا ما أضيف إلى ذلك تفجر الحقد لدى المهاجمين الذين تكون روحهم المعنوية مرتفعة بتأثير التحريض المستمر، وما ينتج عن ذلك من المذابح والجرائم وأعمال الإبادة الإجماعية، فسيظهر السبب الأول الذي يجعل خسائر القوات المدافعة أكبر بكثير من خسائر القوات المهاجمة.

أما **السبب الثاني** في زيادة درجة الخسائر البشرية لدى القوات التي تضطلع بأعباء الدفاع خلال المرحلة الأولى من الحروب طويلة الأمد، فيعود، على الأغلب، لجهل القوات المدافعة وقياداتها بحجم قوات العدو وقدراته وإمكاناته القتالية، وطرائقه في القتال وأهدافه من الحرب، ويشكل هذا العامل المجهول نوعاً من الذعر يساعد على إضعاف المقاومة ويجعلها أكثر عرضة لتحمل نصيبها من الخسائر.

ولكن هذين الموقفين يتبدلان باستمرار عبر الصراع الطويل؛ إذ يكتسب الطرف الذي كان يقوم بالدفاع الخبرات اللازمة، والمعارف الضرورية عن كل ما يتعلق بخصمه، ويكتسب بالإضافة إلى ذلك درجة عالية من التوتر في مشاعر الغضب، ذلك أنه من المحال نسيان المذابح، وتجاهل التضحيات المرافقة لانتصارات الأعداء (الغزاة)، وتبقى هذه الأضحيات هي عامل التحريض الأول وبصورة مستمرة، وقد يضاف إليها رصيد جديد في كل معركة بسبب طبيعة الغزاة العدوانية، ما يجعل قضية «الانتقام لأرواح الشهداء، والثأر بتأثير مشاعر الغضب» عاملين أساسيين في كل التحولات الممكنة أو المحتملة.

ويأخذ الموقف بالتحول التدريجي لمصلحة ذلك الطرف المدافع، الذي خضع للمعاناة الطويلة بسبب قصوره وعدم استعداده، وبسبب جهله لنوايا

عدوه، وتستمر التفاعلات إلى أن تأخذ أبعادها في مرحلة التوازن الاستراتيجي، لتنطلق بعدها إلى مرحلة متقدمة، حيث ينعكس الموقف تماماً. وتصبح الانتصارات المتتالية من نصيب الطرف المدافع عن أرضه وعن بلاده وعن مستقبله وعن دينه قبل كل شيء. ويرافق ذلك نقص في الخسارة البشرية التي تتعرض لها القوات القائمة بالهجوم، في حين يتعرض العدو (الغزاة، أو الفرنج في البحث هنا) إلى المزيد من الانتكاسات والهزائم مع ما يرافق ذلك من تعاظم في خسائر القدرة البشرية التي تصبح ملزمة على خوض معاركها بصورة مفككة ومجزأة، وهذا أيضاً هو عكس الوضع الذي تكون الحرب قد بدأت منه. ويظهر الصراع هنا على شكل تبادل للمواقع، وتناوب في المواقف، ولكن بشكل متضادات متعاكسة تماماً، ولعل ذلك هو أروع ما تبرزه الحروب الصليبية التي يمكن اعتبارها نموذجاً أعلى للحروب طويلة الأمد.

وهكذا حدثت التحولات بالجهد المستمر، بالتضحيات الضخمة، بالتصميم العنيد، بالمعاناة المريرة، فتمَّ الانتقال من الهزيمة إلى النصر، وكان نصراً حلواً، عذباً، صافياً، لا دنس فيه ولا شائبة؛ إذ إن ذلك النصر قد حدث بقوة السلاح وحقق هدف الحرب، فوضع نهاية للصراع المرير الذي استمر زهاء مائتي سنة.

ولكن هل توقفت بعد ذلك الحملات الصليبية؟.

تؤكد قراءة التاريخ أن الحملات الصليبية لم تتوقف، بل استمرت على مسارح أُخرى؛ فقد أخذت الحملات الصليبية بعد ذلك في التوجه إلى الأندلس إلى أن تمَّ إجلاء المسلمين بعد ثلاثة قرون تماماً. واستمرت الحملات الصليبية بعد ذلك، ما بين فترة وأخرى، وتوالى سقوط الحملات مرة بعد المرة. المهم في الأمر هو أن هذه الحملات سايرت التطور في العالم بأهدافها وطرائقها، وقد يكون من المذهل ملاحظة التشابه الكبير في الحملة الصليبية الأخيرة التي أدَّت إلى ظهور الكيان الصهيوني ـ الإسرائيلي، وبين الحملات الصليبية القديمة.

فهنا وهناك طوائف دينية عسكرية واجبها المحافظة على مناخ الحرب والمحافظة على هدف الصليبية، وهنا وهناك تتشكل مجموعات تنقسم إلى متطرفين ومعتدلين (حمائم وصقور) يتقاسمون الأدوار لتنفيذ أهداف الحرب، وهنا وهناك تقوم الهجرة والاستيطان على دعم الوجود الاستعماري وتأمين القدرة البشرية المقاتلة، وهنا وهناك يتم جمع المرتزقة الذين تحشدهم الصليبية قديماً والصهيونية حديثاً من كل بقاع العالم، فيتشكل مزيج من

الموزاييك لا هدف لهم إلا العيش بالحرب وعلى حساب الحرب.

وفي الحالين - في القديم والحديث - بقي النهب والقتل والعيش على حساب المنطقة هو وسائل الغزاة البرابرة للوصول إلى أهدافهم. وكان الفرنج الصليبيون القدامى مثلهم كمثل الصهاينة المحدثين يعتمدون في وجودهم على دعم مراكز القوى الخارجية في الحرب، قدر اعتمادهم على تأمين متطلبات وجودهم واستمرارهم. وكان الفرنج قديماً والصهاينة حديثاً يعتمدون في نجاح مخططاتهم على تمزق العالم العربي - الإسلامي بأكثر من اعتمادهم على قدراتهم الذاتية التي لم تكن في الماضي، ولن تكون في المستقبل أبداً بمثل قدرة العالم العربي - الإسلامي وإمكاناته، لا في مجال القدرة البشرية وحدها، وإنما بالنسبة لمجموعة متطلبات القتال.

وليست هذه هي كل ملامح التشابه بين الحملات الصليبية والحملات الصهيونية، وقد يأتي التشابه الرئيسي من طبيعة الحرب وهدفها، كحرب طويلة الأمد، وهو التشابه الذي فرض ذاته حتى في أساليب خوض الصراع وطرائقه؛ وإبرازاً لهذا التشابه يمكن العودة إلى طرائق التناوب بين الهدنة (السلم) والحرب. فمن المعروف أن ريتشارد قلب الأسد قد جاء في مرحلة التحول الاستراتيجي، وكان في طليعة ما عمل له هو عقد هدنة طويلة الأمد مع المسلمين، وإعادة تنظيم مخططات الفرنج الصليبيين لإخراج مصر من الحرب، وقد فشلت هذه المخططات في النهاية.

وجاءت الحملات الحديثة لتعيد الصورة ذاتها، ولكن بطريقة مغايرة، مختلفة، فتمَّ طرح الهدنة (السلم) بما يتوافق مع مصالح الدول العظمى الغربية والأمريكية، ولكن صورة الموقف العام لم تتبدل كثيراً؛ إذ إن مراكز البحوث في معظم دول العالم تؤكد أنه من المحال الوصول إلى سلم دائم بسبب طبيعة الكيان الصهيوني وتكوينه العدواني وأهدافه التوسعية الاستعمارية الاستيطانية.

والمهم في الأمر بعد ذلك التعلم من دروس التاريخ، فليس المهم أن تعود أحداث التاريخ بكل دقائقها وتفاصيلها، ولكن المهم هو استخلاص الدروس الصحيحة التي تتوافق مع كل الظروف في الحرب طويلة الأمد، وقد رسمت الحروب الصليبية القديمة، والحروب العربية الصهيونية (الإسرائيلية) على صفحات التاريخ الكثير من الدروس التي يمكن الإفادة منها لبناء مستقبل العرب المسلمين فوق أرض العرب المسلمين.

البَابُ الرَّابع

الحاجب المنصور

(٣٢٦ ـ ٣٩٢هـ/٩٣٨ ـ ١٠٠٢م)



في كتب التاريخ

«توفي الحكم الأموي سنة ٩٧٢م، وسيطر على الموقف من بعده الوزير محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، وهو الذي كان يميل إلى القتال والجهاد. وكانت مملكة ليون أهم مملكة مسيحية في إسبانيا، وقد تعرضت لهجمات المنصور. ففي سنة ٩٨١م استولى المنصور على زامورا بجنوب مملكة ليون، وفي سنة ٩٩٦م نهب ليون ذاتها، وفي السنة التالية أشعل الحرائق في شنت يعقوب في كومبو ستيللا التي تعتبر ثالث المواضع التي يقصدها الحجاج بعد بيت المقدس وروما، ومع ذلك حرص هذا الأمير على أن يحترم المزار ذاته. وفي سنة ٩٨٦م، استولى المنصور على برشلونة، وتراءى له أنه لن يلبث أن يعبر جبال البيرنيه ـ البرانس ـ حين وافته منيته ١٠٠٢م. وأخذت قوة المسلمين في التداعي بعد وفاة المنصور».

(تاريخ الحروب الصليبية ـ ستيفن رنسيمان ١/ ١٣٤)

«كان من قوة رجاء المنصور أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة، عهد بتصبيره في حنوطه، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه، توقعاً لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته. وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك».

(البيان المغرب ٢/ ٤٣٠)

«تحدث واحد ممن كانوا يلازمون المنصور فقال: قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها: قد أفرط مولانا في السهر، وبدنه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب. فقال: يا هذا، الملك لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة».

(نفح الطيب ـ المقري ١/ ٤١٦)

«انفرد المنصور بنفسه، وصار ينادي صروف الدهر: هل من مبارز، فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفرداً بمملكة لا سلف له فيها، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهراً غالباً، على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الأعداء وواجه من الأمم، وإنها لخاصة ما أحسب أحداً من الملوك الإسلامية شاركه فيها، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده وتمكن جده، سعة جوده وكثرة بذله، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان، وأول ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق، وانتشر عليه لواء السعد وخفق».

(البيان المغرب ٢/ ٤٢٧)

«عندما توفي المنصور سنة أربع وتسعين وثلاثمائة (والأصوب سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة للهجرة) وهو منصرف من بعض غزواته، فدفن بمدينة (سالم) وكتب على قبره:

آثـارُه تُـنـبـيـكَ عـنْ أخْـبَـاره ... حـتـى كـأنَّـكَ بـالـعِـيـانِ تَـرَاهُ
تـالـلَّـه لا يَـأتـي الـزمـانُ بـمـثْـلـه ... أبـداً، ولا يـحـمـي الـثـغـورَ سِـوَاهُ

ومرت الأيام متسارعة بعد ذلك، وتمزقت الأندلس بين ملوك الطوائف، وأفاد نصارى الشمال للقيام بهجوم عام، سيطروا به على عدد من مدن الشمال وأقاليمه (وكانت مدينة سالم من بينها). وروى شجاع، مولى المستعين بن هود، القصة التالية عندما ذهب لمقابلة ألفونسو (الأذفونش): لما توجهت إلى أذفونش وجدته في مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع. أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر مليكهم؟ قال: فحملتني الغيرة أن قلت له: لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه، ما سمع منك ما يكره سماعه، ولا استقر بك قرار. فهمَّ بي، فحالت امرأته بيني وبينه، وقالت له: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟».

(الحلة السيراء ١/ ٢٧٣)

وكان المنصور شاعراً، ومما اشتهر من شعره:

رَمَيْتُ بنفسي هولَ كلِّ عظيمة ... وخاطَرْتُ والحرُّ الكريم يخاطرُ
ومـا صـاحـبـي إلا جـنـان مُـشـيَّـعٌ ... وأسْـمَـرُ خَـطـيٌّ وأبـيـض بـاتـرُ

فسدت بنفسي أهلَ كلِّ سيادة | وفاخَرتُ حتى لم أجدْ مَنْ أُفاخرُ
وما شدت بنياناً ولكن زيادة | على ما بنى عبدُ المَليك وعامرُ
رفعنا المعالي بالعوالي حديثة | وأورثناها في القديم مَعَافِرُ

(ابن عذارى ٢/ ٤٠٩)

وأوصى الحاجب المنصور ابنه عبد الملك، وهو على وشك الهلاك، بقوله:

«.. فإن انقادت لك الأمور بالحضرة - قرطبة - فبها، وإلا فانتبذ بأصحابك وغلمانك إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك، وانتظر غدك إن أنكرت يومك، وإياك أن تضع يدك في يد بني مروان، فإني أعرف ذنبي لهم».

(المغرب في حلى المغرب ١/ ١٩٧)

الوجيز في حياة الحاجب المنصور

(٣٢٦ ـ ٣٩٢هـ/٩٣٨ ـ ١٠٠٢م)

السنة الهجرية	السنة الميلادية	وجيز الأحداث
٣٢٦	٩٣٨	ولادة محمد بن أبي عامر المعافري في تركش/من الجزيرة الخضراء.
٣٦٦	٩٧٦	وفاة الحكم المستنصر (الخليفة الأموي) وبداية ظهور المنصور.
٣٦٦	٩٧٦	قيادة المنصور لغزوتين ضد دول (نصارى الشمال).
٣٦٧	٩٧٧	زواج الحكم من أسماء بنت غالب الناصري أكبر قادة الأندلس.
٣٧١	٩٨١	استولى الحاجب المنصور على سمورة وأعمل فيها إحراقاً وتدميراً.
٣٧٣	٩٨٣	غزو ليون، والاستيلاء عليها وإحراقها.
٣٧٦	٩٨٦	تحرير (برشلونة) من سيطرة الفرنج.
٣٧٩	٩٨٩	غزوة البياض (وتحرير شنت إشتبين).
٣٨٧	٩٩٧	حملة شنت ياقب (أكبر حملات المنصور).
٣٩٢	١٠٠٢	آخر غزوات المنصور، وفاته، ودفنه في (مدينة سالم).

المقدّمة

قد نتعاطف مع الحاجب المنصور عندما نطالع سيرته، وقد لا نفعل، غير أننا لا نستطيع في الحالتين إلا أن نتوقف طويلاً لنتأمل بإعجاب تلك المنجزات التي حققها ذلك الرجل بعزمه وإيمانه. إنه نسيج فريد بين الرجال، ونموذج لا نظير له بين القادة، وقد تكون هناك ملامح متشابهة بين بعض الرجال، في حوافزهم ودوافعهم، في طموحاتهم ومطامعهم، في أخلاقهم وطبائعهم، غير أنه لا بد وأن يختلفوا فيما يحققونه، وفيما ينجزونه، بقدر ما يتباينون في طرائقهم وأساليبهم.

لقد برز الحاجب المنصور في فترة صعبة من حياة الأندلس الإسلامية، كانت فيها ممالك النصارى في الشمال قد اكتسبت كل ظواهر الدول وقوتها، وأخذت هذه الممالك في توجيه جهدها لحرب المسلمين من قبل أن تعلن الحرب الصليبية بصورة رسمية. وكانت أندلس المسلمين قد عرفت في عهدي عبد الرحمٰن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر ذروة عهد المجد والقوة، غير أن هذه القوة كانت تخفي تحتها من ظاهر التمزق المرعبة ما يتهدد أندلس المسلمين بشر مستطير. وجاءت وفاة الحكم المستنصر المباغتة، وعدم وجود رجل قوي من البيت الأموي يتولى الاضطلاع بإدارة الدولة والحرب، ليترك فراغاً خطيراً، فتصدى الحاجب المنصور لحمل المسؤولية، ورفع راية الجهاد في سبيل الله، وأعاد التنظيم الشامل للدولة، وحشد كل القوى والإمكانات المتوافرة لرفع راية الإسلام والمسلمين، وقاد الحرب طوال حياته فأحرز من الانتصارات ما لم يحصل عليه رجل من قبل ومن بعد، فترك بذلك مجداً خالداً بقي متألقاً على مرِّ الأيام، ومفخرة لجند الإسلام.

ويتشابه الحاجب المنصور مع أولئك الذين أبرزتهم الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي من أمثال: صلاح الدين الأيوبي، والمظفر قطز، والظاهر بيبرس، وأحمد بن قلاوون، وسواهم ممن أخلصوا لقضية الجهاد في سبيل الله

فنالوا الحسنيين: ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وكتبوا أسماءهم في سجل الخالدين من مشاهير المسلمين الذين لا زالوا أبداً كالنجوم تهدي المسلمين وتضيء سماءهم كلما أظلمت الدنيا وعظمت الخطوب. غير أن هذا التشابه الظاهري لا يخفي أبداً التناقض أو التنافر بين شخص الحاجب المنصور وبين أقرانه من قادة المسلمين الذين ظهروا على مسرح الأحداث في حقب تاريخية مختلفة، وعلى ميادين جغرافية متباينة، وبذلك بقي الحاجب المنصور نسيج وحده. إنه رجل الدنيا والآخرة، ورجل الآخرة من خلال عمل الدنيا. ولقد أمضى المنصور حياته مجاهداً صابراً محتسباً، لم يقتصد في جهد مبذول، ولم يقصر في تقديم أكثر مما هو مستطاع لدعم القضية التي وقف حياته عليها، قضية الجهاد في سبيل الله، ثم هو يترك لأبنائه من بعده ملك الدنيا، ويقيم «الزاهرة» رمزاً لامتلاك الدنيا، فهل كان حرصه على دعم هيبة دولته، ورغبته في تسليم الأمانة لمن هو أكثر حرصاً عليها قد دفعه إلى ما فعله؟ تلك قضية أمرها متروك للحاجب المنصور وربه ـ رب السمٰوات والأرض ـ أما ما هو ثابت من وقائع الدنيا فهو ملك للإسلام والمسلمين، وهو إرث لا يمكن للإنسان المسلم إلا أن يفخر به ويفاخر الدنيا بإنجازه.

أثارت حياة المنصور قدراً غير قليل من الجدل والنقاش، وقد حفظت الأوابد الأندلسية بصورة خاصة الكثير من وجهات النظر المتناقضة في تقويم أعمال الحاجب المنصور ومنجزاته. وليس ذلك برهاناً على أمانة المؤرخين المسلمين في حفظ المادة التاريخية فحسب، بل إنه برهان أيضاً على ما أثارته هذه الشخصية الفردة من الانفعالات المثيرة أيام حكمه وبعد مماته، ولم تكن هذه الانفعالات مجرد نزوات عاطفية، أو نتيجة لمواقف عصبية متصلبة، بقدر ما كانت تعبيراً عن أهمية ما تركته أعمال الحاجب المنصور من تأثير عميق في حياة مسلمي الأندلس بصورة خاصة، وحياة العالم الإسلامي بصورة عامة.

ومضى الحاجب المنصور للقاء وجه ربه بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال. ومضت الأندلس الإسلامية من بعده لمجابهة قدرها، فكانت لها وقائعها الخالدة وأيامها الماجدة. وتعرضت أندلس المسلمين لما تعرض له المشرق الإسلامي من حروب صليبية، لم تعرف التوقف أو الهدوء إلا بقدر ما تتطلبه هجمة جديدة في إطار مختلف وشكل مغاير.

وتمضي سيوف المسلمين في قوافل متتالية، وهي تترك للدنيا شهباً مضيئة،

وركاماً ضخماً من التجارب التاريخية المثيرة المفيدة. ومن هذا الركام الضخم، وعلى هدي تلك الشهب المضيئة في الظلمة الحالكة، يستمد المسلمون قدرتهم لمتابعة الطريق أبداً وهم يرفعون، دونما كلل، ودونما وهن، راية الجهاد في سبيل الله.



الفَصْلُ الأول

المنصور
محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري

١ ـ الحاجب المنصور
٢ ـ الأمويون
٣ ـ السيطرة على مراكز القوى
أ ـ المنصور والمصحفي
ب ـ المنصور وغالب
جـ ـ المنصور وصبح والمؤيد
د ـ المنصور والخلافة
٤ ـ نقل المقر من الزهراء إلى الزاهرة



١ ـ الحاجب المنصور

لم تكن حياة القرية مثيرة ولا صاخبة، وَقَدْ ولد على غير إرادة منه في قرية (تركش)[1] كما يولد كل الأطفال. وكانت قريته هذه غير بعيدة عن قرطبة، وبدأت الحياة تتفتح أمام سمعه وبصره. لقد كانت تركش راقدة في سهول الجزيرة الخضراء، حيث ذكريات الفتح، وحيث القاعدة القوية والصلبة لدولة العرب المسلمين في الأندلس. من هنا مر طارق بن زياد بعد معركة وادي لكة ليصل إلى عاصمة القوط طليطلة. ومن هنا سار موسى بن نصير بجيوش المسلمين حتى أكمل فتح شبه الجزيرة الأندلسية. ومن هنا أيضاً مر عبد الرحمٰن الداخل صقر قريش ليقيم دولة الأمويين في الأندلس. وهو ابن أو حفيد واحد من عظماء الفاتحين الذين وفدوا مع طارق بن زياد أول الداخلين من العرب. ويستعرض الطفل أنسابه، والعرب مولعون بالأنساب تعبيراً عن أصالتهم، وتأكيداً على عمق جذورهم، ونقاء محتدهم. فهو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري. وجده (عبد الملك) هذا هو الذي رافق طارق، فكان له شرف الريادة. كانت جبال الثلج (سيرانيفادا) تعانق سهول الجزيرة وقراها المتناثرة والنائمة بأمن ودعة وسكون، غير أن مطامح الطفل الشاب ظهرت مبكرة وهي تتجاوز حدود القرية والسهل. وران ببصره إلى عاصمة الدنيا (قرطبة) التي لم تكن بعيدة عنه. لقد كانت قرطبة عاصمة العلم والمعرفة، وكانت مركز الحرب والسياسة، واستجاب قلب الطفل الشاب لنداء المستقبل، فحزم متاعه، وتوجه إلى عاصمة أمويِّي الأندلس، غير محدد بدقة ما يريد، وغير عارف بدقة ما سيؤول إليه أمره، كل همه أن يكون

---

(١) تركش: من أعمال الجزيرة الخضراء ـ جنوب الأندلس ـ وهي في المغرب (كرتش) وفي المعجب: (طرش). وفي المغرب ١٤٣/١ ما يلي: «وبأقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل».

شيئاً، وليس هناك ما يساعده ليكون هذا الشيء غير العلم، وغير المعرفة، فبالعلم والمعرفة يمكن له شق طريقه. وأقبل على مناهل العلم والأدب، فنبغ فيهما، وعبَّ من موارد شعر الأجداد فأصبح شاعراً بليغاً. ولم تكن الجرأة تعوزه، فهو عربي أصيل، لم يصل إلى هنا إلا بفضل الإسلام والجهاد في سبيل الله، فتوافرت له العوامل الأساسية المكونة لشخصية الفارس العربي المسلم، ولكن بقيت المشكلة هي اختيار نقطة البداية التي تؤدي إلى الهدف. ولم يطل الطفل الشاب التردد، «فاقتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعفُ له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان، إلى أن طلبت السيدة صبح، أم المؤيد، من يكتب عنها، فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقى إلى أن كتب عنها، فاستحسنته، ونبهت عليه الحكم ورغبت في تشريفه بالخدمة»[1]. «وكانت له همة لم تزل ترتقي من شيء إلى شيء إلى أن اعتنت به صبح، أم هشام المؤيد، فصارت له الحجابة، وكان له مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم»[2].

ترى هل كان قعود الفتى الشاب بباب قصر قرطبة مجرد مصادفة حمله عليها قدره، أم كانت وفق تخطيط محكم تفتق عنه ذهن الشاب الطموح؟.. وهل كان اجتذاب الشاب الفتى لخدم القصر وحراسه وحملهم على تأمين الاتصال بصبح أم المؤيد مجرد مصادفة أيضاً حبكتها يد القدر؟ المهم في الأمر هو أن الشاب الفتى انتقل من باب القصر إلى داخل القصر، وكانت حلقة الاتصال هي أقوى الحلقات.

وهل هناك من هو أقوى سلطة من (المرأة) الأثيرة عند حاكم قرطبة؟ ولكن من هي هذه (صبح)؟ إنها من (البشكنس) أو ـ الباسك ـ وقد غلب عليها اسم قومها فعرفت باسم (صبح البشكنسية)، تزوجها الحكم المستنصر، وأنجب منها ابنه المؤيد هشام، وسواء كان هذا الزواج سياسياً، للتقرب من الباسكيين، أو كانت سبية أعجبت الحكم فتزوجها فالنتيجة واحدة، إذ لم تلبث أن أصبحت سيدة القصر الأولى، وكانت ذكية جداً على ما يظهر حتى تمكنت من فرض هيمنتها على أجهزة الحكم والدولة، ولم يكن ذلك بالظاهرة الشاذة، فقد كان للأندلسيات المسلمات دورهن الكبير في المجتمع الأندلسي. كانت منهن

(١) نفح الطيب ١/ ٣٩٩.

(٢) المغرب في حلى المغرب ١/ ١٩٤.

الأديبات، وكانت منهن الشاعرات، وكانت منهن المجاهدات الصابرات، ولا غرو بعد ذلك أو غرابة أن يجد رجال البلاط في السيدة صبح ملاذاً يساعدهم على حل ما يستعصي عليهم من أمور، ومقابل ذلك أيضاً، يصبح من الطبيعي استجابة رجال البلاط لما كانت تأمر به سيدة القصر وما تريده. وإذا كان هدف الشاب الفتى ـ المنصور ـ هو إرضاء السيدة، فقد كان لا بد له من تقديم الخدمات لكل سيدات القصر حتى يعملن على إطرائه أمام السيدة الأولى، فيقوى ذكره، وتترسخ مكانته، وهذا ما أوردته بعض المصادر التاريخية: «وقوي على أمره بنظره في الوكالة، وخدمته للسيدة صبح أم هشام، وكانت حاله عند جميع الحرم أفضل الأحوال بتصديه لمواقع الإرادة، ومبالغته في تأدية لطيف الخدمة»[(١)].

وعرف المنصور أن الهدايا هي أفضل وسيلة للوصول إلى قلب سيدة القصر، وكان هو المسؤول عن إدارة أملاكها والنظر في مزارعها وبساتينها، ولم تكن تعوزه الإمكانات، فأغدق الهدايا، ويذكر: «أنه صنع يومئذ قصراً من فضة لصبح، أم هشام، وحمله على رؤوس الرجال، فجلب حبها بذلك، وقامت بأمره عند سيدها الحكم، وحدث الحكم خواصه بذلك، وقال: إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهن به»[(٢)].

وعلى كل حال فلم يكن الحكم من الرجال الذين يمكن لهم التسامح في القضايا العامة، فكان لا بد من وضع الفتى الشاب تحت الاختبار، بتوليته المناصب التي يمكن من خلالها وضع كفاءة الشاب موضع الامتحان والبلاء. ونجح المنصور بما أوردته المصادر التاريخية على النحو التالي: «وكان أن ولاه الحكم قضاء بعض المواضع، فظهرت منه نجابة، فترقى إلى الزكاة والمواريث بإشبيلية، وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره»[(٣)]. ولقد كان الشاب الفتى في حاجة لاستنفار كل إمكاناته ليبرهن على كفاءته؛ إذ كان يعرف أن مكانته في القصر، وفي الحكم، لا يمكن أن تكون بديلاً عن ممارسة الأمور العامة بكفاءة عالية، وهو ما تؤكده القصة التالية: «قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس، فتجرد ليسبح في النهر،

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٨٧. (٢) نفح الطيب ٣/ ٨٨.
(٣) نفح الطيب ١/ ٣٩٩.

وترك الكيس، وكان أحمر، على ثيابه، فرفعته حدْأة في مخالبها، فجرى تابعاً لها وقد ذهل، فتغلغلت في البساتين، وانقطعت عن عينه، فرجع متحيراً، فشكا ذلك إلى بعض من يأنس به، فقال له: صف حالك لابن أبي عامر. فتلطف في وصف ذلك بين يديه، فقال: ننظر إن شاء الله تعالى في أمرك. وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين، ويسأل خدامها عمن ظهر عليه تبديل حال، فأخبروه أن شخصاً ينقل الزبل، اشترى حماراً وظهر من حاله ما لم يكن قبل ذلك، فأمر بمجيئه، فلما وقع عينه عليه، قال له: أحضر الكيس الأحمر، فتملك الرعب قلبه وارتعش، وقال: دعني آتي به من منزلي. فوكل به من حمله إلى منزله وجاء بالكيس، وقد نقص منه ما لا يقدح في مسرة صاحبه، فجبره، ودفعه إلى صاحبه، فقال: والله لأحدثن في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور وينصف منها. والتفت ابن أبي عامر إلى الزبال، فقال له: لو أتيت به أغنيناك، لكن تخرج كفافاً، لا عقاباً ولا ثواباً»[1].

ترى هل تقف مطامح الفتى الشاب عند حدود ما وصل إليه، أم تراه يرى فيما بلغه مجرد بداية لهدفه الكبير؟ لقد أصبح شيئاً مرموقاً في الدولة الأموية، وهي دولة وصلت إلى مرحلة متقدمة في ثبات البنيان، واكتسبت بفضل التقادم نوعاً من الهيبة الموروثة، والشرعية الموصوفة. وكان لخلفاء بني أمية من القوة والحزم ما يضمن لهم السيطرة على كل طامح، وكبح جماح كل طامع. هنا تدخل لعبة القدر لتمارس دورها في رسم مستقبل الدولة ومستقبل الفتى الشاب في وقت واحد.

(١) ابن عذارى ٢/ ٤٣٥، وفي نفح الطيب ١/ ٤١٢، ٤١٣، القصة ذاتها بأسلوب مغاير وبتفاصيل إضافية.

٢ ـ الأمويون

وصلت دولة الأمويين في الأندلس إلى عصر قوتها ومجدها خلال فترة حكم عبد الرحمٰن الثالث (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦م). وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند فترة الحكم المستنصر، نظراً لأن هذه الفترة هي التي سبقت ظهور الحاجب المنصور.

توفي عبد الرحمٰن الناصر سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وترك دولة وطيدة الأركان ثابتة البنيان. فقد استطاع خلال فترة حكمه أن يضع الأسس الثابتة لدولة الأمويين في الأندلس حتى وصلت في عهده إلى ذروة مجدها ورفعتها. ونجح الناصر في القضاء على ثورات المولدين وتمرد العرب والمستعربين، وألزم دول الشمال بالتوقف عن الأعمال العدوانية، فعادت الأندلس الإسلامية إلى مثل ما كانت عليه أيام الفتح الأولى. وعاشت الأندلس في حياة الناصر أيام السلم والاستقرار والأمن مما لم تعهده من قبل.

وعنما تولى الحكم المستنصر سار على خطوات أبيه، واتبع طريقته في الحكم والقيادة، «وهكذا فعندما تولى الحكم المستنصر خلافة قرطبة، وجه اهتمامه إلى الجيش وأخذ في التأهب للحرب، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقادة بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد في سبيل الله»[١]. وكان أول ما جابه الحكم المستنصر هجوم نصارى الشمال، وهو ما تعرضت له المصادر التاريخية بالتالي: «طمع الجلالقة في الثغور لأول وفاة الناصر، فغزا الحكم المستنصر بنفسه، واقتحم بلد فرذلند بن غند شلب[٢]، فنازل شنت إشتيبان[٣] وفتحها عنوة

(١) ابن عذارى ٢/ ٣٥٠، ٣٥٣، ونفح الطيب ١/ ٣٨٢، وابن خلدون ٤/ ١٤٤.

(٢) **فرذلند بن غند شلب**: Fernando (ferdinand) gonzola.

(٣) **شنت إشتيبان**، San-estban: كانت من الثغور الرئيسية في الشمال، وكانت قوات =

واستباحها، فبادروا إلى عقد السلم معه، وانقبضوا عما كانوا فيه، ثم أغزى غالباً مولاه بلاد جيليقية[١]، وسار إلى مدينة سالم[٢] لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة، ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فرذلند ودوخها.

وكان (شانجة بن رذمير) ملك البشكنس[٣] قد انتقض، فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر، وجاء ملك الجلالقة لنصره، فهزمهم وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها وقفل. ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد برشلونة فعاثت العساكر في نواحيها. وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا. وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرة، من بلاد البشكنس على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها، ثم فتح قطوبية على يد قائد وشقة[٤]، وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسيطها من الغنم والبقر والرمك ـ البسط والسجاد ـ والأطعمة والسبي ما لا يحصى».

لم يكن نصارى الشمال هم الخطر الوحيد الذي كان يتهدد باستمرار دولة الأمويين بالأندلس؛ فقد كان أمراء أمية في صراع دائم مع ولاية أفريقية في الجنوب، وقد تعاظم خطر تهديد الجنوب بظهور دولة الفاطميين في مصر، حيث قام أسطولهم بالهجوم على ثغر (المرية)[٥] أكبر الثغور البحرية للدولة

= النصارى تستخدمها للهجوم على مدن المسلمين وقراهم. وتعرف أيضاً باسم قاشتر مورش Castro-Muros.

(١) **جيليقية**، Galice: مملكة أسسها فرديناند الأول ملك ليون وقشتالة، وأورثها الثالث غرسية: Garcie (١٠٦٥ ـ ١٠٧٣م) وضمت إليها قشتالة اعتباراً من سنة ١٠٧٣م. ويشمل إقليم غاليسية (أو جيليقية) حالياً المناطق التالية: كورونا Corogne وبونتيغيدرا وليغو وأورنس.

(٢) **مدينة سالم**، Medinaceli: وهي تضم الناحية ـ الكورة ـ المسماة أيضاً بكورة سالم، ويقال: إن طارق وجد فيها المائدة المنسوبة إلى سليمان، وبها دفن الحاجب المنصور.

(٣) **البشكنس**، Les Basques: وهم سكان سفوح جبال البيرينه الغربية في الطرفين الفرنسي والإسباني، وهم الذين اشتهروا بتأسيس إمارة نافار (Navarre) وعرفوا بأنهم مقاتلون جبليون أشداء لا زالت حتى اليوم، لهم لغتهم الخاصة التي تختلف عن اللغتين المجاورتين الفرنسية والإسبانية.

(٤) **وشقة**، Huesca أو قهرة، Catalogna: غرب تكيلة على نهر إبرة. وفي البيان المغرب ٢/ ٢٦٧: وكان شانجة قد اتخذ من قهرة معقلاً له ومسكناً.

(٥) **المرية**، Almeria: مدينة بنيت أيام عبد الرحمٰن الناصر وازدهرت أيام المرابطين واشتد فيها الرخاء، وتقع على الساحل الشرقي، على البحر الأبيض المتوسط، إلى الجنوب الشرقي =

الأندلسية الإسلامية (سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) وعمل هذا الأسطول على إحراق الأسطول الأندلسي وتدمير المرية ذاتها.

وعندما تولى الحكم المستنصر خلافة الأندلس، كان أول ما فعله «هو أنه غطى البحر بينه وبين المغرب بأساطيل الأموال والأسلحة والعدد والأطعمة، واستدعى غالب بن عبد الرحمٰن من الجزيرة، وكلفه بغزو أفريقية، كما جمع مستشاريه وأمرهم بالتأهب للغزاة في الأسطولين، أسطول إشبيلية وأسطول المرية. وأقلع غالب بن عبد الرحمٰن من الجزيرة إلى طنجة بعد أن استكمل أهبته فيها، وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب. ولم يلبث الحكم المستنصر أن وجه جيشاً آخر بقيادة صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمٰن بن رماحس بمهمة دعم غالب بن عبد الرحمٰن. «وفي عام **٣٥٣هـ/ ٩٦٣م** قصد الحكم المستنصر ثغر المرية للإشراف على تحصين المدينة واتخاذ ما هو ضروري لتجديد الأسطول وتعزيزه وتأمين متطلباته من الخشب والزفت والقطران من كورة، ناحية، جيان إلى إشبيلية والجزيرة لصناعة السفن، وكان الراسية في ميناء المرية يومئذ ثلاثمائة قطعة»[1]. كما اهتم الحكم المستنصر بتحصين الثغور فأوفد أحمد بن نصر لبنيان مدينة بثغر طليطلة وتشييدها وتوثيق أمورها وجعل بين أيديه أحمال الأموال.

عاد أبو تمام غالب بن عبد الرحمٰن من مهمته في أفريقية منتصراً، غير أنه لم يكد يستقر في قرطبة حتى تحركت أحداث الشمال بهجوم جديد حشدت فيه إمارات الشمال كل قواتها. وقرر الحكم توجيه الصائفة وتكثيفها بقيادة غالب بن عبد الرحمٰن، وعقد مؤتمراً للحرب حضره الحاجب صاحب المدينة جعفر بن عثمان المصحفي وبعض المستشارين. وتوجه غالب لتنفيذ مهمته، بعد أن عمل الحكم المستنصر على تقليده سيفين من ذخائر سيوفه مذهبين حليتا غمديهما

= من بجانة. ووادي المرية طوله أربعون متراً في مثلها كلها بساتين بهجة. وفي المغرب في حلى المغرب ٢/ ١٩٣: «والمرية، سورها على ضفة البحر، وبها دار صناعة، وهي باب الشرق ومفتاح الرزق. ولها على غيرها من نظرائها أظهر مزية، بنهرها الفضي وبحرها الزبرجدي، وساحلها التبري، وحصاها المجزع ومنظرها المرصع وأسوارها العالية الراسخة، وقلعتها المنيعة الرفيعة الشامخة، وفيها من صنعة الخز وجميع ما يعمل من الحرير ما لم يبصر مثله في المشرق ولا في بلاد النصارى».

(١) **الإحاطة** ١/ ٤٨٧، وابن عذارى ٢/ ٣٥٠، ٣٥٢.

أثقل حلية بأغرب صنعة. . . كما ضم إلى ركابه أشهب رائعاً من مقربات الخليفة بسرج معرق ولجام مفرغ. وغادر الوزير غالب ـ ذو السيفين ـ دار الخليفة وأسرع في الاستعداد لتنظيم قوته ومغادرة قرطبة. . . وفي الوقت ذاته أصدر الخليفة الحكم إلى وزرائه ومستشاريه العمل جميعاً لزج كل الإمكانات وتأمين كل المتطلبات التي يحتاجها قائد الصائفة الوزير غالب. ولم يمض أكثر من يومين حتى غادرت الصائفة قرطبة، بعد إجراء عرض للقوات. وقاد الوزير غالب القوات بكفاءة عالية، وتمكن من تدمير قوات النصارى المتحالفة التي يبلغ عدد مقاتليها ٦٠ ألف مقاتل، وسقط فوق أرض المعركة أكثر من **٢٠** كونتاً (قومساً)، ولم تكن هذه المعركة هي كل ما قاده الوزير غالب من عمليات حربية أكد فيها كفاءته العالية في إدارة الحرب.

يظهر من خلال العرض الوجيز السابق أن حياة الحكم المستنصر كانت حياة جهاد دائم وصراع مستمر في الشمال مع النصارى، وفي الجنوب مع الفاطميين والأفارقة، وفي الداخل مع مراكز القوى المضادة، علاوة على تلك الغزوات المباغتة التي كانت تقوم بها شعوب البحر (النورمان)، مثل هجومهم على ثغر (قصر أبي دانس)[1] سنة **٣٥٥هـ/ ٩٦٥م**، وهجومهم سنة **٣٥٠هـ/ ٩٧٠م**. ولم يكن باستطاعة دولة قرطبة أن تعمد لكل هذه التحديات لو لم تكن قد بلغت درجة كبيرة من القوة الذاتية التي ضمنت لها الانتصار في كل الميادين. وكانت قرطبة تعتمد في قوتها على جيشها النظامي الذي يضم المرتزقة والمطوعة والملحقين من المماليك والصقالبة والأسرى، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لكل مدينة جيشها وفيهم فرسان طنجة وفرسان قرطبة وفرسان الزهراء والعرب والبربر والصقالبة إلخ. . . أما إدارة الدولة فكانت تعتمد على الخليفة يعاونه الحاجب وينفذ أوامره قادة الجيش وقائد الماء (أمير البحر). وقد ظهر مما سبق أن إدارة الدولة كانت بيد الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، أما أبو تمام غالب بن عبد الرحمٰن ـ الوزير ـ فكان من أعظم القادة وأكثرهم كفاءة، وليس من الغريب

---

(١) **قصر أبي دانس**، Alcacer de sal: ميناء بحري على المحيط الأطلسي جنوب البرتغال (لشبونة). كان قاعدة رئيسية من القواعد البحرية الإسلامية في الأندلس (وكان النورمان ينطلقون من بلاد الدانمرك الحالية). وكان ميناء قصر أبي دانس هو القاعدة التي انطلقت منها القوة البحرية لغزو جيليقية (غزوة شنت ياقب)، والتي سيرد ذكرها فيما بعد، كما كانت بها دار لصناعة السفن ومقر القيادة البحرية الإسلامية.

أن يوليه الخليفة الحكم المستنصر إدارة ثغور الشمال وقيادة الحرب فيها، بعد ما أظهره من إخلاص للدولة، واندفاع في حمايتها، وحرص على تأمين سلامتها ضد الغزاة والطامعين. أين كان موقع (الحاجب المنصور) من كل هؤلاء؟...

لقد وصل إلى منصب الوزارة «وكانت الوزارة بالأندلس في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة، ويخصهم بالمجالسة، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب. وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك»[1]، وهذا يعني ببساطة أن (الحاجب المنصور) قد وصل في عهد الخليفة الحكم المستنصر إلى أقصى ما يمكن أن تحمله مطامحه، فلا هو بقادر على الدخول في منافسة مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، الذي كان يتمتع بالثقة المطلقة للخليفة، وذو المركز الوطيد في البلاط، ولا هو أيضاً بقادر على منافسة «أبو تمام غالب بن عبد الرحمٰن» قائد الجيش المظفر في كل معاركه وذو السيفين، إذ أنه لم يكن قد تولى حتى ذلك قيادة أي قوة عسكرية، أو خاض ولو معركة واحدة.

ونتيجة لذلك فإنه لم يكن قادراً على ممارسة سيطرة فعلية على الجيش الذي كان يشكل بدوره مركزاً من مراكز القوى التي يمكن لها أن ترفع القائد المظفر إلى مرتبة تزيد على المرتبة التي وصلها، وكان لا بد للحاجب المنصور من أن ينتظر الفرصة المؤاتية التي تبرز الاضطراب بين مراكز القوى عندئذٍ قد يكون باستطاعة المنصور المناورة بين هذه المراكز.

وهذا بدقة ما أحدثته وفاة الحكم المستنصر في سنة **٣٦٦هـ/ ٩٧٦م**، إذ توفي الحكم، وترك وريثه المؤيد هشام وهو طفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره إلا قليلاً، فأخذت مراكز القوى في التحرك للمحافظة على مواقعها، وحانت الفرصة أمام المنصور ليبلغ أكثر مما كان يطمع وأكثر مما كان يطمح.

---

(١) ورد في **نفح الطيب ١/ ٢١٦، ٢١٧** ما يلي: «وبقي الأمر كذلك إلى أن كانت ملوك الطوائف، فكان الملك منهم لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية وإنه كان نائباً عن خليفتهم، يسمى بالحاجب، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به، وهي موجودة في إمداح شعرائهم وتواريخهم. وصار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم. وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين، وأكثر ما يكون فاضلاً في علم الأدب، وقد لا يكون كذلك بل عالماً بأمور الملك خاصة».

٣ ـ السيطرة على مراكز القوى

بلغ الحاجب المنصور الأربعين من عمره يوم توفي الحكم المستنصر في قرطبة. فلقد تجاوز مرحلة اندفاع الشباب، غير أن حماسته للحكم والسيطرة لا زالت في أوج تفتحها. ولقد أوجز المؤرخ ابن خلدون[١] قصة وثوب المنصور إلى مركز السلطة العليا بما يلي: «كان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر، ونقله من خطة القضاء إلى وزارته وفوض إليه في أموره، فاستقل وحسنت حاله عند الحكم. فلما توفي الحكم بويع هشام ولقبه المؤيد ـ وكان صغيراً مناهز الحلم ـ وذلك بعد أن قتل ليلتئذ أخو الحكم المرشح لأمره، تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بممالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه، وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم، ومن خصيان القصر ورؤسائهم فائق وجؤذر، فقتل محمد بن أبي عامر المغيرة وبايع لهشام.

ثم سما محمد بن أبي عامر المتغلب على هشام لمكانه في السن، وثاب له رأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضها ببعض، . . . وحجر على هشام المؤيد (الخليفة) وغلب عليه، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام، يسلمون وينصرفون، وأرخص للجند في العطاء، وأعلى مراتب العلماء، وقمع أهل البدع. وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين. ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض. كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل بهم وفرَّق جموعهم. وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم، وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصح له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا

(١) تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ٤/٣١٨ ـ ٣٢١.

أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة الفازغ إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر.

ثم قتل جعفر عماله، ابن عبد الودود وابن جوهر وابن ذي النون، وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشح للرئاسة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة، فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء وعرَّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبين يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم، فتغلب على هشام وحجره، واستولى على الدولة. وملأ الدنيا وهو في جوف بيته، مع تعظيم الخلافة والخضوع لها، ورد الأمور إليها، وترديد الغزو والجهاد. وقدم رجال البرابرة زناتة، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وابتنى لنفسه مدينة فنزلها وسماها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر أن يُحيَّى بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكتب اسمه في السكة (النقود) والطرز، وعمر ديوانه بما سوى ذلك، وجند البرابرة والمماليك، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرغبة، وقهر من يطاول إليها من الغلبة، فظفر من ذلك بما أراد، وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم ينكسر له فيها راية، ولا فلَّ له جيش ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية، وأجاز عساكره إلى العدوة، وضرب بين الملوك البرابرة بعضهم في بعض فاستوثق ملكه بالمغرب، وأذعنت له ملوك زناتة، وانقادوا لحكمه وأطاعوا لسلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر لما سخط زيري بن عطية ملكلهم لما بلغه من إعلانه بالنيل منه والغض من ملكهم، والتأنف لحجر الخليفة هشام، فأوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين وثلاثمائة للهجرة، ونزل بفاس وملكها، وعقد لملوك زناتة على المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها، وشرد زيري بن عطية إلى تاهرت، فأبعد المفر، وهلك في مفره ذلك، ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة، واستعمل واضحاً على المغرب، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً وأشد استيلاء».

تلك هي الأسطر القليلة التي أوجز بها ابن خلدون، مجموعة كبيرة من الأحداث المثيرة التي بدلت علاقات المجتمع الأندلسي، ودمرت مراكز القوى

لتعمل على تكوين مراكز جديدة، غير أن هذه اللوحة الإجمالية لمجموعة الأحداث المتلاحقة تثير من الفضول بأكثر مما تغني المعرفة. فكيف استطاع الحاجب المنصور القضاء على (المصحفي)؟ ثم كيف دمر غالب بن عبد الرحمٰن، أقوى قادة الأندلس؟ وكيف أمكن له فرض ذلك الحجر على الخليفة المؤيد هشام، وما هو موقف البشكنسية أم المؤيد من ذلك؟ ولماذا احتفظ محمد بن عبد الله بن عامر المعافري بلقب (الحاجب المنصور) ولم يحاول انتحال لقب الملك أو الخليفة على الرغم من ممارسة أعمالها والاستئثار بظواهر الملك أو الخلافة؟.. تلك هي بعض التساؤلات التي تبرز من خلال لوحة ابن خلدون، والتي لا يمكن فهم إجراءات الحاجب المنصور فيها بدون التعرض لبعض دقائقها التفصيلية، التي تبرز بدورها، ومن خلالها شخصية الحاجب.

أ ـ المنصور والمصحفي

تشير بعض الأبحاث والدراسات الغربية، وبعض العربية أيضاً، إلى ضعف المصحفي، الأمر الذي أدى إلى نجاح المنصور في الوصول إلى أهدافه، ويستشهدون على ذلك بموقفه من نصارى الشمال يوم هاجموا قلعة رباح، في إثر وفاة الحكم المستنصر (وهي حادثة سيرد ذكرها بالتفصيل فيما بعد)، غير أنه من المهم هنا القول بأنه من المحال نسب الضعف إلى المصحفي بناء على موقف واحد.

وقد استخدم الحكم المستنصر المصحفي كحاجب له طوال فترة حكمه ـ ستة عشر عاماً ـ وهو على ما هو موصوف من الضعف؟. وبالإضافة إلى ذلك فهنالك مصادر تاريخية تدحض ما نسب إلى المصحفي من الضعف، وفقاً لما تتضمنه المقولة التالية: «تجرد ـ المصحفي ـ للعليا، وتمرد في طلب الدنيا حتى بلغ المنى، وتسوغ ذلك الجنى، ووصل إلى المنتهى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد تفرع من دوحته، ولا فخر نشأ بين مَغْداه وروحته، فسما دون سابقة، ورمى إلى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة، فبلغ بنفسه، ونزع عن جنسه، ولم يزل يستقل ويضطلع، وينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى أتاح في أفق الخلافة، وارتاح إليها بعطفه، كنشوان السُلافة، واستوزره المستنصر، وعنه كان يسمع وبه يبصر، وحجب الإمام، وأسكب برأيه ذلك الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك،

ونصب لأمانيه الحبائل والشرك، فأقنى اقتناء مدخر، وأزرى بمن سواه وسخر، واستعطفه ابن أبي عامر، ونجمه غائر لم يلح، وسره مكتوم لم يبح فما عطف، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبرهانه مستقيم، ومن الفتن عقيم، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العز في مشرب عذب، ويفض ختام السرور، وينهض بملك على لبته مزرور، وكان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم القريض مسارع»[1].

وتبرز هذه المقولة في الواقع نقاط التشابه في تكوين الشخصيَّتين المتنافستين، المنصور والمصحفي. فكلاهما بذل جهد المستطاع للوصول إلى أهدافه، وكلاهما يتمتع بميزات متشابهة. وليس الغريب بعد ذلك أن يفهم المصحفي منافسه أكثر مما يفهمه الآخرون، وهو لذلك يحاول إعاقته والاعتراض بينه وبين أهدافه، غير أن الحاجب لا يشعر باليأس: «فلم يقصر في خدمة المصحفي الحاجب، إلى أن توفي الحكم وولي ابنه هشام المؤيد فجاشت الروم، فجهز المصحفي ابن أبي عامر لدفاعهم، فنصره الله عليهم وتمكن من قلوب الناس»[2].

ويلجأ الحاجب المنصور إلى أم هشام ـ صبح ـ والحرم، من أجل توطيد سلطته لدى الحاجب المصحفي، فيلقى المنصور الاستجابة التي يريدها. ويذكر المقري، نقلاً عن ابن بسام في الذخيرة، موقف الحرم من بعد وفاة الحكم المستنصر بما يلي: «فأخرجن له أمر هشام الخليفة إلى الحاجب المصحفي بأن لا ينفرد عنه برأي، وكان غير متخيل منه سكوناً إلى ثقته، فامتثل الأمر، وأطلعه على سره، وبالغ في بره، وبالغ محمد بن أبي عامر في مخادعته والنصح له، فوصل المصحفي يده بيده، واستراح إلى كفايته، وابن أبي عامر يمكر به، ويضرب عليه، ويغري به الحسدة، ويناقضه في أكثر ما يعامله به الناس، ويقضي حوائجهم، وبقي على هذه الحال إلى أن حل أمر المصحفي، وهوى نجمه،

---

(١) **المطمح** ص٤ ـ ٨، وعنه نقل ابن عذارى بعض هذه الترجمة ٢/ ٣٧٩ وصدرها بقوله: قال ابن بسام. ويذكر أن المصحفي كان شاعراً. ومن محاسنه التي بعثها إيناس دهره وإسعاده، وقاله حين ألهته سَلْماه وسعاده، وقوله:

لعينيك في قلبي عليَّ عيونُ ... وبين ضُلوعي للشُّجون فُنونُ

نصيبي من الدنيا هواك، وإنه ... غذائي، ولكني عليه ضنينُ

(٢) **النفح الطيب** ١/ ٣٩٩.

وتفرد محمد بن أبي عامر بالأمر، ومنع أصحاب الحكم وأجلاهم وأهلكهم وشردهم وشتتهم وصادرهم، وأقام من صنائعهم من استغنى به عنهم، وصادر الصقالبة وأهلكهم وأبادهم في أسرع مدة»[1].

لقد أفاد محمد بن أبي عامر من وجوده في القصر لمعرفة القوى والمراكز المضادة للإفادة منها في الوقت المناسب، وكان لا بد للمصحفي، بحكم استمراره في إدارة الدولة لمدة طويلة، من التصدي لبعض الطامحين فيصيبه منهم العداء والخصومة، وهذا ما كان يريده ابن أبي عامر الذي عمل بصبر وأناة طوال فترة مديدة حتى أمكن له حشد كل القوى المضادة في خندق واحد، وهو ما أكدته المصادر التاريخية والتي يمكن انتقاء مقطع منها جاء فيه ما يلي: «وكان مما أُعين به المنصور على المصحفي ميل الوزراء إليه، وإيثارهم له عليه، وسعيهم في ترقيه وأخذهم بالعصبية فيه، فإنها وإن لم تكن حمية أعرابية، فقد كانت سلفية سلطانية، يقتفي القوم فيها سبيل سلفهم، ويمنعون فيها ابتذال شرفهم، غادروها سيرة، وخلفوها عادة أثيرة، تشاحَّ الخلف فيها تشاحَّ أهل الديانة، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية، ولا يتقاعد لها راية، فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان المصحفي واصطنعه، ووضعه من أثرته حيث وضعه، وهو نزيع بينهم ونابغ فيهم، حسدوه وذموه، وخصوه بالمطالبة وعموه، وكان أسرع صنف الطائفة من أعالي الوزراء وأعاظم الدولة إلى مهاودة المنصور عليه، والانحراف عنه إليه، آل أبي عبيدة، وآل شُهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب الردافة، من أولي الشرف والإنافة (أو الأمانة).

وكانوا في الوقت أزمة الملك وقوام الخدمة، ومصابيح الأمة، وأغيَر الخلق على جاه وحرمة، فأحظوا محمد بن أبي عامر مشايعة، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة، وشادوا بناءة، وقادوا إلى عُنصره سناءة، حتى بلغ الأمل، والتف بمناه واكتحل، وعند التئام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال الحال وانتقال الرتبة، وكف عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانفض الناس من الرواح إليه والتبكير، وانثالوا على ابن أبي عامر، فخف موكبه، وغار من سماء العز كوكبه، وتوالى عليه سعي ابن أبي

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٤/ ٤٠ ـ ٤٤.

عامر وطلبه، إلى أن صار يغدو إلى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا اسمها، وابن أبي عامر مشتمل على رسمها، حتى محاه، وهتك ظله وأضحاه، وقال ـ محمد بن إسماعيل ـ: رأيته يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً فأقبل يدرم، وجوارحه باللواعج تضطرم (وواثق الضاغط ينهره)[1] والزمع يقهره، والبهر والسن قد ضاهاه، وقصرا خطاه، فسمعته يقول: رفقاً بي فستدرك ما تحبه وتشتهيه، وترى ما كنت ترتجيه، ويا ليت أن الموت يباع، فأُغلي سومه، حتى يرده من أطال عليه حَوْمُهْ، ثم قال:

لا تأمننَّ من الزمان تقلباً ... إنَّ الزمان بأهله يتقلبُ

ولقد أراني والليوث تخافني ... فأخافني من بعد ذاك الثعلبُ

حسْبُ الكريم مذلة ومهانةً ... أن لا يزال إلى لئيم يطلبُ

فلما بلغ المجلس، جلس في آخره دون أن يسلم على أحد، أو يومئ إليه بعين أو يد. فلما أخذ مجلسه تسرع الوزير محمد بن حفص بن جابر، فعنَّفه واستجفاه، وأنكر عليه ترك السلام وجفاه، وجعفر معرض عنه، إلى أن كثر القول منه، فقال له: يا هذا! جهلت المبرة فاستجهلت معلمها، وكفرت النعم فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدِّمها، ولو أتيتُ نكراً، لكان غيرك أدرى، وقد وقعت في أمر ما أظنك تخلص منه، ولا يَسَعُكَ السكوت عنه، ونسيت الأيادي الجميلة، والمبرات الجليلة. فلما سمع محمد بن حفص ذلك من قوله، قال: هذا البهت بعينه، وأي أياديك الغر التي مننت بها وَعَيَنْتَ أداء واجبها؟. وعدَّد أشياء أنكرها منه أيام إمارته، وتصرف الدهر طوع إشارته، فقال جعفر: هذا ما لا يعرف، والحق الذي لا يرد ولا يصرف، دفعي القطع عن يمناك، وتبليغي لك إلى مناك. فأصر الوزير محمد بن حفص على الجحد، فقال جعفر: أنشد الله من له علم بما أذكره، إلا اعترف به فلا ينكره، وأنا أحوج إلى السكوت، ولا تحجب دعوتي فيه عن الملكوت. فقال الوزير أحمد بن عباس: قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن، وغير هذا أولى بك، وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك. فقال: أحرجني الرجل فتكلمت، وأحوجني إلى ما به أعلمت. فأقبل الوزير ابن جهور على محمد بن حفص وقال: أسأت إلى الحاجب، وأوجبت عليه غير الواجب، أوَما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على

(١) واثق: اسم رئيس الحرس المرافق للمصحفي والمكلف بإزعاجه حتى وصفه المصدر بالضاغط.

أوليائه؛ لأنه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء/٨٦] فإن فعلوا لطاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويُخاف؛ لأنه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف، وإن تركوا الرد أسخطوا الله، فصار الإمساك أحسن ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن. فانكسر ابن حفص، وخجل مما أتى به من النقص»[1].

وهكذا سلَّط محمد بن أبي عامر على المصحفي من يحقد عليه وينتقم منه، وصار المصحفي للهموم لبيساً، وفي غيابات السجن حبيساً، فكتب لابن أبي عامر ـ المنصور ـ يستعطفه بقوله[2]:

هبني أسأت فأين العَفْوُ والكَرَمُ إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ
يا خير من مدت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ رماه عندك القلمُ
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً، وما أفادته الأبيات إلا تضرماً ووقداً، فراجعه بما أيأسه، وأراه مرمسه، وأطبق عليه محبسه، وضيق تروحه من المحنة وتنفسه، وكتب له ما يلي:

الآن يا جاهلاً زلت بك القدمُ تبغي التكرم لمَّا فاتك الكَرَمُ
أغريت بي ملكاً لولا تثبتُه ما جاز لي عنده نطق ولا كلمُ
فأيأس من العيش إذ قد صرت في طبق إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسي إذا سَخِطت ليست براضية ولو تشفع فيك العربُ والعجمُ

لم يتوقف محمد بن أبي عامر عند حدود إنزال العقاب بخصمه المصحفي، وإنما تجاوزه لإنزال العقاب بأولاده وأهله وأسبابه وأصحابه، وطولبوا بالأموال، وأخذوا برفع الحساب لما تصرفوا فيه، وتوصل ابن أبي عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم وفروعهم.

وكان هشام، ابن أخي المصحفي، قد توصل إلى أن سرق من رؤوس النصارى، التي كانت تحمل بين يدي ابن أبي عامر في الغزاة الثالثة ليقدم بها

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٢٠ ـ ٤٢٣، وفيه: أن المصحفي علم وهو في معتقله أن قوماً توجعوا له، وتفجعوا مما وصله، فكتب إليهم:

أحن إلى أنفاسِكُمُ فأظنها بواعث أنفاس الحياة إلى نفسي
وإن زماناً صرت فيه مُقيداً لأثقل من رضوي وأضيق من رمسي

(٢) نفح الطيب ١/ ٤٠٧، ٤٠٨.

على الحضرة، وغاظه ذلك منه، فبادره بالقتل في المطبق قبل عمه جعفر المصحفي. واستقصى ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة، وكانت أعظم قصور قرطبة. واستمرت النكبة عليه سنين، مرة يحتبس ومرة يترك ومرة يقر بالحضرة ومرة يُنَفَرُ عنها، ولا براح له من المطالبة بالمال.

ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفي ولم يبق فيه محتمل، واعتقل في المطبق بالزهراء إلى أن هلك[1] وأخرج إلى أهله ميتاً، وذكر أنه سَمَّهُ في ماء شربه. ووصف محمد بن إسماعيل، كاتب الحاجب المنصور، نهاية المصحفي بما يلي: «سرت بأمر المنصور لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولده، والحضور على إنزاله في ملحده، فنظرته ولا أثر فيه، وليس عليه شيء يواريه، غير كساء خلق لبعض البوابين، ودعا له محمد بن مسلمة بغاسل، فغسله والله على فردة باب اقتطع من جانب الدار، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار. وخرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه، وما تجاسر أحدٌ منا للنظر إليه، وإن لي في شأنه لخبراً ما سمع بمثله طالب وعظ، ولا وقع في سمع ولا تصور في لحظ: وقفت له في طريقه من قصره أيام نهيه وأمره، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه، وكثرة من صفَّ به، وأخذ الناس السكك عليه وأفواه الطرق، ومارين بين يديه وساعين، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذي نصَبَهم جناحي موكبه لأخذ القصص، فانصرفت وفي نفسي ما فيها من الشرق بحاله والغصص».

فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور واعتقله، ونقله معه في الغزوات واحتمله، واتفق أن نزلت بجيليقية إلى جانب خبائه في ليلة نهى فيها المنصور عن وقود النار ليخفي على العدو أثره، ولا ينكشف إليها خبره، فرأيت والله عثمان ولده وهو يسقيه (أو يسفه) دقيقاً قد خلطه بماء يقيم به أوده ويمسك بسببه رمقه، بضعف حال وعدم زاد، وهو يقول:

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل ... أراها تُوفي عند موعدها الحرا
فلله أيام مضت بسبيلها ... فإني لا أنسى لها أبداً ذكرا

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٩٠ ـ ٩٢، وفي حاشيته ما يلي: «كذا في الذخيرة، وجعله دوزي (سنتين) وهو مستدرك في التعليقات؛ لأن المصحفي أقام في الإذلال والتعذيب خمس سنين».

تجافت بها عنا الحوادث برهة ... وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
ليالي ما يدري الزمان مكاننا ... ولا نظرت منها حوادثه شزرا
وما هذه الأيام إلا سحائب ... على كل أرض تمطر الخير والشرا

مات المصحفي، وزالت بموته أكبر عقبة في طريق الحاجب المنصور، وقد كانت نهايته قاسية ومفجعة ومثيرة، فما هو السبب الذي دفع الحاجب المنصور لممارسة مثل هذه القسوة الوحشية في القضاء على خصمه؟ أتراها المعاناة المريرة على طريق المجد والتي تعرض لها الحاجب المنصور فجعلته يفجر كل موارد غضبه وحقده ضد هذا الذي اعترض سبيله في بداية أمره؟ أم هو الأمثولة التي أراد المنصور استخدامها لإرهاب كل من يحاول اعتراض سبيله؟ أم هو الخوف من ردة تحمل المصحفي إلى السلطة فتجعله ينتقم من هذا الذي أنزل به البلاء؟ قد تكون كلها، وغيرها أيضاً، على أن هذه القصة لم تكمل بعد.

قال بعض مؤرخي المغرب: «إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله، حتى أنه كتب إلى المنصور ابن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلماً لأولاده. فقال المنصور بدهائه وحذقه: إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس؛ لأنهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومعلماً، فكيف يرونه الآن في دهليزي معلماً؟!»[1].

وهذا ما حمل المصحفي على القول:

غرست قضيباً خلته عود كرمة ... وكنت عليه في الحوادث قيِّما
وأكرمه دهري فيزداد خبثه ... ولو كان من أصل كريم تكرَّما

ولما يئس المصحفي من عفو المنصور قال:

لي مدة لا بد أبلغها ... فإذا انقضت أيامها متُّ
لو قابلتني الأُسد ضارية ... والموت لم يقرب لما خفتُ
فانظر إلي وكن على حذر ... في مثل حالك أمس قد كنتُ

ومن ما نعى به نفسه قوله:

صبرت على الأيام حين تولت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فواعجباً للقلب كيف اعترافه ... وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلا تسلت

---

(١) ابن عذارى ٢/٣٩٩، ٤٠٠، ونفح الطيب ١/٦٠٢ ـ ٦٠٤، والذخيرة ٤/٥١، ٥٢.

وكانت على الأنام نفسي عزيزة   فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها: يا نفس موتي كريمة   فقد كانت الدنيا لنا ثم وَلت

قد تثير هذه النهاية التي انتهى إليها المصحفي مختلف المشاعر المضادة للحاجب المنصور، إذ أن أقل ما تبرزه المقولات السابقة هي الغدر بولي نعمته وعدم الرحمة والشفقة بمن أزرى به الدهر. ولكن كيف استطاع الحاجب المنصور إنزال المصحفي عن مركز قوته؟. تلك قصة تبرز من خلال مواقف المنصور مع بقية المنافسين، وأولهم (غالب الناصري) الذي كان أقوى قادة الأندلس.

ب ـ المنصور وغالب

«كان بين المصحفي وغالب صاحب مدينة سالم (حاكمها) وشيخ الموالي وفارس الأندلس، عداوة عظيمة، ومباينة شديدة، ومقاطعة مستحكمة، وأعجز المصحفي أمره، وضعف عن مباراته، وشكا ذلك إلى الوزراء فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه. وشعر بذلك ابن أبي عامر، فأقبل على خدمته وتجرد لإتمام إرادته، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى تقدمه جيش الثغر. وخرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثانية، واجتمع به، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفي.

وقفل ابن أبي عامر ظافراً غانماً، وبعد صيته، فخرج أمر الخليفة هشام بصرف المصحفي عن المدينة، وكانت في يده يومئذ، وخلع على ابن أبي عامر، ولا خبر المصحفي. وملك ابن أبي عامر الباب بولايته للشرطة، وأخذ على المصحفي وجوه الحيلة، وخلاه وليس بيده من الأمر إلا أقله، وكان ذلك بإعانة غالب له. وضبط المدينة ضبطاً أنسى به أهل الحضرة من سلف من الكفاة أولي السياسة، وانهمك ابن أبي عامر في صحبة غالب، ففطن المصحفي لتدبير ابن أبي عامر عليه، فكاتب غالباً يستصلحه، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان، فأجابه غالب لذلك، وكادت المصاهرة تتم له. وبلغ ابن عامر الأمر، فقامت قيامته، وكاتب غالباً يخوفه الحيلة ويهيج حقوده، وألقى عليه أهل الدار وكاتبوه فصرفوه عن ذلك، ورجع غالب إلى ابن أبي عامر، فأنكحه البنت المذكورة، وتم له العقد في محرم سنة سبع وستين وثلاثمائة، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره، وكثر رجاله، وصار جعفر المصحفي بالنسبة إليه كلا شيء. واستقدم السلطان غالباً، وقلده الحجابة شركة مع جعفر المصحفي.

ودخل ابن عامر على ابنته ليلة النيروز، وكانت أعظم ليلة عرس في الأندلس، وأيقن المصحفي بالنكبة وكف عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير، وابن أبي عامر يساتره ولا يظاهره، وانفض عنه الناس، وأقبلوا على ابن أبي عامر، إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قرطبة ويروح وهو وحده وليس بيده من الحجابة سوى اسمها»(١).

لقد كان غالب الناصري أموي النزعة، مخلصاً للشرعية، وقد عرف السؤدد والمجد من خلال الثقة التي منحها إياه الحكم المستنصر خلال فترة تعيينه أميراً على مدينة سالم، ولهذا فإنه لم يلبث أن أدرك مطامع زوج ابنته ـ العامري ـ في الحكم والسيطرة. وذكرت المصادر التاريخية ما حدث بعد ذلك بين الرجلين بما يلي: «حضر غالب الناصري مع ابن أبي عامر في بعض الغزوات، وصعد إلى بعض القلاع، لينظرا في أمرها، فجرت محاورة بين ابن عامر وغالب، فسبه غالب، وقال له: يا كلب، أنت الذي أفسدت الدولة، وخربت القلاع، وتحكمت في الدولة. وسل سيفه فضربه، وكان بعض الناس حبس يده، فلم تتم الضربة وشجه، فألقى ابن عامر نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يجهز عليه، فقضى الله تعالى أنه وجد شيئاً في الهويِّ منعه من الهلاك، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برئ. ولحق غالب بالنصارى فجيش بهم، وقابله ابن أبي عامر بمن معه من جيوش الإسلام، فحكمت الأقدار بهلاك غالب، وتم لابن أبي عامر ما جد له، وتخلصت دولته من الشوائب».

جـ ـ المنصور وصبح والمؤيد

ما أكثر ما تثور الشبهات عندما تكون هناك علاقة خاصة بين رجل وامرأة، بصرف النظر عمن يكون ذلك الرجل أو من تكون تلك المرأة، ومن الطبيعي أن تتزايد الشبهات في المجتمعات المغلقة، أو في الأوساط المستهدفة لمراقبة الناس. ولهذا فقد أشار كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين لتلك العلاقة التي كانت تربط بين السيدة صبح البشكنسية والحاجب المنصور، وقد سبقت الإشارة إلى ما قدمته السيدة صبح، أم هشام المؤيد، من خدمات في رفع مكانة الحاجب المنصور، بقدر ما أبرز العرض السابق أيضاً ما قدمه الحاجب المنصور من خدمات للسيدة الأولى في قصر قرطبة.

---

(١) نفح الطيب ٣/٨٨، ٨٩، ٩٢.

غير أن تحليل مسيرة الأحداث وتحليل السيرة الشخصية للحاجب المنصور يؤكد أن تلك العلاقة لم تكن لتتجاوز حدود المصالح المتبادلة. فقد كان الحاجب المنصور يريد الإمساك بمفتاح القصر للوصول إلى أهدافه، كمرحلة للسيطرة على هذا القصر. وبالمقابل، كانت السيدة صبح في حاجة لمن يدير أمورها الخاصة، ككاتب ومحاسب، في عهد زوجها الحكم المستنصر، بقدر ما أصبحت في حاجة لرجل دولة يضمن لها إدارة الشؤون العامة بعد وفاة زوجها. وظنت السيدة صبح أنها تستطيع الاعتماد في ذلك على الحاجب المنصور بفضل ما عرفته فيه من فضائل أبرزها أنه الرجل القوي الأمين. من هنا، فقد كان من غير المتوقع أن تكون هناك ثمة علاقة غير طبيعية تربط بين الرجل والمرأة، وهذا ما أشار إليه مصدر تاريخي بقوله: «عندما توفي الحكم المستنصر كان هشام المؤيد صغيراً، وأمه صبح البشكنسية كان يتهمون بها المنصور، وذلك بهتان وزور»[١].

وكان من المتوقع أن يتوجس المنصور خيفة من مؤامرات القصر بعدما عرفه من قدرة هذا القصر على اجتذاب مراكز القوى المضادة، ولهذا كان أول ما فعله هو التضييق على القصر وعلى سيدة القصر ما أثار غضب السيدة صبح، وهو ما أورده مصدر تاريخي بما يلي: «ولما وقعت وحشة بين ابن أبي عامر والمؤيد، وكان سببها تضريب الحساد فيما بينهما، وعلم أنه ما دهي إلا من جانب حاشية القصر، ففرقهم ومزقهم، ولم يدع فيه منهم إلا من وثق به أو عجز عنه، ثم ذكر له أن الحرم قد انبسطت أيديهن في الأموال المختزنة بالقصر، وما كانت السيدة صبح أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من تغيرها على ابن أبي عامر، وأنها أخرجت في بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة، وموهت ذلك كله بالمربى والشهد وغيره والأصباغ المتخذة بقصر الخلافة، وكتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك، ومرت على صاحب المدينة، فما شك في أنه ليس فيها إلا ما هو عليها، وكان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار. فأحضر ابن أبي عامر جماعة وأعملهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه في العبادة، وأن في إضاعتها آفة على المسلمين، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه، فحمل منها

---

(١) نفح الطيب ١/ ٦٠٣.

خمسة آلاف ألف دينار عن قيمة ورق وسبعمائة ألف دينار، وكانت صبح قد دافعت عما بالقصر من الأموال، ولم تتمكن من إخراجها، فاجتمع ابن أبي عامر بالخليفة هشام، واعترف له بالفضل والفناء في حفظ قواعد الدولة، فخرست ألسنة الأعداء والحسدة».

أما النسبة لهشام المؤيد، فقد حجر عليه الحاجب المنصور وعزله، وفرض عليه رقابة صارمة، وهو ما تبرزه المقولة التاريخية التالية: «حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد، بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً، وعلى جواريه مثل ذلك، فلا يُعرف منهن، ويأمر من ينحي الناس من طريقه، حتى ينتهي المؤيد إلى مواضع تنزهه، ثم يعود، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة في بعض الأيام لغرض له. وكان المنصور إذا سافر وكَّل بالمؤيد من يفعل معه ذلك، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس، وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفاً أن يثوروا به، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، ثم فرَّق باقيهم في البلاد، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطواف والتلاد، وربما سكن بعضهم البادية، وترك مجلس الأبهة وناديه، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة له:

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم؟ وأين نجومها والكواكبُ؟
غابت أسودٌ منكم عن غابها فلذلك حازَ الملكَ هذا الثعلبُ»(١)

ويذكر في موضوع هشام المؤيد أن المصادر التاريخية (الأندلسية) تشير في أكثر من مناسبة إلى ما عرف عن هشام المؤيد من قصور عقلي، ومن المحتمل أن تكون العزلة القاتلة التي فرضها الحاجب المنصور على الصبي، الذي لم يكد يبلغ الحلم، قد أدت لمثل هذا القصور، ومن المحتمل أيضاً أن يكون لدى الصبي نوع من القصور جاءت العزلة لتزيد من تفاقمه.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٩١، وفي المغرب في حلى المغرب ١/ ١٩٦: «مرض الحاجب المنصور، وأرجف أعداؤه به، ولما أفاق، وصل إلى الخليفة هشام، واجتمع به، واعترف له بالاضطلاع بالدولة، فخرست ألسنة الحسدة، وعلم ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيته، إذ كان منهم من لم يره قط، فأبرزه وركب ركبته المشهورة، وقد برزوا له في خلق عظيم لا يحصيهم إلا رازقهم، معمماً على الطويلة، سادلاً للذؤابة، والقضيب في يده، على زي الخلافة، وإلى جانبه المنصور راكباً يسايره، وعبد الملك بن المنصور راجلاً يمشي بين يديه، ويسير الجيش أمامه».

ومن ذلك ما ذكر عن هشام من أنه: «لهج بطلب ذوي الأسماء الغريبة من الناس مثل: عبد النور وعبد السميع وحزب الله ونصر الله، يصير الرجل من هؤلاء في الحاشية، ويستعمل على وكالة جهة، ولا يبعد أن يتولى في أقرب مدة، وإن اتفق أن يكون مع ذلك ذا لحية عظيمة، وهامة ضخمة، تقدمت به السعادة، ولا سيما إن كانت لحيته حمراء قانية، فإنها أجدى عليه من دار البطيخ غَلَّةً، ثم لا يسأل عما وراء ذلك من أصل وفضيلة، ولو كان مردداً في بني اللختاء ترديداً».

وذكر أيضاً: «نشأ المؤيد هشام وهو جامد الحركة، أخرس الشمائل، لا يشك المتفرس فيه أنه نفس حمار في صورة آدمي، وعشق في صباه نباح كلب، فجعل الغلمان يهيجونه حتى ينبح ليلتذ بذلك، وكلما زاد سناً نقص عقلاً. ولما خلعه المهدي[1] وحصل في قبضته، قال لأحد غلمانه وقد ذهب دولته وهتك حرمه: بالله انظر هدهدي إن كان سليماً، وافتقده لئلا يهلك بالجوع والعطش، فإنه من ذرية الهدهد الذي دلَّ سليمان على عرش بلقيس. قال المأمور بهذا: فكدت والله أخنقه، فيستريح ويستراح منه».

وذكر أيضاً: «كانت صبح أم المؤيد هي التي أظهرت المنصور بن أبي عامر. ويقال: إنها أرضعته، ولهذا كان يقال له (ظئر هشام)، فلما تغلب ولم تَرْعَ صبحاً قالت لابنها المؤيد: أما ترى ما يصنع هذا الكلب؟ فقال: دعيه ينبح لنا ولا ينبح علينا».

ومما أوردته المصادر التاريخية القصة التالية: «ومن تجلف المؤيد هشام، أنه رام الصعود إلى برج يتفرج فيه، فنزل في دهليز تحت الأرض، فلما طال عليه النزول، وأظلم المكان، قال للذي معه: يا إنسان، أين أعلى البرج؟! قال: فقلت: يا مولاي، ليس هذا بابه، وإنما هذا باب الدهليز الذي تحت الأرض. قال: صدقت. وإلا لو كان باب البرج، كان يكون فيه خابية الماء! وإنما جعل الخابية شرطاً؛ لأنه كان له برج يعتاد صعوده، وفي بابه خابية».

وعندما بلغت الحاجب المنصور مثل هذه التصرفات قال: «**أتعلم أن في هذا**

---

(١) ولي المهدي الخلافة في سنة ٣٩٩هـ، وبقي بها ستة عشر شهراً حتى قتله العبيد مع واضح الصقلبي، وتولى بعده المستعين سليمان بن الحكم. واسم المهدي هو: محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء.

الذي أنكرته صلاح المسلمين؟! وذلك أن السلطان الذي تصلح معه الرعية اثنان: إما سلطان قاهر ذو رأي، عارف بما يأتي ويذر، مستبد بنفسه، وإما سلطان مثل هذا تدبر الدنيا باسمه، ولا يخشى المتفرغ لحراسة سلطانه غائله، والتوسط يهلك ويهلك»[1].

ومن المحتمل بعد ذلك أن يكون المؤيد هشام قاصراً عقلياً، ومن المحتمل أيضاً أن تكون العزلة قد فرضت عليه ذلك القصور، غير أن الأمر الثابت هو أن الحاجب المنصور قد أفاد من مجموعة الظروف ووجهها لمصلحته، فقد كان هناك احتمال منذ البداية استبدال هشام المؤيد بالمغيرة شقيق الحكم المستنصر، غير أن رجال البلاط تآمروا ضد المغيرة، وقرروا قتله، ونفذ الحاجب المنصور المؤامرة، ثم قام بتقاضي الثمن من أطراف المؤامرة، وتصفيتهم تباعاً.

د ـ المنصور والخلافة

لقد كان للخلافة الأموية هيبتها الشرعية، غير أن هذه الهيبة بقيت مرتبطة إلى حد بعيد بقوة شخصية الخلفاء الأمويين وكفاءتهم القيادية، كما كان للشرعية في حد ذاتها قيمة معنوية لا يستهان بها، وهذا هو بدقة ما دفع الحاجب المنصور للاحتفاظ بهشام المؤيد مع حجزه وتجريده من كل سلطة مادية، وهذا أيضاً سبب عدم انتحال المنصور للقلب الخلافة والاكتفاء بلقب الحاجب المنصور، غير أن رجال البلاط مارسوا دوراً غير نظيف عند وفاة الحكم المستنصر، وكان هذا الدور بالنسبة للمنصور هو حجر المرتقى لتصفية كل الحاشية.

وقد أورد مصدر تاريخي قصة هذا الدور بما يلي: «لما انتهت خلافة بني مروان بالأندلس إلى الحكم المستنصر، تاسع الأئمة، وكان مع فضله قد استهواه الولد حتى خالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة، ومن كان ينهض بالأمر ويستقل بالملك. وكان يقال: «لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم».

ولعل الحكم لحظ ذلك، فلما مات الحكم أخفى جؤذر وفائق فتياه ذلك، وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة. وكان فائق قد قال له: إن هذا لا يتم

---

(١) المغرب في حلى المغرب ١/١٨٨ ـ ١٩٣.

لنا إلا بقتل جعفر المصحفي. فقال له جؤذر: ونستفتح أمرنا بسفك دم شيخ مولانا؟ فقال له: هو والله ما أقول لك. ثم بعثا إلى المصحفي ونعيا إليه الحكم، وعرَّفاه رأيهما في المغيرة، فقال لهما المصحفي: وهل أنا إلا تبع لكما، وأنتما صاحبا القصر، ومدبرا الأمر. فشرعاً في تدبير ما عزما عليه. وخرج المصحفي وجمع أجناده وقواده ونعى إليهم الحكم وعرفهم مقصد جؤذر وفائق في المغيرة، وقال: إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة لنا، وإن بدلنا استبدل بنا. فقالوا: الرأي رأيك. فبادر المصحفي بإنفاذ محمد بن أبي عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله، فوافاه ولا خبر عنده، فنعى إليه الحكم أخاه، فجزع، وعرفه جلوس ابنه هشام في الخلافة، فقال: أنا سامع مطيع. فكتب إلى المصحفي بحاله، وما هو عليه من الاستجابة، فأجابه المصحفي بالقبض عليه، إلَّا وجَّه غيره لقتله، فقتله خنقاً. فلما قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام بن الحكم، افتتح المصحفي أمره بالتواضع والسياسة واطِّراح الكبر، ومساواة الوزراء في الفرش، وكان ذلك من أول ما استحسن منه، وتوفر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال. وعارضه محمد بن أبي عامر، فتى ماجدٌ أخذ معه بطرفي نقيض، بالبخل جوداً وبالاستبداد أثرة، وتملك قلوب الرجال إلى أن تحركت همته للمشاركة في التدبير بحق الوزارة».

وهكذا انتصر المصحفي على فائق وجؤذر وقتل المغيرة، وأبقى المؤيد هشام على الخلافة، وكان يأمل من ذلك فرض وصايته على الفتى الشاب (الخليفة هشام المؤيد). غير أن الحاجب المنصور وجه هذا الحدث لمصلحته، وكان أول ما فعله هو تحريض المصحفي للقضاء على فتيان القصر ـ الصقالبة ـ الذين كان يقودهم فائق وجؤذر، فتم القضاء عليهم، وبذلك زال مركز القوة الرئيسي. وكان باستطاعة المنصور في بداية الأمر استثمار مقتل المغيرة للتحريض ضد المصحفي وإضعاف مركزه، على الرغم من أنه هو الذي نفذ جريمة القتل خنقاً، وفي الوقت ذاته، استثمار ضعف المصحفي في مواجهة الخطر الخارجي لتدعيم مركزه، وممارسة دور قيادي عسكري طالما طمح لممارسته، وهو ما تعرضت له المصادر التاريخية بما يلي:

«جاشت النصرانية بموت الحكم، وخرجوا على أهل الثغور، فجاء صراخهم إلى باب قرطبة، ولم يجدوا عند المصحفي غناء ولا نصرة. وكان مما أتى عليه أن أقر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم لما تخيله من أن في ذلك النجاة من

العدو، ولم تتسع حيلته لأكثر منه، مع وفور الجيوش وجموم الأموال، وكان ذلك من سقطات جعفر، فأنف محمد بن أبي عامر من هذه الدنية، وأشار على جعفر بتجريد الجيش بالجهاد، وخوَّفه سوء العاقبة في تركه، وأجمع الوزراء على ذلك، إلا من شذ منهم. واختار ابن أبي عامر الرجال وتجهز للغزاة، واستصحب مائة ألف دينار، ونفذ بالجيش، ودخل على الثغر الجوفي إلى جيليقية، ونازل حصن الحامة، ودخل الربض، وغنم وقفل، فوصل الحضرة ـ قرطبة ـ بالسبي بعد اثنين وخمسين يوماً، فعظم السرور به، وخصلت قلوب الأجناد له، واستهلكوا في طاعته لما رأوه من كرمه»[1].

ترى هل كانت لعنة دم المغيرة المغدور هي التي نزلت على رؤوس كل أولئك الذين اشتركوا في إهداره، مما ساعد المنصور على الانتقام منهم، ثم جاءت يد القدر لتنتقم من ورثته؟..

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٨٦ ـ ٨٨.

٤ ـ نقل المقر من الزهراء إلى الزاهرة

يظهر أنه كان من الصعب على الحاجب المنصور أن يعود إلى (القصر) الذي عمل فيه كاتباً ومعلماً وشهد فيه الهوان، بالمقارنة لما عرفه بعد ذلك من العزة والقوة، أو لعله أراد الابتعاد عن مركز القوة وإقامة مركز جديد يتناسب مع التطورات التي أدخلها الحاجب المنصور للسلطة. ولهذا فلم تمضِ أكثر من سنة واحدة على وفاة الحكم المستنصر، وما أن شعر بأن قبضته أصبحت قوية على أجهزة الحكم، حتى أصدر أوامره ببناء (الزاهرة) لينافس بها (الزهراء). وقد أوردت المصادر التاريخية قصة بناء الزاهرة بما يلي: «وابتنى المنصور لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة، ونقل إليها جزءاً من الأموال والأسلحة»[1].

وقيل أيضاً: «إنه في سنة ثمان وستين وثلاثمائة، أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره واتقد جمره، وظهر استبداده، وكَثُر حُسّاده وأنداده، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان، وخشي أن يقع في أشطان، فتوثق لنفسه وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، ويتم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة، وحشد الصناع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها بهاء يرد الأعين كليلة، وتوسع في اختطاطها، وتولع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة، وصار بناؤها من الأنباء الغريبة، وبنى معظمها في عامين.

---

(١) ابن خلدون ٤/١٤٨.

وفي سنة سبعين وثلاثمائة، انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل في داخلها الأهراء وأطلق بساحتها الأرحاء. ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكُتّابه وقوّاده وحُجّابه، فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمنازه المشيدة، وقامت بها الأسواق، وكَثُرت فيها الأرفاق.

وتنافس الناس بالنزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة. وتناهى الغلو في البناء حوله، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكَثُرت بحوزتها العمارة، واستقرت في بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي، وصير ذلك هو الرسم العافي، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورؤوس أمرائه، وندب إليها كل ذي خطة بخطته، ونصب ببابها كرسي شرطته، وأجلس عليها والياً على رسم كرسي الخليفة، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج.

فاقتضيت إليها اللبانات والأوطار وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لابن عامر ما أراد، وانتظم بِلَبَّةِ أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد في خبر لا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط فيه النهي والأمر، ويشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذره من الدواخل، ورتب عليه الحراس والبوابين والسمار والمنتابين، يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهاراً، ويراقبون حركاتهم سراً وجهاراً، وقد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير. وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، معجوز الغناء، خفي الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عام، ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه إنعام، ولا يعهد فيه إلا الاسم السلطاني في السكة والدعوة، وقد نسخه ولبس أبهته وطمس بهجته، وأغنى الناس عنه، وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونه، وأمرهم أن لا يذكرونه.

واشتد ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الأيام في تشييد بنيتها حتى كملت أحسن كمال، وجاءته في نهاية الجمال، نقاوة بناء،

وسعة فناء، واعتدال هواء رقَّ أديمه، وصقالة جو اعتل نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتتان»[1].

ويظهر هذا النص في كثير من فقراته ارتباط بناء الزاهرة بعملية التحولات الجديدة، وأبرزها التأكيد على نقل السلطة عن (القصر الأموي)، وقد يكون من المثير بعد ذلك الإشارة إلى أن المنصور ذاته كان يعرف، أو يدرك، بأن ما يفعله هو إقامة بناء لا جذور له، وأن هذا البناء سينهار عند أول عاصفة نظراً لافتقاره للشرعية، وهذا يعني أنه على الرغم من كل ما قام به المنصور، فقد بقيت الشرعية الأموية ثابتة الجذور ولو أن هذه الجذور بقيت ضعيفة نتيجة كل ما تعرضت له، وقد يكون من المناسب الإشارة إلى النص التاريخي الذي يشير إلى ذلك:

«حكي عن المنصور أنه كان في قصره بالزاهرة، فتأمل محاسنه، ونظر إلى مياهه المطردة، وأنصت لأطياره المغردة، وملأ عينه من الذي حواه من حسن الجمال، والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال، فانحدرت دموعه، وتجهم وقال: ويهاً لك يا زاهرة، فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب؟ فقال له بعض خاصته: ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به؟ فقال: والله لترون ما قلت، وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت، وبخزائنها قد نهبت، وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت.

قال الحاكي: فلم يكن إلا أن توفي المنصور وتولى المظفر، ولم تطل مدته، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمٰن الملقب بشنجول، فقام عليه المهدي والعامة، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة، وانقرضت دولة آل عامر، ولم يبق منهم آمر، وضربت الزاهرة، وذهبت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكية والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر، والسلاح، وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفاً، وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفا».

وقد يكون من الطريف والممتع بعد ذلك إكمال قصة الزاهرة بما يلي: «يروى أن بعض أولياء ذلك الزمان مر بها، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة، ومبانيها

---

(١) ابن عذارى ٢/ ٤١٠ ـ ٤١٥.

العالية الرائقة، وقال: «يا دار فيك من كل دار، فجعل الله منك في كل دار». قال الراوي: فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها، وعمَّ الخراب سائرها، فلم تبق دار في الأندلس إلا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي همته مع ربه جليلة، ولقد حكي أن بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية»[1].

ولقد تعرضت الأوابد الأندلسية كثيراً للزاهرة وما ضمته، وللشعراء وما قالوه فيها وبسيدها الحاجب المنصور ما لا مجال هنا لذكره، غير أنه بالإمكان الإشارة إلى بعض ما قيل، ومنه:

يا أيها الملكُ المنصور من يمن … والمبتني نسباً غير الذي انتسبا
بغزوة في قلوب الشرك رائعة … بين المنايا تناغي السمر والقضبا
أما ترى العين تجري فوق مرمرها … هوى فتُجري على أحفافها الطربا
أجريتها فطمى الزاهي بجريتها … كما طموت فسدت العجم والعربا
تخال فيه جنود الماء رافلة … مستلئمات تريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الأيك زاهرة … قد أورقت فضة إذ أثمرت ذهبا

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٧٨ ـ ٥٨١، ٩٥٠.

الفَصْلُ الثّاني

حروب الحاجب المنصور

١ ـ إدارة الحرب، والدولة
٢ ـ غزوات المنصور في الشمال
٣ ـ الضربات الإجهاضية المسبقة
٤ ـ غزوة (شنت ياقب)
أ ـ الوضع العام
ب ـ الوضع الخاص
جـ ـ مسيرة العمليات
٥ ـ المنصور وبناء مجتمع السلم والحرب



١ ـ إدارة الحرب والدولة

أدرك الحاجب المنصور منذ توليه إدارة الحرب حقيقة التكامل بين القوة الذاتية للأندلس وبين القدرة القتالية للقوات، فكان يعمل على دعم الجبهة الداخلية من جهة، ويزيد من حجم القوات المسلحة ويضاعف من كفاءتها من جهة ثانية. وقد أفاد في ذلك من دروس الصراع المستخلصة عبر صراع الأمويين مع الكيانات التي أقامها النصارى في شمال البلاد، بقدر ما أفاد أيضاً من تجارب الأمويين في بناءالقوات المسلحة. ولاحظ أن تنظيمات الأمويين بقيت معتمدة على النظام القبلي، إذا صح التعبير، فعمل على إعادة تنظيم القوات بشكل متقدم يزيل فيه دور (العصبية القبلية) ويحل محلها (الانضباط العسكري) بمفهومه الحديث، وكان هدفه من ذلك هو إعادة توحيد الأندلس لتصبح كما كانت عليه أيام الفتح، وهو الأمر الذي تبرزه المقولات التالية:

«قوي أمر الجلالقة عندما شغل المسلمون بعبد الرحمٰن الداخل ـ صقر قريش ـ والتمهيد لأمره، واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن أذفونش، ملكهم، إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم، فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية، وصارت للجلالقة، حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة، ثم استعادوه بعدها فيما استعادوه من بلاد الأندلس»[١].

«وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية، الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم، وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاز، وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل، فانحسمت مادة الفتن، والاعتزاء بالأندلس، إلا ما جاءت على غير هذه الجهة»[٢].

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٣٠.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٩٣.

ترى، بعد ذلك، هل كان القضاء على عصبية القبيلة لمصلحة الدولة الأندلسية؟ وهل نجح المنصور في تحقيق هدفه بتوجيه الفاعليات الكامنة والقدرة الذاتية المتوافرة نحو (هدف الحرب)؟ وهل استطاعت الحروب الخارجية استيعاب التناقضات الداخلية؟.

تلك أسئلة يجيب عليها النص التاريخي التالي ـ لابن عذارى ـ مع تجاوز ما يتضمنه هذا النص من تحسينات بديعية، وصور بلاغية: «المنصور ـ فردنا به على من تقدمه، وصرفَهُ واستخدمه، فإنه كان أمضاهم سناناً، وأذكاهم جناناً وأتمهم جلالاً وأعظمهم استقلالاً، فآل أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المآل. فإنه كان آية الله في اتفاق سعده، وقربه من الملك بعد بعده، بهر برفعة القدر، واستظهر بالأناة وسعة الصدر، وتحرك فلاح نجم الهدو وتملك فما خفق بأرضه لواء عدو، بعد خمول كابد منه غصَصاً وسرْقاً، وتغدر مأمول طارد فيه سهراً وأرقاً، حتى أنجز له الموعود، وفر نحسه أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك واتضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة، لم تدحض لسعادتها حجة، ولم تزخر لمكروه بها لجة، لبست فيه البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العِراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أسد سهام، غزا الروم شاتياً وصائفاً، ومضى فيما يروم زاجراً وعائفاً، فما مر له غير سنيح، ولا فاز إلا بالمعلى لا بالمنيح، فأوغل في تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت رايته ـ ألويته ـ صيد القبائل، واستجرت في ظلها بيض الظباء وسمر الذوابل، وهو يقتضي الأرواح بغير سَوْم، وينتضي الصفاح على كل رَوْم، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد، ويخطف منهم كل كوكب وقاد، حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوة، واجتمعت في ملكه اجتماع قريش بدار الندوة، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفة والإجابة، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا عنهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يباباً، وملأها وحشاً وذئاباً، وأعراها من الأمان برهة من الزمان، وعلى هذه

الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والتأنس، وغزواته فيها شائعة الأثر، رائعة كالسيف ذي الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر»[١].

وقد يكون من المناسب هنا استباق الأحداث من أجل مقارنة النتائج المباشرة لأعمال الحاجب المنصور ومنجزاته، بتلك النتائج غير المباشرة التي ظهرت بعد زوال حكم المنصور. فإذا كان المنصور قد نجح في تحقيق أهدافه بالقضاء على العصبية القبلية، وترويض الناس على الخضوع له، والقضاء على مراكز القوى، فقد أدت النتائج غير المباشرة إلى ظهور ردود فعل عكسية تماماً، برزت من خلال تمزق الأندلس إلى أحزاب وشيع متنافرة، تم التعبير عنها بظهور حكم (ملوك الطوائف) وهو ما يعبر عنه النص التاريخي التالي:

«اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستقلال عن إمام الجماعة، منذ وقعت الفتنة بالأندلس، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك، ومرنوا على ذلك، فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع، إلى أن انقادوا إلى عبد المؤمن وبنيه، وتلك القواعد في رؤوسهم كامنة، والثوار في المعاقل تثور وتروم الكرة، إلى أن ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل، ووجد قلوباً منحرفة عن دولة بر العدوة، مهيأة للاستبداد، فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأي، وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة، يمشي في الأسواق ويضحك في وجوههم ويبادرهم بالسؤال. وجاء للناس منه ما لم يعتادوه من سلطان، فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء، وكان كما قيل:

أمور يضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها الحليم

---

(١) ابن عذارى ٢/٤٠٧ (وفي طبعة ليون ٢٧٣) وفيه: كان المنصور يمني نفسه بملك مصر والحجاز، وفي ذلك قوله:

منع العين أن تذوق المناما ... حبها أن ترى الصفا والمقاما
لي ديون بالشرق عند أناس ... قد أحلّوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأماني وإلا ... جعلوا دونها رقاباً وهاما
عن قريب ترى خيول هشام ... يبلغ النيل خطوها والشاما

وكانت أمه تميمية، فحاز الشرف بطرفيه، والتحف بمطرفيه، ولذا قال الشاعر القسطلي فيه:

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلألأ في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم ... سحائب تهمي بالندى وبحور

فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة، وتملك الأمصار الجليلة وخروجها من يد الإسلام. والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة، آل الأمر إلى ما يؤول إليه، وبعد أن يكون الملك في مملكة قد توورثت وتدوولت، ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة، قدموه ملكاً في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم ـ إن كان لهم ذلك ـ بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وإتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته، وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه، لئلا يدخل الخلل الذي يقتضي باختلال القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع»[1].

وفي مجال إدارة الحرب، يمكن التعرض لما أمكن للحاجب المنصور من الوسائط والقوى. فقد استطاع من خلال إعادة التنظيم حشد قوات ضخمة: «وذكر بأن قرطبة كانت مجمع جيوش الإسلام، فيها تنتظم القوات قبل التوجه لدار الحرب، وحين تم للمنصور بن أبي عامر ملك البرين، الأندلس والعدوة بالمغرب وتوفرت الجيوش والأموال، عرض بظاهر قرطبة خيله ورجله، وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدو وتدويخ بلاده، فنيف الفرسان على مائتي ألف، والرجالة على ستمائة ألف، وبها من صناديد المسلمين وقوّادهم من لا يفتر عن محاربة، ولا يمل من مضاربة، أسماؤهم بأقاصي بلاد النصارى مشهورة، وآثارهم فيها مأثورة، وقلوبهم على البعد بخوفهم معمورة»[2].

وقد يكون هذا الرقم الذي تضمنته المقولة السابقة أكبر من العدد الحقيقي لجيش الحاجب المنصور، غير أنه يشير في كل الأحوال إلى مبلغ ما وصله جيش المسلمين من القوة في ذلك العهد. وذكر أن المنصور كان يستخدم الأسرى الذين يحصل عليهم في حروبه للقتال في الحروب التالية، وهو ما يتضمنه النص التالي:

«ومن مناقب المنصور التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن أن أكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين. ومن أخباره أيضاً: أنه ما عاد قط من غزوة إلا استعد لأخرى، ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية

(١) نفح الطيب ١/ ٢١٥، ٢١٦.

(٢) نفح الطيب ٣/ ٢١٦.

وصائفة، وكفاه ذلك فخراً»[1].

وقد يكون من الصعب على منطق العصر الحديث ومفاهيمه قبول فكرة استخدام الأسرى في القوات المسلحة، لا سيما وأن الحرب ستتجدد باستمرار ضد الجيوش التي تم الحصول على الأسرى منها، غير أن الاحتمال الأرجح هو استخدام هؤلاء الأسرى للقيام بالأعمال التي يضطلع بها الرجال ممن تم حشدهم بالحرب ـ على نحو ما فعلته النازية، وعلى نحو ما تفعله إسرائيل أيضاً في مجال استخدام العرب للزراعة والبناء من أجل توفير الطاقة البشرية للحرب ـ، وهذا بدقة ما أشار إليه نص تاريخي ذكر ما يلي:

«عمل المنصور على زيادة جامع قرطبة، ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية، استخدام أعلاج النصارى الذين أحضرهم مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضاً من رجالة المسلمين، إذلالاً للشرك وعزة للإسلام»[2].

وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أن التغيرات الجديدة التي جاء بها الحاجب المنصور قد رافقها فرض انضباط صارم على الجيوش وهو ما تبرزه المقولة التالية:

«انتهت هيبة المنصور بن أبي عامر وضبطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقوام الملك إلى غاية لم يصلها ملك قبله، فكانت مواقفهم في الميدان على احتفاله مثلاً في الإطراق، حتى أن الخيل لتتمثل إطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سلَّه بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله، فقال: عليَّ بشاهر السيف. فمثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أن شهرت سيفك في مكان لا يشهر فيه إلا عن إذن؟ فقال: إني أشرت به إلى صاحبي مغمداً فزلق من غمده. فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى. وأمر به فضربت عنقه بسيفه، وطيف برأسه، ونودي عليه بذنبه»[3].

ويمضي الحاجب المنصور بهذا الجيش الذي اكتمل نظامه وتنظيمه، وتعاظم في عدده وعدته، ليرسم على صفحات التاريخ أمجاده الحربية وانتصاراته القتالية، وليعيد لشبه الجزيرة الأندلسية أمجادها الأولى أيام الفتح الخالدة.

---

(١) نفح الطيب ٣/ ٥٩٦.
(٢) نفح الطيب ٣/ ٥٤٦.
(٣) نفح الطيب ٣/ ٤١٩.

٢ ـ غزوات المنصور في الشمال

لم يكن الحاجب المنصور في حاجة للذرائع والحجج من أجل القيام بغزواته ضد دول النصارى في الشمال، فقد كانت هذه الدول في حالة حرب شبه دائمة ضد المسلمين. غير أن الحاجب المنصور استخدم أسلوباً فريداً لشن هذه الحروب، ويتلخص هذا الأسلوب في الانتصار للمسلمين والاستجابة لأهدافهم ما ضمن له تحقيق هدف مزدوج، الأول: رفع الروح المعنوية للمسلمين. والثاني: إحباط إرادة القتال لدى الأعداء.

وقد يكون من الصعب الإحاطة بكل أعمال المنصور المتشابهة، ولهذا فقد يكون من الأفضل اللجوء إلى أسلوب الانتقاء في محاولة للتركيز على بعض المعارك المميزة بأساليبها القتالية وطرائقها في خوض العمليات، بل وحتى في حجة خوضها وفقاً لما سبقت الإشارة إليه، وهناك نموذجان يمكن البدء بهما، وهما يتعلقان بإنقاذ أسيرتين مسلمتين، وقد أوردتهما المصادر التاريخية على النحو التالي:

«تمرس ابن أبي عامر ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذلَّ من وتدٍ بقاع، ووالى على بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم، ونغَّص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار في ذلك، أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب، فسار في بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكنس فوالى في إكرامه، وتناهى في بره واحترامه، فطالت مدته، فلا متنزه إلا مرَّ عليه متفرجاً، ولا منزل إلا سار عليه معرجاً، فحل في ذلك، أكثر الكنائس هنالك. فبينا هو يَجول في ساحتها، ويجيل العين في مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة على طول الكسر، فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعُّمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها. وزعمت أن لها عدة

سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصَغار ملبسة، وناشدته الله في إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمٰن.

فلما وصل إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليه حتى تم كلامه، فلما فرغ قال له المنصور: هل وقفت هناك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعتبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه. ثم أخذ للجهاد من فوره وعرض مَنْ مِنَ الأجناد في نجده وغوره، وأصبح غازياً على سرجه، مباهياً مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجة في جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعرف ما الجلية، ويحلف له بأعظم ألية، أنه ما جنى ذنباً، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنباً، فعنَّف أرساله وقال لهم: كان قد عاقدني أن لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النسور، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها. فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم أنه ما أبصرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقاً لقوله، وتضرع إليه في الأخذ فيه بطَوْله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحف توحشها بأنسه، وغيَّر من حالها، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وأمحالها، وحملها إلى قومها، وكحلها بما كان شرد من نومها»[1].

أما الحادثة الثانية، فقد وردت كالتالي: «عاد ـ المنصور ـ من بعض غزواته، فلقيته امرأة نقمت عليه بلوغ مناه وشهواته، وقالت له: يا منصور! استمع ندائي! أنت في طيب عيشك وأنا في بكائي. فسألها عن مصيبتها التي عمتها وغمتها، فذكرت له أن لها ابناً أسيراً في بلاد سَمَّتْها، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده، ولا يخبو ضرَام قلقها من وقده، وأنشد لسان حالها ذلك الملك العلي (أيا ويحَ الشجي من الخلي)[2]. فرحب المنصور بها، وأظهر الرقة بسببها، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التي فيها ابنها، وجاس أقطارها وتخللها، حتى دوخها

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٤.

(٢) شطر بيت لأبي تمام، وتمامه: (وبالي الربع من إحدى بلي).

إذ أناخ عليها بكلكله وذلَّلها، وأعراها من حُماتها، وببنود الإسلام المنصورة ظللها، وخلص جميع من فيها من الأسرى، وجلبت عوامله إلى قلوب الكفرة كسرا، وانقلبت عيون الأعداء حَسْرى»(١).

يمكن بعد ذلك الانتقال لاستقراء بعض ملامح الطرائق التي كان يستخدمها الحاجب المنصور في عملياته، ومنها ما يبرزه النص التاريخي التالي:

«من مفاخر المنصور في بعض غزواته أنه مرَّ بين جبلين عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج، فلما جاوز ذلك المحل، وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً، لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه حتى أقفرت البلاد مسافة أيام، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين، وكان الوقت شتاء، فلما رأى ما فعلوه، رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر، وتقدم ببناء الدور والمنازل، وبجمع آلات الحرث ونحوها، وبث سراياه فَسَبَتْ وغنمت، فاسترق الصغار، وضرب أعناق الكبار، وألقى جثثهم حتى سد بها المدخل الذي من جهته، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً، فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم، فامتنع من ذلك، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسره، فأجابهم: إن أصحابي أبوا أن يخرجوا، وقالوا: إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عُدنا. فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده، وأن يُنحّوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم، ففعلوا ذلك كله، وانصرف. وكان ذلك عز ما وراءه مطمح، ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح، خصوصاً إزالتهم جيف قتلاهم من الطريق، وغصصهم في شرب ذلك بالريق»(٢).

ومن المتوقع بعد ذلك، وفي ظروف الصراع المستمر، أن يحاول كل طرف معرفة ما يحدث في جبهة الطرف الآخر عن طريق تنظيم شبكة استطلاع دقيقة، مع اتخاذ التدابير الوقائية لحماية قواته وأقاليمه من شبكة خصمه (الجاسوسية

(١) نفح الطيب ١/ ٥٩٧.
(٢) نفح الطيب ١/ ٥٩٥، ٥٩٦.

والجاسوسية المضادة). وقد اهتم الحاجب المنصور اهتماماً كبيراً بقضية الأمن والاستطلاع، ومما حفظه له التاريخ القصة التالية:

«كان الحاجب المنصور جالساً في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقال له: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إليَّ. قال: فنهض الفارس وبقي في الفج، في البرد والريح والمطر، واقفاً على فرسه، إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له، ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس: إلى أين تريد يا شيخ؟.. فقال: وراء حطب. فقال الفارس في نفسه: هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطباً، فما عسى أن يريد المنصور منه؟ قال: فتركته، فسار عني قليلاً، ثم فكرت في قول المنصور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ، وقلت له: ارجع إلى مولانا المنصور. فقال لي: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي؟ سألتك بالله أن تتركني لطلب معيشتي. فقال له الفارس: لا أفعل. ثم قدم به على المنصور، ومثله بين يديه، وهو جالس لم ينم ليلته تلك، فقال المنصور للصقالبة: فتشوه. ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً. فقال: فتشوا بردُعة حماره، فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي... فلما انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم»[(1)].

كان من نتيجة هذه الطرائق التي طبقها الحاجب المنصور أنه حقق نجاحاً لا مثيل له في إحباط إرادة القتال لدى أعداء المسلمين، وهو ما يشير إليه النص التالي:

«كان للمنصور في كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخراً من المفاخر الإسلامية، فمنها أن بعض أجناده نسي رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم، فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر، وهذا بلا خفاء مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث؛ لأنهم لما أُشرب قلوبُهُم خوف شرذمة المنصور وحزبه، وعلم كلٌّ من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه، لجأوا إلى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع، ولم يحصل

---

(1) البيان المغرب ٢/ ٤٣٤.

منهم غير الإشراف من بعد والاطلاع»[1].

وبقدر ما كان المنصور يهتم بمعرفة أوضاع جند العدو، كان اهتمامه كبيراً أيضاً بمعرفة أحوال جنده، وهو ما يبرزه النص التاريخي التالي:

«أصبح المنصور صبيحة أحدٍ، وكان يوم راحة الخدمَة الذي أُعفوا فيه من قصد الخدمة، في مطر وابل غَبَّ أيام مثله، فقال: هذا يوم لا عهد بمثله، ولا حيلة للمواظبين لقصدنا في مكابدته، فليت شعري هل شذ أحد منهم عن التقدير فأغرب في البكور؟ اخرج وتأمل، يقوله لحاجبه، فخرج وعاد إليه ضاحكاً، وقال: يا مولاي، على الباب ثلاثة من البرابرة: أبو الناس بن صالح واثنان معه، وهم بحال من البلل إنما توصف بالمشاهدة. فقال: أوصلهم إليَّ وعجل. فدخلوا عليه في حال الملَّاح ـ البحار ـ بللًا ونداوة، فضحك إليهم وأدنى مجلسهم، وقال: خبروني كيف جئتم؟ وعلى أي حال وصلتم؟ وقد استكان كل ذي روح في كنه، ولاذ كل طائر بوكره، فقال له أبو الناس بكلامه: يا مولانا! ليس كل التجار قعد عن سوقه، وإذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس، فنحن أعذر بإدراكها بالبدر ومن غير رؤوس الأموال. وهم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون في قصدها ثيابهم، ونحن نأتيك على خيلك، ونذيلُ على صهواتها ملابسك، ونجعل الفضل في قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاءً، فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا؟ فضحك المنصور، ودعا بالكسا والصلات، فدفعت لهم، وانصرفوا مسرورين بغدوتهم»[2].

ويظهر بوضوح أنه بقدر ما كان المنصور صلباً وقاسياً مع جنده بقدر ما كان أيضاً كريماً معهم، يغرقهم بأعطياته، ويغدق عليهم المنح والهبات يشتري بها ولاءهم، فيعادل بذلك بين (الثواب والعقاب) والشواهد على ذلك كثيرة، ومنها القصة التالية:

«تقدم إلى المنصور وانزمار بن أبي بكر البرزالي، أحد جند المغاربة، وقد جلس المنصور للعرض والتمييز، والميدان غاصٌّ بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى: يا مولاي! ما لي ولك، أسكني فإني في الفحص. فقال: وما ذاك يا وانزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتني عنها والله نعمتك، أعطيتني من الضياع ما انصب عليَّ منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٩٥.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٧، ٤١٨.

وأخرجني عنها، وأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس، أتراني أبعد القمح عني؟ ليس ذلك من رأيي!. فتطلق المنصور، وقال: لله درك من فذ عييَ لَعْيُكَ في شكر النعمة أبلغ عندنا، وأخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد وبليغ متفنن. وأقبل المنصور على من حوله من أهل الأندلس، فقال: يا أصحابنا، هكذا فلتشكر الأيادي، وتستدام النعم؛ لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتشكي المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية»[1].

ويظهر من خلال ذلك أن المنصور قد دعم جبهته الداخلية وعمل على تقويتها من أجل مجابهة تحديات نصارى الشمال، واستخدم انتصاراته الخارجية في الوقت ذاته من أجل دعم مكانته الداخلية، وزيادة قدرته العسكرية، ومن خلال هذه العلاقة الجدلية والمتبادلة أمكن له تحقيق التوازن الدقيق والمحكم في إعادة التنظيم الشامل للدولة.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٧، ٤١٨.

٣ ـ الضربات الإجهاضية المسبقة

عودة إلى بداية عهد الحاجب المنصور في قيادة الجيوش وإدارة الحرب، وكان ذلك في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، عندما توفي الخليفة الحكم المستنصر، وطمعت دول الشمال، فأسرعت كعادتها لاغتنام فرصة الاضطراب التي كانت تأتي في أعقاب انتقال الحكم من خليفة إلى خليفة. وتقدمت قوات ليون (جيليقية) حتى وصلت قلعة رباح على نحو ما سبقت الإشارة إليه. وتولى الحاجب المنصور قيادة القوات، ولم يتوجه بها للدفاع عن قلعة رباح[(١)]، بل عمل على نقل المعركة إلى قلب بلاد العدو، فقاد قواته إلى (حصن الحامة) في جيليقية، فحاصره، وسيطر بقواته على الإقليم كله، وعزل الحصن عزلاً تاماً حتى نجح في إخضاعه.

وبعد ثلاثة وخمسين يوماً من بداية التحرك ومغادرة قرطبة، عاد الحاجب المنصور بالجيش وهو مثقل بالغنائم والسبي. وعمل الحاجب المنصور على منح المقاتلين الهبات والهدايا الكثيرة، فأحبه الجنود والتفوا حوله. واستعان بالوزير أبي تمام غالب الناصري، فتم تقسيم قيادة القوات بحيث أصبحت قوات الثغور بقيادة غالب الناصر وقيادة الجيش في قبضة الحاجب المنصور[(٢)].

---

(١) **قلعة رباح**: مدينة تابعة لطليطلة، وموضعها يسمى اليوم: Castillo de Caltarava la Vieja، وفي **المغرب في حلى المغرب** ٢/ ٣٩: «هي أحد معاقل الأندلس، وولاتها كانت تتردد عليها من طليطلة، ثم أخذت طليطلة فصارت تتردد عليها من قرطبة». وفي **نفح الطيب** ١/ ١٩٠: «لما دخل الأندلس أمير المسلمين علي ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، ملك المغرب والأندلس، وأمعن النظر فيها، وتأمل وصفها وحالها، قال: إنها تشبه عقاباً، مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح ورأسه جيان ومنقاره غرناطة، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق».

(٢) في ابن عذارى ـ **البيان المغرب** ٢/ ٣٩٤، ٣٩٥ ما يلي: «لم يزل ابن أبي عامر يقوم بشأن الخليفة هشام، ويخدمه داخل الدار عند السيدة أم هشام وسائر الحرم حتى تم مراده فيه، كي يستعين به على إهلاك المصحفي، فأنهض غالباً إلى خطة الوزارتين وأنفذ إليه كتاب الخليفة =

لم يمض على بداية الغزوة الأولى أكثر من ثلاثة أشهر، (وفي عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م أيضاً)، حتى قاد الحاجب المنصور جيش الحضرة إلى الشمال والتقى بمدريد مع قائد قوات الثغر الوزير غالب. وانطلقا معاً، وافتتحا عدداً من الحصون، بينها حصن مولة، وكان أكثر الأثر فيها للوزير غالب الذي عمل على نسب الانتصارات لابن أبي عامر بموجب اتفاق بينهما، وذلك لتعزيز مكانة الحاجب المنصور في قرطبة، وتوفير الفرصة للتخلص من الحاجب المصحفي. وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة محملاً بالغنائم الكثيرة والسبي الكثير. ونجحت الخطة فتم إقصاء المصحفي، وتولى ابن أبي عامر ولاية الشرطة والجيش، ولم يلبث ابن أبي عامر حتى تزوج بأسما ابنة الوزير غالب الناصري. وقد جاءت هذه العملية والتي سبقتها لتقنعان ملوك ممالك الشمال باستمرار السياسة التي كانت مطبقة بحزم في عهدي عبد الرحمٰن الناصر ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، ما أضعف من إرادة القتال لدى أعداء المسلمين.

في العام التالي (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) قاد الحاجب المنصور للمرة الثالثة جيش الحضرة ووصل طليطلة، حيث التقى مع عمه لزوجته (الوزير غالب الناصري)، وسارت قواتهما معاً لاحتلال الحصون، فتم لهما الاستيلاء على حصن المال وحسن رنيق. وتابعت قواتهما المشتركة تقدمها في مملكة ليون، فسيطرت على إقليم شلمنقة (سلمنقة)، واستولت على ما فيه من غنائم وسبي، وأعملت في الحصون تدميراً، وفي المزارع إحراقاً. وعاد الحاجب المنصور إلى قرطبة بعد أربعة وثلاثين يوماً من خروجه، وكان لما حققه من نصر في ردع دول الشمال، وما أنجزه في سياسته الداخلية من سيطرة قوية ونشر للأمن دور كبير في استلامه خطة الوزارتين، واحتلال مركز السلطة في دولة الأندلس.

«وانصرف الحاجب المنصور بعد ذلك إلى توطيد سلطته والقضاء على منافسيه بضرب بعضهم ببعض وتصفيتهم واحداً بعد الآخر، حتى لم يبق من مراكز القوى المناوئة له سوى الوزير غالب الناصري، فأخذ في الإعداد لذلك، والاعتماد على البربر وتشجيعهم على الانتقال من عدوة المغرب والانضمام لقوته، فانثالوا على ابن أبي عامر وما زالوا يتلاحقون، وفرسانهم يتواترون. ثم

= بذلك، وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير على الصوائف، على أن يدير ابن أبي عامر جيش الحضرة، ويدير غالب جيش الثغر».

عيَّن الحاجب المنصور وزيراً له من رفاقه، وهو جعفر بن علي بن حمدون، وبذلك أصبحت سيطرة البربر كاملة على الدولة العامرية، واستطاع الحاجب المنصور أن يستعين بهم للقضاء على منافسيه جميعاً. كما اتبع الأسلوب ذاته في تصفية مراكز القوى بين البربر وذلك بضرب زعماء البربر بعضهم ببعض، والإفادة من التناقضات لتدعيم مركزه، فأصبحت سيطرته قوية على الداخل، ما جعله قادراً على الانطلاق في أعمال غزو الشمال من قاعدة قوية ومأمونة، وزجِّ كل القوى والإمكانات على جبهة واحدة»[1].

لم تكن الغزوات السابقة أكثر من تمهيد للغزوات اللاحقة، تمرس فيها محمد بن أبي عامر إدارة الحرب تحت قيادة أصلب قادة الأندلس وأكثرهم كفاءة ومعرفة بالعدو، بقدر ما أفاد منها ابن أبي عامر في معرفة مسرح العمليات، فتابع قيادة الصوائف والشواتي، فكان له في كل عام غزوتان أو أكثر بين صائفة وشاتية، وكان من أكبر أعمال الحاجب المنصور في هذه الفترة الهجوم على (سمورة) في عام **٣٧١هـ/ ٩٨١م**، حيث عملت قوات المسلمين على تدمير أقوى معاقل الشمال، ولم تغادر (سمورة)[2] إلا بعد أن تركتها طعمة للنيران، والدمار يخيم عليها، انتقاماً لما كانت تمارسه هذه المدينة ضد ثغور المسلمين.

انتقل أولاد زيري بن مناد، وهم: زاوي وجلالة وماكسن إخوة بلكين، إلى الأندلس في سنة **٣٧٣هـ/ ٩٨٣م**، فاستقبلهم الحاجب المنصور، وطلبوا إليه السماح لهم بمشاركته شرف الجهاد، ومما قالوه له: إنما اخترناك على غيرك،

---

(١) ابن الأثير ٧/ ٢١٧، أحداث سنة ٣٩٣هـ، وابن عذارى ٢/ ٤١٦، ونفح الطيب ١/ ٣٩٧، وابن خلدون ٤/ ١٤٧.

(٢) **سمورة** (أو زمورة)، Zamora: مدينة أندلسية، تقع على نهر دويرة Douro من مدن إمارة ليون، تشتهر بكاتدرائيتها. ويذكر أن سمورة وقعت تحت سيطرة نصارى الشمال أيام عبد الرحمٰن الداخل - صقر قريش - وقام عبد الرحمٰن الناصر بغزو سمورة سنة **٣٢٦هـ**، وفقاً لما جاء في **نفح الطيب ١/ ٣٥٥**، حيث ذكر ما يلي: «غزا عبد الرحمٰن في أزيد من مائة ألف من الناس، فنزل على دار مملكة الجلالقة، وهي مدينة سمورة، وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان، قد أحكمته الملوك السالفة، وبين الأسوار فصلات وخنادق ومياه واسعة، وافتتح منها سورين، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه الإحصاء، وممن عرف، أربعين ألفاً، وقيل خمسين ألفاً، وكانت للجلالقة والبشكنس على المسلمين». غير أن سمورة لم تلبث أن خضعت اسمياً لحكم الناصر ومن بعده المستنصر، مع الانطلاق من سمورة للعدوان كلما كان ذلك بالمستطاع، ما دفع الحاجب المنصور لغزوها مرات متتالية حتى تم تدميرها وإخضاعها.

وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله. واشترطوا الانفراد وحدهم بممارسة الأعمال القتالية. فوافق الحاجب المنصور، وعمل على تسليحهم وتجهيزهم بالخيول والأموال والأدلاء، فاقتحموا حدود جيليقية ليلاً، وأقاموا كمائنهم في الحقول القريبة من المدينة، وقتلوا كل من بها بهدف تحقيق المباغتة والمحافظة على السر، فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد، فضربوا عليهم وأخذوهم وقتلوهم جميعهم فرجعوا وتسامح العدو، فركبوا في أثرهم، فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة، فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم، وضربوا في مؤخرتهم (ساقتهم) وكبروا، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدد كثير، فانهزموا، وتبعهم جند صنهاجة، فقتلوا خلقاً كثيراً، وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة.

وأثارت هذه الغزوة حماسة العرب، وهم ينطلقون بجموعهم التي تم حشدها من جميع الأقطار لغزو قاعدة عدوان الشمال (مملكة ليون)، وهي الغزوة التي نفذت أيضاً في سنة (٣٧٣هـ/ ٩٨٣م) حيث انطلق الحاجب المنصور بجيشه الكثيف إلى مملكة ليون، والوصول إلى عاصمتها التي كانت تحمل الاسم ذاته (مدينة ليون). وعندما وصلها ضرب حصاراً حولها، وطلب ملك ليون الدعم من الدول المجاورة فأمده الإفرنج بجيوش كثيرة، ووقعت معارك ضارية اتصل فيها القتال ليلاً ونهاراً، وأظهر الإفرنج قدراً كبيراً من الصمود كما أظهر المسلمون تصميماً أكبر على انتزاع النصر. واستشهد عدد كبير من المسلمين كما قتل عدد كبير من قادة الإفرنج.

وأخذ الموقف في النهاية بالتحول لمصلحة المسلمين «الذين حملوا على النصارى، فانهزموا إلى بلادهم، وقتل منهم ما لا يحصى، وملك المدينة (ليون)[1] وغنم ابن عامر غنيمة لم ير مثلها، واجتمع له من السبي ثلاثون ألفاً، وأمر بالقتلى، فنضد بعضها على بعض، وأمر مؤذناً فأذن للمغرب فوق القتلى، وضرب مدينة ـ قامونة ـ (وقد تكون سلمنقة) وعاد جيش الحاجب

---

(١) **ليون**، Leon: إقليم في شمال غربي الأندلس، فتحه في القرنين التاسع والعاشر ملوك أشتوريش Asturies، والذين حملوا اسم ملوك ليون اعتباراً من سنة ٩١٠م. وانضمت مملكة ليون بصورة نهائية لمملكة قشتالة Castille اعتباراً من سنة ١٢٣٠م. وهي تضم حالياً أقاليم ليون وسمورة وبلنسية Palencia ووادي الوليد Vallandolid، وسلمنقة Salamanque ولا زالت مدينة ليون هي عاصمة الإقليم.

المنصور إلى قرطبة»[١].

قاد الحاجب المنصور بعد ذلك (في سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م) جيشه، واستطاع اقتحام أسوار برشلونة واحتلالها وفرض سيطرته عليها بعد أن طال انفصالها عن دولة الأندلس الإسلامية وخضوعها لملوك فرنسا الكارولنجيين بصورة اسمية[٢]. وتتابعت بعد ذلك مجموعة من الصوائف والشواتي قبل أن تحدث الوقعة المعروفة باسم (غزوة البياض) والتي كانت من أيام الحاجب المنصور المشهودة.

غزوة البياض (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م): أعلن عبد الله بن الحاجب المنصور تمرده على أبيه، واعتصم بقلعة شنت إشتيبين (سان إستيفان) فقاد المنصور الجيش، وحاصر شنت إشتيبين، فهرب عبد الله، والتجأ إلى البشكنس، ووعده ملك ألبة والقلاع (غرسية بن فرذلند) بالحماية والدعم، فتحرك الحاجب المنصور في اتجاه منطقة البشكنس (الباسك) وطالب غرسية بتسليم ابنه عبد الله، فرفض الملك غرسية، فأقسم الحاجب المنصور ألا ينسحب أو يعود إلى قرطبة قبل أن يتسلم عبد الله، وتقدم نحو الشمال فاصطدم بمقاومة البشكنس، ونجح في إزالة المقاومات الصغرى، ثم جابه جيش البشكنس فمزقه وتابع تقدمه فاحتل (حصن وخشمة ـ أوسمة) وأنزل به رابطة من المسلمين. وعندما وصل موقف النصارى إلى هذه الحالة من التدهور، وأدرك غرسية أن الحاجب المنصور مصمم على متابعة عملياته حتى يتم له الوصول إلى أهدافه، أرسل إليه وفداً للتفاوض، وأعلن عن استعداده لقبول شروط الحاجب المنصور جميعها، ودفع عبد الله وغيره من اللاجئين البشكنس، وتم الاتفاق على عقد الصلح وبعث المنصور من تسلم اللاجئين، وأصدر أوامره بقتلهم وفيهم ابنه عبد الله[٣]. وأخذ الحاجب المنصور في الجلاء عن المنطقة، إلا أنه لم يكد يبتعد كثيراً حتى أفاد ملك ليون ـ

---

(١) الكامل، ابن الأثير ٧/ ١٢٠.

(٢) **برشلونة**، Barcelona: مدينة إسبانية عاصمة كاتالونيا Catalogna. وبين برشلونة ومدينة طركونة خمسون ميلاً وهي إلى الشمال منها. وقد فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير (٩٢هـ/ ٧١١م)، وعاد الفرنج فسيطروا عليها سنة ١٨٥هـ/ ٢٠٦م (في عهد الحكم بن هشام) وأصبحت تابعة للكارولنجيين (ملوك فرنسا) حتى سنة ٣٧٦هـ/ ٩٨٦م حيث حررها الحاجب المنصور، واستعادها الفرنج نهائياً سنة ١٢٦٦م تقريباً.

(٣) ابن عذارى، **البيان المغرب** ٢/ ٤٢١.

قشتالة ـ من الموقف، ظناً منه أنه قادر على مباغتة ثغور المسلمين، فحشد قواته، واندفع بها متجاوزاً الحدود، فتصدى له حاكم مدينة سالم، الوزير قند، الذي عيَّنه المنصور بعد القضاء على غالب الناصري، والذي قاد قواته نحو ليون ذاتها، فتجاوز الحدود، وأعمل في السهول إحراقاً وفي القلاع تدميراً، وحصل على غنائم ضخمة، ثم اكتفى بما حققه من نتائج وأخذ في الانسحاب والتراجع.

فما كان من ملك ليون (غرسية) إلا أن عمل على انتقاء وحدة مختارة من قواته، وقادها في محاولة لضرب قوة الثغر التي كان يقودها الوزير قند. ولكن جيش الثغور الذي كان يقوده الوزير قند جابه محاولة غرسية بحزم وقوة، وأمكن له انتزاع النصر، وإحباط هجوم غرسية الذي أصيب بجراح بالغة أوقعته أسيراً مع مجموعات الأسرى التي وقعت في قبضة المسلمين. وبذل الوزير قند العناية اللازمة، غير أنه لم ينجح في إنقاذ أسيره من الموت، فجز رأسه ووضعه في تابوت وأرسله إلى قرطبة، واحتفظ بجسده، وأعلم الحاجب المنصور بمسيرة الأحداث ونتائجها. وتولى شانجة بن غرسية الحكم فعقد الصلح مع الحاجب المنصور، وطالب باستلام جثة والده، فأرسلت إليه[1].

استمرت الصوائف والشواتي في التردد على أقاليم الشمال بقيادة المنصور ذاته، حتى جاءت سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، حيث عاد المنصور لغزو مملكة ليون أيضاً والتي لا زالت تتزعم حركة المقاومة ضد المسلمين. وحقق جيش المنصور كعادته انتصاراً كبيراً، وأمكن له أسر أعداد كبيرة كان فيهم غرسية بن شانجة بن غرسية، ابن ملك ليون، والذي حمل إلى قرطبة ليعيش فيها فترة طويلة حيث تعهده المنصور بالرعاية والعناية[2].

وصل الحاجب المنصور عند هذه المرحلة إلى إحكام قبضته للتضييق على كل خصومه في الداخل والخارج، فقد مضت عليه في الحكم والسلطة زهاء عشرون سنة، أمكن له خلالها ترويض الكيانات النصرانية في الشمال، حتى أصبحت هذه الكيانات عاجزة عن تقديم أية مقاومة، ولو أنها لا زالت تحاول باستمرار إعادة تنظيم أمورها مستفيدة في ذلك من الدعم المستمر الذي كانت تتلقاه من دول الشمال (الكارولنجيين) مع الإفادة من تجمعات النصارى في الأندلس

---

(١) **الذخيرة**، ابن بسام، القسم الرابع ٣١. (٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ٧/ ١٧٣.

لإثارتهم وتحريضهم، غير أن انتصارات المنصور أضعفت تلك الأقليات بقدر ما أضعفت قدرة التحريض الخارجي.

وفي الوقت ذاته استطاع الحاجب المنصور اكتساب العدوة (المغرب) بفضل اجتذاب البربر إلى الأندلس والإفادة من طاقاتهم للجهاد في سبيل الله، ولم يعد في الأندلس وخارجها من يمتلك القدرة الحقيقية على ممارسة العدوان الحقيقي أو توجيه التهديدات الخطيرة، وتوافق ذلك مع ضعف المملكة الكارولنجية، ما أفسح المجال أمام المنصور لممارسة عملياته في إطار من حرية العمل شبه المطلقة.

غير أن الحاجب المنصور لم يكن قادراً على الاستكانة لهذه الظواهر، إذ أن خبرة المسلمين بأعدائهم شكلت قناعة بأنه من المحال الركون إلى الهدوء والاستقرار طالما بقيت هناك قوات كبيرة للفرنج في الشمال. وإذا ما أمكن للحاجب المنصور القضاء على تهديد (ليون) واحتلال أقاليمها وإضعافها وتدمير حصونها من أمثال: (سمورة) و(شنت إشتيبين) و(وشقة)[1] و(خشمة)[2] و(حصن الحامة) و(سلمنقة، أو شلمنقة) فإنه لا زالت هناك مقاومات كبرى تتجمع في أقصى الشمال الغربي من الأندلس، مستفيدة في ذلك من المواقع المنيعة للإقليم وصعوبة الاتصال به والوصول إليه، وكان هذا أكبر تحد يجابه المنصور.

(١) **وشقة**، Huesca: من كور ـ نواصي ـ الثغر الأعلى، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً، وتقع إلى الشمال الشرقي منها، وهي غير بعيدة عن شنت إشتبين: San-Esteban، وبها يسمى غير موضع بالأندلس، وكلاهما كانتا من المعاقل القوية لنصارى الشمال، ولهذا تعرضتا للهجمات التي كانت تقوم بها قوات المسلمين، وبصورة خاصة أيام الحكم المستنصر ٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ.

(٢) **وخشمة**: وأوردتها بعض المصادر العربية (خشخة) وهي Osma، تعرضت للهجوم أيام عبد الرحمٰن الناصر ٣٢٢هـ بسبب استخدامها كقاعدة للعدوان ضد ثغور المسلمين.

٤ ـ غزوة (شنت ياقب)

أ ـ الوضع العام

تقع (شنت ياقب) في إقليم جيليقية، شمال غرب الأندلس. ونظراً لوعورة هذا الإقليم وصعوبة مسالكه، فقد هرب إليه أولئك الذين تصدوا للفتح الإسلامي وقاوموه، وجعلوه مستقراً لهم ومقراً لنشاطهم، غير أن موسى بن نصير وطارق بن زياد لم يغادرا الأندلس حتى تم لهما اقتحام هذا الإقليم على أهله، وتمزيق المقاومة التي تجمعت فيه، لكن إقليم (جيليقية) بقي قاعدة ضخمة للعناصر المناوئة للحكم الإسلامي[١]، وهذا ما دفع هشام بن عبد الرحمٰن الداخل إلى غزوه، فذكرت المصادر التاريخية:

«بأنه قصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه، سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة. وبعث العساكر إلى جيليقية مع يوسف بن بخت، فلقي ملكها برمند، وهزمه وأثخن في العدو. وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدو،

---

(١) جاء في نفح الطيب ١/ ٢٧٥ ما يلي: «كانت نفس موسى بن نصير في ذلك كله تنزعج إلى دخول دار الكفر ـ جيليقية ـ فبينما هو يعمل في ذلك ويعد له إذ أتاه مغيث الرومي، رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه، يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن الوغول فيها، ويأخذه بالقفول إليه، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن بالأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جيليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها. فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أياماً ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل، ومشى معه حتى بلغ المفازة، فافتتح حصن بارو (اليوم Villabarus) وحصن لك Lucus-Asturum وتسمى اليوم Maria de Lugo فأقام هناك، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي (Pena de Pelayo)، وهي أقصى نقطة من أشتريس على المحيط الأطلسي، فلم تبق كنيسة إلا هدمت، ولا ناقوس إلا كسر، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية».

فبلغ ألبة والقلاع فأثخن فيها، ووطئ أرض بريتانية. وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين ومائة، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جيليقية، فانتهى إلى أسترقة، فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس، ثم خام عن اللقاء، ورجع أدراجه، واتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى، فالتقوا بعبد الملك، وأثخنوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج، فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين»[(١)].

وفي عهد عبد الرحمٰن بن الحكم (١٧٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٧٩٢ ـ ٨٥٢م) عادت جيليقية لتؤرق الخليفة الأموي. وفي سنة ٢٢٤هـ «خرج لذريق ملك الجلالقة، وأغار على مدينة سالم بالثغر، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر، ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه، ثم سار عبد الرحمٰن في الجيوش إلى بلاد جيليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم. وفي سنة ٢٢٦هـ، بعث عبد الرحمٰن العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض بريتانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة، ولقيهم العدو، فصبر حتى هزم الله عدوهم. وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٥م) بعث العساكر إلى جيليقية فدوخوها، وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق، وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه؛ لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثلموا فيه ثلمة ورجعوا»[(٢)].

وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمٰن (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٨٦م) ثارت طليطلة معتمدة في ثورتها على دعم جيليقية والبشكنس، فما كان من الأمير محمد إلا أن قاد جيشه حيث التقى بقوات الشمال في وادي سليط «وقد أكمن لهم، فأوقع بهم، وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً. . . ثم غزا الأمير محمد بنفسه بلاد الجلالقة فأثخن وضرب وذلك في سنة ثلاث وستين ومائتين. . ».

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) نفح الطيب ١/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٥٢.

وفي عهد عبد الرحمٰن الناصر، أقوى خلفاء الأمويين في الأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) عادت جيليقية من جديد لممارسة دورها ضد ثغور المسلمين، وأوردت المصادر الأندلسية ما يلي: «وأخبار الناصر طويلة جداً، وقد منح الظفر على الثوار، واستنزلهم من معاقلهم، حتى صفا له الوقت، وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء، فمن غزواته أنه غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جيليقية (وملكها أردون بن أذفونش) فاستنجد بالبشكنس والإفرنجة، وظاهر شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة (أمير البشكنس) فهزمهم ووطئ بلادهم، ودوخ أرضهم، وفتح معاقلهم، وخرب حصونهم، ثم غزا بنبلونة سنة **٣١٢هـ/ ٩٢٤م** ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وأفسد العمائر... وفتح ثلاثين من حصونهم. ثم غزا (غزوة الخندق) سنة **٣٢٧هـ**[١] إلى جيليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه، وصار يردد البعوث والصوائف إلى الجهاد».

ولم يلبث الجلالقة أن أظهروا الخضوع، وقصد ملكهم قرطبة لتقديم الولاء وإظهار الخضوع والطاعة، وتكررت القصة ذاتها في زمن الحكم المستنصر على نحو ما سبق عرضه. فقد تمردت جيليقية، ثم لم تلبث أن أعلنت الخضوع «ووفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس بالغرب من جيليقية[٢] وهو القومس الأكبر، فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته، واحتفل لقدومها في يوم مشهود مشهور».

يظهر عرض (الوضع العام) أن جيليقية بقيت باستمرار مركز المقاومة، وأن

---

(١) **نفح الطيب ١/ ٣٦٣** وفيه ص٣٥٥: «غزا عبد الرحمٰن صاحب الأندلس سمورة دار الجلالقة، وكان عبد الرحمٰن في مائة ألف أو يزيدون. وكانت الوقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة Ramiro، فكانت للمسلمين عليهم، ثم تابعوا بعد أن حوصروا وأُلجِئوا إلى المدينة، فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين ألفاً. وقيل: إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن إسحاق، وخوفه الكمين، ورغبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدة والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أمية استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمٰن وتخلص من رذمير، وقبله عبد الرحمٰن أحسن قبول. وعمل عبد الرحمٰن بعد هذه الوقعة على تجهيز العساكر وتوجيههم مع عدة من قواده إلى الجلالقة، فكانت لهم بهم عدة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية، وتلك هي الغزاة المعروفة باسم (غزوة الخندق)».

(٢) لذريق بن بلاشك أو بلشك Rodrigo - Valasques، وأمه هي أونسة Oneca ١/ ٣٨٥.

كل ما تعرضت له لم يضعف من شأنها، أو يقلل من خطرها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأمر المثير هو تركز الهجمات بداية من عهد عبد الرحمٰن الداخل ـ صقر قريش ـ وحتى أيام الحكم المستنصر، ومن بعده الحاجب المنصور قد تركزت على أطراف جيليقية، ولم تصل إلى قلبها. وكانت التجربة المريرة التي تعرض لها عبد الرحمٰن الداخل (في غزوة الخندق) درساً قاسياً استوعبه القادة جميعهم بحيث لم يجرؤ بعد ذلك واحد منهم على التوغل عميقاً في مناطق جيليقية الوعرة. وبالإضافة إلى ذلك كله، فقد كان استقبال الأمراء من بني أمية لملوك جيليقية وليون بمثابة اعتراف منهم بشرعية قيام هذا الكيان وانفصاله عن الأندلس الإسلامية. وقد عرف المنصور من خلال تجاربه المريرة، ومن خلال قيادته باستمرار للصوائف والشواتي أنه من المحال تحقيق الاستقرار أو ضمان الأمن مع بقاء جيليقية صامدة وقوية، الأمر الذي كان يساعد في كل مرة على إعادة تنظيم الجيوش وتجديد الصدام من (دار الحرب) وفقاً لما اصطلح عليه المؤرخون المسلمون. وقد استطاع الحاجب المنصور إخضاع كل المناطق، والوصول إلى عواصم أقاليم الشمال، وكان لا بد له من تجاوز حدود الإقليم الصعب في جيليقية حتى يضمن الأمن في بقية الأقاليم التي أمكن له إخضاعها.

ب ـ الوضع الخاص

لم تكن جيليقية مجرد قاعدة مادية صلبة للعمل ضد الإسلام والمسلمين، بل كانت قاعدة روحية لها مكانتها المعنوية للتحريض على الثورة، ومن المعروف أنه كانت للكنيسة الإسبانية دورها في التحريض ضد المسلمين، وقد ظهر هذا الدور في مناسبات مختلفة من أيام حكم الأمراء الأمويين، ووصل في بعض الأحيان إلى استفزاز السلطة في عاصمة الدولة ذاتها (قرطبة)، غير أن شدة حكام الأمويين وصلابتهم أحبطت المخططات التآمرية. وعلاوة على ذلك، فقد كان التسامح الإسلامي كافياً لإقناع المعتدلين، بفضائل التعايش بين المسلمين والمسيحيين، غير أن تطور الصراع دفع الكنيسة للبحث عن الحافز الديني الذي وجدته في (شنت ياقب) من جيليقية. وقد أورد مؤرخ أندلسي قصة غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب، وهي كالتالي:

«مدينة شنت ياقب قاصية غليسية ـ جيليقية ـ هي أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة. وكانت كنيستها

عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، وللكعبة المثل الأعلى، فبها يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما ورائها، ويزعمون أن القبر المَزُور فيها قبر ياقب الحواري أحد الاثني عشر، وكان أخصهم بعيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه. وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفاً ببيت المقدس، فجعل يستقري الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها»[١].

وأخذت الكنيسة بعد ذلك في إضفاء هالة حول مكانة قبر (القديس يعقوب). وتحولت مدينة القديس (شنت ياقب) إلى مدينة مقدسة يقصدها الحجيج المسيحي من أوروبا كلها، وجعل لها المركز الثالث بعد القدس وروما، وعندما جاء ألفونسو الثاني[٢] بعث أسطورة القديس يعقوب بعثاً قوياً وجعل منه حامي شبه الجزيرة (الإيبيرية) وسيدها. وتعلقت آمال أهل جزيرة الأندلس بحماية القديس لهم، وتخليصهم من المحن والكوارث التي قد يتعرضون لها. وقد وضعت طقوس خاصة، وتراتيل (أناشيد) حماسية لتمجيد القديس يعقوب، ودفع النصارى للتضحية والجهاد ضد الكفار ـ الذين هم المسلمون ـ وكان من خصوصية الوضع في جيليقية (وعاصمتها شنت ياقب) توافر المقاتلين الأشداء الذين لم يتعرضوا لهزائم منكرة من قبل، فكانت قدراتهم القتالية وروحهم المعنوية على درجة عالية.

---

(١) ابن عذارى، **البيان المغرب** ٢/ ٤٣٩، و**نفح الطيب** ١/ ٤١٤.

(٢) **ألفونسو** Alphonse: اسم حملته ثلاث سلالات ملكية أندلسية، الأولى: بدأت بألفونسو الأول المحارب ملك أراغون ونافارا ١١٠٤ ـ ١١٣٤م، والذي ضم إليه قشتالة بزواجه من أوراكا Urraca سنة ١١١٠م (ابنة ألفونسو السادس). ثم جاء بعده ألفونسو الثاني ملك أراغون (١١٦٢ ـ ١١٩٦) وآخر هذه السلالة ألفونسو الخامس الكبير، ملك أراغون ١٤١٦م الذي فتح نابولي وحكم تحت اسم ألفونسو الأول. وهناك سلالة ألفونسو الكاثوليكية التي حكمت إسبانيا بداية من ألفونسو الأول ملك أشتوريش ـ أستوريا ـ ٧٣٩ ـ ٧٥٧م وآخرها ألفونسو الثالث عشر الذي أصبح ملكاً منذ ولادته وغادر إسبانيا سنة ١٩٣١م ومات سنة ١٩٤١م. وهناك أيضاً سلالة ألفونسو (الثالثة) التي حكمت البرتغال بألفونسو الأول سنة ١١٣٩م وآخرها ألفونسو السادس الذي ملك البرتغال ١٦٥٦ ـ ١٦٦٧م.

ويظهر من خلال ذلك أن الوضع في هذا الإقليم لم يكن مشابهاً لما كان عليه الوضع في الأقاليم الأخرى، فلا الطبيعة الجغرافية، ولا الطبيعة الديموغرافية - السكانية - ولا طبيعة مسرح العمليات مشابهة لتلك الأقاليم التي اعتاد المجاهدون الأندلسيون التردد عليها والإيغال فيها، وكان من طبيعة جهل المسلمين بهذا الإقليم تشكيل عبء إضافي على القائد الذي يفكر في غزو الإقليم أو التعرض له، فإذا ما أضيف إلى ذلك كله الانتكاسات السابقة، فستظهر أهمية الغزوة الكبرى التي حملت اسم (شنت ياقب).

جـ - مسيرة العمليات

كان من عادة قادة العرب المسلمين، على ما تؤكد المصادر التاريخية، استخلاص دروس الحرب بعد كل موقعة أو معركة أو حملة، وتناقل هذه الدروس كابراً عن كابر، وجيلاً عن جيل، ولهذا فليس من الغريب أبداً أن يكون الحاجب المنصور قد استوعب كافة الدروس السابقة خلال مرحلة التحضير لحملته على إقليم جيليقية وتوجُّهه إلى عاصمته (شنت ياقب). وعلى الرغم من صمت المصادر الأندلسية صمتاً تاماً عن مرحلة التحضير إلا أن الشواهد المتوافرة عن العملية ذاتها، وما تم فيها من استخدام القوى والإمكانات المختلفة، وما تم خلالها من تنفيذ لإجراءات مختلفة، كل ذلك يؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الإعداد لهذه العملية والتخطيط لها قد استغرق وقتاً طويلاً جداً تم خلاله طرح كافة الاحتمالات، فجاءت خطة العمليات وتنفيذها متقنة إلى درجة مذهلة.

ولقد كانت حملة (شنت ياقب) هي الحملة الثامنة والأربعين من حملات المنصور، ولهذا فقد وضع في الإعداد لها وفي تنفيذها كل خبراته السابقة، علاوة على ما أمكن له استخلاصه من تجارب السلف. وهنا يظهر سؤال يفرض ذاته: **ترى هل كان الإعداد لهذه العملية والتخطيط لها من عمل الحاجب وحده، أم كانت هناك هيئة تشاركه في التخطيط والتنفيذ؟**.

الإجابة المتوقعة هي أن طبيعة المنصور - وفقاً لما سبق عرضه - لا تسمح لأحد بتقرير أمر هام كمثل هذا الأمر الذي كان يعتزم تنفيذه في غزوته إلى (شنت ياقب)، وهو أيضاً ما أشار إليه مصدر أندلسي بقوله:

«كان المنصور إذا أراد أمراً مهماً شاور أرباب الدولة الأكابر من خدام الدولة

الأموية، فيشيرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة الأموية عليه، فيخالفهم إلى المنهج الذي ابتدعه، فيقضون في أنفسهم بالهلاك في الطريق الذي سلكه والمهيع الذي اخترعه، فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التي اقتضاها سعده، فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها»[1].

والذي لا يدع مجالاً للشك هو أن مخالفة الحاجب المنصور لهيئة أركانه لم يكن حباً بالرفض أو رغبة فيه، غير أنه أفاد من تجاربه ومن التجارب السابقة ما لم يفد غيره، وتوافرت له القدرات التي لم تتوافر لسواه، فكان من المتوقع تجاوز تلك الأفكار الجامدة التي لم تتح الفرصة للتطور واكتساب المعرفة التي وصل إليها المنصور الذي كان في تلك الفترة يناهز الخامسة والستين من عمره.

لقد كان من أسباب فشل الحملات السابقة على إقليم (جيليقية) التحرك البطيء إلى مسرح العمليات بسبب طول مسافة التحرك، مما كان يحرم قوام المسلمين من كل أثر للمباغتة، ومما يسمح لقوات جيليقية باتخاذ التدابير المضادة. وكان من أسباب فشل الحملات السابقة أيضاً عدم تناسب حجم القوى والوسائط التي تتطلبها العمليات مع حجم الإقليم ومع متطلبات مسرح العمليات، بالإضافة إلى حاجة القوات لاختصاصات معينة تفرضها طبيعة الإقليم (المهندسين) وتأمين الإمداد الإداري للقوات الضخمة. وعلى هذا الأساس وضع الحاجب المنصور مخطط حملته إلى (شانت ياقب) في إطار حملة مشتركة برية ـ بحرية، مع حشد كل القوى والوسائط الممكنة لهذه الحملة، وتأمين كل متطلباتها الإدارية.

وذكر مصدر أندلسي[2] ما يلي: «كان المنصور تقدم في إنشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة استظهاراً على نفوذ العزيمة».

وهنا لا بد من القول: إن الأسطول الإسلامي في الأندلس كان موزعاً على مجموعة من القواعد البحرية. وكان هذا الأسطول قد واجه تحديات كثيرة في

---

(١) نفح الطيب ١/٥٨٨، ٥٨٩، وفيه عن مخالفة المنصور لما يقال له الحادثة التالية: «قيل للمنصور مرة إن فلاناً مشؤوم فلا تستخدمه، فقال: أف لسعد لا يغطي على شؤمه. فاستخدمه، ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء».

(٢) نفح الطيب ١/٤١٣، والبيان المغرب ٢/٤٣٩.

المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، مثل مواجهة غزوات النورمان - الفايكنغ - وحماية القوافل التجارية الإسلامية، غير أنه لم يسبق أن استخدم في عمليات برمائية مشتركة. وقد ساعد هذا الاستخدام الجديد الحاجب المنصور على حشد ونقل كميات ضخمة من الأسلحة والأعتدة والأطعمة، علاوة على تأمين الوسائط الضرورية لنقل الوحدات الهندسية ومعداتها الثقيلة لإقامة الجسور وتسوية الطرق وحفر الأنفاق، علاوة على تأمين نقل وحدات المشاة (الرجالة).

وهكذا، وبينما كانت القاعدة البحرية (قصر أبي دانس) تضج بالاستعدادات للغزوة الكبرى، كانت العاصمة (قرطبة) تشهد استعدادات مماثلة في تجهيز قوات الفرسان وحشدها من كل أقاليم الأندلس. وعندما انتهت مرحلة الإعداد، أصدر الحاجب المنصور أوامره بالتحرك، وبدأت جحافل الفرسان بالانطلاق من قرطبة، بينما كانت القوات البحرية تغادر أبي دانس وهي تمخر عباب محيط الأطلسي، وذلك في يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة هجرية (٩٩٨م).

كان هدف المرحلة الأولى من تحرك قوة الفرسان هو الوصول إلى (قورية)[١]، وأما المرحلة الثانية فهي الوصول إلى (غليسية)، وفي هذه المدينة الواقعة على الحدود الجنوبية لمملكة ليون، توقف الحاجب المنصور لفترة قصيرة «حيث وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المغاورة سبيلهم». والأمر الواضح هو أن الحاجب المنصور قد طلب إلى كافة القوامس حشد قواتهم للاشتراك في الحملة، وبذلك تكون قوات الحملة قد ضمت إليها النصارى من أحلاف المسلمين لقتال نصارى الشمال الذين يرفضون التعايش مع المسلمين.

حدد الحاجب المنصور مدينة (بورتو)[٢] لالتقاء القوات البرية وقوات الإنزال البحري، وذكرت المصادر الإسلامية هذا اللقاء بما يلي: «خرج المنصور بموضع برتقال[٣] على نهر (دويرة)[٤] فدخل الأسطول في النهر إلى المكان

(١) **قورية** Coria: من مدن كورة ماردة، وكانت تعرف قبل الفتح الإسلامي باسم Caurium.

(٢) **بورتو** Porto: أو O.Porto، مدينة برتغالية وبها ميناء ضخم على مصب نهر دويرة Douro.

(٣) **برتقال أو البرتغال** Portugal.

(٤) **نهر دويرة** Duoro: نهر يصب عند بورتو في المحيط الأطلسي.

الذي عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسراً بقرب الحصن الذي هنالك، ووجه ـ المنصور ـ ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض منه يريد شنت ياقب، فقطع أرَضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلجات يمدها البحر الأخضر ـ المحيط الأطلسي ـ ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارش ـ أو فلطارش ـ وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده (وادي مِنيُة)[1]، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان (أوقسان) وبسيط (بلنبو أو بلنبوط) على البحر المحيط، وفتحوا حصن (شنت بلاية)[2] وغنموه، وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها، وانتهى العساكر إلى جبل (مراسية)[3] المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر أيلة (أو ـ أوللا) إلى أن أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد صاحب القبر، تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل، يقصد نساكهم من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما، فغادره المسلمون قاعاً، وكان النزول بعده على مدينة (شنت ياقب)، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها، ووكل المنصور بقبر يعقوب ـ ياقب ـ من يحفظه ويدفع الأذى عنه. ولم يجد المنصور بشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أونس يعقوب، فأمر بالكف عنه.

وكانت مصانع شنت ياقب بديعة محكمة، فغودرت هشيماً، كأن لم تغن بالأمس. وانتسفت بعوثه بعد ذلك سائر البسائط ـ السهول ـ وانتهت الجيوش

---

(١) وادي مينة أو منهو: Minho - Rio Mino.

(٢) شنت بلاية: San Pelayo. (٣) مراسية: Morrazo.

إلى جزيرة (شنت مانكش) فقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غاية لم يبلغها مسلم قبله، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها للخيل مجال، ولا وراءها انتقال. وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب، وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله، فجعل في طريقه القصد على (برمند بن أردون) ليستقر به عائثاً ومفسداً، حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مجتازاً حتى خرج إلى حصن (بليقية)[1] من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من بليقية، وكان مبلغ ما كساه في غزواته هذه لملوك الروم، ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي، وأحداً وعشرين كساء من صوف البحر، وكساءين عنبريين، وأحد عشر سفلاطوناً، وخمس عشرة مريشاً، وسبعة أنماط ديباج، وثوبي ديباج رومي، وَفَرْوَي فَنَك، ووافى جميع العساكر قرطبة غانماً، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين».

لقد استغرقت المسيرة الشاقة من قرطبة وحتى أقاصي جيليقية (شنت ياقب) فترة أربعين يوماً تقريباً (ما بين ست بقين من جمادي الآخرة وليلتين خلتا من شعبان)، ويمكن اعتبار هذه المدة رقماً قياسياً في التحرك. وقد كان من المحال إنجاز هذا التحرك بمثل هذه السرعة لولا التحرك البحري الذي أمكن بواسطته اجتياز أكثر من نصف المسافة بسرعة كبيرة (لقوات المشاة والمهندسين)، كما كان من المحال الوصول إلى أقصى جيليقية لولا ما قام به الفعلة (المهندسون) من إقامة للجسور وتمهيد للطرقات وشق للأنفاق... إلخ.

وليست هذه هي الظاهرة الوحيدة المذهلة في العملية، فالدقة في تنظيم التحرك، وتحديد مكان اجتماع قوات الفرسان من كل الأقاليم في مكان وزمان محددين بدقة (القوامس)، وكذلك تنظيم التقاء القوات البرية بالقوات البحرية في موعد دقيق، وتنظيم التعاون بين القوات المشتركة، كل ذلك مما أضفى على العملية طابعاً مميزاً. ولئن استطاع أهل (شنت ياقب) تلقي إنذار مبكر حملهم على الفرار من وجه قوات الغزو، واللجوء إلى الجزر القريبة والجبال المنيعة،

---

(١) بليقية: في نفح الطيب ٤١٦/١، وفي البيان المغرب ٤٣٩/٢: مليقة، ولعلها لميقة لاميجو Lamego.

فإن مدة هذا الإنذار قصيرة بحيث تمت عملية الفرار بسرعة معادلة لسرعة تحرك قوات المسلمين، وتبقى الظاهرة المثيرة هي في تجنب قوات جيليقية لأي صدام مع قوات المسلمين، فاحتفظت لذلك بقوتها، فكان نصر (المنصور) من هذه الناحية نصراً منقوصاً، ولم تحقق المباغتة كل أهدافها بإرغام قوات (جيليقية) على القتال والعمل على تدميرها.



الحاجب المنصور وغزوة شانت ياقب

٥ ـ المنصور وبناء مجتمع السلم والحرب

ويعود الحاجب المنصور من كل غزوة من غزاته، وهو يحمل المزيد من أكاليل الغار، ولو أن قادة المسلمين لم يكونوا يفعلون كما يفعل أباطرة الرومان فيضعون أكاليل الغار على جباههم، إلا أن أكاليل غارهم كانت من نوع فريد، لقد كانت أكاليلهم هي رفع راية الإسلام، وتعزيز مكانة المسلمين، وبناء المجتمع الإسلامي القوي. ويعود الحاجب من كل غزوة من غزاته لينتقل من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فيعمل على متابعة البناء المتكامل للمجتمع الإسلامي.

وقد حذا الحاجب المنصور في هذا المجال حذو أمراء بني أمية، الذين اشتهروا في التاريخ بالكفاءة العالية في بناء مجتمع السلم والحرب، فكان من بعض نتائج جهدهم سمو ذلك البناء الحضاري في المشرق والمغرب. ويمكن هنا التوقف قليلاً لمطالعة بعض الشواهد التاريخية التي حفظتها الأوابد الأندلسية للحاجب المنصور ومنها:

«كان المنصور بن أبي عامر يزرع كل سنة ألف مدي من الشعير قصيلاً لدوابه الخاصة به، وأنه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل، فيعلم ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية لما وهى ـ ضعف أو تهاوى ـ من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره. وكان له دخاله ـ تعيين ثابت ـ كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يضع في كل عام اثني عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء، وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزاهرة، ذات القصور والمتنزهات المخترعة، كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة»[1].

عرف عن المنصور اهتمامه ببناء الإنسان، وتأمين العدالة، والشواهد كثيرة،

---

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨٤، ٥٨٥.

منها القصص التالية: «وقف على المنصور رجل من العامة بمجلسه، فنادى: يا ناصر الحق، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي على رأسك. وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة، وكان له فضل محله عنده. ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت. فقال له المنصور: أوَعبد الرحمٰن بن فطيس ـ الحاكم القاضي ـ بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ اذكر مظلمتك يا هذا. فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف. فقال المنصور: **ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية**. ثم نظر إلى الصقلبي وقد ذهل عقله، فقال له: ادفع الدرقة إلى فلان، وانزل صاغراً، وساوِ خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك. ففعل، ومثل بين يديه. ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: **خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره. ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكراً. فقال له المنصور: قد انتصفت أنت، اذهب لسبيلك. وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي. فتناول الصقلبي بأنواع من المذلة وأبعده عن الخدمة**».

ومن ذلك أيضاً قصة (محمد) فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، حيث ذكر: «بأن المنصور احتاجه يوماً إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوساً في سجن القاضي محمد بن يبقي بن زرب، لحيف ظهر منه على امرأته قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة. فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يرده إلى محبسه، ففعل ذلك على ما رسمه. وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور وقال له: **يا محمد! إنه القاضي، وهو في عدله، ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع منه. عد إلى محبسك أو اعترف بالحق، فهو الذي يطلقك. فانكسر الحاجم، وزالت عنه ريح العناية، وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجته، وزاد القاضي شدة في أحكامه**»[1].

ومن ذلك أيضاً قصة فتاه الكبير المعروف بـ(البورقي) مع التاجر المغربي، حيث ذكر: «أنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور،

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٩ ـ ٤٤١، والبيان المغرب ٢/ ٤٣٠، ٤٣٣، ٤٣٤.

وهو يومئذ أكبر خدم المنصور وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلماً من الفتى، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم. فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه».

ومما هو معروف أيضاً: «أنه كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتى من أهل الأدب قد رقت حاله في الطلب، فتعلق بكتاب العمل، واختلف إلى الخزانة مدة، حتى قلد بعض الأعمال، فاستهلك كثيراً من المال، فلما ضم إلى الحساب أبرز عليه ثلاثة آلاف دينار، فرفع خبره إلى المنصور، فأمر بإحضاره، فلما مَثُلَ بين يديه ولزم الإقرار بما برز عليه قال له: يا فاسق، ما الذي جرّأك على مال السلطان تنتهبه؟ فقال: قضاء غلب الرأي وفقر أفسد الأمانة. فقال المنصور: والله لأجعلك نكالاً لغيرك، لِيُحْضَر كَبْل وحداد. فأحضرا، فكبل الفتى، وقال: احملوه إلى السجن. وأمر الضابط بامتحانه والشدَّة عليه، فلما قام فأنشأ يقول:

أواه أواه وكــــــــم ذا أرى ... أكــثــر مــن تــذكــار أواهِ
مــا لامــرئ حــول ولا قــوة ... الــحــول والــقــوة لــلّــهِ

فقال المنصور: ردوه. فلما رد قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت، فقال: حُلوا عنه كَبله، فلما حُلَّ عنه أنشأ يقول:

أمــا تــرى عــفــو أبــي عــامــر ... لا بــد أن تــتــبــعــه مــنــة
كــذلــك الــلّــه إذا مــا عــفــا ... عــن عــبــدِه أدخــلــه الــجــنــة

فأمر بإطلاق سراحه، وسوغه ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه.

ومما حكي عن المنصور: «أنه عرض عليه اسم أحد خدمه في جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقد عليه، فوقع على اسمه بأن لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية. وعرف الرجل بتوقيعه، فاغتم وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة، فأرق المنصور إثر ذلك، واستدعى النوم فلم يقدر عليه. وكان يأتيه عند تنويمه آتٍ كريه الشخص عنيف الأخذ يأمره بإطلاق سراح الرجل، ويتوعده على حبسه، فاستدفع شأنه مراراً إلى أن علم أنه نذير من ربه، فانقاد لأمره، ودعا بالدواة في مرقده فكتب بإطلاقه، وقال في كتابه: هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر، وتحدث الناس زماناً بما كان فيه».

ومن أخبار المنصور القصة التالية: «من أعجب ما وقع للمنصور، وما رأيته

بخزانة في كتاب ألّفه صاحبه في الأزهار والأنوار، حكى فيه ترجمة، النيلوفر، أن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم، الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم، فأمر المنصور أن يغرس في بركة عظيمة ذات أميال (نيلُوفر) على ما تسع، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيلُوفر، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة، بحيث يشرف على موضع البركة، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناقب الذهب والفضة، بيد خمسمائة أطباق ذهب، وبيد خمسة أطباق فضة، فتعجب الرسول من حسن صورهم وجمال شارتهم، ولم يدر ما المراد. فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها، وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصور، حتى صار كوماً بين يديه، فتعجب النصراني من ذلك، وأعظمه، وطلب المهادنة من المسلمين، وذهب مسرعاً إلى مرسله، وقال: لا تعادِ هؤلاء القوم، فإني رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها»[1].

ومن أخباره في الكرم والسخاء ما حكاه محمد بن أفلح، غلام الحكم، قال: «دفعت إلى ما لا أطيقه من نفقة في عرس ابنة لي، ولم يبق معي سوى لجام مُحَلًّى، ولما ضاقت بي الأسباب قصدته بدار الضرب حين كان صاحبها، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمته ما جئت له، فابتهج بما سمعه مني، وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده فملأ حجري، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه. وعملت العرس، وفضلت لي فضلة كثيرة، وأحبه قلبي حتى لو حملني على خلع طاعة مولاي الحكم لفعلت، وكان ذلك في أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبي عامر الذروة».

وعندما أراد الحاجب المنصور توسيع جامع قرطبة، لم يحاول إرغام أصحاب المنازل المجاورة للمسجد واستملاكها بدون إرادتهم. ويحكى عنه ما يلي:

---

(١) الذخيرة، ابن بسام ٤/ ٤٠ وما بعدها.

«لما عزم الحاجب المنصور على زيادة جامع قرطبة، وجلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطط واطلب ما شئت. فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له، وأن تُشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها، حتى أُتي بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت: لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة، فقال: تبتاع لها دار بنخلة، ولو ذهب فيها بيت المال. فاشتريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن»[1].

وأصبح عدد من يخدم الجامع بقرطبة في دولة ابن أبي عامر، ويتصرف فيه، من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً.

ومن مآثر الحاجب المنصور على ما أوردته المصادر التاريخية ما يلي: «لما ختن الحاجب المنصور أولاده، ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي، ومن أولاد الضعفاء عدداً لا يحصر، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار، خمسمائة ألف دينار، وهذه مكرمة مخلدة، ومنه مقلدة، فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء، ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء»[2].

تلك هي بعض أخبار المنصور وفقاً لما أوردته المصادر التاريخية، وهي تشير

---

(١) ذكر ابن عذارى ٢/٤٢٨ بشأن هذه الزيادة ما يلي: «كان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البر والإحسان والقربة بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه، سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب إليها قبائل البربر من العدوة وأفريقية، وتناهى حالها في الجلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس، فشرع المنصور في الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة. فبدأ ابن أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من أول المسجد إلى آخره. وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الإتقان والوثاقة، دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ما عدا زيادة الحكم. وأول ما عمله ابن أبي عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن، وصنع في صحنه الجب العظيم قدره، الواسع فناؤه، وهو - أعني أبي عامر - هو الذي رتب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت، فتطابق بذلك النوران».

(٢) نفح الطيب ١/٥٩٦.

بوضوح إلى جهد الحاجب المنصور لبناء الجبهة الداخلية على أسس قوية ومتينة. فهو يحرص على تحقيق العدالة بين كل المواطنين في الدولة، لا فرق بين حاكم ومحكوم، وبين مواطن ومواطن، حتى لو كان المواطن من عناصر البلاط أو المسؤولين في الحكم والدولة، وحتى لو كان من حاشية المنصور ذاته.

والحاجب المنصور بعد ذلك لا يعطي قطاع الخدمات أو المرافق العامة الأفضلية على حقوق المواطن، فبناء جامع قرطبة، وتوسيعه، قد فرض عليه إخراج المواطنين من منازلهم، غير أنه لم يحاول إرغام المواطن بقوة الدولة على التنازل عن حقوقه، وعمل على تعويضه بما فيه خيره، وبما يزيد على حقوقه، وبذلك تجنب الظلم الذي هو مفسدة للوطن والمواطن على السواء، وأدى ذلك يقيناً إلى التلاحم في الجبهة الداخلية وضمان الاستقرار، الأمر الذي ساعد المنصور على تركيز كل جهده للقتال، وللتصدي للأعداء الخارجيين، فكان في ذلك الأنموذج الأمثل للتأكيد على أهمية التلاحم الداخلي في بناء قوة الدولة وقدرتها على رد طمع الطامعين وكيد الكائدين.

الفصل الثالث

المنصور - وموقعه في التاريخ

١ - المنصور وحروب الاسترداد
٢ - المنصور والحروب الصليبية



١ ـ المنصور وحروب الاسترداد

استولى الحاجب المنصور على (برشلونة) وحررها من سيطرة الفرنج سنة ٩٨٦م، وتابع حروبه حتى تم له توحيد شبه جزيرة الأندلس، وظهر أنه لن يلبث طويلاً حتى يعبر جبال البيرينه، لينقل حروبه إلى بلاد الغول (فرنسا) وذلك عندما وافته منيته مجاهداً في سبيل الله سنة ١٠٠٢م. وأخذت قوة المسلمين في التمزق بعد وفاة المنصور، غير أن البحرية الإسلامية تابعت الصراع فهاجمت أنتيب (عين الطيب)[١] سنة ١٠٠٣م، و(بيزا)[٢] في سنة ١٠٠٥م و١٠٠٦م، ثم هاجمت (ناربون)[٣] في سنة ١٠٢٠م، غير أن الهجوم المنظم للمسلمين من الأندلس توقف فترة من الزمن، وبذا حان الوقت للمسيحيين لأن يقوموا بهجوم مضاد.

ومن هنا فقد اعتبر معظم المؤرخين والباحثين بأن فترة حكم الحاجب المنصور هي نقطة التحول الحاسمة في تاريخ الأندلس الإسلامية، وأن أعمال الحاجب المنصور هي آخر ظواهر عظمة الأندلس الإسلامية، ونهاية عصر القوة الذي امتد حوالي قرن من الزمن، بداية من حكم عبد الرحمٰن الناصر ومروراً بحكم ابنه المستنصر ونهاية بالحاجب المنصور.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن كثيراً من المؤرخين يعتبرون أن ما تبع حكم الحاجب من تمزق وضعف[٤] هو الذي ساعد ممالك النصارى في الشمال

---

(١) **عين الطيب (أنتيب)** Antibes: مدينة في الألب البحرية Alpes-Maritimes، دائرة غراس: Grasse، وهي خليج على البحر الأبيض المتوسط، ومركز سياحي شتوي.

(٢) **بيزا أو بيزو** Pizzo: مدينة إيطالية لها خليجها على البحر الأبيض المتوسط، وفيها نفذ حكم الإعدام بالماريشال الإفرنسي مورات Murat، صهر نابليون بونابرت سنة ١٨١٥م.

(٣) **ناربون** Narbonne: مدينة فرنسية في مقاطعة أود Aude تقع على قناة روبين Robine المتفرعة من نهر أود.

(٤) انظر في نهاية الباب الملحق بالممالك والإمارات الأندلسية التي برزت بعد حكم الحاجب المنصور حتى زاد عددها فوصل إلى (٢١) مملكة وإمارة متنافرة ومتناحرة.

على تجميع قواتها وحشد قدراتها لتنظيم الهجوم الكثيف ضد تلك المدن الإسلامية وإماراتها الممزقة، وأن ما تم إحرازه من انتصارات ضد المسلمين بدعم من الكنيسة، قد شجع هذه الأخيرة على تنظيم الحروب الصليبية ورفع راياتها لا في الأندلس وحدها، وإنما في كل أنحاء العالم الإسلامي، الأمر الذي انتهى بنقل الحرب الصليبية إلى المشرق الإسلامي، وإقامة الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ولقد استغرقت هذه التحولات زهاء قرن من الزمن. فقد توفي الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢م، وأخذ ملك نافار (شانجة، أو سانكو الثالث) تأليف عصبة من الأمراء المسيحيين لقتال المسلمين في سنة ١٠١٤م، وأظهر زميلاه، ملكا ليون وقشتالة، ميلاً لمساعدته، كما أظهر (وليم شانجة ـ سانكو) دوق غسقوينا أو (غاسكونيا)[١] حماسة كبيرة لهذا التحالف. أما ملك فرنسا (روبرت) فلم يظهر حماسة لهذا التحالف، وعلى الرغم من ذلك فقد أمكن تحقيق بعض النجاح في دفع المسلمين نحو الجنوب.

ولم يلبث هذا القتال الذي استعر ضد المسلمين في الأندلس أن اتخذ هيئة الحرب الصليبية، والتي أصبح للبابوات الدور الأساسي في توجيهها، حيث أخذ هؤلاء في استثمار كل موقف لدعم فكرة الحرب الصليبية. وقد حدث في سنة ١٠٦٣م، أن لقي ملك أراغون (روذمير الأول ـ أو راميرو) مصرعه على أيدي أحد المسلمين، وذلك عندما كان يقود حملة لإبادة المسلمي في إقليم (غرادوس)[٢]، فبادر البابا الإسكندر الثاني إلى إثارة الحماسة في أوروبا كلها بالتحريض على حرب المسلمين، ووعد ببذل الغفران لكل من يقاتل في إسبانيا من أجل الصليب، وشرع في تنظيم جيش لمتابعة عمل (روذمير) فقام (وليم مونتروي)[٣]، وهو جندي نورماني يعمل بخدمة البابا، بتجنيد المقاتلين من شمال إيطاليا. وفي الوقت ذاته تولى (إبلس كونت روسي)[٤] شقيق

---

(١) غسكونيا Gascogne: دوقية إفرنسية قديمة تنسب إلى خليج غسقونيا، وهو الخليج الذي يشكله المحيط الأطلسي بين فرنسا وإسبانيا. وكانت دوقية غسقونيا حتى مضيق جيروندة Gironde في الشمال ومدينة أوش Auch هي عاصمة هذه الدوقية التي توحدت مع أكيتانيا سنة ١٠٥٢م فشكلت بحدودها مقاطعة البيرينة العليا، كما هي في الوقت الحاضر تقريباً.

(٢) غرادوس: Grados.

(٣) وليم مونتروي: William of Montereuil.

(٤) كونت روسي إبلس: Ebles of Roucy.

(فليشيا)[1] ملكة أراغوان، مهمة تجنيد المقاتلين من شمال فرنسا.

على أن أضخم جيش تقدم في تلك الفترة لحرب مسلمي الأندلس هو الجيش الذي حشده كونت أكيتانيا (جفري)، الذي تولى قيادة الحملة بنفسه. واستطاع الفرنج الصليبيون بنتيجة هذه الجهود المكثفة انتزاع (بربشتر - أو باربسترو) من قبضة المسلمين ونهب ثرواتها وإخراج المسلمين منها، غير أن هؤلاء نجحوا في استعادتها منهم وطردوا الفرنج الصليبيين، وكانت هذه العمليات هي بداية لتدفق الفرسان والمقاتلين الإفرنسيين للحرب في الأندلس.

وفي سنة ١٠٧٣م أعد (إبلس كونت روسي) حملة جديدة، ودعا البابا (غريغوري السابع) كل أمراء المسيحية للانضمام إليها، فأعلن عند تذكيره العالم أن مملكة إسبانيا تنتمي إلى المقر المقدس وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدي الكفار - المسلمين - من الأراضي.

وفي سنة ١٠٧٨م تولى هيو الأول دوق برغنديا[2] قيادة جيش لمساعدة صهر ملك قشتالة (ألفونسو السادس).

وفي سنة ١٠٨٠م أعلن البابا (غريغوري السابع) تأييده الشخصي للحملة، التي قادها (جان جفري)، ثم استمر الصراع في تصعيد مستمر خلال السنوات التالية إلى أن نجح الفرنج الصليبيون بالاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥م، وإخراجها من قبضة المسلمين. وتبع ذلك حركة إفاقة إسلامية تولى قيادتها أمير قرطبة (المعتمد بن عباد) الذي لم يلبث طويلاً، فقاد يوسف بن تاشفين حملته الشهيرة، وخاض إلى جانب المعتمد معركة (الزلاقة) سنة ١٠٨٦م. وقابلت الكنيسة ذلك بإشهار الدعوة لاستثارة حماسة الفرسان المسيحيين وتوجيههم إلى الأندلس لمقاومة المرابطين. وبذل البابا (إيربان الثاني) المساعدة عن طيب

(١) **فليشيا**: Flicia.

(٢) **برغنديا** Burgondes: شعب جرماني، أقام في القرن الأول على الراين، وانتصر عليه الهون بقيادة عطيل (أتيلا) سنة ٤٣٧م، ثم تحالف مع الرومان وأقام في حوض الرون، وخضع لحكم الفرنجة Française سنة ٥٣٤م. ومنح البورغنديون اسمهم إلى الكيانات البورغندية Bourgone التي تشكلت في إطار دوقيات وممالك كانت أولها دوقية سنة ٥٣٤م التي ما لبثت أن اندمجت بالميروفنجيين (الملوك الكسالى) سنة ٨٧٩م عن طريق المصاهرة، وتطورت دوقية برغنديا إلى مملكة، فقدمت إلى فرنسا عدداً من الملوك، أبرزهم: لويس الحادي عشر، وشارل المتهور ١٤٧٧م.

خاطر، بل أنه أخطر الحجاج المتوجهين إلى فلسطين، بأنه من الأفضل لهم أن ينفقوا أموالهم في بناء المدن الإسبانية التي دمرتها الحرب مع المسلمين.

وظلت الحملات الموجهة إلى إسبانيا وهي تجتذب من الشمال الفرسان المسيحيين المغامرين حتى نهاية القرن الحادي عشر، ولم تتوقف هذه الحملات المستمرة إلا بعد الاستيلاء على وشقة سنة ١٠٩٦م، وبربشتر سنة ١١٠١م.

وهكذا لم يشرف القرن الحادي عشر على نهايته حتى تحولت فكرة (الحروب الصليبية) إلى اتجاه عملي. ولقي الأمراء والفرسان المسيحيون من تشجيع الكنيسة، ما حملهم على نبذ صراعاتهم الداخلية، ومنازعاتهم الصغرى، والتوجه بكل قواتهم إلى أطراف العالم المسيحي لقتال المسلمين، يدفعهم إلى ذلك الإغراء بالاستيلاء على ما يحصلون عليه من غنائم، وما يحوزونه من الأراضي التي يخرجون المسلمين منها، علاوة على المزايا الروحية.

ولم تكن هذه المزايا الروحية ثابتة أو محددة، فقد وعد البابا إسكندر الثاني بالغفران كل من اشترك في حملة سنة ١٠٦٤م، بينما لم يبذل البابا غريغوري السابع إلا التحلل لكل من لقي مصرعه في الحرب من أجل الصليب. وفي الحالات كلها، فقد تولت البابوية توجيه الحروب المقدسة، وهي التي شنتها، ورشحت قادتها، فكان لا بد بالتالي من خضوع كل البلاد التي يتم إخراج المسلمين منها لسلطة البابوية.

وعلى الرغم من أن كبار الأمراء قد نزعوا إلى البقاء بعيداً عن الحرب المقدسة، فإن الفرسان الغربيين أبدوا استعدادهم للاستجابة إلى الحرب المقدسة، فكانت دوافعهم من بعض الوجوه دينية خالصة، إذ أنهم خجلوا أن يستمر القتال بينهم، وأرادوا أن يحاربوا من أجل الصليب. على أن الحرص على امتلاك الأراضي، كان أيضاً من الدوافع التي جعلت الأمراء، ولا سيما في شمال فرنسا، يقبلون على الاشتراك في الحروب المقدسة، نظراً لما رسخ بها من نظام قصر الوراثة على الابن الأكبر. فكلما ازداد السيد عزوفاً عن توزيع أملاكه، وما يتبعها من وظائف، بعد أن أخذت تتركز وقتذاك حول قلعة مشيدة من الحجارة، كان لزاماً على الأبناء الأصغر أن يلتمسوا الرزق في كل مكان، فساد القلق، وظهر الميل للمغامرة بين طبقة الفرسان الإفرنسيين، وتزايد ذلك وضوحاً عند النورمان، الذين لم يكن قد مضى على تحولهم من حياة البداوة وقطع الطرق أكثر من أجيال قليلة، فإذا تهيأت الفرصة لربط الواجب المسيحي

بامتلاك الأراضي في أجواء الجنوب، فإن ذلك سيكون حقاً من الأمور المثيرة للإغراء.

أما الكنيسة فإنه توافر لها من الحوافز والعوامل ما جعلها تطرب لما حدث من تقدم الحركة واضطرادها، إذ بات باستطاعتها استخدام هذه الحركة وتطبيقها في الطرف الشرقي للعالم المسيحي، ونقل الحرب إلى المشرق الإسلامي في بلاد الشام.

وهكذا، فقد انطلقت شرارة الحرب الصليبية من أرض الأندلس، وكان نجاح القوات الصليبية حافزاً كبيراً لتطوير الصراع وتوسيع آفاقه. وفي الواقع، فإن البابا لم يجد أي صعوبة في توطيد سلطته على ما قام من الكنائس بالبلاد التي جرى فتحها في الأندلس، بعد إخراج المسلمي وإبعادهم عنها. ولم يكن بإسبانيا من السلطات الكنسية ما يستطيع أن يناهض البابا أو يتحداه، غير أن نقل الحرب إلى المشرق الإسلامي كان يتطلّب توحيد جهد الكنائس الغربية المتمركزة في قبضة البابا مع تلك القائمة في القسطنطينية والإسكندرية.

ومن هنا بدأت تتبلور فكرة الاتصال بهذه الكنائس وتنسيق التعاون معها، وقد أدت الجهود المبذولة في هذا الاتجاه إلى إجراء الكثير من الاتصالات، وذلك قبل أن يتم عقد مؤتمرات عالمية تمثلت في مجمع (بياكنزا) سنة ١٠٩٥م ثم مجمع كليرمونت في سنة ١٠٩٥م، وهي المجمعات التي أعلن فيها البابا (إيربان الثاني) الحرب الصليبية، والتي لم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى أخذت جيوش الغرب الصليبية، بالتوجه إلى المشرق وإقامة كياناتهم وإماراتهم فوق أرض بلاد الشام، وبدأ ذلك الصراع المرير الذي عرف منذ ذلك الوقت باسم (الحروب الصليبية).

٢ ـ المنصور والحروب الصليبية

بدأ القرن الحادي عشر الميلادي بوفاة الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢م، وانتهى هذا القرن باستيلاء الفرنج الصليبيين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م، فكان القرن الحادي عشر هو قرن الاستقرار الاستراتيجي الذي ضمن للقوات الصليبية الانتقال من الدفاع الاستراتيجي الشامل، إلى الهجوم الاستراتيجي الشامل. ولقد بدأ القرن الحادي عشر الميلادي والأندلس موحدة وقوية، وانتهى هذا القرن وأندلس المسلمين قد انحسرت تقريباً إلى ما وراء نهر الوادي الكبير. واستمر الصراع المرير بعد ذلك زهاء أربعة قرون فوق أرض الأندلس الإسلامية، وتحت راية الحروب الصليبية.

ويظهر تحليل الأحداث التاريخية ومساراتها أن هذه الحروب التي انطلقت من أرض أندلس المسلمين لم تكن بعيدة عن أنظار خلفاء الأندلس الأقوياء، والذين كان الحاجب المنصور آخر من يمثلهم على الرغم من أنه لم يكن من سلالة الخلفاء.

وهنا تبرز نقطة مثيرة، فحملات الحاجب المنصور قد دمرت كل الكيانات الصليبية، وتمكنت قوات المسلمين من اقتحام أصعب مناطق الأندلس وأشدها وعورة في حملة (شنت ياقب)، ولم يكن ذلك إلا برهاناً ثابتاً على تقويم خطورة هذه الكيانات على المسلمين. فلقد اكتفى عبد الرحمٰن الثالث الناصر لدين الله بإخضاع حكام هذه الكيانات، وجاء ابنه الحكم المستنصر بالله فسار على خطى أبيه وقبل من ملوك الشمال وأمرائهم الخضوع لحكم المسلمين في قرطبة، وكان هذا الخضوع (الاسمي أو الشكلي) هو أقصى ما أمكن تحقيقه في عصر القوة. فجاء الحاجب المنصور، ودمر هذه الكيانات وقضى على حكامها وملوكها، ومزق قواتها المقاتلة في ثمانٍ وأربعين حملة (أو اثني وخمسين) مما يشير إلى أن الصراع كان مستمراً، وبمعدل أكثر من صائفة وشاتية في العام الواحد، ويعني ذلك بداهة وجود مقاومة ضارية ومتعاظمة باستمرار.

وهذا يعني، بكلمة أكثر وضوحاً، أن إعلان الحرب الصليبية من قِبَل الكنيسة لم يكن إلا نتيجة لهذه المقاومة القوية والمتعاظمة للمسلمين في الأندلس، وأن عجز هذه المقاومة وضعفها لم يكن إلا بسبب تمزقها وعدم تنسيق التعاون فيما بينها، فجاءت الكنيسة بما يتوافر لها من إمكانات مادية وقدرة معنوية على إملاء هذا الفراغ القيادي، وتوجيه الفعاليات الحربية كلها في اتجاه واحد، للعمل ضد المسلمين. وهكذا فقد كانت الحرب الصليبية أسبق من تدخل الكنيسة المباشر والعلني.

وتكشف المصادر التاريخية على أن دور كنيسة قرطبة، على سبيل المثال، في التحريض ضد المسلمين قد ظهر منذ الأيام الأولى للحكم الأموي في الأندلس، غير أن هذا الدور كان محدوداً، وثانوياً، بسبب قوة المسلمين وشدة عصبيتهم، فلما تعاظمت قوة المقاومة أمكن للكنيسة ممارسة دور أكبر، وذلك بالانتقال من العمل السري إلى العمل العلني، ومن دور التحريض على الفتن إلى إشهار الحرب الشاملة.

يظهر من خلال ذلك أن دور الكنيسة قد تكيَّف في كل مرحلة مع ما تتطلبه من طرائق مناسبة للعمل، حيث تركز الجهد في البداية على منع المسيحيين من الدخول في الإسلام، ومقاومة العروبة والإسلام. وفي مرحلة تالية تم تطوير الصراع باستثارة المولدين وسواهم من الذين أشهروا إسلامهم منذ الأيام الأولى للفتح، وتعتبر ثورة (عمرو بن حفصون) التي انتهت في عهد عبد الرحمٰن الثالث أبرز نموذج لهذا الاتجاه، حتى إذا ما تم استنزاف قدرة المسلمين في الحروب الدائمة، اتجهت الكنيسة إلى حشد المقاتلين من كل أنحاء أوروبا في خندق واحد للكيد للمسلمين والنكاية بهم وتنظيم الحرب الشاملة ضدهم.

لقد خاض الحاجب المنصور صراعاً صعباً طوال حياته، وهو يرفع راية الجهاد في سبيل الله، ويدرك بوعي تام أخطار السيل القادم في الشمال، وأمكن له توحيد جهد مسلمي الأندلس كلهم، فاستطاع إقامة سد قوي في وجه الطوفان المتدفق عبر ممرات جبال البيرينه، وهذا ما حفزه إلى التفكير بعبور هذه الجبال، بعد أن أمكن له القضاء على كيانات النصارى في الأندلس، وهذا ما يؤكد تقديره الصحيح، لخطورة التحريض الخارجي القادم من شمال الأندلس وارتباط هذا التحريض بالصراع على أرض أندلس المسلمين. غير أن جهود الحاجب المنصور كانت تحتاج لعاملين أساسيين وهما التصعيد والاستمرار،

وهما عاملان ارتبطا دائماً بالتكوين الداخلي للمجتمع الإسلامي في الأندلس، وكان هذا التكوين مرتبطاً بدوره (بالشرعية) والقدرة على توحيد الجبهة الداخلية، وقد دمر الحاجب المنصور الشرعية بالقضاء على البيت الأموي.

وصحيح أنه ظهر عدد كبير من الأمراء الأمويين بعد زوال حكم الحاجب المنصور، إلا أن هؤلاء لم يتمكنوا بعد زوال (الهيبة الشرعية) من إمساك الأمور بقبضة قوية أو التأثير على مسيرة الأحداث، فحل التمزق محل الوحدة الداخلية. وهنا تظهر النقطة التي طالما أثارت جدل الباحثين والمؤرخين الذين يعتبرون أن الحاجب المنصور هو المسؤول الأول عن كل ما أصاب مسلمي الأندلس بعد وفاته، وأن ما حققه للمسلمين من انتصارات في حياته لم يكن أكثر من بناء على الرمال لم تلبث أن اجتاحته عواصف الشمال.

فما هو دور الحاجب المنصور في ذلك؟ وهل كان جهده وجهاده في غير مصلحة المسلمين؟ وهل هو من النوع الذي اجتهد فأخطأ عندما دمر البيت الأموي في الأندلس، وهو البيت الذي حفظ لأندلس المسلمين وحدتها وقوتها؟

لا بد من القول قبل كل شيء أنه ما من خلاف على أن (للهيبة) و(الشرعية) دورهما في توحيد الأمة وتركيز جهدها وحشد قواها، ولكن هل كان الحاجب المنصور هو المسؤول عن الدمار الذي لحق بالمسلمين بعد زوال الحكم الأموي؟ هناك أكثر من نقطة يمكن التعرض لها لإيضاح هذا الموقف:

١ ـ إن ظاهرة التمزق أو بروز النزعات الاستقلالية لم تكن جديدة لا على مجتمع المسلمين في الأندلس، أو على مجتمعات الغرب والشرق القديم والحديث، وهي ليست خاصة من خصائص مجتمع مسلمي الأندلس، فقد ظهرت قبل قيام الحكم الأموي، وظهرت أيام الحكم الأموي، ثم عادت للظهور بشكل حاد وقوي بعد زوال الحاجب المنصور.

٢ ـ إن غياب الحاجب المنصور عن مسرح الأحداث، وزوال البيت الأموي من قرطبة، لم يمنع ظهور المحاولات المتكررة لإعادة تنظيم وحدة الأندلس، سواء في عهد المعتضد ومن بعده المعتمد بن عباد، أو أيام المرابطين، ثم في أيام الموحدين.

٣ ـ إن هذه المحاولات لإعادة بناء الوحدة الداخلية لم تفلح في إيقاف سيل الشمال، أو الحد من أخطار الحرب الصليبية الشاملة على مسرح الأندلس، أو على مسارح الأعمال القتالية الأخرى في البر والبحر.

يظهر من خلال ذلك أن دور الحاجب المنصور كان كبيراً في تأخير مسيرة الأحداث وإعاقتها إذا ما صح التعبير، شأنه في ذلك شأن الخليفتين اللذين سبقاه من الأمراء الأمويين (الناصر والمستنصر)، وأنه بتدميره للممالك النصرانية في الشمال، قد أوقف الخطر إلى حين، غير أن تعاظم القوى في الشمال قد انعكس على الصفحة الداخلية للأندلس فأعاقتها عن إقامة وحدتها. وعندما أمكن إعادة هذه الوحدة بفضل زج قوت خارجية من خارج مسرح العمليات الأندلسي، كالمرابطين والموحدين، كانت مسيرة الأحداث قد أخذت في التسارع ضد العرب المسلمين في أندلسهم الإسلامية.

لم يكن الحاجب المنصور هو سبب ما لحق بأندلس المسلمين من التمزق، بعد رحيله عن الدنيا وبعد قضائه على البيت الأموي، ولو أنه بإزالة البيت الأموي، وبرحيله عن الدنيا قد ترك فراغاً قيادياً لم يتمكن أحد من إملائه مما أدى إلى استقلال كل حاكم إقليم أو أمير مدينة بأمور إقليمه وشؤون مدينته.

وكان من المحتمل ظهور هذا التمزق حتى لو استمر حكم البيت الأموي، وظهر فيه أمراء لا تتوافر لهم قوة الناصر أو بأس المستنصر أو حزم الحاجب المنصور، وذلك على نحو ما حدث في عهود الأمراء الأمويين الذين تولوا حكم قرطبة خلال الفترة ما بين أيام عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) وأيام حكم عبد الرحمٰن الثالث (الناصر لدين الله).

ويمكن تشبيه دور الحاجب المنصور (بالتعادلية)، فهو قد استطاع تأخير ظهور هذا التمزق أو استفحال نتائجه وذلك بقضائه على قوة الكيانات النصرانية في شمال الأندلس، وهو من جهة أخرى ساعد على خلق الفراغ الإداري في الحكم بقضائه على البيت الأموي، وعدم تمكُّنه من تنظيم إدارة قوية تخلفه، فكان حكمه الفردي المستبد والذي يشبه الأنظمة الديكتاتورية عاملاً مساعداً للبناء في اتجاه والهدم في اتجاه آخر، فكان الهدم معادلاً للبناء في آثاره ونتائجه. غير أن معالجة الموقف من هذه الناحية، ووفقاً لهذا المبدأ التعادلي؛ يعني: أن الحاجب المنصور لم يقدم في حياته للإسلام والمسلمين شيئاً، على الرغم مما بذله من الجهد طوال حياته، وعلى الرغم مما قدمه المسلمون من تضحيات طوال فترة حكمه. فهل كان حكم الحاجب المنصور بلاء، أو تجربة عابثة في حياة حكم الأندلس الإسلامية..؟.

تتجاوز القضية هنا حدود التحليل الموضوعي للأحداث ونتائجها، لتدخل في

حدود قضية محاكمة هذه الأحداث، وتتطلب المحاكمة العادلة وضع هذه الأحداث في إطاريها الزمني والمكاني، وحتى حدود العامل الشخصي. وقد يكون من المحال إجراء محاكمة عادلة، لا بسبب النقص في المادة التاريخية المتوافرة، وإنما بسبب صعوبة حشد كل المقدمات والعوامل التي أدت إلى ظهور الحاجب المنصور، وهي عوامل تتجاوز، في كثير من الأحيان، على نحو ما سبق عرضه، عوامل الطموح أو الطمع؛ لقد كانت مزيجاً متشابكاً ومعقداً لم تبتعد عنه لعبة القدر كثيراً، أو عامل الصدفة أو الحظ، كما يحب بعض المؤرخين تسميته.

لقد كان الحاجب المنصور طموحاً حتى أبعد حدود الطموح، وتوافرت له من القدرات والإمكانات ما ساعده على تحقيق مطامحه خطوة فخطوة، وبحذر كبير، حتى دانت له الأندلس وخضع له رجالها الأشداء، وقد وظف ذلك كله لخدمة قضية الجهاد في سبيل الله، وما من مجال لمحاكمته على طموحه الشخصي طالما أنه استخدم هذا الطموح لخدمة قضية عامة، كما أنه ما من مجال لمحاكمته على جنوحه أو نوازعه طالما أنها لم تؤد بالمجتمع الإسلامي إلى انحراف ثقيل يبتعد به عن قضية الدفاع عن هدفه الأساسي.

وقد يكون من غير العدل، ومن غير الطبيعي أيضاً، إدانة رجل التاريخ الحاجب المنصور عن نتائج لم يكن أحد يتوقعها أو يحسب حسابها، فلو ظهر في البيت الأموي أو من أبناء الحاجب المنصور من يضارعه في قدرته وكفاءته، لكان من المحتمل أن تتغير تلك النتائج. وهنا تعود كلمة (لو) لتتناقض مع متطلبات المحاكمة العادلة، حيث يصبح من المحال طرح الاحتمالات على أساس الافتراضات النظرية المتمثلة بأحرف (لو ـ وإذا ـ . . إلخ.)، وتبقى بعد ذلك الحقائق الموضوعية الثابتة.

لقد عاش الحاجب المنصور حياته مجاهداً في سبيل الله، وبذل قدر المستطاع، بل وأكثر مما هو مستطاع لرفع راية الإسلام والمسلمين، ونجح فيما عمل له حتى أبعد حدود النجاح، ومضى إلى لقاء ربه راضياً مرضياً عما قدمه في دنياه من أجل آخرته، فحصل على الحسنيين ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

الفصل الرابع

المنصور وموقعه من فن الحرب

١ ـ في السياسة الاستراتيجية
٢ ـ في أفق العمليات (مبادئ الحرب)
٣ ـ في إدارة الحرب (قوات المسلمين)
٤ ـ الحاجب المنصور وقوات المسلمين
٥ ـ أندلس المسلمين بعد الحاجب المنصور (ملوك الطوائف)
٦ ـ الكلمة الأخيرة في الحاجب المنصور



١ - في السياسة الاستراتيجية

كان لا بد للحاجب المنصور، وهو يمضي لتنفيذ مطامحه، من تغيير مجموع العلاقات السياسية والاجتماعية. فقد كانت جذور البيت الأموي راسخة وعميقة، وكانت إلى ذلك تستمد سلطتها الدينية والدنيوية من قرابتها برسول الله ﷺ ومن أصالة محتدها، وقد أضيف إلى ذلك حصالة تلك الأمجاد التي بذل لها البيت الأموي جهداً لا يُنكر من أجل نصرة الإسلام والمسلمين، ومن أجل تعزيز مكانة العرب، حملة رسالة الإسلام.

وصحيح أن الحاجب المنصور ينتمي لأصل يستحق أن يفاخر به، لكنه لا يستطيع أن ينافس به الأمويين أو يضارعهم، والمسلمون إلى ذلك لا يقيمون كل الثقل لأصالة المحتد وشرفه، غير أنهم لا ينكرون فضله في الوقت ذاته. ومن هنا كان على الحاجب المنصور شق طريقه الصعب وسط متاهات شائكة، وتجاوز عقبات عسيرة. غير أن أسلوب الحزم، والقضاء دونما شفقة أو رحمة على تلك العقبات قد ساعده على تذليل الصعوبات، ويفسر ذلك سبب قسوته في معاملته للحاجب المصحفي، وكذلك نبذه للسيدة صبح البشكنسية زوجة الحكم المستنصر، والتي كان لها دور كبير في التمهيد له ودعمه ومساعدته خلال مرحلة ظهوره وارتقائه، وهذا أيضاً يفسر ابتعاده عن الزهراء، وإقدامه على بناء الزاهرة.

ولقد كان لزاماً عليه، وهو يمضي لإقامة العلاقات الجديدة، أن يبتعد عن كل ما يذكر الناس بالعهد الأموي ورجال العهد الأموي، وهو إذا اضطر بتأثير ضغط الرأي العام أن يعتمد على شرعية البيت الأموي الممثلة بولي العهد، فهو يلجأ إلى الاستخدام الرمزي عبر احتفالات حذرة ومنظمة بدقة تضفي على الحاجب المنصور من الهيبة والقدرة بأكثر مما تذكر بشرعية البيت الأموي وهيبته.

ولم يكن اعتماد المنصور على تغيير الشكل بأكثر أهمية من تغيير المضمون،

حيث تركز الجهد على إقامة علاقات عامة جديدة تعتمد على الولاء الشخصي، وعلى تحقيق التوازن بين الترغيب والترهيب، فهو يصاهر أقوى رجال العرب في الأندلس (غالب) وهو في الوقت ذاته يشد الخناق على مناوئيه، وقد يكون من الصعب تحقيق النجاح في تطبيق مبدأ التوازن هذا، بين العصا والجزرة كما يقول المثل العامي، لولا معرفة الحاجب المنصور الدقيقة بالرجال، ولولا تقويمه الصحيح لقدرة مراكز القوى المختلفة وما يتوافر لها من الإمكانات.

لقد عمل أمراء البيت الأموي، في الشام والأندلس، على تثبيت أسس سياسة استراتيجية واضحة، تعتمد على العقيدة الدينية الإسلامية، وعلى المذهب العسكري المشتق عنها؛ فكان من جملة الأسس الاستراتيجية بناء القاعدة القوية والصلبة، وتدعيم العنصر العربي دعامة الإسلام، واستخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر للوصول إلى الهدف المباشر، واتباع أساليب الحرب التشتيتية، وتطوير أساليب الحرب الوقائية ووضوح الهدف. وقد جاء الحاجب المنصور ليعمل على تطبيق هذه الأسس العامة في السياسة الاستراتيجية لا في تطوير علاقات المجتمع العربي الإسلامي في أندلس المسلمين فقط، وإنما أيضاً في التعامل مع أعداء المجتمع الإسلامي الأندلسي، في الداخل والخارج على السواء.

لقد عمل الحاجب المنصور على بناء القاعدة القوية والصلبة من خلال إعادة التنظيم الشامل لأقاليم الأندلس، وحشد كل القوى والإمكانات ضد العدو الخارجي، وتوحيد كل القدرات المتوافرة تحت راية الجهاد في سبيل الله، فعاد بذلك لتأكيد العلاقة الجدلية الثابتة بين الانتصارات الخارجية والانتصارات الداخلية، وهو ما سبق للناصر لدين الله، عبد الرحمٰن الثالث، أن أبرزه بشكل واضح، غير أن الحاجب المنصور قد تجاوز في هذا المجال كل من سبقه، سواء عن طريق قيادة كل الغزوات بنفسه، أو عن طريق تكثيف الأعمال القتالية بأكثر من صائفة وشاتية في السنة الواحدة.

وكان أمراء الأقاليم وحكام المدن مرغمين على مجاراة الحاجب المنصور، والخروج معه للجهاد، إذ لم يكن من المعروف تخلف أحد طالما أن أمير الأندلس يخرج بنفسه لقيادة الجهاد، فصرف بذلك الجميع عن التفكير إلا بالحرب والاستعداد لها. وكانت الانتصارات الخارجية مضمونة بفضل تكثيف حشد القوى وبفضل الكفاءة القيادية للقوات، وكانت هذه الانتصارات تنعكس بدهياً على الجبهة الداخلية فتزيدها تماسكاً وتلاحماً.

وهنا يمكن للقول المشكك الزعم بأن الحاجب المنصور إنما قصد بتصعيد الأعمال القتالية صرف أنظار قادة الأندلس وحكامها وأمرائها عن استبداده الشخصي بالسلطة وتفرده بالحكم والإجهاز على الشرعية، غير أنه، وكما سبقت الإشارة إليه، من غير المقبول محاكمة الحاجب المنصور على النوايا، فالأعمال التي قام بها هي دونما ريب قد عززت من مكانة العرب المسلمين، ورفعت من قدر الإسلام، ودعمت من قدرة أندلس المسلمين وأضعفت من كيانات (نافار وليون) بل إنها قضت عملياً على هذه الكيانات، وعند هذه النتائج يمكن تجاوز كل النوايا، والابتعاد عن كل النظريات والفرضيات.

كانت أندلس المسلمين غنية بالرجال الأكفاء من المسلمين، من زعماء قبائل العرب والبربر، ولم يكن إخضاع هؤلاء بالأمر السهل، لا سيما وأن معظمهم يرتبط بروابط قوية بالبيت الأموي، وذلك وحده كاف لإبراز قدرة الحاجب المنصور وكفاءته القيادية العالية التي مكنته من إخضاع الرقاب لحكمه، بحيث لم تظهر طوال فترة حكمه بادرة تنم عن ظهور تمرد مضاد أو ثورة معارضة.

ولقد استطاع الحاجب المنصور بناء القاعدة القوية والصلبة في الأندلس، لا بفضل الانتصارات الخارجية وحدها، وإنما بفضل العمل الدؤوب والمستمر لنشر ألوية العدالة وتطبيق قواعد الشريعة الإسلامية؛ إذ كان من المحال ضمان الاستقرار طوال فترة حكمه وتثبيته دعائم النظام الذي أقامه بإشغال المسلمين بالجهاد فقط، فكان الجهد المبذول متكاملاً، لم يسقط من حسابه أهمية تحقيق العدالة، والقضاء على الظلم، والاستماع إلى أصحاب المظالم، وإيصال أصحاب الحقوق إلى حقوقهم، وهو ما أبرزته السيرة الشخصية للحاجب المنصور الذي كان يجلس بنفسه للقضاء في المظالم، والاستماع إلى أصحاب الشكاوى، والنظر في صغائر الأمور وكبائرها.

وبقي الحاجب المنصور نموذجاً فريداً في مجال إقامة القاعدة القوية والصلبة، فإذا كان للبيت الأموي حجته في إقامة الحكم الإسلامي، وإذا كان للحكم العباسي نظريته وشرعيته الأصلية، وإذا كان للفاطميين بدورهم حجتهم الذرائعية، فقد جاء الحاجب المنصور بنموذج يرسل بظلاله إلى الأفق الحديث، حيث يبقي على الشرعية اسمياً، ويستثمر الوصاية عملياً، ليقيم حكماً على قاعدة الشرعية، ثم ليسحب هذه الشرعية من تحت أقدام أصحابها، كل ذلك دونما إثارة ضجيج مفتعل، وبدون أي استثارة للخواطر.

غير أن هذه الخواطر تجد في بعض المناسبات الفرصة لإظهار نقمتها، **وعند ذلك لا يحاول الحاجب المنصور اللجوء إلى القهر أو القمع المباشر، وإنما يسير كعادته مع التيار، ليحوله بعد ذلك لدعم قاعدته الخاصة، ويدل ذلك على ما تفرد به الحاجب المنصور من مرونة كبرى في تحركه القيادي، بقدر ما يدل ذلك أيضاً على ثبات المنصور عند مقصده، وليس ذلك إلا نتيجة لوضوح الهدف، وتحديد الوسائل التي تخدم هذا الهدف، بحيث لا تتمكن العقبات والأعاصير من صرف الحاجب المنصور عن هدفه أو الحيدان عن مقصده، مهما بلغت تلك العقبات من الشدة، ومهما بلغت الأعاصير من القوة، وتلك هي الفضيلة الثانية التي ساعدت المنصور على بلوغ ما طمع إلى نيله، والارتقاء إلى ما أراد الوصول إليه.**

لقد أراد الحاجب المنصور منذ قصد قرطبة أن يمارس دوراً أكبر من مجرد تعليم الأطفال، وأجل من البقاء في زوايا البلاط الثانوية؛ فبذل جهده للهيمنة على مراكز القوى، عبر سيدة القصر الأولى. . (صبح البشكنسية زوجة الحكم المستنصر ووالدة ولي العهد هشام)، وكان يتابع عبر مسيرته الشاقة دراسة ثقل مراكز القوى ونقاط ضعفها وقوتها، مع دراسة الأساليب الكفيلة بالوصول إلى المركز الأول في القصر، وتحقق له ما يريده عندما أصبح أحد حاجبي هذا القصر، غير أن ذلك لم يكن هدفه، ففرض نوعاً من الإرهاب الفكري والنفسي على كتَّاب القصر ورجال البلاط والحاشية حتى أمكن له السيطرة على أمور الدولة، ولم يبق لمنافسه المصحفي من مركز الحاجب إلا الاسم.

وجاءت بعد ذلك الظروف المناسبة بموت الحكم المستنصر، فاندفع بجرأة وإقدام لتحقيق هدفه التالي، ومضى بعزيمة لا تلين وهمة لا تعرف التعب أو الوهن، يصل أيامه بلياليه، وهدفه ماثل أمام عينيه أبداً، لا يحيد عنه قيد أنملة، ولا يبتعد عنه خطوة واحدة. وإذا كان الحظ، أو لعبة القدر، قد خدما الحاجب المنصور في تجاوز العقبات، غير أنه لم يكن ليركن يوماً إلى هذا الحظ أو يعتمد عليه، فكان يعمل باستمرار لتحقيق الاقتران الناجح بين الحظ وبين العمل الهادف.

وهكذا كان الحاجب المنصور، مزيجاً مميزاً من عوامل النجاح، يتشابه في كثير من ملامحه مع تلك النماذج الفريدة التي برزت في المشرق الإسلامي أمثال: صلاح الدين الأيوبي، والمظفر قطز، والظاهر بيبرس، وأحمد بن

طولون وأضرابهم ممن وضعوا سيفهم في خدمة الإسلام، واعتمدوا على كفاءتهم وقدراتهم لممارسة أدوارهم التي لم تكن يد القدر بعيدة عن صناعتها والمشاركة في إبرازها.

والمثير في تشابه هذه النماذج هو أنها ظهرت على كاهل أنظمة ثابتة وراسخة، وكلها اعتمدت على الشرعية الاسمية لممارسة سلطتها الفعلية، وكلها تميزت بما يمكن أن يطلق عليه صفة «الغدر بالقيم الأخلاقية»، غير أنها كلها وجدت لها غطاءً قوياً في رفع راية الجهاد في سبيل الله والإخلاص الذي لا مثيل له في الدفاع عن قضية الإسلام والمسلمين. ثم إن هذه النماذج القيادية جميعها قد برزت خلال فترة الحروب الصليبية حيث كانت الحماسة للجهاد والإدارة الناجحة للحرب هي العامل الأساسي، إن لم تكن العامل الوحيد لتقويم الحكام ودعمهم أو التخلي عنهم، ويعتبر ذلك شاهداً إضافياً يؤكد أن هدف الحاجب المنصور من الحرب لم يكن لدعم سلطته أو صرف أنظار المسلمين عن انتهاكاته للشرعية، وإنما كان تلبية للحاجة واستجابة مناسبة للظروف التي كان يعيشها المسلمون في الأندلس. كما أن التفاف المسلمين حول الحاجب المنصور وتأييدهم له إنما يبرز أيضاً إدراك الجميع لأخطار كيانات النصارى في شمال الأندلس.

ولا ريب أن إدراك الحاجب المنصور لما كان يتفاعل في وسط المسلمين، الأمر الذي تجاهله الحاجب المصحفي، كان العامل الأساسي في نجاح المنصور وسقوط المصحفي. ويبرز ذلك دور الحاجب المنصور القيادي الذي كان يدرك هدفه بصورة جيدة، ويستثمر أخطاء الآخرين من أجل دعم أهدافه وإسقاط الآخرين الذين يتحركون على مسرح الأحداث دونما هدف واضح يحركهم أو تقويم صحيح للأمور يستثير حماستهم. ولم يكن باستطاعة الحاجب المنصور اكتشاف أخطاء الآخرين وتقويمها واستثمارها لولا رؤيته الواضحة للهدف، ولولا اعتماده على قيم ثابتة تتوافق وهذا الهدف.

ولم يعد من الصعب على الحاجب المنصور، وهو يتمتع بمثل هذه الميزة من الرؤية الواضحة للهدف، أن يختار السياسات الاستراتيجية المناسبة لمعالجة مواقف الصراع المرير التي كان يجابهها بصورة مستمرة.

كانت استراتيجية الهجمات الوقائية، أو الضربات الإجهاضية المسبقة، وفقاً للمصطلحات الحديثة، هي السياسة الاستراتيجية التي اعتمدها الحاجب

المنصور وطورها بأكثر مما عرفتها الأندلس من قبل. ومن المعروف أن تنظيم الصوائف والشواتي، أيام الأمويين في الشام والأندلس، كانت هي الترجمة العملية الأمينة لمفهوم الهجمات الوقائية الذي يعتمد على إشغال العدو بنفسه، وعدم تمكينه من غزو ثغور المسلمين، وضرب استعداداته العسكرية حتى لا تشكل هذه الاستعدادات تهديداً لبلاد المسلمين، وقد عمل الحاجب المنصور على تكثيف الصوائف والشواتي حتى أمكن له القضاء على كيانات النصارى في الشمال.

وكانت غزوته لجيليقية، شمال غرب الأندلس، هي أفضل نموذج لتكثيف الهجمات الوقائية، فقد بقيت هذه المنطقة الصعبة منيعة على المسلمين، حتى قام الحاجب المنصور بغزوها، وقد كان لهذه الغزوة هدفها المعنوي إلى جانب هدفها المادي. فقد كانت جيليقية قاعدة الثورة المضادة للمسلمين، وكانت قيادات القوات الثوروية قد اتخذت من قبر القديس يعقوب رمزاً معنوياً يضمن لها الحماية ضد الأعداء المسلمين، فكان غزو المنصور لهذه القاعدة، ووصوله إلى قبر القديس، وحمايته من الدمار، برهاناً يدحض مزاعم النصارى بقدر ما يدعم من فكرة الجهاد، وكان لذلك أثره النفساني دونما ريب في إقناع قوات المقاومة بعجزها عن مجابهة المجاهدين في سبيل الله والذين عملوا بإخلاص لقضية الجهاد.

لقد وضع الإمام علي بن أبي طالب فكرة الهجمات الوقائية بقوله: «اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم بعقر دارهم إلا ذلوا». وطبق معاوية بن أبي سفيان هذا المبدأ حتى وصل إلى عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية) وحاصرها مرات عديدة، ولم يكن اهتمامه بتنظيم القدرة البحرية وإطلاقها للجهاد في البحر إلا تطويراً لهذا المفهوم ذاته. وأصبحت استراتيجية الهجمات الوقائية من الأسس الثابتة في جهاد بني أمية، ثم طورت هذه السياسة الاستراتيجية أيام عبد الرحمٰن الثالث ـ الناصر لدين الله ـ بحيث تم غزو عواصم ليون ونافار، غير أن الحاجب المنصور هو الذي ارتفع بها إلى أقصى فاعليتها، حتى لم يظهر هناك من ينافسه في هذا المجال. وكانت غزوة شنت ياقب (إقليم جيليقية) تجسيداً لاستخدام القدرة البرية والقدرة البحرية في تصعيد الهجمات الوقائية والوصول بها إلى منتهى غايتها. ولقد انهارت هذه السياسة الاستراتيجية بموت الحاجب المنصور ما أتاح لنصارى الشمال فرصة التقاط أنفاسهم وإعادة تنظيم صفوفهم

واستخدام هذه السياسة الاستراتيجية ذاتها ضدهم، فكان ذلك بداية الانهيار الكبير الذي أدى إلى تصعيد الحروب الصليبية على كل جبهات المسلمين في المشرق والمغرب.

وعند هذه النقطة المحددة يظهر الدور الكبير للحاجب المنصور في تاريخ مسلمي الأندلس. فقد كانت الحرب الصليبية غير المعلنة، وغير الشاملة، قد أخذت أبعاداً خطيرة على مسرح الأعمال القتالية الأندلسية، وبات من المحال الاعتماد على الأعمال القتالية التي تأخذ الصفة الرتيبة (الروتينية). ولقد كان لا بد من تصعيد يقابل الأخطار المحتملة والمتوقعة، وقد أدرك الحاجب المنصور بثاقب بصيرته ما ينتظر مجتمع المسلمين من أخطار إن هو لم يبادر بسرعة لتطوير استراتيجية الهجمات الوقائية، فمضى للجهاد بعزيمة صادقة، وأمضى حياته صابراً محتسباً حتى ضمن الحياة الآمنة لمجتمع المسلمين طوال فترة حكمه، وحتى أعاد للأندلس ما كانت عليه من البأس والقوة خلال الأيام الأولى للفتح الإسلامي.

ولعل هذه المأثرة وحدها كافية لتجاوز كل ما لصق بالحاجب المنصور من اتهامات، وما قام به من انتهاكات للشرعية. ولقد عرف مسلمو الأندلس هذه الحقيقة، فلم يكن دعمهم للحاجب المنصور إلا تأييداً للهدف الذي عمل له الحاجب المنصور طوال حياته وهو رفع راية الإسلام والمسلمين، والتصدي بحزم لأعداء الدين.

لم تكن قوات النصارى في ممالك الشمال موحدة القيادة، موحدة الأهداف، ما دفعها إلى التناحر وحتى الاقتتال فيما بينها في كثير من الأحيان. وقد أفاد الحاجب المنصور من ذلك حتى أبعد الحدود، فجابه قوات الأعداء وقياداتهم الممزقة بقيادة واحدة، وقابل أهدافهم المتنافرة بهدف واحد وواضح، وتجاوز ذلك إلى طرائق العمل، فخاض حروبه ضدهم بأساليب الحروب التشتيتية، بحيث لم يترك لهم الفرصة لتنسيق التعاون فيما بينهم وتكتيل القوى وحشدها في خندق واحد ضد المسلمين.

وعند هذه الظاهرة تبرز أهمية تصعيد الأعمال القتالية وتكثيف الصوائف والشواتي؛ إذ أن ذلك قد مكن الحاجب المنصور من توجيه الضربات الوقائية إلى مراكز القوى في الشمال بتوقيت واحد، أو بمجموعة من الأعمال القتالية المتتالية التي شغلت كل مركز من مراكز القوى بأمور الدفاع عن نفسه وعن كيانه

وأرض بلاده، فاستطاع الحاجب المنصور إحراز التفوق الساحق على قوى العدو المتفرقة، وكانت في ذلك العامل الأول فيما حققه من نجاحات وما أحرزه من انتصارات.

وعند هذه الظاهرة أيضاً يبرز الدور المزدوج الذي برز خلال المرحلة التالية لحكم الحاجب المنصور، حيث فقدت الأندلس قيادتها الموحدة والواحدة.

ومقابل ذلك استطاعت الكنيسة توحيد كل الجهود للعمل تحت قيادة واحدة وموحدة في أهدافها وطرائق عملها، وتبع ذلك بداهة التحول عن الأهداف، فانصرف قادة ملوك الطوائف إلى أهدافهم المحدودة التي تبتعد عن واجب الجهاد إلى وظيفة دعم الحكم المحلي. ولم يكن باستطاعة هذا الحكم المحلي الصمود للتحديات الخارجية، فلم يلبث ملوك الطوائف أن خضعوا لملوك نصارى الشمال، وفقدوا حرية عملهم السياسية والعسكرية. ولقد كان للكنيسة دورها، لا في حشد القوى وإرسالها إلى ميادين القتال، ولا في استثارة الحماسة لشن الحرب ضد المسلمين، وإنما في توحيد القيادة تحت سيطرتها وإشرافها، وهذا هو الدور الأساسي والحاسم فيما حدث من تحولات بنتيجة غياب القيادة الواحدة التي مارسها المنصور طوال حياته.

ولقد اتفقت النظريات الحديثة في فن الحرب على إعطاء مبدأ وحدة القيادة الأفضلية الأولى على كل الأسس الاستراتيجية للحرب، ووضعته بعض المذاهب العسكرية، كالمذهب الصيني، كشرط أول، أو مبدأ أول في مبادئ الحرب، وقد برهن المذهب العسكري الإسلامي على صحة هذا المبدأ أو أكد أهميته طوال فترات الفتوح.

وعرف المسلمون منذ الأيام الأولى للفتح أهمية مبدأ وحدة القيادة، فحرصوا على الالتزام به وتطبيقه والإخلاص له، وجاءت تجربة الحاجب المنصور لتبرز بشكل واضح أهمية هذا المبدأ في شكلين متناقضين؛ أولهما: عندما نجح الحاجب في زج كل قوات مسلمي الأندلس تحت قيادته. وثانيهما: عندما فقد المسلمون القدرة على العمل تحت قيادة واحدة، وهذا ما انعكست آثاره على طرائق الحرب. فبينما كان المسلمون تحت قيادة الحاجب المنصور يطبقون استراتيجية الحروب التشتيتية، أخذ الفرنج الصليبيون في استخدام هذه الاستراتيجية ذاتها تحت قيادتهم الواحدة ضد قيادات المسلمين المتفرقة أيام ملوك الطوائف.

لقد بقيت الأندلس مسرحاً لحوار الإرادات المتصارعة، تعلَّم فيها الفرنج الصليبيون على أيدي قادة العرب المسلمين أسس التكامل في فن الحرب، واقتبسوا منهم الأسس الناجحة للسياسة الاستراتيجية، وأمكن لهم بذلك منافستهم في طرائق الحرب، وأضافوا إلى ذلك قدرتهم على التفوق في ميزان القوى بنتيجة توافر القدرات البشرية على المسرح الأوروبي كله، وبذلك أمكن لهم تحقيق التحولات الحاسمة في مسيرة الصراع. وكان عهد الحاجب المنصور هو نقطة الانعطاف الحاسمة في التحولات المثيرة التي شهدها العرب المسلمون.

٢ ـ في أفق العمليات

(مبادئ الحرب)

تميزت الأعمال القتالية للحاجب المنصور بالتطبيق الحازم لمبادئ الحرب. فقد كانت المباغتة، والمبادأة وأمن العمل والحركية واستخدام القدرة الهجومية والاقتصاد بالقوى هي من بعض عدة المنصور في حروبه، وكان تطبيق هذه المبادئ يرتبط بمعالجة كل موقف من المواقف، وهذا ما أبرزته سيرة المنصور القيادية، فكان من ذلك أبرز نموذج وأوضح برهان على ما تفردت به قيادة المنصور من الكفاءة العالية.

كانت أندلس المسلمين في حالة حرب دائمة، وتكونت بنتيجة ذلك حصالة ضخمة من الخبرات القتالية، وكانت هذه الخبرة قاسماً مشتركاً بين القادة والمقاتلين، فكانت ممارسة أعمال القيادة صعبة جداً على مستوى التخطيط، وسهلة جداً على مستوى التنفيذ وفقاً لما تبرزه مسيرة الأعمال القتالية.

فالمعرفة المشتركة لطبيعة الإقليم ولمسرح الأعمال القتالية وطرائق العدو في خوض الصراع، هي من العوامل المساعدة للمنفذين بقدر ما هي مساعدة للقادة في إدارة الحرب، ولكن، وإلى جانب هذه المساعدة فإن انتشار المعرفة العسكرية لم تكن لتسمح للقائد بارتكاب أي خطأ، أو الوقوع في أي مأزق من مآزق الحرب المعروفة، وإلى جانب ذلك فقد كان لزاماً على القائد ابتكار طرائق جديدة، وإبداع أساليب متطورة حتى يؤكد فيها تفوقه القيادي، والارتفاع فوق مستوى المعرفة العسكرية الشائعة.

وهذا ما فعله الحاجب المنصور في إدارته للحرب، فأمكن له بذلك فرض عبقريته العسكرية على الأكفاء من القادة والأبطال من رجال الحرب. ولقد خاض الحاجب المنصور بقوات المسلمين زهاء ثمان وأربعين، أو اثني وخمسين غزاة لم تنتكس للمسلمين فيها راية ولا فلَّ لهم جمع، ولا هزمت لهم قوة، وليس ذلك

إلا دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على تلك الكفاءة العالية التي أشرفت على إدارة الحرب. ولعل الإعداد لغزوة (شنت ياقب) وطريقة تنفيذها كافية لإبراز تفوق الحاجب المنصور في مجال الإعداد للحرب واختيار الطرائق المناسبة لتنفيذ عملياتها. ويظهر تحليل هذه الغزوة أن النجاح فيها كان نتيجة للالتزام بتطبيق مبادئ الحرب في كل مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة وأثناء مراحل تنفيذها.

لقد كان الحاجب المنصور يحرص كل الحرص على مباغتة أعدائه، وقد كان من الصعب الالتزام بشكل محدد من أشكال المباغتة الزمنية أو المكانية أو طريقة زج القوات أو الهدف من الحرب، أو حتى طرائق تنيفذ الأعمال القتالية وطرائق تحرك القوات. وكان لا بد من إعطاء المباغتة الشكل المعقد الذي يتجاوز حدود المباغتة التكتيكية ليصل إلى المباغتة الاستراتيجية عن طريق مزج كل أشكال المباغتة في كل مرحلة من مراحل الأعمال القتالية.

وإيضاحاً لذلك وعلى سبيل المثال، يمكن الأخذ بغزوة (شنت ياقب) التي سبقت الإشارة إليها، والتي بدأت بمباغتة زمنية ومباغتة في طريقة حشد القوات، ثم تبعت ذلك مباغتة على مستوى العمليات بتحقيق المباغتة في التحرك البري والبحري المتواقت في آن واحد. وكانت هناك مباغتة أخرى على مسرح العمليات برزت في الإعداد للإنزال البحري بدعم من عمل المهندسين (الفعلة)، واستخدم العنصر التقني لتمهيد الطرق عبر المضائق الجبلية. وكانت المباغتة الاستراتيجية في توغل قوات المسلمين إلى أقصى حدود الجزائر في البحر مع اجتياح إقليم جيليقية بكامله. وكان تنظيم القوات في حد ذاته يحمل مباغتة أذهلت قوات الإقليم وحملتها على التطاير من وجه جحافل المسلمين الظافرة والتي لم يشهد الإقليم مثلها لا في حجمها، ولا في الإمكانات المتوافرة لها.

وتكمن أهمية المباغتة باستمرار، بذلك الأثر النفساني الذي تخلِّفه وراءها، وهو ما يضع قيادات العدو وقواته في حالة من التشتت والضياع؛ الأمر الذي يساعد الطرف صاحب المباغتة على المضي نحو أهدافه دونما عناء كبير وبالتعرض لدفع الحد الأدنى من ثمن الحرب. وهكذا فإن قيمة المباغتة ليست قيمة مطلقة بقدر ما هي قيمة خاضعة لتوافر القدرة على استثمار الأثر الناجم عن المباغتة من أجل تطوير الأعمال القتالية بسرعة مذهلة، وعدم السماح لقيادات العدو بالتقاط أنفاسها وإعادة تنظيم قواتها لتقديم مقاومات جديدة. وقد أبرزت سيرة الحاجب المنصور القيادية أن المباغتة لم تكن أكثر من وسيلة مرحلية لتحقيق هذه الغاية.

وفي الحقيقة، فالقدرة على استثمار المباغتة إنما تكمن بتطبيق بقية مبادئ الحرب وأهمها هنا المبادأة، واستثمار القدرة الحركية لتطوير الهجوم. فالإمساك بالمبادأة هو الذي يسمح للقائد بتشكيل المواقف المتتالية والتي تضع قيادات العدو وقواته أمام المزيد من الارتباك والاضطراب وتجعلها عاجزة عن التحرك لاتخاذ المواقف التي تفرضها مسيرة الأعمال القتالية. وتظهر المبادأة في كل مواقف الحاجب المنصور، وفي كل أعماله القيادية، فهو لا يترك لقيادة أعدائه أية فرصة للإمساك بمبادأة تساعدها على اختيار مكان المعركة أو زمانها، أو حتى اتخاذ التنظيم الدفاعي المناسب لخوض المعركة.

وليس حرص الحاجب المنصور على تكثيف هجماته، ووصل الغزوات بعضها ببعض، إلا وسيلة للمحافظة على المبادأة من جهة وحرمان العدو من هذه المبادأة، من جهة ثانية. وليس كالمنصور أيضا من يقدِّر قيمة النصر على مسيرة الأعمال القتالية سواء بالنسبة للأصدقاء أو الأعداء.

ومن هنا كان البحث عن النصر بصورة مستمرة هو الحافز الأول، لتطبيق أفضل الأسس والمبادئ المتوافقة مع كل حالة من الحالات، ومع كل موقف من المواقف.، ولم يكن هناك لدى الحاجب المنصور أفضل من المباغتة والمبادأة للوصول إلى النصر بالثمن المناسب للحرب، والذي كان أقله تكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر المادية والمعنوية مع تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى حتى أقصى الحدود بالنسبة للأصدقاء. وهكذا بقيت المبادأة والمباغتة من المبادئ الجاهزة أبداً في خدمة الحاجب المنصور، الذي كان بدوره على استعداد دائم لاستخدامها في اللحظة المناسبة وفي المكان المناسب، لاقتطاف ثمن الجهد المبذول.

ولقد كان مبدأ المباغتة من أول المبادئ التي عرفها فن الحرب، شأنه في تلك شأن المبادأة، وبقيت قيادات الجيوش منذ القدم تحرص على استخدام هذه المبادئ لتحقيق النصر. وهكذا فلم تكن القضية بالنسبة للحاجب المنصور هي قضية إبداع مبادئ جديدة، أو ابتكار أسس متقدمة، وإنما في تكوين الظروف الموضوعية لتطبيق هذه المبادئ على مستوى العمليات. وهنا تظهر كفاءة الحاجب المنصور وتفوُّقه القيادي الذي برز عبر «حوار الإرادات»، ليفرض ذاته على الأصدقاء والأعداء، من خلال التطبيق الماهر لمبادئ الحرب وفقاً لما تتطلبه مسيرة الأعمال القتالية.

ولقد كان مبدأ «المبادأة»، هو أول ما استخدمه الحاجب المنصور في حياته القيادية. فعندما تجرأ نصارى الشمال على ثغور المسلمين، إثر وفاة الحكم المستنصر، ووقوف الحاجب المصحفي موقف السلبية، أمسك الحاجب المنصور بالمبادأة، ورفض الخضوع لإرادة قيادة عدوه، وقاد جيش قرطبة في أول غزاة له، وحقق نصره الحاسم. ولا ريب أن نتائج هذه التجربة القتالية الناجحة كانت ذات أثر عميق في دعم شخصية المنصور القيادية، فمضى لمتابعة الجهاد، ملتزماً طوال حياته بالإمساك بالمبادأة وعدم التخلي عنها لأعدائه في أي موقف وأي ظرف، وكان في ذلك بعض عدته على النصر.

لم يكن باستطاعة الحاجب على كل حال تحقيق النجاح في تطبيق مبدأيِّ المباغتة والمبادأة لولا اعتماده على مبدأين آخرين يتوازيان ويتساويان في أهميتهما مع المبدأين السابقين، وهما «أمن العمل، والقدرة الحركية العالية للقوات». وتبرز أهمية مبدأ العمل عند معرفة طبيعة مسرح العمليات الجبلية والصعبة والتي تحتمل إمكانات تحقيق المباغتة في كل مرحلة من مراحل الأعمال القتالية، كما تبرز أهمية مبدأ القدرة الحركية العالية للقوات عند معرفة المساحات الشاسعة لمسرح العمليات، والحاجة للتحرك بسرعة من أجل تطوير الأعمال القتالية والمحافظة على المبادأة.

وقد أظهر الحاجب المنصور باستمرار حرصه على حماية قوات المسلمين من المباغتة بقدر حرصه على مباغتة العدو، فكان يتخذ مجموعة من الإجراءات المعروفة بالمصطلحات الحديثة تحت أسماء تدابير الحيطة عند التحرك، وتدابير أمن العمليات، ومن ذلك: إحاطة عملياته بنطاق محكم من السرية المطلقة واختيار مناطق مختلفة لحشد القوات، ودفع عناصر الاستطلاع حتى الأفق البعيد، سواء أثناء التحرك أو عند اقتحام مسرح الأعمال القتالية، والتوسع الكبير في نشر شبكة الاستخبارات ـ الجاسوسية ـ ومحاربة استخبارات العدو وتدميرها، إلى جانب ما يطلق عليه اسم «التمويه للعمليات»، واتخاذ مجموعة من التدابير الخداعية لتضليل العدو، وبرهنت هذه التدابير على فاعلتيها وقوتها، بحيث لم تتعرض قوات المسلمين لما هو معروف من مباغتات الحرب، واستطاعت قوات المسلمين بذلك ممارسة أعمالها القتالية في إطار من حرية العمل المطلقة. وإن مجرد استعراض سيرة الأعمال القتالية لأبرز أيام الحاجب المنصور كافية لإبراز مدى التعقيد الذي وصلته هذه الأعمال في تلك الحقبة

التاريخية، وهذا ما يثبت ما كانت تتطلبه إدارة الحرب من كفاءة عالية توافرت للحاجب المنصور.

ويذكر هنا تلك الغزوة التي خاضها عبد الرحمٰن الناصر لدين الله والمعروفة باسم «غزوة الخندق» والتي كان للمباغتة دورها الكبير في انتزاع المبادأة من قبضة يديه، وتعريض قوات المسلمين لهزيمة منكرة، ما دفع الناصر لإيقاف قيادة الغزو بنفسه، في حين قاد الحاجب المنصور بنفسه كل غزواته ولم يتعرض لأي هزيمة حتى آخر يوم من حياته. وبدهي أن الهزيمة التي لحقت بالناصر لدين الله، لم تنتقص من كفاءته القيادية، غير أن عدم تعرض الحاجب المنصور لأي هزيمة إنما هو برهان إضافي على ما توافر له من الكفاءة، بقدر ما هو برهان أيضاً على الاستخدام الماهر لمبادئ الحرب وتطبيقها بحذق مثير للإعجاب.

أما اهتمام الحاجب المنصور بتطوير القدرة الحركية، فيظهر من خلال اعتماده على استخدام القدرة البحرية لدعم حرب الحركة، كما يظهر بتحويل الجيش بكامله تقريباً إلى قوة الفرسان. فقد استطاع من خلال إعادة التنظيم الشامل حشد كل قوات الفرسان المنتشرة في كافة الأقاليم، وأمكن بذلك رفع القدرة الحركية حتى حدودها القصوى. ولم يكن اهتمام الحاجب المنصور بتمهيد الطرق، وتنظيم وحدات المهندسين ـ الفعلة ـ لشق الطرق، إلا برهاناً على الاهتمام بتطوير فاعلية القدرة الحركية للقوات واستخدام هذه القدرة للأعمال الهجومية، فكان ذلك دعماً لتنفيذ مبدأي المباغتة والمبادأة.

ويظهر من خلال ذلك حرص الحاجب المنصور على تطوير الإرث الحربي والتجارب القتالية «أو خبرة الحرب» من خلال التكامل في استخدام مبادئ الحرب، وتوافق هذه المبادئ مع الأسس العامة للسياسة الاستراتيجية التي أبدعها المذهب العسكري الإسلامي، ثم طورها قادة العرب المسلمين باستمرار عبر تجاربهم القتالية، حتى إذا جاء الحاجب المنصور لم يتوقف عند حدود تطبيقها بكفاءة عالية، وإنما عمل على تطويرها وفقاً لما فرضته المواقف القتالية المستجدة، فتحقق له بذلك ما لم يتحقق لسواه من الانتصارات الضخمة والتي لم تنتقص منها انتكاسة أو هزيمة.

ولا ريب أن إيمان الحاجب المنصور العميق كان هو العامل الموجه له في كل تدابيره وإجراءاته، ما مكّنه من رؤية هدفه بوضوح تام، واختيار الطرائق المناسبة لبلوغ هذا الهدف.

٣ ـ في إدارة الحرب
(قوات المسلمين)

تميز عهد الحاجب المنصور بالتنظيم الشامل لموارد الدولة وإمكاناتها، وتحويل المجتمع الأندلسي الإسلامي بكامله إلى مجتمع حرب. وصحيح أن هذا المجتمع كان يعيش منذ الأيام الأولى للفتح حالة الحرب الطويلة الأمد، غير أن الحاجب المنصور جاء بتنظيمات جديدة عن طريق دمج القبائل في تشكيلات الجيش بصرف النظر عن تنظيماتها القبلية، ورافق ذلك إعادة تنظيم للموارد ـ الشؤون الإدارية أو اللوجستيك ـ. واستخدم الحاجب المنصور للوصول إلى هدفه مجموعة من الأسس أبرزها: التحريض على الجهاد والعنف في القضاء على أعداء الإسلام والمسلمين، مع حماية المرؤوسين من القادة والجند. وساعد المنصور في ذلك ما تميزت به شخصيته الفذة من الشجاعة في مواجهة الخطر واتخاذه القرارات الصحيحة في الوقت المناسب والإشراف على تنفيذها.

وتظهر التجارب القتالية للعرب المسلمين أن أسلوب دمج القوات في تشكيلات قتالية تتجاوز حدود الولاء القبلي، إنما تعود إلى الأيام الأولى للفتح، وقد حدث ذلك في معركتي اليرموك والقادسية الخالدتين، حيث استعاض خالد بن الوليد نظام الكراديس بنظام المساندة الذي كان يعتمد على التنظيم الأساسي للقبائل. وكانت هذه التجربة المثيرة والناجحة بداية التنظيم المتطور للمعركة، غير أن الحاجة لإثارة الحماسة كثيراً ما ألجأت القادة إلى إعادة فرز القوات تبعاً لعصبياتها. غير أن إثارة هذه العصبية، تختلف عن الانتساب لعصبية القبلية الجاهلية، إذ أنها تعتمد على العصبية بشدة الحماسة للجهاد والدفاع عن الإسلام، حيث تحاول كل قبيلة أو عصبية التأكيد على شدة الحماسة والاندفاع للحرب من أجل نصرة الإسلام ورفع رايته، وهذا ما حدث في اليوم الثالث من أيام القادسية، كما حدث في عدد من الأيام أثناء فتوح المشرق الإسلامي ومغربه.

وجاء الحاجب المنصور ليعيد هذه التجارب ذاتها، وليدفع القبائل المختلفة

والعصبيات المتنافسة، من عرب وبربر وترك وصقالبة، إلى التنافس فيما بينها على شرف الجهاد، ودمجها في تنظيمات متشابهة من حيث دورها في القتال، وحقق المنصور نجاحاً رائعاً وصفه الشاعر العربي بما سبقت الإشارة إليه:

تلاقت عليه من تميم ويعرب   شموس تلألأ في العلا وبدورُ

وكان الحاجب المنصور، وهو يثير الحماسة للجهاد، ينظر إلى العالم الإسلامي، ويستشعر مسؤوليته عن المسلمين في كل دنياهم، ومن هنا، فهو يشعر بالألم لما أصاب المسلمين في الشرق الإسلامي من ضعف وتمزق أدى إلى ظهور الملل والنحل البعيدة عن الإسلام والخوارج عليه، من أمثال القرامطة، وهو يأمل في أن تتوافر له الفرصة لقيادة المجاهدين من أجل القضاء على أعداء الدين في المشرق الإسلامي، وهو أيضاً ما سبقت الإشارة إليه، بما ورد على لسان الحاجب المنصور من شعر جاء فيه:

عن قريب ترى خيول هشام   تبلغ النيل خطوها والشاما

والمثير هنا هو أن الحاجب المنصور لا يعتبر نفسه هنا هو الحكم المطلق، وإنما هو يقود خيول هشام، الخليفة الشرعي. ومن المحتمل أن يكون هذا القول قد صدر عن الحاجب المنصور قبل أن تستحكم في قبضته الأمور، وفي الحالات كلها، فالحاجب المنصور، سواء كان عاملاً للخليفة هشام أو عاملاً باسمه، فإنه ينظر إلى قضية الجهاد في سبيل الله كقضية متكاملة يرتبط فيها الإنسان المسلم في أقصى المغرب بالإنسان المسلم في أقصى المشرق.

ومن خلال هذه الرؤية الشاملة استطاع الحاجب المنصور تقويم قضية الحرب الشاملة ضد المسلمين داخل بلاد المسلمين وخارجها، أو على حدودها بتعبير أكثر دقة، وكان ذلك وحده كافياً لإشعار المسلمين المجاهدين في سبيل الله بثقل المسؤولية الواقعة على كواهلهم، والتأكيد بأن كل انتصار للمسلمين على جبهة الأندلس إنما هو انتصار لكل المسلمين في كل دنياهم وفي مختلف مواطنهم ومواقعهم، وقد كان ذلك وحده كافياً لدفع المسلمين من أجل تقديم أقصى ما يستطيعونه من الجهد المادي والمعنوي لنصر قضية المسلمين.

ولعل هذه النظرة الشمولية لقضية الجهاد في سبيل الله لم تكن أكثر من انعكاس للنظرية الأموية في معالجة قضايا الإسلام والمسلمين، وهي النظرية التي لم تلبث أن غرقت في متاهات الصراعات المذهبية والطائفية حتى انتشلتها من جديد ظروف الحرب الصليبية في المشرق الإسلامي، ثم أعادتها الخلافة

العثمانية لموقعها الصحيح مرة أخرى. ومن هنا يعتبر الحاجب المنصور أفضل من عبَّر عن فكرة الجهاد الشامل للمسلمين، وأبرز هذه الفكرة في مجال التحريض على الجهاد على المسرح الأندلسي، فكان في ذلك بعض عدة لحشد كل طاقات المسلمين ومواردهم للحرب.

وإذا كان لا بد للحاجب المنصور من تحريض المسلمين على الجهاد بأسلوب عملي وواقعي، ومن خلال منظور شامل؛ فقد كان لا بد له في الوقت ذاته من استخدام الحدود القصوى للعنف من أجل إرهاب أعداء المسلمين واستخدام أساليب عملية وواقعية أيضاً في هذا المضمار، وقد كانت لظواهر العنف حججها وذرائعها.

ولقد اشتهر المسلمون عبر التاريخ بتقنينهم الشديد لاستخدام العنف في الحرب، وكان هدفهم الواضح دائماً هو العمل لما بعد الحرب من أجل إقامة المجتمع الإسلامي. وكانت القيود الصارمة التي فرضوها على أنفسهم كثيراً ما تسببت في الحد من حرية عملهم العسكري، غير أن التضحيات التي تكبدوها في ذلك قد أينعت ثمارها الناضجة في إقامة المجتمع الإسلامي وتحقيق هدف الحرب وهو نشر الإسلام. غير أن صورة الموقف قد تبدلت هنا على مسرح الصراع الأندلسي لسببين:

أولهما: وجود محرض خارجي قوي تمثل في الجهد الكنسي لاستنزاف قدرة المسلمين.

وثانيهما: لجوء قوات نصارى الشمال إلى تصعيد الحرب حتى فاعليتها القصوى، واستخدام الإرهاب لإفراغ الثغور والمدن المتاخة لممالك النصارى من المسلمين وإبعادهم عنها. ولجأ النصارى في ذلك إلى أعمال الإبادة والتقتيل والاسترقاق، الأمر الذي كان لا بد من معالجته بعنف مماثل يستثيره عامل الغضب لمحرمات المسلمين ومقدساتهم.

وعلى الرغم من ذلك، فقد حرص المنصور في كثير من الأحيان على كبح جماح عواطف الانتقام والثأر، على نحو ما فعله عند الوصول إلى (شنت ياقب) حيث فرض حراسة قوية لحماية الأماكن المقدسة. غير أن الأمر كان مغايراً عندما تعرضت قوات المسلمين للتهديد، وذلك أثناء تصدي قوات النصارى للمسلمين وسيطرتهم على محاور العمليات في محاولة لتدمير قوات المسلمين أثناء انسحابها، وعندئذ، تراجع المنصور بجيشه على نحو ما سبق عرضه، وأقام

معسكره في منطقة مأمونة، ثم أرسل قواته للإغارة على المدن والقرى المجاورة، وعمل على إبادة الأسرى وقتلهم، وسد الممرات الجبلية بجثثهم، ما أرغم النصارى على طلب المهادنة. ففرض عليهم شروطاً إضافية مثل تغريمهم بتقديم الخيول ونقل الغنائم إلى بلاد المسلمين، وتبرز هذه الحادثة وحدها أهمية العنف في القضاء على أعداء المسلمين وفائدته في مثل هذا النوع من الصراع العقائدي.

وتجدر الإشارة إلى ظهور شواهد مماثلة أيام الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، حيث عمل صلاح الدين الأيوبي على إبادة فرسان الأسبتارية والداوية والتيوتون، من الطوائف الدينية نظراً لما ارتكبه هؤلاء من الجرائم بحق المسلمين، وكذلك فعل الظاهر بيبرس وأحمد بن قلاوون. وهنا يمكن تكرار الحقيقة التاريخية المعروفة، وهي: أن التطرف الإسلامي واستخدام العنف لم يظهرا إلا بنتيجة ما ارتكبه الصليبيون من الأعمال الوحشية، وما أظهروه من التعصب الأعمى في العداء للإسلام والمسلمين.

وإذا كان لا بد من استخدام العنف ضد أعداء الخارج، فقد كان لزاماً استخدام هذا العنف ذاته ضد عملاء الأعداء من الجواسيس والمأجورين. وكان الحاجب المنصور يقظاً حتى أقصى حدود اليقظة ضد أعداء الداخل، حتى أنه قضى ليلته مسهداً وهو يتابع تحرك جاسوس من الجواسيس، حتى إذا ما تم له إلقاء القبض عليه، وعرف منه أعضاء شبكة الجاسوسية، بادر بسرعة إلى إعدامهم، وتعليقهم على أبواب قرطبة حتى (يتبع رأسها الذنبا)، وحتى لا يترك لأعداء الداخل الفرصة للتخريب، ولاستفحال الخطر، فكان العنف هو الوسيلة الرادعة الوحيدة، والجزاء العادل لتلك العناصر التي ربطت نفسها بعجلة أعداء الإسلام والمسلمين.

ولقد كان هذا العنف هو أفضل الوسائل المتوافرة لحماية المجتمع الإسلامي الأندلسي ضد ما يتهدده من أخطار. وكان أثر استخدام العنف عميقاً في نفوس أعداء المسلمين، وهو الأمر الذي أبرزته قصة السارية التي تركها جند المسلمين مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم، فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل الجند وتركهم لها، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مبلغ الفزع الذي خلفته أعمال المنصور في نفوس أعدائه، بقدر ما يدل على أن القرار الذي اتخذه الحاجب المنصور في استخدام العنف، وعمل على تطبيقه

بحزم، كان قراراً صحيحاً لمعالجة المواقف التي كان يتعرض لها.

وفي الواقع فإن صحة هذا القرار، تستثير الاهتمام لاستعراض كافة المقررات التي اتخذها الحاجب المنصور خلال ممارسته لأعماله القيادية والتي تميزت بصحتها، ولو من جهة المنصور على الأقل، أو من جهة تلك الظروف التي تعرض لها أو المواقف التي جابهها.

ومن المحتمل أن تتناقض الاجتهادات أو تختلف في تفسير المضمون الحقيقي لتلك القرارات، غير أن وضعها في إطارها الزمني والمكاني، وفي مواجهة المشكلات التي برزت أمام المنصور، سيبرهن أنه من المحال اتخاذ مقررات أكثر صحة لمعالجة المآزق الطارئة أو المواقف الناشبة. ومهما كان عليه الأمر، فإن النتائج التي أمكن الوصول إليها، كافية لتأكيد صحة تلك القرارات. والقضية بعد ذلك ليست مجرد اتخاذ قرارات صحيحة في مجابهة مواقف مستجدة، بقدر ما هي قضية الحرص على تطبيق القرارات بحزم وجرأة.

وتلك هي الفضيلة الأخرى من فضائل الحاجب المنصور، والذي كثيراً ما جابه مواقف الخطر، عند لقائه بالأعداء، أو عند اصطدامه بالأصدقاء، وأمكن له في كل الحالات مجابهة مواقف الخطر بشجاعة نادرة، وهو إذا ما اضطر إلى الفرار من وجه والد زوجته (الوزير غالب الناصري) فإنه لم يعدم الحيلة للقضاء عليه وتدميره. غير أن سلوكه الشجاع في مواجة الخطر يتمثل في مجابهة الأعداء بأكثر مما يظهر في مجابهة الأهل والأصدقاء، ولو أنه في الحالين لا يستريح ولا يهنأ حتى يتمكن من خصومه وحتى تتم له تصفيتهم. ولعل موقفه من نصارى الشمال، يوم سيطروا على محاور تحركه وحاولوا تمزيق قواته هو أفضل مثال على شجاعته في مواجهة الخطر، وهو في الوقت ذاته برهان على الدهاء الذي يعتمد على العقل لاتخاذ القرار المناسب في مجابهة الخطر.

ومن المعروف أن الإرهاق الجسدي، ومتاعب القتال، وظروف الضغط المستمر كثيراً ما تؤثر على القائد، وتحرفه عن المحاكمة السليمة أو اتخاذ القرار الصحيح في مجابهة الخطر، وقد عاش الحاجب المنصور حياته في خطر دائم، متنقلاً فوق ميادين القتال وساحات المعارك، وعلى الرغم من ذلك كله، فقد احتفظ أبداً بقدرته على اتخاذ القرارات الصحيحة لمجابهة ما يتعرض له من الخطر.

٤ ـ الحاجب المنصور وقوات المسلمين

اشتهر المنصور بقسوته المتطرفة في قمع المخالفات الانضباطية، وقد يظهر من الغريب إقدامه على إعدام ذلك الجندي الذي أشهر سيفه أثناء استعراض القوات، غير أن المنصور، الذي فرض على ذاته تلك القسوة ذاتها في حياته الخاصة والعامة، كان منسجماً مع نفسه على الأقل وهو يقمع الانحرافات بمثل ذلك التطرف، وقد كان لتلك القسوة حجتها وذريعتها لإخضاع الجيش وإلزامه بنظام واحد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد كانت تلك القسوة غير بعيدة عن العاطفة الأبوية في إطار الواجب، وها هو الحاجب المنصور يشاطر جنده لياليهم الماطرة، ويرأف بهم حتى أقصى حدود الرأفة، وهو يغدق عليهم دونما حساب، ويكفيهم همومهم، ويمسح عنهم بؤسهم، ويحمل من أعباء القتال فوق ما يحملون، ويعاني من جهد الحرب بأكثر مما يعانون، فليس من الغريب بعد ذلك أن يقمع بقسوة كل ظاهرة للإخلال بالنظام العام.

وكان المنصور في سلوكه مع جنوده واتصاله بهم، يتوخى البساطة المتناهية، على نحو ما كان يفعل تماماً مع العامة من المسلمين، الأمر الذي لم يعرفه الناس من قبل في ظل «الهيبة الأموية»، الأمر الذي وضع المنصور موضع الانتقاد الشديد وفقاً لما عبَّر عنه الشاعر بقوله في نقده لظواهر التبسط في سلوك المنصور:

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها الحليمُ

ترى هل كان الحاجب المنصور يحاول في ممارساته التأكيد على عدم الانسلاخ عن طبقته؟.

أم هل كان الحاجب المنصور يبغي من خلال ذلك كسب شعبية رخيصة بحسب المصطلحات الحديثة؟ أم هي وسيلته للوصول إلى أعماق ما يتفاعل في نفوس الجماهير، وسبر ردود فعل الناس على أعماله وممارساته؟.

مهما كان عليه نوع الإجابة، فالأمر الثابت هو أن الحاجب المنصور قد عمل باستمرار على السير مع تيار الجماهير، ثم تحويل هذا التيار وتوجيهه نحو الهدف الأسمى وهو «هدف الجهاد». إن الحاجب المنصور هو رجل الشعب ـ وفقاً للمصطلحات الحديثة ـ وهو على الرغم من كل ما فعله، وبالرغم من كل ما وصل إليه من القدرة والسلطة، لم يحاول انتحال لقب الخلافة أو إمارة المؤمنين، وبقي محافظاً على اللقب الذي منحه له البيت الأموي «الحاجب». ويمكن اعتبار هذه الظاهرة تعبيراً عن رغبة الحاجب المنصور في تجاوز الشكل للوصول إلى المضمون الحقيقي من الحكم والسلطة، وفي الوقت ذاته، فإن هذا الشكل أصبح معدوم القيمة بعد أن أُفرغ من مضمونه، وإن انتحال هذا الشكل قد يستثير جماهير المسلمين، فليترك الشكل وليحافظ على المضمون الذي يمكِّنه من أداء الواجب.

وهكذا كان الحاجب المنصور في علاقته مع المسلمين، جماهيرهم ومقاتليهم، لا تأخذ من الشكل إلا بقدر ما هو ضروري لأداء الواجب ولا تترك من المضمون إلا ما يتنافى مع هذا الواجب. ويفسر ذلك التناقض الصارخ بين القسوة والرأفة، بين الحزم واللين. ولقد كان الهدف أو الواجب هو المقياس الموضوعي لكافة أعمال الحاجب المنصور وممارساته. وعلى هذا الأساس لم يكن هناك ثمة تناقض أبداً في ممارسات المنصور، إذ أن الهدف الثابت والرؤية الواضحة للأمور هي قاعدة العمل التي تنطلق منها الممارسات المختلفة والظواهر المتباينة في ظواهرها، والتي تلتقي كلها في النهاية من أجل خدمة الهدف والمحافظة عليه.

ذلك هو الحاجب المنصور الذي تناقضت فيه الآراء، واختلفت فيه وجهات النظر، غير أنه بقي في حقيقته ثابتاً عند لقبه «الحاجب» وثابتاً عند دوره الحقيقي، قائداً، مجاهداً، صابراً، وقف حياته لخدمة المسلمين، وأخلص لقضيته التي هي قضيتهم، فبادلوه إخلاصاً بإخلاص ووفاء بوفاء.

تولى الحاجب المنصور إدارة حرب المسلمين في صراع شبه متصل، وصفه هو ذاته بقوله لوفد النصارى الذي جاء لمفاوضته: «إن أصحابي أبوا أن يخرجوا، وقالوا: إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا، إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزوة، فإذا غزونا عدنا». وقد استمرت قيادة المنصور على هذه الوتيرة في قيادة الجهاد طوال ربع قرن ونيف، لم يظهر

المسلمون خلالها تعباً من الجهاد، أو تذمراً من متاعب القتال. **وليس ذلك إلا برهاناً ساطعاً على ما تميز به المجتمع الإسلامي الأندلسي من «استعداد دائم للحرب». وإذا كان ذلك هو وضع المجتمع الإسلامي، فإن موقف حاكم هذا المجتمع ـ الحاجب المنصور ـ لم يكن أقل من موقف مجتمعه. فقد تولى الحاجب المنصور إدارة الحرب وقد تجاوز عمر الشباب ـ بلغ في سنة ٣٦٦هـ الأربعين من عمره ـ واستمر حتى وفاته سنة ٣٩٢هـ، أي لمدة (٢٦) عاماً. وقد بقي المنصور وهو في عمر الشيخوخة على صهوة جواده، جرّاراً للجيوش، مقداماً في ميادين القتال، يتقدم المجاهدين على ساحات المجد والشرف، فكان بذلك النموذج الأمثل عن «الاستعداد الدائم للقتال»، وأمة هذه حالها، وهذا حال حاكمها، لا بد وأن تبلغ ما بلغته، وأن تحقق ما صبت إليه وما أرادته.**

وفي الواقع، فإن الاستعداد الدائم للقتال هو إحدى خصائص المجتمع الإسلامي، منذ أن خرج العرب المسلمون من جزيرتهم وحتى أبلغوا رسالتهم للدنيا، غير أن ذلك لا ينتقص من دور الحاجب المنصور في توجيه كل الطاقات المتوافرة نحو الجهاد، وقد أعطى بذلك المثل بنفسه، فكان لا بد للمجتمع الإسلامي الأندلسي من السير على المنهج الذي حدده الحاجب المنصور، والاستجابة له، وتلبية داعي الجهاد. وليس هناك من ينكر على المنصور دوره في إبراز خاصة «الاستعداد الدائم للقتال»، ولعل أفضل برهان لهذا الدور هو ذلك التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي بعد غياب المنصور، من انصراف عن ميادين القتال، إلا بقدر ما تتطلبه عملية الدفاع عن النفس، وحتى في الحدود الدنيا لهذا الدفاع.

وهناك ثمة فارق كبير بين الاستعداد الدائم للقتال من أجل نقل الحرب إلى بلاد الأعداء، وبين انتظار هؤلاء الأعداء حتى يقتحموا على المسلمين ثغورهم وعواصمهم. ولعل ذلك وحده كافٍ لإبراز دور الحاجب المنصور في إبراز حقيقة المجتمع الإسلامي وميزاته القتالية وفضائله الحربية والتي تقف في طليعتها «**الكفاءة البدنية العالية**» و«**الروح المعنوية العالية**»، وهما فضيلتان متكاملتان. فإذا كانت الكفاءة البدنية العالية هي عدة المجاهدين في سبيل الله في حربهم المستمرة، والتي اتصلت فيها أيام الجهاد بلياليه وفصوله بعضها ببعض، فقد كان لا بد لهذه الكفاءة من أن تصل إلى درجة من التعب تحت ظروف تبدل

المناخ، في الحر والقر، في المرتفعات العالية والوهاد السحيقة، علاوة على الجهد المبذول في التحرك الدائم، والجهد المبذول في القتال.

وهنا يظهر عامل الإيمان ليرفع من الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله، وليحفزهم من أجل احتمال المشاق، وبذل المزيد من الجهد حتى يأتي الله بنصره. وقد يكون من الصعب جداً تصور مدى الجهد المبذول، وتقويم الكفاءة البدنية العالية التي كان عليها جيش المجاهدين في الحرب طويلة الأمد ما لم تتم معرفة الطبيعة الجغرافية للأندلس، وبما تميزت به منطقة القلاع (قشتالة) وما اشتهرت به منطقة جيليقية (غاليسية) من الوعورة في المسالك والتبدل في المناخ، وعندئذ فقط يمكن تقويم فضائل المجاهدين الحربية، وقدرتهم على احتمال الصعاب، وما توافر لهم من الروح المعنوية العالية.

وإذا كان جيش الفتح بقيادة الرواد الأوائل (موسى بن نصير وطارق بن زياد) قد جاس خلال هذه الديار كلها بعزيمة لا توصف وإخلاص لا مثيل له، فقد كان جيش الجهاد أيام الحاجب المنصور على درجة الصلابة ذاتها وعلى مستوى الإيمان ذاته؛ إذ أن أعمال الفتح قد انتهت في زهاء ثلاثة أعوام، انصرف المسلمون بعدها لبناء المجتمع الإسلامي، في حين اضطر الحاجب المنصور لقيادة الجهاد طوال ربع قرن حتى أعاد لأندلس المسلمين مجدها وعزتها وقوتها على نحو ما كانت عليه خلال الأيام الأولى للفتح.

وهناك ثمة فارق كبير من الجهد الحربي المبذول أيام الفتح، وبين ذلك الجهد الذي قدمه جيش المسلمين أيام الحاجب المنصور وتحت قيادته؛ فقد خاض جيش الفتح حربه بأساليب متقدمة وطرائق متطورة، أذهلت قادة الأعداء في الأندلس ودفعتهم إلى الخضوع للمسلمين، بعد معركة حاسمة «معركة وادي لكة» ومجموعة من أعمال الحصار والمعارك الثانوية، في حين أصبح نصارى الشمال في عهد الحاجب المنصور، وقد تعلموا من العرب المسلمين طرائقهم وأساليبهم، وأخذوا عنهم تنظيماتهم، واكتسبوا حصالة من التجارب القتالية فأصبح القتال أشد ضراوة، وأصبح المقاتلون أكثر عناداً، وأصبحت الظروف ذاتها أشد تعقيداً، وبات انتزاع النصر أكثر صعوبة.

وعند هذه النقطة يمكن إبراز كفاءة جيش المسلمين وفضائله أيام الحاجب المنصور، وتحت قيادته، والتي تعاظمت دونما ريب بالمقارنة عما كانت عليه

خلال الأيام الأولى للفتح. ويمكن أن يضاف إلى ذلك أيضاً العامل الذي كان له دوره يقيناً في حفز المنصور دائماً للبحث عن النصر وتهيئة أسبابه، مما كان يفرض عليه أعباءاً إضافية لم يكن قادة الفتح بحاجة للاضطلاع بها. ذلك أن هؤلاء قد أقبلوا على الفتوح تحت توجيه سلطة شرعية لها قدرتها ولديها إمكاناتها لرفد جبهات القتال بالدعم المستمر حتى يتم النصر، وكانت دولة بني أمية في الشام قد بلغت أوج قوتها وذورة مجدها، فكانت بذلك قادرة على ممارسة دورها لدعم جيش المجاهدين مادياً ومعنوياً، في حين كان المنصور يمارس قيادته، وهو على يقين ضمناً بأنه يمارس دوره بسلطة اسمية وأنه شبه منقطع عن دنيا المسلمين، بل إن المسلمين في المغرب الإسلامي كانوا بعيدين عنه بتأثير نزعات الطوائف (الفاطمية)، فكان الحصول على النصر هو وسيلته الأولى ودعامته الأساسية للانتقال من نصر إلى نصر، في حين كان من شأن الهزيمة لو حدثت أن تنعكس بشكل حاد على وضعه الخاص قدر انعكاسها على الوضع العام لمسلمي الأندلس، وتبرز هذه النقطة مدى صدق المنصور في جهده وجهاده، لقد أراد نصر الله، فنصره الله نصراً عزيزاً.

هناك نقطة لا بد من الإشارة إليها أيضاً؛ فقد خاض قادة الفتح حربهم ضمن إطار صارم من القيود والضوابط التي حدَّت من حرية عملهم العسكري، ولم تكن أقل هذه القيود صرامة وجود عدد من القادة المتنافسين والمرتبطين بدار الخلافة، في حين مارس الحاجب المنصور قيادته في إطار من «**حرية العمل المطلقة، وغير المحدودة**». إذ لم يكن هناك من يقف ليحاسب الحاجب المنصور عن أعماله وممارساته، ولم يكن هناك من يحد من حريته أو يقيدها، وكان لهذا الحرية في العمل ثمنها؛ إذ كان على الحاجب المنصور احتمال كافة النتائج، ولا ريب أن تقويم المنصور لأهمية هذه النتائج وخطورتها كان من جملة الحوافز الأساسية التي دفعته للموازنة باستمرار بين الواجب والمسؤولية.

وبعد، فقد أمضى الحاجب المنصور حياته مجاهداً على الجبهتين الداخلية والخارجية، من أجل توحيد قدرات الجبهة الداخلية لإحراز النصر الخارجي، وإحراز النصر الخارجي لدعم الجبهة الداخلية؛ غير أن غياب الحاجب المنصور، فجَّر دفعة واحدة عوامل التمزق، فتشتتت قوة المسلمين على ممالك

وإمارات كثيرة يجدر استقراء ملامحها، للمقارنة بين أندلس المسلمين في عهده وخلال الفترة التي أعقبت حكمه، وهذا في حد ذاته أمر كاف لرفع الحاجب المنصور إلى مرتبة مميزة بين مجموعة قادة العرب المسلمين.

٥ ـ أندلس المسلمين بعد الحاجب المنصور

(ملوك الطوائف)

كانت وفاة الحاجب المنصور نقطة تحول حاسمة في تاريخ أندلس المسلمين، إذ انتهى بوفاته عصر القوة والزهو، وهو العصر الذي تتابع فيه على حكم الأندلس ثلاثة من أقوى الحكام وهم: عبد الرحمٰن الناصر، والحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور. وتفرقت الأندلس بعد غروب شمس العهد الأموي الذي دمره الحاجب المنصور، وتمزقت إلى عشرين دولة أو إمارة مستقلة، متناحرة فيما بينها، متصارعة بعضها ضد بعض. وقد بقي حكام قرطبة هم أقوى هؤلاء الحكام، وبصورة خاصة منهم المعتضد بن عباد ومن بعده المعتمد. وحاول هؤلاء إنقاذ أندلس المسلمين وإعادة توحيدها، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل وانتهى الأمر باستنجاد المعتمد بن عباد بالمرابطين، فقدم يوسف بن تاشفين وخاض إلى جانب المعتمد معركة «الزلاقة»، ولم يلبث ابن تاشفين أن قضى على كل ملوك الطوائف. وقد يكون من المناسب هنا إلقاء نظرة عجلى على أندلس «ملوك الطوائف» وهي الفترة التي أعقبت وفاة الحاجب المنصور.

١ ـ دولة بني حمود في (مالاقا) واستمرت أربعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

اسم الأمير	بداية الحكم بالسنة الهجرية	السنة الميلادية	ملاحظات
١ ـ علي بن حمود الناصر	٤٠٧	١٠١٦	حكم في قرطبة سنة
٢ ـ القاسم بن حمود المأمون	٤٠٨	١٠١٨	حكم في قرطبة ثلاث سنين
٣ ـ يحيى بن علي بن حمود (المعتلي)	٤١٢	١٠٢١	حكم في قرطبة
٤ ـ القاسم بن حمود (للمرة الثانية)	٤١٣	١٠٢٢	حكم في قرطبة

اسم الأمير	بداية الحكم بالسنة الهجرية	السنة الميلادية	ملاحظات
٥ ـ يحيى بن علي بن حمود (للمرة الثانية)	٤١٦	١٠٢٥	حكم في قرطبة
٦ ـ إدريس بن علي بن حمود (المتأيد)	٤٢٧	١٠٣٥	
٧ ـ حسن بن يحيى بن علي (المستنصر)	٤٣١	١٠٣٩	
٨ ـ إدريس بن يحيى بن علي (الثاني ـ العالي)	٤٣٤	١٠٤٠	
٩ ـ محمد بن إدريس بن علي (الأول ـ المهدي)	٤٣٨	١٠٤٦	
١٠ ـ إدريس بن يحيى بن علي (الثالث ـ الموفق)	٤٤٤	١٠٥٢	(للمرة الثانية)
١١ ـ إدريس بن يحيى بن علي (العالي)	٤٤٥	١٠٥٣	
١٢ ـ محمد بن حسن بن يحيى بن علي (المستعلي)	٤٤٦	١٠٥٤	
استيلاء المرابطين على مالاقا	٤٤٩	١٠٥٧	

٢ ـ دولة بني جهور في (قرطبة) واستمرت أربعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ أبو الحزم بن جهور	٤٢٢	١٠٣١
٢ ـ أبو الوليد محمد بن جهور	٤٣٥	١٠٤٤
٣ ـ عبد الملك بن محمد بن جهور	٤٥٧	١٠٦٤
المعتمد بن عباد يستولي على قرطبة	٤٦٣	١٠٧٠

٣ ـ دولة بني عباد في (إشبيلية) واستمرت سبعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد	٤١٤	١٠٢٣
٢ ـ عباد بن محمد المعتضد	٤٣٣	١٠٤٢
٣ ـ محمد بن عباد المعتمد	٤٦١	١٠٦٩
المرابطون يستولون على إشبيلية	٤٨٤	١٠٩١

٤ ـ دولة بني الأطلس في (بطليوس) واستمرت اثني وسبعين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور	٤١٣	١٠٢٢
٢ ـ محمد بن عبد الله المظفر	٤٣٧	١٠٤٥
٣ ـ يحيى بن محمد المنصور	٤٦١	١٠٦٨
٤ ـ عمر بن محمد المتوكل	٤٦٤	١٠٧٢
المرابطون يستولون على بطليوس	٤٨٨	١٠٩٤

٥ ـ دولة بني يحيى في (لبلة) واستمرت ثلاثين عاماً، وكان حكامهم على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ أبو العباس أحمد بن يحيى	٤١٤	١٠٢٣
٢ ـ محمد بن يحيى عز الدولة	٤٣٤	١٠٤٢
٣ ـ فتح بن خلف ناصر الدولة	٤٤٣	١٠٥١
المعتضد بن عباد يستولي على لبلة	٤٤٥	١٠٥٣

٦ ـ دولة بني مزين «باجة وشلب» واستمرت خمسة وعشرين عاماً، حكم فيها على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ الحاجب عيسى بن محمد	؟	؟
٢ ـ محمد بن عيسى عميد الدولة	٤٣٢	١٠٤١
٣ ـ عيسى بن مزين (المظفر)	٤٤٠	١٠٤٨
٤ ـ محمد بن عيسى (الناصر)	٤٤٥	١٠٥٣
٥ ـ عيسى بن محمد (المظفر)	٤٥٠	١٠٥٨
المعتضد بن عباد يستولي على شلب	٤٥٥	١٠٦٣

٧ ـ دولة بني البكري في «ولبة وجزيرة شلطيش» واستمرت أربعين عاماً تحت حكم عبد العزيز البكري «عز الدولة»، وذلك من سنة ٤٠٣ ـ ٤٤٣هـ/ ١٠١٢ ـ ١٠٥١م استولى المعتضد بن عباد بعدها على ولبة وشلطيش.

٨ ـ دولة بني هارون في شنتمرية الغرب واستمرت خمسة وعشرين عاماً، حكمها سعيد بن هارون سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م ثم خلفه ابنه محمد بن سعيد (المعتصم) سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، واستولى المعتضد بن عباد على شنتمرية الغرب سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م.

٩ ـ دولة بني ذي النون في «طليطلة» واستمرت خمسين عاماً، حكمها على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ إسماعيل بن ذي النون (الظافر)	٤٢٧	١٠٣٦
٢ ـ يحيى بن إسماعيل (المأمون)	٤٣٥	١٠٤٣
٣ ـ يحيى بن إسماعيل (القادر)	٤٦٧	١٠٧٥
ألفونسو السادس يستولي على طليطلة	٤٧٨	١٠٨٥

١٠ ـ دولة بني مناد في «غرناطة» واستمرت سبعة وسبعين عاماً، وحكمها على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ زاوي بن زيري	٤٠٣	١٠١٣
٢ ـ حيوس بن ماكسن	٤١١	١٠٢٠
٣ ـ باديس بن حيوس (المظفر)	٤٢٨	١٠٣٧
٤ ـ عبد الله بن (بلقين)	٤٦٥	١٠٧٣
المرابطون يستولون على غرناطة	٤٨٣	١٠٩٠

١١ ـ دولة بني برزال في «قرمونة» واستمرت خمسة وخمسين عاماً، حكمها محمد بن عبد الله بن برزال بداية من سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م ثم خلفه عزيز بن محمد الملقب بـ«المستظهر» في سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م، واستولى ابن عباد على قرمونة سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م.

١٢ ـ دولة بني دمبر في «مورور» واستمرت ثلاثة وخمسين عاماً، حكمها ابن أبي

تزيري الدمري بداية من سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م وخلفه ابنه محمد بن نوح الملقب بـ«عز الدولة» سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، وخلفه بعد ذلك مناد بن محمد «عماد الدولة» سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م، واستولى ابن عباد على مورور سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م.

١٣ ـ دولة بني خزرون في «أركش» واستمرت سبعة وخمسين عاماً، وحكمها محمد بن خزرون الملقب بـ«عماد الدولة»، بداية من سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م وخلفه عبدون بن محمد بن خزرون سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، وجاء بعده محمد بن محمد بن خزرون الملقب بـ«القائم» سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م واستولى ابن عباد على أركش سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م.

١٤ ـ دولة بني يفرن في «رندة» واستمرت خمسين عاماً، وحكمها هلال بن أبي قرة اليفرني سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م، وخلفه باديس بن هلال سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م، وجاء بعده أبو نصر فتوح بن هلال سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م، واستولى ابن عباد على رندة سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م.

١٥ ـ الدولة العامرية في «المرية»، واستمرت سبعة وسبعين عاماً، حكمها على التوالي:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ خيران العامري «حكم المرية ومرسية»	٤٠٥	١٠١٤
٢ ـ زهير العامري «حكم المرية ومرسية»	٤١٩	١٠٢٨
٣ ـ عبد العزيز «المنصور»	٤٢٩	١٠٣٨
٤ ـ معن بن صمادح	٤٣٣	١٠٤١
٥ ـ محمد بن معن «المعتصم»	٤٤٣	١٠٥١
٦ ـ أحمد بن محمد «عز الدولة»	٤٨٤	١٠٩١

استولى المرابطون على المرية بعد أشهر قليلة من حكم الأخير لها، ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

١٦ ـ الدولة العامرية في مملكة «مرسية» واستمر حكمها سبعين عاماً، خضعت في البداية للعامريين، ثم حكم الطاهريون باسم عبد العزيز منصور صاحب بلنسية وولده عبد العزيز، ثم استولى المعتمد بن عباد عليها سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م، واستولى المرابطون على مرسية سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١، وتتابع على حكمها خلال هذه الفترة:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ خيران العامري	٤٠٣	١٠١٢
٢ ـ زهير العامري	٤١٩	١٠٢٨
٣ ـ أبو بكر بن طاهر	٤٢٩	١٠٣٨
٤ ـ أبو عبد الرحمٰن بن طاهر	٤٥٥	١٠٦٣
٥ ـ ابن عمار	٤٧١	١٠٧٨
٦ ـ ابن رشيق	٤٧٣	١٠٨١

١٧ ـ مملكة «دانية والجزائر» واستمرت اثنين وثمانين عاماً، وتتابع على الحكم فيها:

اسم الملك	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ مجاهد العامري «الموفق»	٤٠٠	١٠٠٩
٢ ـ علي بن مجاهد «إقبال الدولة»	٤٣٦	١٠٤٤
٣ ـ المقتدر بن هود «صاحب سرقسطة»	٤٦٨	١٠٧٦
٤ ـ المنذر بن هود	٤٧٤	١٠٨١
واستولى المرابطون على دانية	٤٨٤	١٠٩١

١٨ ـ مملكة «بلنسية» واستمرت ثلاثة وتسعين عاماً، وحكم فيها على التتابع:

اسم الأمير	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ الفتيان «مظفر ومبارك»	٤٠٠	١٠٠٩
٢ ـ لبيب العامري	٤٠٨	١٠١٧
٣ ـ عبد العزيز المنصور	٤١١	١٠٢١
٤ ـ عبد الملك بن عبد العزيز	٤٥٢	١٠٦١
المأمون بن ذي النون يستولي على بلنسية	٤٥٧	١٠٦٥
٥ ـ أبو بكر بن عبد العزيز «نائباً عن المأمون»	٤٥٧	١٠٦٥
٦ ـ عثمان بن أبي بكر	٤٧٨	١٠٨٥
٧ ـ القادر بن ذي النون	٤٧٨	١٠٨٥
٨ ـ القاضي بن حجاف	٤٨٥	١٠٩٢
الكمبيادور والقشتاليون يستولون على بلنسية	٤٩٥	١١٠٢

١٩ ـ إمارة «شنتمرية الشرق» واستمرت اثنين وتسعين عاماً، وحكمها في البداية هذيل بن عبد الملك بن رزين سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وخلفه ابنه عبد الملك بن هذيل سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م، ثم جاء يحيى حسام الدولة سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م، ولكنه لم يستمر، حيث استولى المرابطون على «شنتمرية الشرق» سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م.

٢٠ ـ إمارة «البونت» واستمرت ثلاثة وتسعين عاماً، وحكم فيها على التتابع:

اسم الملك	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ عبد الله بن قاسم	٤٠٠	١٠٠٩
٢ ـ محمد بن عبد الله «يمن الدولة»	٤٣١	١٠٣٩
٣ ـ أحمد بن محمد «عز الدولة»	٤٣٤	١٠٤٢
٤ ـ عبد الله بن محمد «جناح الدولة»	٤٤٠	١٠٤٨
استولى المرابطون على «البونت»	٤٩٥	١١٠٢

٢١ ـ مملكة «سرقسطة» واستمرت ثلاثة وتسعين عاماً، حكم فيها على التتابع:

اسم الملك	السنة الهجرية	السنة الميلادية
١ ـ المنذر بن يحيى التجيبي	٤٠٨	١٠١٧
٢ ـ يحيى بن المنذر «المظفر»	٤١٤	١٠٢٣
٣ ـ المنذر بن يحيى «معز الدولة»	٤٢٠	١٠٢٩
٤ ـ سليمان بن هود «المستعين»	٤٣١	١٠٣٩
٥ ـ أحمد بن سليمان «المقتدر»	٤٣٨	١٠٤٦
٦ ـ يوسف بن أحمد «المؤتمن»	٤٧٤	١٠٨١
٧ ـ أحمد بن يوسف «المستعين»	٤٧٨	١٠٨٥
٨ ـ عبد الملك بن أحمد «عماد الدولة»	٥٠٣	١١١٠
واستولى المرابطون بعد فترة قصيرة من حكمه على (سرقسطة)	٥٠٣	١١١٠

٦ ـ الكلمة الأخيرة في الحاجب المنصور

عودة إلى البداية. ويقف القارئ عند سيرة الحاجب المنصور، ولا زال في فكره كثير من التساؤلات حول شخصية هذا القائد الذي شغل حيزاً كبيراً في تاريخ العرب المسلمين، ولا زال في نفسه الكثير من الانفعالات المتناقضة في أمر رجل الدنيا وواحدها، والذي لم يعوِّل في دنياه إلا على قدراته الذاتية وإمكاناته الفردية. فهل كان الحاجب المنصور مغتصباً للسلطة؟ وهل كانت ثمرة جهده وجهاده خالصة لوجه الله، ومن أجل رفعة الإسلام والمسلمين؟ أم هل كان مجرد رجل طموح، يدفعه حب المغامرة، فَعَلَ ما فَعَلَ وأنْجَزَ ما أنْجَزَ، من أجل عز الدنيا؟ ثم هل كانت ثمرة جهده وجهاده لترك دوي في الدنيا يبقى خالداً ما خلد المسلمون؟.

لا مجال للشك أو الريبة، فلقد عمل المنصور مجاهداً في سبيل الله، وكانت دنياه لآخرته، ولم يحمل معه من متاع الدنيا غير تلك الحفنة من التراب مما خلفته أيام الجهاد على ثيابه ليلقى بها وجه ربه. ولقد أدرك المنصور بعين المؤمن وقلبه ما يتهدد مجتمع الأندلس الإسلامي من الأخطار، وما ينتظره من المحن والكوارث، فمضى يحمل الأمانة، بعد أن رأى قصور مَنْ حوله وتقصيرهم، وبرهن أنه جدير برفع راية الجهاد في سبيل الله، وقيادة الدفاع عن مجتمع المسلمين، وتحصين هذا المجتمع ضد الأمراض المتوضعة في جوفه والمستوطنة في كيانه.

أما علاقته بسيدة البلاط الأموي «صبح البشكنسية»، وأما تجاوزه للخليفة الشرعي هشام المؤيد، وأما غدره بصاحبه المصحفي، وأما صدامه مع والد زوجته الوزير غالب الناصري، وأما بناؤه للزاهرة وابتعاده عن الزهراء، فهي كلها من الأمور التي تحتل موقعاً هامشياً عند مقارنتها بما أنجزه الحاجب المنصور لمصلحة الإسلام والمسلمين، وهي أمور لم يخلُ منها حكم في القديم والحديث. إنها أقرب إلى الهنات الصغرى، وهي إلى ذلك كانت من الضرورات

لتأكيد التحولات الجديدة من جهة، ولخدمة الهدف الذي وقف الحاجب المنصور حياته على خدمته من جهة ثانية. ترى هل كان باستطاعة الحاجب المنصور أن يجعل من الزهراء عاصمة له ومقراً لحكمه، وهو بلاط خاص بالبيت الأموي؟.

وهل كان باستطاعة الحاجب المنصور التردد على البلاط الأموي، وتلقي التعليمات التي تحد من حرية عمله السياسية والعسكرية، في وقت كان يحتاج فيه لإطلاق كل الفاعليات السياسية والعسكرية دونما حدود أو قيود؟.

وأي إنسان كان يستطيع أن يفعل غير ما فعله الحاجب المنصور، وهو يقدم على ما أقدم عليه من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين؟.

غير أنه كان يستطيع أن يتجنب نقطة واحدة، وهي عدم الوصاية لابنه بالحكم من بعده، وإعادة الشرعية إلى أصحابها الشرعيين، غير أنه من المحتمل هنا أن يكون قد وجد في خليفته من القدرة ومن الكفاية ما لم يجده في رجال البلاط الأموي، ففضل ترك ثمرة جهده وجهاده في قبضة أقرب الناس إليه وأكثرهم حرصاً على أمانته.

تلك هي صفحات الحاجب المنصور، صافية كل الصفاء، ناصعة بيضاء في مجال الجهد والجهاد، لا تشوبها شائبة، ولا تنتابها بقعة شوهاء أو نقطة مكدرة.

ويمضي الحاجب المنصور للقاء ربه.

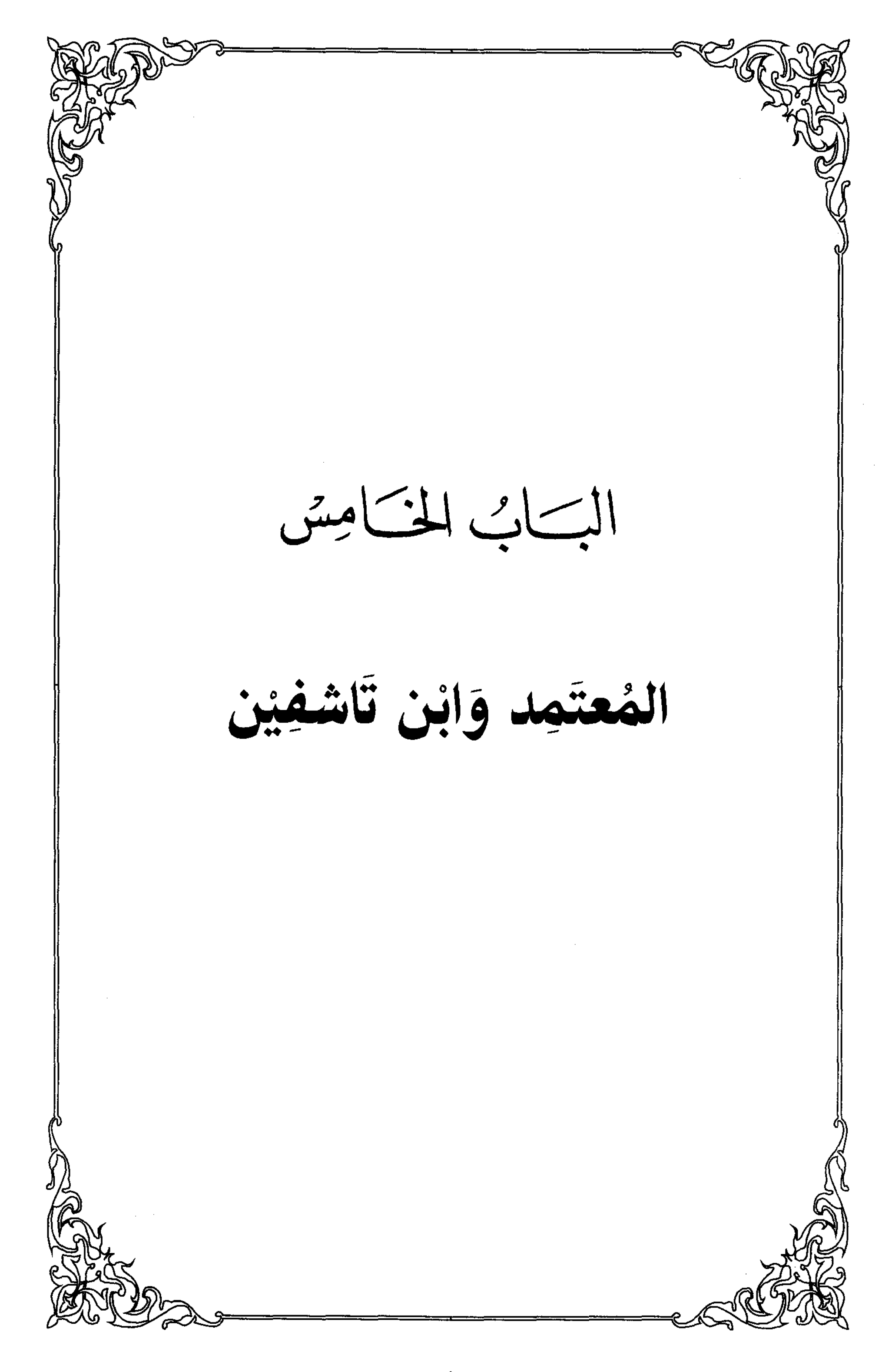
ويمضي المسلمون في الأندلس لمتابعة الجهد والجهاد في أيام لا تعد ولا تحصى، كان من أبرزها يوم الزلاقة، ويوم الأرك، وكان من أسوئها يوم العقاب. وتتواتر الأيام بين نصر وهزيمة، حتى جاء سقوط غرناطة بعد خمسة قرون تقريباً إيذاناً بانتقال الصراع من أندلس المسلمين إلى المغرب العربي الإسلامي في حملات صليبية جديدة ومتطورة.

ويمضي الحاجب المنصور للقاء وجه ربه، ويخرج المسلمون، بعد خمسة قرون، من الأندلس، غير أنه ليس باستطاعة الإنسان المسلم، إلا الوقوف خاشعاً وهو يجوس الديار الأندلسية، ليقف مذهولاً على أطلال «قلعة رباح» وحصن «الحامة» وسمورة وشلمنقة وقرطبة وحتى الزاهرة الدائرة، ويتذكر ذلك السيف الذي ما نبا، وهو مشهر يزود عن الإسلام والمسلمين، بإيمان ثابت لا يتزعزع، وصبر لا يعرف النفاد.

هناك، في مدينة سالم، غاب السيف الذي طالما زاد عن حياض المسلمين.

وبمثل سيف الحاجب المنصور، وبمثل أقرانه من المجاهدين في سبيل الله، يبقى دور المسلمين خالداً على الدنيا، وتبقى رسالتهم مناراً لهذه الدنيا.





البَـابُ الخَامِسُ

المُعتَمِد وَابْن تَاشفِيْن

المقدمة

تجربة تاريخية جديدة، كان مسرح أحداثها فوق أرض أندلس المسلمين، وقد ارتبطت هذه التجربة باسم قائدين مسلمَين (المعتمد بن عباد ـ محمد) و(يوسف بن تاشفين) وكان موقعها (الزلاقة) على ضفاف وادي (نهريانة).

لقد ولد المعتمد بن عباد في (باجة) من بلاد الأندلس، وعاش حياة الترف والدعة، فقد ضمن له أبوه (المعتضد) توحيد أكبر عدد من إمارات الأندلس الممزقة المتصارعة فيما بينها. وسار المعتمد على سيرة أبيه، غير أنه لم ينسَ نصيبه من الدنيا، فكان بلاط إشبيلية ثم قرطبة موئلاً يقصده رجال العلم والأدباء والفنانون وذوو الحاجة من كل أرجاء دنيا المسلمين. وولد ابن تاشفين ـ يوسف ـ في صحراء المغرب الإسلامي، وكانت بلاد المغرب تعاني من التمزق، فعمل على توحيدها بجيش المرابطين ـ الملثمين ـ ومضى يدعم من قواعد دولة المسلمين، ويعززها، حتى غدت دولة قوية قادرة على حماية المغرب الإسلامي والدفاع عنه.

في تلك الفترة من حياة المسلمين؛ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، أو النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة، بدأ الفرنج الصليبيون، في التطلع للنيل من الدولة الإسلامية، في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، فبدأت روح الصليبية المتعصبة العمياء في التحرك على المستوى الشامل، غير أن قوة المسلمين السلاجقة أحبطت نواياهم في المشرق عندما هزمت فصائلهم في معركة (ملازكرد)، وهي المعركة التي ترددت أصداؤها قوية في المغرب، على الرغم من أنها لم تكن أول معركة حاسمة ينتصر فيها المسلمون. فبدأت محاولة الصليبيين بالتوجه إلى الأندلس، التي كانت في حرب دائمة وصراع مستمر قاده القشتاليون النصارى ضد المسلمين؛ حتى إذا ما جاءت سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، استطاعت حشود الصليبيين تحقيق أول انتصار حاسم على المسلمين بالاستيلاء على طليطلة، قاعدة القوط القديمة وعاصمتهم. وتردد

صدى هذا الحدث قوياً رهيباً، في الشرق والغرب على السواء، فقد وجد فيه الفرنج الصليبيون بداية الانتقال الشامل من الدفاع إلى الهجوم، ووجد فيه المسلمون حافزاً قوياً أيقظهم من غفوتهم ونبههم إلى الأخطار التي باتت محدقة بهم.

كان سيد إشبيلية «المعتمد بن عباد» هو أول من تنبه للخطر، فمضى يحشد القوى، ويستنهض العزائم، ويطلب الدعم ممن حوله. وكان أمير المسلمين في المغرب «يوسف بن تاشفين» في طليعة من لجأ إليه المعتمد. وأسرع ابن تاشفين لتلبية نداء الإسلام المنطلق من قلب أندلس المسلمين، فكانت معركة الزلاقة الظافرة التي نكب فيها النصارى نكبة مريعة، جعلتهم يدركون أن الأندلس ليست من الضعف كما كانوا يتوهمون ويحلمون.

ومضت الأحداث متسارعة، فاضطلع المرابطون بأعباء الجهاد، واستولوا على الإمارات الأندلسية، وفي جملتها إمارة إشبيلية التي حمل أميرها المعتمد إلى المغرب ليقضي بقية حياته في سجن أغمات، في وقت كانت جحافل الفرنج الصليبيين تتجه إلى الشرق لشن حملات «الحروب الصليبية».

وإذن، فهناك ثلاث تجارب تاريخية:

١ ـ **تجربة المعتمد بن عباد**: صاحب النداء المشهور، عندما حذره أعوانه من الاستنصار بابن تاشفين، فأطلق مقولته الشهيرة: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»؛ كناية على أن قبوله العمل راعياً للجمال في بلاد المسلمين خير له وأجزى من العمل راعياً للخنازير في بلاد يحكمها أو يتحكم بها أعداء المسلمين.

٢ ـ **تجربة يوسف بن تاشفين**: المسلم المؤمن المجاهد وقائد المرابطين، الذي خاض بهم ومعهم أيام الجهاد في سبيل الله، دفاعاً عن حمى المسلمين وثغورهم في أندلس المسلمين.

٣ ـ **تجربة موقعة الزلاقة**: بمقدماتها وظروفها ونتائجها.

ولكل تجربة من هذه التجارب الثلاث حجمها التاريخي الذي تصعب الإحاطة به، واستيعابه، وإعطاؤه ما يستحقه من البحث والدراسة، غير أن أهمية الموضوع وكبر حجمه، لا يشكلان عائقاً أمام محاولة التركيز على أبرز ما في الأحداث من الأهمية، ومن غير الإهمال للمتعة المرافقة لكل استقراء للتجارب التاريخية.

وثمة ملاحظتان لا بد من التعرض لهما في أسلوب هذا البحث، وفي موضوعه:

الملاحظة الأولى: أسلوب البحث:

خلافاً لما عهدنا في الأبحاث السابقة، فإن بحثنا هذا يتضمن قدراً غير قابل من المقتطفات الشعرية التي تصور جوانب الحياة العامة في أندلس المسلمين، قدر تصويرها للأحداث التي صاحبت حياة المعتمد بن عباد ورافقتها، ويعكس ذلك بصورة طبيعية ما وصل إليه التطور الأدبي في أندلس المسلمين خلال تلك الحقبة التاريخية، بقدر ما يعكس أيضاً حياة القصر في عهد بني عباد، وقد يكون من العسير إسقاط هذه الناحية في نهج البحث، من الناحية الوضعية. وعلاوة على ذلك كله، فقد كانت حياة المعتمد، وحياة أفراد أسرته، بمثابة أغنية شعرية اختلطت فيها خيوط المجد بخيوط المأساة، فشكلت نسيجاً متلاحماً لا يمكن فصل عراه، أو التنكر للحنه الذي سيبقى عذباً ومثيراً كلما عزفته قيثارة الزمن.

الملاحظة الثانية: موضوع البحث:

إذ إن هذا الباب يأتي في نهاية **قادة الحروب الصليبية المسلمين من «مشاهير قادة الإسلام»، ويتوافق ذلك بحسب ما أريد له، مع مطلع القرن الخامس عشر للهجرة، حيث تتفتح كل الآمال على مستقبل أفضل لعالم العرب المسلمين خاصة، وللمسلمين من غير العرب عامة، وذلك بالرغم من الظلمة القاتمة التي تسدل ستارها على العالمين العربي والإسلامي.**

لقد مضى على معركة الزلاقة وأبطالها زهاء التسعة قرون، وكانت هذه المعركة هي نقطة التحول الحاسمة على طريق الصراع الصليبي ـ الإسلامي، وقد جاءت بعدها مباشرة حملات صليبية دمرت المشرق بقدر ما دمرت المغرب، ثم استمرت هذه الحرب الصليبية الظالمة بأشكال مختلفة وأساليب متباينة في محاولة حتى يطفئوا نور الله بأيديهم ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ويقف العالم العربي والإسلامي، في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة، وهو يتحسس طريقه وسط الظلام المحيط به، وهو لا يحتاج لأكثر من استقراء تجربته الذاتية حتى تستنير له طرق الظلام وتتبدد. فلقد تراكمت منذ «موقعة الزلاقة» وحتى اليوم، حصالة من التجارب قلما توافرت لأمة من الأمم أو لشعب من الشعوب، وهذه الحصالة تشكل مناراً ساطعاً لكل من أراد السير على طريق الحق والهدى.

لقد وصلت الحرب الصليبية المتطورة، مع بداية القرن الخامس عشر للهجرة، مدى اتساعها وذروة شدتها، ولكن وعلى الرغم من ذلك، فلا زال أمل المسلمين بمستقبلهم أكبر من كل التحديات؛ ذلك أن تجربتهم التاريخية الذاتية، قد أكدت لهم المرة تلو المرة، أنه لا بد من اندحار قوى الشر أمام سلطان الخير، وأنه لا بد لظلمة الليل من أن تتبدد عندما يشرق الفجر، وعسى أن يكون موعد الفجر ليس ببعيد، ويتحقق للمسلمين في كل ديارهم وأوطانهم، ما هم أهل له طالما التزموا بحمل الرسالة وأداء الأمانة. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

معكة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م)

١ ـ وجيز الأحداث

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الوجيز
٤٥٥	١٠٦٢	قيام دولة المرابطين واستيلاء ابن تاشفين على المغرب (مراكش).
٤٥٦	١٠٦٣	البابا الإسكندر الثاني يمنح الغفران لكل مقاتل من أجل الصليب في أندلس المسلمين.
٤٦٤	١٠٧١	معركة ملازكود ـ مانذيكرت، وانتصار المسلمين السلاجقة على الأرمن المسيحيين.
٤٧٨	١٠٨٥	الفرنج الصليبيون يستولون على (طليطلة) في الأندلس
٤٧٩	١٠٨٦	**يوسف بن تاشفين يعبر إلى الأندلس بقوات المرابطين لنجدة المسلمين، ويخوض مع المعتمد بن عباد معركة «الزلاقة» الظافرة.**
٤٨٤	١٠٩١	يوسف بن تاشفين يعزل «المعتمد بن عباد» ويسجنه في سجن أغمات.
٤٨٨	١٠٩٥	وفاة المعتمد في سجنه في أغمات في المغرب.
٤٨٩	١٠٩٦	مجمع «كليرمونت» يعلن الحرب الصليبية على المسلمين.
٤٩٣	١٠٩٩	الحملة الصليبية الأولى تصل إلى فلسطين وتحتل «بيت المقدس».
٥٠٠	١١٠٦	وفاة يوسف بن تاشفين.

٢ ـ دولة بني عباد في إشبيلية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	الأمير ـ الحاكم
٤١٤	١٠٢٣	القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد.
٤٣٣	١٠٤٢	عباد بن محمد (المعتضد).
٤٦١ ـ ٤٨٤	١٠٦٩ ـ ١٠٩١	محمد بن عباد (المعتمد).

٣ ـ دول ملوك الطوائف

الدولة	عاصمتها	مدتها ـ هجرية	مدتها ـ ميلادية	مدتها	ملاحظات
١ ـ دولة بني عباد	إشبيلية	٤١٤ ـ ٤٨٤	١٠٢٣ ـ ١٠٩١	٧٠ عاماً	المرابطون يستولون عليها.
٢ ـ دولة بني حمود	مالقة	٤٠٧ ـ ٤٤٩	١٠١٦ ـ ١٠٥٧	٤٠ عاماً	المعتضد يستولي على مالقة.
٣ ـ دولة بني جهور	قرطبة	٤٢٢ ـ ٤٦٣	١٠٣١ ـ ١٠٧٠	٤٠ عاماً	المعتمد يستولي على قرطبة.
٤ ـ دولة بني الأفطس	بطليوس	٤١٣ ـ ٤٨٨	١٠٢٢ ـ ١٠٩٤	٧٢ عاماً	المرابطون يحتلونها.
٥ ـ دولة بني يحيى	لبلة	٤١٤ ـ ٤٤٥	١٠٢٣ ـ ١٠٥٣	٣٠ عاماً	المعتضد يحتلها.
٦ ـ دولة بني مزين	باجة وشلب	٤٣٢ ـ ٤٥٥	١٠٤١ ـ ١٠٦٣	٢٢ عاماً	المعتضد يحتلها.
٧ ـ دولة بني البكري	ولبة	٤٠٣ ـ ٤٤٣	١٠١٢ ـ ١٠٥١	٤٠ عاماً	المعتضد يحتلها.
٨ ـ دولة بني هارون	شنتمرية الغرب	٤١٧ ـ ٤٤٣	١٠٢٦ ـ ١٠٥١	٢٥ عاماً	المعتضد يحتلها.
٩ ـ دولة بني ذي النون	طليطلة	٤٢٧ ـ ٤٧٨	١٠٣٦ ـ ١٠٨٥	٥٠ عاماً	ألفونسو يستولي عليها.
١٠ ـ دولة بني مناد	غرناطة	٤٠٣ ـ ٤٨٣	١٠١٣ ـ ١٠٩٠	٧٧ عاماً	المرابطون يحتلونها.
١١ ـ دولة بني برزال	قرمونة	٤٠٤ ـ ٤٥٩	١٠١٣ ـ ١٠٦٧	٥٥ عاماً	المعتمد يحتلها.
١٢ ـ دولة بني دمر	مورور	٤٠٣ ـ ٤٥٨	١٠١٣ ـ ١٠٦٦	٥٣ عاماً	المعتمد يستولي عليها.
١٣ ـ دولة بني خزرون	أركش	٤٠٢ ـ ٤٦١	١٠١١ ـ ١٠٦٨	٥٧ عاماً	المعتمد يحتلها.
١٤ ـ دولة بني يغرن	رندة	٤٠٦ ـ ٤٥٧	١٠١٥ ـ ١٠٦٥	٥٠ عاماً	المعتمد يحتلها.
١٥ ـ الدولة العامرية	المرية	٤٠٥ ـ ٤٨٤	١٠١٤ ـ ١٠٩١	٧٧ عاماً	المرابطون يحتلونها.
١٦ ـ الدولة العامرية	مرسية	٤٠٣ ـ ٤٧١	١٠١٢ ـ ١٠٧٨	٦٦ عاماً	المعتمد يسيطر عليها.

الدولة	عاصمتها	مدتها ـ هجرية	مدتها ـ ميلادية	مدتها	ملاحظات
١٧ ـ مملكة دانية والجزائر	دانية	٤٠٠ ـ ٤٨٤	١٠٠٩ ـ ١٠٩١	٨٢ عاماً	المرابطون يحتلونها .
١٨ ـ مملكة بلنسية	بلنسية	٤٠٠ ـ ٤٥٧	١٠٠٩ ـ ١٠٦٥	٥٧ عاماً	القشتاليون يحتلونها .
١٩ ـ إمارة شنتمرية الشرق	شنتمرية	٤٠٣ ـ ٤٩٧	١٠١٢ ـ ١١٠٤	٩٢ عاماً	المرابطون يحتلونها .
٢٠ ـ إمارة البونت	البونت	٤٠٠ ـ ٤٩٥	١٠٠٩ ـ ١١٠٢	٩٣ عاماً	المرابطون يحتلونها .
٢١ ـ مملكة سرقسطة	سرقسطة	٤٠٨ ـ ٥٠٣	١٠١٧ ـ ١١١٠	٩٣ عاماً	المرابطون يحتلونها .



الفَصْلُ الأولُ

الوضع السياسي العام

١ ـ دولة بني عباد
٢ ـ المعتمد بن عباد
٣ ـ يوسف بن تاشفين
٤ ـ الموقف على جبهة الشمال الأندلسي

أ ـ متحولات الصراع
ب ـ وقعة بطرنة (٤٥٦هـ)
جـ ـ الصراع على بربشتر (٤٥٦هـ)
د ـ سقوط طليطلة (٤٧٨هـ)



١ ـ دولة بني عباد

غربت شمس شيخ المجاهدين، الحاجب المنصور، وتنفس زعماء شبه الجزيرة الأندلسية الصعداء، فقد أتعبهم الجهاد، وأرهقهم الحاجب بغزواته المتواصلة، وفتوحاته المتتابعة، حتى عادت شبه الجزيرة موحدة كما كانت أيام الفتح الأولى، وانصرف زعماء الأندلس، بعد أن غابت عنهم القبضة التي كانت توحدهم، وتفرض سيطرتها عليهم، للنظر في شؤونهم الخاصة، والاهتمام والاهتمام بأمور المدن، أو الإمارات، أو الممالك، التي يحكمونها، واستقلت كل فئة بما تحوزه من الأراضي والحدود، ثم التفت في محاولة منها، لتوسيع حدودها على حساب ما حولها. وتحولت المنافسة إلى صراع، والصراع إلى عداء، والعداء إلى حروب في كثير من الأحيان، استنزفت الجهد، وصرفت البلاد وأهلها عن كل ما يتهددها من أخطار، وما يحيط بها من المهالك والدمار.

وتمزقت الأندلس إلى أكثر من عشرين دولة[١]، وأعادت قشتالة تنظيم أمورها، وأفادت من تمزق دويلات المسلمين، ففرضت عليهم الجزية جميعاً، وأخذت في توسيع حدودها على حسابهم، كلهم، ووصلت الأمور ذروة خطورتها باستيلاء النصارى على طليطلة.

كان «بنو عباد» في جملة من استقلوا بالملك، وجعلوا من «إشبيلية» قاعدة لهم، وأخذوا في بسط نفوذهم، وتوطيد دعامة دولتهم على أسس ثابتة وقوية، وقد عمل المعتضد (والد المعتمد) على ضم دول (مالقة) و(لبلة) و(باجهة) و(شلب) و(ولبة)، فبات يسيطر على الجنوب الأندلسي. ثم جاء المعتمد فسار على نهج أبيه، فضم إليه دول (قرطبة) و(قرمونة) و(موررور) و(أركش) و(رندة) و(مرسية). وباتت دولة «بني عباد» من أقوى الممالك الأندلسية، فكان لزاماً

---

(١) انظر: الجدول السابق في دول (ملوك الطوائف).

عليها أن تدفع ضريبة القوة وذلك بالتصدي للأعداء ومجابهتهم، يحفزهم إلى تحمل هذا الواجب، ما اشتهر به «بنو عباد» من الأصالة العربية، والتمسك بالدين الإسلامي والدفاع عنه، وما عرف عن أفرادها من الكفاءة القيادية العالية، الأمر الذي وصفته المصادر العربية[1] بقولها: «يأتي في أولية بني عباد، الوزير أبو القاسم محمد بن عباد، وهذه بقية منتماها في لخم، ومرتماها إلى مفخر ضخم، وجدهم المنذر بن ماء السماء، ومطلعهم من جو تلك السماء، وبنو عباد ملوك أنس بهم الدهر، وتنفس منهم من أعبق الزهر، وعمروا ربع الملك، وأمروا بالحياة والهلك، ومعتضدهم أحد من أقام وأقعد، وتبوأ كاهل الإرهاب واقتعد، وافترش من عريسته، وافترس من مكايد فريسته، وزاحم بعود، وهدَّ كل طود، وأخْمَل كل ذي زيٍّ وشارة، وخَتَل بوحي وإشارة، ومعتمدهم كان أجود الأملاك، وأحد نيرات تلك الأفلاك».

وفي مقولة أخرى جاء ما يلي: «القاضي أبو القاسم هذا جدهم، وبه سفر مجدهم، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر، واختصهم منه بالحظ الوافر، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر، عندما أناخت بها أطماعهم، وأصاخت إليها أسماعهم، وامتدت إليها من مستحقيها اليد، وأتلعوا أجياداً زانها الجَيَد، وفَغَر عليها فمه حتى هجا بيت العبدى، وتصدى إليها من تحضر وتبدَّى، فاقتعد سنامها وغاربها، وأبعد عنها عجمها وأعاربها، وفاز من الملك بأوفر حصة، وغدت سِمته به صفة مختصة، فلم يمح رسم القضاء، ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء، وما زال يحمي حوزته، ويجلو غرته، حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الأجام، وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد بالله، فارتمى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدر ذلك المنهل، وعكَّر أثناء ذلك صفو العل والنهل، وما زال للأرواح قابضاً، وللوثوب عليها رابضاً، يخطف أعداءه اختطاف الطائر من الوكر، وينتصف منهم بالدهاء والمكر، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد، فاكتحل منه طرفه الرمد، وأحمد مجده، وتقلد منه أيَّ بأس ونجدة، ونال به الحق مناه، وجرَّر سناه، وأقام في الملك ثلاثاً وعشرين سنة، لم تعدم له فيها حسنة، ولا سيرة متحسنة».

---

(١) نفح الطيب: تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، ١٩٦٨م، ٤/٢٢٦، ٢٢٧.

ثم يأتي المؤرخ «ابن خلدون»[1] ليبرز بصورة أوضح مراحل تشكل دولة «بني عباد» فيقول: «كان ابتداء أمر ملوك الطوائف بالأندلس، وتصاريف أحوالهم، لما انتثر ملك الخلافة العربية بالأندلس، وافترق الجماعة بالجهات وصار ملكها في طوائف من الموالي والوزراء، وأعياص الخلافة، وكبار العرب والبربر، واقتسموا خططها، وقام كل واحد بأمر ناحية منها، وتغلب بعضهم على بعض، استقل أخيراً بأمرها ملوك منهم استفحل شأنهم، ولاذوا بالجزية للطاغية أو يظاهرون عليهم، أو ينتزعونهم ملكهم».

كان أولهم القاضي أبو القاسم محمد بن ذي الوزارتين «أبو الوليد» إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي. وكان محمد بن إسماعيل صاحب الصلاة ـ الإمام ـ في «طشانة»، ثم ولي ابنه إسماعيل الوزارة بإشبيلية سنة (٤١٣هـ)، وولي ابنه أبو القاسم القضاء بها والوزارة من سنة (٤١٤هـ) إلى أن هلك سنة (٤٣٣هـ). وكان أصل رياسته إنه كان له اختصاص «القاسم بن حمود»، وهو الذي أحكم عقد ولايته. وكان «محمد بن زيري» من أقيال البرابرة، والياً على إشبيلية. وحدثت ثورة في قرطبة ضد حاكمها «القاسم ـ من بني حمود» ومارس أبو القاسم دوره، فتم طرد القاسم ومعه محمد بن زيري من غرناطة وإشبيلية. وصار الأمر شورى بين «أبو القاسم»، و«أبو بكر الزبيدي» و«محمد بن رمخ الألهاني»، ثم استبد أبو القاسم عليهم بالجند، ولم يزل على القضاء. ولما طرد «القاسم ـ من بني حمود» من إشبيلية، عدل عنها إلى قرمونة وحدثت فتنة تدخل فيها «أبو القاسم ـ ابن عباد» فتم خلع القاسم، وضمها ابن عباد وتحول إلى «شريش و«قرمونة» فاستبد بهما. وقام ابنه عباد وتلقب بالمعتضد، واستولى على سلطانة واشتدت حروبه وأيامه، وتناول طائفة من الممالك بالأندلس، وانفسح أمده، وأول ما افتتح أمره بمداخلة «محمد بن عبد الله البرزالي» صاحب «قرمونة» في إفساد ما بينه وبين «القاسم بن حمود» حتى تحول عنه إلى «شريش»، ثم تحارب مع عبد الله بن الأفطس، صاحب بطليوس، وغزاه ابنه إسماعيل في عساكره، ومعه محمد بن عبد الله البرزالي فلقيه المظفر بن الأفطس فهزمهما، وأسر المظفر ابن البرزالي إلى أن أطلقه بعد

---

(١) **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م، (٤/٣٣٦ ـ ٣٤٢).

حين، ثم فسد ما بينه وبين البرزالي واتصلت الفتنة بينهما، إلى أن قتله ابنه إسماعيل حيث خرج عليه في سرية، فأغار على قرمونة وأكمن الكمائن، فركب محمد البرزالي في أصحابه، وتصدى له إسماعيل إلى أن بلغ به الكمين، فخرجوا عليه فقتلوه، وذلك سنة (٤٣٤هـ).

أعلن بعد ذلك إسماعيل تمرده على أبيه المعتضد، وشجعه على ذلك العبيد والبرابرة الذين أغروه بالملك، فأخذ ما قدر عليه من المال والذخيرة، وفر إلى جهة الجزيرة للثورة بها. وكان أبوه المعتضد آنذك في حصن الفرج، فأنفذ الخيالة في طلبه، فمال إلى قلعة «الورد» فقبض وإليها عليه، وأرسله إلى أبيه فقتله، وقتل كاتبه وكل من كان معه، ثم رجع إلى مطالبة البربر المستقلين بالثغور والتضييق عليهم. وبدأ قبل كل شيء بصاحب قرمونة ـ حاكمها ـ وكان بها المستظهر العزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي، وليها بعد أبيه، وكانت له معها أستجة والمروز. وكان نموز وورواركش للوزير نوح الرموي من برابرة العدوة، وشيعه المنصور وقد استقل بها منذ سنة (٤٠٤هـ) حتى سنة (٤٣٣هـ)، ولم يزل المتعتضد يضايقه، واستدعاه بعض الأيام لولاية، فحبسه، وكاده في ابنه بكتاب على لسان جاريته بَرَنْدة، أنه ارتكب منها محرماً، ثم أطلقه، فقتل ابنه، ثم شعر بالمكيدة فمات أسفاً سنة (٤٥٠هـ)، وولي ابنه أبو نصر إلى أن غدر به في الحصن بعض أجناده، فسقط من السور، ومات سنة (٤٥٩هـ).

كانت شريش تحت حكم خزرون بن عبدون، وأركش تحت حكم ابن نوح، و(شريش) تحت حكم (ابن خزرون)، و(رندة) تحت حكم (ابن أبي قرة)، فتألفهم (المعتضد) واعترف بهم واستمالهم حتى صاروا في حزبه ووثقوا به، ثم استدعاهم لوليمة وغدر بهم في حمام استعمله لهم على سبيل الكرامة، وأطبقه عليهم، فهلكوا جميعاً إلا ابن نوح فإنه حفظ له حياته من بينهم، وفاء له لموقف مماثل كان قد وقفه ابن نوح منه. ثم بعث المعتضد من تسلم معاقلهم، وضمها إلى حكمه. وخرج باديس لطلب ثأرهم منه، واجتمعت إليه عشائرهم، فنازلوه مدة ثم انصرفوا، وانتقلوا إلى عدوة المغرب.

وكانت عساكر المعتضد بن عباد تحاصر عبد العزيز البكري في (أونية ـ و ـ شلطيش) غير أن (ابن جهور) توسط لدى المعتضد، فسالمه مدة، حتى إذا ما مات (ابن جهور) عاد (المعتضد) فأرغم (البكري) على التخلي عن معاقله سنة (٤٤٣هـ) فولى عليها ابنه (المعتمد).

وكان يحكم (شلب) ابن (المظفر أبو الأصبغ عيسى بن القاضي أبي بكر ـ محمد بن سعيد بن مرين) فاستولى عليها المعتضد سنة (٤٤٢هـ) ونقل إليها المعتمد، فنزلها واتخذها دار إمارة. ثم سار (المعتضد) إلى (شنت بريه) وبها (المعتصم محمد بن سعيد بن هارون) فخلعه عنها وأضافها لابنه (المعتمد). وكذلك استولى المعتضد على (لبلة) و(أونية) و(شلطيش) في سنة (٤٤٥هـ) فصارت هذه كلها من ممالك (ابن عباد) الذي تملك أيضاً (مرسية) سنة (٤٥٥هـ).

وكانت بين (المعتضد) وبين (باديس بن حبوس) صاحب غرناطة، حروب، إلى أن مات المعتضد سنة (٤٦١هـ) وولي من بعده ابنه (المعتمد)، فسار هذا على سنن أبيه، واستولى على دار الخلافة (قرطبة) من يد (ابن جهور) وفرق أبناءه على قواعد الملك، وأنزلهم بها. واستفحل ملكه بغرب الأندلس، وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل (ابن باديس بن حبوس ـ بغرناطة)، و(ابن الأفطس ـ ببطليوس) و(ابن صمارح ـ بالمرية) وغيرهم، وكانوا يطلبون سلمه، ويعملون في مرضاته، وكلهم يدارون الطاغية النصراني ملك قشتالة ويتقونه بالجزية.

هكذا، أقام المعتضد دعائم دولته، على الرهبة لا على الرغبة، وعلى فرض الاحترام لا على المحبة. وورث (المعتمد) دولة واسعة الأرجاء، غير أنه كان ينقصها عاملان هما (الوحدة الداخلية) إذا ما جاز التعبير، و(القدرة على مجابهة العدو الخارجي) الممثل بدولة قشتالة. وكان تحقيق هذين العاملين يتطلب مرحلة من الاستقرار، وفترة زمنية كاملة، بقدر ما يحتاج أيضاً إلى العزيمة الصلبة، والإرادة الحازمة، والرؤية الواضحة للأمور، وإذا كانت هذه الفضائل متوافرة (للمعتمد)، فإن عامل الوقت هو ما كان ينقصه، ولذا فقد كان عليه الدخول في صراع مع الزمن.

٢ ـ المعتمد بن عباد

ولد المعتمد في مدينة (باجة)[1] ونشأ نشأة عربية ـ إسلامية، في وسط جو من الاضطراب السياسي، والتمزق الاجتماعي، والصراعات المسلحة، وكان لا بد لذلك كله من أن يترك أثره العميق في نفس الفتى الشاب وهو ينضج بسرعة مذهلة ليحمل أعباء مسؤولياته، وقد أكسبه ذلك قدرة على التعامل مع المواقف المختلفة، بكفاءة عالية. وقد انتهج لنفسه منهجاً خاصاً، لتوطيد دعائم الدولة، حتى باتت دولة (بني عباد) لا تذكر إلّا باسمه، وحتى بات اسمه مقترناً بمجد دولة (بني عباد) وعزتها وقوتها.

وقد أفاضت المصادر الأندلسية في ذكر المعتمد، ومن ذلك:

«المعتمد على الله، أبو القاسم، محمد بن المعتضد أبي عمرو عباد ابن القاضي أبي القاسم بن عباد: ملك مجيد، وأديب على الحقيقة مجيد، وأنسى بسببه ذكر الحارث بن عباد، فأطلع أيامه في أيامه في الزمان حجولاً وغرراً. ونظم معاليه في أجيادها جواهر ودرراً. همام تحلى به للملك لَبة وللنظم جيد، أفنى الطغاة بسيفه وأباد. شيد في كل معلوة فناءه، وعمر بكل نادرة مستغربه، وبادرة مستظرفة أوقاته وآناءه، فنفقت به للمحامد سوق، وبَسَقَتْ ثمرات إحسانه أيَّ بسوق، مَنَع وقرى، وراش وبرى، ووصل وفرى، وكان له من أبنائه عدة أقمار، نظمهم نظم السلك، وزين بهم سماء ذلك الملك. فكانوا معاقل بلاده، وحماة طارفه وتلاده، إلى أن استدار الزمان كهيئته، وأخذ البؤس في فيئته، واعتز الخلاف وظهر، وسل الشتات سيفه وشهر، والمعتمد يطلب نفسه أثناء ذلك بالثبات، إلى أن اتسع الخرق على الراقع، فاستعضد بابن تاشفين».

وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس حين ذكر تاريخ بني عباد:

---

(١) **باجة** (Beja): مدينة في البرتغال، تقع جنوبي ـ شرقي ليشبونة، وعلى بعد (١٤٠ كم) منها، وكانت تضم كورة واسعة (ناحية) وهي متصلة بكورة (ماردة).

«لقد ذكر الناس للمعتمد من أوصافه ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه. كان جم الأدب رائقه، عالي النظم فائقه».

آل إليه الأمر عند موت أبيه المعتضد، وفي ذلك قال الحصري:

مَاتَ عَبَّاد وَلَكِنْ بَقِي الفرعُ الكَرِيمُ
وَكَأَنَ المَيْتَ حيٌّ غَيْرَ أَنَّ الضَادَ مِيْمُ

وفي ذلك أيضاً كتب مصدر أندلسي[1]:

«المعتمد، ملك قمع العدا، وجمع البأس والندى، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه، آونة يراعه، وآونة سنانه، وكانت أيامه مواسم وثغوره بواسم، ولياليه كلها درراً، وللزمان حجولاً وغرراً، لم يغفلها من سمات عوارف، ولم يضحها من ظل إيناس وارف، ولا عطلها من مأثرة بقي أثرها بادياً، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هادياً، وكانت حضرته مطمحاً للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، ومقذفاً لكل كمي، وموقفاً لكل ذي أنفٍ حَمي، لم تخل من وفد، ولم يصح جوها من انسجام رفد. فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة أعداد يغص بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء. وطلع في سمائه كل نجم متقد، وكل ذي فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان، ومضماراً لإحراز الخصل، في كل معنى وفصل. فلم يلتحق بزمامه إلا كل بطل نجد، ولم يتسق في نظامه إلا ذكاء ومجد، فأصبح عصره أجمل عصر، وغدا مصره أكمل مصر، تسفح فيه ديم الكرم، ويفصح فيه لساناً سيف وقلم، ويفضح الرضى في وصفه أيام ذي سَلَمْ. وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زيناً، ولتلك الجملة عيناً، إن ركبوا خِلْتَ الأرض فلكاً يحمل نجوماً، وإن وهبوا رأيت الغمائم سجوماً، وإن أقدموا أحجم عنترة العبسي، وإن فخروا أفحم عرابة الأوسي. ثم انحرفت الأيام، فألوت بإشراقه، وأذوت يانع إيراقه، فلم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام، فتملك بعد الملك، وحط من فلكه إلى الفلك... إلخ».

يمكن مقارنة هذه اللوحة التي رسمت (للمعتمد) بتلك التي رسمت لوالده (المعتضد) والتي جاء فيها:

«المعتضد أبو عمرو عباد، رحمه الله تعالى، لم تخل أيامه في أعدائه من

(١) نفح الطيب ٤/ ٢٤٢ ـ ٢٤٥، ٢٤٦ و٢٤٨.

تقييد قدم، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم، حتى لقد كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلّا رؤوساً، ولا تنبت إلّا رئيساً ومرؤوساً، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته، وفي التلفت إليها استعمل جُل بكره وروحاته، فبكى وأرَّق، وشتت وفرق. ولقد حكي عنه من أوصاف التجبر ما ينبغي أن تصان عنه الأسماع، ولا يتعرض له بتصريح ولا إلماع...».

غير أن الأمر الذي لا يمكن إنكاره هو أن ما تركه (المعتضد) من الحقد ضد بني عباد قد بلغ من الشدة أحياناً درجة لم يتمكن المعتمد من القضاء عليها أو إزالة رواسبها، وقد وجد هذا الحقد تعبيراً له في التآمر ضد المعتمد، لدى ابن تاشفين خاصة، كما سيأتي ذلك، كما وجد له تعبيراً في أقوال بعض الشعراء، مثل:

مما يزهدني في أرض أندلس	**أسماءُ معتضد فيها ومعتمد**
ألقاب مملكة في غير موضعها	**كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد**

ويقابل هذا القول ويناقضه قول الشاعر:

مَنْ بني منذرٍ؟ وذاك انتساب	**زاد في فخرهم بنو عباد**
فتية لم تلد سواها المعالي	**والمعالي قليلة الأولاد[1]**

وإذا كان هناك خلاف في المواقف من بني عباد، فهناك ما يشبه الإجماع على أن المعتمد قد نجح بصورة باهرة في سياسته الداخلية، ومن ذلك ما وصف به: «لقد كان المعتمد أندى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى أنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشية جنابه». قال ابن بسام في «الذخيرة»: «للمعتمد شعر، كما انشق الكمام عن الزهر، لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة، واتخذه بضاعة، لكان رائقاً معجباً، ونادراً مستغرباً».

والمعتمد يعرف، وهو يبني جبهته الداخلية، أن هذه الجبهة هي الأرض الصلبة لمجابهة العدو الخارجي، فهو لا يرى في ضم المدن والأقاليم المستقلة، إلى مملكته، سوى وسيلة لزيادة القدرة القتالية، وهو ما تشهد به مقولته عندما انضمت إليه (رندة)، حيث قال:

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٢٥٥ و٣٧٢.

لقد حُصِّلتِ يا رندة فصرت لملكنا عدة
أفادتناكِ أرماح وأسياف لها حدة

والمعتمد، قبل ذلك وبعده، إنسان حقيقي، محب للحياة، محب للطبيعة، محب للخير، محب للناس، يتفجر باستمرار، عقلاً راجحاً وعاطفة متدفقة، شاعر وفارس كما كان الإنسان العربي مطبوعاً. وكذلك ربى أولاده، فكانوا أبراراً خيرة، زهت بهم مملكة بني عباد وزهوا بها، فكانوا أغنية حلوة باسمة على فم الأندلس في أحلك أيام أندلس المسلمين وأقساها. وللمعتمد شعر كثير، في كل مناسبة، سواء في وصف الطبيعة، أو في المناسبات، كان كل قوله شعراً متدفقاً مطبوعاً، ولا غرابة في أن يجد فيه بعد ذلك، الشعراء والأدباء، ملجأ وملاذاً.

٣ ـ يوسف بن تاشفين

كان أولئك الملثمون ملوك الصحارى من لمتونة، على دين المجوسية، إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة للهجرة. وجاهدوا جيرانهم من السودان، على الإسلام، فدانوا لهم، واستوثق لهم الملك، ثم افترقوا. وكانت رياسة كل بطن منهم في بيت مخصوص. فكانت رياسة لمتونة في (بني ورتانطق ابن منثوز بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال ابن تلميت ـ وهو لمتونة). ولما أفضت الرياسة إلى (يحيى بن إبراهيم الكندالي) وكان له صهر في (بني ورتانطق) هؤلاء، وتظاهروا على أمرهم. وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سنة (٤٤٠هـ) فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي (أبو عمران الفاسي) واغتنموا ما متعوا به من هديه، وما شافههم به من فروض أعيانهم من فتاويه. وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في قضايا دينهم، فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه، فاستوعروا مسغبة بلادهم. وكتب لهم الفقيه (أبو عمران) إلى الفقيه (محمد وكاك بن زلوا اللمطي) في (سجلماسة) من الآخذين عنه، وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم في معاشه، فبعث معهم (عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي)، ووصل معهم يعلمهم القرآن، ويفقههم في أمور الدين.

ثم توفي (يحيى بن إبراهيم) وافترق أمرهم، واطرحوا (**عبد الله بن ياسين**) واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف، فأعرض عنهم واعتزلهم. غير أن (**يحيى بن عمر بن تلاكاكين**) من رؤساء لمتونة وأخاه «**أبو بكر**» انضما إلى (عبد الله بن ياسين) واقتحموا عليه عزلته، ومضوا به بعيداً عن الناس في ربوة، ينهلون من علمه، منفردين للعبادة، فيلحق بهم من دخل الإيمان قلبه، حتى إذا ما كمل عددهم ألفاً من الرجال، قال لهم شيخهم (عبد الله بن ياسين): «إن ألفاً لن تغلب عن قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق

والدعاء إليه، وحمل الكافة عليه، فاخرجوا بنا لذلك». فخرجوا، وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل (لمتونة) و(كدالة) و(مسوفة) حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة. وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين. وسماهم (بالمرابطين) وجعل أمرهم في العرب إلى (الأمير يحيى بن عمر)، فتخطوا البلاد الصحراوية إلى بلاد (درعة) و(سجلماسة) من (مغراوة) فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا. ثم كتب إليهم (وكاك اللمطي) بما نال المسلمين من العسف والجور على أيدي (بني وانودين) في (سجلماسة) وحرضهم على تغيير أمرهم، فخرجوا من الصحراء سنة (٤٤٥هـ) في عدد ضخم، ركباناً على المهاري أكثرهم، وعمدوا إلى (درعة).

ونهض إليهم (مسعود بن وادين) أمير (مغراوة) وصاحب (سجلماسة) و(درعة) لمدافعتهم عنها وعن بلاده. فتواقعوا، وانهزم (ابن وانودين) وقتل. واستلحم عسكره مع أموالهم، واستلحمهم ودوابهم، و(إبل الحمى) التي كانت ترعى بحمى درعة. وقصدوا (سجلماسة) فدخلوها غلاباً، وقتلوا من كان بها من فل (مغراوة) وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس، واقتضوا الصدقات، واستعملوا عليها منهم، وعادوا إلى صحرائهم.

ومات يحيى بن عمر سنة (٤٤٧هـ) وقدم مكانه أخوه «أبو بكر»، وندب (المرابطين) إلى فتح المغرب، فغزا بلاد (السوس) سنة (٤٤٨هـ)، وافتتح (ماسة)، و(تارودانت) وجميع معاقله، ثم افتتح مدينة (أغمات) سنة (٤٤٩هـ). وتابع «أبو بكر» فتوحاته، واستولى على (ماسة) و(تارودانت) وبلاد المصامدة في (جبال درن) و(تامستا) و(إتفا) جهات الريف المغربي. وأثناء ذلك استشهد (عبد الله بن ياسين) سنة (٤٥٠هـ)، فعين المرابطون مكانه في مشيختهم (سليمان بن عدو) للرجوع إليه في أمور دينهم، غير أن هذا لم يلبث أن توفي بعد سنة. وتابع «أبو بكر» قيادة الجهاد فافتتح (لواتة) سنة (٤٥٢هـ). وحدث خلاف عندها بين (لمتونة) و(مسوفة) ببلاد الصحراء، فخشي أبو بكر اختلاف الكلمة وتفرق الشمل، وأسرع بالعودة إلى الصحراء، بعد أن ترك على المغرب ابن عمه **يوسف بن تاشفين**. ونجح أبو بكر في إخماد نار الفتنة، وتوجيه قومه إلى جهاد السودانيين فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

أقام (يوسف بن تاشفين) بأطراف المغرب، واستنزل صاحب قلعة (فاس) وأخذ رهنها على الطاعة. ثم سار في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار

المغرب، **واختط مدينة (مراكش) سنة (٤٥٤هـ)** ونزلها بالخيام، وأدار أسوارها على مسجد، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وأكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة (٥٢٦هـ). وجعل يوسف مدينة مراكش لنزل عسكره، وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في (جبل درن)، وهي القبائل التي لم يكن في قبائل المغرب أشد منها بأساً، ولا أكثر جمعاً ـ وهم بطن من زناتة ـ. فنازل يوسف قلعة (فازاز) ثم زحف إلى (فاس) فخرج إليه حاكمها. وحدثت معركة انتصر فيها (يوسف) الذي تابع طريقه، فافتتح جميع الحصون المحيطة بمدينة (فاس)، ثم استولى على (صفروى) وعاد فافتتح (فاس) صلحاً سنة (٤٥٥هـ). وخرج بعد ذلك لقتال (غمارة) وفتح كثيراً من بلادهم، وأشرف على (طنجة) واستمر يتنقل في بلاد (المغرب) فافتتح (بني مراسن) ثم (فنزلاوه) ثم بلاد (ورغة) سنة (٤٥٨هـ)، ثم افتتح بلاد (غمارة) سنة (٤٦٠هـ).

وفي سنة (٤٦٢هـ) نازل (فاس) التي تمردت عليه، فحاصرها مدة، ثم افتتحها عنوة، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من (مغراوة) و(بني يغرن) و(مكناسة) و(قبائل زناتة) حتى أعوزت مدافنهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد، وقبروا جماعات، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد (تلمسان) وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين (القرويين) و(الأندلسيين) من عدوتيها، وصيَّرها مصراً واحداً، وأدار عليها الأسوار، وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد، ورتب بناءها. وارتحل سنة (٤٦٣هـ) إلى (وادي ملوية) فافتتح بلادها، وحصون (وطاط) من نواحيها. ثم نهض سنة (٤٦٥هـ) إلى مدينة (الدمنة) فافتتحها عنوة. ثم افتتح (حصن علودان ـ من حصون غمارة). ثم نهض سنة (٤٦٧هـ) إلى جبال (غياثة) و(بني مكود ـ من أحواز تازا) فافتتحها ودوخها.

ثم قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه، ووجه قوة بقيادة قائده (صالح بن عمران) ومعه ابنه (ضياء الدولة) لفتح (سبتة). وانتصر جيش المرابطين في معركة وقعت بظاهر طنجة. ثم وجه (يوسف بن تاشفين) جيشاً بقيادة قائده (مزدلي بن تبلكان) سنة (٤٧٢هـ) إلى المغرب الأوسط ـ الجزائر حالياً ـ فدوخ هذا الجيش بلاد المغرب الأوسط حتى وصل إلى بلاد زناتة، وانكفأ راجعاً من غزوته. ثم نهض (يوسف) سنة (٤٧٣هـ) إلى بلاد الريف، وافتتح (كرسيف) و(مليلة) وسائر بلاد الريف، وخرب مدينة (نكور) فلم تعمر بعد ذلك. ثم نهض في عساكره (المرابطين) إلى بلاد المغرب الأوسط، فافتتح

مدينة (وجدة) وبلاد بني (يزتاسن)، وافتتح مدينة (تلمسان) فصارت ثغراً لملكه، وافتتح مدن (تنس) و(وهران) و(جبل وانشريس) حتى (الجزائر ـ المدينة) وانكفأ راجعاً إلى المغرب[1] وبذلك باتت قوات المرابطين مسيطرة سيطرة تامة على كافة المغرب (مراكش) حتى حدود الصحراء، والقسم الأكبر من غرب الجزائر.

لما ملك يوسف بن تاشفين بلاد المغرب، وبنى مدينتي (مراكش وتلمسان الجديدة) وأطاعته البربر، مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس، فَهَمَّ بذلك، وأخذ في بناء السفن والمراكب ليعبر فيها. فلما علم بذلك ملوك الأندلس، كرهوا إلمامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة والعدد، وصعبت عليهم مدافعته، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين، الفرنج من شمالهم، والمسلمين من جنوبهم، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم، تغير وتنهب، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين. والفرنج ترهب ملك المغرب (يوسف بن تاشفين) إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره، وسرعة تملكه بلاد المغرب، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي تقد الفارس، والطعنات التي تنظم الكلى، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المتتدبين لقتاله.

وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظله، ويحذرونه في الوقت ذاته، خوفاً على ملكهم، إذا ما عبر إليهم، وعاين بلادهم. فلما رأوا ما دلَّهم على عبوره إليهم، وعلموا ذلك، راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره، وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد، لأنه أشجع القوم، وأكبرهم مملكة. فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم، يسألونه الإعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته. فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً، فيه:

«أما بعد. فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت. والسلام».

---

(١) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون ـ دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨م، (ص٣٧٣ ـ ٣٨١ من المجلد السادس).

وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي، لكنه ذكي الطبع، يجيد فهم المقاصد. وكان له كاتب يتقن اللغتين العربية والمرابطية ـ البربرية ـ. فلما استلم كتابَ الأندلسيين، مع أجمل التحف والهدايا، أعطى الكتابَ للمترجم، فقال له:

«أيها الملك، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه، ويعرِّفونك أنهم أهل دعوتك، وتحت طاعتك، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون، وذوو بيوتات، فلا تغير بهم، وكفى بهم مَنْ وراءهم مِنَ الأعداء الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل الغرب».

فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: فما ترى أنت؟ فقال: أيها الملك! اعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يُرد، فإنَّه خليق بمن حصل في يده من الملك والمال، أن يعفو إذا استُعفي، وأن يهب إذا استُوهب، وكلما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم، فإذا عظم قدره تأصل ملكه، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته، وإذا كانت طاعته شرفاً، جاءه الناس، ولم يتجشم المشقة إليهم، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته. واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال: من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد».

فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان (يوسف) بلغته، فهمه وعلم صحته. فقال للكاتب: أجب القوم، واكتب بما يجب في ذلك، واقرأ عليَّ كتابك. فكتب الكاتب:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

«من يوسف بن تاشفين،

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، تحية من سالمكم وسلَّم عليكم، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصين منا بأكرم إيثار وسماحة. فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم.

والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام».

* * *

فرغ الكاتب من كتابة رسالته، وقرأها على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنها، وقرن بها ما يصلح لهم من التحف، ودرق اللمط التي لا توجد إلا

ببلاده ـ دروع جلدية ـ وأنفذ ذلك إليهم. فلما وصلهم ذلك، وقرؤوا كتابه، فرحوا به، وعظموه، وسُرُّوا بولايته، وتقوَّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم، أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم، أو يمدهم بإعانة منه[1].

* * *

كانت أندلس المسلمين في تلك الفترة تضطرم ناراً، فقد تجرأ العدو على حدودها، وأوغل في مدنها وقراها، وأدرك الأندلسيون ما يحيق بهم من أخطار، وأوجزها أحدهم بقوله:

«ولم تزل هذه الجزيرة الأندلسية منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفرسه. فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة»[2].

وهذا ما حمل شاعر أندلسي على القول:

الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والجور يأخذ ما بقي والمغرمُ
والمال يورد كله قشتالة ... والجند تسقط والرعية تسلَمُ
وذوو التعيين ليس فيهم مسلم ... إلا معين في الفساد مُسَلِّمُ
أسفي على تلك البلاد وأهلها ... اللَّه يلطف بالجميع ويرحمُ

وكان لقشتالة أيام ضد المسلمين في بطرنة وبربشتر ثم في طليطلة هزت ضمائر المسلمين، وأطلقت ألسنة أدبائهم وشعرائهم، فكان مما قيل بهذا الصدد:

يا أهْلَ أنْدَلُس حثوا مَطِيَّكُمْ ... فما المقام بها إلا من الغَلَطِ
الثوبُ ينسلُّ من أطرافه وأرى ... ثوبَ الجزيرةِ مَنْسولاً من الوَسَطِ
ونحنُ بَيْنَ عَدْوٍ لَا يُفَارِقنَا ... كيْفَ الحيَاةُ معَ الحيّات في سَفَطِ

وإذا كان هذا الشعر يعبِّر عن روح سلبية، وانهزامية، فقد كان بالمقابل رد فعل إيجابي، يظهر في الأبيات التالية:

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٦.

(٢) المصدر السابق ص٤٤٦، ٤٤٧.

يا أهلَ أندلس رُدُّوا المعَار فَما في العُرْفِ عَارِيةٌ إلا مردات
ألم تَرَوا بيدق الكفار فرزنه وشاهنا آخر الأبيات شهمَاتِ

وكذلك:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن (ببطرنة) ما كانا

وإذن، فقد كان هناك خلل في العلاقات، ناجم عن العدوان الخارجي، وكان لا بدَّ لهذا الخلل من إحداث تحولاتٍ حاسمة، وقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند عوامل هذا الخلل وظواهره.

٤ ـ الموقف على جبهة الشمال الأندلسي

تتفق المصادر العربية الأندلسية والمصادر الغربية، في ذكر الأحداث ووقائعها، وتختلف فيما بينها بذكر بعض التفاصيل أو التعرض لها، غير أن مجال الاختلاف الأكبر هو في تفسير تلك الأحداث وتأويلها وشرحها والتعليق عليها، وهذا أمر بديهي ومتوقع، وعلى هذا فمن الطبيعي اللجوء إلى المصادر العربية ـ في البحث هنا ـ نظراً لما يتوافر لهذه المصادر من الدقة والموضوعية والأمانة في الوصف والتحليل.

فلقد بات من الثابت أن تطوير الصراع المسلح في الأندلس، بما تم التعبير عنه ووصفه بحركة الاسترداد، أو إعادة الفتح (لاروكونكيستا) قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحرب الصليبية والشاملة التي بدأت في الأندلس ثم انتقلت إلى المشرق العربي ـ الإسلامي، واستمرت خلال ذلك وبعده على مسرح الأندلس، إلى أن انتهت بإخراج الصليبيين من بلاد الشام وإخراج المسلمين من الأندلس بعد ذلك بثلاثمائة عام ونيف.

وقد اتبع الصليبيون في ذلك أُسساً استراتيجية واضحة المعالم، محددة الأبعاد، تعرضت لها المصادر الأندلسية، بما يلي:

«لقد طرقت الدهياء في ذلك القطر الأندلسي الذي ليس له في الحسن مثال، ونسل الخطب إليه من كل حدب وانثال، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه، ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه، فكلٌ يروم الرياسة لنفسه، ويجر نارها لقرصه، والنصارى ـ لعنهم الله تعالى ـ يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد، ويضربون عَمْراً منهم بزيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد، والاستيلاء على الطارف والتلاد.. ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أن النصارى، لم يدركوا في المسلمين ثاراً، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً، ولم يخربوا من الجزيرة منازل ودياراً، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع

الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها في الفتن المبيرة، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سجال، ولله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللمانعة في غرض المدافعة ميدان رحب ومجال، وروية وارتجال. . . وتطاولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة، ومنازلة ومنازعة، وموافقة وممانعة، ومحاربة وموادعة، ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، **وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، ومهتم بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يسير حسواً في ارتقائه، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه.** فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه. وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه[1]».

يعلل أهل الأندلس أنفسهم بالباطل، وإن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يجوس خلال ديارهم، ويستقري بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرفاً، ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا، مذكر لهم أو داع، فضلاً عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم، حتى كأنهم ليسوا منا، أو كأن بَثْقَهم ليس بمغض إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بُخلنا عليهم بالغناء ـ الدعم والنجدة ـ عجائب فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، حتى سرى البَثْق إليهم جميعاً. ولقد استولى العدو على بربشتر[2] وهي مدينة تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين

---

(١) نفح الطيب ٤/٥٠٧، ٥٠٨، و٤/٤٥٢ ـ ٤٥٤.

(٢) بربشتر (Bobastro): من أمنع حصون الأندلس، على بعد خمسة كيلو مترات إلى الشمال ـ الغربي من (بليش ـ حالياً ـ Velez de Malaga) وقد كانت، بسبب موقعها الحصين، معقلاً للثوار والمتمردين طوال الحكم الإسلامي للأندلس.

سنة، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس، فرسخ فيها الإيمان، وتُدُورس القرآن، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام (٤٥٦هـ) فصك الأسماع، وأطار الأفئدة، وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصير لكل شغلاً يشغل الناس في التحدث به، والتساؤل عنه، والتصور لحلول مثله، أياماً لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوكَل، والاغترار بالأمل، والاستناد إلى آراء الفرقة الهَمَل، الذي هم منهم ما بين فشل وكلل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل.

ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا في صنفين هم كالملح، فيهم الأمراء والفقهاء، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له، ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذياراً عن الجماعة، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبين لهم، قد أصبحوا ما بين آكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ في التقية في صدقهم، وأولئك هم الأقلون فيهم، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هوالمصلح لجميع أغذيتها، وما هي إلا مُشفية من بوارها. ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق، وتعلية الأسوار، وشد الأركان وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوِّ؛ أي: من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه، أمور قبيحات الصور، مؤذنات الصدور بإعجاز الغِيَر:

أمور لو تدبرها حكيم ... إذن لنهى وَهَيَّتَ ما استطاعا

* * *

أ ـ متحولات الصراع

تظهر المقولات السابقة عوامل الضعف في جبهة مسلمي الأندلس، وهي العوامل التي أسهم ملوك النصارى في الشمال على تغذيتها واستثمارها وتطويرها. كما تظهر أن الصراع المسلح لم يتبع في تطوره خطاً متصاعداً باستمرار، وإنما سار عبر طريق من الانتصارات والهزائم، وعلى شكل ما يفرضه حوار الإرادات المتصارعة. وفي الحقيقة، فقد كانت هناك صراعات أيضاً بين ملوك نصارى الشمال وأمرائهم. فقد تشكلت (نافار) و(جيلقية)

و(أشتوريش ثم ليون) على فترات، ونجح المسلمون في تدميرها مرات متتالية، لتعود إلى الظهور من جديد تحت قيادة جديدة وبشكل جديد. ويمكن تجاوز تلك المراحل المبكرة للوصول إلى سنة (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م). ففي هذه السنة، عبر ملك قشتالة وليون (فرديناند الأول) نهري (دويره) و(تورمس) واجتاح (لوزيتانيا) قاصية أراضي المسلمين من الشمال الغربي، وكانت تابعة لمملكة بطليوس (بني الأفطس). وفي سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) قام (فرناندو الأول) بعدوان جديد على بلاد المسلمين، وأغار على مدينة (سالم) و(أوسيدا) و(طلمنكة) و(وادي الحجارة) و(قلعة النهر) فاستغاث أهلها بصاحب طليطلة (مأمون بن ذي النون)، فما كان من هذا إلا أن حمل مقادير كبيرة من الذهب والفضة وفاخر الأقمشة، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصراني، وقدم إليه الهدايا، وأعلن اعترافه بطاعته، وتعهد بدفع الجزية، فكانت هذه هي المرة الأولى التي يدفع فيها حاكم مسلم الجزية لملوك النصارى في الأندلس. ووجد (فرناندو الأول)(١) في ذلك ما شجعه على المضي في تطوير عدوانه، فقام في السنة التالية (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) بالهجوم على مملكة إشبيلية، وأرغم (المعتمد بن عباد) على أن يحذو حذو (المأمون) فيعترف بسيادته، وقد دفع له الجزية. ثم عمل في السنة التالية على احتلال (قلمرية) وانتزاعها من قبضة المسلمين. وتوفي (فرناندو الأول) سنة (٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م) بعد أن قسم مملكته (قشتالة وليون) على أولاده الثلاثة، فكان من نصيب ابنه الأكبر (سانشو ـ أو شانجه) مملكة قشتالة وحقوق الجزية على (سرقسطة). وكان من نصيب ابنه الثاني (ألفونسو) مملكة (ليون) وحقوق الجزية على (طليطلة). أما الابن الأصغر (غرسيه) فقد أصبح ملكاً على (جيليقية والبرتغال) اللتين ضمتا في مملكة واحدة، مع حق الجزية على مملكتي (إشبيلية وبطليوس)، كما حصلت ابنتاه على قلعتين تحكمانهما بشكل مستقل. وقام الابن الأكبر (سانشو ـ أو ـ شانجه) بالاستيلاء على (ليون) وطرد أخيه (ألفونسو) الذي هرب إلى طليطلة، واحتمى بالمسلمين، ثم قام (سانشو) بالاستيلاء على (جيليقية) وضمها إلى مملكته. وفي سنة (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) دبرت (أوراكا) مؤامرة، فقتلت أخاها (سانشو) وساعدت أخاها (ألفونسو) على استعادة ملكه،

---

(١) **فرناندو الأول** (Fernand 1er «le Grand»): ملك قشتالة سنة ١٠٣٣م، وقد ضم إليه مملكة ليون سنة ١٠٣٧م، ثم غاليسيه سنة ١٠٥٤م، توفي سنة ١٠٦٥م.

فأصبح ألفونسو ملكاً على (قشتالة، وليون، وجيليقية) باسم (ألفونسو السادس)[1] وهو الذي استولى على طليطلة.

* * *

بينما كانت مملكة (قشتالة وليون) تعيش هذه المتحولات والأحداث، كانت مملكة (جيليقية) - في شمال غرب الأندلس - تعيش أحداثاً قد يكون من الضروري استقراء بعض ملامحها. ففي سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) لقي ملك أراغون (راميرو الأول) مصرعه في (غرادوس)[2] على يد أحد المسلمين، عندما قام بهجومه على بلادهم. وعلى أثر ذلك، أعلن البابا (الإسكندر الثاني) أنه يمنح الغفران لكل مقاتل يحارب من أجل الصليب في إسبانيا. وبدأ البابا بتنظيم جيش لمتابعة أعمال (راميرو). وأخذ المقاتل النورماني (الأردماني - كما تسميه المصادر العربية) واسمه (وليم مونتراي)[3] في تطويع المقاتلين وتجنيدهم في جيش البابا، وجمعهم من شمال إيطاليا. كما عمل (إبلس - كونت روسي) شقيق (فيليشيا) ملكة أراغون، على جمع المقاتلين النورمان من شمال فرنسا، لكن هذه الحملة لم تحقق النجاح الذي كان يتطلع إليه البابا.

أعاد (إبلس - كونت روسي)[4] تنظيم حملة جديدة من الفرنسيين، ودعا البابا (غريغوري السابع) أنصار المسيحية جميعهم لدعم هذه الحملة والانضمام إليها، ووعد الصليبيين بمنحهم الغنائم التي سيستولون عليها من أيدي الكفار (المسلمين). وفي سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) تولى (هيو الأول - دوق بورغونديا) قيادة جيش لدعم صهره (ألفونسو السادس) الذي أصبح ملكاً على (ليون وقشتالة). وفي سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م) أعلن البابا (غريغوري السابع) دعمه الشخصي ومباركته للحملة التي قادها (جاي جفري) ضد مسلمي الأندلس. وفي

---

(١) ألفونسو السادس (Alphonse VI): ملك قشتالة، وتحت حكمه عاش السيد (Cid Campeador) (١٠٦٥ - ١١٠٩م). وهذا السيد هو: (سيد كامبودور: أو (رودريك - دياز - دوبيفار Rodrigue - Diaz. de Bivar) كما اشتهر بأنه الفارس الإسباني الأول اللذي تصدى لقتال المسلمين في القرن الحادي عشر. وقد أصبح اسم (السيد) بطلاً لعدد من الأعمال الأدبية والروايات الإسبانية الرومانسية، كما ألف (كورناي) الفرنسي رواية شهيرة عنه بشكل تراجيديا - وتوفي (السيد) سنة ١٠٩٩م.

(٢) غرادوس: (Grados).

(٣) وليم مونتراي: (William de Montreuil).

(٤) إبلس - كونت روسي: (Ebles of Rucy).

سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) استولت هذه الجيوش المتحالفة على طليطلة. ولعله من الضروري التوقف قليلاً عند ملامح الأعمال القتالية لهذه الجيوش، وطرائقها، نظراً لما كان لذلك من أثر على مجريات الصراع.

* * *

ب ـ وقعة بطرنة (٤٥٦هـ)

انتدب الفرنج منهم قطعة كثيفة، نزلت على (بلنسية) وأهلها جاهلون بالحرب، مغترون بأمر الطعن والضرب، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب. وتظاهر الفرنج بالندم على منازلتها، والضعف عن مقاومة من فيها. وخدعوهم بذلك فانخدعوا، وأطمعوهم فطمعوا، وكمنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان، وخرج أهل البلاد بثياب زينتهم، وخرج معهم أميرهم (عبد العزيز بن أبي عامر) فاستدرجهم العدو، ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر، وما نجا منهم إلا من حصنه أجله.

جـ ـ الصراع على بربشتر (٤٥٦هـ)

بربشتر هي قصبة ـ عاصمة ـ برطانية، وهي تقرب من سرقسطة، تغلب عليها جيش (الأردمانيين)[١]. وقصَّر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها فوكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يوماً. ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، وعلم العدو بذلك، فشدد القتال عليها والحصر لها، حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف فارس مدرع. فدهش الناس، وتحصنوا بالمدينة الداخلة، وجرت بينهم حرب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي. ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض بتقدير موزون، انهارت وفسدت، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره، فانقطع الماء عن المدينة، ويئس من بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة، دون ميال وعيال، فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم وغدر، وقتل الجميع إلا القائد (ابن الطويل) والقاضي (ابن عيسى) في نفر من الوجوه.

---

(١) الأردمانيين: (Nordmanni) وقد ذكرتهم بعض المصادر العربية ـ ابن حبان ـ باسم (الأردمليس).

وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه ـ وهو قائد خيل روما ـ نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً، ومن أوقار الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل. وقدر من قتل وأسر بمائة ألف نفس، وكان السبب في قتلهم أن العدو قد شاهد من كثرتهم ما هاله وأخافه، فشرع في القتل، حتى أفنى نيفاً وستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين من بقي، وأمر أن يخرجوا، فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، ونزلوا من الأسوار في الحبال، للخشية من الازدحام في الأبواب، ومبادرة إلى شرب الماء. وكان قد تحيز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه، وحاروا في نفوسهم، وانتظروا ما ينزل بهم، فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة، نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله، وله الأمان، وأرهقوا وأزعجوا. فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج بأمر الملك، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلها. وكان من أهل المدينة جماعة قد لاذوا برؤوس الجبال، وتحصنوا بمواضع منيعة، وكادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم، وبرزوا في صور الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر، فقتلوهم إلا قلة منهم.

وكان الإفرنج لما استولوا على أهل المدينة، يفتضون البكر بحضرة أبيها، ويغتصبون الثَّيِّبَ أمام زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش، أعطاهن خَوَله وغلمانه يعيثون فيهن عيثة. وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة. ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه، ليهديهم إلى مَنْ فَوْقَه، وترك من رابطة خيله (ببربشتر) ألفاً وخمسمائة، ومن الرجال ألفين.

جاء بعض تجار اليهود إلى بربشتر بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه، ممن نجا من أهلها، وقعن في أسر قائد (قومس) من الرابطة المقيمة فيها. وقال أحد هؤلاء اليهود:

أمكن لي معرفة المنزل الذي يقم فيه هذا القومس، واستأذنت في الدخول إليه، فوجدته جالساً مكان رب الدار، مستوياً على فراشه، رافلاً في نفيس ثيابه،

والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهما يوم محنته، لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما. ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات في خدمته. فرحب بي، وسألني عن قصدي، فعرَّفته وجهة أمري وأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي، فتبسم وقال بلسانه: ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك! أعرض عمن هنا وتعرَّض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبيي وأسراي أُقارِبك فيمن شئت منهن. فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست، وفي كنفك اطمأننت، فسمني ببعض من هنا، فإني أصير إلى رغبتك. فقال: وما عندك؟ قلت: العين ـ المال ـ الكثير، والطيب، والبز الرفيع الغريب. فقال: كأنك تشهيني ما ليس عندي. ونادى بعض أولئك الوصائف: يا مجة (ويريد يا بهجة ـ إنما غيَّرها بعجمته) قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق. فقامت إليه، وأقبلت ببدر ـ أكياس ـ الدنانير، وأكياس الدراهم، وأسفاط الحلى، فكشف، وحصل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه. ثم قال لها: أدني إلينا من تلك التخوت؛ فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر، مما حار له ناظري وبهت، واسْتَرذلتُ ما عندي. ثم قال لي: لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به. ثم حلف بإلٰهه إنه لو لم يكن عنده شيء من هذا، ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ـ التي طلبت فداءها ـ ما سخت بها يدي، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها. وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة ـ وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى ـ فهي مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته. ونادى: يا فلانة، خذي عودك وغني لزائرنا بشجوك. فأخذت العود، وقعدت تسويه، وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه. واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا، فضلاً عن العلج، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه وأظهر الطرب منه. فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدتُ لتجارتي سواه. واطَّلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به. فهذا فيه مقنع لمن تدبره، وتذكر لمن تذكره».

* * *

ودارت السنة دورتها، وفي عقب جمادى الأولى سنة (٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م) شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إلى (قرطبة)، وذلك أن (أحمد المقتدر بن هود) المفرط فيها، والمتهم على أهلها، لانحرافهم إلى أخيه، صمد لها مع إمداد

لحليفه عباد (المعتمد)، وسعى لإصمات سوء المقالة عنه، وقد كتب الله عليه منها ما لا يمحوه إلا عفوه. فتأهب لقصد (بربشتر) في جموع من المسلمين، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان. وحمي الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه، وخذل أعداءه، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة، فاقتحمها المسلمون عليهم، وملوكهم أجمعين، إلا من فر من مكان الوقعة ولم يدخل المدينة، فأجيل السيف في الكافرين، واستؤصلوا أجمعين، إلا من استرق من أصاغرهم، وَفُدِيَ من أعاظمهم، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارئ. وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين نحو الخمسين، كتب الله تعالى شهادتهم، وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل، فغسلها المسلمون من رجس الشرك، وجلوها من صدأ الإفك.

د ـ سقوط طليطلة (٤٧٨هـ)

كانت (طليطلة) من أول مدن الأندلس العظيمة التي استردها الإفرنج، وقد أخذها (الأذفونش ـ ألفونسو السادس) من صاحبها (القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون)، بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة (٤٧٨هـ).

وطليطلة مدينة حصينة قديمة أزلية، على ضفة نهر كبير، ولها قصبة في غاية المَنَعة، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان، على قوس واحد. ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي ترفع الماء على ظهرها فيدخل المدينة. وبنى صاحب طليطلة (المأمون يحيى بن ذي النون) بها قصراً تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالاً كثيراً، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها! متصلاً بعضه ببعض. فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر، والمأمون ابن ذي النون قاعد فيها، لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد:

أتبني بناء الخالدين، وإنما ... بقاؤك فيها، لو علمتَ قليلُ
لقد كان في ظل الأراك كفاية ... لمن كلَّ يومٍ يعتريه رحيلُ

لقد توالت على أهل طليطلة الفتن المظلمة، والحوادث المصطلمة، وترادف عليهم البلاء والجلاء، واستباح الفرنج أموالهم وأرواحهم، ونفد الزاد، حتى استولى العدو على طليطلة، وأنزل من بها على حكمه. وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة، وأفظع سيرة، ورآه الناس وبيده اصطرلاب يأخذ به وقتاً يرحل فيه، فتعجب منه المسلمون، وضحك عليه الكافرون. وبسط الكافر العدل على أهل المدينة، وحبب التنصر إلى عامة طغامها، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله، وشرع في تغيير الجامع وتحويله إلى كنيسة. ومما جرى في ذلك اليوم؛ أن الشيخ الأستاذ المغامي ـ رحمه الله تعالى ـ صار إلى الجامع، وصلى فيه، وأمر مريداً له بقراءة القرآن الكريم، ووافاه الفرنج، لعنهم الله تعالى، وتكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه الله تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة، وسجد سجدة، ورفع رأسه، وبكى على الجامع بكاء شديداً، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه. وقيل لملك النصارى (ألفونسو): ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك. فقال: حتى نأخذ قرطبتهم. وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه، ورصع به من الجواهر[1].

استولى (ألفونسو السادس) في الوقت ذاته على مدينة مدريد (والتي يكتبها مؤرخو المسلمين ويعرفونها باسم مجريط)، غير أن وقع استيلاء الفرنج على (طليطلة) فاق كل حدود التصور، وذلك نظراً للأهمية الدينية والمعنوية لعاصمة الشمال، حيث كانت عاصمة القوط قبل فتح المسلمين للأندلس. وانطلق كتاب المسلمين وشعراؤهم في استثارة الضمائر، وتحليل الأوضاع التي أدت إلى هذه المأساة المريعة، وكان ذلك منطلقاً لنوع جديد من الأدب (الشعر) لم يعرفه أو يمارسه العرب المسلمون من قبل، وهو القصيدة الطويلة التي يمتزج فيها أدب الحرب ـ الحماسة ـ بالتحليل الاجتماعي والنقد السياسي للأوضاع السائدة. المهم في الأمر، هو أن سقوط (طليطلة) لم يكن حدثاً عادياً في مسيرة الصراع بين مسلمي الأندلس، ونصارى الشمال، وكان لا بد لهذا الحدث الضخم من أن يترك أصداء مثيرة تسهم في تطوير الصراع المسلح. فكان لسقوط (طليطلة) وما سبقها من استفزازات مثيرة، ثم ما ارتكبه النصارى من الانتهاكات

(١) نفح الطيب ٤/٤٤٧ ـ ٤٥٢ و٣٥٢.

للمقدسات الدينية والاعتداءات على الأعراض والأموال، مما لم يعرف المسلمون الأندلسيون من قبل ما يماثله في قوته، وعمقه واتساعه، علاوة على تطوير تلك الاستفزازات والانتهاكات، دور حاسم في التحولات التي عرفتها أندلس المسلمين خلال السنة التالية لسقوط طليطلة في قبضة النصارى.

لقد بدأت عملية تصعيد الصراع المسلح مع استيلاء (ألفونسو السادس) على السلطة وجمع الأقاليم الثلاثة للنصارى في الشمال (قشتالة وليون وجيليقية). وكان جهد (فرناندو الأول) هو الذي مهد لابنه ألفونسو الفرصة المناسبة لحشد قوات ضخمة تحت قيادة واحدة ضد المسلمين. وأمام هذا الموقف كان لا بد من البحث عن حل يضمن تحقيق شرطين أساسيين:

أولهما: تأمين دعم كبير بالقوى والوسائط لمجابهة قوة «نصارى الشمال» الذين كانوا يتلقون، بالإضافة لقوتهم، دعماً ضخماً من الكنيسة ومن الفرنج.

وثانيهما: تنسيق على مستوى القيادة لمجابهة وحدة القيادة المتوافرة لنصارى الشمال.

كان مثل هذا الحل يتطلب قيادة مدركة لأبعاد الخطر الداهم، بقدر ما يتطلب من هذه القيادة إخلاصاً واستعداداً للتضحية، وقد توافر ذلك (للمعتمد بن عباد) بقدر ما توافر (ليوسف بن تاشفين). وهكذا بدأت مسيرة الأحداث بالتسارع؛ فإذا كانت المدة الفاصلة بين معارك بطرنة وبربشتر وبين الاستيلاء على طليطلة هي (٢٢) عاماً، فإن المدة الفاصلة بين الاستيلاء على طليطلة والموقعة التالية لها في الزلاقة لم تتجاوز السنة الواحدة، وهذا ما يؤكد التأثير العميق لسقوط طليطلة على مسيرة الصراع المسلح بين المسلمين ونصارى الشمال، حيث حاول الطرف الأول، الثأر لهزيمته والانتقام للمسلمين وعزتهم، بينما حاول الطرف الثاني استثمار الظفر، وتحقيق مزيد من المكاسب، مستفيداً في ذلك من الأثر المادي والمعنوي الذي غنمه في انتصاره السابق، باستيلائه على (طليطلة).



الفَصْلُ الثَّاني

موقعة الزلاقة

١ ـ التحدي الكبير والاستفزاز
٢ ـ رعي الإبل خير من رعي الخنازير
٣ ـ لبيك ! وعبر المرابطون البحر
٤ ـ خديعة كافر يحبطها مسلم
٥ ـ موقعة الزلاقة
٦ ـ احتفالات النصر
٧ ـ المرابطون في الأندلس
٨ ـ الصفحة الأخيرة من حياة ابن عباد في إشبيلية وأغمات



١ ـ التحدي الكبير والاستفزاز

كان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس، ومتملك أكثر بلادها مثل قرطبة وإشبيلية، وكان مع ذلك يؤدي الضريبة إلى الأذفونش ـ ألفونس السادس ـ كل سنة. وتصادف أن اشتغل المعتمد بغزو (ابن صمادح ـ صاحب المرية) حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش، وأرسلها إليه بعد ذلك. لكن الطاغية استشاط غضباً وتشدد في الطلب، وأرسل له يهودياً، يفاوضه، ومعه جمع كثير، نحو خمسمائة فارس، ففرق المعتمد هؤلاء على قواد عسكره. وأحضر الرسول الذي طلب من المعتمد تسليم جميع الحصون المنيعة، وأن يبقى السهل للمسلمين، وزاد على ذلك الضريبة، وأمعن في التجني، فزعم أن القسس والأطباء قد أشاروا على الملك (ألفونسو) بأن تأتي زوجته الحامل ـ القمطيجة ـ إلى جامع قرطبة لتلد فيه، نظراً لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم، عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم، كما طلب أن تنزل زوجة ألفونسو ـ القمطيجة ـ بالمدينة الزهراء، غربي مدينة قرطبة، فتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء، وفضيلة موضع الكنيسة من جامع قرطبة. غير أن هذه الطلبات الاستفزازية كانت أكبر من قدرة احتمال المعتمد، فامتنع عن قبولها، فراجعه الوزير اليهودي، سفير ألفونسو، وأيأسه من ذلك، وأغلظ له في القول، وهدده بأن ألفونسو سيسير إلى قرطبة ليفتحها إن لم تستجب طلباته. وغضب المعتمد، فأخذ محبرة كانت بين يديه، وضرب بها رأس اليهودي، فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة، كما أصدر أمره إلى قادته بقتل الفرسان الفرنج، فقتل كل قائد من عنده من الكفرة، وأطلق سراح ثلاثة منهم حتى يعودوا إلى (الأذفونش) ويعلموه بالخبر.

استدعى (المعتمد) إليه الفقهاء والعلماء لمعرفة رأيهم فيما فعله باليهودي وصحبه، فبادره الفقيه (محمد بن الطلاع) بالرخصة في ذلك، لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل، إذ ليس له أن يغلظ القول، أو يتجاوز

الحدود المتعارف عليها في نقل الرسالة. وعندما انصرف الفقهاء من حضرة المعتمد، قال (محمد بن الطلاع) لصحبه الفقهاء: إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً.

كان (ألفونسو السادس) على رأس جيشه، يقوم بتظاهرة عسكرية مهدداً بالتحرك نحو قرطبة، عندما بلغه ما صنع (ابن عباد)، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية ويحاصره في قصره. وعاد إلى (طليطلة) ليجمع آلات الحصار، ويكثر العدد والعدة، ويحشد للمعركة كل ما يستطيع حشده. ومضى في استعداداته للحرب، فاستنفر جميع أهل بلاده، وما يليها، وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة ما لا يحصى عدده، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع. وقدر عدد أفراد من حشدهم (ألفونسو) بأربعين ألف دارع، ولكل واحد أتباع. وأما النصارى فيعجبون، ممن يزعم ذلك، ويرون أنهم أكثر من ذلك بكثير.

عكف (ألفونسو) على وضع خطته للعمليات، فجمع أهل مملكته، وخاصته، وأهل مشورته، وقال لهم: «إني رأيت إن أنا مكنتهم من الدخول إلى بلادي، فناجزوني فيها وبين جدرها، وربما كانت الدائرة عليَّ، يستحكمون البلاد، ويحصدون من فيها غداة واحدة، ولكني أجعل يومهم معي في حوزة بلادهم، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسري. وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها».

نظم (ألفونسو) قواته، بعد استعراضها، فشكل مقدمة بقيادته ضمت المختار من جنوده، وأنجاد جموعه، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: «بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء»، ثم قسم قواته إلى جيشين، جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه، وأمره أن يسير على كورة باجة، من غرب الأندلس، ويغير على تلك التخوم والجهات، ثم يمر على (لبلة) إلى (إشبيلية)، وجعل موعده إياه (طريانة) للاجتماع معه. ثم زحف (ألفونسو) بنفسه في جيش آخر، فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر، وكلاهما عاث في البلاد وخرب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم (نهر آنة ـ أو غوديانا حالياً)

بتواحي بطليوس، وأقام (ألفونسو) معسكره، وأخذ ينتظر وصول الجيش الإسلامي، ويظهر أن انتظاره طال بعض الوقت، فكتب رسالة إلى المعتمد جاء فيها:

«كثر، بطول مقامي في مجلسي، الذبان، واشتد عليَّ الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي». فوقع له - ابن عباد - بخط يده في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروِّح منك، لا تروح عليك، إن شاء الله تعالى».

فلما وصلت الأذفونش - ألفونسو - رسالة ابن عباد، وقرئت عليه، وعلم مقتضاها؛ أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال. وفشا في الأندلس توقيع (ابن عباد) وما أظهره من العزيمة على جواز (يوسف بن تاشفين - اللمطي) والاستظهار به على العدو، استبشر الناس، وفرحوا بذلك، وفتحت لهم أبواب الآمال.

٢ ـ رعي الإبل خير من رعي الخنازير

أدرك (المعتمد) أنه لا بد له من حشد كل القوى التي يمكن حشدها لمجابهة قوى نصارى الشمال. ولما كانت قوى الأندلسيين المسلمين غير قادرة وحدها على مجابهة الهجوم الكبير الذي توافرت له قدرات دعم ضخمة، فقد اتجه تفكيره للاستعانة بالمرابطين، وأعلن عن تصميمه صراحة. ولما تحقق (ملوك طوائف الأندلس) من عزم (ابن عباد) وانفراده برأيه في ذلك، اهتموا منه، ومنهم من كاتبه، ومنهم من كلمه مواجهة، وحذروه عاقبة ذلك، وقالوا له: «الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد». فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: «**رعي الجمال خير من رعي الخنازير**». ومعناه: أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين، أسيراً يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه مأكولاً ممزّقاً للأذفونش، أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة.

وقال لعذاله ولوّامه:

«**يا قوم! إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما. أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فمن الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، أما الأذفونش، فلن يفعل. وأما حالة اليقين، فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى. فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يرضي الله، وآتي ما يسخطه؟**». فحينئذ قصر أصحابه عن لومه.

وإذا كان هناك تخوف قد ظهر على بعض ملوك طوائف الأندلس من الاستعانة بابن تاشفين، فقد كان هناك بالمقابل تحرك واسع يدعم اتجاه ابن عباد ويؤيد سياسته. فقد ذكر أنه لما قتل المعتمد رسل ألفونسو تخوف أكابر الأندلس من ألفونسو، واجتمع رؤساؤهم، وساروا إلى قاضي الجماعة بقرطبة (عبيد الله بن محمد أدهم ـ أبو بكر) وكان أعقل أهل زمانه، وقالوا له: «ألا تنظر إلى ما فيه المسلمين من الصِّغار والذلة وإعطائهم الجزية، بعد أن كانوا

يأخذونها. لقد غلب على البلاد الفرنج، ولم يبق إلا القليل، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت من قبل. وقد رأينا رأياً نعرضه عليك.

قال: وما هو؟

قالوا: نكتب إلى عرب أفريقية، ونبذل لهم إذا وصلوا شطر أموالنا، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله.

فقال لهم: إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية، ويتركوا الإفرنج ويبيدوا بنا، والمرابطون أصلح منهم، وأقرب إلينا.

فقالوا له: فكاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند.

فبينما هم في ذلك يتراوضون، إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد، فعرض عليه القاضي ما كانوا فيه. فقال له ابن عباد: أنت رسولي إليه في ذلك. فامتنع، وإنما أراد أن يبرئ نفسه من ذلك، فألح عليه المعتمد».

لم يكن المعتمد منفرداً برأيه على كل حال، وقد عمل على تنسيق التعاون مع (المتوكل عمر بن محمد ـ صاحب بطليوس) باعتبار أن مملكته هي أكبر مملكة بعد مملكة إشبيلية، وكذلك مع (عبد الله بن حبوس الصنهاجي ـ صاحب غرناطة)؛ واتفق الثلاثة على تكليف قضاتهم بمهمة التوجه لمفاوضة ابن تاشفين. وعندما اجتمع قضاة (بطليوس وغرناطة وقرطبة) في إشبيلية، أضاف إليهم المعتمد وزيره «أبو بكر بن زيدون» وعرَّفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من صلاحية إبرام الاتفاق. وأثناء ذلك كانت وفود الأندلس مستمرة في التوجه إلى (ابن تاشفين)، حيث كان أفراد هذه الوفود يمثلون بين يديه، مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيسمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لحالهم.

غادر وفد المعتمد إشبيلية، وركب البحر حتى وصل (سبتة) فوجد رسل (يوسف) بالمرصاد، ولما وصل الوفد إلى مقر ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم مثواهم، وأظهر استعداده لتلبية النداء، وأرسل على الفور إلى مراكش في طلب من بقي من العساكر، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً، حتى تكاملت عنده، واستمرت الاتصالات أثناء ذلك بين يوسف والمعتمد. ولما كانت السفن

المتوافرة عند ابن تاشفين لا تكفي لعبور القوات الضخمة مع وسائط نقلها، فقد وجه المعتمد أسطوله من (إشبيلية) إلى (سبتة) ووضعه تحت تصرف يوسف بن تاشفين. وتقرر أن توضع (الجزيرة الخضراء) في الجنوب الأندلسي، والتي كانت تحت حكم الراضي بن المعتمد لتكون منطقة حشد خاضعة لقيادة يوسف بن تاشفين. وهكذا اتخذت كافة الترتيبات الضرورية لإنجاح عملية العبور، كما تم تنسيق التعاون بشكل رائع، منذ البداية، حتى لا تكون هناك أية عقبة تعيق تحرك القوات، أو تمنعها عن أداء دورها بما هو مطلوب منها. وما أن انتهت الاستعدادات، حتى عبر (المرابطون) وعلى رأسهم (ابن تاشفين) مضيق المجاز، وكان عبور البحر سهلاً، فوصلت القوات إلى الجزيرة الخضراء.

«وكان أول ما عبر الجمال؛ إذ أمر يوسف بن تاشفين بعبور الجمال أولاً، فعبر منها ما أغص الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة، رأوا جملاً قط، ولا خيلهم، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمال ومن رغائها. وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب، فكان يحدق بها عسكره، ويحضرها للحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها»[1].

(١) **وفيات الأعيان**: ابن خلكان ٦/ ١١٥.

٣ ـ لبيك! وعبر المرابطون البحر

ما إن عبر يوسف بن تاشفين البحر، واستقر على أرض الجزيرة الخضراء، حتى خرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق، وأذنوا للغزاة (المرابطين) في دخول البلد والتصرف فيه، فامتلأت المساجد والرحبات بالمطوعين، وتواصوا بهم خيراً.

وصلت الأخبار إلى الأذفونش (ألفونسو السادس) فكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً، كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين، أغلظ له في القول، ووصف ما معه من القوة والعُدَد والعدد، وبالغ في ذلك لإرهاب ابن تاشفين. فلما وصله وقرأه يوسف، أمر كاتبه «أبو بكر بن القصيرة» أن يجيبه، وكان كاتباً مفلقاً، فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب طويل، أحضر كتاب الأذفونش، واكتب في ظهره: «**الذي يكون ستراه**». وأرسله إليه. فلما وقف عليه الأذفونش، ارتاع له، وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به.

وبعث الأذفونش إلى ابن عباد رسالة جاء فيها: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحر، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعباً. أمضي إليكم، وألقاكم في بلادكم، رفقاً بكم، وتوفيراً عليكم». وظهر واضحاً أن (ألفونسو) سيحاول ضرب قوة (ابن تاشفين) بسرعة قبل أن تتاح لها فرصة الاتصال مع جيش ابن عباد وتنسيق التعاون معها. وكان لا بد لقوات المسلمين من التحرك بسرعة لإحباط مخطط (ألفونسو)، وإفشاله. ولكن، وقبل أن يتحرك (يوسف بن تاشفين) أرسل رسالة إلى (ألفونسو) يعرض عليه فيها اختيار واحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، وذلك وفقاً لما تفرضه السنة. ومن جملة ما جاء في الرسالة: «**بلغتنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله**

تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر/ ٥٠]».

أعاد يوسف بن تاشفين تنظيم قواته على أرض الجزيرة الخضراء، ثم أخذ في التحرك نحو إشبيلية. وتقدمت قواته في سيرها على أحسن الهيئات، جيشاً بعد جيش، وأميراً بعد أمير، وقبيلاً بعد قبيل. وبعث المعتمد ابنه إلى لقاء يوسف، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات. ورأى (يوسف) من ذلك ما سره ونشطه، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه، فلما وصل معسكر يوسف، ركض نحو القوم، وركضوا نحوه، فبرز إليه يوسف وحده، والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص، وشكرا نعم الله تعالى، وتواصيا كل منهما بالصبر والرحمة، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، مقرباً إليه. وافترقا، فعاد يوسف لمحلته، وابن عباد إلى جهته. وأرسل ابن عباد ما كان أعدَّه من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين. وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا وصلوا الصبح، ركب الجميع، وأشار (ابن عباد) على (يوسف) بالتقدم نحو إشبيلية، واستعراض قواته، ففعل. ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس، إلا من بادر أو أعان، وخرج أو أخرج، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا.

كان المعتمد قد حشد قواته في إشبيلية، وجاءته قوات دعم كبيرة من قرطبة وقوات المتطوعين من سائر بلاد الأندلس. واستمر توارد الجيوش مع أمرائها على إشبيلية. وأخذت القوات الإسلامية في تحركها نحو الشمال لملاقاة قوات العدو، فتقدمتها قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، ثم تبعتها مقدمة جيوش الأندلس بقيادة عبد الله بن المعتمد، ثم سار بقية جيش الأندلس بقيادة المعتمد، وفيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس. وشعر المعتمد بالتفاؤل لنجاح مساعيه في حشد كل ما استطاع حشده، وبذل كل ما أمكن له بذله، فأخذ ينشد لنفسه مكملاً البيت المشهور:

لا بُدَّ من فرجٍ قريب ... يأتيك بالعجب العجيبِ
غزوٌ عليكً مبارك ... سيعود بالفتح القريب

لـــلَّـــه ســــعـــدك إنـــه ... نـكـس عـلـى ديـن الـصـلـيـب
لا بـــد مـــن يـــوم يـــكـــو ... ن لـه أخـاً يـوم الـقـلـيـبِ[1]

استمرت جيوش المسلمين في تقدمها حتى وصلت بطليوس فتوقفت بظاهرها، وأقامت معسكرها، وكان صاحب بطليوس (المتوكل محمد بن محمد بن الأفطس) قد اتخذ كافة الاستعدادات، ولقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود. وجاءهم الخبر بتحرك (الأذفونش)، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض؛ أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد (الأذفونش) إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه، حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد (ابن عباد) بنفسه مطيفاً بالمحلة، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات.

قام (ألفونسو السادس) بمحاولة للتعرض للقوات، وإذ تبين له أنه من المحال عليه أخذ المسلمين على حين غرة ـ بغتة ـ عاد إلى معسكره، وأمضى ليلته، وقد امتلأ الكافر غيظاً وعتا وطغى، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، وتبايعوا على الموت.

أما في معسكر المسلمين، فقد انصرف يوسف وابن عباد لوعظ أصحابهم، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ، وحضوهم على الصبر والثبات، وحذروهم من الفشل والفرار.

---

(١) يوم القليب يعني (معركة بدر). المرجع: نفح الطيب ٤/ ٣٥٤ ـ ٣٧٧.

٤ ـ خديعة كافر يحبطها مسلم

جاءت طلائع قوات المسلمين، وأفادت أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم، فكعَّ الأذفونش، ورفض الدخول في المعركة، ورجع إلى أعمال المكر والخديعة، فعاد الناس إلى محلاتهم، وباتوا ليلتهم، حتى إذا ما أصبح يوم الخميس، بعث (الأذفونش) رسالة إلى (ابن عباد) جاء فيها: «**غداً يوم الجمعة، وهو عيدكم، والأحد هو عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما، وهو يوم السبت**». فعرَّف المعتمد بذلك السلطان يوسف، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة، وإنما قصده الفتك بالمسلمين يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كلَّ النهار، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس.

وبعد مضي جزء من الليل، انتبه الفقيه الناسك أبو العباس (أحمد بن رميلة القرطبي ـ وكان في محلة ابن عباد) فرحاً مسروراً، وهو يقول: «إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم، فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة». فتأهب، وعاد وتضرع، ودهن رأسه وتطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى.

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة (الأذفونش) وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحق الطلائع متحققين بتحرك (الأذفونش)، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: «استرقنا السمع، فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: إن ابن عباد هو مسعر هذه الحرب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم أمر الصحراويين بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم أن صدقتموه الحملة». فعند ذلك بعث (ابن عباد) الكاتب «أبو بكر بن القصيرة» إلى السلطان يوسف، يعرفه بإقبال (الأذفونش) ويستحث

نصرته. فمضى (ابن القصيرة) يطوي المحلات ـ المعسكرات ـ حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرَّفه بجلية الأمر، فقال له: «**قل له إني سأقرب منه إن شاء الله تعالى**». واستنفر (يوسف) قواته، ونظمها على عجل لدخول المعركة.

كان معسكر (ابن تاشفين) يقع على أقل من فرسخ[1] **من معسكر العدو (ثمانية عشر ميلاً أو ثلاثين كيلومتراً تقريباً)**، فكان أول عمل قام به هو إصدار الأمر لقائد من قادته أن يمضي بكتيبة عيَّنها له، حتى يدخل محلة النصارى، فيضربها ناراً، ما دام (الأذفونش) مشتغلاً مع ابن عباد.

وهكذا، ومع سحر يوم الجمعة (منتصف شهر رجب ٣٧٠هـ/ ٢٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٠٨٦م) ركب **المعتمد بن عباد وبث الخبر في العساكر، وما هي إلا برهة حتى وصلت طلائع ابن عباد، وهي ممزقة مشتتة، وقوات الروم في أثرها تطاردها**، فماجت الأرض بأهلها ووقع البهت، ورجفت الأرض، وصار الناس فوضى على غير نظام ولا تعبية ولا أهبة.

(١) جاء في **الكامل في التاريخ** (ابن الأثير) ٨/ ١٤٢: أن المسافة بين معسكر المسلمين والفرنج هي ثمانية عشر ميلاً، وأن جيش الفرنج قد بلغ خمسين ألفاً، وأن المعركة وقعت يوم الجمعة، في العشر الأول من رمضان (٤٧٩هـ). في حين ذكر ابن خلكان «**وفيات الأعيان**» ٦/ ١١٦، أن المعركة وقعت يوم الجمعة في منتصف رجب (٤٧٩هـ). وعلى هذا أشارت معظم المصادر العربية.

٥ ـ موقعة الزلاقة

عاد الكاتب ابن القصيرة من لدن أمير المؤمنين يوسف إلى معسكر المعتمد، ولكنه لم يكد يبلغه حتى غشيته جنود الطاغية (الأذفونش ـ ألفونسو السادس)، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله. ومال الأذفونش عليه بجموعه، وأحاطوا به من كل جهة، فهاجت الحرب، وحمي الوطيس منذ اللحظة الأولى للاشتباك، واستمر القتل في أصحاب ابن عباد، وحطمت قوة الصدمة كل ما جابهها، فتركت الأرض حصيداً خلفها. وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعضته الحرب، واشتد عليه وعلى من معه البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساءت الظنون، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبد الله، وفر رؤساء الأندلس، وتركوا محلاتهم وأسلموها، وظنوا أنه وهي لا يرقع، ونازلة لا تدفع. وظن الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين، ولم يعلم أن العاقبة للمتقين، وأثخن ابن عباد جراحات، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وجرحت يمنى يده، وطعن في أحد جانبيه، وعقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قُدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يميناً وشمالاً، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرماً به، تركه في إشبيلية عليلاً، وكنيته أبو هاشم، فقال:

أبا هاشم هشمتني الشفار فللّه صبري لِذاك الأُوارِ
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرارِ

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد (ابن تاشفين) قائد بطل اشتهر بالشجاعة والنجدة والحمية، واسمه (داود بن عائشة). وإذا ذاك، تنفس (ابن عباد) الصعداء، وزالت عنه همومه.

كان ابن تاشفين، قد ركب فرسه منذ أن جاءه النذير (الكاتب ابن القصيرة) وأحاط به أنجاد خيله ورجاله ـ مشاته ـ من صنهاجة، رؤوساء القبائل، وقصدوا محلة الأذفونش، فاقتحموها ودخلوها، وفتكوا فيها، وقتلوا، وضربت الطبول

وزعقت الأبواق، فاهتزت الأرض، وتجاوبت الجبال والآفاق. فلما أبصره الأذفونش، وجه حملته إليه، وقصده بمعظم جنوده، وتراجع الروم إلى محلاتهم، فصدموا أمير المسلمين، فأفرج لهم عنها، ثم كر عليهم فصدهم بجمعه، وردهم إلى مركزهم، وأخرجهم منه، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها، واستمرت المعركة ما بين كر وفر.

أفاد المعتمد من تخفيف الضغط على جبهته، فأعاد تنظيم قواته، وقد استنشق ريح الظفر، وأدرك تباشير النصر. وبينما الكرات بين ابن تاشفين والأذفونش تتوالى، أمر ابن تاشفين حشمه من السودانيين بالترجل للقتال كمشاة، فترجل منهم زهاء أربعة آلاف، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها. وانطلقت قوات ابن عباد في الوقت ذاته بالهجوم، وصدق الجميع الحملة، وتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار، وخاضت الخيل بالدماء، وصبر الفريقان صبراً عظيماً. ثم انضم ابن عباد إلى يوسف، وحمل حملة صادقة، وعاد المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين، ولم تصمد قوات الأذفونش لقوة الهجوم فأخذت في التراجع. وقام أحد الجنود السودانيين بمطاردة الأذفونش فأهوى هذا على السوداني بضربة سيف قوية، غير أن هذا تجنب الضربة، ولصق به، وقبض على عنانه، وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به، فأثبته في فخذه، فهتك حلق درعه ونفذ من فخذه مع بِداد سرجه، فانكشف الطاغية الأذفونش، ومضى هارباً منهزماً، وقد غنم طعنة في ركبته تركت فيه عاهة ـ عرجاً ـ عاشت معه ما بقي حياً لتذكره أبداً بتلك المعركة.

حان وقت الزوال عندما هبت ريح النصر، وأنزل الله سكينته على المسلمين، ونصر دينه القويم، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه، فأخرجوهم عن محلتهم ـ معسكرهم ـ وولى الروم ظهورهم وأعطوا أعناقهم، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم، إلى أن لحقوا ربوة لجؤوا إليها واعتصموا بها، وأحدقت بهم الخيل، وتجمع حول (الأذفونش) نحواً من خمسمائة فارس ما فيهم واحد إلا مكلوم ـ مجروح ـ وأباد القتل والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم، والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة، فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه، حتى إذا ما أظلم الليل، انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة، وأفلتوا بعدما تشبثت بهم أظفار المنية، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم ـ

معسكرهم ـ من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين، فاجتمع من ذلك تل عظيم. . .

وأقبل (ابن عباد) على السلطان (يوسف) وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه. وشكر (يوسف) صبر ابن عباد، ومقامه، وحسن بلائه، وجميل صبره، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه، فقال: هم هؤلاء قد حضروا بين يديك، فليخبروك.

استشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة، وقاضي مراكش «أبو مروان عبد الملك المصمودي» وغيرهما، رحمهم الله تعالى. وحكي أن موضع المعترك على اتساعه، ما كان فيه موضع قدم، إلا على قتيل أو دم. وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتى جمعت الغنائم، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف، فعفَّ عنها، وآثر ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم، استكرموه، وأحبوه، وشكروا له ذلك.

وكتب ابن عباد إلى أبيه بإشبيلية كتاباً تضمن ما يلي: «كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب، وقد أعز الله الدين، ونصر المسلمين، وفتح الله الفتح المبين، وهزم الكفرة والمشركين، وأذاقهم العذاب الأليم والخطب الجسيم، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة والنعمة الجسيمة، في تشتيت شمل (الأذفونش) والاحتواء على جميع عساكره، أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم، بعد إتيان النهب على محلاته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحُماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فللَّه الحمد على جميل صنعه، ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة ألمت لكنها فرجت بعد ذلك، فللَّه الحمد والمنة. والسلام».

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده، وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه، افتقدهم، ولم يسمع إلا نواح الثكلى عليهم، واضطر من جراء ذلك إلى أن يخلي إقليم بلنسية ويرفع الحصار عن سرقسطة، ولكنه اصطنع حصن (الليط[1]) بين (مرسيه) و(لورقة) حتى يتخذ منه قاعدة لهجماته المقبلة على أراضي المعتمد.

---

(١) الليط (Aledo): ويسميه العرب أيضاً (لبيط) و(نبطيط).

٦ ـ احتفالات النصر

رحل المعتمد إلى إشبيلية بعد الانتهاء من أمر (موقعة الزلاقة) ومعه (يوسف بن تاشفين) وجيشه، إذ سأله (المعتمد) أن ينزل في ضيافته. وأقام (ابن تاشفين) معسكره في ظاهر إشبيلية. وجلس (المعتمد وابن تاشفين) للناس، وهنئ بالفتح، وقرأت القراء، وقام على رأسه الشعراء[1] فأنشدوه. قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه فقرأ القارئ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ فقلت: بُعداً لي ولشعري، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به.

قام (يوسف بن تاشفين) بجولة في إشبيلية، مدينة المعتمد، وهي أحسن المدن وأجلها منظراً، وأمعن النظر فيها وفي محلها، وهي على نهر عظيم مستبحر، تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه، وفي غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا هو المسمى (بَشرَف إشبيلية)، وتمتازُ بلاد المغرب كلها بهذه الأصناف منه، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس

---

(١) وقال (الحافظ الحجاري): قصدت المعتمد ومعه أمير المسلمين، بعد موقعة الزلاقة، فرفعت له قصيدة منها:

لا رَوَّعَ اللّه سرباً في رحابهم ... وإن رموني بترويع وإبعاد
ولا سقاهم على ما كان من عطش ... إلا ببعض ندى كف ابن عباد
ذي المكرمات التي ما زلت تسمعها ... أُنسُ المقيم وفي الأسفار كالزاد
يا ليت شعري ماذا يرتضيه لمن ... ناداه يا مَوْئلي في جحفل النادي

فلما انتهيت إلى هذا البيت، قال: أما ما أرتضيه لك فلست أقدر في هذا الوقت عليه، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان. وأمر خادماً فأعطاني ما أعيش في فائدته إلى الآن. (نفح الطيب ٣/ ٥٧٠).

والمفروش وغير ذلك. فأنزل المعتمد (يوسف بن تاشفين) في أحدها، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له.

وكان مع ابن تاشفين أصحاب له، ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها، وما هي عليه من النعمة والإتراف، ويغرونه باتخاذ مثلها، ويقولون له: إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة، كما هو المعتمد وأصحابه. وكان ابن تاشفين داهية عاقلاً مقتصداً في أموره، غير متطاول ولا مبذر، غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة والنعيم، إذ ذهب صدر عمره في بلاده بالصحراء في شظف العيش، فأنكر على مَن أغراه بذلك الإسراف، وقال له: «الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل ـ يعني: المعتمد ـ أنه مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال الكثيرة التي تصرف في هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم وإخراجه في هذه المترهات من أفحش استهتار. ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين، متى تستنجد همته في ضبط البلاد وحفظها، وصون عرينه والتوقير لمصالح بلاده؟».

ثم إن (يوسف بن تاشفين) سأل عن أحوال المعتمد في لذاته: هل تختلف فتنقص عما عليه في بعض الأوقات أو هي دائماً على هذه الحال؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا؟ فقال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك؟ فقالوا: لا. قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا: لا رضى لهم عنه. فأطرق وسكت.

وفي أثنائها، استأذن رجل ذو هيئة رثة بالدخول على المعتمد، فدخل، وكان من أهل البصائر، فلما مثل بين يديه، قال:

أصلحك الله أيها السلطان، وإن من أوجب الواجبات شكر النعمة، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح، وإني رجل من رعيتك، حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال، ولكنني مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته، فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا، يوسف بن تاشفين، يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك، وقد رأيت رأياً، فإن آثرت الإصغاء إليه قلته. فقال المعتمد له: قله.

فقال له: **رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملك مستأسد على الملوك، قد حطم على زناتة ببر العُدوة، وأخذ الملك من أيديهم، ولم يبق على واحد**

منهم، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها، لما قد عاينه من هناءة عيشك، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس. وإن له من الولد ومن الأقارب وغيرهم من لو يود له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب. وقد أردى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَن، وبعد، فإنه إن فات الأمر في الأذفونش، فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم.

فقال له المعتمد: وما هو الحزم اليوم؟.

فقال: أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا، واعتقاله في قصرك، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة، طفل فمن فوقه، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له. ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه، وتأخذ منه على ذلك رهائن، فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء، فَنَفْسُه أعز عليه من جميع ما يُلْتَمَس منه. فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له، وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش، وتقيم في موضعك على خير حال، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة، ويتسع ملكك، وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم، وتهابك الملوك. ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة من عاملته هذه المعاملة، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي، تتفانى الأمم، وتجري بحار الدم دون حصون مثله.

فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه، وجعل يفكر في انتهاز الفرصة. وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح:

ما كان المعتمد على الله ـ وهو إمام أهل المكرمات ـ ممن يعامل بالحيف ـ ويغدر بالضيف.

فقال الرجل: «إنما الغدر هو في أخذ الحق من يد صاحبه، لا دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به».

فقال ذلك النديم: «ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء».

ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه، فشكره المعتمد ووصله بصلة. واتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين (يوسف) فأصبح غادياً. إذ وردت عليه من

المغرب أخبار تقتضي العزم، ومنها موت ابنه الذي كان يحكم سبتة، وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع. وكانت جراحاته تورمت عليه، فسير معه ولده عبد الله، إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب.
وترك (ابن تاشفين) جيشاً في الأندلس بقيادة أحد قادته المشهورين، برسم الجهاد وغزو الأفرنج. فاستراح هذا القائد أياماً قليلة ثم دخل بلاد (الأذفونش) وأطلق الغارة، فنهب وسبى، وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة. وتوغل في البلاد، وحصَّل أموالاً وذخائر عظيمة، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصَّله، وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده[1].

---

(١) ورد في **تاريخ الشعوب الإسلامية**: بروكلمان، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٤، ص٣٢١: أن القوة التي تركها ابن تاشفين في الأندلس لا تزيد على ثلاثة آلاف بربري، ولذلك فإنهم عجزوا عن صد القشتاليين. غير أن معظم الشواهد المتوافرة تشير إلى جمود الموقف العسكري عقب معركة الزلاقة وعدم حدوث معارك جبهية ـ تصادمية ـ أو وقوع اشتباكات حاسمة.

٧ ـ المرابطون في الأندلس

عندما عزل (ألفونسو السادس) حاكم طليطلة (عبد القادر بن ذي النون) بعد الاستيلاء عليها، عمل على تعيينه حاكماً على (بلنسية) ولكن تحت وصاية (رذريق القنبيطور) الذي يقلب (السيد). وقد عجز ملوك الطوائف عن فتح بلنسية. وقاد جيش المرابطين (ابن الحاج ـ محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت) فانطلق من سبتة، وهزم جميع النصارى هزيمة شنيعة، وخلع (ابن رشيق) صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية، ففر حاكمها (علي بن مجاهد)، ونزل على (الناصر بن علناس) فأكرمه. ووصل قاضي بلنسية (ابن جحاف) إلى معسكر (ابن الحاج ـ قائد المرابطين) مغرياً بالقادر بن ذي النون، فأنفذ معه عكسراً، وملك (بلنسية) وقتل (ابن ذي النون)، وانتهى الخبر إلى الطاغية (ألفونسو السادس) فنازل بلنسية واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها ثم استخلصها عساكر المرابطين، وولى عليها يوسف بن تاشفين (الأمير مزدلي).

بقي (حصن الليط) قاعدة متقدمة لقوات (ألفونسو) من أجل الهجوم على مملكة (إشبيلية)، ومصدر ازعاج (للمعتمد ابن عباد). فاستنجد الأمراء من جميع أطراف الأندلس بيوسف بن تاشفين، حتى إذا فزع المعتمد إليه مستصرخاً، عزم على القيام بحملته العسكرية الثانية على بلاد الأندلس. وفي ربيع سنة (١٠٩٠م/ ٤٨٣هـ) اجتاز جيشه الزقاق إلى الجزيرة الخضراء، فانضم إليه أمراء مالقة وغرناطة وألمرية، فضلاً عن المعتمد، وتقدموا جميعاً إلى (حصن الليط) فثبت لهجومهم الأول، وكان لا بد من محاصرته مدة تطاولت إلى ما بعد حلول فصل الشتاء. ومهما يكن من شيء، فقد ذر قرن الشقاق في معسكر المسلمين، خارج (حصن الليط) بين ملوك الطوائف، وبخاصة بين المعتصم (صاحب ألمرية) والمعتمد (صاحب إشبيلية)، وبلغت منهما الجهالة مبلغاً جعلهما يحتكمان إلى (ابن تاشفين). وفي مطلع الشتاء، سار (ألفونسو السادس) إلى حصن الليط بجيش قوي، ابتغاء انتزاعه من المسلمين، فما كان من (ابن تاشفين) إلا أن

انسحب إلى (لورقة) اجتناباً للالتحام بقوات ألفونسو في معركة لا يدري نتائجها، بسبب من عدم ثقته بحلفائه الأندلسيين. ولم يكن (ألفونسو) نفسه راضياً عن سحب حاميته من (حصن الليط) إلى (قشتالة) بعد أن تركه وقد أشرف على الخراب من تأثير ضرب المنجنيق المتواصل. وعلى كل حال، فقد حققت العملية هدفها، إذ عاد (حصن الليط) لقبضة المسلمين.

كان قادة (ابن تاشفين) يغرونه بالقضاء على (ملوك الطوائف) لأنهم «كانوا يخوضون المعارك القاسية ويجاهدون الكفار، بينما ملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه». وفي الوقت ذاته، أخذ ابن تاشفين في التدخل بأمور (ملوك الطوائف)؛ إذ طلب إليهم رفع الضرائب والمكوس عن أفراد الشعب. وهكذا فعندما اجتاز (يوسف بن تاشفين) إلى الأندلس سنة (٤٨٦هـ/ ١٠٩٢م) تثاقل أمراء الطوائف عن لقائه، الأمر الذي أغضبه، غير أن (ابن عباد) استمر في رعاية صحبته، وبادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم. وعندما عاد (يوسف بن تاشفين) إلى المغرب عين قائده (سير بن أبي بكر) لقيادة قوات المرابطين في الأندلس، وكلفه: «**بنقل ملوك الطوائف وترحيلهم إلى أرض العدوة. فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصره وقاتله ولا تنفس عليه، ولتبدأ بمن والى الثغور، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد إلا بعد استيلائك على البلاد، وكل بلد أخذته فولِّ فيه أميراً من عساكرك**».

وكان الأمير يوسف بن تاشفين قد اتخذ هذا القرار بعد أن أفتاه الفقهاء وأهل الشورى، من المغرب والأندلس، بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق والأعلام مثل الغزالي، والطرطوشي[1]. ومضى (سير بن أبي بكر) لتنفيذ مهمته، **فكان أول من ابتدأ به من ملوك الأندلس (بنو هود)**، وكانوا مقيمين بروطه ـ بضم الراء المهملة، وبعدها واو ساكنة، وطاء مهملة مفتوحة، وبعدها هاء ساكنة ـ وهي قلعة منيعة من عاصمات الذرا، وماؤها ينبع من أعلاها، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان. فحاصرها فلم يقدر عليها، ورحل عنها، وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزيهم، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها، وكمن هو وأصحابه بقرب منها، فلما رآهم أهل القلعة استضعفوهم، فنزلوا إليهم، ومعهم صاحب القلعة، فخرج

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٣٨٤.

عليهم (سير) المذكور، وقبضه باليد، وتسلم الحصن. ثم نازل (بني طاهر - بشرق الأندلس) فأسلموا له البلاد، ولحقوا ببر العدوة. واستنزل (أولاد المأمون) من قرطبة و(يزيد الراضي) من رنده وقرمونة واستولى على جميعها وقتلهم. ثم نازل (بني صمادح بالمرية) ولها قلعة حصينة، فحاصرهم وضيق عليهم. ولما علم (ابن صمادح) الغلب، أسف ومات غبناً - قهراً - فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها.

ثم قصد (بطليوس - وكان بها المتوكل عمر بن محمد ابن الأفطس) فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله، ثم قتله وابنيه يوم عيد الأضحى، بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية (ألفونسو) واتفاقهم معه على تسليمه (بطليوس). أما (غرناطة - والتي كانت تحت حكم عبد الله بن بلكين) فكان أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) قد استولى عليها في جوازه الثاني، حيث نزل (ابن تاشفين) في ناحية غرناطة بعد ما حصر بعض حصون الفرنج، فلم يقدر عليه، وخرج عبد الله بن بلكين للقائه والترحيب به، فسلم عليه، ثم عاد (ابن بلكين) إلى غرناطة ليخرج له التقادم، فغدر (ابن تاشفين) به ودخل البلد، وأخرج (ابن بلكين) ودخل قصره، فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يعد ولا يحصى. وهكذا انقرض ملك (ملوك الطوائف) من الأندلس كلها، ولم يوفق إلى الاحتفاظ بالحكم إلا (حاكم سرقسطة - من بني هود) الذي استطاع الاحتفاظ بها، بفضل اعترافه بابن تاشفين وإمداده بالهدايا من جهة، وبقائه على اتصال بملك قشتالة من جهة ثانية.

عندما لم يبق من ملوك الطوائف إلا (المعتمد بن عباد)، كتب (سير بن ابن بكر) رسالة إلى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) يسأله حكمه فيه. فكتب إليه: «يأمره أن يعرض على ابن عباد الانتقال إلى بر العدوة - المغرب - بجميع الأهل والعشيرة، فإن رضي، وإلا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه». وقام (سير بن أبي بكر) بمقابلة (ابن عباد) وأبلغه بأمر (يوسف بن تاشفين) وسأله الجواب، فلم يجب بنفي ولا إثبات. ثم إنه نازل (إشبيلية) وحاصره بها، وألح عليه، فأقام الحصار شهراً، ودخل البلد قهراً، واستخرجه من قصره، فحمل وجميع أهله وولده إلى العدوة، فأنزل (بأغمات) وأقام بها إلى أن مات.

توفي (يوسف بن تاشفين) (سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) تاركاً لابنه علي أقوى دولة عرفها المغرب الإسلامي حتى ذلك الحين، بيد أن التنظيم الداخلي لهذه الدولة

المترامية الأطراف، كان أبعد ما يكون عن الإحكام والتماسك. ولم يلبث علي أن انصرف بكليته إلى الأمور الدينية، وقام الفقهاء بالإسهام بأكبر قسط في أمور الدولة، ونشأت صراعات بين الفقهاء ذاتهم. وعلى سبيل المثال، فقد أثار كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي عاصفة شديدة من الاستياء عند انتشاره في الأندلس. وزاد الأمر خطورة عندما أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى، اتهموا فيها الغزالي بالابتداع والهرطقة ـ الكفر ـ لتجديده في أمور مثل محاسبة النفس، اعتبرت خروجاً على الدين. وأُحرق كتاب «الغزالي» في قرطبة على مشهد من جماهير الشعب، وفرضت عقوبة القتل على كل من يقرأه في طول المملكة وعرضها.

وكما هي العادة، أفاد اليهود من التسامح الديني الذي ضمنه الإسلام، فارتقى اليهودي الشهير ابن نغدله ـ أو النغراله والنغريله كما تذكره المصادر العربية ـ حتى أصبح وزيراً ـ كاتباً ـ لصاحب غرناطة ـ باديس ـ، وأعضل داؤه المسلمين، فقد استغل منصبه للتنكيل بالمسلمين وإرهاقهم من أمرهم عسراً، وضج الناس، حتى قال زاهد ألبيرة وغرناطة (أبو إسحاق الألبيري) قصيدته النونية المشهورة، والتي جاء فيها:

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بُدور الزمان وأُسد العرين
مقالة ذي مِقَةٍ مُشْفقٍ ... صحيح النصيحة دنيا ودين
لقد زلَّ سيدكم زلة ... أقرَّ بها عيون الشامتين
تخير كاتبه كافراً ... ولو شاء كان من المؤمنين
فعزَّ اليهودُ وانْتَمُوا ... وسادوا وتاهوا على المسلمين

وعندما وصلت الاستشارات ذروتها، ثارت صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ـ وفيهم الوزير المذكور ـ، واضطر يهود (أليسانة) وهم أغنى اليهود في الأندلس، إلى دفع الجزية، في حين آثر غيرهم أن يبرحوا البلاد مثلما فعل والد الفيلسوف (ابن ميمون). أما النصارى المستعربة، فقد اتخذوا من اللغة العربية ستاراً للدس على الدين والتآمر على المسلمين في كل مكان، وتابعوا دورهم في التعاون مع أمراء النصارى ودعمهم خلال هجماتهم المتكررة على حدود بلاد المسلمين، وهي الهجمات التي عجز المرابطون ـ البربر ـ عن مقاومتها مقاومة فعالة، وذلك بعد أن انغمسوا في متارف الحضارة الأندلسية ومناعمها وترفها، وتفرقت قواتهم على كل أنحاء الأندلس، وقد ظهر ذلك

واضحاً في الهجوم الذي قام به ملك أرغون ألفونسو السادس على سرقسطة يوم ١٩ كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١١١٨م، وكانت (سرقسطة) هي القاعدة المتقدمة للمسلمين في الشمال، ولهذا بقيت محل نزاع ملوك المسلمين والنصارى زمناً طويلاً. ونظراً لما تعرض له هذا الثغر من الأحداث المثيرة ـ وفقاً لما سبقت الإشارة إليه ـ فقد يكون من المناسب التوقف قليلاً عند أبرز تلك الأحداث.

صار أمر (بلنسية) إلى الفقيه القاضي «أبو أحمد بن جحاف»، قاضيها، الذي صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فحاصره بها (القادر بن ذي النون) الذي مكن الطاغية (ألفونسو) من الاستيلاء على (طليطلة). وقام القاضي (ابن جحاف)، بدعم من المرابطين، بالهجوم على (ابن ذي النون) وقتله. وأصبح (ابن الجحاف) مدفوعاً لممارسة ما لم يكن مؤهلاً له من تدبير السلطان، وإدارة الحكم، ورجعت عنه طائفة الملثمين ـ المرابطين ـ الذين كان يعتد بهم، فراح يستصرخ إلى أمير المؤمنين (ابن تاشفين) فيبطئ عليه. وفي أثناء ذلك، استطاع حاكم (سرقسطة)[1] وهو (يوسف بن أحمد بن هود) أن يستثير الطاغية (روذريق القنبيطور) للاستيلاء على (بلنسية)[2] فدخلها، وعاهده القاضي (ابن جحاف)،

---

(١) سرقسطة (Saragossa): كانت من أهم مدن أراغون في شمال ـ شرقي الأندلس. تقع على نهر (إبرة Ebro) وقد بناها القيصر أوغست (Casar Augusta) ٢٣ق. م. على أنقاض المدينة الإيبرية القديمة التي كانت تعرف باسم (سالدوبا Salduba). وقد أشاد العرب كثيراً بوصفها، ومما جاء في **نفح الطيب** ١/ ١٥٠ و١٩٦: إن في كورة سرقسطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص، والذي ليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح. وقيل أيضاً: أن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جلق بسرقسطة، فاستعذبه، وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه، وسأل عن اسمه، فقيل (حلق) ونظر إلى ما عليه من بساتين فشبهها بغوطة جلق الشام.
وذكر أيضاً أنها لا تدخلها حية أو عقرب إلا ماتت من ساعتها، ولا يتسوس فيها شيء من الطعام ولا يعفن.

(٢) بلنسية (Balancia): كورة ـ ناحية ـ ومدينة بالأندلس، شرقي قرطبة، وأشاد العرب بمحاسنها، ومن قولهم فيها:

هي الفردوس في الدنيا جمالاً ... لساكنها، وكارهها البعوض

وكذلك:

بلنسية ـ إذا فكرت فيها ... وفي آياتها ـ أسنى البلاد
وأعظم شاهدي منها عَلَيْها ... وأن جمالها للعين بادي
كساها ربها ديباج حسن ... له علمان من بحر ووادي

نفح الطيب ١/ ١٧٩، ١٨٠.

واشترط (القنبيطور) عليه إحضار ذخيرة كانت (للقادر بن ذي النون) فأقسم أنها ليست عنده، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله، فاتفق أنه وجدها عنده، فأحرقه بالنار، وعاث في (بلنسية)، وفيها يقول (ابن خفاجة) حينئذ:

عاثت بساحتك الظِّبا يا دار ... ومَحا محاسنكِ البلى والنارُ

فإذا تَرَدَّد في جنابك ناظرٌ ... طال اعتبارٌ فيك واستعبارُ

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدارُ

كتبت يدُ الحدثان في عَرَصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديارُ

وكان استيلاء (القنبيطور) عليها سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٩٤م)، وقد حاصرها (القنبيطور) عشرين شهراً حتى تمكن من دخولها صلحاً، ثم غدر بها وأحرقها، وعاث فيها. وممن أُحرق فيها الأديب (أبو جعفر بن البني ـ الشاعر المشهور) فوجه أمير المؤمنين (يوسف بن تاشفين) الأمير «أبو محمد مزدلي» فاستعادها سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠١م). وتوالى عليها أمراء المرابطين ـ الملثمين ـ ثم صارت تحت حكم ابن غانية (الملثم) حين ولي جميع شرق الأندلس، فقدم عليها أخاه عبد الله بن غانية.

ضعف أمر المرابطين بعد ذلك، وأقام الموحدون (أبناء عبد المؤمن) دولتهم على أنقاض دولة المرابطين، واضطلعوا بأعباء الجهاد في سبيل الله، وكانت لهم أيامهم الشهيرة في الأندلس. ولكن أمر (بلنسية) لم يزل يضعف باستيلاء العدو على أعمالها، حتى تمكن العدو (ملك برشلونة النصراني) من فرض حصار قوي عليها، وكان حاكمها إذ ذاك هو قائد الفرسان (الأمير زيان بن أبي الحملات بن أبي الحجاج بن مردنيش) فأسرع بطلب الدعم من صاحب أفريقية ـ حاكمها ـ «أبو زكريا بن أبي حفص» حيث أوفد كاتبه الشهير «أبو عبد الله بن الأبار القضاعي»[1]، غير أن حاكم برشلونة ـ ملكها ـ تمكن من اقتحام المدينة يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) في حين كانت (سرقسطة) قد أصبحت تحت حكم النصارى (ملك أرغون منذ سنة ١١١٨م)، وهذا يعني أن المسلمين قد نجحوا في إيقاف العدوان طوال (١٢٠ عاماً). وفي الواقع فقد أرسل

---

(١) **أبو عبد الله بن الأبار القضاعي**: شاعر أندلسي مجيد، وكاتب شهير، من آثاره المعروفة: كتاب «التكملة»، و«إعتاب الكتاب» وغيرهما. وقد ألقى بين يدي السلطان قصيدته السينية الفريدة لاستنهاض السلطان (أبي حفص) وشرح حال المسلمين في الأندلس.

السلطان (أبو حفص) أسطولاً قوياً يحمل الإمداد والأموال والأقوات لدعم (بلنسية)، غير أن قوات (أرغون) نجحت في منع هذا الإمداد من الوصول إلى المدينة، الأمر الذي حمل أهلها على عقد صلح مع النصارى بعد حصار طويل.

وتجدر الإشارة إلى ما رافق هذه الصراعات من أحداث كثيرة، كان من بينها انتصار ملك أرغون في موقعة كتندة (أو قتندة) التي كانت من أعمال (سرقسطة) من الثغر الأعلى، وكذلك تطوير ملك أرغون أعماله الهجومية، والوصول بها إلى (غرناطة)، الأمر الذي يبرز ضعف قوات المرابطين أمام الهجمات الكثيفة لقوات الشمال، والذي يبرز بدوره أيضاً تحالف كل النصارى في جبهة واحدة ضد مسلمي الأندلس.

ففي سنة (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) قام (ألفونسو الأول) ملك أرغون، الذي استولى على سرقسطة قبل سنتين، بقيادة جيشه، وهاجم كتندة ـ من حيز دورقة ـ وكانت الهزيمة على المسلمين، قتل فيها من المطوعة نحو من عشرين ألفاً، ولم يقتل فيها من العسكر أحد، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وانصرف العسكر مغلولاً إلى (بلنسية). وكان القاضي (أبو بكر بن العربي) ممن حضرها، وسئل عن حاله في المعركة، فقال: «حال من ترك الخباء والعباء» وهذا مثل عند المغاربة معروف، يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه، بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه. وفي سنة (٥١٩هـ/ ١١٢٥م) اندفع (ألفونسو الأول ـ ملك أرغون) إلى أبعد من ذلك في اتجاه الجنوب، ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق ما رمى إليه من الاستيلاء على غرناطة، فقد أنزل بالمسلمين هزيمة منكرة قرب مدينة (أليسانة) اليهودية، عندئذ أصدر (ابن رشد)، أشهر قضاة ذلك العصر وجدُّ الفيلسوف الشهير، فتوى بضرورة إجلاء النصارى الذين ألقيت عليهم تبعة هذه الهزيمة، فنقلوا إلى مراكش، وأنزلوا في مدينتي (سلا ومكناسة) غير أن استياء مسلمي الأندلس من حكم المرابطين ـ الملثمين ـ قد تعاظم باستمرار، نتيجة قيام مجاهدي (البربر) بأعمال التخريب، والعبث في المدن، بضراوة لا تقل عن ضراوة المرتزقة من جنود (ملوك الطوائف) من قبل، وشُلت حركة العمل والتجارة، الأمر الذي حمل أبناء الأندلس على الترحيب بحكم (الموحدين) على أمل بتحقيق ظروف أفضل على أيديهم في مواجهة العدو الخارجي، وضمان الأمن الداخلي[1].

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان ٣٢٠ ـ ٣٢٣.

٨ ـ الصفحة الأخيرة من حياة ابن عباد في إشبيلية وأغمات

تلقى (ابن عباد) الإنذار من (سير بن أبي بكر)، قائد يوسف ابن تاشفين في الأندلس، بالإستعداد لنقله إلى (عدوة المغرب) مع جميع أفراد عائلته وحاشيته. غير أنه كان من الصعب على (ابن عباد) التسليم بملكه، وكان من الأصعب عليه مقاومة هؤلاء الطامعين فيه لما يربطه بهم من أواصر الدين (ألم يقل إن رعي الجمال خير من رعي الخنازير؟). وإذن فكيف له بمقاومتهم؟ هذا إن بقي له من القوى ما يمكنه من المقاومة المجدية، لا سيما بعد أن سيطر (سير بن أبي بكر) على المعاقل والمراكز المحيطة بإشبيلية، وباتت مدينته معزولة. ليس ذلك فحسب، بل إن الحاشية المحيطة به باتت مرتبطة بالولاء (لابن تاشفين) وقائده (سير بن أبي بكر). ولقد أسهبت المصادر الأندلسية كلها في وصف تلك الصفحة الأخيرة من حياة (ابن عباد) في (إشبيلية)، فأوردت مجموعة من الأوصاف المتشابهة في مضمونها، والمختلفة في صياغتها، ومما جاء فيها:

«خامرت طائفة من أصحاب المعتمد عليه، فأُعلم باعتقادها، وكشف له عن مُرادها، وحُضَّ، على هتك حُرَمها، وأغري بسفك دمها، فأبى ذلك مجده الأثيل، ومذهبه الجميل، وما خصه الله تعالى به من حسن اليقين، وصحة الدين. وما زالت عقارب تلك الداخلة تدب، وريحها العاصفة تهب، ونارها تقد، وضلوعها تحنق وتحقد، وتضمر الغدر وتعتقد، إلى أن أمكنتهم الغرة، فانتصروا ببغاث مستنسر، وقاموا بجمع غير مستبصر، ودخلوا البلد من واديه، وبدت من المكروه بواديه، وكرَّ على المعتمد الدهر بعوائده وعواديه، وهو مستمسك بعرى لذاته، منغمس فيها بذاته، ملقى بين جواريه، مغتر بودائع ملكه وعواديه، التي استرجعت منه في يومه، ونبهه فواتها من نومه. ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد، خرج والموت يتسعر في ألحاظه،

وبرز من قصره، متلافياً لأمره، عليه غلالة على جسده وسيفه يتلظى بيده:

وذاك السيف راقَ وراع حتى كأن عليه شيمة منتضيهِ
كأن الموت أودع فيه سراً ليرفعه إلى يوم كريهِ

فلقي على باب من أبواب المدينة فارساً مشهوراً بنجدة، فرماه الفارس برمح التوى على غلالته، وعصمه الله تعالى منه، وصب هو سيفه على عاتق الفارس، فشقه إلى أضلاعه، فخر صريعاً سريعاً. فرأيت القائمين عندما تسنموا الأسوار تساقطوا منها، وبعدما أمسكوا الأبواب تخلوا عنها، وأخذوا على غير طريق، وهوت بهم الهيبة في مكان سحيق، فظننا أن البلد من أقذائه قد صفا، وثوب العصمة علينا قد ضفا، إلى أن كان يوم الأحد الحادي والعشرون من رجب (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) فعظم الأمر في الخطب الواقع، واتسع الخرق فيه على الراقع، ودخل البلد من جهة واديه، وأصيب حاضره بعادية باديه، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه، وترامیه على الموت بنفسه، ما لا يزيد عليه ولا انتهى خلق إليه، فشنت الغارة في البلد، ولم يبق فيه على سَبَد لأحد ولا لبد. وخرج الناس من منازلهم، يسترون عوراتهم بأناملهم، وكشفت وجوه المخدرات العذارى، ورأيت الناس سكارى، وما هم بسكارى. واستمر المعتمد في دفاعه، وحسامه بعد بمضائه، فلقيهم برحبة القصر، وقد ضاق بهم فضاؤها، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها، فحمل حملة صيرتهم فِرَقاً وملأتهم فَرَقاً. وما زال يوالي عليهم الكر المعاد حتى أوردهم النهر، وما بهم جواد، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله، وذهاب ملكه وارتحاله، وعاد إلى قصره، واستمسك فيه يومه وليلته، مانعاً لحوزته، دافعاً للذل عن عزته، وقد عزم على أفظع أمر، وقال: «بيدي لا بيد عمرو». ثم صرفه تقاه عما كان نواه ـ الانتحار ـ فنزل من القصر بالقسر، إلى قبضة الأسر، فقيد للحين، وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين. ولما قيدت قدماه، وذهبت عنه رقة الكبل ورحماه، قال يخاطبه:

إليكَ فلو كانت قُيُودُكَ أسعرتْ تَضرَّمَ منها كل لف ومعصم
مخافة من كان الرجال بسَيْبه ومن سيفه في جنة أو جهنم

ولما آلمه عَضُّه، ولازمه كسره ورضُّه، وأوهاه ثقله، وأعياه نقله، قال:

تبدلت من عز ظل البنود بذلِّ الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

فـقـد صـار ذاك وذا أدهـمـاً   يَـعَـضُّ بـسـاقـيَّ عـضَّ الأسـود

ثم جمع هو وأهله، وحملتهم الجواري المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعدما ضاقَ عنهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بضفتي الوادي، وبكوا بدموع كالغوادي، فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم. وفي ذلك يقول (ابن اللبانة) قصيدة طويلة منها:

تـبـكـي الـسـمـاء بـمـزن رائـح غـاد
عـلـى الـبـهـالـيـل مـن أبـنـاء عـبـاد
عـلـى الـجـبـال الـتـي هـدت قـواعـدهـا
وكـانـت الأرض مـنـهـا ذات أوتـاد

وينقل المعتمد وأهله إلى (أغمات) في المغرب، ويحتاج إلى خباء عارية (خيمة) فيطلب إلى (حواء بنت تاشفين) فتعتذر هذه، ويقول المعتمد:

هـم أوقـدوا بـيـن جـنـبـيـك نـارا   أطـالـوا بـهـا فـي حـشـاك اسـتـعـارا
أمـا يـخـجـل الـمـجـد أن يُـرحـلـوك   ولـم يـصـحـبـوك خـبـاء مـعـارا
فـقـد قَـنَّـعـوا الـمـجـد إن كـان ذاك   وحـاشـاهـم مـنـك خـزيـاً وعـارا
يـقـلُّ لـعـيـنـيـك أن يـجـعـلـوا   سـوادَ الـعـيـونِ عـلـيـكـم شـعـارا

ويقوم ابنه (عبد الجبار) بثورة في (أركش) بالأندلس، فتكون له مع المرابطين قصة شهيرة، وتنتهي ثورته إلى الفشل. غير أن المعتمد يتعرض وهو في سجنه لمزيد من النكال، وتعيد هذه القصة (للمعتمد) ذكرى ولديه اللذين قتلا أثناء اعتقاله، وتتشرد عائلته، فيفقد الاتصال ببعض أفرادها، حتى إذا ما علم بوجود ولد من أولاده على قيد الحياة، شعر ببعض العزاء. ويضيق الأمر بزوجته (الرميكية) وأولاده، فمنهم من ينصرف لغزل الصوف بحثاً عن لقمة العيش، ومنهم من يبحث عن لقمة العيش في العمل لدى الصناع. ويحتمل (المعتمد) ذلك بصبر المؤمن، وإيمان المسلم، وتحدث له وهو في سجنه بعض المفارقات التي يجدر ذكرها.

كانت هناك طائفة من أهل (فاس) قد عاثوا فيها وفسقوا، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا، ومنعوا جفون أهلها السِّنات، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات، وتلقبوا بالإمارة، وأركبوا السوء نفوسهم الأمّارة، حتى كادت أن تقفز على أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، رحمه الله تعالى، أمرهم، وأطفأ جمرهم، وأوجعهم ضرباً،

وأقطعهم ما يشاء حزناً وكرباً، وسجنهم بأغمات، وضمتهم جوانح الملمات، والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك. وكانت فيهم طائفة شعرية، مذنبة أو بريئة، فرغبوا إلى سجانهم أن يستريحوا مع (المعتمد) من أشجانهم، فخلى ما بينهم وبينه، وغمض لهم في ذلك عينه، فكان (المعتمد) رحمه الله تعالى يتسلى بمجالستهم، ويجد أثر مؤانستهم، ويستريح إليهم بجواه، ويبوح لهم بسره ونجواه، إلى أن شفع فيهم، وانطلقوا من وثاقهم، وانفرج لهم مُبهم أغلاقهم، وبقي المعتمد في محبسه، يشتكي من ضيق الكبل، ويبكي بدمع كالوَبْل، فدخلوا عليه مودعين، ومن بثه متوجعين.

ويتشوف المعتمد للموت (الحمام) لسببين: أولهما: النزوع للحرية، إذ لا طعم للعيش والساق في الكبل. وثانيهما: عجزه عن حماية أبنائه (فراخه) الذين خانهم الماء والظل، فهو أبداً، حتى في سجنه، الملك الأبي، والزوج الحنون، والأب الرؤوف العطوف، وهو يحتسب كل ما نزل به، ويرجو الله رحمته ومغفرته، ويحاول قبول ما نزل به، بروح راضية، ونفس مطمئنة، فيقول:

إقنع بحظك في دنياك ما كانا
وعَزِّ نفسك إن فارقت أوطانا
في اللَّه من كل مفقود مضى عِوَضٌ
فأشعر القلب سلواناً وإيمانا
أكلما سنحت ذكرى طربت لها
مجت دموعك في خديك طوفانا
أما سمعت بسلطان شبيهك قد
بزته سود خطوب الدهر سلطانا
وَطن على الكره وارقَبْ إثره فرجاً
واستغفر اللَّه تغنم منهُ غفرانا[1]

وتمضي الأيام على (المعتمد) وهو في (أغمات) يعيش متأرجحاً بين اليأس والرجاء، بين القنوط والأمل، حتى توافيه منيته، وينادي المنادي (الصلاة على الغريب)، وتموت (الرميكيه) زوجته، فيضم رفاتهما قبران متجاوران في صحراء مقفرة. غير أن (المعتمد) بقي كبيراً بعد وفاته، كما كان كبيراً في حياته، لم

---

(١) نفح الطيب ١١٦/٤ و٢٢١ ـ ٢٢٣.

ينتقص من قدره زوال ملكه، ولم يعف عن ذكره موته غريباً، فبقي مغمداً في قلب الصحراء يذكر بكلمته الخالدة: (رعي الإبل خير من رعي الخنازير).

وتكبر قصة (المعتمد) بتقادم الزمن.

فهل كانت حياته الإبداعية الرومانسية هي سر تعلق الشعب العربي المسلم به، وحرصه على الاحتفاظ بذكراه؟ أم كانت نهايته المأساوية (التراجيدية) هي التي أثارت خيالات الناس، خاصتهم وعامتهم، والناس بطبعهم الخيِّر ينفرون من الظلم ويجنحون لدعم المظلوم؟ أم هي أغنيات الشعراء، الذين أحبهم المعتمد وأحبوه، فانطلقوا يشيدون بفضائله ويجعلونه ذكراً خالداً على شفة الزمن؟ أم هي وقفة الإنسان العربي المسلم الأبي التي وقفها في وجه ملك الفرنج (ألفونسو السادس) هي التي رفعته إلى مصاف الشهداء الخالدين؟ أم هي وقفته في المعركة، صامداً، يوم ارتعدت الفرائض في (الزلاقة) فكان نموذجاً للإنسان العربي المسلم الذي يفضل الموت على عار الهزيمة؟ أم هي مزيج ذلك كله هو الذي صنع من (المعتمد) وقصته ما يشبه أسطورة كل زمان ومكان؟

الفَصْلُ الثّالِث

المعتمد ملكاً

١ ـ المعتمد شاعراً
٢ ـ الشعَراء والمعتمد



المعتمد ملكاً

عاش المعتمد بن عباد حياة مثيرة، إثارة المرحلة التاريخية التي عاشتها الأندلس الإسلامية في تلك الحقبة. وكان لحياة الأندلس ذاتها، بما عرف عنها من التقدم الاجتماعي والتطور الاقتصادي دور كبير في إعطاء حياة المعتمد خصوصيتها، وطابعها الفردي المميز. وعلى كل حال، فإن حياة المعتمد لم تكن مجرد مرآة سلبية للمجتمع الأندلسي ـ الإسلامي، أو صورة بارزة عن حياة القصور وما تحفل به من الدعة والترف. ولقد شغلت سيرة المعتمد وأسلوب حياته، حيزاً غير قليل من التاريخ الأندلسي، والأدب الأندلسي، ولعل في ذلك تأكيداً على خصوصية حياة المعتمد التي فتنت الناس، خاصتهم وعامتهم، وشغلتهم، ويظهر أن هذا الطابع من الحياة كان محبباً إلى نفوس الأندلسيين، أثيراً إلى قلوبهم ونفوسهم، الأمر الذي زاد من فداحة المأساة التي انتهت إليها حياة آل عباد على يد المرابطين.

وفي الحقيقة، فقد كانت هناك نقطتان مضيئتان يمكن استخدامهما بمثابة مؤشرات لإبراز خصوصية سيرة المعتمد ملكاً.

لقد عمل (المعتضد) ومن بعده ابنه (المعتمد) على تجريد عدد من ملوك الطوائف من ملكهم، وحرمهم من مجدهم وعزهم، وعلى الرغم من ذلك، فإن ذلك لم يستثر اهتمام الأندلسيين أو يخلق لديهم ردود فعل سلبية، بل إن الأمر على النقيض من ذلك، فقد لقي عمله هذا ترحيباً كبيراً، ولو أن هذا الترحيب لم يكن مجرداً من بعض العطف على أولئك الذين تم عزلهم عن عروشهم في حكم (ملوك الطوائف)، مما يدل على أن عملية العزل السياسي كانت محدودة جداً ولم تتجاوز أشخاص الحاكمين، ومما يدل أيضاً على أن فئة الحكام هذه كانت معزولة عن الجماهير ـ بحسب التعبير الحديث. . ويؤكد ذلك أن المعتمد قد مارس عملية عزل (ملوك الطوائف) بأساليب سياسية ـ ديبلوماسية لا بأساليب عسكرية يغلب عليها طابع القهر والقمع والقوة، وإذا كان لا بد من اللجوء في

النهاية إلى هذه الأساليب، فعلى أضيق نطاق ممكن، وفي إطار من التوازن المحكم والدقيق بين هدف المحافظة على القدرة الذاتية وعدم ترك جراح عميقة تعيق عملية بناء المستقبل.

ومقابل ذلك، فقد تميزت عملية استيلاء (المرابطين) على ممالك ملوك الطوائف بالبطش والعنف والتصفيات الجسدية، وإذا كانت بعض هذه العمليات وصلت ذروتها بالقضاء على (مملكة ابن عباد) في إشبيلية. ولقد سبقت الإشارة إلى أن يوسف بن تاشفين لم يقدم على إجراءاته إلا بعد أن حصل على فتاوى فقهاء المسلمين وقضاتهم بجواز عزل ملوك الطوائف المقصرين في جهاد العدو، ولم يكن باستطاعة ابن تاشفين على ما يظهر استثناء ابن عباد، وهو الذي توافرت لديه من القدرة والثروة ما يكفي لإغراء المرابطين بحكمه.

هناك عاملان كان لهما دورهما على كل حال؛ فلقد جاء (ابن تاشفين) بالمرابطين من جوف الصحراء، واستولى بهم على حكم البلاد الأندلسية، وكان هؤلاء من البربر الذين لا يَعرفون من اللغة العربية إلا أقلها، وقد أثار ذلك النزعة القديمة ـ المتجددة، بين العرب المسلمين ومسلمي البربر. أما العامل الثاني فهو قيام هؤلاء البربر بفرض طرائقهم وأساليبهم بالقوة، وهي الطرائق والأساليب التي كان المجتمع الأندلسي قد تجاوزها منذ عهد بعيد، بتأثير تطوره الاجتماعي والاقتصادي. ويمكن من هذه النقطة بالذات الأخذ بوجهة النظر الأندلسية، وهي أن الصراع بين ملوك الطوائف هو صراع بين إخوة متنافسين، في حين كان الصراع مع (المرابطين) هو صراع مع (إخوة ألداء) فرضته ظروف الصراع مع قوى الأعداء الخارجيين (نصارى الشمال).

وهناك نقطة لا بد من التعرض لها، وهي أن (ملوك الطوائف) قد طلبوا التعاون مع المرابطين ـ إخوتهم في الدين ـ لمجابهة أعداء الدين، وعلى هذا فقد كان من المفروض أن يؤدي هذا التعاون إلى زيادة القدرة الذاتية، ودعمها، في حين أدى استيلاء المرابطين على ممالك (ملوك الطوائف) إلى خلق جدار فاصل بين الأندلسيين أبناء البلاد وبين الحكام الجدد (المرابطين)، وقد عالج هؤلاء عزلتهم بالعنف والقسوة مما زاد الأمر سوءاً. وكانت النتيجة، على المدى البعيد، الوصول إلى نتائج مغايرة تماماً للهدف الذي تم بموجبه تنظيم التعاون في البداية (معركة الزلاقة). وقد يكون من السابق لأوانه، هنا، التعرض لأخطاء

هذه السياسة الاستراتيجية، غير أن التعرض للموقف يفرض ذكر هذه النقطة، ولو بمجرد الإشارة إليها.

لقد عرف العالم الإسلامي، منذ الأيام الأولى للفتح، ظهور تناقضات أمكن حلها باستمرار عن طريق اللين أحياناً، وعن طريق العنف والقوة في أحيان أخرى، ولم تكن حروب الردة في حد ذاتها إلا نموذجاً لمثل هذه التناقضات التي تتعارض فيها القيادات المنعزلة أو النزعات الفردية مع الاتجاه الإسلامي العام، ومع المصلحة العليا لجماهير العرب المسلمين، وكان حل هذه التناقضات يؤدي باستمرار إلى زيادة قدرة المسلمين، على المدى البعيد.

ومقابل ذلك، فقد كانت هناك تجارب ظهرت تنائجها المباشرة بزيادة قدرة المسلمين، غير أن نتائجها غير المباشرة، أو البعيدة، انعكست بصورة سلبية على المصلحة العليا للمسلمين.

وتأتي التجربة التاريخية للمعتمد بن عباد لتحتل حيزاً خاصاً ومكاناً مميزاً بين هذه التجارب الأخيرة، ومن هنا تبرز أهمية دراستها والتعرض لها. وفي إطار هذه التجربة بالذات، يمكن التساؤل: هل كان باستطاعة (المعتمد) اللجوء إلى خيار آخر، غير خيار اللجوء إلى ابن تاشفين والانتصار به؟ ثم هل كان باستطاعة (المعتمد) الغدر بصاحبه (ابن تاشفين) بعد ما أمكن إنجازه من نصر حاسم في موقعة الزلاقة، وذلك وفقاً لما أشار عليه به ذلك الناصح؟ ثم هل كان باستطاعة المعتمد لو أمكن له الغدر (بابن تاشفين) أن يأمن جانب (نصارى الشمال) الطامعين بكل الأندلس، والذين يتربصون بها الدوائر، ويكيدون لها باستمرار؟.

يظهر هنا الفارق المميز الذي يميز بين (سياسة المعتمد) القائمة على أسس تضع في اعتبارها قبل كل شيء، دعم القدرة الذاتية للمسلمين، وضمان توافر هذه القدرة للصراع الطويل الأمد، وبين سياسة ابن تاشفين القائمة، بحسب ما هو واضح، على توافر قدرة ذاتية خلال مرحلة معينة، مع إهمال الأخذ بالمتطلبات التي تفرضها ضرورات الصراع الطويل الأمد، وما قد تتعرض له هذه القدرة من القوة والضعف تبعاً لمتحولات الصراع.

لقد أبرزت الأوابد الشعرية الأندلسية مجموعة غير محدودة من الشواهد التي ترسم معالم السياسة الاستراتيجية للمعتمد وابن تاشفين، بقدر ما تبرز أيضاً طبيعة الظروف التي أحاطت بالمعتمد، ملكاً، وشاعراً، وفارساً. وإذا كان

الباحثون والمؤرخون يلجؤون إلى الأوابد الحجرية لاستقراء كتاباتها من أجل الكشف عن بعض الحقائق، فقد حفظ التراث الشعري الأندلسي من المؤشرات ما يبرز الحقائق بجلاء تام ووضوح كامل.

١ ـ المعتمد شاعراً

لقد كان المعتمد خاصة، وبنو عباد عامة، يمارسون صياغة الشعر، ويرتاحون إلى الشعراء، والعربي مطبوع على الشعر، يستعذبه ويطرب له ويتناقل أبياته، ويتباهى بدرره ومصوغاته، فكان في ذلك بعض ما حفظ للمعتمد آثاره وأخباره، فمن ذلك قوله يوم اعتقل:

إن يسلب القوم العدى ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ... أن لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص ... .. على الحشا شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ... ل وكان من أملي الرجوع
شيم الأُلى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

وقال المعتمد بعدما خلع وسجن:

قبح الدهر فماذا صنعا ... كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلماً بمن عادته ... أن ينادي كل من يهوي: لَعا
من إذا قيل الخنى صمَّ، وإن ... نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة ... جبرَ اللَّه العفاة الضيعا

ومن قوله متضرعاً:

مولاي أشكو إليك داء ... أصبح قلبي به قريحا
سخطك قد زادني سقاماً ... فابعث إليَّ الرضى مسيحا

ومن قوله يتصبر:

داوى ثلاثته، بلطف ثلاثة ... فثنى بذاك رقيبه لم يشعر

أســـراره بـتـســتــر، وأُوارُهُ بـتـصـبـر، وخـبـالـه بـتـوقـر[1]

بمثل هذه الروح الشاعرية التي لم تفارق المعتمد حتى في أشد ساعات الضيق والعسرة، كان المعتمد يمارس إدارة الحكم والدولة، وفي قصة استيلاء المعتمد على قرطبة غنى عن كل بيان. فقد استطاع المعتمد إعمال الحيلة والدهاء حتى أمكن له ضم (قرطبة) وأحوازها إلى مملكته، ثم صحب حاشيته ووزراءه إلى قصر قرطبة، فأمضى هؤلاء سحابة نهارهم في مراتع القصر وملاعبه، جنانه وحدائقه، حتى إذا أقبل المساء، وافاهم رسول المعتمد يحمل رقعة كتب عليها:

حَسَدَ القصرُ فيكم الزهراء ولَعَمْري وعَمْركم ما أساءَ

قد طلعتم بها شموساً صباحاً فاطلعوا عندنا بدوراً مساءَ

وأسرع أفراد الحاشية، ورجال القصر إلى الزهراء حيث كان ينتظرهم المعتمد في مجلسه الذي وصفه الوزير الفقيه أبو الحسين ابن سراج[2] بما يلي:

«سار الجميع إلى قصر البستان، بباب العطارين، فألفوا مجلساً قد حار فيه الوصف، واحتشد فيه اللهو والقصف، وتوقدت نجوم مدامه، وتأودت قدود خدامه، وأربى على الخورنق والسدير، وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير، فأقاموا ليلتهم ما عراهم نوم، ولا عداهم عن طيب اللذات سَوْم. **وكانت (قرطبة) منتهى أمل المعتمد، وكان روم أمرها أشهى عماله، وما زال يخطبها بمداخلة أهليها، ومواصلة واليها، إذ لم يكن في منازلتها قائد، ولم يكن إلا حيل ومكائد، لاستمساكهم بدعوة خلفائها، وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها، وحين اتفق له تملكها، وأطلعه فلكها، وحصل في قطب دائرتها، ووصل إلى تدبير رياستهها وإدارتها، فقال:**

مَنْ للملوك بشَأو الأصيْدِ البَطَلِ؟

هيهاتَ جاءتكُمُ مَهْدِيَةُ الدُّوَلِ

خطبتُ قرطبةَ الحسناء إذ مَنَعَتْ

من جاء يخطبها بالبيض والأسلِ

وكم غَدَت عاطلاً حتى عرضتُ لها

فأصبحتْ في سَرِيِّ الحلي والحللِ

(١) نفح الطيب ٤/ ٩٢ و٩٣ و٩٦ و٢٧٧.

(٢) نفح الطيب ١/ ٦٢٤ ـ ٦٢٧.

عِرْسُ الملوك لنا في قصرها عُرُسٌ
كل الملوك بها في مأتم الوجَلِ

فراقبوا عن قريب لا أبا لكم
هجوم ليث بدرع البأس مشتملِ

ولما انتظمت قرطبة في سلك المعتمد واتسمت بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، وولاه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نداه، وزاد على أمده ومداه، وجملها بكثرة حبائه، واستقل بأعبائها على فنائه، ولم يزل فيها آمراً وناهياً، غافلاً عن المكر ساهياً، حُسْنَ ظنٍ بأهلها اعتقده، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كفنه أهل قرطبة بدمائه، ودفنوه بذمائه، وكم من عرش ثلوه، وكم من عزيز ملك أذلوه، إلى أن ثار فيها (ابن عكاشة) ليلاً، وجرَّ إليها حرباً وويلاً، فبرز (الظافر بن المعتمد) منفرداً عن كماته، عارياً من حماته، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه، فإنه كان غلاماً كما بلَّلَهُ الشباب بأندائه، وألحفه الحسن بردائه، فدافعهم أكثر ليله، وقد منع منه تلاحق رَجْله وخيله، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعَا، ولا استقل منها ولا سعى، فترك ملتحفاً بالظلما، تحت نجوم السما، معفراً في وسط الحمى، تحرسه الكواكب بعد المواكب، ويستره الجنْدرسِ بعد السندس، فمر بمصرعه سَحَراً أحد أئمة الجامع المغلسين، فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى، وهو أعرى من الحسام المنتضى، فخلع رداءه عن منكبيه ونضاه، وستره به ستراً أقنع المجد به وأرضاه، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكر صَرعته، وسعر الحزنُ لوعته، رفع بالعويل نداءه وأنشد:

ولم أدْرِ من أَلقى عليه رِداءَهُ[1]

ولما كان الغد، حز رأس (الظافر بن المعتمد) ورفع على سن رمح، وهو يشرق كنار على علم، ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلما رمقته الأبصار، وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسووا للفرار أجنحتهم، فمنهم من اختار فراره وجلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه رجلاه. وشغل (المعتمد) عن رثائه بطلب ثأره، ونصب الحبائل لوقوع (ابن عكاشة) وعثاره، وعدل عن تأبينه، إلى

---

(١) صدر بيت لأبي خراش الهذلي، وعجزه:
(على أنهُ قَدْ سُلَّ عَنْ ماجدٍ مَحْضِ)

البحث عن مفرقه وجبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوعته شافية، إلا إشارته إليه في تأبين أخويه (المأمون والراضي) المقتولين في أول النائرة، والفتنة الثائرة» (عندما قام المرابطون بعزل المعتمد عن مملكته، وقتلوا ولديه).

* * *

وكان إحساس (المعتمد) المرهف، وروحه الشاعرية الرومانسية هما دليله في العمران، كما كان شأنهما في إدارة الملك، ومن ذلك ما ذكر عن (مدينة طريانة) الممتدة على شاطئ النهر الأعظم، في مقابلة النصف من حضرة (إشبيلية) والمشهورة بحماماتها وأسواقها الضخمة، حيث بنيت المدينة على تاج مطل على النهر، ومناظرها التي من جهة النهر، سن فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس لئلا تنبو العين عنها، ومن لا ينهض إلى ذلك فيبني من جهة الصحراء، ولا يترك يبني من جهة النهر، فجاءت بديعة فتانة المنظر، أكثر شراجيبها منقوشة مذهبة تخطف الأبصار، ويكون فيها من أصناف الطرب في الليالي القمرية ما هو مشهور في البلاد[1].

ومن حكايات (المعتمد) في تعامله مع الناس، ما ذكره (الحجاري) في كتاب (المسهب) حيث نقل عنه[2]: «. . . أهل إشبيلية أكثر العالم طنزاً وتهكماً، قد طبعوا على ذلك، وكان (المعتمد بن عباد) كثيراً ما يتستر، ويشاركهم في واديهم وفي مظان مجتمعاتهم، ويمازحهم، ويُصْقل صدأ خاطره بما يصدُرُ عنهم. ومر المعتمد ليلة بباب شيخ منهم مشهور بكثرة التندير والتهكم، يمزج ذلك بحرد يضحك الثكلى، فقال المعتمد لوزيره (ابن عمار): تعال نضرب على هذا الشيخ الساقط الباب، حتى نضحك معه. فضربا عليه بابه، فقال: من هو؟ فقال ابن عباد: إنسان يرغب أن تقد له هذه الفتيلة، فقال: والله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا الوقت ما فتحته. قال: فإني ابن عباد. قال: مصفوع ألف صفعة. فضحك ابن عباد حتى سقط إلى الأرض، وقال لوزيره: امض بنا قبل أن يتعدى القول إلى الفعل، فهذا شيخ ركيك. ولما كان من غد تلك الليلة، وجه له ألف درهم، وقال لموصلها يقول له: هذا حق الألف صفعة، متاع البارحة».

* * *

---

(١) **المغرب في حلى المغرب** تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر (ذخائر العرب، ١٠) ١٩٥٣م، ٢/ ٢٩٣.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٨٦، ٢٨٧.

ومما يروى عن (المعتمد) أيضاً أنه كان يتجول يوماً في أرجاء (إشبيلية) ومعه وزيره (ابن عمار) فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط، فكشفت عن وجهها، وتكلمت بكلام لا يقتضيه الحياء، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون به الجبس، والجيارين الصانعين للجير. فالتفت المعتمد إلى موضع الجيارين فقال: «يا ابن عمار، الجيارين». ففهم مراده، وقال في الحال: «يا مولاي، والجباسين». فلم يفهم الحاضرون المراد، وتحيروا. فسألوا ابن عمار، فقال له المعتمد: لا تبعها منهم إلا غالية. وتفسيرها أن ابن عباد صحف (الحَيا زين) بقوله: (الجيارين) إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت به. فقال: (والجباسين) وتصحيفه (الخنا شين) أي: هي وإن كانت جميلة بديعة الحسن، لكن (الخنا شانها)[1].

* * *

تلك لمحات عن (الشاعر المعتمد) تبرز بعض ما كان عليه أمره، في شدته ورخائه، في سلمه وحربه، في سياسته وإدارته، ويضيق المجال عن استيعاب أوابد المعتمد الشعرية، فله في كل فن من فنون الشعر آثار لا تمحى، وشواهد لا تبلى جدتها مع الأيام. وكما عاش المعتمد أديباً شاعراً فقد كان كل أهل بيته شعراء مجيدين، وهو ما يمكن ملاحظته في مجريات البحث. ومن الطبيعي أن تتحول قصور بني عباد إلى منتديات يلتقي فيها الأدباء والشعراء، ويقصدها المبدعون والفنانون، لا من دنيا الأندلس العربية الإسلامية وحدها وإنما من كل أرجاء العالم العربي الإسلامي، فكان ذلك تاجاً رفعه بنو عباد فوق تاج الملك والسلطان.

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٢٦٠.

٢ ـ الشعراء والمعتمد

لقد عرف بلاط المعتمد في إشبيلية مجموعة من الأدباء والشعراء، قلما توافر مثلهم في بلاد أمير من الأمراء أو ملك من الملوك، فازدانت بهم سماء الأندلس الإسلامية وأشرقت، لم يكن أقلهم «أبو بكر بن اللبانة»[1]، أو ذو الوزارتين «أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي ـ من بني مخزوم»[2]، صاحب الحديث الشهير والقصة المعروفة مع ولادة بنت المستكفي أمير قرطبة، وكذلك (الوزير ابن عبدون) والشاعر (ابن وهبون) و«أبو العرب الصقلي» و(ابن همديس) و(أبو الوليد حسان بن المصيصي) وكثير غيرهم. وجدير بالذكر أن (المعتضد ـ والد المعتمد) قد سار على النهج ورسم الطريق، إذ كان شاعراً، وكان قصره منتدى الشعراء ومقصدهم. وجاء أبناء (عباد المعتمد) فساروا في النهج ذاته

---

(١) وردت ترجمته في (**المغرب في حلى المغرب**) تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر (**ذخائر العرب**، ١٠) ١٩٥٣، ٢/٤٠٩ ما يلي: (أبو بكر محمد بن عيسى المشهور باللبانة) كان شاعراً يتصرف، وقادراً لا يتكلف، مرصوص المباني، منمق الألفاظ والمعاني، وكان من امتداد الباع، والانفراد والانطباع، كالسيف الصقيل الفَرَد، توحد بالإبداع وانفرد. وذكر أن أمه كانت تبيع اللبن، وأخبر بوفائه مع المعتمد بن عباد، وتوجعه لدولته حين خلع عن ملكه. ترجم له (ابن بسام) في **الذخيرة** (النسخة المخطوطة) بالقسم الثالث الورقة ١٠٥، **والفتح في القلائد** ص٢٤٥، والمراكشي في **المعجب** ص١٠٤، وابن دحية في المطرب الورقة ١٣٤، وابن الآبار في **التكملة** ص١٤٥ وقال: من جلة الأدباء وفحول الشعراء. وله كتاب: «**سقيط الدرر ولقيط الزهر**». توفي بميورقة ـ جزر الباليئار، سنة ٥٠٧هـ. ودفن بإزاء «أبو العرب الصقلي»، وهو أحد أربعة أدار عليهم (ابن سناء الملك) اختياراته من موشحات الأندلس».

(٢) وردت ترجمته في «**المغرب في حلى المغرب**» ١/٦٣: «زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية الذي بهر في نظامه، وظهر كالبدر ليل تمامه، فجاء من القول بسحر، وقلده أبهى نحر، لم يصرفه إلا بين ريحان وراح، ولم يطلعه إلا في سماء مؤانسات وأفراح، ولا تعدى به الرؤوساء والملوك، وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها، وحل من عينها مكان إنسانها.. حتى وقع له طلب أصاره إلى الاعتقال.. فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه.. وحصل عند المعتضد بالله بن عباد كالسويداء من الفؤاد.. وولي ولده بعده وزارة المعتمد بن عباد».

وبأبيهم وبجدهم من قبله اهتدوا، فرفدوا الأدب الأندلس خاصة بمعين ثر لا ينضب، وتركوا للدنيا تراثاً ضخماً تتجاوز أهميته ما هو معروف من التقويم الأدبي، من جودة المعاني وروعة المباني، لتصل إلى حد كونها وثائق تاريخية، تسجل بدقة وأمانة حياة الأندلس الإسلامية في تلك الحقبة التاريخية المضطربة.

والمهم في البحث هنا، هو أن إخلاص المعتمد للشعراء وحبه لهم، ورعايته لمجالسهم، قد أكسبه حبهم له فبادلوه وفاء بوفاء، إلا قلة منهم، فانطلقت ألسنتهم تلهج بذكر ذلك المغدور به، المعتمد، وتصور مأساته، بعاطفة صادقة جياشة، فكان في ذلك خلود (المعتمد) ملكاً وشاعراً وإنساناً.

كان الشاعر (أبو اللبانة) من أكثر الناس تأثراً بالنازلة التي نزلت بساحة المعتمد، فما إن عرف بنقل المعتمد وعائلته إلى (أغمات) حتى أسرع يقطع البحر للقاء مولاه، وجرى بين (الشاعرين) لقاء وصفه أبو اللبانة بقوله:

«وجرت بيني وبين المعتمد مخاطبات ألذ من غفلات الرقيب، وأشهى من رشفات الحبيب، وأدل على السماح من فجر على صباح».

وكان تأثر (أبو اللبانة) كبيراً تعرضت له المصادر العربية بما يلي:

«زار الأديب أبو بكر بن اللبانة المعتمد في سجنه، وكان أحد شعراء دولته، المرتضعين دِرَرَها، المنتجعين دُرَرَها، وكان المعتمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يميزه بالشغوف والإحسان، ويجوزه في فرسان هذا الشأن، فلما رآه وحلقات الكبل - القيد - قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم، بعدما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، وتكِفُ الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيه لوعة الحارث بن عُباد، أبدع من أناشيد مَعْبَد، وأصدع للكبد من مراثي أرْبد، أو بكاء ذي الرُّمة بالمربد، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحباً، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً، فمن ذلك قوله:

انفض يديك من الدنيا وسكانها
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كَتَمَتْ
سريرةَ العالم العلوي أغماتُ

دَرَوْهُ لـيـثـاً فـخـافـوا مـنـه عـاديـةً
عـذرتـهـم، فـلـعـدو الـلـيـث عـاداتُ
لـو كـان يُـفْـرَجُ عـنـه بـعـض آونـة
قـامـت بـدعـوتـه حـتـى الـجـمـاداتُ
بـحـر مـحـيـط عـهـدنـاه تـجـيء لـه
كـنـقـطـة الـدارة الـسـبـعُ الـمـحـيـطـاتُ
لـهـفـي عـلـى (آل عـبـاد) فـإنـهـمُ
أهـلـةٌ مـا لـهـا فـي الأفـق هـالاتُ
راح الـحـيـا وغـدا مـنـهـم بـمـنـزلـة
كـانـت لـنـا بـكـرٌ فـيـهـا ورَوْحـاتُ

ويذكر (ابن اللبانة) أبناء المعتمد الأربعة وهم: الرشيد عبيد الله، والراضي يزيد، والمأمون والمؤتمن، وهم الذين طالما أحبهم وأحبوه، فرثاهم في قصيدة طويلة، جاء فيها وهو يخاطب المعتمد:

يـغـيـثـك فـي مـحْـلٍ، يـعـيـنـك فـي ردى
يـروعـك فـي درع، يـروقـك فـي بُـردِ
جـمـالٌ، وإجـمـالٌ وسـبـقٌ وصـولـةٌ
كشمس الضحى، كالمزن، كالبرق، كالرعد
بـمـهـجـتـه شـاد الـعـلا ثـم زادهـا
بـنـاء بـأبـنـاء جـمـاجـمـة لُـدِّ

وتمضي سنتان والمعتمد في سجنه، غير أن ذكراه تبقى حية قوية في نفس (ابن اللبانة) فيقول في سنة (٤٨٦هـ) قصيدة طويلة، يذكر فيها (المعتمد) رهين السجن في (أغمات) منها:

تـنـشـق بـريـحـان الـسـلام فـإنـمـا
أفـضـى بـه مـسـكـاً عـلـيـك مـخـتـمـا
وقـل لـي مـجـازاً، إن عـدمـت حـقـيـقـةً
لـعـلـك فـي نـعـمـى، فـقـد كـنـت مـنـعـمـا
لـئـن عـظـمـت فـيـك الـرزيـة، إنـنـا
وجـدنـاك مـنـهـا فـي الـرزيـة أعـظـمـا

قناة سعت للطعن حتى تقسمت
وسيفٌ أطال الضرب حتى تثلما
وكنا رعينا العِزَّ حول حماهُمُ
فقد أجدبَ المرعى وقد أقفر الحمى
حكيتَ وقد فارقت ملكك مالكاً
ومن وَلَهي أحكي عليك متمما
مصابٌ هوى بالنيرات من العلا
ولم يُبقِ في أرض المكارم مَعْلما
تضيقُ عليَّ الأرضُ حتى كأنما
خلقتُ وإياها سواراً ومعصما
وحار ابنك الإصباح وجداً فما اهتدى
وغار أخوك البحر غيضاً فما طمى
وما حلَّ بدر التمِّ بعدك دارةً
ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما
قضى اللَّه أن حطوك عن ظهر أشقرٍ
بشم وإن أمطوك أشأمَ أدهما

ويعلم (ابن اللبانة) أن القيود قد فكت عن (المعتمد) فيشير إلى ذلك بقوله:

قيودكَ ذابت فانطلقتَ لقد غدت
قيودكَ منهم بالمكارم أرْحَما

ويمضي المعتمد أيامه، تندبه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زواره ولا عواده، أسفاً تتصعد زفراته، وتطَّرد أطِّراد المذانب عبراته، لا يخلو بمؤانس، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكانس، ولما لم يجد سلواً، ولم يؤمل دنواً، ولم ير وجه مسرة مجلُواً، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه، وإظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسه وسماره.

وكان القصر الزاهي من أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالزهر والزيتون، وكان له به من الطرب، والعيش المزري بحلاوة الضَّرَب، ما لم يكن بحلب لبني حمدان، ولا لسيف بن ذي يَزَن في رأس غُمدان. وكان كثيراً ما

يدير به راحه، ويجعل فيه انشراحه، فلما امتد الزمان إليه بعُدوانه، وسد عليه أبواب سلوانه، لم يحنَّ إلا إليه، ولم يتمنَّ غير الحلول لديه، فقال:

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ
سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتندبه البيضُ الصوارمُ والقنا
وينهلُّ دمعٌ بينهن غزيرُ
مضى زمنُ والملك مستأنسٌ به
وأصْبَحَ منه اليومَ وهوَ نفورُ
برأي من الدهر المضلَّلِ فاسدٍ
متى صلحتْ للصالحين دهورُ
أذلَّ بني ماء السماء زمانُهُم
وذُلُّ (بني ماء السماء) كبيرُ
فيا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
أمامي وخلفي روضةٌ وغدير
بمُنبتة الزيتون مورثةِ العُلا
تغنِّي حَمامٌ أو ترنُّ طيورُ
بزاهرها السامي الذي جاده العُلا
تشير الثُريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده
غيورين والصب المحبُ غيورُ
تراه عسيراً لا يسيراً منالُهُ
ألا كلُّ ما شاء الإلهُ يسيرُ[1]

وكان (ابن اللبانة) بين يدي الرشيد بن المعتمد في مجلس أُنسه يوم ورد إليه خبر استيلاء (يوسف بن تاشفين) على غرناطة سنة (٤٨٣هـ) فتفجع وتلهف، واسترجع وتأسف، وذكر قصر غرناطة، فدعونا لقصره بالدوام، ولملكه بتراخي الأيام، وأمر عند ذلك «أبو بكر الإشبيلي» بالغناء، فغنى:

---

(١) نفح الطيب ٤/٢٥٦ ـ ٢٥٨ و٢٧٤، ٢٧٥.

يـا دار مـيـةَ بـالـعـلـيـاء فـالـسـنـدِ
أقْـوَتْ وطـال عـلـيـهـا سـالـفُ الأمـدِ

فاستحالت مسرته، وتجهمت أسِرَّته، وأمر بالغناء من ستارته، فغنى:

إن شـئـت أن لا تـرى صـبـراً لـمـصْـطـبـرٍ
فـانـظـر عـلـى أي حـال أصـبـح الـطَّـلَـلُ

فتأكد تطيره، واشتد اربداد وجهه وتغيره، وأمر مغنية أخرى من سراريه بالغناء، فغنت:

يـا لـهـف نـفْـسـي عـلـى مـال أفـرقـه
عـلـى الـمـقـلـيـن مـن أهـل الـمـروءاتِ
إنَّ اعـتـذاري إلـى مـن جـاء يـسـألـنـي
مـا لـسـتُ أمـلـك مـن إحـدى الـمـصـيـباتِ

وهنا تدخل (ابن اللبانة) فقال:

مـحـلُّ مـكـرمـة لا هُـدَّ مَـبْـنـاه
وشـمـلُ مـأثـرةٍ لا شـتـت الـلَّـهُ
الـبـيـت كـالـبـيـت لـكـن زاد ذا شـرفـاً
أن الـرشـيـدَ مـع الـمـعـتـمـد ركـنـاهُ
ثـاوٍ عـلـى أنـجـم الـجـوزاء مـقـعـده
وراحـلٌ فـي سـبـيـل الـسـعـد مـسـراهُ
حتم على الملك أن يقوى وقد وصلت
بـالـشـرق والـغـرب يـمـنـاه ويُـسـراهُ
بـأسٌ تـوقـد، فـاحـمـرتْ لـواحِـظُـهُ
ونـائـلٌ شـبَّ، فـاخـضـرت عـذاراهُ

تلك هي بعض قصة شاعر بلاط المعتمد بن عباد، وذلك هو بعض ما قاله (ابن اللبانة) في المعتمد، وآل المعتمد. إنها قصة الإعجاب بالفضائل التي انفرد بها (المعتمد) وأهله بقدر ما هي قصة الوفاء لمن هم أهل للوفاء، ولم تكن هذه القصة الشعرية على كل حال هي القصة الوحيدة، التي حفل بها بلاط المعتمد في علاقته مع الشعراء[(١)].

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٩٥ و٩٩.

لقد اشتهر (وزير المعتمد ـ أبو الوليد بن زيدون) بأنه شاعر الغزل، وشاعر ولادة، غير أن ابن زيدون هذا، رغم ما اشتهر به من عدم الوفاء إلا لنفسه، فقد كان وفياً مع المعتضد ثم مع ابنه المعتمد بسبب ما عرفه عنهما وعن بلاطهما من الفضائل العربية ـ الإسلامية الأصلية، فقال في المعتمد، مخاطباً له:

مهما امتدحتُ سواك قبل فإنما
مدحي إلى مدحي لك استطرادُ
تغشى الميادين الفوارسُ حقبةً
كيما يعلمها النزالُ طرادُ

وكان (ابن زيدون) قد رثى (المعتضد) وامتدح (المعتمد) بقصيدة طويلة، جاء فيها:

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهرُ
فمن شيم الأحرار في مثلها الصبرُ
ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة
فلا تؤثر الوجْهَ الذي معه الوزرُ
حذارك من أن يعقب الرزء فتنةٌ
يضيق بها عن مثل إيمانك العذرُ
إذا آسف الثكل اللبيب فشفهُ
رأى أفدح الثكلين أن يذهب الأجرُ
هناك التُّقى والعلم والحلم والنهى
وبذل اللها والبأس والنظم والنثرُ
همامٌ إذا لاقى المناجز رَدَّهُ
وإقبالُهُ خطرٌ وإدباره حصرُ
عطاءٌ ولا مَنٌّ، وحكم ولا هوى
وحلمٌ ولا عجزٌ، وعزٌ ولا كبرُ
قد استوفت النعماءُ فيك تمامها
علينا فمنا الحمد للّه والشكرُ

وإذن، فقد كانت فضائل (المعتمد) وما عُرف عن (بني عباد) من الالتزام بالقيم هي التي أرغمت (ابن زيدون) على التكيف مع هذا الوسط، والتخلي عن بعض ما هو مطبوع فيه من الخصال غير الحميدة، مثل عدم الوفاء. وكان

أسلوب المعتمد، ومن قبله أبوه المعتضد، في إدارة الملك والدولة، وفي التعامل مع رجال الدولة خاصة، وجماهير الشعب عامة، من العوامل التي أسهمت يقيناً في دفع (ابن زيدون) إلى احترام الفضائل التي كان (بنو عباد) من أصحابها وروادها. ويذكر هنا أن المعتمد كتب مرة إلى (ابن زيدون):

قصرتُ في نظمي فاعذر فَمن
ضاهاكَ في التقصير معذورُ
فأنت، إن تنظم وتنثر فقد
أعْوزَ منظومٌ ومنثورُ
لا يَعْدُكُمْ روضٌ من الحظ في الـ
إكرام والترفيع ممطورُ

فكتب إليه (ابن زيدون) قصيدة طويلة منها:

حظي من نعماك موفورُ ... وذنب دهري بك مغفورُ
وجابني إن رامه أزمة ... حجرٌ لدى ظلكَ محجورُ
يا ابنَ الذي سربُ الهدى آمنٌ ... منذ انبرى يحميه مخفورُ
وآمر الدهرِ الذي لم يزل ... يُصغي إليه منه مأمورُ
ألبس منك الدهر أسنى الحِلى ... بظافر منحاهُ منصورُ
يا مرويَ المأثورِ يا من له ... مجدٌ مع الأيام مأثورُ
يا آل عباد مُوالاتكم ... زاكٍ من الأعمال مبرورُ
إن الذي يرجو موازاتكم ... من المناوين لمغرورُ
مكانه منكم كما انحطَّ عن ... منزلةِ المرفوع مجرورُ
لا زلتم في غبطة ما انجلى ... عن فَلَقِ الإصباحِ ديجورُ
ولا يزل يَجري بما شئتم ... أعمارَكُم للَّه مقدورُ

وقد كان (للمعتمد) كما كان لأبيه (المعتضد) من قبله قصص طريفة، وحكايات حلوة مع الأدباء والشعراء، وهي تبرز فضل (بني عباد ـ أحفاد المنذر بن ماء السماء) في نشر اللغة العربية في الأندلس ودعم مكانتها، حتى أقبل اليهود والنصارى على تعلمها وإتقانها، بل وحتى قرض الشعر فيها.

ومما حفظ التاريخ الأندلسي (للمعتضد) حكايته مع الشاعر (ابن جاخ) الذي ورد على المعتضد، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء، فسألوه، فقال: إني شاعر. فقالوا: أنشدنا من شعرك، فقال:

إني قصدت إليكَ يا عبادي	قصد القليقِ بالجري للوادي

فضحكوا منه، وازدَرَوْهُ، قال بعض عقلائهم: دعوه، فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء، ويندرج في سلكهم. فلم يبالوا بكلام هذا الرجل، وتنادروا على المذكور، فبقي معهم. وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيرهم، وربما كان يوم الإثنين، فقال بعض لبعض: هذه شنعة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، ويجترئ على الدخول معنا. فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس (المعتضد)، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسماً لعلة إقدام مثله عليهم. فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان في مجلسه، ونصب الكرسي لهم، رغبوا أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم، فأُمر بذلك، فصعد الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدم، فقال:

قطَّعْت يا يومَ الندى أكبادي	وحَرمْتَ عن عيني لذيذ رُقادي
وتركتني أرعى النجوم مسهَّداً	والنار تُضْرم في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أليةً	لا يَنجَلي إلّا إلى ميعادِ
يا بينَ بَينَ أينَ تقتاد النوى	إبلُ الذين تحملوا بُسعادِ
ولرب خرقٍ قد قطعت نياطَهُ	والليلُ يرفل في ثياب حِدادِ
بشملةٍ حَرْفٍ كأنَّ ذَميلَها	سُرُحُ الرياح وكلُّ برقٍ غادي
والنجم يحدوها وقد ناديتها	يا ناقتي عوجي على عبَّادِ
ملك إذا ما أضرمت نار الوغى	وتلاقت الأجناد بالأجنادِ
فترى الجسومَ بلا رؤوسٍ تنثني	وترى الرؤوس لقى بلا أجسادِ
يا أيها الملك المؤمَّلُ والذي	قدماً سما شرفاً على الأندادِ
إن القريضَ لكاسدٌ في أرضنا	وله هنا سوقٌ بغير كسادِ
فجلبتُ من شعري إليكَ قوافياً	يغني الزمانُ وذكرها متمادي
من شاعر لم يضطلع أدباً ولا	خطت يداهُ صحيفة بمدادِ

فقال المعتضد: أنت الجاخ؟ فقال: نعم. فقال: اجلس، فقد وليتك رئاسة الشعراء. وأحسن إليه، ولم يأذن في ذلك اليوم لأحد بعده.

ومثل تلك القصة، كقصة (المعتمد) مع الشاعر «أبو العرب الصقلي» الذي حضر مجلس المعتمد يوماً، وقد احتفل في ذلك اليوم بتنضيد المجلس، وإحضار الطرائف الملوكية، وكان في الجملة تمثال جمل من بلور، وله عينان

من ياقوتتين، وقد حلي بنفائس الدر. فأنشده (أبو العرب) قصيدة، فأمر له بذهب كثير مما كان بيده من السكة الجديدة، فقال معرضاً بذلك الجمل: ما يحمل هذه الصلة إلا جمل! فقال المعتمد: خذ هذا الجمل، فإنه حمال أثقال. فارتجل (أبو العرب) شعراً منه:

أهديتني جملاً جوناً شفعتَ بهِ
حملاً من الفضة البيضاء لو حملا
نتاج جودكَ في أعطانِ مكرمةٍ
لا قد تصرف من منعٍ ولا عقلا
فأعجب لشأني، فشأني كله عجبٌ
رفهتني فحملتُ الحمل والجملا[1]

لقد بقيت لغة (الشعر) هي اللغة الرسمية في بلاط (بني عباد) حتى لم يعد هناك من حدث، كبر أو صغر، إلا وكان للشعر فيه مجال، والشواهد هنا كثيرة ولا حصر لها، مثال ذلك ما ذكر من أخبار المعتمد، أنه جلس يوماً، والبزاة تعرض عليه، فاستحث الشعراء في وصفها، فصنع (ابن وهبون) بديهاً:

للصيدِ قبلك سنة مأثورة — لكنها بكَ أبدع الأشياءِ
تمضي البزاة وكلما أمضيتها — عاطيتها بخواطِرِ الشعراءِ

ويحكى أن رجلاً رأى في منامه إثر النازلة التي نزلت بالمعتمد ابن عباد، كأن رجلاً صعد منبر جامع قرطبة، فاستقبل الناس، وأنشد هذه الأبيات متمثلاً:

ربَّ ركب قد أناخوا عيسهم — في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زماناً عنهم — ثم أبكاهم دماً حين نطق

يمكن بعد ذلك التوقف عند الشاعر أبو عبد الله محمد بن عُبادة، المعروف بابن القزاز[2]، وهو شاعر الغزل والموشحات، والذي وقف بين يدي (المعتمد بن عباد) وقد جرحت كفه يوم الزلاقة وقال فيه:

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٢٤٣، ٢٤٤ و٢٦٠، ٢٦١.

(٢) المغرب في حلى المغرب ٢/ ١٣٤، ١٣٥، وفيه: «أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ـ ترجم له ابن بسام ـ في الذخيرة ـ المجلد الثاني من القسم الأول ص٢٩٩، وقال: من مشاهير الأدباء الشعراء، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس. وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز، ورقم ديباجه، ورصع تاجه، وألفاظه في التوشيح شاهدة له بالتبريز والشفوف».

ثناؤك ليس تسبقه الرياحُ ... يَطِيرُ ومن نداك له جناحُ
لقد حَسُنت بك الدنيا وشَبَّتْ ... فَغَنَّتْ وهي ناعمة رداحُ
تطيبُ بذكرك الأفواه حتى ... كأنَّ رُضابَها مِسْكٌ وراحُ
ملكتَ عنانَ دهرِك فهو جارٍ ... كما تَهْوى فليس له جماحُ
جلبتَ إلى الأعادي أُسْدَ غابٍ ... براثنها الأسِنَةُ والصِفاحُ
وقفتَ وموقف الهيجاء ضنكٌ ... وفيه لباعِك الرَّحب انفساحُ
وألسِنَةُ الأسِنَّةِ قائلاتٌ ... إذا ظَهَرَ المؤَيَّدُ لا بَراحُ
وقالوا كفُّهُ جرحت فقلنا ... أعاديه توافِقُها الجراحُ
وما أثَرُ الجِراحة ما رأيتم ... فتوهِنها المناصِلُ والرماحُ
ولكن فاض سيل الجود فيها ... فأمسى في جوانبها انسياحُ
وقد صَحَّتْ وسَحَتْ بالأماني ... وفاضَ الجودُ منها والسماحُ

ثم ها هو الشاعر أبو بحر يوسف بن عبد الصمد[1] يسير في ركاب الشعراء، ويهتز لما نزل بالمعتمد بن عباد من نكبة على أيدي المرابطين، فيرثيه بدموع حارة عبَّر عنها بما يلي:

عزمٌ تضيقُ بجيشه البيداء ... ومنى أقلُّ مَرَامِها الجوزاءُ
وصرامة لو أنها لي لأمَةٌ ... لم تمضِ فيها الصِّعدة السمراءُ
في عفةٍ أصْبَحَتْ مقسومة ... في الناس لم تَتَلَفَّع الحسناءُ
فلتلحظ الغِزلان، ولتتمايل الأ ... فنانُ، ولتترنح الأنقاءُ

وأخيراً، لا بد من الإشارة إلى تلك الحركة المضادة للمرابطين، والتي اجتاحت الأندلس، فوجدت تعبيراً لها على ألسنة الشعراء، من أمثال «أبو بكر يحيى بن سهل اليكي»[2] الذي قال:

---

(١) المغرب في حلى المغرب ٢/ ٢٠٣، ٢٠٤ وفيه: «أبو بحر يوسف بن عبد الصمد، ترجم له ابن بسام ـ في الذخيرة ـ النسخة المخطوطة ـ في القسم الثالث ـ الورقة ١٢٦ ـ وقال: هؤلاء الصمديون قوم من ذوي الهيئات، متقدمون في الكتابة وأداوت أهل النباهات. وذكر ابن بسام أنه من ولد السمح بن مالك بن خولان، أحد سلاطين الأندلس، من ولاة الفتح قبل قيام الدولة الأموية بالأندلس. ونشأ أبو البحر كاسمه في نثره ونظمه.

(٢) المغرب في حلى المغرب ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨، وفيه: «أبو بكر يحيى بن سهل اليكي. هجاء المغرب. هو ابن رومي عصرنا، وحُطيئَةُ دهرنا، ترجم له الضبي ـ من المسهب ـ في **البغية** ص٤٨٨ ـ وقال: شاعر تصرف في فنون، وتعرف حتى بالضب والنون، خبيث الهجاء». وذكره ابن دحية في ـ **المطرب** ـ الورقة ٩٥. انظر: **معجم البلدان** ـ لياقوت ـ في فاس، حيث روى له أشعاراً في هجائها.

في كلِ من ربط اللثامَ دناءة ... ولو أنه يعلو على كيوانِ
ما الفخر عندهُم سوى أن يُنقلوا ... من بطن زانية لظهر حصانِ
المنتمون لحِمْيَر لكنهم ... وضعوا القرون مواضع التيجانِ
لا تطلبن مرابطاً ذا عِفَةٍ ... واطلب شعاع النار في الغُدرانِ

وكذلك قوله:

إن المرابط لا يكون مرابطاً ... حتى تراهُ إذ تراهُ جبانا
تجْلُو الرعيَّة من مخافة جَوْره ... لجلائه إذ يلتقي الأقرانا
إن تظلمونا ننتصف لنفوسنا ... يجني الرِّجالُ فنأخذ النسوَانا



الفَصْلُ الرَّابع

المعتمد وتجربته التاريخية

١ ـ المعتمد والسياسة الاستراتيجية
٢ ـ الزلاقة وإدارة الحرب
٣ ـ الزلاقة وموقعها في التاريخ
٤ ـ كلمة أخيرة



المعتمد وتجربته التاريخية

لعل العرض السابق ـ على إيجازه ـ وبما تضمنه من نثر وشعر، ومواقف ومقولات، هو عرض كاف لإبراز معالم التجربة التاريخية، التي بدأت بتعاون أكبر شخصيتين قياديتين عرفهما المغرب والأندلس مع نهاية القرن الخامس للهجرة ـ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، ثم انتهى ذلك التعاون، بعد معركة الزلاقة، بالقضاء على مملكة بني عباد في جملة ممالك الطوائف التي أزالها حكم المرابطين، بهدف تأمين وحدة القيادة سياسياً وإدارياً وعسكرياً. وفي الواقع فإن التعاون بين المغرب العربي الإسلامي والأندلس، لم يتوقف في يوم من الأيام، كما أنه استمر بعد ذلك، في عهد الموحدين أبناء عبد المؤمن، ثم في عهد ملوك بني نضر أو بني الأحمر في غرناطة، غير أن تجربة المعتمد تعتبر نموذجاً مميزاً ضمن المجرى التاريخي لهذا التعاون.

وبإيجاز: لقد تم فتح الأندلس بفضل المجهود المشترك للمسلمين من عرب وبربر خاصة، وكافة العروق والأجناس التي انضوت تحت راية الإسلام عامة. وأعقب الفتح مرحلة من الركود أو الجمود، عادت فيها النعرة البربرية، أو العصبية الجاهلية، بتعبير أكثر دقة، إلى الظهور. وكان موقف البربر حديثي العهد بالإسلام، مماثلاً لموقف الفرس، الذين قال قائلهم لـ«أبو موسى الأشعري» في معركة (يوم السوس) سنة (١٧هـ) ما يلي:

«لسنا مثلكم في هذا الدين، ولا بصائرنا كبصائركم، ولم تلحقنا بأشرف العطاء»[١].

---

(١) تاريخ الطبري (ذخائر العرب، ٣٠) ٤/ ٩٠، وتتلخص قصة هذه المقولة بأن أبا موسى الأشعري لاحظ تلكؤ (سياه) الفارسي وجنوده في القتال إلى جانب المسلمين العرب فقال له أبو موسى: يا أعور، ما أنت وأصحابك كما كنا نرى! فقال له (سياه)، ما سبقت الإشارة إليه: لسنا مثلكم في هذا الدين. . . فكتب أبو موسى بذلك للخليفة عمر الذي أجابه: ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء، وأكثر شيء أخذه أحد من العرب. فطابت بذلك نفوس (الفرس) وأحسنوا البلاء.

ولقد زاد انقسام الولاة العرب وصراعهم بعضهم ضد بعض من حدة الأزمة، واشتداد العصبية الجاهلية، حتى إذا جاء الحكم الأموي (عبد الرحمٰن الداخل ـ صقر قريش) أمكن له القضاء، ظاهرياً على الأقل، على النزعات القبلية ـ العربية والبربرية، وتوطدت السيادة العربية ـ الإسلامية على الأندلس، ولم يكن معنى ذلك إضعاف الوجود البربري في دولة الأندلس، بقدر ما كان يعني الاندماج في الدولة، حتى إذا ما ضعف أمر الدولة الأموية بزوال حكم الحاجب المنصور، عادت العصبية البربرية للظهور، فكان ملوك بعض الطوائف المستقلة من البربر.

وعندما ضعفت هذه الممالك، وجاء حكم (المرابطين) أُزيلت كل ممالك الطوائف، وكانت في معظمها قد تعربت، فاعتبر الأندلسيون من عرب وبربر أن هذه الموجة غريبة عنهم، ضعيفة الروابط بهم، لا سيما وأن الحكم في هذه الموجة لم يضع باعتباره الظروف المحلية التي وصلت إليها ممالك الأندلس من التطور، وكان من نتيجة ذلك شعور المرابطين بنوع من العزلة، الأمر الذي دفعهم لفرض وجودهم بالقوة، وهو الأمر الذي تؤكده كافة الشواهد المتوافرة. غير أن هذا الحكم لم يستمر طويلاً على كل حال، وجاء الموحدون فانتهجوا سياسة أكثر اعتدالاً تجاه الأندلسيين، وقد أدى ضعف هؤلاء بعد ذلك إلى الاندماج في بوتقة مسلمي الأندلس، ثم جاء تعاظم التهديد الخارجي وغزو نصارى الشمال باستمرار للجنوب الإسلامي، إلى زيادة التلاحم بين المسلمين من عرب وبربر، وحتى لتكاد النزعة العصبية تزول تماماً، ويختفي كل أثر لها، وأصبحت راية الجهاد المرفوعة باستمرار هي الرباط القوي الذي أزال رواسب العصبية الجاهلية.

أدى تصعيد الحرب الصليبية في زيادة تلاحم المسلمين في المشرق والمغرب، وفي هذا الإطار أدرك الأندلسيون (وبصورة خاصة ملوك غرناطة ـ بنو الأحمر) أنه من المحال عليهم مجابهة ثقل الهجمة الصليبية الشاملة بقدرات ما بقي من الأندلس المعزولة. فكان أبناء المغرب العربي ـ الإسلامي هم حملة راية الجهاد، وعرف (مضيق المجاز) حركة هياج مستمرة في التنقل بين عدوتي الأندلس والمغرب للدفاع عن مسلمي الأندلس، وظهرت الدولة المغربية (فاس والمغرب) كقاعدة استراتيجية لدعم الأندلس.

ولعل أوضح من أبرز هذا الاتجاه هو لسان الدين الخطيب، وزير بني

الأحمر، الذي كتب إلى سلطان (فاس والمغرب) رسائل كثيرة، يستنهض همته للجهاد، ومنها ما جاء في رسالته التالية:

«... أننا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رمينا بجواره، وبلينا والحمد لله بمصادمة تياره، على تعداد أقطاره، واتساع براريه وبحاره، بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق، وأسواق النِفاق غير ذات نفَاق، والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق، فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عَقد، ووقع بينهما في قبول الطاعة رد، ساءنا واقعه، وعظمت لدينا مواقعه، وسألنا أن يتدارك الخرق راقعه، لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا، وتفرغ العدو إلى ضرنا، فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وقطرنا، إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت، وحادثة إلى جهتنا أشرعت، وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها، وعلى وطننا يعود جناها، فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها، وأسعى في إصلاح فسادها... وما الظن بدار فسد بابُها، وجزيرة لا تستقيم أحوال من بها إلا بالسكون.. حتى تقضى منه بإعانتكم الديون، وإن اضطرابها إنما هو داء، نستنصر من رأيكم فيه بطبيب.. ونحن فيه يد أمام يدكم، ومقصدنا فيه تبع لقصدكم، وتصرفنا على حد إشارتكم جارٍ، وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم مُتبارٍ»[1].

إن إمعان النظر في النص السابق، على قصره، يؤكد مجموعة من الحقائق، لعل من أبرزها:

أولاً: ذلك التلاحم الوثيق بين الأندلس وبين المغرب العربي ـ الإسلامي، باعتباره القاعدة الإسلامية الصلبة للأندلس، وعلى اعتبار أنه يشكل العمق الجيو ـ استراتيجي للأندلس، وفقاً للمصطلحات الحديثة، الأمر الذي يفرض تنسيق التعاون باستمرار، وهو ما أشار إليه لسان الدين الخطيب بقوله: «بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق».

ثانياً: إنه من المحال على الأندلس، بقدراتها وإمكاناتها، احتمال ثقل الهجمة الشرسة التي تداعت إليها أمم النصرانية من كل حدب وصوب، وهو ما أشار إليه أيضاً لسان الدين الخطيب بقوله: «بلينا، والحمد لله، بمصادمة تيار الكافر، على تعداد أقطاره واتساع براريه وبحاره».

ثالثاً: إن إدراك هذه الحقائق قد فرض بدوره على الأندلسيين وعلى المغاربة،

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٤٤٠.

سواء بسواء، أن يكون تنسيق التعاون مخلصاً، وعلى أسس واضحة وصريحة، من أجل حماية مصالح المسلمين والدفاع عنهم، وهو ما أشار إليه لسان الدين الخطيب بقوله: «بأن تكون الأمة المحمدية بالعدوتين تحت وفاق، وأسواق النفاق غير ذات نَفَاق، والجماهير تحت عهد الله تعالى وميثاق». وإذن، فإن تنسيق التعاون قد أخذ شكل مواثيق محددة في التزاماتها ومسؤولياتها، حتى لا تكون في غير مصلحة المسلمين الذين يتم الدفاع عنهم، والذين تقع مسؤولية حمايتهم أمام الله على عاتق الحكام، وهم حملة أمانة الأمة ورعاتها لضمان أمنها وسلامتها أمام كل عدوان خارجي، أو كل جور داخلي.

رابعاً: إن اهتمام الأندلسيين بأمنهم قد حملهم على الاهتمام بأمن قاعدتهم الخلفية في عدوة المغرب، وإرساء قواعد هذا الأمن على أسس ثابتة، بموجب عقد، مع إظهار الحرص الشديد على عدم ظهور أي خلاف وعدم إتاحة الفرصة لعناصر الفساد والإفساد، من أجل إحداث خرق، وبذل كل جهد مستطاع عند ظهور مثل هذا الخرق لسد الثغرة وإصلاح الأمور بأسرع ما يمكن حتى لا يتسع الخرق؛ إذ أن كل اضطراب يحدث في المغرب، ينعكس بصورة حادة على جبهة الصراع في الأندلس، وهو الأمر الذي تبرزه بصورة واضحة مقولات لسان الدين الخطيب «فمهما تعرفنا أن اثنين اختلف منهما بالعدوتين عقد، ساءنا واقعه.. وسألنا أن يتدارك الخرق راقعُه».

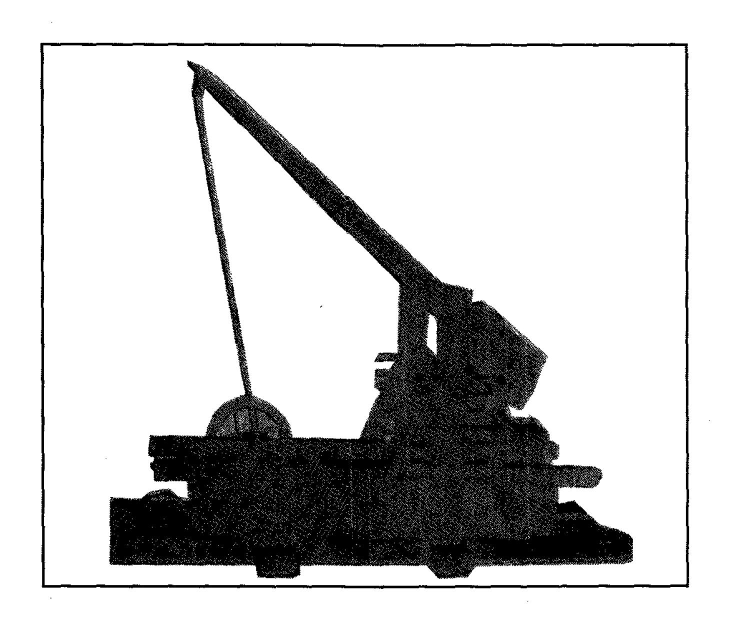
خامساً: حشد كل الطاقات لمجابهة العدو المشترك؛ إذ أن الانصراف لكل صراع جانبي، عظم أو صغر، من شأنه إضعاف جبهة الصراع المسلح في الأندلس «... لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا، وتفرغ العدو إلى ضرنا... فكيف إذا وقعت الفتنة... وإن كان لسوانا لفظها فلنا معناها.. فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها... إلخ».

سادساً: التأكيد على نقطة هامة، وهي أن استصراخ الأندلسيين لحمية إخوانهم مجاهدي المسلمين في المغرب، لم يكن بهدف تحميلهم أعباء الجهاد في سبيل الله، وإلقاء المسؤولية عليهم بكاملها، وإنما «نحن، الأندلسيون، في الجهاد يد أمام يدكم»، وكل ما هو مطلوب من مجاهدي المغرب العربي - الإسلامي تقديم الدعم «حتى تقضى منه بإعانتكم الديون».

سابعاً: التأكيد أيضاً على ضرورة تنسيق التعاون في إطار المسؤولية المشتركة مع التعهد والالتزام بتنفيذ ما يطلبه سلطان المغرب «نستنصر من رأيكم، ...

مقصدنا تبع لمقصدكم... وتصرُّفنا على حد إشارتكم... وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم».

يظهر من ذلك، أن قضية العصبية العربية والبربرية إنما كانت من القضايا التي أمكن تجاوزها والقضاء على ظواهرها أحياناً، وتركها لتأخذ كل أبعادها المدمرة في أحيان أخرى. وقد كانت تلك العصبية الجاهلية متأثرة بمجموعة من العوامل، أولها: تمزق القدرة العربية الإسلامية سواء بسبب ضعفها في مجابهة العدوان الخارجي، أو بسبب ضعف الإدارة العربية الإسلامية في الأندلس، وانصرافها إلى صراعاتها الداخلية، أو بسبب ظهور قوة إسلامية ـ بربرية، على درجة كافية من القدرة كالمرابطين. وقد جاء ضعف المسلمين من عرب وبربر، بنتيجة الاستنزاف في الحروب الخارجية والداخلية، إلى إدراك حقيقة باتت من أسس السياسة الاستراتيجية الإسلامية في المغرب والأندلس، وهي أن الهجمة الصليبية هي أكبر في قدرتها واتساعها من مسلمي البلدين، الأمر الذي دفع الحكام إلى تجاوز عصبيات الجاهلية ومجابهة الخطر المشترك بجهد مشترك، وقد كان ذلك التطور عاملاً حاسماً في تحديد أسس التعاون على قواعد ثابتة يمكن اعتبارها تجربة تاريخية متقدمة في مجال تنسيق التعاون بين الدول الإسلامية.



١ ـ المعتمد والسياسة الاستراتيجية

كان المعتمد رائداً في مجال التعاون الاستراتيجي بين أندلس المسلمين والمغرب العربي الإسلامي. وقد حدثت موقعة (الزلاقة) سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، وسقطت غرناطة في قبضة الصليبيين سنة (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م)، وبين التاريخين زهاء أربعمائة سنة، كان الصراع المرير خلالها مستمراً، وكان النصر فيها نوباً. وتبلورت عبر هذه الحرب الطويلة الأمد أسس التعاون بين الأندلس والمغرب، فكان المعتمد هو رائد هذا التعاون، وهو ضحيته في الوقت ذاته. وعند هذه النقطة تبرز مجموعة من المعطيات المتعلقة بذلك التعاون، سواء في مفهومه، أو في تطبيقه ـ أسلوبه ـ أو في نتائجه.

لقد كان الهدف من التعاون، على ما هو واضح تماماً، دعم القدرة الذاتية للأندلس الإسلامية، وكانت كيانات ملوك الطوائف تتصارع فيما بينها مفسحة بذلك المجال للتدخل الخارجي من جهة، ومساعدة قوى ذلك العدوان الخارجي على بلوغ أهدافه، وكان من نتيجة ذلك ظهور جنوح نحو إزالة تلك الممالك كلها، الأمر الذي مارسه (بنو عباد) ذاتهم، بهدف توحيد القيادة السياسية وتوحيد إدارة الحرب. ولقد أدرك المعتمد بصادق إحساسه، وسلامة تفكيره، وحسن تقديره للموقف بأن ميزان القوى لن يكون في صالح المسلمين الأندلسيين حتى لو أمكن له توحيد كافة القوى الأندلسية، الأمر الذي دفعه للاستعانة بالمرابطين. وإذن، فقد كان المطلوب هو ضمان الظروف الموضوعية من أجل تحقيق التوازن الاستراتيجي، لا من أجل خوض معركة واحدة فقط، وإنما من أجل متطلبات حرب طويلة الأمد. ولعل هذا السبب بالذات هو الذي حرم المعتمد من اتخاذ الإجراءات الحاسمة ضد يوسف بن تاشفين وقوات المرابطين فور الانتهاء من معركة الزلاقة، حتى لا تمتد أيديهم ولا تتطلع أبصارهم إلى أندلس المسلمين، وهذا أيضاً ما أكده رفض المعتمد الأخذ بنصحية من نصحوه بإلزام يوسف بن تاشفين بمواثيق تحرمه من العدوان على الممالك الأندلسية.

لقد كان المعتمد في تحركه السياسي يعتمد على عامل بناء الثقة بينه وبين ابن تاشفين، قدر اعتماده على قدرة ابن تاشفين في تقدير خطورة الموقف على النحو الذي كان يراه، غير أن تجربة (ابن عباد) ما لبثت أن أكدت بأنه من المحال إقامة العلاقات بين الكيانات المختلفة على أساس الثقة وحدها، أو حسن النوايا، إذ إن هذه العوامل، مع ضرورة توافرها قبل كل شيء فإنه لا بد أيضاً من التعرض لأسس التعاون التي تحقق الهدف وهو دعم القدرة الذاتية. وتتعاظم أهمية ذلك عند وضع قضية تنظيم التعاون في إطار يضمن توافر شروط أخرى، وهي الحاجة لأن يكون تنظيم التعاون هذا مستمراً، ومتطوراً حتى يمكن له مجابهة المستجدات الطارئة.

إن ضرورة إقامة بنيان ضخم على أنقاض جزئيات أبنية مختلفة يتطلب بالضرورة ضم كل تلك الجزئيات والمحافظة عليها وعدم إهمالها، إلا إذا توافر الوقت الكافي والمواد الأساسية الكافية للبناء، من أجل إقامة بنيان جديد تماماً لا يحمل من خصائص البنيان السابق وصفاته شيئاً. فهل كان ذلك متوافراً ليوسف بن تاشفين؟ وما هو شكل البناء الجديد الذي كان يريد؟. وللإجابة على هذين السؤالين لا بد من القول:

أولاً: إن ظروف الصراع مع الفرنج لم تترك فسحة من الوقت لإقامة كيانات جديدة ومستقرة، كما أن عامل الوقت والاستقرار لم يكن مضموناً حتى لابن تاشفين في المغرب العربي ـ الإسلامي، بدلالة ظهور اضطرابات مستمرة انتهت بزوال حكم المرابطين وقيام حكم الموحدين.

ثانياً: لقد كان من المحال على (ابن تاشفين) إقامة كيان له خصائص مميزة عن المجتمع العربي ـ الإسلامي. وصحيح أن المجتمع الأندلسي قد عاش في ترف الحضارة، غير أنه من الصحيح أيضاً أن هذا المجتمع قد حافظ على خصائصه العربية بقدر ما حافظ على التزامه بتطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة حدودها. وهل هناك برهان أوضح من موقف المعتمد، الذي عاش أرفع مستويات حياة الترف، واحتفظ بالرغم من ذلك بكل فضائل الإنسان العربي المسلم، فأطلق مقولته المشهورة الخالدة: (رعي الإبل خير من رعي الخنازير). وإذن، فإن المجتمع الذي كان ينشده (ابن تاشفين) لم يكن يتطلب منه أكثر من تصحيح بعض الانحرافات، وكان ذلك بمقدوره لو أمكن له اتباع السياسة المناسبة.

ثالثاً: وبما أن الهدف من تنسيق التعاون هو دعم القدرة الذاتية، وبما أن

الأندلس هي التي كانت أحوج لدعم تلك القدرة، فقد كان من الضروري أن يضم البناء، الذي اعتزم (ابن تاشفين) إقامته، كافة الجزئيات المتوافرة في الأندلس. وبكلمة أكثر وضوحاً، فقد كان من المفروض استخدام القدرة المعنوية والمادية المتوافرة لدى ابن تاشفين من أجل دفع كافة ممالك الطوائف لانتهاج سياسة واحدة تجاه نصارى الشمال، على النحو الذي ظهر في (الزلاقة)، وعدم تدمير تلك الممالك من أجل اكتساب قوة مؤقتة تترك أثاراً سلبية على مستقبل العلاقات، وعلى محصلة الصراع، قد تزيد في خطورتها وفي أهميتها على ما تم اكتسابه من قوة مؤقتة. **يمكن الانتقال بعد ذلك إلى معالجة النقطة الثانية، وهي الأساليب التي تم اتباعها لتطبيق أسس التعاون، من أجل توحيد القيادتين السياسية والعسكرية.**

لقد حصل (ابن تاشفين) على فتاوى من قضاة المسلمين وفقهائهم بجواز خلع (ملوك الطوائف) المتعاونين مع (أعداء الدين) أو (المتخلفين عن الجهاد)، ولم يكن المعتمد من المتعاونين مع أعداء الدين، كما لم يكن متخلفاً عن الجهاد في سبيل الله. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن عملية القضاء على كيانات ملوك الطوائف مرتبطة بشرطين أساسيين هما: زيادة القدرة الذاتية ودعمها، وتوحيد القيادات. فهل رفض المعتمد وملوك الطوائف تقديم الدعم اللازم لزيادة القدرة الذاتية؟ وإذا حدث مثل ذلك فهل كان لزاماً تدمير قدراتهم الذاتية للوصول إلى توحيد القيادة؟. الأمر الواضح هو أن (ابن تاشفين) ترك قوة لسد الثغور، والاضطلاع بواجب الجهاد إلى جانب الأندلسيين، وكان من الأفضل وضع (ملوك الطوائف) أمام مسؤولياتهم، والتخلي عنهم إذا ما رفضوا دعم المجهود الحربي المشترك، واتباع تلك الأساليب التي كان يمارسها المعتمد بدهاء في الإفادة من الظروف المناسبة لتوحيد الجهود المشتركة. وبكلمة أوضح، الفصل بين الطبقة الحاكمة عند انحرافها وطبقة الشعب، بحيث لا يحتمل الشعب قسوة الضربة الموجهة إلى المنحرفين من الحكام. أما ما حدث على أيدي المرابطين، فقد كان يناقض ذلك تماماً، إذ اجتاحت قوات المرابطين المدن الأندلسية بطرائق لا تختلف عن طرائق الغزاة الفرنج، إن لم تتجاوزها في عنفها وقسوتها، الأمر الذي ترك جراحات عميقة في الجسم الأندلسي الإسلامي، وكان لهذه الجراحات ذكرياتها الأليمة ونتائجها السلبية على مستقبل التعاون بين الأندلسيين والمرابطين. ومن هنا تظهر الأهمية الكبرى عند تنسيق التعاون لتحديد أسس هذا التعاون حتى لا تأتي

طرائق التنفيذ وأساليبه مغايرة، أو حتى مناقضة للحافز الأساسي الكامن وراء هذا التعاون، وهذا ما يؤكد الحقيقة الثابتة، وهي أن عملية تنسيق التعاون ليست مجرد نزوة طارئة أو اندفاعة عاطفية، أو إقامة بناء على أساس من حسن النوايا.

تقود النتيجة السابقة البحث نحو المبدأ الحاسم، وهو الهدف من تنظيم التعاون وتنسيق الجهد المشترك. لقد كان الهدف من استنصار المعتمد بابن تاشفين هو الدفاع عن المسلمين، والتصدي للعدوان الصليبي، فكان لزاماً أن يتم تنسيق التعاون في إطار رفع راية الإسلام والمسلمين، وقد استجاب (ابن تاشفين) لنداء المعتمد على هذا الأساس. وإذن فقد كان من المفروض أن ينعم المسلمون في ظل هذا التعاون بمزيد من الأمن الداخلي والخارجي، غير أن أسلوب القضاء على (ملوك الطوائف) وتدمير كيانهم قد آذى المسلمين وأضرهم وأباح أموالهم ومحرماتهم، فكان ذلك أخطر على المسلمين من أعدائهم. وهنا لا بد من الإشارة إلى نقطتين حاسمتين في الموضوع.

أولاهما: ظهرت عند الاستيلاء على طليطلة؛ فقد تمكن الفرنج الصليبيون من شراء بعض ذوي النفوس الضعيفة لإقناع جماهير المسلمين بقبول حكم الفرنج لهم، والخضوع لحكمهم، كما عملوا ـ أي: الفرنج ـ على اتِّباع سياسة مرنة في تعاملهم مع المسلمين، إذ كانوا لا يزالون في مرحلة بعيدة عن القضاء على الوجود الإسلامي ـ العربي في الأندلس، ولهذا كان من مصلحتهم المرحلية معاملة المسلمين الذين ينضمون إليهم بالرفق واللين لإضعاف جبهة المسلمين، وإظهار التناقض بين رأفة النصارى وقسوة المسلمين، وقد حفظ الأدب الأندلسي شواهد كثيرة تؤكد هذه الحقيقة.

وثانيتهما: أن (ابن تاشفين) قد طلب إلى ملوك الطوائف في بداية أمره، رفع المكوس والضرائب عن جماهير المسلمين، وقد انصاع هؤلاء لطلبه، حتى إذا عاد إلى المغرب، رجع ملوك الطوائف إلى سابق عهدهم، الأمر الذي أثار حفيظة (ابن تاشفين) من جهة، بقدر ما أثار ملوك الطوائف أيضاً، إذ اعتبر هؤلاء أن (ابن تاشفين) يطمع في التدخل بشؤونهم الداخلية.

تظهر عند هذه النتيجة نقطة في غاية الأهمية، إذ من واجب حكام المسلمين والمسؤولين عنهم، رعاية شؤونهم، والاهتمام بمصالحهم، فكيف يمكن التوفيق بين قضية تنظيم التعاون على مستوى الحكام؟ وبين قضية رعاية مصالح جماهير المسلمين؟.

القضية ليست صعبة، أو مستعصية على الحلِّ، فالتعاون مع الحكام يتم على أسس رعاية مصالح المسلمين، ويمكن الحد من هذا التعاون عند عدم استجابة بعض الحكام للمبدأ العام في رعاية شؤون الإسلام والمسلمين. ولقد كانت الأندلس وحكامها هم الأكثر حاجة لهذا التعاون. وإذن، فقد كانوا مرغمين في النهاية إلى قبول كل شرط من شأنه تطوير عملية تنسيق التعاون وتطبيق أحكام الشرع في إقامة العلاقات بين الحكام والمحكومين. تلك هي النقطة التي تجاوزها (ابن تاشفين) بقدر ما تجاوزها ملوك الطوائف أيضاً في حميا (عصبيتهم الجاهلية) فكان من نتيجة ذلك قيام الصراعات على أنقاض تنظيم التعاون. والغريب في الأمر، أن حكام المرابطين، لم يتمكنوا، عندما تسلموا حكم البلاد الأندلسية، من تحقيق العدالة التي كانوا ينشدونها، بدلالة تعاظم المقاومات وتزايد الاضطرابات بين الأندلسيين والمرابطين، ولو أن تلك الاضطرابات لم تأخذ شكلاً حاداً في معظم الأحيان بسبب توافر الوعي، على مستوى المجاهدين في سبيل الله، بالخطر الذي يمثله العدوان الصليبي. والمهم في الأمر هو أن الهدف من تنظيم التعاون لم يتحقق، لا على المدى القريب، ولا على المدى البعيد. وصحيح أن انتصار الزلاقة قد أبعد مؤقتاً التهديد الخارجي، أو أضعف من حدته، غير أن توظيف الانتصار الخارجي لفرض تغيير في تنظيم الكيانات الداخلية، قد دمر الهدف الأساسي من تنظيم التعاون، وهو ضمان أمن الإنسان العربي المسلم في أرضه ووطنه.

لقد ظهرت في المشرق الإسلامي، أثناء الحروب الصليبية، أحداث مماثلة، فقد عمل صلاح الدين الأيوبي على إزالة الحكم الفاطمي في مصر، كما عمل على إزالة كافة الإمارات المستقلة، وعين إخوته وأقاربه لشغل مناصب الحكم. وإذا كان العنصر البربري في الأندلس قد اضطلع بهذا الدور، فإن العنصر الكردي قد اضطلع بالدور ذاته في بلاد الشام، وحدث في المشرق الإسلامي ما سبق حدوثه في أندلس المسلمين. وإذا كانت (الزلاقة) هي ثمرة حدوثه في أندلس المسلمين مع مسلمي المغرب، فقد كانت (حطين) هي ثمرة تعاون مسلمي المشرق الإسلامي مع مسلمي الأكراد، غير أن هناك مجموعة من الفوارق، أبرزها الاختلاف في أسلوب توحيد إدارة الحكم. وإذا ما تمكن صلاح الدين من القضاء على الفاطميين، فذلك بدعم من جماهير المسلمين الذين أُرغموا على التشيع، وكذلك بسبب تعاون الفاطميين مع الصليبيين ـ أعداء

الدين ـ، بالإضافة إلى ذلك الانحراف الذي مارسه حكام الفاطميين في تطبيق الشريعة الإسلامية. ومن هنا فقد اكتسبت حركة (صلاح الدين) أنصاراً أقوياء لها في وسط جماهير مسلمي المشرق، في حين عجزت قيادات المرابطين عن بلوغ هذا الهدف في أندلس المسلمين.

وتثير هذه النقطة قضية هامة طالما مزقت العالم العربي ـ الإسلامي، وهي قضية (وحدة القيادة) أو (وحدة الحكم)؛ فالهدف الأساسي هو (رفع راية الإسلام) وتأمين العزة والسيادة للإنسان المسلم (والعزة لله ورسوله والمسلمين)، ودعم العالم الإسلامي حتى يتمكن من مجابهة أعدائه الخارجيين، في حين أن التحول عن هذا الهدف يجعل من قضية (وحدة القيادة) هدفاً في حد ذاته، الأمر الذي يعني إفراغ الحكم من مضمونه الإسلامي. فقضية (وحدة القيادة) إذن مجرد وسيلة وليست غاية في حد ذاتها، وعندما يحدث الانحراف الثقيل، وتصبح (وحدة القيادة) هي الهدف، يفقد المسلمون ما ينشدونه من (وحدة القيادة).

لقد مارس صلاح الدين الأيوبي مختلف الأساليب لتوحيد القيادة، غير أنه لم يتنكر للسيادة المعنوية التي تمثلها وحدة القيادة في شخص الخليفة العباسي، كما أنه حرص باستمرار على بذل كل جهد مستطاع لرفع راية الجهاد في سبيل الله عالياً، وتأمين الدفاع عن حدود المسلمين وحماية ثغورهم. وسار (ابن تاشفين) على المنهج ذاته قبل ذلك بأكثر من مائة سنة، غير أن حظه من التوفيق والنجاح لم يكن مماثلاً لحظِّ صلاح الدين. ولا ريب أن (ابن تاشفين) كان مخلصاً في نواياه كمثل إخلاص صلاح الدين، أو ربما أكثر، غير أن الاختلاف في الأساليب قد عزز مكانة صلاح الدين بقدر أكبر. وهناك نقطة لا بد من الإشارة إليها أيضاً، فلقد كان هناك اختلاف في التكوين السكاني ـ الديموغرافي ـ في المشرق الإسلامي عن الأندلس الإسلامية، وكانت هناك أيضاً لعبة القدر، إذ لم يقدَّر ليوسف بن تاشفين أن يعمر طويلاً حتى يصحح مسار تجربته التاريخية، في حين ساعد الزمن السلطان صلاح الدين على بلوغ أهدافه كاملة. والغريب في الأمر أن صلاح الدين قد أقام وحدة قيادته على أنقاض (الزنكيين) الذين اشتهروا بإخلاصهم للدين وحماستهم للدفاع عن الإسلام، والمسلمين، وكذلك فعل (ابن تاشفين) ضد (بني عباد)، غير أنه ما من أحد يلوم صلاح الدين على موقفه من (الزنكيين)، ذلك لأن يد القدر هي التي تدخلت فأزالت عن طريقه (نور الدين زنكي) في حين أن (ابن تاشفين) كان

هو يد القدر التي أزالت (بني عباد)، فارتبطت عملية القضاء على الممالك الأندلسية باسم (المرابطين) بينما لم يتحقق مثل هذا الارتباط بصورته القاتمة في عملية توحيد المسلمين على أيدي صلاح الدين الأيوبي.

لقد كانت حركة التعاون الأندلسي ـ المغربي هي بداية التحول في علاقات العالم العربي ـ الإسلامي وفي علاقات هذا العالم مع العالم الغربي؛ إذ كان سقوط طليطلة هو نقطة الانطلاق في الحرب الصليبية الشاملة، مع كل ما رافقها وما تبعها من تحولات. ومن هنا فقد اعتبرت عملية إزالة ملوك الطوائف على أيدي المرابطين، من قِبَل بعض الباحثين العنصريين الغربيين، على أنها للعرق البربري على العنصر العربي، وقد تناسى هؤلاء، في غمرة أحقادهم حقيقتين أساسيتين:

أولاهما أن الإسلام قد ساوى بين الشعوب الإسلامية، ولا فضل لأحد إلا بما يقدمه من جهد لرفع راية الإسلام والجهاد في سيبل الله، وقد اندفعت الشعوب الإسلامية لمجابهة العدوان الصليبي فكان لها شرف رفع راية الجهاد ودعم قوة المسلمين والذود عن حياضهم. والحقيقة الثانية هي أن المرابطين قد اصطدموا بالبربر المسلمين قبل اصطدامهم بأية قوة أخرى، ثم أزالوا الكيانات العربية والبربرية على حد سواء، فكانت حركة المرابطين حركة إصلاحية دينية هدفها الأساسي تطهير السنة الشريفة وإزالة البدع والانحرافات مما علق بها.

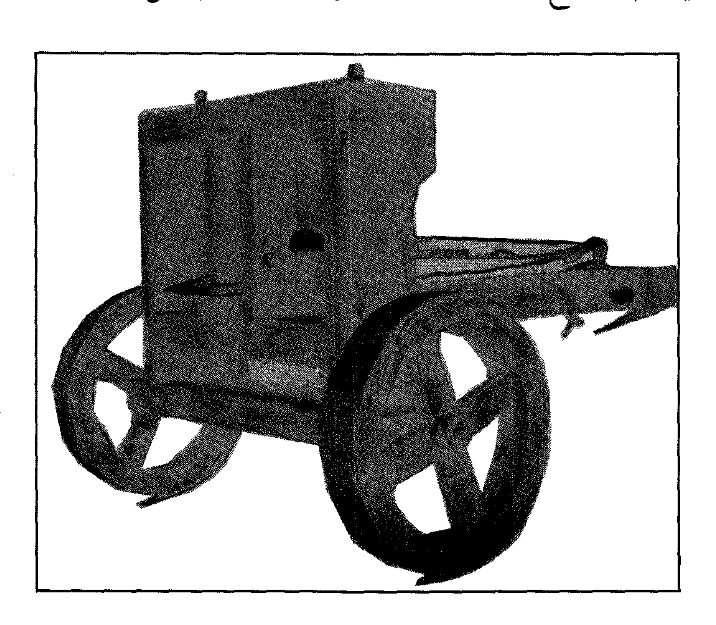
وقد يكون من المحال في إطار هذا المفهوم اعتبار حركة (المرابطين) على أنها حركة (عنصرية) أو (عرقية). ولا يمكن هنا أيضاً تجاهل الدور الكبير الذي اضطلع به المرابطون في نشر الإسلام بين الشعوب السودانية الموغلة في الصحراء الإفريقية، وهذا ما يؤكد دور حركة المرابطين باعتبارها حركة إصلاحية دينية هدفها رفع راية الجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام، ودعم قوته.

وانطلاقاً من هذا الواقع، فإن ما قام به المرابطون في الأندلس ليس أكثر من انحراف ناجم عن تقدير خاطئ لطبيعة الصراع مع الفرنج وحجم هذا الصراع وأبعاده، في حين كان المعتمد خاصة، والأندلسيون عامة، أكثر إدراكاً لهذا الواقع بحكم معايشتهم له ومعاناتهم لظروفه، فكان لزاماً أن يتم تنسيق التعاون بالاعتماد على الأندلسيين ودعم مواقفهم، مع تجنب فرض مواقف مستجدة قد تخطئ الهدف أو تصيبه.

وبكلمة أكثر وضوحاً، إن عملية تنسيق التعاون على مستوى السياسة ـ الاستراتيجية، هي من العمليات المعقدة، ولئن كان حافز العاطفة الدينية ـ

الإسلامية هو الحافز الأقوى في عملية تنسيق التعاون، إلا أنه من غير الطبيعي في الوقت ذاته تجاهل المصلحة الخاصة والعامة. فالمجتمع الإسلامي، مثله مثل كل مجتمع، يقوم على مجموعات من الأفراد والعصبيات (التكتلات)، وبقدر ما يتوافر ضمان المصلحة لهذه المجموعات بقدر ما يرتفع رصيد (تنسيق التعاون) وتتعاظم أهميته. وهل هناك تفسير آخر لكلمة (الأمن) غير (المصلحة)؟ سواء كان هذا الأمن غذائياً أو حياتياً؟.

من هنا كان لا بد من القول بأنه من المحال نقل المجاهدين من عدوة المغرب إلى عدوة الأندلس، وتحميلهم أعباء الجهاد في سبيل الله، ودفعهم لاحتمال كره القتال، من غير التفكير مسبقاً بضرورة منحهم امتيازات تعادل أو تزيد على ما يحصل عليه الأندلسيون سواء كانت هذه الامتيازات مادية أو معنوية، وصحيح أن شرف الجهاد، وشرف الشهادة، يرتفع قدراً وسمواً على كل متاع الدنيا، في المجتمع الإسلامي، غير أن تجاهل هذا المتاع من الأمور غير المقبولة، وإلا لما ترك الإسلام للمجاهدين نصيبهم الأكبر من الغنائم (الأربعة أخماس). وبالمقابل فإنه من غير المقبول، أو المعقول، تجريد الأندلسيين من ممتلكاتهم بحجة الدفاع عنهم، ككل، إذ أن هذا الكل هو محصلة مجموعة الأفراد الذين لا بد وأن ينال اضطهاد بعضهم إلى تأثر بعضهم الآخر، فكيف إذا اتسع نطاق هذا الاضطهاد حدود البعض؟.



٢ ـ الزلاقة وإدارة الحرب

لقد خاضت قوات المسلمين معركة الزلاقة بتنظيمين مميزين: تنظيم قوات المرابطين بقيادة (يوسف بن تاشفين) وتنظيم قوات الأندلسيين بقيادة (المعتمد بن عباد)، وكان لكل من التنظيمين معسكره المعزول عن المعسكر الآخر. ولقد حاول (ألفونسو السادس) الإفادة من ذلك لتوجيه ضربة بكل ثقل قواته ضد معسكر الأندلسيين، حتى إذا ما أمكن له تدمير المسلمين الذين يقودهم المعتمد، أمكن له القضاء بسهولة ويسر على قوات (المرابطين) الذين يجلهون طبيعة البلاد بقدر جهلهم طبيعة خصمهم، غير أن محاولة (ألفونسو) لم تبلغ غايتها، وهنا قد يكون من المناسب التوقف عند أبرز معالم المعركة.

أولاً: خاضت قوات المسلمين معركتها متساندة تحت قيادتين مستقلتين لم تعملا أبداً على تنسيق التعاون المسبق، وتركتا أمر مجابهة المواقف لتطورات المعركة ذاتها.

ثانياً: لقد تركت قوات المسلمين المبادأة بيد قوات الفرنج التي يقودها (ألفونسو)، وقد كان تحديد موعد المعركة من قبل ألفونسو ذاته، وبذلك لم يكن هناك مجال للمباغته لولا عملية الغدر (الخداع) التي لجأ إليها ألفونسو في محاولته للإفادة من (عامل المباغتة) وإحراز التفوق على قوات المسلمين.

ثالثاً: لم تحاول قوات المسلمين، على خلاف عادتها في الحروب، استثمار النصر على مستوى العمليات لإحراز نصر استراتيجي، وذلك بأن تركت لفلول العدو فرصة إعادة التجمع، كما توقفت عن تطوير العمليات للوصول إلى طليطلة وانتزاعها من قبضة الفرنج (الصليبيين)، مع العلم أن سقوط طليطلة في قبضة النصارى كان هو المحرض الأساسي للمسلمين من أجل خوض (موقعة الزلاقة).

رابعاً: كانت قوات المرابطين تجهل كل شيء عن طبيعة مسرح العمليات، وعن العدو، ولهذا فقد قام المعتمد بن عباد بتنظيم كافة الإجراءات، واتخاذ

كافة التدابير التي يمكن أن يطلق عليها اسم (تدابير أمن القتال)، مثل تنظيم الحراسة، ومراقبة التحركات، وأشرف بنفسه على كل ذلك بحيث كان كل مرابطي يبتعد لقضاء حاجة ما، يجد أمامه المعتمد ذاته.

إن استعراض مسيرة الأعمال في مراحل التحضير للمعركة وأثنائها، يؤكد يقيناً أن ظروف المعركة كانت لصالح قوات (ألفونسو) بأكثر مما كانت لمصلحة قوات المسلمين. فبينما كانت قيادة ألفونسو تنفرد بميزات المبادأة، والمباغتة، وأمن العمل، والاختيار المناسب لمسرح العمليات (ميدان القتال)، علاوة على وحدة القيادة، كانت قوات المسلمين محرومة من ذلك كله. وإذن، فكيف استطاعت قوات المسلمين إحراز النصر، وانتزاعه من قبضة الأعداء، بعد أن مارست هذه العوامل كلها تأثيرها خلال المرحلة الأولى من الاشتباك، وكادت تؤدي إلى إنزال كارثة حقيقية بقوات الأندلسيين في معسكر ابن عباد؟.

يعود العامل الأول في انتصار المسلمين إلى معرفة (ابن عباد) لعدوه معرفة عميقة، ولقد أدرك المعتمد منذ اللحظة الأولى أن ألفونسو يعتمد على خطة خداعية في حربه ضد قوات المسلمين، وقد أمكن له بفضل معرفته هذه كشف خداع (ألفونسو) عند تحديده ليوم المعركة في يوم السبت الذي لا هو عيد النصارى، ولا هو عيد للمسلمين، وأدرك أن الموعد الأكثر احتمالاً للقتال هو يوم الجمعة وقد صح ما توقعه ابن عباد. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان للمعتمد شبكة استطلاع محكمة، وعناصر جاسوسية أمينة، أمكن لها التوغل حتى قلب معسكر (ألفونسو) والوصول إلى مقر قيادته ـ خيمته ـ، وقد استطاعت عناصر الاستطلاع والجاسوسية إنذار (المعتمد) في وقت مناسب، وتمكّن ابن عباد من إنذار ابن تاشفين في اللحظة الحرجة. وصحيح أن ألفونسو قد استطاع مباغتة المسلمين في معسكر المعتمد، غير أن هذه المباغتة كانت جزئية وغير كاملة، وقد نجحت هذه المباغتة في إعاقة المعتمد عن تنظيم قواته لدخول المعركة، غير أنها لم تنجح في إعاقته عن استنفار قواته وتحذيرها، وبذلك نجحت هذه القوات في استقبال الصدمة الأولى للهجوم، ومجابهتها، ولو كان الأمر على خلاف ذلك، لنجح ألفونسو وقواته في إبادة مسلمي الأندلس إبادة بشعة وهم آمنون في خيامهم.

وكذلك الأمر بالنسبة لمعسكر (ابن تاشفين) الذي كان يقع على بعد مسافة كافية من معسكر المعتمد، مما كان يطرح احتمال انتهاء الاشتباك في معسكر

(المعتمد) قبل أن يشعر المسلمون في معسكر (ابن تاشفين) بالمعركة الضارية التي كانت تدور تحت جنح الظلام في المعسكر المجاور لهم. ونظراً لوجود المقاومة الضارية التي قادها (المعتمد) فقد تمكن (ابن تاشفين) من تنظيم قواته، والدخول بها في المعركة وفق طريقته الخاصة، وهذا ما يعزو سبب تأخر (ابن تاشفين) في دخول المعركة، بينما كانت قوات المعتمد تجابه محنة حقيقية. ويظهر ذلك أن الفضل الأول في تحول المعركة لمصلحة المسلمين، إنما يعود (للمعتمد) شخصياً، فهو الذي نظم شبكة الاستطلاع والجاسوسية، وهو الذي نظم (أمن القوات)، وهو الذي قاد المعركة في أصعب مراحلها، وأكثرها حرجاً.

يأتي بعد ذلك دور (يوسف بن تاشفين) الذي نظم قواته على عجل، وقام بحركة تقرب غير مباشر؛ إذ أفاد من فراغ معسكر (ألفونسو) فقاد قواته، وقام باحتلال هذا المعسكر، الأمر الذي أرغم قوات الأعداء على التخفيف من ضغطها ضد المعتمد، والانتقال بثقل قواتها لمجابهة قوات ابن تاشفين، الأمر الذي أتاح للمعتمد فرصة إعادة قواته، وزجها بطريقة متماسكة، مع جمع قوات الفارِّين - أو الهاربين، الذين صدمهم ثقل الهجمة الأولى، ووقعت بذلك قوات (ألفونسو) بين مطرقة (ابن تاشفين) وسندان (المعتمد) وباتت مرغمة على الرقص على أنغام الحرب التي يعزفها جند المسلمين.

لقد أدت حركة (ابن تاشفين) إلى انتزاع المبادأة من قبضة (ألفونسو)، فخسرت قوات النصارى حتى الأن ميزات (المباغتة) و(المبادأة) و(حرية العمل العسكري) وفقدت بذلك العناصر التي كانت تضمن لها نوعاً من التفوق المادي والمعنوي.

لقد ذكرنا أن (يوسف بن تاشفين) قد نقل إلى الأندلس أعداداً كبيرة من الجمال ضاقت بهم أرض الجزيرة الخضراء، وملأ رغاء تلك الجمال رحاب السماء، ولم يتعرض المؤرخون المسلمون في عرضهم لمسيرة المعركة إلى دور هذه الجمال في المعركة. فهل تم استخدامها فعلاً أم لا؟ المهم في الأمر هو أن دخول قوات (ابن تاشفين) في المعركة قد ترافق بتظاهرة نفسية (قرع الطبول، وعزف المزامير) الأمر الذي كان له تأثير إيجابي على قوات المسلمين، وتأثير سلبي على قوات الأعداء. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد أشارت المصادر العربية إلى أن (ابن تاشفين) أمر أربعة آلاف، من الحشم السودانيين،

بالترجل عن خيولهم، والتعامل مع قوات الأعداء (الفرسان) بالرماح والمزاريق، الأمر الذي يؤكد اعتماد (ألفونسو) على قوة الفرسان الثقيلة التي تتقدم كالجدار الصلب لتسحق كل ما يجابهها. وقد استطاع مشاة المسلمين (الحشم السودانيين) تمزيق هذا الجدار المتماسك بضرباتهم المحكمة (سهامهم)، الأمر الذي أفقد قوات النصارى ميزة استثمار القوة الضاربة الهجومية.

أظهر القادة حتى الآن ما هو مطلوب منهم لإدارة الحرب بصورة ناجحة، وبقي حسم الموقف، وقد أدرك المعتمد أن هذا الحسم مرتبط بثقل الضربة الهجومية التي يمكن توجيهها لقوات العدو؛ فقام بضم قواته إلى قوات (ابن تاشفين)، وقام الجميع بهجوم لم تتمكن قوات ألفونسو من احتمال ثقل وطأته، فتمزقت، ولحق بها الدمار، ولاذ (الملك ألفونسو) بالفرار ومعه فلول لا تزيد على خمسمائة مقاتل، ما من أحد منهم إلا مصاب بجراح (مكلوم)، وانتظروا الليل على تل مجاور حيث أمكن لهم التسلل والعودة إلى بلادهم، وكان تنسيق التعاون بين قوتي المسلمين هو العامل الحاسم الذي أكسب الضربة قوتها.

لقد خاضت قوات النصارى التي قادها (ألفونسو السادس) معركة الزلاقة بتصميم وعناد كبيرين، الأمر الذي يبرز واضحاً من خلال الصراع المرير الذي خاضته هذه القوات في محاولاتها لانتزاع النصر أو الموت، وهو ما تؤكده وفرة الضحايا، ويبرز ذلك قوة المحرِّض الديني الذي استطاع الكهنة والقسس إحداثه في نفوس المقاتلين، كما يبرز الروح المعنوية العالية التي توافرت لهؤلاء المقاتلين والتي عززها، دونما ريب، استيلاؤهم على طليطلة في السنة السابقة. ومن هنا تظهر قيمة الفضائل الحربية والروح المعنوية التي كان عليها مجاهدو المسلمين، من الأندلسيين والمرابطين، والتي مكنتهم من معادلة التفوق المادي والمعنوي الذي كان متوافراً للعدو، وانتزاع النصر من قبضته.

لقد خاض المجاهدون المسلمون معركتهم في الزلاقة، بإيمان ثابت وتصميم راسخ، على انتزاع النصر. وصحيح أن رواسب الهزيمة في (طليطلة) واستيلاء الكفار عليها قد خلق نوعاً من الإحباط في نفوس المسلمين، وترك مرارة أليمة لديهم، إلا أن ذلك شكّل في الوقت ذاته حافزاً للانتقام والثأر (غسل العار واستعادة الكرامة). وفي الوقت ذاته، فإن إسراع المرابطين لنجدة إخوانهم الأندلسيين قد أسهم إلى حد بعيد في دعم تلك الروح المعنوية، وإظهار تلك الفضائل الحربية. وإذا كان النصارى قد أخذوا عن المسلمين الاستباق إلى

إحدى الحسنيين، فقد كانت العقيدة الإسلامية هي التي أوجدت في الأصل هذا المبدأ، وكان التزام المسلمين به أحرى، وأخذهم به ألصق وأجدى، ومن هنا ظهرت، إلى جانب الإرادة الأكثر تصميماً والأكثر عناداً على طلب إحدى الحسنيين، ونصر الله المسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

استطاع المسلمون في الزلاقة، تحويل الموقف لمصلحتهم، وانتزاع النصر من أعدائهم، بفضل توافر مجموعة من العوامل وتضافرها، وأولها الكفاءة العالية للقائدين (المعتمد وابن تاشفين)، وثانيهما: تطبيق مبادئ الحرب بمهارة، وثالثهما: الكفاءة العالية والفضائل الحربية والروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله. وإذا كان المعتمد قد استطاع إحباط المباغتة بفضل تدابير الأمن والحيطة التي اتخذها، فقد استطاع (ابن تاشفين) انتزاع المبادأة من قبضة عدوه (ألفونسو) بفضل تقربه غير المباشر ومهاجمته لمعسكر الفرنج.

فإلى من ينسب النصر بعد ذلك، إذا ما أريد إعطاء قصب السبق في الفضل؟ هل للمعتمد الذي خطط للمعركة منذ بدايتها، وحشد لها كل ما تتطلبه من القوى والوسائط، سواء من داخل الأندلس، حيث عمل على استنفار كل القوى المتوافرة، أو من المغرب حيث عمل على الاستعانة بالمرابطين؟ أم هل يعود الفضل في ذلك إلى (ابن تاشفين) قائد المرابطين، الذي عبر بقواته البحر، واستجاب لداعي الجهاد، وأقبل بعزيمة صادقة على احتمال كره القتال؟ أم إلى تلك الحشود الكبرى من المجاهدين في سبيل الله، الذين تحلوا بفضائل الحرب، فأقبلوا بحماسة على طلب الحسنيين، فكان لبعضهم إحداها وكان للآخرين الثانية، ولم يفضل أحد على أحد إلا بشرف الشهادة؟.

الفضل لله وحده، والفضل للعقيدة الدينية الإسلامية التي أوجدت مذهباً عسكرياً إسلامياً مميزاً بتكامله وبديع أحكامه. فلولا الإسلام لما طلب (ابن عباد) الدعم من أخيه المسلم، وفضّله على الخضوع لعدوه. فالمسلم الحقيقي يأبى الخضوع لغير المسلم، ويرفض وصايته، وقد انطلق المعتمد في تحركه من هذا المبدأ. ولولا الإسلام، ما تحرك ابن تاشفين إلى الأندلس، وسعى لنصرة إخوانه على أعدائهم. ولولا الإسلام، لما تشكلت تلك الفضائل الحربية، ولما برزت مبادئ الحرب بصورتها الواضحة على أيدي العرب المسلمين، ولما وصل المسلمون أصلاً إلى الأندلس. وإذن فالفضل كل الفضل للإسلام ديناً، وعيقدة قتالية أو مذهباً عسكرياً.

وقد أكدت التجربة التاريخية أنه ما من مرة توافرت فيها هذه العوامل الثلاثة:

١ ـ القيادة المؤمنة المسلمة.

٢ ـ الالتزام بتطبيق العقيدة القتالية الإسلامية.

٣ ـ توافر قوات من المسلمين المجاهدين في سبيل الله.

إلا وكان النصر حليفاً للمسلمين.

هنا يخطر السؤال: وإذا توافرات مثل هذه العوامل فأدت إلى نصر المسلمين في (الزلاقة)، فكيف إذن توقَّفَ المسلمون عن تطوير الموقف للعودة بالأندلس على نحو ما كانت عليه في زمن الفتح، على أقل تقدير؟ ولماذا لم تستخدم تلك القوة الهجومية التي توافرت على أرض أندلس المسلمين من أجل حسم الداء واستعادة طليطلة؟.

قد يكون السبب في ذلك قصور في رؤية القادة (المعتمد وابن تاشفين) لأفق المستقبل؟. وقد يكون السبب في ذلك عدم توافر ما يكفي من القوى والوسائط لمجابهة حملات صليبية ضخمة؟. أو لعل السبب في ذلك ظهور أحداث مباغتة على مسرح المغرب العربي ـ الإسلامي اقتضت عودة (ابن تاشفين) بسرعة إلى المغرب، حفاظاً على القاعدة الصلبة للمسلين فيها؟. أو قد تكون هذه العوامل مجتمعة، بالإضافة لعوامل أخرى، منها ما قد يكون شخصياً.

مهما كان عليه الموقف، فليس على الباحث استنباط العوامل من افتراضات تحمل من الشك بقدر ما تحمل من اليقين، وليس عليه أيضاً بناء المواقف على نحو ما كان يجب أن تكون عليه تلك المواقف. وبكلمة أخرى، فليس عليه محاكمة الحدث التاريخي خارج إطاريه الزمني والمكاني، وكل ما هو مفترض فيه أن يبرز الحقائق كما حفظتها له الوثائق التاريخية مع إيجاد الروابط الثابتة بينها، واستنباط الدروس المستخلصة منها. ولقد حدثت موقعة الزلاقة، وفقاً لما سبق شرحها، وظهرت فيها بشكل واضح روابطها وعواملها ونتائجها.

لقد كان أحد مقاييس النصر أو الهزيمة، في معارك الماضي، هو بمقدار ما تتكبده قوات العدو من الخسائر، ومقارنة ذلك بما تتكبده القوات الصديقة. وعلى هذا المقياس يمكن اعتبار (موقعة الزلاقة) من المواقع الحاسمة في التاريخ الإسلامي، حيث تم فيها القضاء على جيش كامل من جيوش العدو، وبقيت الجيوش الإسلامية في حالة سليمة نسبياً. غير أن وضع موقعة الزلاقة، في موقعها التاريخي، يحرم تلك الموقعة من الهالة المحيطة بها، ويجردها من كثير

من قيمتها، حيث تظهر هناك مجموعة من الأسئلة: فهل استطاعت الزلاقة إيقاف المدِّ الذي بدأه النصارى في الشمال؟ وهل استطاعت شمس الانتصار في الزلاقة أن تكسف ما حققه الفرنج من انتصار في طليطلة قبل ذلك بعام؟ وهل تمكنت الزلاقة من حرمان العدو من تشكيل جيوش جديدة لتطوير الحرب الصليبية ضد المسلمين؟ وهل أسهمت هذه المعركة في دعم القدرة القتالية لأندلس المسلمين بصورة حقيقية؟.

٣ ـ الزلاقة وموقعها في التاريخ

كثيراً ما تتناقض وجهات نظر الباحثين والمؤرخين تجاه الأحداث التاريخية وتقويمها، فكيف الأمر عندما يكون الحدث متعلقاً بصراعات عقائدية دينية ـ أو أيديولوجية، حيث يحاول كل طرف من الأطراف المتصارعة إعطاء الحدث الذي يشترك في صنعه أهمية خاصة؟. لقد كانت (موقعة الزلاقة) من وجهة نظر المؤرخين المسلمين حدثاً بارزاً، غير أنهم لم يحاولوا إعطاء هذا الحدث حجماً يزيد عن حجمه، فتقويمهم له هو واحد من الانتصارات الكبرى ضد أعداء الدين الكفار، بينما يجد فيه النصارى نقطة تحول حاسمة في مسيرة الصراع الصليبي ـ الإسلامي، ويعتمدون في دعم وجهة نظرهم هذه على المجرى الزمني لمسيرة الأحداث. فقد وقعت معركة (ملازكرد ـ مانزيكرت) سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، وهي المعركة التي تمكن فيها السلاجقة المسلمون من تدمير قوات أرمينيا التي كانت تشكل قاعدة متقدمة للامبراطورية البيزنطية من أجل العدوان على ثغور المسلمين في المشرق، ثم جاءت معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) لتسهم في إيقاف مد الهجوم الصليبي مؤقتاً على الأندلس، وأعقب ذلك إعلان الحروب الصليبية رسمياً في أوروبا سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م)، وفي سنة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) استولى الفرنج الصليبيون على بيت المقدس، وبدأت الحملة الصليبية الأولى في المشرق.

والأمر الواضح في هذه الأحداث وتسلسلها أن المسلمين قد استطاعوا، حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً، الاحتفاظ بقدرتهم الهجومية على الصليبيين في المشرق والمغرب، وأن مجموعة هذه الأحداث كانت هي المتحولات الحاسمة في مسيرة الصراع. غير أن التوقيت بتاريخ معين واعتباره بداية للتحول يعتبر خطأ، ولو أنه لا بد من الاعتماد على تاريخ زمني محدد لتسجيل الأحداث. فالصراع بين المسلمين والصليبيين لم يتوقف منذ الأيام الأولى للفتوح الإسلامية. وقد أدى انتزاع المسلمين للسيطرة البحرية، وفرض وجودهم

على البحر الأبيض المتوسط، ثم سيطرتهم على أجزاء كبرى من الجنوب الأوروبي، الأندلس وجنوب إيطاليا والجزر الكثيرة في البحر الأبيض المتوسط، إلى إبعاد الصراع عن ثغور المسلمين ونقله إلى داخل أوروبا، فتقلص دور الامبراطورية البيزنطية وتضاءل دور (الرومان ـ إيطاليا)، غير أن الكنيسة لم تأل جهداً، أو تدخر وسعاً، في تحريض دول أوروبا البعيدة عن متناول المسلمين مباشرة لحشد طاقاتها وزج إمكاناتها في الصراع الدائر من حولها، وقد أخذ هذا الدعم تحت راية الصليب ينتظم أكثر فأكثر، ويشتد يوماً بعد يوم، ولم يكن استيلاء النصارى على طليطلة إلا تعبيراً عن المد المتعاظم لقوات التحالف الصليبي. وفي الواقع فإنه لم تكد تمضي عشر سنوات على هذا الحدث إلا وأعلنت الكنيسة الحرب الصليبية، ولم تمض على ذلك أيضاً أكثر من أربعة أعوام حتى وطئت أقدام الغزاة الصليبيين الديار المقدسة في فلسطين.

لم تكن (الزلاقة) ولا كانت معركة (ملازكرد)، قبلها بخمسة عشر عاماً، إلا حلقات في إطار الحرب طويلة الأمد، وقد أحرز المسلمون انتصاراً حاسماً في المعركتين، حيث أمكن لهم تدمير قوات النصارى تدميراً تاماً، تقريباً، غير أن هذه القوات والجيوش الصليبية لم تكن إلا طلائع الحشود الضخمة التي كانت تعدها الكنيسة وتنظمها في أعماق الخزان الأوروبي الكبير. وقد كان من المحال على المسلمين في تلك الحقبة الوصول إلى ذلك الخزان أو استنزاف ما يختزنه من القدرة القتالية. وعلى هذا فإن ما أحرزه المسلمون من انتصارات، على أهميتها، لم تكن أكثر من انتصارات محدودة على مستوى العمليات في إطار الصراع على مستوى السياسة الاستراتيجية الشاملة.

هذا هو إذاً ما يفسر بدقة سبب إحجام المعتمد ومعه ابن تاشفين عن تطوير انتصار الزلاقة والوصول به إلى مستوى الانتصار الاستراتيجي، وذلك باستعادة طليطلة التي كانت هي الحافز الأساسي على طريق الزلاقة. فهل كانت هناك قناعة متوافرة لدى (ابن عباد) بعجز قوات المسلمين عن استعادة طليطلة؟ أم هل كان هناك ما يشير بصورة ثابتة إلى أن النصارى في أوروبا على استعداد لبذل كل جهد مستطاع للاحتفاظ بطليطلة؟. في الواقع، استطاع (المرابطون) تحرير عدد كبير من المعاقل والحصون التي كان الفرنج الصليبيون قد احتلوها في شرق الأندلس، وشماله، كما استطاعوا استعادة عدد من المدن الهامة من قبضة الصليبيين، غير أنهم لم يتمكنوا من استعادة طليطلة، أو فرض حصار متطاول

عليها لإخضاعها، مما يؤكد أن قبضة الصليبيين على شمال الأندلس كانت قد بلغت درجة من القوة جعل من الصعب على المسلمين استعادة السيطرة على شبه الجزيرة الإيبيرية، والعودة بها موحدة تحت راية المسلمين، كمثل ما كانت عليه أيام الفتح، أو حتى أيام (الحاجب المنصور) قبل ذلك بمائة عام فقط.

وهكذا فقد كان القرن الرابع الهجري هو قرن المخاض لتشكيل تحولات جديدة، وبصورة بطيئة جداً، غير أنها ثابتة، للانتقال بالعالم الغربي من مرحلة الدفاع الاستراتيجي إلى مرحلة الهجوم الاستراتيجي، فكانت ملازكرد في المشرق والزلاقة في المغرب هي المؤشرات الثابتة على هذا التحول. وليس من الغريب على ملوك النصارى في الشمال الأندلسي، وعلى ألفونسو السادس بالذات، أن يستعيد قدرته القتالية خلال بضع سنين ليعاود الهجوم على ثغور المسلمين، يحفز ملوك النصارى الأندلسيين إلى ذلك استيلاء الصليبيين على بعض الإمارات والحدود في المشرق العربي - الإسلامي، وتحول الصراع الصليبي - الإسلامي في الأندلس إلى مجرد جبهة ثانوية، في إطار الهجوم الصليبي الشامل على كل جبهات المسلمين.

يتبين لدى الوصول إلى هذه الحقيقة وإدراكها، مدى أهمية الموقف الذي اتخذه المعتمد في الاستنصار بقوات المسلمين المجاهدين في المغرب (المرابطين)؛ إذ عرف أن المعركة مع الصليبيين هي أكبر من قدرات مملكته وممالك الأندلس جميعها، بل وحتى أكبر من قدراته مع قدرات المغرب العربي الإسلامي مجتمعة؛ إنها معركة الوجود الإسلامي في الأندلس. وفي هذه الحالة يفقد الحكم أهميته، وتزول عن السلطان قيمته، وهو ما عبر عنه المعتمد بصورة دقيقة في تفضيله أن يكون راعياً لإبل ابن تاشفين في الصحراء، على أن يكون راعياً لخنازير ألفونسو ملك النصارى.

لقد كان من المفروض أن يستشعر ملوك المسلمين وأمراؤهم، بقيمة المبادأة التي اتخذها المعتمد بن عباد وأهميتها، وأن يعرفوا مدى التحولات التي وصلت إليها مسيرة الصراع بين المسلمين وأعدائهم، فيعملوا جميعاً على وضع مخططات هجومية متطورة يمكن لها مجابهة الاحتمالات القادمة، والتي كانت ترسم ظلالها على أفق الصراع. وكان من المفروض أن تقوم أهمية هذه التحولات من خلال النتائج المباشرة لمعركة الزلاقة، والتي لم تتمكن من الارتقاء إلى مستوى السياسة الاستراتيجية، غير أن الأمور سارت في الاتجاه

المضاد تماماً؛ حيث تم توظيف نتائج الانتصار المحدود على مستوى العمليات، من أجل إحداث تغييرات داخلية في الأنظمة والكيانات الأندلسية، الأمر الذي أدى إلى إضعاف جبهة الصراع الداخلية، فكانت النتيجة المأساة غير محدودة بالقضاء على المعتمد وآله، وهم أفراد مصيرهم إلى زوال، وإنما تجاوزتها إلى إضعاف القاعدة الصلبة للمسلمين، وإثارة الشكوك التي جاءت لتحل محل الثقة، فكان في ذلك الخطر الحقيقي المدمر لقدرات المسلمين.

هنا تظهر مجموعة من التساؤلات: هل كان بالمستطاع الإبقاء على ممالك (ملوك الطوئف) وهي على ما كانت عليه من الاختلاف والتناحر؟ وإذا كان من غير الطبيعي الإبقاء عليها، فهل كانت هناك وسيلة أخرى غير القضاء على حكمها وأمرائها؟ وإذا كان (المعتمد) مدركاً لأبعاد الخطر الذي يجابهه، وكان صادقاً ومخلصاً في توحيد جهود المسلمين، فلماذا تصدى لمقاومة المرابطين عندما جاؤوا لإخراجه من ملكه؟ ولماذا خاض ضدهم صراعاً ضارياً ولم يستسلم لهم طالما أنه قَبِل منذ البداية أن يكون (راعياً للإبل، لا راعياً للخنازير)؟.

إن الإجابة على هذه الأسئلة، وأمثالها، تدخل في مجال الافتراضات، غير أنه بالإمكان القول إن القوة لم تكن هي الوسيلة الوحيدة المتوافرة لتوحيد جهود الأندلسيين، وإرغامهم على بذل كل الإمكانات المتوافرة لمجابهة العدو المشترك. لقد كان الخطر جاثماً على صدور كافة الأندلسيين، من حكام ومحكومين، وقد كان هذا الخطر بدرجة تكفي لتوحيد الجهود، لا سيما وأن الانحرافات لدى معظم (ملوك الطوائف) لم تصل إلى حد خيانة قضية الإسلام والمسلمين بدلالة إقبالهم جميعاً، ومن غير استثناء، على تقديم كل ما هو متوافر لديهم من القدرات والإمكانات في معركة الزلاقة. وعلى هذا فالميقاس الحاسم في التغيير، وإعادة التنظيم، للدولة هو بقدر ما يتوافر للحاكم من القدرة لحشد طاقات المسلمين، وبقدر ما يظهره من التصميم في رعاية أمور الرعية ورفع راية الإسلام، وليس في استبدال أندلسي بمرابطي، على نحو ما حدث، وعند هذه النقطة يظهر الانحراف الثقيل الذي سار عليه المرابطون في قضائهم على (الممالك الأندلسية).

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فقد برهنت التجربة التاريخية، على أن الصراعات بين المسلمين هي أخطر عليهم من أعدائهم، وهو ما عبَّر عنه الخليفة عمر رضي الله عنه بقوله: «إنني أخوف على المسلمين من أنفسهم بأكثر من الخوف

عليهم من أعدائهم». ومن المحتمل بعد ذلك، أن يكون المعتمد قد اعتبر نفسه المسؤول الأول عن مجابهة الصليبيين في الشمال وقد كان كذلك فعلاً، ووصل بالتالي إلى قناعة وهي أن عزله عن مملكته هو في غير مصلحة المسلمين، وكان موقفه تجاه المرابطين مرتبطاً بهذه القناعة. غير أن الأمر الثابت هو أن موقف المعتمد ضد المرابطين قد استند إلى حافز أقوى، أو بدرجة لا تقل عن حرصه على المصلحة العامة للمسلمين في أقل تقدير. فقد رأى (المعتمد) ملوك الطوائف وهم يلقون حتفهم بالإبادة والقتل على أيدي المرابطين، فأراد تجنب الوصول إلى هذه النهاية ـ المأساة، وما خروجه لقتال المرابطين وليس على جسمه ما يحميه من الدروع، مستقتلاً وباحثاً عن المنية، إلا برهاناً أكيداً على رغبته في تجنب ذل الأسر وذل الحاجة، وهو الإنسان العربي الأبي، الذي عاش حياته في عز مقيم، وبقِيَم الفروسية العربية وأخلاقها وفضائلها.

مهما كان عليه الأمر، فالقضية التي لا تقبل الجدل أو المناقشة هي أن (المعتمد) قد تولى بنفسه توجيه الأحداث نحو (الزلاقة)، وهو الذي مهد لمعركتها وقاد عملياتها بكفاءة نادرة، وكان مخلصاً كل الإخلاص لقضية الإسلام والمسلمين. ولقد جاءت هذه المعركة لتشكل نقطة مضيئة وكوكباً ساطعاً في سماء العرب المسلمين. وكثيراً ما يحاول الباحثون إيجاد بعض الروابط المشتركة بين بعض الأحداث، فتكون (الزلاقة) بمرتبة (حطين) من حيث ظروف المعركة ومسيرة عملياتها القتالية، ونتائجها المباشرة على مسرح العمليات، غير أن نتائج المعركتين متباينتان ومختلفتان. فلقد عمل صلاح الدين على توظيف نتائج المعركة من أجل الارتفاع برصيدها إلى المستوى الاستراتيجي، وهكذا أطلق جيوش المسلمين لانتزاع عدد كبير من الحصون التي يحتلها الصليبيون، وفي طليعتها الكرك، كما حرر الأماكن المقدسة (القدس) وطهرها من الفرنج الصليبيين، في حين سارت الأمور على النقيض من ذلك في (الزلاقة)، إذ تم توظيف النصر في العمليات من أجل إعادة التنظيم الداخلي، فانحدرت قيمة النصر وتضاءلت، وانعكس ذلك بالدرجة الأولى على بطل ملحمة الزلاقة، المعتمد بن عباد، حيث نُقل إلى (أغمات) في المغرب ومات شريداً منفياً.

كلمة لا بد لها: لم يكن (ابن تاشفين) أقل إخلاصاً لقضية الإسلام والمسلمين من المعتمد بن عباد ذاته، إن لم يكن يزيد عليه صدقاً وتجرداً

وإخلاصاً، ولقد بذل ما يراه مناسباً لإصلاح أحوال المسلمين، غير أن رؤيته للأمور لم تكن واضحة بمثل ما كانت عليه عند ابن عباد، ولم يكن له مغنم شخصي من وراء عزل المعتمد بن عباد، وكل ما في أمره أنه اجتهد فأخطأ، غير أن الخطأ هنا، وعلى مستوى قضية الشعوب يتزايد أهمية وخطورة، وهذا ما يفرض الابتعاد في معالجة قضايا الشعوب عن النوايا الحسنة، وإن كان لا بد من توافر حسن النوايا في كل عمل من الأعمال المشتركة بين الأفراد والجماعات.

لم يعمر المعتمد في منفاه طويلاً، فقد تثاقلت عليه الهموم، فمضى للقاء ربه بعد أربعة أعوام من عزله (٤٨٤ ـ ٤٨٨هـ) ولحق به (يوسف بن تاشفين) بعد اثني عشر عاماً (٥٠٠هـ)، أي بعد عشرة أعوام من إعلان الحروب الصليبية، وبعد سبعة أعوام من احتلال الصليبيين بيت المقدس في حملتهم الصليبية الأولى، وترك الاثنان هموم الدنيا لأصحابها، واحتكما إلى خالقهما في أمر ما خلفاه وراءهما. وتمضي السنون، عشراتها ومئاتها وألفها، وتبقى ذاكرة التاريخ محتفظة بحيويتها ونشاطها، وهي تسجل مزيداً من الأحداث مع مضي كل يوم جديد، فتضيف بذلك إلى تجارب الإنسان على الأرض فيضاً من الخيرات، ويبقى نسيج الأحداث متصلاً ماضيه بحاضره، وحاضره بمستقبله.

لقد كان المعتمد، وابن تاشفين، والزلاقة، أسماء بارزة في نقطة التحول الحاسمة على درب الصراع الصليبي ضد الإسلام والمسلمين، وهو الصراع الذي لم يتوقف لا في السلم ولا في الحرب، والذي ما زال مستمراً في استطالاته وامتداده حتى اليوم، وسيبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى أن تدرك الصليبية أن حربها ضد المسلمين هي حرب عقيمة ولا جدوى منها، لأن قوى الصليبية أعجز من أن تطفئ نور الله. غير أن ذلك يضع على العرب خاصة، وعلى المسؤولين من عرب، وغير عرب مسؤولية الدفاع عن الإسلام والمسلمين في كل دنيا العرب والمسلمين. وضمن هذا الإطار، تبقى الزلاقة محتفظة بكل أهميتها، إذ أنها تشكل في حد ذاتها تجربة مغايرة لكل التجارب التي عرفها العرب والمسلمون.

لقد أطل القرن الخامس عشر للهجرة، ومضت معه زهاء تسعة قرون على موقعة الزلاقة، وقد تراكمت خلال هذه الحقبة التاريخية، مجموعة من الخبرات والتجارب الخاصة بالعرب والمسلمين قد تزيد على كل ما اكتسبته الأمم والشعوب من الخبرات والتجارب، ويقف المسلمون على مشارف القرن الجديد،

وهم أكثر تفاؤلاً بمستقبلهم، فعسى أن يكون لهم من تاريخهم مناراً وهادياً لرسم خطاهم على طريق المستقبل، مستقبل الأمة العربية ـ الإسلامية، ومستقبل الإنسان العربي المسلم.

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٤ ـ كلمة أخيرة

ويصل البحث إلى نهايته، ولا تنتهي قصة المعتمد، فهي أكبر من أن يحيط بها بحث، وأعظم من أن يشملها كتاب، غير أن هناك مجموعة من النقاط التي يستوجب البحث التعرض لها، بإيجاز:

أولها: أن (قصة المعتمد) هي قصة الصراعات التي مزقت العالم الإسلامي في كثير من الظروف، ومن هنا تكتسب هذه القصة أهمية مزدوجة، قصة المأساة في حد ذاتها، وقصة ما أعقبها من أحداث تعتبر استطالات للمأساة، وهي تشكل بذلك الدرس الأكثر أهمية في التجربة التاريخية.

وثانيها: أنه من المحال تشبيه التجربة التاريخية لأمير المؤمنين (يوسف بن تاشفين) بتلك التجربة التي تعرضت لها دولة العباسيين على أيدي الفرس أو الأتراك مثلاً، أو حتى بتجربة (الفاطميين) في مصر، فلكل من هذه التجارب حوافزها الخاصة، وظروفها المميزة. ولا ريب أن قضاء (المرابطين) على دولة بني عباد ودولة بني جهور كانت في وجه من وجوهها قضاء على العنصر العربي، الأمر الذي أضعف العرب في الأندلس، فكان في ذلك إضعاف للعرب المسلمين، ومن هنا تتأكد مرة أخرى خطورة الفصل بين ثنائية العرب المسلمين؛ إذ أن في هذا الفصل إضعاف للعرب المسلمين عموماً. فالعرب هم حملة الرسالة الإسلامية، وهم أصحاب لغتها، لغة القرآن الكريم، وهم أصحاب عصبيتها، ولا بد لهم من ممارسة دور القيادة والريادة حتى يعتز العرب والمسلمون. ومما لا شك فيه هو أن (ابن تاشفين) القائد المسلم المؤمن لم يكن يبغي يقيناً وهو يزيل (ملوك الطوائف) إضعاف المسلمين، بقدر ما كان يطمح لتوحيد قدراتهم وزيادة قوتهم، وقد تحقق له ذلك لمرحلة قصيرة، غير أن إضعاف الثقة بين العرب المسلمين وبين المسلمين من غير العرب كان أخطر بنتائجه البعيدة مما تم تحقيقه من مكاسب مؤقتة.

وثالثها: إن الاقتتال بين المسلمين، من عرب وغير عرب، ما كان إلا شؤماً

على المسلمين كلهم مصداقاً لقول الرسول الكريم في حجة الوداع: **(أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا... أيها الناس، إسمعوا قولي واعقلوه. تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة... فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ وستلقون ربكم، فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب)**[1]. ذلك هو المنهج الحق الذي وضعه الرسول الأعظم ﷺ لأمة المسلمين، وهو المنهج الذي جاءت التجربة التاريخية، المرة تلو المرة، لتؤكد صدقه وصلاحيته، لكل زمان ومكان، ما دام لأمة العرب وأمة المسلمين وجود على الأرض.

ورابعها: أنه من المحال الاعتماد على صدق النوايا، أو النزوع العاطفي، في تنسيق التعاون بين دول العرب المسلمين والمسلمين من غير العرب. فقضية البناء، للحاضر والمستقبل، لا تقوم إلا على أساس المصلحة العليا للمسلمين من عرب وغير عرب، وهذا لا يتناقض أبداً مع المصالح الخاصة التي تفرضها الظروف الإقليمية. ولقد كان تحرك (ابن تاشفين) للأندلس قائماً على المصلحة العليا للمسلمين، وكان القضاء على حكم ملوك الطوائف ضمن هذا الإطار ذاته، غير أن الطريقة التي نفذت بها جاءت بنتائج عكسية، لا سيما على المدى البعيد. ومن هنا تظهر الضرورة للتوفيق بين الأهداف والوسائل، على أسس بعيدة كل البعد عن النزوع العاطفي، وتتحقق فيها قدر المستطاع المصلحة المشتركة، وفقاً للمفهوم الحديث. **ولعل من قائل: وهل كان باستطاعة ابن تاشفين اكتساب قوة الأندلس من غير توحيدها تحت قيادة واحدة؟ ثم ألم يحاول المعتضد وابنه المعتمد من بعده إزالة (ملوك الطوائف) لدعم القدرة الذاتية للعرب المسلمين في الأندلس؟**.

مرة أخرى، لقد أكدت التجربة التاريخية للمعتمد وابن تاشفين بالذات، أن وحدة القيادة على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى العمليات القتالية، كما أكدته تجربة الزلاقة والتجارب الكثيرة التي حفل بها التاريخ الإسلامي، لا تعني أبداً زوال الإدارات الإقليمية أو القضاء عليها طالما أنها بقيت منطلقة في عملها

---

(١) فقه السيرة: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثامنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٤٣٩ ـ ٤٤١.

من وحدة الهدف، وهو الدفاع عن المسلمين وضمان أمنهم وتحقيق العزة لهم في أوطانهم. أما عند الاختلاف في الهدف، فإن ذلك يعني زوال الصفة الإسلامية عن الحكم، وتبعاً لهذا الاختلاف فستظهر هناك اختلافات أخرى تجعل من المحال التفكير في تنسيق الجهد أو تنظيم التعاون لأن ذلك لن يكون في مصلحة المسلمين، وهذا ما لم يكن متوافراً في حكم ابن عباد الذي أطلق مقولته التاريخية الشهيرة (**رعي الجمال خير من رعي الخنازير**). وتبقى الدروس المستخلصة أكبر من الحصر، وأكثر من التعداد والتبيان.

وبعد، تبقى كلمة: لقد ضم هذا البحث من الشعر قدراً يزيد كثيراً على ما تضمنته جميع الأبحاث السابقة في «مشاهير قادة الإسلام» ويعود السبب في ذلك إلى أن الشعر العربي ـ الأندلسي، هو الذي حفظ للمعتمد سيرته، وهو الذي أبرز مجموعة الأحداث وأرّخ لها، وهو الذي رفد الأدب العربي برافد ثرٍ خلده وأغناه، فمن البديهي أن يطغى الطابع الشعري على تلك التجربة التاريخية التي تعرض لها المعتمد و(بنو عباد).

وبعد، فهل كانت (سيرة ابن عباد) أكثر من ملحمة شعرية؟

وهل كانت قصص أفراد عائلته ـ في القراءات ـ أكثر من أناشيد غنائية باكية؟

وهل كانت التجربة التاريخية للمعتمد وابن تاشفين، في الزلاقة، إلا فيضاً شعرياً صاغت كلماته العاطفة الإسلامية الدافقة كالحزن، الهادرة كعباب البحر؟.

ليس الغريب بعد ذلك أن تكون قصة (المعتمد بن عباد) وسيرته، كلها لحناً شعرياً يتردد دائماً على شفة الزمان في كل وقت ومكان، بل إنه قد يبدو غريباً لو لم تكن كذلك.

وستبقى قصة (المعتمد بن عباد) نموذجاً، للإنسان المؤمن بربه، المخلص لدينه ويقينه، المستسلم للواحد القهار في سلمه وحربه، في أفراحه وأتراحه.

وستبقى قصة (المعتمد) رمزاً للإنسان العربي المسلم، في عزته وإبائه، في نخوته وشهامته، في رجولته وصموده. لقد عاش عظيماً، ومات عظيماً. عاش ملكاً، ومات ملكاً، وخلف في الدنيا كلمة ستبقى مرتبطة باسمه، وبذلك النصر الحاسم الذي عرفته الزلاقة: (رعي الإبل خيرٌ من رعي الخنازير).

قراءات

ثورة عبد الجبار بن المعتمد

أُخذ (بمالقة)[1] رجل كبير يعرف بابن خلف، فسجن مع أصحاب له، فنقبوا السجن، وذهبوا إلى حصن (منت ميور) ليلاً، فأخرجوا قائدها، ولم يضروه. وبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل، فسألوه، فإذا هو عبد الجبار بن المعتمد، فولوه على أنفسهم، وظن الناس أنه الراضي، فبقي في الحصن. ثم أقبل مركب من الغرب، يعرف بمركب (ابن الزرقاء) فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن، فأخذوا بنوده، وطبوله، وما فيه من طعام وعدة، فاتسعت بذلك حالتهم، ثم وصلت أم عبد الجبار إليه، ثم خاطبه أهل الجزيرة، وأهل (أركش) فدخلها سنة (٤٨٨هـ).

وعلم (المعتمد)، وهو في عدوة المغرب، بثورة ابنه (عبد الجبار) فخاف، لا على نفسه، وإنما على أهله، من حقد يوسف ابن تاشفين وبطشه، وجزع جزعاً شديداً، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول: عرض بي للمحن ورضي لي أن أمتحن، ووالله ما أبكي إلا انكشاف من أتخلفه بَعدي، ويتحفه بُعدي. ثم أطرق ورفع رأسه، وتشوف إلى السماء وتطلع، وما هي إلا لحظة، بمقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقله حائرة، حتى انفكت عقدة لسانه، فقال:

كذا يهلك السيف في جفنه ... إلى هَز كفيٍّ طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعتقلهُ ... ولم تروه من نجيعٍ يميني

(١) نفح الطيب ٤/ ٢١٧ ـ ٢٢٠ .ومالقة: مدينة برية بحرية، تقع على البحر الأبيض المتوسط، كانت قديماً تعرف باسم (رية) وتعني عند النصارى (سلطانة البلاد) ولها قلعة منيعة، تشتهر بأشجار اللوز والتين، أشاد العرب بوصف محاسنها. (المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف ١/ ٤٢٣، ٤٢٤).

كذا يمنع الطِّرْف عَلْكَ الشكيـ ـم مرتقباً غِرَّةً في كمين
كأن الفوارس فيه ليوثٌ تراعي فرائسها في عرين
ألا شرف يرحمُ المشرفيَّ مما به من شمات الوتين
ألا كرمٌ ينعش السمهري ويشفيه من كل داء دفين
ألا حَنةٌ لابن محنية شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمة تبوِّئه صدر كفء معين

ويعلم ابن تاشفين بأمر ثورة عبد الجبار، فيصدر أمره بثقاف المعتمد في الحديد، ويثقل القيد على المعتمد، فيقول مخاطباً الحديد:

قيدي، أما تعلمني مسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما

ويمضي (عبد الجبار) بثورته، ممتنعاً بحصن (أركش) المجاور لإشبيلية، وهو ظاهر على بسائط وبطاح، لا يمكن معه عيش، ولا يتمكن من منازلته جيش، حتى سار نحوه الأمير (سير بن أبي بكر) قائد المرابطين في الأندلس، مسرعاً إليه قبل أن يرتد طرف استقامته، فوجده وشره قد تشمر، وضره قد تنمر، وجمره متسعر، وأمره متوعر، فنزل عدوته، وحل للحزم حبوته، وتدارك داءه قبل إعضاله،ونازله وما أعد آلات نضاله، وانحشدت إليه الجيوش من كل قطر، وأفرغ من مسالكه كل قطر، فبقي محصوراً لا يشد إليه إلا سهم، ولا ينفذ عنه إلا نفس أو وهم، وامتسك شهوراً حتى عرضه أحد الرماة بسهم فرماه، فأصماه، فهوى في مطلعه، وخر قتيلاً في موضعه، فدفن إلى جانب سريره، وأمنَ عاقبة تغريره، وبقي أهله ممتنعين مع طائفة من وزرائه، حتى اشتد عليهم الحصر، وارتد عنهم النصر، وعمهم الجوع، وأغب أجفانهم الهجوع، فنزلت منهم طائفة متهافتة، وولت بأنفاس خافتة، فتبعهم من بقي، ورغب في التنعم من شقي، فوصلوا إلى قبضة الملمات، وحصلوا في غصة الممات، فوسمهم الحيف، وتقسمهم السيف، ولما زأر الشبل خيفت سَوْرة الأسد، ولم يرج صلاح الكل والبعض قد فسد، فاعتقل (المعتمد) خلال تلك الحال وأثناءها، وأحل ساعة الخطوب وفناءها، وحين أركبوه أساوداً وأورثوه حزناً بات له معاوداً، قال المعتمد:

غنتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان

قد كان كالثعبان رمحك في الورى فغدا عليك القيد كالثعبان
مترمداً يحميك كل تمرد متعطفاً لا رحمة للعاني

ولما فقد (المعتمد) من يجالسه، وبَعُدَ عنه كل من كان يؤانسه، وتمادى كربه، قال:

تؤمل للنفس الشجية فرجة
وتأبى الخطوب السودُ إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها
كذا صحبت قبلي الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ
وبعدهما نسخُ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الثقاف ـ القيود ـ مدته، واشتدت عليه قسوة الكبَل وشدته، وأقلقته همومه، وأطبقت غمومه، وتوالت عليه الشجون، قال:

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا
بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة
وأغرق الدمع آماقاً وأحداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها
وقيل: إن عليكَ القيد قد ضاقا
قلت الخطوب أذلتني (طوارقها)
وكان غربي إلى الأعداء طراقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة
إذا انبرت لذوي الأخطار أرماقا

فهرس الخرائط

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني: المظفر قطز ومعركة عين جالوت

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث: الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع: الحاجب المنصور
(٣٢٦ ـ ٣٩٢هـ/٩٣٨ ـ ١٠٠٢م)

الموضوع | الصفحة

الباب الخامس: المُعتَمِد وَابْن تَاشفِيْن

الموضوع	الصفحة

مشاهير قادة الإسلام

• الكتاب الأول: قادة فتح بلاد الشام والعراق

- أبو عبيدة بن الجراح
- خالد بن الوليد
- سعد ابن أبي وقاص
- معاوية بن أبي سفيان
- قتيبة بن مسلم

• الكتاب الثاني: قادة فتح مصر والمغرب

- عمرو بن العاص
- عقبة بن نافع
- موسى بن نصير
- عبد الرحمن الداخل
- عبد الرحمن الناصر

• الكتاب الثالث: قادة الحروب الصليبية (المسلمون)

- صلاح الدين الأيوبي
- المظفر قطز
- الظاهر بيبرس
- الحاجب المنصور
- المعتمد وابن تاشفين

رقم: 557 - 12



يشمل هذا المجلد دراسة شخصيات القادة:

صلاح الدين الأيوبي - المظفر قطز - الظاهر بيبرس - الحاجب المنصور - المعتمد وابن تاشفين. وتهدف دراسة شخصيات هؤلاء القادة إلى الآتي:

- إعطاء فكرة عامة عن الشخصية موضوع الدراسة بلغة سهلة، وأسلوب شائق، يجعل القارئ يعيش معها ويتابعها في أعمالها.

- الانطلاق من دراسة الماضي بعظمته إلى المستقبل المنشود، بالتوفيق بين فنِّ الحرب في عهد وسائل القتال البدائية، وفنِّ الحرب في عصر الوسائط المتقدِّمة (ضمن إطار الحرب التقليدية).

- برمجة الأحداث التاريخية بأسلوب يتلاءم مع روح العصر، ثم تحليلها والخروج منها بالعبر والعظات، وهو ما يسمى بالتعبير العسكري بـ «الدروس المستفادة».

- إبراز التكامل والتطور في عقيدة القتال عند العرب المسلمين من خلال منجزات قادتهم، والبرهنة على قدرة هذه العقيدة على تكوين قاعدة سياسية واستراتيجية تتوافق مع متطلبات العصر، ومع طبيعة التحديات مهما كان مصدرها أو شكلها أو زمانها.

- إبراز التفاعل بين عقيدة القتال عند العرب المسلمين، وبين مجموعة الظروف التي أحاطت بكل منهم في الإطارين الزماني والمكاني، ما يبرهن على دورهم الكبير في فن الحرب.

والقائم بهذه الدراسات مؤرخ، وكاتب عسكري، غني عن التعريف، فقد صدر له عشرات الكتب، ومئات المقالات والدراسات في مختلف الصحف والمجلات، واشتهر بتحليله الدقيق، ونظرته الاستراتيجية العميقة، وأسلوبه السهل الممتنع.

الناشر


ISBN 978-9953-18-487-6